

الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس

"عصر المرابطين والموحدين"

الدكتور

حسن علي حسن

كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الطبعة الأولى

١٩٨٠

الناشر

مكتبة الخانجي بمصر

الدكتور
حسن علي حسن
كلية دار العلوم - جامعة القاهرة

الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس
"عصر المرابطين والموحدين"

الطبعة الأولى

١٩٨٠

الناشر
مكتبة الخانجي بمصر

الدكتور حسن على حسن
كلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الحضـــارة الاسلامية
فى المغرب والأندلس
عصر المرابطين والموحدين

الحمد لله

فاتحة كل خير

وتمام كل نعمة

محتويات الكتاب

صفحة

مقدمة :	١
التمهيد	٣
الباب الأول : السلطة والإدارة	١٧
الفصل الأول : التطور السياسى بالمغرب الأقصى من منتصف القرن الخامس الهجرى إلى نهاية السادس الهجرى	١٨
— عبد الله بن ياسين	٢٠
— يوسف بن تاشفين	٢٦
— على بن يوسف بن تاشفين	٣٢
— تاشفين بن على	٤١
— عوامل سقوط دولة المرابطين	٤٣
— جهود عبد المؤمن العسكرية	٤٤
— يوسف بن عبد المؤمن	٤٦
— المنصور الموحدى	٤٧
— الناصر الموحدى...	٤٩
الفصل الثانى : السلطة العليا فى البلاد	٥٢
أ — الخلافة	٥٢
(١) المرابطون والخلافة	٥٣
(٢) الموحدون والخلافة	٥٥
(٣) طريقة تولية يوسف بن تاشفين الحكم	٥٧
(٤) طريقة تولية عبد المؤمن بن على الحكم	٦٢
(٥) طريقة تولية أمراء المرابطين الحكم	٦٨
(٦) طريقة تولية خلفاء الموحدين الحكم	٧٠
(٧) اختصاصات ولاة الأمر	٧٦
(٨) ألقاب ولاة الأمر	٧٨

صفحة

(٩) نائب حاكم المغرب الأقصى ٨١
ب ــ ولاية العهد ٨٤
(١) طريقة تولية العهد ٨٥
(٢) اعداد ولى العهد لتحمل مسئولية الحكم ٨٨
(٣) اسقاط ولاية العهد ٨٨
جـ ــ الوزارة ٩٣
(١) المرحلة الأولى وتشمل عهد المرابطين ٩٣
(٢) المرحلة الثانية وتشمل عهد الموحدين ٩٥
(٣) اختصاصات الوزراء ١٠١
(٤) نكبة بعض الوزراء ١٠٧
د ــ الكتابة ١١٣
(١) الكتّاب... ... ... ١١٣
(٢) ثقافة الكتّاب ١١٧
(٣) اختصاصات الكتّاب ١١٧
هـ ــ الحجابة ١٢٢
الفصل الثالث : النظام الإدارى ١٢٥
١ ــ أمراء الأقاليم ١٢٥
أ ــ سياسة اختيار الولاة ١٢٨
ب ــ مؤهلات الولاة ١٣٣
جـ ــ طريقة تعيين الولاة... ... ... ١٣٤
د ــ سلطة الولاة ١٣٧
هـ ــ سياسة نقل الولاة ومعاقبتهم ١٤١
٢ ــ الدواوين ١٤٥
٣ ــ البريد ١٤٩
٤ ــ الشرطة ١٥٣

صفحة

الفصل الرابع : التنظيم القضائى ١٥٦

أ ـ القضاء ١٥٦

١ ـ أنواع القضاة ١٥٩

(٢) صفات القضاة ١٦٠

(٣) تعيين القضاة ١٦٢

(٤) طريقة التقاضى ١٦٣

(٥) اختصاصات القاضى ١٦٥

(٦) نقل القضاة وعزلهم ١٦٨

ب ـ المظالم ١٧٢

طريقة التقاضى أمام والى المظالم واختصاصه ١٧٥

جـ ـ الحسبة ١٧٦

الباب الثانى : الحياة الإقتصادية ١٨١

الفصل الأول : النظام المالى ١٨٤

أولا : الإدارة المالية ١٨٤

(١) الدواوين المالية ١٨٤

(٢) المشتغلون بالشئون المالية ١٨٦

(٣) موعد جمع الأموال ١٨٩

(٤) المناطق المالية ١٩٠

(٥) مراقبة ولاة الأمر للإدارة المالية ١٩١

ثانياً : السياسة المالية ومصادر بيت المال ١٩٤

أ ـ السياسة المالية ١٩٤

ب ـ مصادر الدخل المالى ١٩٥

١ ـ الخراج ١٩٥

٢ ـ الزكاة ١٩٨

٣ ـ الجزية والضرائب... ... ... ١٩٩

٤ ـ الغنيمة ٢٠٣

صفحة

٥ ـ المصادرات ٢٠٦

وفرة الدخل المالى ٢٠٧

ثالثاً : النفقات وتنوعها ٢٠٩

(١) نفقات الجيش ٢٠٩

(٢) المرتبات... ... ... ٢١٥

(٣) نفقات البناء والتعمير ٢١٨

(٤) نفقات متنوعة ٢٢٠

رابعاً : السكة ٢٢٥

أنواع السكة ووزنها ٢٢٦

خامساً : المكاييل والموازين ٢٣٠

الفصل الثانى : الزراعة والصناعة ٢٣٢

أ ـ الزراعة ٢٣٢

(١) عوامل إزدهار الزراعة ٢٣٢

(٢) المحاصيل الزراعية ٢٣٩

(٣) الفواكه ٢٤٤

(٤) الغابات ٢٤٨

(٥) الثروة الحيوانية ٢٤٩

(٦) الثروة السمكية ٢٥٣

(٧) أزمات اقتصادية ٢٥٤

ب ـ الصناعة ٢٥٧

عوامل إزدهار الصناعة ٢٥٨

المراكز الصناعية ٢٦٢

الفصل الثالث : التجارة الداخلية والخارجية ٢٦٦

أ ـ التجارة الداخلية ٢٦٦

(١) الطرق التجارية ٢٦٨

(٢) المراكز التجارية ٢٦٩

(٣) الأسواق ٢٧٣

صفحة

ب ــ التجارة الخارجية ٢٧٥
(١) الطرق التجارية ٢٧٦
(٢) الموانى التجارية ٢٧٨
(٣) الصادرات والواردات ٢٧٩
(٤) العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى وجنوب
الصحراء ٢٨١
(٥) العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى والأندلس ٢٨٤
(٦) العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى وأوربا ٢٨٧
(٧) علاقات المغرب الأقصى بالمشرق ٢٨٨
الباب الثالث : الحياة الاجتماعية ٢٩١
الفصل الأول : عناصر تكوين المجتمع ٢٩٢
ا ــ البربر ٢٩٢
(١) البتر والبرانس ٢٩٣
(٢) قبائل صنهاجة ٢٩٤
(٣) المصامدة ٢٩٩
ب ــ العرب ٣٠٦
(١) العرب الهلالية فى عهد المرابطين ٣٠٨
(٢) العرب الهلالية فى عهد الموحدين ٣٠٩
(٣) آثار العرب الهلاليين فى المجتمع المغربى ٣١٦
جـ ــ أجناس أخرى ٣٢٢
(١) السودانيون ٣٢٢
(٢) الروم والصقالبة ٣٢٣
(٣) الغز ٣٢٥
عدد السكان ٣٢٦

صفحة

الفصل الثانى : طبقات المجتمع وطوائفه ٣٢٩
١ ــ الطبقة الحاكمة ٣٢٩
طبقة الطلبة ٣٣١
٢ ــ طبقة الفقهاء والعلماء ٣٣٦
الفقهاء والعلماء فى الدولة المرابطية ٣٣٦
الفقهاء والعلماء فى دولة الموحدين ٣٣٨
المستوى المادى للفقهاء والعلماء ٣٤٠
طبقة القضاة ٣٤٢
٣ ــ أصحاب المهن ٣٤٣
(١) التجار ٣٤٣
(٢) الصناع ٣٤٧
(٣) أصحاب مهن متنوعة ٣٤٩
٤ ــ المرأة ٣٥٢
المرأة فى الدولة المرابطية ٣٥٢
المرأة فى عهد الموحدين ٣٥٥
ثقافة المرأة ٣٥٧
نفوذ المرأة ٣٥٨
بعض الأعمال التى اشتغلت بها المرأة ٣٦٢
٥ ــ أهل الذمة ٣٦٣
أهل الذمة فى عهد المرابطين ٣٦٤
أهل الذمة فى عهد الموحدين ٣٦٨
الفصل الثالث : البناء والتعمير ٣٧٢
ــ طابع البناء ٣٧٤
ــ المدن ٣٧٨
ــ مدينة مراكش ٣٧٨

صفحة

- مدينة تاقررت أو تلمسان الحديثة ٣٨٣
- مدينة تاودا ، مدينة القصر ٣٨٣
- مدينة رباط الفتح ٣٨٤
ز - نظام المدن ٣٨٥
- المنازل والقصور ٣٨٨
- منشآت عسكرية ٣٩٢
- الحصون والقلاع ٣٩٢
- الأسوار ٣٩٤
- منشآت عامة ٣٩٦
- المساجد ٣٩٦
- المدارس ٤٠٠
- المستشفيات ٤٠١
- الحمامات ٤٠٢
- الفنادق ٤٠٣
- القناطر ٤٠٤
الفصل الرابع : العادات والتقاليد ٤٠٦
أولاً : الأسرة ٤٠٦
ثانياً : الصحة ٤٠٩
- وسائل العلاج ٤١١
ثالثاً : المجالس ٤١٤
- مجالس الخلفاء ٤١٤
- مجالس وعظ ٤١٧
- مجالس عامة ٤١٧
رابعاً : الإحتفالات ٤١٨
- الاحتفالات الدينية ٤١٨

صفحة

- احتفالات عسكرية ٤٢١
- احتفالات متنوعة ٤٢٥

خامساً : وسائل التسلية ٤٢٨

- المتنزهات ٤٢٨
- الموسيقى والغناء ٤٣٠
- وسائل تسلية أخرى ٤٣٢

سادساً : الطعام والشراب ٤٣٢

سابعاً : الملابس ٤٣٧

- الفصل الخامس : الحياة الفكرية ٤٤٣

- عوامل ازدهار الحركة الفكرية ٤٤٣
- المراكز الفكرية ٤٤٧

أولا : الحياة الدينية ٤٤٩

- الدعوة المرابطية ٤٤٩
- إحراق كتب الإمام الغزالى ٤٥٠
- الدعوة الموحدية ٤٥٣
- معارك كلامية ٤٥٨
- تطور الدعوة الموحدية ٤٦٠
- مذهب الإمام مالك ٤٦٣
- المذهب المالكى فى الدولة المرابطية ٤٦٤
- المذهب المالكى فى الدولة الموحدية ٤٦٥
- التطبيق العملى لأحكام الدين ٤٦٨
- المرابطون ونشر الإسلام ٤٧٣
- المتصوفون بالمغرب ٤٧٦
- الغيبيات والتبرك فى التفكير المغربى ٤٧٩
- العلوم الدينية والمؤلفات فيها ٤٨٣

علم التفسير ٤٨٣

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمة

نالت الدراسات المغربيـــة إهتمام وعناية كثير من الباحثين العرب فى الفترة الأخيرة ، فوجهوا إهتمامهم لدراسة المغرب وكشف أوجه القوة والعظمة فى تاريخه الحافل بالأحداث والأعمال العظيمة .

وحرصوا فى بحثهم على دراسة التاريخ السياسى للمنطقة من قيام دولة وسقوطها ، ولقد شاركت غيرى من الباحثين فى ذلك الميدان حين قمت بدراسة قيام دولة الأدراسة بالمغرب الأقصى وهى أول دولة إسلامية تأسست بهذه المنطقة .

بيد أن دراسة أوجه الحياة المختلفة بالمغرب من إدارة وإقتصاد واجتماع لم تنل عناية الباحثين ، ولعل مرجع ذلك عدم إهتمام المؤرخين القدامى بدراسة ظواهر المجتمع المختلفة ، وترتب على ذلك قلة المادة العلمية المدونة فى هذا الميدان ، فضلا عن الصعوبة والمشقة التى يجدها الباحث فى دراسة الموضوعات المتعلقة بالحضارة .

فى أثناء دراستى لتاريخ المغرب الأقصى الإسلامى ، لاحظت أن المنطقة أعلنت إنفصالها المبكر عن الخلافة الأموية سنة ١٢٢ هـ ، ثم تأسست على أرضها دولة الأدراسة والتى لم تعمر كثيراً ، نتيجة ضعف حكامها ، ومن ثم صارت المنطقة تخضع لغيرها فتارة تخضع للفاطميين وتارة تخضع للأمويين بالأندلس ، وأصاب الضعف والتفكك نواحى الحياة المختلفة .

حتى إذا ما حل منتصف القرن الخامس الهجرى ، تبدلت الأوضاع بالبلاد ، وبعد أن كانت إمارات متفرقة أصبحت دولة وطيدة الأركان ، شامخة البنيان يتولى مقـاليد الأمور فيها المرابطون ، الذين وحدوا المنطقة فى ظل حكومة مركزية واحدة ، تبسط نفوذها على أرجاء البلاد ؛ بل ويمتد النفوذ حتى يسيطر على إقليم الأندلس .

وعلى أنقاض المرابطين قام حكام جدد : هم الموحدون يواصلون مسيرة التقدم التى شهدتها البلاد ويبسطون نفوذهم حتى إفريقية ، وأصبح فى الجناح الغربى للدولة الإسلامية ، دولة عزيزة الجانب مسموعة الكلمة . لها وزنها وتأثيرها فى مجريات الأحداث بغرب البحر المتوسط .

ولا شك أن هذا التفوق السياسى والعسكرى الذى شهدته البلاد منذ منتصف القرن الخامس الهجرى إرتكز على حضارة إسلامية استمدت مقوماتها ونجاحها من الإدارة القوية الواعية والاقتصاد المتين والشعب المتجانس المتحد الآخذ بأسباب التقدم والرقى .

ومن هنا كان موضوع الكتاب : الحضارة الإسلامية فى المغرب والأندلس : عصر المرابطين والموحدين . والكتاب من حيث واقع الأحداث ينقسم إلى فترتين متميزتين لكل منها خصائصها وسماتها ؛ أما الفترة الأولى فتمتد من أواخر القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن الخامس الهجرى وتتميز بالتفكك والضعف إذ أن المنطقة كانت تتوزعها إمارات متناحرة يسودها النزاع والتخاصم ومن ثم لم تجن البلاد سوى التأخر والإنحلال ، والفترة الثانية تمتد منذ قيام دولة المرابطين وحتى هزيمة العقاب بالأندلس سنة ٦١٠ هـ وتعتبر من أزهى فترات تاريخ المغرب الإسلامى بل العصر الذهبى للمنطقة .

ولقد حرصت على أن أقيم مادة الكتاب على المراجع الأصيلة على تعددها وتنوعها بين المخطوط والمطبوع فضلا عن المراجع الأجنبية .

وفى هذا المقام ، يطيب لى أن أتقدم بجزيل شكرى وعظيم إمتنانى إلى أساتذتى بقسم التاريخ الإسلامى بكلية دار العلوم ، فمن علمهم نهلت ومن توجيهاتهم استفدت فجزاهم الله عنى خير الجزاء .

وختاماً . . أرجو الله أن أكون قد وفقت فيما قمت به ؛ وأن يقبل الله منى هذا العمل ، وأن أكون قد شاركت ولو بقدر ضئيل فى كشف جوانب هذه الفترة من تاريخ أمتنا ، فان كان ذلك فهو حسبى ، وإلا فما زلت سائراً على الطريق آمل الخير وأنشد التوفيق والله المستعان .

القاهرة ١٩٨٠ دكتور : حسن على حسن

تمهيد

شهد المغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس من الهجره فترة مزدهرة ، حتى أصبحت هذه الفترة بحق تعد من أخصب فترات حياته فى العصور الوسطى ، حيث نشأت على أرضه أضخم دولتين عرفتهما هذه المنطقة خلال تاريخه الوسيط وهما دولتا المرابطين والموحدين ، فى ظلال هاتين الدولتين برزت شخصية المغرب الأقصى كدولة مستقلة ، قامت على أكتاف أبنائها ، باسطة نفوذها على مناطق شاسعة من الشمال الإفريقى فضلا عن الأندلس ، ومشاركة غيرها فى إرساء قواعد الحضارة الإسلامية فى غرب الدولة الإسلامية الكبرى ، بما قدمته من نظم محكمة فى الحياة الإدارية وإزدهار فى حياتها الإقتصادية ، وما صاحب ذلك من كثرة فى البناء والتشييد فضلا عن تيار الثقافة المتدفق بما فيه من آراء ومؤلفات وعلماء ، والذى أضاف إلى الفكر الإسلامى الكثير من الآراء والنظريات .

موقع المغرب لأقصى :

وكان لموقع المغرب الأقصى أثره فى الأحداث التى مرت بها البلاد ، حيث تمتعت المنطقة بموقع ممتاز ، جعلها تتفوق على سائر أقسام المغرب الأخرى من حيث مجريات الأحداث والتطورات التاريخية ، فالمغرب الأقصى يقع فى الركن الشمالى الغربى من القارة الإفريقية ، يحده شرقاً وادى ملويه وجبال تازا وغرباً المحيط الأطلسى وشمالا بحر الروم وجنوباً جبال درن(١) ، وهذا الموقع جعله على صلة بثلاث مناطق :

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٢ ص١٠١ المطبعة الأميرية سنة ١٢٨٤ هـ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٥٢ طبعة وزارة الثقافة سنة ١٩٦٣ م .

أولا : هو إمتداد لإقليمى المغرب الأدنى والأوسط ، أى أنه منطقة أطراف إذ يمثل النهاية القصوى لهذه الوحدة الجغرافية المسماة بالمغرب حيث يطل على البحر المحيط(١).

ثانياً : إتصاله بمنطقة الأندلس إذا لا يفصل بين القطرين (المغرب الأقصى والأندلس) سوى مسافة لا تتجاوز خمسة عشر كيلو متراً فى بعض نواحيها ، وبذلك كان المضيق الذى يفصل بينهما له أهمية كبيرة ، وقد تفاوت الإتصال بين المغرب الأقصى والأندلس حتى أواخر القرن الخامس الهجرى إذ بعد إنتصار الزلاقة فى سنة ٤٧٩ هـ/ ١٠٨٧ م ، أصبح الأندلس إقليما تابعاً للمغرب الأقصى ، يشارك فى الأحداث التى تمر بها المنطقة ، وما صاحب ذلك من تأثير واضح فى شتى نواحى الحياة بالمغرب الأقصى ، وفى نفس الوقت تأثر الأندلس بما دار على أرض المغرب الأقصى .

ثالثاً : إتصاله بمنطقة الصحراء فى جنوبه ، وقد بلغت قمة الإتصال ذروتها عند تدفق المرابطين من الصحراء صوب المغرب الأقصى ليغيروا من الأوضاع القائمة ، ويؤسسوا دولة المرابطين التى جمعت سكان المغرب الأقصى فى ظل سلطة موحدة .

ومن هذا يتضح أهمية الموقع وتأثيره فى مجريات الأمور . وبجانب ذلك كان هذا الموقع حافزاً على ذلك الإستقلال المبكر الذى حققه المغرب الأقصى عن سلطة الخلافة الأموية وإنفصاله عنها بعد ثورة ميسرة المدغرى سنة١٢٢هـ/ ٧٣٩ م ، وبذلك كان أول أقاليم المغرب إنفصالا عن السلطة الأموية ، ساعده فى ذلك هذا الموقع المتطرف ، ثم كان لهذا الموقع المتطرف أيضاً أثر واضح فى توجه الإمام إدريس بن عبد الله إليه بعد فراره من فخ سنة ١٦٩ هـ / ٧٨٥ م وتأسيسه لدولة الأدارسة بعيداً عن متناول أيدى الخلافة

---

(١) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٧ النهضــــة سنة ٥٧

العباسية ، وساعده الموقع على تأسيس دولة إسلامية لعبت دورها فى تاريخ المنطقة .

غير أن الاضمحلال الذى أصاب دولة الأدارسة وخاصة بعد مجىء مصالة بن حبوس المكناسى قائد جيوش أبى عبد الله الشيعى إلى أرض المغرب الأقصى سنة ٣٠٥ هـ / ٩١٧ م[1] جعل المنطقة تمر بفترة حالكة فى تاريخها إذ أصبحت المنطقة لا تملك من أمرها شيئاً وإنما تخضع لغيرها فتارة تدعو على منابرهـا للفاطميين بالمغـرب ، وتارة تدعو على منابرها لحكام الأندلس يضاف إلى ذلك تلك المنازعات القبلية والحروب الطاحنة ، والتى استمرت حتى مجىء المرابطين . وقد أثرت هذه الحروب فى أوضاع المنطقة وجعلتها لا تنعم بالاستقرار ذلك الاستقرار الذى شهدته فى عهد الأدارسة من قبل ، ودبت الفوضى فى أرجاء المنطقة ، ونتج عن هـذا كله ، أنه لم تقم دولة واضحة المعالم فى هذه الفترة التى تمتد من أوائل القرن الرابع الهجرى حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ومن ثم فاننى سوف أرسم صورة عامة للفترة الأخيرة من ذلك الانهيار الذى شهدته البلاد ، والتى هى إمتداد لفترة الضعف السابقة ، وتبدأ منذ أواخر القرن الرابع الهجرى وحتى منتصف القرن الخامس حين ظهرت طلائع المرابطين على مسرح الأحداث بالمنطقة وحتى تتضح معالم الصورة لابد من إلقاء الضوء على الوضع السياسى للمنطقة فى أواخر القرن الرابع الهجرى ، لنلمس مدى التفكك الذى ساد البلاد .

فالمنطقة قد توزعتها القبائل المختلفة والأسر المتناحرة ، كل قبيلة تسيطر على مدينة أو أكثر ، تفرض عليها سلطانها ، ومشتبكة مع غيرها فى صراع حول السلطة ، فضلا عن أن بعض رؤساء هذه القبائل كانوا يخضعون بالتبعية للدولة الأموية ، ويقدمون لها فروض الولاء والطاعة .

وكانت الخريطة السياسية للمغرب الأقصى تشمل ما يأتى :

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس ، جـ ١ ص ١١٥ ، ١١٦ تعليق محمـد الهاشمى الفيلالى ، الرباط ، سـنة ١٩٣٦ م ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ١٦ البكرى : كتاب المغرب ص ١٦٥ ط ٢ باريس سنة ١٩١١

(١) منطقة فاس وما حولها وهى خاضعة لأمراء مغراوة .

(٢) منطقة سلا وتادلا وكانت تخضع لبنى يفرن .

(٣) فى الجنوب منطقة سجلماسة ودرعة وكانت تخضع لبنى خزرون[١]

(٤) وفى سهول تامسنا كانت إمارة برغواطة .

وفى لمحة سريعة عن الأوضاع السياسية لكل منطقة من المناطق الأربعة نلمس مدى التفكك والضعف الذى ساد البلاد فمنطقة فاس وما حولها كانت تخضع لأمراء مغراوة وأول من حكمهم من مغراوة هو زيرى بن عطية الذى دخلها سنة ٣٧٧ هـ / ٩٨٧ م واستوطنها وجعلها قاعدة إمارته[٢] ولم يكن تملكه لفاس وما حولها إستقلالا بنفسه وإنما كان يخضع للدولة الأموية حيث كان يخطب لهشام المؤيد وحاجبه المنصور بن أبى عامر[٣] ثم نشب صراع بين زيرى بن عطية ويدو بن يعلى أمير بنى يفرن دارت خلاله الكثير من المعارك وانتهت بمقتل يدو بن يعلى سنة ٣٨٣ هـ/ ٩٩٣ م[٤] ثم دخل زيرى بعد ذلك فى صراع مع جيوش الأمويين وذلك حين أعلن انتقاصه للمنصور ، الذى غضب من زيرى وعاقبه بأن منع عنه المرتب السنوى الذى كان يدفعه له مما أدى إلى توتر الموقف ونشوب القتال بينهما فى معارك متلاحقة انتهت بوفاة زيرى متأثراً بجراحه سنة ٣٩١ هـ / ١٠٠٠ م[٥] وهكذا استمر زيرى طيلة أربعة عشر عاماً فى معارك متصلة تارة ضد بنى يفرن ، وتارة ضد بنى أمية . فلما تولى ابنه المعز حاول إصلاح العلاقة بينه وبين المظفربن المنصور

---

(١) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٧٦ ، د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية ، ص ١٢ ، ط ١ سنة ٦٤ دار المعرفة .

(٢) ابن ابى زرع : الانيس جـ ١ ص ١٥٦ ، ١٥٧ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ١٩٢ الدار البيضاء سنة ١٩٥٤

(٣) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، كنون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٢٨ ط ١ سنة ١٩٤٤ تطوان .

(٤) ابن ابى زرع : الانيس جـ ١ ص ١٦٢ ، ١٦٣ ، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ١٩٣

(٥) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٣ ط ١ سنة ١٩٦٥ م الدار البيضاء .

ابن أبي عامر، تلك العلاقة التي فسدت خلال حكم والده زيرى وقد نجح في ذلك وتعهد بدفع أموال ومعدات للمظفر(١) وبذلك عادت إمارة فاس لتبعية حكام الأندلس مرة أخرى، يقول ابن أبي زرع «فعزل المظفر واضحاً عن فاس وسائر بلاد المغرب وصرفه إلى الأندلس وكتب إلى المعز بن زيرى ابن عطية بعهده على مدينة فاس وسائر أعمال المغرب مدنه وبواديه، وذلك في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة، وشرط المعز أن يعطيه في كل سنة خيلا ودرقاً ومالا معلوماً يوصله إلى قرطبة، وأعطاه المعز مع ذلك ولده معنصر رهينة»(٢)، فلما مات المعز سنة ٤١٦ هـ / ١٠٢٥ م تولى خلفاً له ابن عمه حمامة بن المعز، الذي دخل في صراع مع أمير بني يفرن في ذلك الوقت أبو الكمال تميم سنة ٤٢٤هـ / ١٠٣٢ م ونتج عن ذلك فرار حمامة ومقتل الكثير من المغراويين(٣) إلا أن الأمير حمامة عاود الكرة بعد ذلك واسترد مدينة فاس في سنة ٤٢٩ هـ / ١٠٣٧ م وفي رواية أخرى سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩م(٤) ولم يستقم له الأمر إذ دخل في صراع مع حماد الصنهاجي صاحب القلعة وانتهى بالمهادنة ووفاة حمامة سنة ٤٣١ هـ / ١٠٣٩ م(٥) وتولى خلفاً له ابنه دوناس الذي كان عهده مشحوناً بالاضطرابات والصراع مع حماد الصنهاجي وتوفى سنة ٤٥١ هـ/ ١٠٥٩م(٦)، وتولى خلفاً له ابنه الفتوح بن دوناس واستمر حكمه خمس سنوات بلغت فيها الفوضى والاضطرابات ذروتها إذ شهدت مدينة فاس الصراع بينه وبين أخيه عجيسة وكثر القتل بين الفريقين، واستمرت الحروب ثلاث سنوات، انتهت بمقتل عجيسة وقد صور هذه الاضطرابات

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ١٦٠، الكتاني الدار البيضاء سنة ١٩٦٤، السلاوي : الاستقصا جـ ١ ص ١٩٩

(٢) ابن أبي زرع : الانيس جـ ١ ص ١٦٩ ت الفيلالي .

(٣) السلاوي : الاستقصا جـ ١ ص ٢٠٢، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١٤ الدار القومية سنة ١٩٦٦، ابن أبي زرع: الانيس جـ ١ ص ١٧٠ ت الفيلالي .

(٤) ابن أبي زرع : الانيس : جـ ١ ص ١٧٢ ت الفيلالي .

(٥) الميلي : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ١٨١ للجزائر سنة ١٣٥٠ هـ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٤

(٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٤، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١٥ .

ابن أبي زرع بقوله « فكانا — أى الفتوح وعجيسة — لا يزالان يقتتلان ليلا ونهاراً فكثر الخوف فى أيامهم بالمغرب وغلت الأسعار واشتدت المجاعة وعظم الهرج ، وقويت الفتنة فى جميع نواحى المغرب وظهرت لمتونة على أطراف البلاد ، ليس لأهل المدينة شغل إلا القتال آناء الليل وأطراف النهار إلى أن ظفر الفتوح بأخيه عجيسة فقتله . . وكانت مدة إقامة الفتوح يحارب أخاه عجيسة ثلاث سنين متوالية إلى أن دخل عليه عدوة القرويين ليلا بالغـدر فقتله وملك العدوتين »(١) ثم تولى خلفاً للفتوح معنصر بن حماد من سنة ٤٥٥ هـ / ١٠٦٣ م إلى سنة ٤٦٠ هـ / ١٠٦٧ م قضاها فى صراع ضد المرابطين(٢) ثم خلفه ابنه تميم الذى استمر يحارب المرابطين طيلة سنتين حتى تم فتح مدينة فاس على يد يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩ م وقتل تميم فيمن قتل من أبناء مغراوة(٣) وكان عدد من قتل فى هذه المعارك من أبناء زناتة ما يزيد على عشرين ألفاً(٤) ، وهكذا شهدت مدينة فاس عاصمة المغرب الأقصى فى عهد الأدارسة وأهم مدن المنطقة وما حولها صراعاً مريراً ومعارك مستمرة طيلة خمسة وثمانين عاماً منذ تولى السلطة فيها زيرى بن عطية وبنوه حتى استيلاء المرابطين عليها :

أما المنطقة الثانية فكانت تخضع لبنى يفرن والذين كانت مواطنهم الأصلية بافريقية وما بين تلمسان وتاهرت(٥) فقد أقاموا بمدينة سلا وشالة وما حولها وقد سبق أن أشرت كيف أنهم دخلوا فى صراع مستمر مع أبناء عمومتهم من أمراء مغراوة ، فتارة يستولون على فاس ويتأخر عنها أمراء مغراوة وتارة يطردون منها ويعودون إلى مواطنهم(٦) وكان آخر أمرائهم محمد بن

---

(١) ابن ابي زرع : الأنيس جـ ١ ص ١٧٣ ، ١٧٤ ت الفيلالى .

(٢) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٧٥ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ٢٠٦

(٣) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

(٤) ابن الخطيب : اعمال الاعـلام القسم الثـالث ص ١٦٣ ت د. العبادى .

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٠

(٦) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ١٦٤ ، ١٦٥ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ، ص ٩٧ الدار البيضاء ، كنون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٣٠ ط ١ سنة ١٩٤٤ تطوان .

تميم بن زيرى الذى تولى سنة ٤٤٨ ﻫ / ١٠٥٦ م إمارة بنى يفرن حتى مقتله على أيدى المرابطين سنة ٤٦٢ ﻫ / ١٠٦٩ م(١) .

والمنطقة الثالثة وكانت تشمل سجلماسة ودرعة وقد تولى الحكم فيها بنو خزرون منذ سنة ٣٦٦ ﻫ / ٩٧٦ م واستمر حكمهم لها حتى مجيء المرابطين فى سنة ٤٧٧ ﻫ / ١٠٥٥م حين استدعى فقهاء سجلماسة ودرعة ابن ياسين ومن معه من المرابطين لتخليصها مما هى فيه من مساوىء حكم الأمير مسعود بن وانودين الزناتى المغراوى ، يقول ابن أبى زرع « فلما كان فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة اجتمع فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحاؤهم فكتبوا إلى الفقية عبد الله بن ياسين والى الأمير يحيي بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هى فيه من منكرات وشدة العسف والجور ، وعرفوهم بما هم فيه أى أهل العلم والدين من الذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتى المغراوى »(٢) وكانت استجابة المرابطين وبذلك قضوا على إمارة بنى خزرون فى سجلماسة ودرعة .

أما آخر إمارات المنطقة فهى إمارة برغواطة التى احتلت المناطق الساحلية جنوبى طنجة إلى آصيلا وتشتمل على مناطق تامسنا ، حيث أقامت عدة قبائل من زناتة ، اجتمعوا إلى صالح بن طريف الذى ابتدع لهم دينا وشريعة جديدة(٣) وقد استهواهم بفنون السحر المختلفة حتى استطاع التأثير فيهم وسن لهم مبادىء وتعاليم ، وألف لهم قرآناً وسمى نفسه صالح المؤمنين(٤) وقد دخل الأدارسة معهم فى صراع إلا أنهم لم يتمكنوا من إجتثاث جذورهم من المنطقة ، ثم دخلوا فى صراع مع بنى يفرن(٥) وهكذا ظلت دعواهم الفاسدة

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ١٦٦ ت . العبادى .
(٢) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت الفيلالى .
(٣) ابن الخطيب : أعمال الأعلام : القسم الثالث ص ١٨٠ ت . العبادى .
(٤) البكرى : المغرب ص ١٣٥ ، ابن خلدون ، العبر جـ ٦ ص ٢٠٧
(٥) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ٩٧

حتى مجىء المرابطين الذين قضوا عليهم ، ومحوا ضلالتهم من المنطقة وأسلموا إسلاماً جديداً[١] .

وهكذا نلمس من هذا العرض السريع للتاريخ السياسى للمنطقة فى ظل الزناتيين مدى التفكك والضعف الذى عاشته البلاد نتيجة للحروب والفتن التى عمت الإمارات المختلفة ، وهذا يرجع إلى عدة عوامل منها الفرقة التى التى دبت فى صفوف الزناتيين ، وانقسامهم إلى إمارات متناحرة ، فضلا عن التهديد المستمر من حكام المغرب الأوسط مع تبعية المغرب الأقصى لحكام الأندلس ، كل هذا أدى إلى تلك الصورة المحزنة التى عاشها المغرب الأقصى قبيل مجىء المرابطين ، وكان طبيعياً أن تتأثر نواحى الحياة الأخرى فى المغرب الأقصى بهذا الضعف السياسى حيث انعكست الأحداث السابقة على نواحى الحياة المختلفة : إدارية كانت أو إقتصادية واجتماعية .

ففى مجال الادارة :

لم تقم حكومة موحدة تجمع سكان المنطقة تحت سيطرتها ، وتبذل جهدها فى سبيل تقدمهم ، وإنما كان بعض رؤساء القبائل كأمراء مغراوة يدينون بالتبعية لحكام الأندلس ، باعتبارهم وزراء أو ولاة من قبل بنى أمية فى الأندلس ، يخطبون لهم على المنابر ويعلنون طاعتهم لهم[٢] وفى نظير ذلك كانوا يتمتعون بحماية بنى أمية فضلا عن المرتبات التى ينالونها سنوياً من خزانة الدولة الأموية ، يوضح ذلك أن المنصور بن أبى عامر حين غضب على زيرى ابن عطية ؛ قطع عنه رزق الوزارة الذى كان يجريه عليه فى كل سنة[٣] .

وساد المنطقة الحكم القبلى ؛ حيث أن أبناء القبائل الزناتية وغيرها من القبائل كانت تأنف أن تخضع لقائد من خارج القبيلة ، ومن ثم انقسمت إلى أسر وقبائل مختلفة تخضع كل مجموعة لأمير ينتمى إليها ، وقد لمس عبد الله

---

(١) ابن الخطيب : اعمال الاعلام : القسم الثالث ص ١٨٦ ، ص ١٨٧ ت د. العبادى .

(٢) ابن أبى زرع : الانيس جـ ١ ص ١٥٩ ، ١٦٩ ت . الفيلالى .

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١١

ابن ياسين ذلك بنفسه أثناء مروره بديار المصامدة حين رجوعه من الأندلس ووجدهم يعيشون حياة قبلية متنافرة ، وليس لهم قائد يجمعهم ويوحد كلمتهم يقول ابن عذارى « فمر عبد الله بن ياسين ببلاد المصامدة بعد منصرفه من الأندلس فوجدهم يغيرون بعضهم على بعض يغنمون الأموال ، ويقتلون الرجال ويسبون الحريم ولا يرجعون إلى طاعة ، فكان لعبد الله بن ياسين بعض الإلهام أن قال لبعضهم : ألا تعرفون الله ربكم ومحمداً رسولكم عليه أفضل الصلاة وأزكى السلام ، فقالوا له : نعم عرفنا ربنا ومحمداً نبياً صلى الله عليه وسلم فقال لهم عبد الله : فما لكم بدلتم وغيرتم ؟ هلا قدمتم عليكم إماماً يحكم بينكم بشريعة الإسلام وبسنة النبي عليه السلام ؟ فقال له بعض أشياخ المصامدة : لا يرضى أحد منا انقياداً إلى حكم أحد من غير قبيلته »(١)

ومن خلال الحوار يتبين مدى تأصل العادات القبلية في نفوس السكان مما جعلهم يتوزعون تحت زعامات مختلفة ، وبجانب الحكم القبلي ، كان نظام الحكم وراثياً وقد تجلى ذلك في تولى أبناء زيرى بن عطية إمارة فاس ، وكذلك في بني يفرن وأمراء سجلماسة ، وأمراء برغواطة وفي غياب الأمير كان بعض الولاة يتولون السلطة عن طريق التعيين وذلك ما حدث بالنسبة لمدينة فاس خلال حكم زيرى بن عطية حيث تولاها واليان أحدهما على عدوة القرويين والآخر على عدوة الأندلسيين ، فحين عزم زيرى سنة ٣٨٢/ ٩٩٢ م على التوجه إلى الأندلس ، استخلف ابنه المعز في كرسى الإمارة ، واستخلف على عدوة الأندلس عبد الرحمن بن عبد الكريم بن ثعلبة وعلى عدوة القرويين على بن محمد بن على بن قشوش(٢) أما القضاء بالنسبة لمدينة فاس فكان يتولاه قاض واحد هو الفقيه أبو محمد عامر الأزدى(٣) .

الحيـــاة الاقتصادية :

فلم تكن بأسعد حظاً من الحياة السياسية إذ أصابها الاضطراب والتأخر

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠ بيروت ت د. احسان عبـــاس .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ١ ص ١٦٠ ، ١٦١ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ١٩٣

(٣) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

نتيجة للحروب المستمرة ، والثورات والفتن التى شهدتها البلاد فى هذه الفترة وبرغم أن المنطقة كانت تتمتع بمقومات النجاح فى قيام زراعة مزدهرة وصناعة رائجة ، إلا أن الضعف السياسى وما صحبه من تمزق ، انعكست صورته على إقتصاديات البلاد ، وقلت الأموال بأيدى الناس(١) مع تحمل أمراء مغراوة فى بعض الأحيان دفع جزية سنوية من المال والخيل والمعدات لخزانة الأندلس كرمز للخضوع والتبعية لبنى أمية(٢) ولا شك أن هذه الجزية زادت من الأعباء الإقتصادية على سكان منطقة فاس ، كما أن الحروب أشاعت الفوضى والاضطراب فضلا عن الموت والهلاك الذى أصاب الأيدى العاملة بالبلاد ، فنى الصراع الدائر بين دوناس بن حمامة (٤٣١ / ٤٥١ هـ — ١٠٣٩ م / ١٠٥٩ م) وابن عمه حماد بن معنصر ، استولى حماد على بعض أجزاء فاس ومن ثم قطع مياه نهر فاس عن عدوة القرويين(٣) ولا شك أن هذا يؤثر بالدرجة الأولى على السكان وزراعاتهم وأعمالهم . وفى الصراع الدائر بين الأمير الفتوح بن دوناس (٤٥١ / ٤٥٥هـ — ١٠٥٩ / ١٠٦٣م) وأخيه عجيسة ، استمر القتال فى فاس ثلاث سنوات ، وأصاب الناس القحط والغلاء نتيجة المعارك المستمرة يصور ذلك ابن أبى زرع بقوله « فكانا لايزالان يقتتلان ليلا ونهاراً فكثر الخوف فى أيامهم بالمغرب ، وغلت الأسعار ، واشتدت المجاعة وعظم الهرج وقويت فى جميع نواحى المغرب ، وظهرت لمتونة على أطراف البلاد ، ليس لأهل المدينة شغل إلا القتال آناء الليل وأطراف النهار . . »(٤) وطوال فترة حكم الفتوح كان المغرب يعيش فى محنة إقتصادية . وقد أسلمت هذه الفتن المستمرة المغرب إلى مجاعات وغلاء فى الأسعار ونقص فى الإنتاج « وغلت الأسعار وتبدل الرخاء بالشدة والأمن

---

(١) Terrasse: Histoire du Maroc: P.256 - 257 Paris 1949

(٢) ابن ابى زرع : الانيس ج ١ ص ١٦٩ ت الفيلالى ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ١٦٠ ت . العبادى ، السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ١٩٩

(٣) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١٥ ، ٥١٦

(٤) ابن ابى زرع : الانيس ج ١ ص ١٧٣ ، ١٧٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ١ ص ٢٠٤ .

بالخوف والعدل بالجور ، وتوالى فيهم ظلم وعدوان على رعيتهم وغلاء مفرط لم يسمع بمثله وفتنة شديدة فاتصل الجوع والغلاء ، وعدمت الأقوات في مدينة فاس وأعمالها أيام الفتوح بن دوناس وأيام ابن عمه معنصر وأيام ولده تميم بن معنصر إلى أن بلغ الدقيق بمدينة فاس وغيرها من البلاد المغربية القريبة منها أوقية الدقيق بدرهم وعدمت الأقوات بالكلية »(١) ونتج عن نقص الأقوات وقلة الطعام أن عمد رؤساء المغراويين إلى الهجوم على المنازل والإستيلاء بالقوة على ما فيها من أنواع الطعام مع تعرضهم للنساء والأولاد بالإيذاء ، مما دفع الكثير من أهل فاس إلى صنع مخازن فوق أسطح المنازل لا يصعد إليها إلا بسلالم متحركة ، ترفع ليلا حتى لا يتمكن المغراويون من الوصول إليها(٢) وهذه الحيلة وإن كانت غير مجدية إلا أن هذا الصنيع من أهل فاس يصور مدى الإنهيار الذى أصاب إقتصاد البلاد ، يضاف إلى ذلك تلك الضرائب والمكوس التى فرضها الزناتيون على سكان البلاد مما أدى إلى إرهاق المواطنين وانعكست آثاره على الوضع الإقتصادى بالبلاد ، فقد افتن ولاة الأمر فى فرض أنواع مختلفة من هذه الضرائب كالمكوس والمعونات والقبالات وغيرها(٣) مما سبب عبأ ثقيلا على كاهل السكان وأدى إلى اضطراب الوضع المالى بالبلاد ولذا حين دخل ابن ياسين مدينة سجلماسة ألغى الضرائب الجائرة التى فرضها ولاة الأمر « وارتحل — أى ابن ياسين — من فوره حتى دخل مدينة سجلماسة فقتل من وجد بها من مغراوة ، وأقام بها حتى هدنها وأصلح أحوالها ، وغيرما وجد بها من المنكرات ، وقطع المزامير وأحرق الديار التى كانت تباع بها الخمر ، وأزال المكوس وأسقط المغارم المخزنية ، وترك ما أوجب الكتاب والسنة »(٤) أى أن ابن ياسين أبقى الأوضاع المالية التى تتفق والشرع وألغى ما دون ذلك .

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ١ ص ١٧٦ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ٢٠٦

(٢) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

(٣) ابن ابى دينار : كتاب المؤنس ص ١٠٣ ط ١ سنة ١٢٨٦ هـ تونس ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٧٤

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٢٠ ت الفيلالى .

إلا أنه فى وسط هذه الظلمة الحالكة كانت هناك فترات ومض من الرخاء والازدهار نتيجة للهدوء النسبي الذى تعيشه المنطقة كما حدث فى عهد دوناس بن حمامة حيث ازدهرت مدينة فاس وقصدها التجار واتسعت أرباضها(١) «وكانت أيامه — أى أيام دوناس بن حمامة — أيام دعة وهدنة ورخاء كثير ، وفى أيامه عظمت فاس وعمرت وكثرت أرباضها وقصدها الناس والتجار من جميع النواحى والبلاد»(٢) .

وأما بالنسبة للأوضاع الاجتماعية فقد افترشت القبائل المختلفة أرض المغرب الأقصى ، فكانت هناك القبائل الزناتية ومنها الأسر الحاكمة التى اقتسمت المغرب الأقصى فيما بينها ، وهناك قبائل المصامدة وهى تشكل غالبية السكان ، وكان لها دور بارز فى قيام دولة الموحدين ، وكانت نظرة السكان إلى ولاة الأمر نظرة الكراهية والسأم(٣) وذلك لكثرة ما أصابهم من محن وكوارث نتيجة للحروب المتصلة ، وبجانب هذه القبائل كانت هناك جاليات من المسيحيين واليهود ففى تلمسان كانت هناك جالية مسيحية(٤) أما مدينة فاس فقد اشتهرت بكثرة اليهود بها حيث قصدها اليهود من كل مكان(٥) .

أما فى مجال البناء والتعمير فلم تشهد البلاد إهتماماً من ولاة الأمر بالبناء نتيجة انشغالهم بالمعارك والحروب ، ونتج عن ذلك قلة فى عدد المنشآت ، ومن هذه المنشآت ، بناء مدينة وجدة سنة ٣٨٤هـ حيث اتخذها زيرى بن عطية عاصمة له وأحاطها بالأسوار وصنع لها عدة أبواب(٦)

---

(١) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ١٦١ ، ١٦٢ ت . الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ٢٠٣ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ، جـ ١ ص ٩٧ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١٥ .

(٢) ابن أبى زرع : الانيس جـ ١ ص ١٧٢ ت الفيلالى .

(٣) السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ١٩٠ .

(٤) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ٧٦ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ١١٥ .

(٦) ابن أبى زرع : الانيس جـ ١ ص ١٦٣ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ١٩٥ ، كنون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٢٨ .

وفى فترة الرخاء النسبى الذى شهدته مدينة فاس فى عهد دوناس بن حمامة ، أقيمت بعض المنشآت كالمساجد والحمامات والفنادق ، وهذا يرجع إلى ميل الأمير دوناس بن حمامة وحبه للبناء والتشييد(١) وفى مجال الحياة الدينية ، كان وجود أمراء مغراوة وتبعيتهم للأمويين فى الأندلس حاجزاً ومانعاً ضد الدولة العبيدية ومبادئها الشيعية أن تنتشر أو تستقر فى المغرب الأقصى(٢) وفى نفس الوقت دعم للمذهب المالكى الذى اتخذه أهل البلاد مذهباً منذ دولة الأدارسة وكانت الاضطرابات ما نعاً من إزدهار الدراسات الدينية ، وهذا أدى إلى قلة العلماء المشتغلين بالدراسات الدينية(٣) ، ويبدو أن الفقهاء والعلماء فى هذه الفترة قد احتلوا مكان الزعامة بالنسبة لطوائف الشعب ، إذ هم الذين قاموا باستدعاء المرابطين ، ليخلصوا البلاد مما تعانيه من ظلم أمرائهم المغراويين« فلما كان فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة اجتمع فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحاؤهم فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين والى الأمير يحيى بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون منهم الوصول لبلادهم ، ليطهروها ، مما هى فيه من المنكرات وشدة العسف والجور»(٤) كما أن المفاسد قد انتشرت ، وتدهورت الأخلاق وكثرت دور الخمر (٥) مما جعل ابن ياسين يلبى نداء الفقهاء للقضاء على كل هذه المفاسد ، وقد عبر النويرى عن ذلك بقوله « وكانت الدولة حينئذ فى بلاد المغرب لزناتة الذين ساروا فى أيام الفتن وهى دولة رديئة مختلة السيرة مذمومة الطريقة »(٦) وبجانب هذه المفاسد كانت هناك انحرافات دينية فى إمارة برغواطة ، وقد سبق أن أشرت كيف أن إمامهم صالح بن طريف

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ ت الفيلالى ، ابن الخطيب :أعمال الأعلام القسم الثالث ص ١٦١ ، ١٦٢ ت العبادى، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٥١٥ .

(٢) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ١٨٠ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٨ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٩٢ .

(٤) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت الفيلالى .

(٥) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٩ ت الفيلالى ، رابح بونار : المغرب العربى تاريخه وثقافته ص ٢٣٦ الجزائر سنة ٦٨ .

Nevill Barbour : Morocco P : 50 London 1965

(٦) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٩ تصوير شمسى .

قد شرع لهم مبادىء فاسدة وانحرافات تخالف عقيدة الإسلام ومن ثم تصدهم المرابطون بالقتل والتدمير حتى قضوا على ضلالاتهم ، أما النواحي الثقافية الأخرى فلم تحظ بعناية ورعاية أمراء زناتة وذلك للمنازعات المستمرة والتي لا تشجع على البحث والتأليف(١) .

وهكذا شهد المغرب الأقصى في ظل أمراء زناتة فترة مضطربة ، تتسم بالضعف والتفكك ، حيث دبت الفوضى ، وانتشرت الفتن في أرجاء البلاد وكان عدم الإستقرار سبباً قوياً في التأخر الذى عانت منه المنطقة ، حتى أقبل المرابطون من الصحراء ووحدوا المنطقة ثم استولوا على الأندلس الذى أصبح إقليما تابعاً للمغرب الأقصى ، وانطلقوا بالبلاد في مضمار الحضارة ، ثم أعقبهم الموحدون وأكملوا المسيرة الحضارية التي شهدتها البلاد ، وبلغ المغرب الأقصى في عهدهم أوج قوته وتقدمه ، حيث نعمت البلاد بحياة إدارية مستقرة ، وحياة إقتصادية مزدهرة ، فضلا عن نهضة اجتماعية شاملة .

---

(١) كنون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٣٠ ، رابح بونار : المغرب العربي ص ٢٣٤ .

الباب الأول

السلطة والإدارة

الفصل الأول

التطور السياسى بالمغرب الاقصى من منتصف القرن الخامس الهجرى الى نهاية السادس

شهد المغرب الأقصى فى النصف الأول من القرن الخامس الهجرى حركة دينية ، هى حركة المرابطين التى انبثقت فى الصحراء جنوب المغرب الأقصى وغيرت من وجه الحياة فى شتى صورها سياسية كانت أو إدارية أو إقتصادية أو اجتماعية ، وامتد تأثير حركة المرابطين إلى الأندلس حيث خضعت لسلطة المرابطين .

وما إن ازدهرت حركة المرابطين ، وتأسست دولتهم فى المغرب الأقصى وتمكن سلطانهم ، واستقرت أحوالهم حتى اندلعت حركة دينية أخرى معارضة وهى حركة الموحدين بزعامة المهدى بن تومرت وكانت ترمى إلى القضاء على دولة المرابطين ، وإقامة نظام جديد .

وبعد صراع مرير ، نجح الموحدون فى الإطاحة بدولة المرابطين ، وإقامة حكم جديد ، ومن ثم كان من الضرورى التعرض للحياة السياسية للمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين ، وحتى نهاية حكم الناصر الموحدى سنة ٦١٠ ﻫ / ١٢١٣م لما للأوضاع السياسية من أثر فى حياة السكان سواء من الناحية الإدارية أو الإقتصادية والاجتماعية .

يحيى بن ابراهيم الجدالى :

وأولى الدعوتين : هى دعوة المرابطين ، التى نمت وازدهرت فى ديار الملثمين بجنوب المغرب الأقصى ، بفضل الفقيه المالكى عبد الله بن ياسين ومن التف حوله من أبناء القبائل ، وقد بدأت صلة ابن ياسين بمنطقة الملثمين حين وفد مع زعيم قبيلة جدالة يحيى بن ابراهيم الجدالى عقب عودته من الحج

وتوجهه إلى القيروان(١) ، وهناك فى القيروان شاهد يحيى بن ابراهيم مجالس العلم والدين فجلس إلى أحد هذه المجالس حيث استمع إلى درس الشيخ أبى عمران موسى بن أبى حجاج الفاسى ، وقارن بين حياة العلم والمعرفة التى يحياها سكان القيروان ، وحياة الجهل والظلام التى تفشت بين عشيرته ومواطنيه ، ومن ثم أحس يحيى بحاجة مواطنيه إلى فقيه يعلمهم أحكام دينهم ويبصرهم بتعاليم الإسلام ولذا توجه بالطلب لأبى عمران أن يبعث معه من يحقق هذا الهدف(٢) وقد استجاب الشيخ أبو عمران لهذا الطلب وأعطاه رسالة وأخبره بأنه سيجد ضالته عند الفقيه واجاج بن زلو اللمطى(٣) بمدينة نفيس ويواصل يحيى بن ابراهيم رحلته إلى مدينة نفيس حاملا الرسالة وهناك يلتقى بالفقيه واجاج الذى قام بدوره فى البحث عن الرجل المناسب لهذه المهمة حتى وجده فى شخص عبد الله بن ياسين الجزولى(٤) .

وبالنظر إلى سير الأحداث نجد أن الشخصيات التى التقى بها يحيى بن ابراهيم كانت على قدر كبير من الذكاء وحسن الإختيار فالفقيه أبو عمران اختار الفقيه واجاج الذى يقوم بتدريس العلم فى منطقة نفيس قرب أغمات بالمغرب الأقصى(٥) ، وبالتالى فهو من أقدر الناس معرفة بسكان المنطقة

---

(١) ابن أبى دينار: كتاب المؤنس فى أخبار افريقيــة ص ١٠١ ط ١ سنة ١٢٨٦ هـ تونس

Anderé Julian : Histoire de l'Afrique du Nord P. 78. Paris 1969.

(٢) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٣) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٢ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ٢٢٧ ت العبادى .

(هو واجاج بن زلو اللمطى الصنهاجى ، وكان قد رحل الى القيروان ودرس على أبى عمران الفاسى ثم عاد الى بلاد السوس حيث بنى هنــاك دارا للعلم ودراسة القرآن ، وكانت له منزلة ومقام عند المصامدة ص ٢٢٧ . حاشية أعمال الاعلام : لسان الدين بن الخطيب القسم الثالث ت د. العبادى) .

(٤) ابن أبى زرع : الانيس المطرب بروض القرطاس جـ ٢ ص ١٠ ، ص ١١ تحقيق الفيلالى .

(٥) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٦٩ .

وطباعهم وكيفية استمالتهم ، ثم قام الفقيه واجاج بدوره فى اختيار الرجل المناسب وهو عبد الله بن ياسين الذى تتلمذ على واجاج ونهل من ينابيع العلم والمعرفة[١]

عبد الله بن ياسين :

وهذا الفقيه بجانب علمه بشئون الدين ، كان يتمتع بصفات أهلته لتحقيق النجاح لدعوته من بعد نظر ونفاذ بصيرة[٢] وصحب يحيى بن ابراهيم الفقيه عبد الله بن ياسين وتوجها إلى بلاد جدالة التى فرحت بمقدمه ونزوله بين ظهرانيهم[٣] . غير أن فترة الترحيب لم تستمر طويلا وذلك حين بدأ ابن ياسين تغيير العادات التى ألفوها من الإنهماك فى الملذات ، وجهلهم بأحكام الدين ، وذلك بفرض تعاليم وأحكام تخالف ما درجوا عليه ، ومن هنا بدأت الجفوة والإعراض[٤] وخاصة فى صفوف الزعماء والنبلاء الذين رأوه ينتقص من حقوقهم ويضع حداً لجبروتهم وعدوانهم وينشر المساواة بين الموالى والسادة[٥] وقد ساءت العلاقة بين هؤلاء السادة وبين ابن ياسين حتى أنهم انتهبوا داره وهدموها[٦] ويبدو أن الأمير يحيى بن ابراهيم عجز عن حماية ابن ياسين والدفاع عنه مما اضطره إلى الارتحال إلى مكان يستطيع فيه تأدية واجبه الدينى ، ولم يكن هذا المكان إلا جزيرة منعزلة بالسنغال[٧] . وصحبه بعض مريديه وعلى رأسهم يحيى بن ابراهيم[٨] .

---

(١) القاضى عياض : ترتيب المدارك وتقريب المسالك جـ ٢ مجلد ٢ ، ص ٥٣٢ مخطوط .

(٢) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٤٢ .

(٣) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٧ ت د. العبادى ، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١١ ت الفيلالى ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٢ .

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٢ ت الفيلالى .

(٥) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٢٢ .

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٨ ت د. احسان عباس بيروت ط ١ سنة ٦٧ ، بوفيل : الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا ص ٩٧ ترجمة د. زاهر رياض الانجلو سنة ١٩٦٨ .

(٧) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ١٨٣ ، ترجمة د. نبيه فارس ومنير البعلبكى ط ١ سنة ٤٩ بيروت .

(٨) ابن أبى دينار : كتاب المؤنس ص ١٠٢ .

الدور الايجابى فى دعوة المرابطين :

وفى هذه الجزيرة بدأ ابن ياسين الدور الإيجابى فى تأسيس الدعوة ونشرها وذلك بإعداد تلاميذه بالتربيـــة الدينية الصارمة وذلك فى الرباط الذى أنشأه(١) والذى أصبح نواة مجتمع المرابطين ، وذاع صيته فى المناطق المجاورة وتوافد الناس عليه من كل صوب(٢) . ولم يكتف ابن ياسين بنشر دعوته ومبادئه بين تلاميذه وأتباعه فى الرباط بل أرسل البعوث إلى القبائل المختلفة تنشر مبادئه وتعرفهم بحياة الرباط التى يحياها ابن ياسين وأتباعه(٣) حتى إذا كثر أتباعه وصاروا منفذين لأوامره أطلق عليهم لقب المرابطين ، وقد اختلف المؤرخون فى سبب هذه التسمية ، فابن دينار علل ذلك بسبب ملازمتهم للرباط الذى بناه(٤) . ومنهم من أرجع هذه التسمية إلى شدة صبرهم وحسن بلائهم فى المعارك(٥) ثم انتقل عبد الله بن ياسين من الدور النظرى فى تلقين أتباعه مبادىء دعوته إلى دور التطبيق والتنفيذ حين أعلن ضرورة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وذلك فى النداء الذى وجهه إلى رؤسائهم « يامعشر المرابطين إنكم جمع كثير وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراط مستقيم ، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم ، وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده »(٦) وكانت استجابة الأتباع وسرعة تلبيتهم لندائه(٧) وقد بين لهم فى النداء طريقة تبليغ الدعوة فقال لهم : « اخرجوا على بركة الله وأنذروا

---

(١) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٢٤ .

(٢) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٣ تت الفيلالى .

(٣) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٤٢ .

(٤) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٢ ، بوفيل : الممالك الاســلامية ص ٩٧ ، ريمون فيرون : الصحراء الكبرى ص ٧٥ ترجمة د. جمال الدين الديناصورى القاهرة سنة ١٩٦٣ م د. حسن ابراهيم : انتشار الاســلام ص ١٩ ط ٢ سنة ٦٤ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦٩٥

(٥) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠ تصحيح البشير تونس ط ١ سنة ١٣٢٩ هـ .

(٦) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٤ ت الفيلالى ، الســلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢ الدار البيضاء سنة ١٩٥٤ .

(٧) نفس المرجعين السابقين ص ١٤ ص ٩ .

قومكم وخوفوهم عقاب الله ، وأبلغوهم حجته فإن تابوا ورجعوا إلى الحق ، وأقلعوا عما هم عليه، فخلّوا سبيلهم ، وإن أبوا من ذلك وتمادوا فى غيهم ، ولجّوا فى طغيانهم ، استعنا بالله تعالى عليهم وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين» [١].

بدء الكفاح المسلح للمرابطين :

وكان هذا النداء هو الشرارة الأولى فى تاريخ الكفاح المسلح للمرابطين وكان من الطبيعى أن يبدأ المرابطون نشر دعوتهم بين تلك القبائل التى تمردت على سلطة ابن ياسين ، ومن هنا دعوا قبيلة كدالة للانضمام إليهم تنفيذاً لتعاليم ابن ياسين فلما أبوا غزوهم فى ثلاثة آلاف رجل من المرابطين فانهزموا بين يديه وذلك فى شهر صفر سنة ٤٣٤ هـ / ١٠٤٢م [٢] ثم أقبل من نجا منهم من القتل وانضم إلى الدعوة الجديدة ، وحسن إسلامهم [٣] وانطلقت هذه القوة الجديدة فى طريقها المرسوم لإخضاع بقية القبائل فتوجه إلى قبائل لمتونة فأخضعها وانضمت إلى دعوته [٤] ثم توجه بعد ذلك إلى قبائل مسوفة فغزاهم حتى أذعنوا وبايعوا على ما بايعه عليه قبائل لمتونة وكدالة [٥] . وكان هذا النصر المتتابع مدعاة لبقية القبائل على الانضمام إليه والإنضواء تحت لوائه .

انتقال السلطة الى لمتونة :

وفى خلال هذه الفترة وقع حادث لمغزاه وهو وفاة الأمير يحيى بن ابراهيم الجدالى فى سنة ٤٤٧هـ / ١٠٥٥م [٦] ونقل ابن ياسين السلطة العسكرية من قبيلة جدالة إلى قبيلة لمتونة وذلك حين إختار يحيى بن تلاكاكين اللمتونى [٧]

---

(١) نفس المرجعين السابقين ص ١٤ ، ص ٩ .

(٢) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٩ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٢٠٩ .

(٣) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ، ابن الخطيب ، الحلل الموشية ص ١٠ ، ابن عذارى : البيان جـ ٤ ص ١٠ ت د. احسان عباس .

(٥) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥ .

(٦) The Encyclopeadia of Islam Vol. I. P.;319

(٧) اكنسوس : الجيش العرمرم الخماسى لوحة ٢٧ ميكروفيلم ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٨ ت د. العبادى .

قائداً لجند المرابطين ،وقد استند إلى أن قبيلة لمتونة كانت تتمتع بمكانة مرموقة فى مجتمع الملثمين فضلا عن سيطرتها على طرق التجارة الساحلية مما أكسبها ثروة وغنى مع احتفاظها بالزعامة فى أمرائها ما يقرب من قرنين ، وابن ياسين بذلك الاختيار يدل على خبرة عميقة بقدرة القبائل واستعدادها لحمل لواء دعوته[1] ، وبذلك ظهرت قبيلة لمتونة على مسرح الأحداث حين تولى أحد ابنائها يحي بن عمر القيادة العسكرية ، وتتابع أبناء قبيلة لمتونة فى السلطة حتى نهاية حكم المرابطين ، وما إن تسلم يحيي بن عمر مقاليد السلطة حتى باشر مسئوليته فى جهاد القبائل المجاورة وخاصة حين اتجه إلى فتح كثير من بلاد السودان الغربي[2] . وفى هذه الفترة أى سنة سبع وأربعين واربعمائة استغاث فقهاء درعة وسجلماسة بعبد الله بن ياسين وقوته النامية لإنقاذ بلادهما من الفساد والظلم الذى انتشر فى أرجاء البلاد يصور ذلك ابن أبى زرع بقوله « فلما كان فى سنة سبع وأربعين وأربعمائة اجتمع فقهاء سجلماسة وفقهاء درعة وصلحاؤهم ، فكتبوا إلى الفقيه عبد الله بن ياسين وإلى الأمير يحيي بن عمر وأشياخ المرابطين كتاباً يرغبون منهم الوصول لبلادهم ليطهروها مما هى فيه من المنكرات وشدة العسف والجور ، وعرفوهم بما فيه بها أهل العلم والدين وسائر المسلمين من الذل والصغار والجور مع أميرهم مسعود بن وانودين الزناتى المغراوى»[3] ومن هذا النص يبرز دور الفقهاء الإيجابى ورغبتهم فى تغيير أوضاع مجتمعهم ، كما يشير إلى إنتشار أخبار المرابطين كقوة إصلاحية ، ومن هنا كان استنجاد هؤلاء الفقهاء بقوة المرابطين وبطبيعة الحال استجاب المرابطون لهذه الدعوة ، وذلك تمشيا مع مبادئهم وهى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، فخرج ابن ياسين فى جيش المرابطين

---

(١) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٤٧ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام : القسم الثالث ص ٢٢٨، ت العبادى ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٣ .

(٣) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت الفيلالى .

في سنة سبع واربعين وأربعمائة متوجهين إلى درعة وسجلماسة(١) . وبعد معارك ضارية استطاع المرابطون القضاء على أمراء مغراوة وتولية عمال تابعين لهم وغنم المرابطون مغانم كثيرة ، وزّع ابن ياسين خمسها على فقهاء درعة وسجلماسة والباقي على جنود المرابطين(٢) ثم عادوا إلى الصحراء ، غير أن ثورة شبت في سجلماسة الهدف منها استعادة المدينة والقضاء على القوة المرابطية التي خلفها ابن ياسين وراءه وقد نجحت في ذلك(٣) وما إن عاد الأمير يحيى إلى الأخذ بالثأر حتى إقتل في خلال المعارك التي نشبت بينه وبين أعدائه(٤) .

الأمير أبو بكر بن عمر :

وهنا يختار ابن ياسين أخا الأمير المقتول وهو الأمير أبو بكر بن عمر(٥) وكان ذلك في عام ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م(٦) . وقد لعب أبو بكر بن عمر دوراً جديداً في تاريخ الدعوة ، إذ إنتقل بها من مرحلة تلبية نداء المعونة من إمارات الشمال في سجلماسة ودرعة إلى مرحلة الغزو المسلح للمغرب الأقصى ، وربما كان السبب وراء ذلك إزدياد حجم القوات المرابطية ، مع وجود قحط أصاب ديار الملثمين ، مما جعلهم يندفعون صوب الشمال ، يضاف إلى ذلك رغبتهم في نشر مبادئهم وتعاليمهم(٧) واتجه أبو بكر بن عمر بجنوده إلى قبائل برغواطة التي اعتنقت المجوسية ديناً لها(٨) ، وكان الصراع عنيفاً أسفر عن إصابة داعية

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٩ ت الفيلالى ، لسان الدين ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٢٩ ت العبادى ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٣ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٢٠ .

(٣) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٢٩ ت العبادى .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٢٩ .

Encyclopeadia Britannica Vol. 1. P.:673 U.A.S. 1960.

(٥) اكنسوس : الجيش العرمرم الخماسى لوحة ٢٧ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٣ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الإعلام القسم الثالث ص ٢٢٩ .

(٦) زامباور : معجم الانساب جـ ١ ص ١١٣ ، ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ص ٤٧ ترجمة مكى الطاهر سنة ٦٨ .

(٧) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٨ تصوير شمسى .

(٨) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٣ .

المرابطين عبد الله بن ياسين بجراح خطيرة أدت إلى وفاته(١). إلا أنه قبيل وفاته أكّد مرة أخرى على مبادئه وتعاليمه بين تلاميذه حين أوصاهم بقوله « يامعشر المرابطين ، أنا ميت فى يومى هذا ، وأنتم فى بلاد أعدائكم ، فاياكم أن تجبنوا وتفشلوا وتذهب ريحكم ، كونوا ألفة على الحق وإخواناً فى الله وإياكم والمخالفة والتحاسد على الدنيا وإنى ذاهب عنكم فانظروا من ترضونه لأمركم يقود جيوشكم ويغزو أعداءكم ويقسّم فيكم زكاتكم وأعشاركم »(٢) وبهذه الكلمات أنهى عبد الله بن ياسين حياته سنة ٤٥٩هـ / ١٠٥٩م بعد فترة كفاح استمرت اثنتين وعشرين عاما(٣) منذ أن جاء داعياً إلى ديار المرابطين وبعد أن كوّن نواة مجتمع المرابطين فى رباط السنغال ، ثم انطلاقه محارباً فى سبيل نشر مبادئه وهو فى كل هذه المراحل يمثل الداعية الصادق فى تبليغ دعوته ، البعيد عن ترف الدنيا ، المتقلل فى مطعمه ومشربه(٤) ، وحمل أبو بكر ابن عمر لواء الجهاد ، وواصل كفاحه ضد قبائل برغواطة فاستأصلهم فتكاً وداس بلادهم ، وفرّق جموعهم ثم رجع إلى أغمات التى اتخذها عاصمة له(٥) ثم انطلق مرة أخرى إلى الشمال ليواصل إنتصاراته ففتح بلاد فازاز ومدائن مكناسة(٦) وقد تحقق له النصر فى معاركه بفضل جنوده الأشداء وعلى رأسهم ابن عمه يوسف بن تاشفين الذى اشترك فى كثير من الحملات العسكرية وأثبت كفاءة ومقدرة وحقق نجاحاً(٧) غير أن أحداثاً وقعت بالصحراء

---

(١) لسان الدين بن الخطيب : اعمال الأعلام : القسم الثالث ص ٢٣٠ ت العبادى .

Scott : History of Moorish Empire Vol 2 P. 194 London 1904.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣٠ .

(٣) Scott: History of Moorish Empire Vol 2. P. 194

(٤) ابن ابى زرع : الانيس ج ٢ ص ٣٠ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩ .

(٥) لسان الدين بن الخطيب : اعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٣١ ت العبادى .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٣١ ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٨٣ .

(٧) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢١٩ ، ٢٢٠ .

جعلت أبا بكر يتوقف عن أعماله الحربية ويتوجه إلى الصحراء ، وفى رواية أخرى أنه ترك أعماله الحربية وتوجه إلى الجنوب لجهاد كفار السودان(١).

يوسف بن تاشفين :

ومن ثم ترك القيادة لابن عمه يوسف بن تاشفين وتوجه إلى الصحراء وكان ذلك فى سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠ م(٢) . وكان تخلّى أبى بكر عن قيادة المرابطين فى الشمال له آثار بعيدة المدى إذ إنتقلت السلطة من يده على المناطق المفتوحة من المغرب الأقصى ، وصارت لابن عمه يوسف بن تاشفين الذى استأثر بها لنفسه ولبنيه من بعده ، كما أن إنفراد يوسف بالسلطة ، جعل أبا بكر بعد ذلك يصرف نظره عن استعادة السلطة من يوسف بن تاشفين وأن يوجّه جهوده إلى نشر الإسلام فى غانا تلك الجهود التى بدأت فى عهد ابن ياسين .

ومن هـنا شهد المغرب الأقصى حركتين مسلحتين إحداهما فى الأطراف الجنوبية للمغرب الأقصى ومتجهة نحو غانا حيث دارت معارك بين جيش المسلمين والقبائل الوثنية استمرت أربعة عشر عاماً(٣) نتج عنها الاستيلاء على كومبى وانتشار الإسلام بين سكان المنطقة(٤) غير أن حركة الجهاد هذه توقفت وذلك بموت باعثها ومحركها أبى بكربن عمر فى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م شهيداً فى إحدى المعارك(٥) ، ونتج عن ذلك تقلص نفوذ المرابطين السياسى

---

(١) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٤ .

(٢) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٣١ ت العبادى ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ١٨٣ ، بوفيل: الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا ص ١٠٠ .

(٣) بوفيل : الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا ص ١١٢ ، ريمـون فيرون : الصحراء الكبرى : ص ٧٨ .

(٤) نفس المرجعين السابقين ص ١١٢ ، ص ٧٨ .

(٥) ابن ابى دينار : المؤنس ص ١٠٤ ، د. احمد شلبى : موسـوعة التاريخ الاسلامى جـ ٦ ص ١٠٩ ط ١ سنة ٧٢ .

J. Spencer : A history of Islam in West Africe P. 30
Fag : An Introduction to the History of West Africa P. 22

إلا أن نفوذهم الدينى ظل موجوداً متمثلا فى طبقة الحكام الذين اعتنقوا الإسلام[١] وأما حركة الكفاح الثانية ، فكانت بقيادة يوسف بن تاشفين المؤسس الحقيقى لدولة المرابطين بالمغرب الأقصى وقد ذكر نسبه ابن أبى زرع بقوله « هو أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بن ابراهيم بن ترقوت بن وارتقطين بن منصور بن مصالة بن أمية بن واتملى بن تليت الحميرى الصنهاجى اللمتونى من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير ، أمه حرة لمتونية بنت عم أبيه اسمها فاطمة بنت سيرين يحى بن واجاج بن وارتقطين المذكور »[٢] ، وقد تجمعت فى هذا القائد المرابطى صفات الزعامة والقيادة من نجدة وشجاعة وحزم ومهابة[٣] مما جعلت قلوب المرابطين تلتف حوله ، وتسانده فى عملياته العسكرية المقبلة ، وتأكيداً لسلطانه ، شرع فى بناء عاصمة مراكش فى عام ٤٥٤هـ /١٠٦٢م[٤] لتكون بمثابة نقطة إنطلاق لإستكمال بسط نفوذه على المغرب الأقصى[٥] .

وما إن حلت سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م حتى كان يوسف بن تاشفين قد أحكم قبضته على المغرب الأقصى ، ومكن لسلطانه السياسى على البلاد بعد كفاح مرير خاضه على رأس جيش المرابطين[٦] .

انطلاق المرابطين الى الأندلس :

وقد قيض الله لهذه الشخصية الفذة وهى شخصية يوسف بن تاشفين أن تلعب دوراً آخر ، وذلك بعد أن قامت بتوحيد المغرب الأقصى فى ظل

---

(١) جوليان : تاريخ افريقيا ص ٨٢ ترجمة طلعت عوض الالف كتاب سنة ٦٨ د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٦ ص ١١٠ ط ١ سنة ١٩٧٢ .

(٢) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣٥ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٦ .

(٤) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٢ ، اشباخ: تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ ١ ص ٧١ ترجمة عنان

(٥) ابن ابى زرع : الأندلس جـ ٢ ص ٣٩ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٤ ، ابرهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٧٣ .
Encyclopeadia Britannica Vol I. P: 674.

(٦) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٠٦ .

زعامة موحدة ، ذلك الدور هو الانطلاق إلى الأندلس ، وتحمّل أعباء الكفاح المسلح ضد أطماع النصارى ووقف الزحف المسيحى ، وكان هذا الإنطلاق أيضاً بداية صفحة جديدة فى علاقة المغرب الأقصى بالأندلس التى ستصبح بعد ذلك تابعة للمغرب الأقصى فى ظل المرابطين والموحدين ، مما نتج عنه آثار بعيدة المدى فى شكل الحياة بالمغرب الأقصى فى عهد المرابطين والموحدين وهذا ما سنشير إليه فى الفصول القادمة وقدتمّ الإتصال بين المغرب الأقصى والأندلس حين استنجد بعض ملوك الطوائف وعلى رأسهم ابن عباد بيوسف بن تاشفين كمنقذ لأرض الإسلام من وقوعها فى أيدى النصارى(١) وبعد استشارة يوسف لأهله ومن حوله أشاروا عليه بالإستجابة لهذه الدعوة وذلك لأنها تتفق مع مبادئهم من نصرة الدين والدفاع عنه (٢) .

معــركة الزلاقة :

وعلى هذا الأساس انطلق يوسف بن تاشفين على رأس قواته صوب الأندلس ، ودارت بينه وبين الأذفونش رئيس المعسكر المسيحى عدة مكاتبات قبل بدء المعركة(٣) ثم كان لقاء يوسف بن تاشفين على رأس جيش المرابطين والأندلسيين فى مواجهة الأذفونش على رأس قواته المسيحية فى سهل الزلاّقة فى عام ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م(٤) وقد ذكر المراكشى أنها حدثت فى عام ٤٨٠هـ ـ

---

(١) المراكشى : المعجب فى تلخيص اخبار المغرب ص ١٣٠ تحقيق العريان ط ١ سنه ٤٩ ، الصفاقسى : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٦٩ تونس سنة ١٣٤١ هـ لسان الدين بن الخطيب : اعمال الاعلام القسم الثانى ص ٢٧٨ ، ص ٢٧٩تحقيق ليفى بروفنسال سنة ١٩٣٤ رباط الفتح ، بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ١٨٥ ، د. على محمود حموده : تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى ص ٢٧٥ ط ١ سنة ٥٧ .

Altamira : A History of Spain. P : 154

Lane Pool : The Moors in Spain, P : 178.

فيليب حتى : تاريخ العرب المجلد الثانى ص ٧٠١ ترجمة مبروك نافع ط ٣ سنة ٥٢ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٣١ .

(٣) الصفاقسى : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٦٩ ، ص ١٧٠

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٥٢ ت الفيلالى ، اشباخ :

١٠٨٧م[١] وقد أفاضت المراجع فى وصف المعركة، وذلك لأهميتها وما ترتب عليها من نتائج[٢] ، إذ أن أولى هذه النتائج أن فتحت عين القائد المرابطى على مدى الترف والثراء الذى يحياه ملوك الطوائف ، وخاصة بعد أن قام بزيارة أشبيلية فى صحبة المعتمد عقب نصر الزلاقة وشاهد بنفسه مظاهر البذخ والثراء الذى يتمتع به الأمراء فى قصور أشبيلية [٣] وبالرغم من نصح يوسف ابن تاشفين لأمراء الأندلس بالاتحاد والتضامن فى دفع الغزو الخارجى[٤] إلا أنهم لم يستجيبوا لهذا النصح مما أدام ضعفهم ودفع يوسف بن تاشفين إلى العبور بعد ذلك إلى الأندلس للقضاء على العدو الخارجى المتمثل فى الجيوش المسيحية المتربصة ، وفى العدو الداخلى المتمثل فى أمراء المسلمين الضعفاء الذين يحكمون البلاد ، حتى صارت الأندلس تابعة لسلطة المرابطين[٥] ، كما أن نصر المرابطين أوقف التيار المسيحى من الاستمرار فى إقتطاع المدن الإسلامية[٦] وبجانب ذلك فان تبعية الأندلس للمرابطين ومن بعدهم الموحدين أسهم فى الازدهار الحضارى الذى عاشه المغرب الأقصى .

تاريخ الاندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ ١ ص ٩٠ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٤٢ ت العبادى .

(١) المراكشى : المعجب ص ١٣٥ .

Julien : Histoire de L'Afrique, P 85.

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٣٣ ، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ من ص ٥٣ الى ص ٦٥ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ من ص ٤٠ الى ص ٤٩ ، أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ١ ص ٩٠ .

Lane Pool : The Moors in Spain ; P. 179.

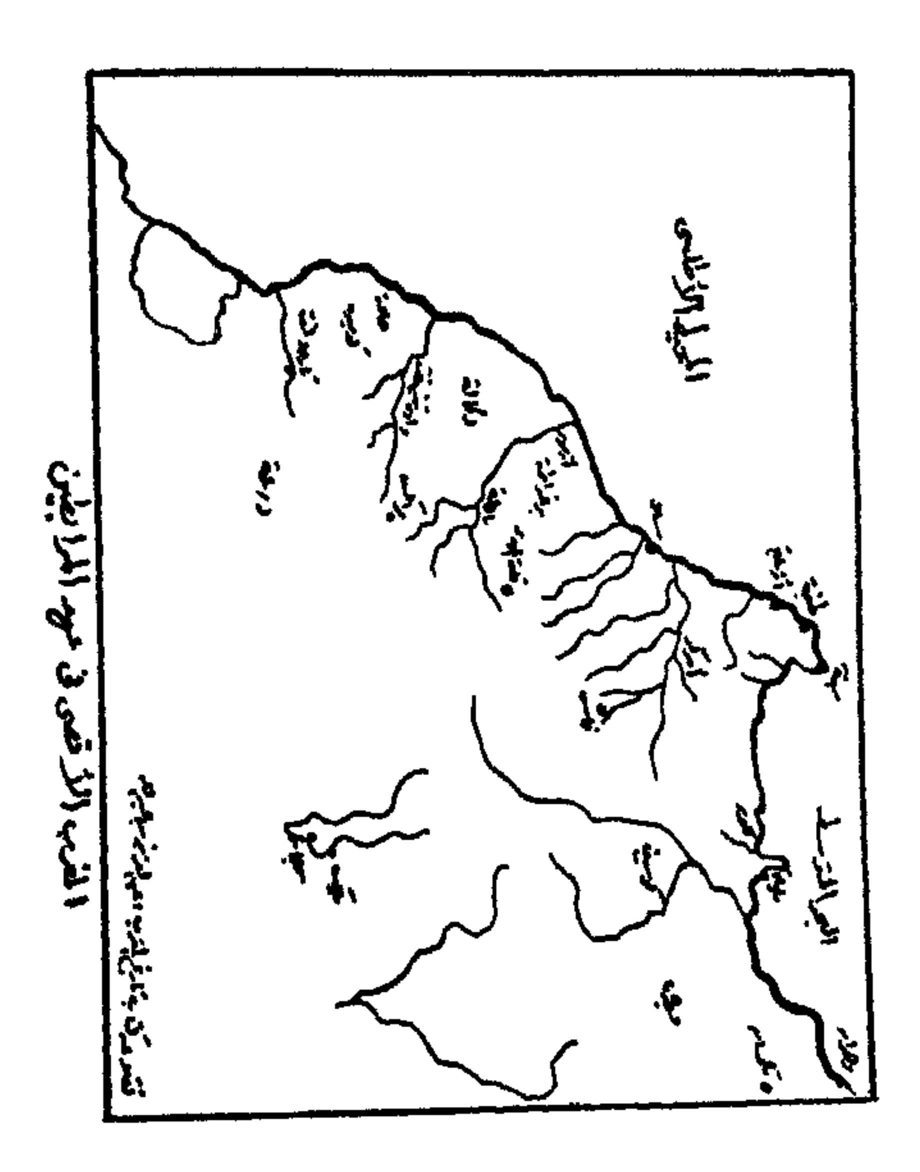
(٣) د. حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى ص ٩٦ ديسمبر سنة ١٩٦٩ مجلة كلية الآداب م ١١ جـ ٢ .

Gayangos : The History of Mohamedan Dynasties in Spain, Vol 2, P. 289, Nevill : A Survey of North West Africa, P : 24 London 1962.

(٤) الأمير عبد الله بن بلقين : مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٦ تحقيق ليفى بروفنسال . دار المعارف .

(٥) المراكشى : المعجب ص ١٦٢ ، ص ١٦٣ .

(٦) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٨٤ ، عبد الله كنون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٣٥ ط ١ سنة ١٩٤ تطوان ، د. حسين مؤنس : الثغر الأعلى ص ٩٤ .



المغرب الأقصى في عهد المرابطين

فاذا ما انتقلنا إلى المغرب الأقصى لوجدنا أن الكفاح المسلح فى الأندلس ، ساعد على صهر قبائل المغرب الأقصى فى بوتقة واحدة وجمع بين القبائل المختلفة التى توجهت للجهاد فى الأندلس ، كما أنها رفعت من قدر هذه الجيوش ، بحيث أصبح المرابطون قوة لا يستهان بها ، مما ساعد على استكانة القبائل ، وسارت طائعة مختارة فى ركب الدولة الجديدة(١) ، ومن ناحية أخرى فإنها أضفت على قائد المرابطين الذى حمل شرف الجهاد فى المغرب والأندلس لقب الزعامة والبطولة ، وأصبح يوسف بن تاشفين يحكم مملكة مترامية الأطراف يصفها ابن أبى زرع بقوله « وكان — أى يوسف بن تاشفين — ملكه من مدينة أفراغ أول بلاد الإفرنج قاصية شرق بلاد الأندلس إلى آخر عمل شنترين والأشبونة على البحر المحيط من بلاد غرب الأندلس وذلك مسيرة ثلاثة وثلاثين يوماً طولا ، وفى العرض ما يقرب من ذلك ، وملك بالمغرب من بلاد العدوة من جزائر بنى مزغنة إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبل الذهب من بلاد السودان »(٢).

وبجانب كونها مناطق شاسعة ، فانها تمتعت بالازدهار والرقى ، وصار العصر الذهبى للمرابطين هو فترة حكم يوسف بن تاشفين(٣) وابنه على بن يوسف وما إن حلت سنة ٤٩٨ هـ حتى أصيب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين بالمرض الذى أودى به إلى الوفاة فى عام سنة ٥٠٠هـ / ١١٠٦م(٤) . ولم ينس واجبه تجاه أمته ، وذلك حين أوصى ابنه وولى عهده بعدة وصايا حفاظاً على المبادىء والتعاليم التى قامت على أساسها الدولة ، وتتلخص فى الحرص على العلاقات الطيبة مع المصامدة ، والمحافظة على المعاهدة المعقودة بين المرابطين

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٨٥ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ٣٦ ، ٣٧ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٦٠ .

(٣) د. حسن ابراهيم: تاريخ الاسلام السياسى والثقافى ج٤ ص ١٢٥ ط ١ سنة ٦٧ .

Scott ; History af Moorish Empire, Vol 2 : 197 .

Encyclopeadia Britannica Vol 1. P : 674.

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ٧٧ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٠ ، اشباخ : تاريخ الأندلس ج ١ ص ١١٩ ترجمة عنان .

وبين بني هود في الأندلس والمعاملة الطيبة لسكان قرطبة[1] ، ثم أسلم روحه حيث دفن بمراكش[2] .

علي بن يوسف بن تاشفين :

وتولى خلفاً له ابنه علي بن يوسف بن تاشفين في سنة ٥٠٠هـ/١١٠٦م[3] وبالرغم من أن أمير المسلمين الجديد لم يكن قد تجاوز الثالثة والعشرين من عمره[4] إلا أنه أحسن تولّي مقاليد الأمور ، حيث اقتفى سياسة أبيه[5] ، بالإضافة إلى تمتعه بكثير من الخصال التي أحلته مكاناً طيباً في نفوس رعيته ، فقد كان حسن السيرة ، جيد الطوية ، نزيه النفس بعيداً عن الظلم[6] وبجانب ذلك استعان بالفقهاء والعلماء في تسيير دفة الحكم في البلاد[7] وجريا على سياسة والده في إحياء مبدأ الجهاد ، فانه ما إن فرغ من تسلم مقاليد الحكم في البلاد حتى شرع في استكمال الجهود الحربية التي بدأها والده في ميدان الأندلس[8] والمتتبع للنشاط الحربي للأمير علي بن يوسف ، في الفترة الأولى من عهده نجد أن معظمها كان موجهاً للأندلس وذلك لتثبيت سلطان المرابطين بالأندلس

---

(١) محمد عثمان المراكشي : الجامعة اليوسفية بمراكش ص ٩٠ سنة ٣٧ الرباط .

Cayangos : The History of Mohamedan V.2 P; 302,

(٢) الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٢١٣ .

(٣) النويري : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ ، ابن ابي دينار : المؤنس ص ١٠٥ ، لينبول : طبقات سلاطين الاسلام ص ٤٧ ، زامباور : معجم الأنساب ج ١ ص ١١٣ :

Murphy : The History of the Mahometan, P: 130 London 1816, Scott : History of Moorish Empire, Vol 2 P: 242.

(٤) ليفي بروفنسال : الاسلام في المغرب والاندلس ص ٢٤١ ترجمة د. السيد عبد العزيز سالم ، الألف كتاب .

(٥) المراكشي : المعجب ص ١٧١ .

Murphy : The History of Mahometan, P : 130.

(٦) المراكشي : المعجب ص ١٧١ ، اشباخ : تاريخ الاندلس في عهد المرابطين والموحدين ج ١ ص ١٢١ .

(٧) النويري : نهاية الأرب : ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ .

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٢ تـ د. احسان عباس .

ومواجهة هجمات المسيحيين المتكررة ، ولذلك نراه يعبر بنفسه إلى الأندلس أربع مرات[١] . وكان لانتصارات على بن يوسف صداها فى العالم الإسلامى مما دفع الخليفة العباسى المستظهر إلى إرسال رسالة يجدد فيها رضاه عنه كما فعل مع والده من قبل وينصحه بمواصلة الجهاد ، ومما جاء فيها « فاتخذ التقوى عمادك والحق منارك وكتاب الله وسنة رسوله شعارك وتجرّد للدفاع عن الإسلام والمسلمين وحط من صعادك فى نحور أعداء الله الكافرين »[٢].

ظهور محمد بن تومرت :

غير أن الدولة لم تنعم بالإستقرار طويلا ، حيث ظهر على مسرح الأحداث داعية دينى هو محمد بن تومرت الذى استطاع بما أوتى من علم وذكاء أن يغيّر من أوضاع البلاد ويدخل فى صراع جدلى وحربى مع المرابطين ذلك الصراع الذى انتهى بسقوط دولة المرابطين على يد عبد المؤمن بن على خليفة المهدى بن تومرت . وكثير من المؤرخين يرجعون نسب ابن تومرت إلى البيت النبوى حيث يذكرون نسبه بقولهم : هو محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن ابن هود بن خالد بن تمام بن عدنان بن سفيان بن صفوان بن جابر بن عطاء بن رباح بن محمد بن الحسن بن على بن أبى طالب رضى الله تعالى عنهم[٣] ويذكر البيذق نسبة أخرى تنتهى أيضاً إلى بيت النبوة حين يقول « ينقل من يوثق بنقله من قرابته وغيرهم ، محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل ابن حمزة بن عيسى بن عبد الله بن إدريس بن إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم »[٤] وهذه النسبة إلى

---

(١) د. السيد عبد العزيز : تاريخ مدينة المرية ص ٩١ سنة ٦٩، دار النهضة ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٤١ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٤ الرباط سنة ١٩٦٥ ، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٠١ ، ١٠٢ ت الفيلالى ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٥ ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٢ ط ١ تونس سنة ١٢٨٩ هـ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٣٢٦ .
١٩٢٨ م .

(٤) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٢١ ت بروفنسال سنة ١٩٢٨ م .

بيت النبوة تشكك فيها بعض المؤرخين أمثال تراس وجوليان وليفي بروفنسال وجولد تسيهر(١) غير أن ابن خلدون دافع عن نسبة ابن تومرت إلى بيت النبوة ، وفنّد مزاعم من هاجم هذه النسبة ، وأرجعها إلى حقد العلماء والفقهاء فى الدولة المرابطية ، الذين خشوا من ضياع نفوذهم وسلطانهم حين هاجمهم ابن تومرت وكشف عن ضيق أفقهم وتزمتهم ، وبخاصة حين كثر إلتفاف الجماهير حول الداعى الجديد ودعوته(٢) وقد استغل ابن تومرت نسبته إلى البيت النبوى فى تثبيت دعوته فى نفوس أتباعه معلنا أنه المهدى المنتظر ، وابن تومرت من قبيلة هرغة احدى قبائل المصامدة(٣) .

رحلة ابن تومرت العلمية :

وقد نشأ ابن تومرت نشأة دينية محبا للعلم وحريصاً عليه(٤) غير أن تلك الدراسات التى تلقاها فى موطنه لم ترو ظمأه العلمى ومن هنا قام برحلة علمية إلى المراكز الثقافية المشهورة فى العالم الإسلامى ، وقد بدأ رحلته إلى الأندلس على رأس المائة السادسة من الهجرة حيث نال حظاً من العلم(٥) ، ثم واصل رحلته بعد ذلك إلى المشرق ماراً بالإسكندرية ومنها إلى مكة ثم بغداد(٦) حيث التقى بأكابر علمائها وتلقى عنهم العلوم الدينية من أمثال أبى بكر الطرطوشى ، واختلف المؤرخون فى لقاء ابن تومرت بالإمام الغزالى ، فمنهم من يثبت ذلك

---

(١) د. عبد الله علام : الدولة الموحدية فى عهد عبد المؤمن بن على ص ٤٧ دار المعارف بمصر سنة ١٩٧١ .

(٢) ابن خلدو ن: مقدمته ص ٢٦ ، ٢٧ بيروت .

(٣) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٠٣ ، ١٠٤ ت الفيلالى ، المراكشى : المعجب ص ١٧٨ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٣٥ .
Budgett : The Moorish Empire, P : 165

(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٣٦ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤ .

(٦) المراكشى : المعجب ص ١٧٨ ، ابن القطان : نظم الجمان ص٣، ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٤ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٦ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٦ .
Scott : History of Moorish Empire Vol, 2 P : 249
Encyclopeadia Britannica Vol. 1 P : 672,
Encyclopeadia of Islam, Vol, 2, p : 426.

ومنهم من يتشكك فيه ، ومنهم من ينفيه[١] حتى إذا أنهى دراسته العلمية والتى استغرقت خمسة عشر عاماً[٢] كرّ راجعاً إلى المغرب ، وقد تزوّد من هذه الرحلة بقدر كبير من المعرفة والثقافة ظهرت نتائجها فى كثير من آرائه الدينية التى نادى بها فيما بعد كتأثره بآراء ابن حزم[٣] ، كما أن هذه الرحلة فتحت عينيه على حالة المسلمين السياسية بالمشرق ومدى الانقسام الذى تعيشه الدويلات الإسلامية وضعف الخلافة العباسية[٤] لذا عزم على تحقيق الوحدة الإسلامية فى ظل خلافة موحدة ومن ثم بدأ دوره كمصلح دينى خلال رحلة العودة وأثناء مروره بمدن المغرب حاول تغيير الأوضاع الفاسدة التى لمسها فى المدن المغربية التى مر بها كبجاية وتلمسان[٥] ، وفى كل مكان يحلّ به يجد إستجابة من الجماهير ورفضا من الحكام الذين رأوه خطراً يهدد مصالحهم ومراكزهم .

اللقاء بين ابن تومرت وعبد المؤمن بن على :

غير أن رحلة العودة هذه تكتسب أهمية خاصة وذلك حين التقى ابن تومرت داعى الموحدين بعبد المؤمن بن على التلميذ المخلص لابن تومرت والمؤسس الفعلى لدولة الموحدين فى قصة طويلة تدل على ذكاء ابن تومرت

---

(١) «حول لقاء ابن تومرت بالامام الغزالى ، اختلف المؤرخون فمنهم من يثبت ذلك مثل ابن القطان وابن صاحب الصلاة وابن أبى زرع والسلاوى وابن خلكان والزركشى فى تاريخ الدولتين وابن أبى دينار حيث يذكر أن ابن تومرت لازم الغزالى ثلاث سنين . ومنهم من يشير الى هذا اللقاء فى تحفظ لا يخلو من الشك مثل عبد الواحد المراكشى فى المعجب وابن خلدون والنويرى فى نهاية الأرب ، ومنهم من أنكر هذا اللقاء مثل ابن الأثير فى الكامل ، وقد وفى هذه المسالة حقها من البحث الاستاذ أويشى فى كتابه « تاريخ الدولة الموحدية » ، وانتهى الى أن قصة هذا القاء موضوعه وأن القرائن التاريخية تدل على استحالة وقوع ذلك : د. محمد على مكى — حاشية نظم الجمان لابن القطان ص ١٦ » .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤ .

(٣) The Encyclopeadia of Islam Vol. 2. P ; 426,

(٤) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث ج ٢ ص ٢٢٠ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ١٧٩ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٢١ ، ٢٢ ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٢ ، ٣ .

وقدرته على استمالة الأنصار والأتباع(١) ، وقد حرص عبد المؤمن على مصاحبة أستاذه فى كل مكان يذهب إليه ، يحفظ عنه مبادئه وتعاليمه ، ويرقب عن كثب إلتفاف الناس حول الداعى ودعوته(٢) وكان الصدام المباشر بين ابن تومرت والسلطة الحاكمة فى البلاد حين وصل إلى مراكش فى منتصف ربيع الأول عام خمسة عشر وخمسمائة(٣) ، وهناك قام بدوره فى الوعظ والإرشاد ووصلت أنباؤه إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين الذى جمع له مجلساً من كبار الفقهاء والعلماء وكانت مناظرة بين ابن تومرت وعلماء المرابطين حيث بدأها قاضى المرية مستفسراً من ابن تومرت عمّا صدر منه من أقوال ضد أمير المسلمين ، وهنا أقرّ ابن تومرت ما نسب إليه من أقوال ، ودعّم أقواله بذكر المنكرات المتفشية فى المجتمع وذلك أن الخمر تباع جهاراً وأن الخنازير تمشى بين المسلمين ، وأن أموال اليتامى تؤخذ ظلماً وغير ذلك من الأقوال ، وهنا تأثر أمير المسلمين بأقواله حتى ذرفت عيناه وصمت علماء المرابطين ، غير أن مالك بن وهيب حذّر أمير المسلمين من دهاء ابن تومرت وطالب بسجنه ولكن أمير المسلمين لم يستجب له(٤) والواقع أن ابن تومرت استغل صلاح وتقوى أمير المسلمين حين ظهر فى ثوب من يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر ولم يفصح عن حقيقة نواياه وبذلك استطاع التأثير فى أمير المسلمين .

وأسفرت المناظرة عن طرد ابن تومرت من مراكش ، خشية التأثير فى العامة فضلا عن إضعاف مركز الفقهاء ، وكان ذلك بأمر أمير المسلمين على

---

(١) ابن القطـان : نظم الجمان ص ٢٢ ، العيني : عقد الجمان ج ٢٠ قسم ٤ ص ٧٧٢ تصوير شمسى ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٢٧ ،ابن ابى زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٠٧ ت الهيلالى ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٦٧ ، ت العبادى

Nevill: Morocco,, P: 71 London 1965.

(٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ١٢٧ .

(٣) الزركشى : تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ص ٣ .

(٤) ابن خلكان : : وفيات الأعيان ج٤ ص ١٣٨ ـــ١٤٠ ، د.عبدالله علام: الدولة الموحدية بالمغرب ص ٦٠ ، ٦١ د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية ص ١٠٠ ، ١٠١ ، عبد الله كنون : النبوغ المغربى ج ٢ ص ٧٣

ابن يوسف وكان هذا الطرد خطأ كبيراً دفعت الدولة المرابطية ثمنه غالياً حيث كلّفها ذلك زوال الدولة ، فما إن فارق ابن تومرت مراكش حتى أعلن عن نواياه فى مواجهة السلطة الحاكمة ، حيث أعلن خلع إمام المسلمين على ابن يوسف وبايعه من حوله إماماً للدعوة الجديدة ، وكان ذلك فى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م على أرجح الآراء[١] وانتهى المطاف بابن تومرت فى مدينة تينملل، تلك المدينة التى أصبحت فيما بعد العاصمة السياسية والروحية للموحدين فى عهد ابن تومرت ، ثم العاصمة الروحية لخلفاء الموحدين، وقد توجّه إليها ابن تومرت نتيجة لدعوة أهلها له للإقامة بين أظهرهم[٢] . وفيها وجد ابن تومرت ضالته المنشودة حيث أنها مدينة منيعة وحصينة[٣] مما جعلها مركزاً صالحاً فى توجيه شئون الدعوة ، وفى نفس الوقت تتمتع بمناعة تجعلها بعيدة عن متناول السلطة الحاكمة .

وسائل ابن تومرت فى دعم سلطته :

وما إن استقر ابن تومرت فى تينملل حتى شرع فى تحقيق مبادئه السياسية والدينية والتى تنحصر فى إقامة خلافة إسلامية بالمغرب ، والقضاء على التزمّت الدينى الذى كان يحياه فقهاء المغرب والحدّ من سيطرتهم[٤]. وفى سبيل تحقيق هذه المبادىء إستخدم ابن تومرت كل ما يملك من أسباب القوة من دهاء وحزم وعلم[٥] حتى يحقق مايريد، وكانت وسائله متنوعة ومتعددة، فقد بدأ ببناء رابطة يستقبل فيها المريدين ، ثم قام بدور المعلم الذى يبث نصائحه

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١٧٨ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٧٤ .

The Encyclopeadia of Islam, Vol 1, P: 316

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٩٣ ، ٩٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٩٥ .

(٤) ابن عبود : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٢٧ ط ٢ سنة ٥٧ تطوان، اشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٢٤٠ ، محمد المنونى : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين ص ١١ تطوان سنة ١٩٥٠ .

(٥) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٥ ص ٣٧ ، ٣٨ تصوير شمسى .

وأفكاره بين مريديه ، بدون أن يظهر رغبة فى الملك والسلطان[١] ، وحتى يسهل على الأتباع حفظ مبادئه وأفكاره نراه يؤلف لهم عقيدة فى التوحيد بلغة البربر[٢]. ثم هو يعمد إلى التأثير بوجه خاص فى أغمار الناس وجهالهم وذلك حتى يسلس قيادهم وفى ذلك يقول ابن خلكان والسلاوى « ثم إن أهل الجبل تسامعوا بوصول محمد بن تومرت إليهم ، وكان قد سار فيهم ذكره فجاءه من كل فج عميق ، وتبركوا بزيارته ، وكان كل من أتاه استدناه ، وعرض عليه ما فى نفسه من الخروج على الملك ، فان أجابه أضافه إلى خواصه ، وإن خالفه أعرض عنه ، وكان يستميل الأحداث وذوى الغرة »[٣] ، وفى نفس الوقت لم يكتف بالقبائل الوافدة عليه بل أرسل الكتب إلى القبائل المختلفة يدعوها إلى الإنضمام إليه والخروج على الدولة[٤] ، وحتى يؤكد نفوذه وسيطرته بين أتباعه ، نراه يلجأ إلى الحيلة والخداع ، وذلك حين حين اتفق مع أحد تلاميذه ، وهو عبد الله الونشريسى وكان على علم ومعرفة فصيحاً فى لغة العرب وأهل المغرب[٥] اتفق معه على أن يظهر العجز والعى والجهل أمام الأتباع والمريدين ، ثم يظهر عكس ذلك فى الوقت المناسب الذى يختاره المهدى ، وجاءت اللحظة المناسبة حين جمع المهدى القبائل وأخبرهم بحال الونشريسى التى لمسوها بأعينهم وهى عدم القدرة على الكلام مع الجهل التام ، ثم حدوث المعجزة بأن أصبح فصيحاً بليغاً عالماً بشئون القرآن ، وهنا يظهر الونشريسى ويؤكد ما قاله الإمام ، وبذلك سيطر ابن تومرت على القلوب والعقول[٦] ويبدو أن ابن تومرت لم يدخر وسيلة إلا واستغلها مع

---

(١) المراكشى : المعجب : ص ١٨٧ ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٧ ، جوليان : تاريخ افريقيا ص ٧٥ ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٩ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٤٢ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٨٣ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٤ ، ٨٥ .

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٣٩ .

(٦) نفس المصدر السابق جـ ٤ ص ١٣٩ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، النويرى : نهاية الأرب ، جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٥ ، ٨٦ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ قسم ٤ ص ٧٧٣ ، ٧٧٨ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٧ .

ما أوتى من ذكاء ومهارة بالإضافة إلى إختياره للسذّج ليكونوا أتباعاً له ، ومن ثم يسهل عليه السيطرة عليهم وأصبحت له الكلمة العليا فى كل شئونهم أو كما يقول المراكشى « ولم تزل طاعة المصامدة لابن تومرت تكثر وفتنتهم به تشتد وتعظيمهم له يتأكد ، إلى أن بلغوا فى ذلك إلى حد لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو ابنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء »(١)فاذا ماحاول بعض أتباعه التشكك فى سلطته السياسية ودعوته الدينية قضى عليهم مستغلا فى ذلك قصة البشير الونشريسى يقول البيذق«ثم أقام أياما عدة فأكرم الله المهدى بدعوة البشير فأمر بالميز ، فكان البشير يخرج المخالفين والمنافقين والخبثاء من الموحدين حتى امتاز الخبيث من الطيب ورأى الناس الحق عياناً»(٢) وكانت مذبحة راح ضحيتها الكثير من الأنفس مع ما فيها من قسوة وبشاعة ، وقد صور ذلك العمرى والنويرى بقولهما «فكان الونشريسى يعمد إلى الرجل الذى يخالف ناحيته ، فيقول هذا من أهل النار ، فيلقى من الجبل وإلى الشاب الغر ومن لا يخشاه ، فيقول هذا من أهل الجنة فيترك عن يمينه ، فكانت عدة القتلى سبعين ألفاً»(٣) ولا شك أن ابن تومرت قد عمد إلى التخلص من مناوئيه يدعم ذلك ماروواه البيذق وهو أحد تلاميذ ابن تومرت ومن المخلصين للدعوة الموحديه ، غير أن ماروواه العمرى والنويرى عن عدد من قتل يبدو عليه طابع المبالغة حيث لا يجوز منطقياً أن يتخلص ابن تومرت من سبعين ألفاً من أتباعه وهو بسبيل تأسيس دولة ، فضلا عن الأثر السيء الذى يحدثه قتلهم فى نفوس ذويهم وأقاربهم مما يشكل خطراً على الدعوة الموحدية ، وقد تكرر ذلك التمييز بهدف القضاء على المتشككين فى الدعوة(٤) وبجانب عمليات التمييز المتكررة قضى ابن تومرت على كل معارضة فى عاصمته تينملل وذلك حين أحس من بعضهم إعراضاً(٥) .

---

(١) المراكشي : المعجب ص ١٩١ .

(٢) البيذق : أخبـــار المهدى بن تومرت ص ٧٨ ت ليفى بروفنسـال باريس سنة ١٩٢٨ .

(٣) العمري : مسالك الابصار جـ ١٦ قسم ٢ ص ٢٦٦، ٢٦٧ ، النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٦ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١١٤ .

(٥) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ١٥ .

ومن هنا نرى أن ابن تومرت لم يدع وسيلة إلا إستخدمها في سبيل التأثير على أتباعه ، وجعلهم أداة طيّعة لتحقيق أهدافه السياسية والدينية ، حتى إذا تحقق من ولائهم له بدأ الكفاح المسلح الذى أصبح ضرورة حتمية لنجاح دعوته(١) وقد شارك ابن تومرت فى الكفاح المسلح إذ تذكر المراجع أنه اشترك فى تسع غزوات ضد المرابطين(٢) ، إلا أن معركة البحيرة فى سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م على أرجح الآراء ، كانت بداية النهاية لحياة ابن تومرت ، إذ أصيب ، الموحدون بهزيمة شنعاء قتل فيها عدد كبير من الموحدين(٣) . وكانت صدمة كبيرة لابن تومرت الذى وصلته أنباؤها وهو فى تينملل . غير أن ما خفف من هذه الصدمة هو بقاء عبد المؤمن بن على على قيد الحياة(٤) . وقد صور ذلك المراكشى بقوله « فانهزم المصامدة وقتل منهم خلق كثير ، ونجا عبد المؤمن فى نفر من أصحابه ، فلما جاء الخبر لابن تومرت قال : أليس قد نجا عبد المؤمن ، قالوا : نعم قال : لم يفقد أحد »(٥) إلا أن الصدمة كانت أقوى من أن يتحملها ابن تومرت فما لبث أن مرض ولزم داره حتى فارق الحياة فى سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م(٦) بعد أن ترك حرباً مشتعلة على أرض المغرب الأقصى ، وأتباعا يؤمنون بمبادئه ، ويحاربون

---

(١) د. احمد شلبى : التاريخ الاسلامى جـ ٤ ص ١٨٦ ط ٣ سنة ٦٩ النهضة .

(٢) البيذق : اخبار المهدى ص ٧٤ الى ص ٧٨ د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٧٩ ، د. عبد الله على علام : الدعوة الموحدية ص ٢٠٤ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١١٨ ، ص ١١٩ ، ص ١٢٠ ، المراكشى : المعجب ص ١٩٢ ، ص ١٩٣ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨١ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٦ ت. د. احسان عباس ، محمد عبدالله عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الأول ص ١٩٠ ط ١ سنة ٦٤

(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨١ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٢ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ١٩٣ .

(٦) البيذق : اخبار المهدى بن تومرت ص ٨٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٨٤ ت د. احسان عباس ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٧٤ ، المراكشى : المعجب ص ١٩٤ ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٧٠ .

فى سبيلها ، ودولة متداعية تحت ضربات الموحدين حتى سقطت فى النهاية على يد تلميذه المخلص وخليفته من بعده عبد المؤمن بن على .

عبد المؤمن بن على :

وكما اختلف موقف المؤرخين من نسبة ابن تومرت إلى بيت النبوة ، كذلك أيضاً بالنسبة لخليفته عبد المؤمن بن على ، فمنهم من نسبه إلى العرب(١) وفى ذلك يقول المراكشى « وعبد المؤمن هذا ، هو عبد المؤمن بن على الكومى أمه حرة من كومية أيضاً ، من قوم يقال لهم بنو مجبر ، مولده بضيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرا ، وقيل أنه كان يقول إذا ذكرت كومية : لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأخوال »(٢) ومنهم من ينكر هذه النسبة(٣) وكان مولده فى آخر سنة ٤٨٧ هـ / ١٠٩٤ م فى أيام يوسف بن تاشفين(٤) ، وبعد أن فرغ عبد المؤمن من تنظيم شئون الموحدين ، وقد استغرق ذلك منه زهاء عام ونصف(٥) شرع فى الكفاح المسلح ضد المرابطين ، ذلك الكفاح الذى استغرق سنوات طويلة حتى سقطت دولة المرابطين ، قضى عبد المؤمن منها زهاء عشر سنوات يحارب المرابطين فى منطقة الأطلس جنوبى مراكش فى وادى درعة وبلاد السوس وفى بلاد حاحة من أحواز تينملل ، وقد كان النصر حليف الموحدين فى معظم هذه المعارك (٦) .

تاشفين بن على :

إلا أن وفاة عاهل المرابطين على بن يوسف بن تاشفين فى عام

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٢٦ ، ١٢٧ ، البيذق : أخبار المهدى ص ٢١ ، ص٢٢ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٤.

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٩٦ ، ص ١٩٧ .

(٣) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٥ ص ٤٠ تصوير شمسى ، ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والأندلس ص ٢٧٥ ت . د. محمود السيد سالم .

(٤) المراكشى : المعجب ص ١٩٧ .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٢٢٥ .

(٦) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٢٣٤ ، البيذق : أخبار المهدى ص ٨٤ وما بعدها .

٥٣٧ هـ / ١١٤٢م(١) ، وتولى ابنه تاشفين بن على الحكم من بعده أدخل الكفاح المسلح فى مرحلته الأخيرة ،حيث لم تفلح جهود تاشفين بن على فى صد موجات الموحدين المتتابعة ، وانتهى به المطاف فى وهران حيث قتل سنة سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م(٢) ، وفتّ هذا فى عضد الدولة المتداعية ، والتى أصبح كثير من أراضيها فى أيدى الموحدين .

اسحق بن على :

وكمحاولة أخيرة من المرابطين فى الاحتفاظ بكيانهم المتداعى فانهم قدّموا عليهم ابراهيم بن تاشفين الذى لم ينعم بالسلطة حيث نازعه فيها عمه اسحق بن على بن تاشفين وتولى مكانه السلطة(٣) . ولم يستطع اسحق بقواته المتجمعة فى عاصمته أن يدفع ذلك الحصار الذى فرضه عبد المؤمن حول عاصمة المرابطين فى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م(٤) حتى سقطت فى يده ، وأعمل فيها عبد المؤمن السيف حتى قضى على كثير من أهلها(٥) ، وبسقوط العاصمة مراكش انتهت دولة المرابطين ، ذلك الصرح الشامخ الذى وضع لبناته الأولى عبد الله بن ياسين كداعية دينى جمع حوله الأتباع ، وجهود يحيى ابن ابراهيم الجدالى ، فى هذه الفترة من عمر الدولة ثم انتقال السلطة إلى

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٩٢ ت الفيلالى ، زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١١٣ .

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الاول ص ٤٦١ ت عنان ، المراكشى : المعجب ص ٣٠٣ ، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٩٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠٤ ت د. احسان عباس ، الزركلى ، الأعلام جـ ١ ص ١٦١ مصر ١٩٢٧ م .

(٣) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام : القسم الثالث ص ٢٦٤ ص ٢٦٥ ت العبادى ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠٥ ت. د. احسان عباس، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٢٥٥ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب : جـ ٤ ص ١٠٨ ت د. احسان عباس ، ابن دحية : المطرب من اشعار المغرب ص ٣١ ط ١ سنة ٥٤ الخرطوم ، ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٣٨ ت الفيلالى .

(٥) ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الأول ص ١٩٢ ت عنان ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٥ ، المراكشى : الاعلام بمن حل مراكش من الأعلام ص ٢٣٠ ط ١ سنة ٣٦ فاس .

De Gayangos : History af Mohamedan, Vol 2, P; 309.

لمتونة متمثلا فى رئاسة يحيى بن عمر ثم أخيه أبى بكر بن عمر الذى أسلم قيادة الجند الشمال لابن عمه يوسف بن تاشفين ، وبذلك دخلت الدولة فى دور التوطيد والتوسع حتى بلغت قمتها فى أواخر عهد يوسف بن تاشفين وابنه على ، وفى عهده اندلعت ثورة الموحدين التى أتت على كل تلك الجهود الحربية .

عوامل سقوط دولة المرابطين :

ولنا بعد ذلك العرض السريع للتاريخ السياسى لدولة المرابطين أن نشير بايجاز إلى عوامل سقوطها ، ويمكن أن نرجع ذلك إلى عدة عوامل : يأتى فى مقدمتها ضعف القيادة العليا للبلاد ، وذلك منذ تولى على بن يوسف بن تاشفين حكم البلاد مما دعا كثيراً من الأمراء إلى الاستبداد يعبّر عن ذلك المراكشى بقوله « واختلف حال أمير المسلمين رحمه الله بعد الخمسمائة اختلالا شديداً ، فظهرت فى بلاده مناكر كثيرة وذلك لإستيلاء أكابر المرابطين على البلاد ، ودعواهم الاستبداد ، وانتهوا فى ذلك إلى التصريح ، فصار كل منهم يصرّح بأنه خير من على أمير المسلمين وأحقّ بالأمر منه »(١) ، وربما ساعدهم على ذلك إنصراف الأمير على إلى العبادة ، ومما زاد مركز القيادة ضعفاً ، ذلك الخلاف الخطير الذى حدث بين ابراهيم بن تاشفين وعمه اسحق ابن على ، على السلطة فى البلاد والموحدون يزحفون نحو عاصمتهم مما أضعف مركز المرابطين وعجّل بانتصار الموحدين ، وبجانب ضعف القيادة ، تخاذل الجند وتخليهم عن روح التقشف والجهاد التى تربوا فى مهادها ، وذلك لتأثرهم بحياة الترف الأندلسية(٢) كما أن الحروب المستمرة فى جبهة الأندلس استنفدت جزءاً كبيراً من طاقة المرابطين الحربية ، مما أسهم فى هزائمهم

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١٧٧ .

(٢) جوليان : تاريخ افريقيا ص ٧٥ ترجمة طلعت عوض ، ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الاسـلام ص ٤٧ ، د. على محمود : تاريخ الأندلس السـياسى والعمرانى ص ٢٨٤ ، حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٧٠٨ .

J. Spencer ; A History of Islam in West Africa, P ; 25

المتكررة أمام الموحدين يضاف إلى ذلك كثرة الإنفاق على المجهود الحربى الذى استنزف كثيراً من المال مما أدى إلى التدهور الإقتصادى الذى عانته البلاد فى أواخر أيامها .

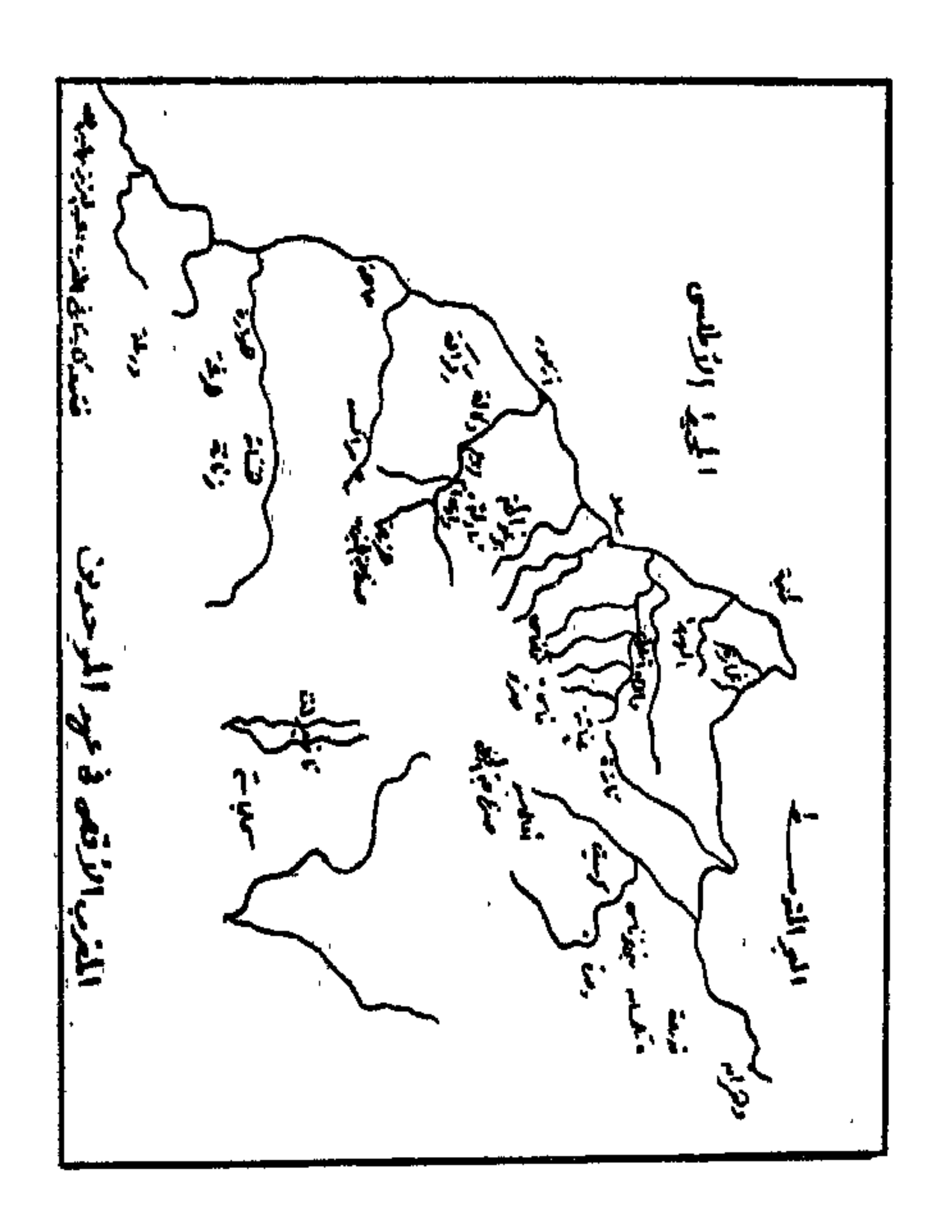
وبجانب ذلك وجود شخصية ذكية لعبت دورها بدهاء على مسرح الأحداث لاجتذاب أكبر عدد ممكن من الأتباع وهى شخصية ابن تومرت الذى تجول فى العالم الإسلامى واستغل ذكاءه وعلمه فى نشر دعوته الدينية التى كانت تناهض مبادىء المرابطين الدينية ، واستخدم كل الوسائل الممكنة فى التأثير على أتباعه ومريديه ، ثم تلك القيادة العسكرية القادرة المتمثلة فى عبد المؤمن بن على خليفة ابن تومرت فى قيادة الموحدين والذى استخدم مقدرته وذكاءه فى محاربة المرابطين من اختيار للزمان والمكان المناسبين للحرب مع حسن الإمدادات لجيشه وعدم توفر ذلك للمرابطين ، وفى ذلك يقول ابن الخطيب « كان الموحدون يسيرون فى الجبال المانعة حيث الأرزاق الواسعة وكان تاشفين ينزل البسائط فلا يجد من البرابرة من يواصله من يستعين به ويداخله وذلك بسبب الإدبار وإنقطاع الدولة والأنصار »(١) مع استناد الموحدين فى دعوتهم إلى قبائل المصامدة الكثيرة العدد ، وقدم عداوتهم للملثمين(٢) .

جهود عبد المؤمن العسكرية :

وبعد أن سيطر عبد المؤمن على مقاليد الأمور فى العاصمة مراكش ، وأحكم قبضته على المغرب الأقصى ، نراه يوجه اهتمامه إلى الشرق ، حيث خرجت الجيوش الموحدية فى حملات متتابعة ناحية الشرق حتى وصلت إلى طرابلس فى إفريقية ، محققة إنتصارات عسكرية متوالية ، وبذلك نجح الموحدون فى تحقيق وحدة سياسية للمغرب الإسلامى ، تدار شئونها من عاصمة الخلافة فى مراكش ، غير أن خضوع هذه المناطق المترامية لسلطة الخلافة الموحدية فى مراكش ، انعكست آثاره على حياة المغرب الأقصى وخاصة

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٢) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٢١٨ .



المغرب الأقصى في عهد الموحدين

منذ أن بدأ الصراع بين الموحدين والعرب الهلالية وهو ما سنعرض له فيما بعد وفى نفس الوقت لم ينس الموحدون واجبهم فى حماية الأندلس ، وذلك حين شرع عبد المؤمن فى تجهيز حملة كبيرة لدفع النصارى عن مدن الأندلس فى سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م(١) ، إلا أن مرض الخليفة عبد المؤمن حال دون إتمام هذه الحملة ، حيث أفضى المرض إلى موته فى سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م(٢) ، بعد أن ترك وراءه دولة مترامية الأطراف تمتد من طرابلس المغرب إلى المحيط الأطلسى ومن السوس الأقصى جنوباً إلى أكثر جزيرة الأندلس شمالا(٣) :

يوسف بن عبد المؤمن :

وتولّى خلفاً له ابنه يوسف بن عبد المؤمن حيث بويع برباط الفتح عام ٥٥٨هـ / ١١٦٢م(٤) ، وذلك لما يتمتع به من صفات العــدل والورع والعلم مما جعله أهلا لتولى منصب الخلافة(٥) وما إن استقر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى عاصمته حتى واجهته ثورة فى جبال غمارة بقيادة مرزدغ الصنهاجى من صنهاجة(٦) حيث تبعه خلق كثير ودخل مدينة تازا(٧) ، إلا أن الخليفة استطاع القضاء على الثورة وقتل زعيمها ، وحمل رأسه إلى مراكش . ثم وجه

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٦٣ ت الفيلالى .

René Millet ; Les Almohades, P ; 93 Paris 1923.

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٣٥ ، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٦٨ ت الفيلالى ، البيذق : أخبار المهدى ص ٨٣ ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٩ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٣٠ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٩ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٢٢٤

Budgett Meakins ; The Moorish Empire, P; 72.

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٦٥ تحقيق ميراندا تطوان سنة ٥٦ .

(٥) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٧٠ .

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٠٧ ، ٣٠٨ تحقيق التـــازى ط ١ بيروت ســـنة ٦٩ ، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٨٤ ت الفيلالى السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٧) نفس المراجع السابقة .

الخليفة يوسف جلّ جهوده لدعم السلطة السياسية للموحدين فى الأندلس ، وقد استنفد منه ذلك كثيراً من الجهد والوقت ، حيث نراه يرسل الجنود فى حملات متتابعة إلى الأندلس ، ثم نراه يرأس إحدى هذه الحملات فى سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م[١] أو سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م فى رواية المراكشى[٢] متوجهاً للأندلس لضبط ثغورها وإصلاح أحوالها . حتى إذا عاد إلى المغرب أخذ فى الأهبة والاستعداد مرة أخرى لغزوة كبرى فى الأندلس وذلك فى عام ٥٧٩هـ ١١٨٣م[٣] إلا أن هذه الغزوة لم يكتب لها النجاح حيث أصيب الخليفة بسهم عند أسوار شنترين مما دفع الجنود إلى الرجوع ومعهم الخليفة المصاب حيث قضى نحبه فى عام ٥٨٠هـ / ١١٨٤م[٤] بعد أن قضى فى الحكم مدة اثنتين وعشرين سنة[٥] .

المنصور الموحدى :

وتولى مقاليد الحكم خلفاً له ابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن فى سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م[٦]، ولقب بالمنصور ، وقد بلغت الدولة الموحدية فى عهده الذى استمر ما يقرب من خمسة عشر عاماً ، أوج ازدهارها وتقدمها وقد توزعت جهود المنصور الموحدى العسكرية فى أكثر من ميدان ، فنراه يوجه إهتمامه للقضاء على ثورتين نشبتا فى عهده : الأولى بزعامة الجزيرى

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٨٦ الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٩ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٤٨ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٥٦ ، ابن ابى دينار : كتاب المؤنس ص ١١٤ .

(٤) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٩٣ ، المراكشى : المعجب ص ٢٦١ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٢ ت ميراندا ، ابن أبى دينار : كتاب المؤنس ص ١١٤، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١٤٧، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثانى ص ٣٠٩ ت بروفنسال

Murpny : The History of the Mohametan, P;132

(٥) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٩٣ ت الفيلالى .

(٦) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١١٣ .

الذى أخذ يدعو لنفسه بين القبائل فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م[١] إلا أنه قضى عليها وقتل زعيمها[٢] ، أما الثورة الثانية فكانت ببلاد الزاب حيث قام أحد الأدعياء ويدعى الأشل بدعوة القبائل لطاعته ، فاجتمع حوله شراذم من العرب وكان ذلك فى عام ٥٨٩هـ / ١١٩٣م[٣] وقد كان الفشل مصير هذه الثورة أيضاً .

جهوده فى أفريقية :

وهناك ميدان آخر استنفد جهداً وأموالا كثيرة وذلك هو ميدان إفريقية وثورة بنى غانية ، تلك الثورة المدمرة التى وصفها الميلى بقوله « دامت ثورة ابن غانية نصف قرن ، ولم يجن الوطن منها غير الخراب[٤] » ، وكان الهدف منها إحياء دولة المرابطين وإعادة الدعاء للخلافة العباسية على المنابر[٥] ولذلك وجّه المنصور الموحدى جهوده للقضاء على هذه الحركة التمردية فخرج من مراكش فى سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م[٦] قاصداً تونس ومحاولا القضاء على هذه الحركة وقد تمّ له ذلك ومن ثم رجع إلى عاصمته فى سنة ٥٨٤ هـ /١١٨٨م[٧] غير أنه لم يجتث بذور الفتنة نهائياً ، ولذلك ظلت هذه الثورة شجا فى جنب الدولة الموحدية عهد المنصور الموحدى وابنه الناصر من بعده . أما الميدان الأخير والذى برزت فيه جهود المنصور الموحدى ، فهو ميدان الأندلس الذى أولاه المنصور إهتمامه وعنايته ، وتوّج هذا الإهتمام بانتصاره العظيم فى معركة الأرك تلك المعركة التى أعادت أمجاد الزلاقة ، وكانت بين جيوش المسلمين بقيادة بطل الأرك المنصور الموحدى وجنود الروم بقيادة الأذفونش

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٤٠ ، ١٤١ ت ميراندا.
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٣١ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ١٥٤ .
(٤) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٢٣٩ .
(٥) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٢٣٦ .
(٦) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٠ ، ١٦١ .
(٧) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٦١ .

فى عام ٥٩١هـ / ١١٩٤م[1] وقد أفاضت المراجع فى وصف هذه المعركة تلك المعركة التى وطّدت من سلطة الموحدين بالأندلس وأوقفت زحف المسيحيين ، وزادت من هيبة الموحدين ومكانتهم فى الشمال الإفريقى حتى إذا حلت سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م أصيب المنصور الموحدى بوعكة أدت إلى وفاته[2] بعد فترة جهاد وكفاح استمرت خمسة عشر عاماً منذ توليه منصب الخلافة

الناصر الموحدى :

وتولى خلفاً له ابنه أبو عبد الله محمد بن يعقوب بن يوسف بن عبدالمؤمن الملقّب بالناصر لدين الله حيث بويع البيعة العامة بعد أسبوع من وفاة أبيه وذلك فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م[3] وقد حدثت فى عهده تطورات سياسية وعسكرية ، إنتقلت بالدولة الموحدية من مرحلة القوة والسيادة التى تمتعت بهما فى عهد عبد المؤمن بن على وابنه يوسف وحفيده المنصور ، إلى مرحلة التمهيد للإنهيار العام للدولة ثم سقوطها . غير أن نذر الضعف لم تظهر فى أوائل عهد الناصر ، حيث حقق فى أوائل عهده وبعد معارك عنيفة فى الجبهة الإفريقية عدة إنتصارات على ثورة بنى غانية إذ توجه إلى إفريقية فى سنة ٥٩٨هـ - ١٢٠٩م[4] وعاد فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م بعد أن حقّق نجاحاً فى الميدان الإفريقى[5] ، وفى سبيل تأمين الجبهة الإفريقية ، ولّى الناصر عليها الشيخ أبا محمد عبد الواحد بن أبى حفص الهنتاتى وكان من أشياخ الموحدين[6] ،

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٨٢ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٦٠ ت ميراندا ، الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ١٢ ت ليفى بروفنسال سنة ٣٧ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٦ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثانى ص ٣٠٩ ليفى بروفنسال .

(٢) ابن عذارى ، البيان المغرب ج ٤ ص ١٨٣ ت ميراندا ، ابن أبى زرع : الأنيس ص ١٦٧ طبع حجر ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١١ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩٢ تحقيق ميراندا ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٦ ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١٤٧ .

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس ص ١٦٨ طبع حجر .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٢٧٠ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٧٠ .

الذى عكف على معالجة شئون إفريقية ودعم سلطان الموحدين بها[1] ، إلا أن ولاية أبى حفص كانت البداية لقيام دولة الحفصيين فى تونس حيث استقل أبناء أبى حفص بهذه الولاية وأسّسوا ملكاً مستقلا[2]، وذلك حين دبّ الضعف فى قيادة الموحدين وآذنت الدولة بالزوال . ولعبت جبهة الأندلس دوراً كبيراً فى ضعف الدولة الموحدية وذلك حين فجع الموحدين بهزيمة قاسية فى معركة العقاب[3] راح ضحيتها الكثير من جند الموحدين ، وأفقدت الموحدين هيبتهم بالميدان الأندلسى ، تلك الهيبة التى أكّد من وجودها المنصور الموحدى بطل معركة الأرك ، وامتدت آثار هزيمة العقاب على مستقبل الأندلس السياسى ،حيث دخلت منذ هذه المعركة فى دور الضعف الذى عجّل بسقوطها بعد ذلك فى أيدى الفرنجة ، وانعكست هزيمة العقاب على المستقبل السياسى للمغرب الأقصى إذ أصيب الناصر بالمرض ، وتوفى سنة ٦١٠هـ/ ١٢١٣م[4] وبوفاته انتهت فترة القوة والازدهار من عمر الدولة الموحدية حيث شهدت الدولة بعد ذلك صراعات بين أبناء عبد المؤمن على السلطة، وتقلّص نفوذ الدولة فى الأندلس وإفريقية ، وسرى الضعف فى أرجائها حتى سقطت الدولة فى سنة ٦٦٨هـ / ١٢٦٩م[5] .

فترة الازدهار فى الدولة الموحدية :

وبذلك عمّرت الدولة الموحدية منذ إستيلاء الموحدين على عاصمة المرابطين

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٧٦ .

(٢) بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسـلامية جـ ٢ ص ١٩٨ ، ابن تنفذ : الفارسية فىمبادىء الدولة الحفصية ص ١٠٨ ت محمد الشاذلى سنة ١٩٦٨.

(٣) مجهول : الذخيرة السنية ت محمد بن ابى شنب سنة ١٩٢٠، الجزائر، المراكشى : المعجب ص ٣٢١ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثانى ص ٣١٠ ت بروفنسال .

J. Spencer : A History of Islam P; 25.

(٤) المراكشى : المعجب ص ٣٢٣ ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص١٣ ابن ابى دينار : المؤنس ص ١١٩ .

(٥) اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ ٢ ص ١٦٦ ، ترجمة ، عنان .

فى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م حتى سقوط مراكش فى يد بنى مرين سنة ٦٦٨هـ - ١٢٦٩م[1] ١٢٧ سنة ، تمتعت فيها الدولة بالإزدهار والرقى فى شتى المجالات فى عهد الخليفة الأول عبد المؤمن حتى حفيده الناصر ، وهى فترة زمنية تمتد منذ سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م حتى هزيمة العقاب فى سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م ، قام فيها خلفاء الموحدين بدور كبير فى تقدم المغرب الأقصى ، وكان ذلك استكمالا لجهود من سبقهم من أمراء المرابطين .

وهكذا شهد المغرب الأقصى منذ أن تولى المرابطون السلطة السياسية حتى هزيمة العقاب فى عهد الموحدين ، عهداً غنياً بالأحداث السياسية ، برزت من خلاله حياة إدارية محكمة ، وتقدماً إقتصادياً ، وحركة فى البناء والتعمير ، ومجتمعاً ينعم بالرخاء فى ظل حركة ثقافية مزدهرة وهذا ماسنتناوله باذن الله فى الفصول التالية .

---

(١) ابن عبود : تاريخ المغرب ص ١٢١ .

الفصل الثانى

السلطة العليا فى البلاد

أ ـ الخلافة

إستقر الفتح الإسلامى فى المغرب الأقصى على يد موسى بن نصير سنة ٨٧هـ / ٧٠٥م وأصبح إقليما إسلامياً تابعاً للخلافة الأموية فى المشرق إلا أن هذه التبعية لم تستمر طويلا إذ إنفصل المغرب الأقصى بعد ذلك عن الخلافة الأموية فى سنة ١٢٢هـ / ٧٣٩م وذلك بعد فترة من الصراع الدموى ضد السلطة القائمة(١) ، أى أن الفترة التى مكثها المغرب الأقصى معترفاً وخاضعاً لحكم الخلافة فى المشرق استمرت خمسة وثلاثين عاماً ، ثم تولى الحكم فى المنطقة سكان البلاد(٢) ، ولم يتخذ أحد منهم لقب خليفة ، حتى جاء إدريس ابن عبد الله وبايعته القبائل القاطنة بالمغرب الأقصى فى سنة ١٧٢هـ / ٧٨٨م معلناً بذلك قيام دولة الأدارسة ، وبالرغم من استقلاله بالمغرب الأقصى عن سلطة الخلافة العباسية بالمشرق إلا أنه لم يتخذ لقب خليفه . ثم شهد المغرب الأقصى فترة من الضعف وذلك حين دخلت دولة الأدارسة فى مرحلة التبعية للدولة العبيدية سنة ٣٠٥هـ / ٩١٧م ، وأصبحت لا تملك من أمرها شيئاً ، وإنما تخضع لغيرها فتارة تدعو على منابرها للدولة العبيدية بالمغرب ، وتارة تدعو على منابرها لحكام دولة الأندلس وأعقب ذلك إنقسام المغرب الأقصى إلى عدة إمارات أشبه ما تكون بدول الطوائف(٣) ، وقد استمر حكمهم حتى مجىء المرابطين ، وتوحيدهم للمغرب الأقصى فى ظل قيادة سياسية موحدة . وبالنظر لهذا العرض التاريخى السريع ، نجد أن من تولى حكم المغرب الأقصى لم يتخذ لقب خليفة ، بالرغم من استقلالهم السياسى عن سلطة الخلافة فى المشرق ،

---

(١) د. حسن على : دولة الأدارسة بالمغرب ص٥٢رسالة ماجستير سنة ١٩٦٧ تحت الطبع

(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٢ .

(٣) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٥٦ .

المرابطون والخلافة :

قامت الدولة المرابطية على أساس دعوة دينية إصلاحية قام بها عبدالله ابن ياسين فى صحراء المرابطين ، ثم انطلق بهذه الدعوة إلى المغرب الأقصى حتى يتم نشرها فى أرجائه ، وذلك فى ظل حملات عسكرية متتابعة انتهت بخضوع المنطقة لقيادة يوسف بن تاشفين المؤسس الفعلى لدولة المرابطين ؛ وفى عهده تم الإتصال بالخلافة العباسية ، اعترافاً بالخليفة العباسى ، وسلطته الروحية على العالم الإسلامى وفى نفس الوقت طلبا للتأييد والاعتراف من الخلافة العباسية وفى هذا دعم للدولة ودعوتها الدينية التى تأسست عليها ، وقد علل بعض المؤرخين سبب إتصال المرابطين بالخلافة العباسية من أن علماء الأندلس طلبوا من يوسف بن تاشفين إعتراف الخلافة العباسية بشرعيته فى إدارة البلاد[1] .

ومن هنا أرسل يوسف بن تاشفين وفدا إلى بغداد ومعه هدية نفيسة وكتاباً يذكر فيه ما قام به من جهود فى سبيل نصرة الدين ويطلب إعتراف العباسيين به[2] وبطبيعة الحال لم يرسل يوسف بن تاشفين الوفد إلى مصر حيث الخلافة الفاطمية وذلك لعدم إعتراف المرابطين بخلافة العبيدين نتيجة للخلاف المذهبى ، حيث أن المرابطين مالكية ، بخلاف الفاطميين المؤسسين لدولتهم على المذهب الشيعى[3] فضلا عن أن الخلافة الفاطمية تسربت إليها عوامل الضعف والتفكك وكان إتصال المرابطين بالخلافة العباسية عقب الإنتصار العظيم الذى حققه يوسف بن تاشفين فى الزلاقة سنة ٤٧٩هـ/ ١٠٨٦م وما أعقبه من فرض سلطانه السياسى على الأندلس[4] ، وقد استجابت الخلافة العباسية

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ قسم ٢ ص ٣٩٧ ، العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ قسم ٢ ص ٢٥١ ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٤٣ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ .

(٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٣٢ .

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٤٣، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٨ ، د.حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٣٤ .

لهذا الوفد وأرسلت الخلع والتقليد إلى يوسف بن تاشفين[١] ،

واتخذ إعتراف المرابطين بالخلافة العباسية عدة مظاهر تؤيد تلك التبعية الروحية للخلافة العباسية وذلك حين دعا المرابطون على منابرهم لبنى العباس[٢] كما كانوا يذكرون أسماء خلفاء بنى العباس على نقودهم[٣] وبجانب ذلك فإن المرابطين اتخذوا السواد شعاراً لهم فى ملابسهم وأعلامهم اقتداء بزى بنى العباس[٤] .

ولم يكن موقف المرابطين بالنسبة للخلافة العباسية مقتصراً على عهد يوسف تاشفين ، بل امتد إلى من جاء بعده ، فابنه على بن يوسف الذى تولى حكم المرابطين فى سنة ٥٠٠هـ نراه يواصل نفس سياسة أبيه ، وذلك بالإتصال بالخلافة العباسية معترفاً بها وطالباً تجديد العهد[٥] وبطبيعة الحال كان الترحيب والإستجابة من جانب الخلافة العباسية ، وقد تمثل ذلك فى تلك الرسالة التى أوردها صاحب الحلل الموشية[٦] ، والتى أرسلها الخليفة المستظهر إلى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين والتى تتضمن عدة نصائح موجهة من الخليفة العباسى إلى أمير المرابطين — وقد سبق أن ذكرتها فى الفصل السياسى

وقد أصبح الاعتراف بالخلافة العباسية والدعاء لها على المنابر سمة من سمات حكم المرابطين ، وقد تجلى ذلك عقب سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين ، وما حدث فى خلال عهدها من ثورات ، أهمها ثورة بنى غانية

---

(١) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ قسم ٢ ص ٢٥١ ، النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٢ ص ١٤٣ .

Arnold ; The Caliphate, P ; 83

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ قسم ٣ ص ٥٩٩ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٥٨ ، ابن عبود : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٠٩ ، المراكشى : المعجب ص ٢٠٣ .

(٣) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢١٠ ، د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ٩٩ ، ١٠٠ .

(٤) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ص ١٠٠.

(٥) محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسيفية ص ٩٥ ، ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٠١ ، ٢٠٢ .

(٦) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٤ .

الذين ينتمون بنسبهم إلى المرابطين ، فما إن ينجحوا فى الاستيلاء على مدينة مغربية حتى يدعون فى خطبهم لبنى العباس ، وذلك ما حدث حين استولى على بن إسحاق الميورقى فى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م على مدينة بجاية وأقام الخطبة فيها لبنى العباس (١) ، وكذلك حين استولى يحيى بن غانية على افريقية لعدة أعوام يسيرة ودعائه على منابرها للخلافة العباسية(٢) وهذا السلوك من بنى غانية المنتمين للمرابطين ، إنما هو امتداد لسياسة أسلافهم المرابطين ، وفى نفس الوقت دعم لثوراتهم ضد الموحدين الذين لم يعترفوا بالخلافة العباسية :

الموحدون والخـــلافة :

اختلف موقف الموحدين عن المرابطين ، فبينما اعترف المرابطون بالخلافة العباسية ، كان الموحدون على العكس من ذلك غير معترفين بالخلافة العباسية بل اعتبروا أنفسهم خلفاء ، وأن مركز الخلافة مراكش وليس بغداد ، وهذا يرجع إلى عدة عوامل :

أولها : تلك الرحلة الطويلة التى قام بها ابن تومرت ، وطوف فيها ببلدان المشرق وعاين الضعف السياسى الذى تعانيه الخلافة العباسية نتيجة للتفكك والانقسام(٣) ، ومن هنا أحس ابن تومرت بضرورة إنشاء خلافة إسلامية قوية متماسكة على أنقاض هذه الخلافة المتداعية .

والعامل الثانى : تلك الدعوة الإصلاحية التى عاد بها ابن تومرت من المشرق ، والتى كان يحاول فرضها فى كل مكان يحل به ، حتى إذا وصل إلى المغرب الأقصى نشرها بكل الوسائل بين سكان المنطقة ، الذين آمنوا بأنهم على الحق ، وأن سواهم على الباطل ، وتأكيداً لذلك فقد أطلق عليهم ابن تومرت لقب الموحدين(٤) ، ومن هنا كان من يخلفه فى رئاسة الموحدين هو الخليفة الحق وأن من عدا ذلك من الخلفاء على الباطل .

---

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ١٤٩، ١٥٠
(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٠٣ .
(٣) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٢٧ .
(٤) ابن أبى دينار : كتاب المؤنس ص ١٠٩ .

والعامل الثالث : ذلك الإتساع الكبير الذى حققه خلفاء الموحدين حتى امتد نفوذهم إلى طرابلس شرقاً وإلى المحيط الأطلسى غرباً مع خضوع الأندلس لسلطانهم كل هذه المناطق الشاسعة والخاضعة لسلطة الموحدين جعلتهم يشعرون بقوة مركزهم إذا ما قورن بمركز الخلافة ببغداد ، مما استلزم معه إنتحالهم لألقاب الخلافة .

والعامل الرابع : هو محاربة الموحدين لكل آراء وأعمال المرابطين ، فاذا كان المرابطون قد عمدوا إلى الإعتراف بالخلافة العباسية ووطدوا العلاقات معها ، فان الموحدين استقلالا بسلطانهم الروحى والسياسى رفضوا ذلك الإعتراف . وحتى يدعم الموحدون مركزهم الخلافى فقد اتخذوا من الوسائل ما يعضد من مقعد الخلافة فى المغرب يقول د . العبادى « كان لابد أن تستند خلافتهم — أى خلافة الموحدين — أيضاً إلى الأسس الشرعية اللازمة كالنسب النبوى أو الأصل العربى ، لهذا قالوا بانتماء كل من المهدى وعبد المؤمن إلى الرسول صلى الله عليه وسلم عن طريق الأدارسة واتخذوا اللون الأخضر شعاراً لهم كى يظهروا ميلهم إلى الدعوة العلوية كما تشبهوا بالرسول فى تصرفاته وأعماله(١) » وقد وضح ذلك فى سلوك ابن تومرت والخطوات التى اتخذها فى سبيل إدعائه المهدية ، كذلك إعلان عبد المؤمن — المؤسس الفعلى لدولة الموحدين — ذلك النسب العربى واعتزازه بذلك(٢) .

وهكذا شهد المغرب الأقصى فى ظل دولتين متعاقبتين موقفين مختلفين من الخلافة : موقف المرابطين الذى دعم وجوده الروحى والسياسى بالإتصال بالخلافة العباسية معترفاً بها طالباً تأييدها ورضاها ، وموقف الموحدين الذى لم يعترف بالخلافة العباسية ، وفى نفس الوقت مقيماً لأول مرة فى تاريخ المغرب الأقصى مركزاً للخلافة .

---

(١) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١١٠ ، ١١١ .

(٢) البيذق : أخبار المهدى ص ٢١ ، ٢٢ ، ابن أبى زرع : الإنيس ج ٢ ص ١٢٦ ، ص ١٢٧ ت الفيلالى ، المراكشى : المعجب ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

طريقة تولى يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على الحكم :

استقل يوسف بن تاشفين بالسلطة فى المغرب الأقصى ، وورّث الحكم من بعده أبناءه كذلك فعل عبد المؤمن بن على حين أسس دولة الموحدين وورث الحكم من بعده أبناءه ، ومن هنا كان من الضرورى إلقاء الضوء على الطريقة التى وصل بها كل منهما إلى معقد الحكم .

طريقة تولى يوسف بن تاشفين الحكم :

تولى الأمير أبو بكر بن عمر رئاسة المرابطين سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م وذلك بعد مقتل أخيه يحيى بن عمر فى سجلماسة[١] ، واضطلع الأمير أبو بكر بدور الجهاد فى المغرب الأقصى ، غير أن فتنة نشبت بين قبائل المرابطين القاطنة فى الصحراء جنوب المغرب الأقصى مما جعلت أبا بكر بن عمر يسرع بالرجوع إلى الصحراء تاركاً ابن عمه يوسف بن تاشفين قائداً للجند وذلك للقضاء على الفتنة فى مهدها وكان ذلك فى سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م[٢] وهنا يبرز دور يوسف ابن تاشفين كنائب لابن عمه الأمير أبى بكر بن عمر فى قيادة جند المرابطين أثناء غيابه ، وفى سبيل دعم مكانة يوسف بن تاشفين ، لم يكتف الأمير أبو بكر بن عمر باختياره ، وترشيحه ، بل أيّد ذلك بموافقة شيوخ المرابطين حتى يدعم من مكانته . يقول ابن أبى زرع والسلاوى « فلما أراد السفر منها — أى الأمير أبو بكر بن عمر وسفره من سجلماسة إلى الصحراء — دعا ابن عمه يوسف بن تاشفين فعقد له على المغرب وفوض إليه أمره ، وأمره بالرجوع إلى قتال من به من مغراوة وبنى يفرن وقبائل البربر وزناته ، واتفق على

---

(١) أكنسوس : الجيش العرمرم الخماسى لوحة ٢٧ ميكروفيلم ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ٢٣١ ت العبادى .

(٢) لسان الدين الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ٢٣١ ت العبادى ، بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ١٨٣ بوفيل : الممالك الاسلامية فى غرب أفريقيا ص ١٠٠ .

تقدمه أشياخ المرابطين لما يعلمون من دينه وفضله وشجاعته وحزمه ونجدته وعدله وورعه وسداد رأيه ويمن نقيبته »[١]

ومنذ هذه اللحظة عمل يوسف على توطيد سلطته وإحكام قبضته على مقاليد الأمور والإنفراد بالحكم حتى إذا عاد أبو بكر بن عمر من الصحراء فى سنة ٤٦٥هـ / ١٠٧٣م[٢] كان من الصعب عليه عزل يوسف بن تاشفين عن مقعد الرئاسة وتضافرت عدة عوامل فى تمكين يوسف من البقاء فى مقعد الحكم :

أما العامل الأول : فتلك الحملات الحربية الناجحة التى قام بها يوسف ابن تاشفين وأخضع بها الكثير من أقاليم المغرب الأقصى ، مما زاد فى سلطانه السياسى ومكانته كقائد ناجح بين صفوف المرابطين ، وأصبح مرهوب الجانب فى المغرب ، يقول ابن خلدون : « سار يوسف بن تاشفين فى عسكره من المرابطين ودوّخ أقطار المغرب»[٣] .

والعامل الثانى : تكوين يوسف بن تاشفين لحرسه الخاص ، كقوة ضاربة يستعين بها عند تأزّم الأمور ، كما أنه مظهر من مظاهر القوة والمنعة وأبهة الملك ، وقد اختارهم من غير قومه ، وذلك بأن اشتراهم من السودان ومن الأندلس[٤] ، وقد كوّن بهذا العمل قوة ضاربة تدافع عن منشئها ، وخاصة أن يوسف بن تاشفين قد درّبها على جميع الفنون الحربية وزودهم بالسلاح والخيل [٥] .

والعامل الثالث : زواجه من زينب النفزاوية ، وكانت امرأة حازمة لبيبة ذات رأى وعقل ومعرفة بالأمور[٦] وكانت زوجة لأبى بكر بن

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٣٣ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٢ ، ٢٣ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٤ بيروت .
(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٤ .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٣ بيروت .
(٥) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٣٦٩ .
(٦) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٣٢ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢١ .

عمر[1] ، فلما عزم أبو بكر على السير إلى الصحراء لم يرغب أبو بكر فى اصطحابها معه بل طلقها وتزوجت من ابن عمه يوسف بن تاشفين[2] ، فلما صارت زينب زوجاً ليوسف ، استخدمت كل ما تملك فى سبيل دعم مكانة زوجها ، فأمدّته بالمال الذى استخدمه فى شراء حرسه الخاص ، يقول ابن عذارى « وتزوّج يوسف بن تاشفين زينب النفزاوية ، ودخل بها فسرت به وسر بها وأخبرته أنه يملك المغرب كله فبسطت آماله وأصلحت أحواله وأعطته الأموال الغزيرة فأركب الرجال الكثيرة»[3] وبذلك لعب المال دوره فى تمكين يوسف بن تاشفين من السلطة ، وساندته زينب برأيها ونصيحتها فى تسيير دفة الحكم[4]، وقد تمثّل ذلك فى تلك الخطة التى رسمتها لزوجها يوسف فى لقائه بأبى بكر بن عمر عند عودته من الصحراء لإستعادة مقاليد الأمور وكانت هذه الخطة نقطة الحسم فى القضاء على أى رغبة فى نفس أبى بكر من العودة مرة أخرى إلى مقعد الرياسة ، وقد أورد ابن أبى زرع هذه الخطة بقوله «فأحسّ يوسف بن تاشفين بذلك — أى برغبة أبى بكر فى إستعادة مقعد الحكم — فشاور زوجته فى ذلك الأمر ، فقالت له : إن ابن عمك رجل متورع فى سفك الدماء فاذا لقيته فقصّر عما كان يعهده منك من الأدب والتواضع ، وأظهر له غلظة حتى كأنك مساو له ومقاومه ولاطفه مع ذلك بالأموال والهدية والخلع والثياب والطعام والطرف ، واستكثر من ذلك فانه ببلاد الصحراء وكل شىء عندهم من هنا مستطرف»[5] وبذلك استغلت زينب معرفتها بشخصية زوجها السابق أبى بكر بن عمر والظروف المحيطة به ، فى كيفية تثبيت زوجها الحالى يوسف بن تاشفين فى البقاء فى الحكم .

---

(١) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣٣ ت الفيلالى ، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٤ ، عباس المراكشى : الأعلام بمن حل مراكش من الاعلام جـ ١ ص ٦٤ .

(٢) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٣٢ ، ٣٣ ت الفيلالى ، السلاوى الاستقصا جـ ٢ ص٢١ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٢ ت د. احسان عباس

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٢ .

(٥) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ ، ت الفيلالى .

والعامل الرابع : استمالة يوسف بن تاشفين أصحاب الأمير أبى بكر بن عمر بالأموال والهدايا ، ليكونوا عوناً له إذا ما حاول الأمير أبو بكر استعادة منصبه ، وهذه الاستمالة كانت أحياناً سراً وذلك حين راسل يوسف بعضهم يدعوهم إلى الحضور إليه ملوّحاً لهم بالخير الجزيل يصوّر ذلك ابن عذارى بقوله « وكتب — أى يوسف بن تاشفين — إلى بعض إخوانه فى السر من أبى بكر بن عمر — وكان أبو بكر يحارب قبائل جدالة فى الصحراء — يحضهم على الوصول إليه والقدوم عليه ويعدهم بالخير الجزيل فوصل منهم جماعة كبيرة »(١) وأحياناً جهراً حين منح الأموال والهدايا لأصحاب أبى بكر المرافقين له الذين حضروا معه للقاء يوسف حتى يكونوا أيضاً عوناً فى تنفيذ خطته المرسومة ، يصوّر ذلك لسان الدين بن الخطيب « وتسابق أكثر أصحابه ممن وصل معه إلى مراكش لرؤية بنيانها والسلام على يوسف بن تاشفين أميرها وكانوا قد سمعوا عن ضخامته وجزيل كرامته وإحسانه لإخوانه ومعارفه ، فاجتمع عنده من القادمين كثير من الخلق فوصّى لهم على قدر منازلهم وأعطاهم بمقدار مراتبهم وأمر لهم بالكسوة الفاخرة والخيول المسوّمة والأموال الجمة والعبيد المتعددة »(٢)

وأما العامل الخامس : فصفات شخصية فى كل من يوسف بن تاشفين وأبى بكر بن عمر ، فبينما كان يوسف يستغل كل إمكانياته فى سبيل البقاء على رياسة المرابطين والإنفراد بالسلطة وكان ذلك نابعاً من حبه فى الملك والرياسة(٣) ، نرى على العكس من ذلك فى شخص أبى بكر بن عمر فهو رجل ورع لا يهون عليه سفك دم ولا تسهل عليه الفتنة كما وصفته بذلك زينب زوجة يوسف بن تاشفين(٤) فما إن وجد حرصاً من يوسف على الاستئثار بالسلطة حتى تنازل له عنها منعاً للفتنة والخلاف فى صفوف المرابطين ، وآثر إستكمال الجهاد فى السودان .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٣ ت د. احسان .
(٢) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٤ .
(٣) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٤ .
(٤) لسان الدين الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٣٢ ت العبادى .

بهذه العوامل مجتمعة إستطاع يوسف بن تاشفين البقاء فى منصبه والانفراد بالسلطة فى البلاد، وقد أحس أبو بكر بتغير الظروف وأنها كلها فى صالح ابن عمه يوسف بن تاشفين ومن هنا آثر التنازل لابن عمه[١] ، وقد صور ذلك اللقاء التاريخى ابن عذارى بقوله : « فبعث — أى أبو بكر بن عمر — إلى يوسف يعلمه بوصوله إليه ، وعين له معلوماً يكون فيه اجتماعه به فخرج يوسف من مراكش فى جنده وعبيده ، وتلقاه فى نصف الطريق ، فسلم عليه راكباً على دابته ولم تكن قبل عادته ، ثم نزل إلى الأرض وقعدا على برنس بسط لهما فى ذلك المكان . . وأبو بكر مع ذلك متعجب من كثرة عساكره واحتفال هيئته ، يطيل النظر فى ذلك كله فتكلم الأمير أبو بكر مع يوسف فى مصالح المسلمين ثم قال له يا يوسف أنت ابن عمى ومحل أخى وأنا لاغنى لى عن معاونة إخواننا بالصحراء ولم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك ، ولا أحق به منك ، وقد خلعت نفسى لك ووليتك عليه فاستمر على تدبير ملكك وأنت حقيق به ، وخليق له ، وما وصلت إليك إلا لأمرتك فى بلادك وأسلم لك الأمر وأعود إلى الصحراء مقر إخواننا وموضع إستيطاننا فدعا له الأمير يوسف »[٢] .

وكان ما تم فى هذا اللقاء بمثابة الإعلان الرسمى بخلع أبى بكر لنفسه من رياسة المرابطين بالمغرب الأقصى وتنازله لابن عمه يوسف بن تاشفين . وحتى يأخذ هذا التنازل صفته الشرعية ، أشهد أبو بكر أشياخ لمتونة وأعيان القبائل على هذا التنازل « وأحضر أشياخ لمتونة الصحراويين وخلع له أبو بكر نفسه وشهد بذلك بعض العدول وأعيان القبائل »[٣] وفى نظير هذا التنازل من جانب أبى بكر بن عمر ، فان يوسف بن تاشفين عمد من جانبه إلى كسب ود الأمير أبى بكر وذلك بأن تعهد أمامه بأنه سيكون على صلة دائمة به يتلقى مشورته ونصائحه وألا ينفذ أمراً دونه[٤] ، وفى محاولة لكسب ود أبى بكر بن عمر

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢١ ، ٢٢ ، لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٤ ، ١٥ ،

Budgett Meakins ; The Moorish Empire, P ; 52

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٤ ، ٢٥ ت د. احسان.
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٥ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٥ .

وإرضائه ، فان يوسف بن تاشفين قدم له هدية كبيرة يذكرها لسان الدين ابن الخطيب بقوله« بعث إليه بهدية أهداها إليه كان معظم ما فيها خمسة وعشرين ألف دينار من الذهب العين ، وسبعين فرساً منها خمسة وعشرون مجهزة بجهاز محلى بالذهب وسبعون سيفاً منها عشرون محلى والخمسون غير محلى وعشرون زوجاً من المهامز المحلات بالذهب ومائة وخمسون من البغال المتخيرة الذكور والإناث ومائة عمامة مقصورة وأربعمائة من الشوش ، ومائة غفارة ومائتين من البرانيس منها بيض وكحل وحمر ومائة شقة من الكتان وغير ذلك مما يهدى للملوك وعشرون جارية من الأبكار ومائة خادم وغير ذلك مما يطول ذكره من البقر والغنم والقمح والشعير »[1] .

وكما استخدم يوسف بن تاشفين سلاح المال فى ترضية أبى بكر بن عمر ، فقد استخدمه أيضاً فى ترضية ابراهيم بن أبى بكر بن عمر حين قدم على الأمير يوسف بن تاشفين فى سنة٤٦٩هـ / ١٠٧٦م مطالباً بملك أبيه أبى بكرغيرأن الأمير مزدلى وهو من كبار قادة المرابطين استخدم ذكاءه فى صرفه بعد أن حصل له على أموال كثيرة وهدايا من يوسف بن تاشفين ، وانصرف راجعاً إلى الصحراء حتى مات هناك [2] .

وهكذا استطاع يوسف بن تاشفين بذكائه وبالظروف التى أحاطت به أن يمكن لنفسه وأن ينفرد برئاسة المرابطين ويورثها من بعده لأبنائه حتى إنتهاء دولة المرابطين .

طريقة تولى عبد المؤمن بن على الحكم :

ما إن عاد ابن تومرت إلى المغرب الأقصى من رحلته إلى المشرق،ونادى بدعوته الإصلاحية حتى التف حوله بعض الأتباع ، وكان من بينهم عبد المؤمن ابن على الذى حظى بالمنزلة الرفيعة لدى ابن تومرت منذ اللحظة الأولى ،

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٥ ، ١٦ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٩ ، ٣٠ ت د. احسان عبـــاس .

وذلك لما توسّم فيه من معالم الذكاء والفطنة مع شجاعة وعزم وبعد نظر وحضور بديهة(١)، هذه الصفات جعلت ابن تومرت يتوقع له مستقبلا باهراً، ويصرّح فى أكثر من مناسبة — وذلك قبل أن تتأسس الدولة — بمستقبل عبد المؤمن السياسى وأن النصر فى ركابه، يقول السلاوى « ولما اجتاز المهدى فى طريقه إلى المغرب بالثعالبة — عرب الجزائر — أهدوا إليه حماراً فارهاً يركبه، لأنه كان ساعياً على رجليه فكان يؤثر به عبد المؤمن ويقول لأصحابه : أركبوه الحمار يركبكم الخيول المسومة (٢) » وحتى فى أحلك اللحظات التى مرّت بها الدعوة الموحدية فى بدء عهدها حين سيّر ابن تومرت الحملات لمحاربة المرابطين، وأصيب الموحدون بهزيمة ساحقة فى معركة البحيرة، وبلغت أنباء الهزيمة ابن تومرت، كان أول من سأل عنه من أتباعه عبد المؤمن بن على، فلما أخبروه ببقائه سالماً، اطمأن ابن تومرت لبقاء الدعوة واستمرارها(٣)، يقول ابن الأثير « لما سيّر — أى ابن تومرت — الجيش إلى حصار مراكش مرض مرضاً شديداً فلما بلغه خبر الهزيمة اشتد مرضه وسأل عن عبد المؤمن فقيل هو سالم فقال ما مات أحد الأمر قائم وهو الذى يفتح البلاد »(٤)، وقد عمد ابن تومرت فى خلال نشره لدعوته تنظيم أصحابه فى نظام إدارى معين، وعلى قمة هذا التنظيم الإدارى هيئة العشرة أو الجماعة وهم المهاجرون الذين أسرعوا إلى إجابته(٥) وهذه الهيئة تختص بالعظيم من الأمور الخاصة بالدعوة يقول ابن القطان « وكانوا إذا قطعوا الأمور العظام يخلون بالعشرة لا يحضر معهم غيرهم »(٦)، واحتلّ عبد المؤمن مكانة سامية فى مجلس العشرة حيث كان يسميه المهدى صاحب الوقت واختص بفرس أخضر(٧) ولم يترك ابن تومرت أصحابه وأتباعه إلا وقد عهد إلى عبد المؤمن بن على أن يتولّى خلفاً له

---

(١) أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين ج ٢ ص ٦٣ .
(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٠٠ .
(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٢ .
(٤) ابن الأثير : الكامل ج ٨ ص ٢٩٨ .
(٥) المراكشى : المعجب ص ١٨٨ .
(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨١ .
(٧) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٣٣ .

قيادة الموحدين[١] وقد عبر ابن تومرت عن رغبته هذه حين جمع أهل الجماعة وأهل الخمسين وذلك فى مرضه وقبيل وفاته ، وأخبرهم باختياره لعبد المؤمن خلفاً له وذلك فى حديث طويل أورده المراكشى ومنه « وقد اخترنا لكم رجلا منكم وجعلناه أميراً عليكم ، هذا بعد أن بلوناه فى جميع أحواله من ليله ونهاره ومدخله ومخرجه ، واختبرنا سريرته ، وعلانيته ، فرأيناه فى ذلك كله ثبتاً فى دينه ، متبصراً فى أمره وإنى لأرجو أن لا يخلف الظن فيه ، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن ، فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه ، فان بدّل أو نكص على عقبه ، وارتاب فى أمره ، ففى الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير والأمر أمر الله يقلده من شاء من عباده »[٢] وبالرغم من هذا التصريح من جانب ابن تومرت ، إلا أن المراجع تذكر أن عبد المؤمن بويع بيعتان :

بيعة خاصة وبيعة عامة ، أما البيعة الخاصة فقد كانت عقب وفاة ابن تومرت سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م[٣] واقتصرت هذه البيعة على أهل الجماعة وبعبارة أدقّ من بقى من أهل الجماعة حيث أن نصفهم استشهد فى معركة البحيرة ولم يبق سوى عبد المؤمن بن على وأبو حفص عمر بن على وأبو ابراهيم ، وأبو حفص بن يحيى ، وعبد الله بن ملوية[٤] . وكان إختيار أهل الجماعة لعبد المؤمن تنفيذاً لوصية إمامهم الراحل ابن تومرت يضاف إلى ذلك عامل هام وهو عبد المؤمن فى هذه الفترة لم تكن له قبيلة بالمغرب الأقصى يستند إليها وبالتالى انعدم عنصر المنافسة والموجود بالنسبة لبقية أعضاء الجماعة حيث كانوا ينتمون إلى قبائل كبيرة بالمغرب الأقصى[٥] وعقب البيعة الخاصة

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٩ ، العمـــرى : مسالك الابصار جـ ٣ قسم أول ص ١٣٢ ، محمد الشطيبى : كتاب الجمان فى اخبار الزمان مخطوط ورقه ٢١١ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٨
The Encyclopeadia of Islam, Vol 1, P; 50

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٩٥ ، ١٩٦ ، محمد المتونى : العلوم والفنون والاداب ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٨ ، ابن إبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٣٢ ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٧ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٢ .

(٥) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاســلام السياسى جـ ٤ ص ٢٢٠ ط ١ سنة ٦٧ .

أخفى عبد المؤمن ومن معه من أهل الجماعة خبر وفاة ابن تومرت فترة من الوقت حتى يهيئوا الأذهان لهذا الخبر ومبايعة الخليفة الجديد وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بقوله « وكتموا موته زعموا ثلاث سنين يموّهون بمرضه ويقيمون سنته فى الصلاة والحزب الراتب يدخل أصحابه إلى البيت كأنه اختصهم بعيادته فيجلسون حوالى قبره ويتفاوضون فى شئونهم ثم يخرجون لإنفاذ ما رموه ويتولاه عبد المؤمن بتلقينهم[1] » ويبدو أن فترة الكتمان مبالغ فيها إذ يتعذر كتمان مثل هذا النبأ هذه الفترة الطويلة ، واستطاع عبد المؤمن عقب البيعة الخاصة من أن يدعّم مكانته بما يبذله من براعة فى تسيير دفة الحكم ، كما أنه عمد إلى مصاهرة الشيخ أبى حفص كبير هنتاتة[2] وذلك حتى يكسب ود وتأييد هذه القبيلة التى تعتبر من أعظم قبائل المصامدة وأكثرها جمعاً وأشدّها قوة[3] ويبرز أهمية دور الشيخ أبى حفص زعيم هنتاته واضحاً فى أن عبد المؤمن لم يطمئن إلى وصوله إلى الحكم إلا بعد أن وافق الشيخ أبو حفص عمر على ذلك وصرّح به ، يقول ابن خلدون « وتوقف عبد المؤمن عن ذلك ثلاث سنين ثم قال له أبو حفص نقدمك كما كان الإمام يقدمك ، فعلم أن أمره منعقد ثم أعلن بيعته وأمضى عهد الإمام بتقدمه وحمل المصامدة على طاعته فلم يختلف عليه اثنان »[4] وهكذا استمدّ عبد المؤمن من شخصية أبى حفص وزعامته لقبيلة هنتاتة سنداً يعضّد مركزه ، كما أن كتم موت المهدى فترة من الوقت يدلّ على البراعة السياسية التى كان يتمتع بها عبد المؤمن ، إذ أن الدعوة الناشئة فى صراع مسلح مع المرابطين وقد منى الموحدون بهزيمة ساحقة عند أسوار مراكش فى معركة البحيرة ولم يمكث ابن تومرت بعدها كثيراً إذ مرض ومات ومن هنا كان كتمان خبر وفاة ابن تومرت حتى لا يفجع الموحدون فجيعتين فى فترة زمنية متقاربة مما يعرّض الدعوة لخطر التفتت وبذلك يسهل على المرابطين القضاء عليها . حتى إذا استوثق عبد المؤمن من

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٩ .
(٢) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٢٧ ، د. احمد شلبى : التاريخ الاسلامى جـ ٤ ص ١٨٧ ط ٣ سنة ٦٩ .
(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٧٥ .
(٤) نفس المرجع السابق .

سير الأمور، أعلن عبد المؤمن خبر وفاة المهدى وكان ذلك فى سنة ٥٢٧هـ / ١١٣٢م على أرجح الآراء(١) وقد صوّر البيذق كيفية إذاعة نبأ وفاة المهدى وتلقى عبد المؤمن بيعة عامة الموحدين « وصاح بالقبائل — أى عبد المؤمن ابن على بعد رجوعه من غزو كزولة — وضم الموحدين وجعل المجلس فاستعمل ركائز وحال بين الرجال والنساء ثم وعظ النساء وقال لهم فى آخر كلامه بقى عندكم عهد بيعة المهدى قالوا نعم ، فقعد ثم وعظ أبو إبراهيم ثم وعظ عمر آصناك ثم سائر المشيخة ثم قال : المهدى قد توفى فبكى الناس ثم قال لهم اسكتوا فسكتوا ، فقال أبو إبراهيم وعمر آصناك وعبد الرحمن بن زكو ومحمد بن محمد لعبد المؤمن أمدد يمينك نبايعك البيعة التى عقدناها مع الإمام المهدى فمد يده ثم تبعهم سائر الناس حتى الليل وكانت البيعة ثلاثة أيام متوالية »(٢) . وكما استخدم ابن تومرت الحيلة والدهاء فى سبيل دعم مكانته الروحية والسياسية ، كذلك فان خليفته عبد المؤمن لجأ أيضا إلى الحيلة وذلك حتى يسيطر على قلوب المجتمعين ، وحتى يوحى إليهم بأنه مؤيد من السماء وذلك حين نطق الطير باسمه فى المجتمعين ، وكذلك استكانة الأسد وخضوعه لعبد المؤمن ، وفى ذلك تشير بعض المراجع أن عبد المؤمن عمد إلى تربية طائر فى تلك الفترة التى أخفى فيها موت ابن تومرت ، ودرّبه على نطق اسمه بهذه العبارة : النصر والتمكين لسيدنا الخليفة عبد المؤمن أمير المؤمنين ، وفى نفس الوقت ربى شبلا صغيراً حتى آنس إليه ، ثم عمد أثناء إجتماعه بالموحدين للبيعة العامة ، أن أمر بعض أتباعه باطلاق الطائر والأسد فأحدثا الأثر المطلوب فى نفوس المجتمعين(٣) وبالرغم مما يبدو على هذه الرواية من المبالغة فانها تلقى ضوءاً على أن عبد المؤمن لم يدخر جهداً فى سبيل التمكين لنفسه بكل الوسائل .

وبالرغم مما أبداه عبد المؤمن من صنوف الذكاء وإتخاذه لكل الوسائل لدعم سلطانه ، فانه لم يعدم معارضة فى توليه رئاسة الموحدين ، وقد تمثلت

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٩ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٨١ .

(٢) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٨٥ .

(٣) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٢٩ ، ١٣٠ ت الفيلالى ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٧٣ فاس سنة ١٣٠٨ هـ أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ ١ ص ٢٠٥ ، ٢٠٦ .

تلك المعارضة فى أحد أعضاء مجلس العشرة وهو عبد الله بن يعلى الزناتى الشهير بابن ملوية حين انتهز فرصة غياب عبد المؤمن فى احدى حملاته العسكرية وتفاهم مع أمير المسلمين على بن يوسف على الغدر بعبد المؤمن وذلك بمهاجمة عاصمة الموحدين فى ذلك الوقت مدينة تينملل إلا أن الموحدين الموجودين بالمدينة استطاعوا القبض على ابن ملوية وقتله وبذلك قضى على الفتنة فى مهدها(١) .

ولون آخر من ألوان المعارضة واجهها عبد المؤمن وذلك حين عمد بعض قرابة ابن تومرت إلى الفتك بعبد المؤمن فى إحدى حملاته العسكرية وذلك أثناء نومه ليلا ، ولكن أحد الموحدين المخلصين وهو اسماعيل بن يحيي الهزرجى ، طلب من الخليفة السماح له بالنوم فى فراشه فكانت نتيجة ذلك أن قتل بدلا من الخليفة ، وبذلك ضحى بنفسه فداء للخليفة الذى علم بالأمر فتأثر لذلك أشد التأثر وتعقب الجناة حتى قتلهم(٢) وإزاء هذه المحاولات لانتزاع السلطة من يد عبد المؤمن ، شرع فى تعزيز جانبه وذلك باستقدام قبيلة كومية من المغرب الأوسط حتى تكون له سنداً وعضداً ضد من يطمع فى منصب الخلافة وتأمين مستقبل أبنائه من بعده(٣) وقد صوّر ذلك ابن أبى زرع بقوله « ورد على أمير المؤمنين قبيلة كومية فى جيش عظيم من أربعين ألف فارس والسبب فى قدومهم أنه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذى بات بمكانه وتحقق منهم جاء بهم لأخذ ثأره منهم بحيلة لكونه غريباً بين قبائلهم ، ليس له عشيرة يستند إليها ولا قبيلة يثق بها ويعتمد عليها ، فبعث فى خفية إلى أشياخ كومية قبيلته وأمرهم بالقدوم عليه »(٤) .

وهكذا استطاع عبد المؤمن بن على بما أوتى من صفات تؤهله لمنصب الزعامة ، وبما اتخذه من وسائل أن يمكّن لنفسه كأول خلفاء الموحدين ، وأن

---

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٢٢٦ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ .
(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٢٧ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٢٢٥ ، ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٧٥ .
(٤) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٦٥ ت الفيلالى .

يورّثه هذا المنصب لأبنائه من بعده بحيث انحصر هذا المنصب فى بنى عبد المؤمن طيلة عمر دولة الموحدين .

وبهذا شهد المغرب الأقصى فى خلال القرنين الخامس والسادس من الهجرة زعامتين هما زعامة يوسف بن تاشفين وزعامة عبد المؤمن بن على وكلاهما اتحدا فى الغاية وهى الوصول إلى رئاسة الدولة والاحتفاظ بها وإن إختلفت وسائل كل منهما فى سبيل تحقيق هذه الغاية .

طريقة تولى أمراء المرابطين الحكم :

أوضحت من قبل كيف وصل أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى منصب رئاسة دولة المرابطين ، ثم أصبح هذا المنصب خاصاً بأسرة يوسف ابن تاشفين وقد شغله أربعة أشخاص من أسرته حتى سقطت دولتهم فى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م وهم على التوالى على بن يوسف تولى سنة ٥٠٠هـ ومات فى سنة ٥٣٧ هـ/ ١١٤٢م[١] وتاشفين بن على قتل فى سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٤م[٢] وإبراهيم بن تاشفين سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥م[٣] واسحق بن على سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م[٤] ، وكل أمير من هؤلاء الأمراء شغل منصب ولى العهد وذلك قبل أن يصبح أميراً للمسلمين ما عدا اسحق بن على الذى اغتصب السلطة من إبراهيم ، وذلك لصغر سنه ، وكان اسحق آخر من تولى رئاسة دولة المرابطين حيث سقطت الدولة فى عهده القصير . ومن هنا كانت الدولة على اختلاف طبقاتها تعرف مقدماً من سيتولى رئاسة الدولة . وكانت هناك مراسم خاصة فى تولية أمير المسلمين مقاليد الحكم وذلك بأن يتلقى الأمير بيعة خاصة من أفراد الأسرة المالكة والأمراء ثم سادة قبيلة لمتونة وبقية زعماء القبائل ثم الفقهاء

---

(١) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١١٣ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٠٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٤ ص ١٠٤ ت احسان .

(٣) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١١٣ ، ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٩٣ ت الفيلالى .

(٤) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١١٣ .

وعمال الدولة(١) وقد صور ابن أبي زرع مبايعة على بن يوسف بقوله « وقيل لما توفى والده يوسف رحمه الله سجاه بثوبه وخرج ويده فى يد أخيه أبي الطاهر تميم إلى المرابطين ، فنعاه لهم ، فوضع أبو الطاهر يده فى يد على ، فبايعه ثم قال للمرابطين : قوموا فبايعوا أمير المسلمين ، فبايعه جميع من حضر من لمتونة وسائر قبائل صنهاجة والفقهاء وأشياخ القبائل فتمت له البيعة بمراكش»(٢) ويعقب مبايعة أهل العاصمة أن يتلى عقد البيعة على منابر الدولة فتأتيه البيعة من كل أنحاء المملكة(٣) وفى سبيل استكمال أمير المسلمين صفته الرسمية فإنه ينقش اسمه على السكة والطرز والبنود ، ويتبادل الرسائل مع العباسيين(٤) وقد يحدث ألا يرضى أحد أفراد الأسرة عن تولية الأمير ، وذلك كما حدث من يحي بن أبي بكر بن يوسف بن تاشفين وكان والياً على فاس وفى ذلك يقول ابن أبي زرع والسلاوى « وأقبلت نحوه — أى نحو على بن يوسف بن تاشفين — الوفود للتعزية والتهنئة إلا مدينة فاس فإن ابن أخيه يحي بن أبي بكر بن أمير المسلمين كان أميراً عليها من قبل جده يوسف فلما وصله الخبر بموت جده وولاية عمه عظم ذلك عليه وأنف من بيعة عمه وخالف عليه وامتنع من البيعة»(٥) إلا أن هذا الإمتناع لم يستمر طويلا حيث دخل فى طاعة عمه بعد ذلك . كذلك فإن على بن يوسف قد عمد بعد توليه إمارة المسلمين إلى عزل أخيه تميم عن بلاد المغرب وذلك فى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م(٦) وأقام مكانه القائد أبا عبد الله بن الحاج وذلك بالرغم أن تميما شارك

---

(١) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٢ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ١١٨ ، ص ٣١٦ ، اشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٢٣٤ .

(٢) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ ت الفيلالى .

(٣) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ٨٠ ت الفيلالى ، د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٢ .

(٤) د. حسن احمد محود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٢ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ١١٨ .

(٥) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٨٠ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٦١ .

(٦) ابن القاضى : جذوة الإقتباس ص ٢٩١ .

فى مبايعة أخيه على بن يوسف[١] وربما يرجع ذلك إلى خوف على بن يوسف على مركزه وخاصة أن تميما كان أكبر منه سناً[٢] .

طريقة تولى خلفاء الموحدين الحكم :

تعاقب على كرسى خلافة الموحدين بعد الخليفة الأول عبد المؤمن بن على وذلك فى الفترة من سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م وهى السنة التى مات فيها عبد المؤمن بن على حتى سنة ٦١٠هـ وهى السنة التى مات فيها الناصر ، ثلاثة من الخلفاء هم على الترتيب : يوسف بن عبد المؤمن الذى توفى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م[٣] ثم ابنه يعقوب المنصور الموحدى الذى توفى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م[٤]ثم ابنه محمد الناصر الذى مات سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م[٥] وقد سبق أن تناولنا طريقة مبايعة الخليفة الأول عبد المؤمن وذلك تنفيذاً لوصية ابن تومرت وبمساندة أبى حفص زعيم قبيلة هنتاتة ، وفى فترة حكم عبد المؤمن عهد بولاية العهد لابنه محمد ثم صرفه عنها وذلك على أرجح الآراء وولى مكانه ابنه يوسف وذلك قبيل وفاته مباشرة . وقد لعب أفراد أسرة الخليفة دوراً بارزاً فى مبايعة يوسف بن عبد المؤمن ودعم هذه البيعة ، وقد ظهر ذلك واضحاً فى الدور الذى قام به السيد الأعلى أبو حفص شقيق يوسف بن عبد المؤمن وتأييده لاختيار يوسف أمام أفراد الأسرة وأشياخ الموحدين ، يقول ابن صاحب الصلاة « فى الليلة التى توفى فيها أبوه رضى الله عنهما ، وذلك ليلة الجمعة العاشر من جمادى الآخرة عام ثمانية وخمسين وخمسمائة ، وما كان من عضد السيد الأعلى أبى حفص شقيقه إليه فى ولايته وحمايته وترشيحه لخلافته »[٦] وفى رواية أخرى تنازل أبو حفص عمر عن الخلافة لأخيه يوسف وذلك إذا وضعنا فى الإعتبار الرواية التى تشير إلى أن محمداً

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٧٩ ، ٨٠ ت الفيلالى .
(٢) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦١ .
(٣) زامباور : معجم الأنساب جـ ١ ص ١١٣ ، ستانلى لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ص ٥٠ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٢٣٢ .
(٤) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .
(٥) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .
(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣١ .

ظل ولياً للعهد خلال مدة حكم أبيه عبد المؤمن ، ثم تولى الحكم بعد وفاة أبيه وأنه لم يستمر طويلا فى الحكم نتيجة لسوء تصرفاته وأنه خلع من هذا المنصب[١] وتولى مكانه يوسف بتنازل من أخيه أبى حفص عمر يقول المراكشى « ولما تم خلع محمد فى التاريخ المذكور بعد إتفاق من وجوه الدولة على ذلك ، دار الأمر بين اثنين من ولد عبد المؤمن : يوسف وعمر وهما من نبهاء أولاده ونجبائهم وذوى الرأى والغناء منهم ، فأباها عمر منهما وتأخر عنها مختاراً وبايع لأخيه أبى يعقوب ، وسلم له الأمر لأنه كان يعلم من نفسه أشياء لايصلح معها لتدبير المملكة وضبط أمور الرعية ، فبايع الناس أبا يعقوب واتفقت عليه الكلمة فلم يختلف عليه أحد من الناس من اخوته ولا من غيرهم وذلك كله بحسن سعى أبى حفص عمر بن عبد المؤمن[٢] » وكانت هذه البيعة بمحضر من أفراد الأسرة وطبقات الموحدين والوزراء ورجال الدولة[٣] ولكن يبدو أن هذه البيعة قد صاحبها بعض الإرجاف ، وقد ساعد على هذا الإرجاف غيبة يوسف بالأندلس حسب رواية ابن أبى زرع وذلك حين مات والده عبد المؤمن بمدينة سلا وأنهم كتموا موته حتى وصل يوسف وأخذوا له البيعة[٤] وهنا يضيف الشيخ أبو حفص زعيم هنتاتة موقفاً آخر فى دعم مقعد الخلافة — وكان قد سبق أن ساند عبد المؤمن فى مقعد الخلافة — وذلك بمحاربة الإشاعات ونهى الموحدين عن الخوض فى الأحاديث بالخزعبلات يقول ابن صاحب الصلاة « ووعظ الشيخ المرحوم أبو حفص الموحدين أجمع على طبقاتهم ومراتبهم ، وذكرهم بما يجب عليهم فى دينهم وصلاح يقينهم وعرفهم بما أوجب الله عليهم من مفروضهم ومسنونهم وبحق البيعة ولم يعلم أحداً من الناس بالوفاة واشتد عليهم فى لزوم الصلاة ، وضرب بالسياط أهل الفسق والجناة ، وشغلهم بأنفسهم من الأحاديث بالخزعبلات وألزم الحفاظ من الموحدين وغيرهم عند المساء وعند الفراغ من صلاة الصبح بقراءة الحزب[٥] »

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٣٦ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٣٦ .
(٣) اشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ ٢ ص ٢٤١ .
(٤) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٨٢ ت الفيلالى .
(٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣٢ .

ومما دعّم موجة الإشاعات هو امتناع أخوين للخليفة عن المبايعة مع قوم من أشياخ الموحدين ، وهذا يشير بوضوح إلى مدى تأثير أفراد أسرة الخليفة عبد المؤمن على مقعد الخلافة سواء فى التأييد أو الإمتناع وقد عبّر عن إمتناع الأخوين ابن أبى زرع بقوله «لما بويع بعد وفاة والده توقّف عن بيعته قوم من أشياخ الموحدين ، وامتنع من بيعته أخواه السيد أبو محمد صاحب بجاية والسيد أبو عبد الله صاحب قرطبة»[١] ، ولم يتخذ يوسف بن عبد المؤمن إجراء حاسما ضد أخويه[٢] وربما كان ذلك حفاظاً منه على وحدة الأسرة من التفكك نتيجة الصراع على السلطة ، ومن ثم عالج الخليفة يوسف هذا الموقف بمهارة ولباقة ، فلم يتسم بأمير المؤمنين وإنما اكتفى بلقب الأمير ، وبذل جهده ، فى اكتساب محبة بقية الموحدين وطاعتهم ، وذلك بتفريق الأموال فى قبائل الموحدين وأعطى كل الأجناد ، وتسريح من فى السجون وتوزيع الصدقات وبذلك كسب محبة من حوله ، ثم أتته بيعة جميع بلاد إفريقية وبلاد الأندلس ، ما عدا قرطبة وبجاية[٣] وكان هذا الإجماع من الموحدين دافعاً الأخوين بتغيير موقفهما والإقبال على الخليفة ومبايعته ، وقد أحسن إليهم الخليفة بالمال والخلع[٤] وفى رواية ابن صاحب الصلاة أن أبا محمد عبد الله والى بجاية مات فى الطريق أثناء توجهه لمبايعة أخيه[٥] وكان لمبايعة الممتنعين مع نجاح الأمير يوسف بن عبد المؤمن فى القضاء على ثورتين فى جبال غمارة[٦] أثر فى دعم مكانة يوسف ، ومن هنا كان تجديد بيعة يوسف بن عبد المؤمن وتلقبه بلقب أمير المؤمنين وذلك فى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م[٧] يقول ابن صاحب الصلاة « فى أول هذه السنة — أى سنة ٥٦٣هـ — جمع الله القلوب بخلوص الضمائر المؤذنة بالسعود والفتوح والبشائر من الآراء الموفقة والنفوس المصفقة

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٨٣ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصاء جـ ٢ ص ١٤٦ .

(٢) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

(٣) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٨٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٧ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣٩ .

(٦) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٧٧ .

(٧) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٩ .

بتجديد البيعة والتسريح بالاسمية المستحقة لسيدنا ، فكمل ذلك بإجماع الموحدين — أعزهم الله — واستسعادهم لديه »[1] .

ولم يكن تجديد البيعة والتلقب بلقب أمير المؤمنين ، قاصراً على العاصمة وإنما شمل أنحاء الدولة كلها حيث صدرت الرسائل من العاصمة تحمل أنباء تجديد البيعة وتطالب أمراء الأقاليم بالقيام بتجديد البيعة فيمن تحت رئاستهم وقد ظهر ذلك حين صدر من العاصمة مراكش كتاب إلى والى اشبيلية السيد أبي ابراهيم بن اسماعيل يعلمه فيها بتجديد البيعة ويطالبه بمخاطبة ولاة الأندلس بذلك وأن يجددوا البيعة فيمن عندهم[2] ، وسرعان ما قام الولاة بتنفيذ هذه الأوامر وأرسلوا الرسائل إلى العاصمة باتمام تجديد البيعة وذلك كما فعل أهل أشبيلة وقد ورد فى بيعتهم «. . . أما بعد فانه لما اجتمعت طائفة التوحيد وهم الذين تحضرهم من الله حاضرة التوفيق . . على تجديد البيعة المباركة بالاسم المبارك الكريم الذى أول من دعا به الفاروق رضوان الله تعالى عليه . . فجددنا من بيعته على الاسمية المباركة فرضاً أوجبه الشرع وجوب الإلزام . . فبايعنا على السمع والطاعة بيعة إيمان وأمانة وعدل وعبادة والتزمناها فى اليسر والعسر والمنشط[3] » وكذلك فعل أهل غرناطة وكتبوا بتجديد بيعتهم للخليفة [4] ، وهكذا بويع الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بيعتين ؛

وقد اختلف الأمر بالنسبة لابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن الملقب بالمنصور الموحدى وذلك لما صاحب وفاة والده من ظروف حربية حيث أصيب بجراح عند أسوار شنترين ومات فى أثناء إنسحابه متوجهاً إلى أشبيلية ، ومن هنا كتم المحيطون به خبر موته حتى يحكموا أمرهم وفى ذلك يقول المراكشى «ولما مات أبو يعقوب على مراحل من مدينة شنترين سترت وفاته إلى أن بلغوا أشبيلية ، وهم فى كل يوم يصبحون يمشون بين يدى الدابة التى عليها المحفة مشاة على أرجلهم كما جرت العادة ثم يركبون والمحفة مسدول عليها ستر أخضر

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص. ٣٤١ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٣٤٢ .

إلى أن بلغوا أشبيلية»(١) وهنا يقوم أحد أفراد أسرة عبد المؤمن بالسعى للحصول على موافقة أفراد الأسرة وأشياخ الموحدين على مبايعة المنصور وخاصة أن والده يوسف قد مات ولم يوص لأحد من بعده(٢) يقول المراكشى « وكان الذى سعى فى بيعته وقام بها ورغّب فيها وتولى كبر أمرها ابن عمه أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن ، فتم له الأمر وبايعه الناس»(٣) حتّى إذا اطمأن المنصور إلى بيعتهم الخاصة أعلن وفاة والده وتمت بيعته العامة فى سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م (٤) وخرجت الرسائل إلى أنحاء المملكة تعلن تولى المنصور الموحدى خلافة الموحدين ، وقد أورد ليفى بروفنسال فى مجموع رسائل موحدية ، رسالة بعثها المنصور الموحدى إلى الطلبة والموحدين والأشياخ بغرناطة يعرّفهم فيها بتوليه الخلافة نتيجة لإجماع الأسرة وأشياخ الموحدين وأعيانهم وزعماء القبائل وبقية الموحدين على اختياره والالتفاف حوله ، ويطالبهم بأخذ البيعة ممن حولهم من أهل الحواضر والبوادى ، وكانت هذه الرسالة صادرة من أشبيلية فى السابع من جمادى الأولى عام ثمانين وخمسمائة(٥) .

وكما واجه يوسف بن عبد المؤمن أفراداً من أسرته غير معترفين بخلافته ، كذلك فان ابنه المنصور واجه نفس الموقف وذلك حين استغل أخو الخليفة عمر وعمه سليمان بن عبد المؤمن تغيب المنصور فى إفريقية وحاولا استمالة الناس إليهما(٦) وربما دفعهما إلى ذلك عدم اقتناعهما بأحقية المنصور لمنصب الخلافة وفى ذلك يقول المراكشى « وكان له من إخوته وعمومته منافسون

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٦٥ .

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ١٠١ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ١٩٥ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٦٥ .

(٤) ابن أبى زرع : الانيس ص ١٥٦ طبع حجر ، المراكشى : المعجب ص ٥٨٠ ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٦ تطوان سنة ٥٦ .

(٥) مجموع رسائل موحدية من ص ١٥٨ الى ص ١٦٣ ت ليفى بروفنسال رباط الفتح سنة ١٩٤١ (مثبتة بقسم الملاحق) .

(٦) المراكشى : المعجب ص ٢٧٦ .

Terrasse : Histoire du Maroc P : 323, Paris 1949

لا يرونه أهلا للإمارة لما كانوا يعرفون من سوء صباه ، فلقى منهم شدة »(١) غير أن مواجهة المنصور لهذا الموقف اختلفت عن أبيه ، فبينما امتنع والده عن استخدام العنف ، كان المنصور حازماً ، فما إن فشل الثائران فى تحقيق خطتهما وأقبلا على المنصور يبغيان صفحه إذ نراه يأمر بالقبض عليهما ويقتلهما(٢) .

أما الناصر فقد تولى عقب وفاة والده سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ، وكان أبوه قد عهد إليه فى حياته (٣) ، فما إن مات والده المنصور حتى قام أحد أفراد الأسرة بالحصول على مبايعة الأسرة وأشياخ الموحدين وزعماء القبائل وهو أبو زيد عبد الرحمن بن عمر بن عبد المؤمن وهو الشخص الذى قام بنفس الدور مع والد الناصر من قبل(٤) ثم تمت البيعة العامة وكانت فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م ومن العرض السابق نلمس أنه كانت هناك بيعتان : بيعة خاصة يبايع فيها أفراد الأسرة وأشياخ الموحدين وزعماء القبائل الخليفة الجديد ، ويتضح فى هذه البيعة دور الأسرة وأثره فى دعم مكانة الخليفة الجديد وبيعة عامة من الشعب تتم فى العاصمة وأقاليم الدولة المختلفة .

وكانت للبيعة صيغة يتولى إلقاءها أحد الكتّاب وهى « تبايعون أمير المؤمنين على ما بايع عليه أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من السمع والطاعة فى المنشط والمكره واليسر والعسر والنصح له ولولاته ولعامة المسلمين ، هذا ماله عليكم ولكم عليه ألا يجمّر بعوثكم وألا يدّخر عنكم شيئاً مما تعمكم مصلحته وأن يعجل لكم عطاءكم والا يحتجب عنكم ، أعانكم الله على الوفاء ، وأعانه على ما قلّد من أموركم »(٥) .

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٦٥ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ابن ابى زرع : الانيس ص ١٥٧ طبع حجر ، ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٨٣ ، ٢٨٤ ، محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ١٢٩ ، ١٣٠ مطبعة الشمال الافريقى .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٣٠٧ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٢٩ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ص ٢١٤ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٣١٣ .

(٥) ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ص ٣٢٩ .

اختصاصات ولاة الأمر :

تحمّل ولاة الأمر بالمغرب الأقصى مسئولية الحكم ، وتولوا مقاليد الأمور وقبل أن تتدعم كلتا الدولتين ، مرّ المغرب الأقصى بفترتين متشابهتين هما فترة نشر الدعوة والتمهيد لقيام الدولة ، وقد قام بهذا الدور فى الدولة المرابطية عبد الله بن ياسين ، وفى الدولة الموحدية ابن تومرت وقد قام الداعيان بإدارة شئون الدعوة وتوجيه الحملات العسكرية فى هذه الفترة .

وبعد إنتهاء فترة الدعوة فى الدولتين ، تولّى ولاة الأمر فى المرابطين والموحدين السلطة ، وشهد المغرب الأقصى فى هذه الفترة التى تمتد من حكم يوسف بن تاشفين فى دولة المرابطين إلى وفاة محمد الناصر فى دولة الموحدين فترة من القوة والازدهار فى شئون البلاد ومن أسباب ذلك إشراف أمراء المسلمين من المرابطين وخلفاء الموحدين على أمور البلاد ، وقيامهم بدورهم مستمدين سلطانهم من كونهم ممثلين للأمة وبذلك يقع على عاتقهم حراسة الدين وسياسة الدنيا(١) وبعبارة أخرى فهم المسئولون عن أعمال الجهاد وتدبير شئون الجند وحماية البلاد وتولية العمال وجباية الخراج وإقامة الحدود(٢) فاذا ما حاولنا معرفة مدى تحقق هذه الاختصاصات فى حكام المغرب الأقصى لوجدنا أن كلا من يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن قام بدور إيجابى فى تأسيس دولته ، حيث قاد كل منهما الجنود فى المعارك وقضى سنوات طويلة فى سبيل تأسيس دولته ودعمها ، حتى إذا تأسست دولة المرابطين انطلق يوسف بن تاشفين إلى الأندلس ليخوض معركة الجهاد ضد النصارى وينقذ الأراضى الإسلامية من الوقوع فى قبضة الأعداء ، وقد ظهر ذلك جلياً فى انتصاره العظيم بالزلاقة ، ولم يكن هذا النصر وغيره من الانتصارات إلا ثمرة جهود متواصلة بذلها القائد الأعلى يوسف بن تاشفين فى تنظيم وإعداد جنده للقتال وإشرافه على تسليحهم وتجهيزهم بمختلف أدوات القتال حتى صار جيشه قوياً من حيث الكيف ضخماً من حيث الكم حتى بلغ مائة ألف جندى(٣)

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٥ ، د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٢٩ القاهرة سنة ١٩٦٣ .

(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٥ ، ١٦ ، د. احمد شلبى : السياسة والاقتصاد فى التفكير الاسلامى ص ٥٤ النهضة سنة ٦٤

(٣) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٢٧ .

وحمل راية الجهاد من بعده ابنه على بن يوسف الذى واصل قيادته للجند فى معاركه بالأندلس ، حتى إذا سقطت دولة المرابطين وقامت على أنقاضها دولة الموحدين قام خلفاء الموحدين أمثال يوسف بن عبد المؤمن وابنه المنصور الموحدى وابنه محمد الناصر بدور كبير فى جهاد النصارى بالأندلس فى معارك مستمرة ، وحتى أصيب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عند أسوار شنترين وهو يؤدى واجبه فى الجهاد تلك الإصابة التى أودت بحياته ، وفى نفس الوقت قام خلفاء الموحدين منذ يوسف بن عبد المؤمن فى حماية الجبهة الشرقية من الدولة وذلك حين خرجوا على رأس الجيوش متوجهين إلى إفريقية للقضاء على الثورات بها وخاصة ثورة بنى غانية التى كانت تطمع فى اقتطاع أجزاء من جسم الخلافة الموحدية .

وبجانب إشراف أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين على حملات الجهاد فإنهم اختصوا أيضاً بتولية العمال على أقاليم الدولة المختلفة ، وأشرفوا على شئون البلاد وقد تجلى ذلك فى مظهرين إما بالطواف على أقاليم الدولة لتفقد أحوالها ، ومعرفة أوضاع سكان البلاد وصلتهم بعمالهم ، كما فعل يوسف بن تاشفين[1] يقول ابن أبى زرع « فخرج – أى يوسف بن تاشفين – فى شهر ربيع الآخر منها – أى من سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م – يتطوف على بلاد المغرب ويتفقد أحوال الرعية ، وينظر فى أمور المسلمين ويسأل عن سير عماله فى البلاد وقضاته »[2] وكما فعل أيضاً الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتفقده لأحوال بلاده القريبة والبعيدة [3]، وكذلك المنصور الموحدى حين توجه إلى فاس فى سنة ٥٨٨ هـ / ١١٩٢م وبحث فى شئونها ومحاسبة عمالها[4] . أو استدعاء العمال لمحاسبتهم عن أعمالهم وشئون أقاليمهم وذلك كما فعل الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨م حين استدعى ولاة الأندلس وغيرهم من عمال الأقاليم إلى حضرة مراكش للتباحث والتشاور فى شئون المسلمين[5] وقام بنفس العمل فى سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م[6] ولم يمنع المرض الخليفة يوسف

---

(1) Budgett Meakins ; The Moorish Empire p ; 6o

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٦٦ ت الفيلالى .

(٣) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٧٤ ت الفيلالى .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٥٢ تطوان سنة ٥٦ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٨ تطوان سنة ٥٦ .

ابن عبد المؤمن من أن يمارس اختصاصاته وسلطاته ، فبالرغم من مرضه إلا أنه كان يطلع على سير الأمور ويدبّر شئون دولته عن طريق وزيره الذى كان يعرض عليه أمور الدولة(١) ، يضاف إلى الاختصاصات السابقة إشرافهم على النواحى المالية وبجانب ذلك فقد اختص حكام الدولة بالإشراف على إقامة الحدود وتنفيذ أحكام الدين باعتبار أن أمراء المرابطين منفذين لمبادئ إمامهم عبد الله بن ياسين ، كذلك خلفاء الموحدين الذين ورثوا ابن تومرت فى إمامتهم للموحدين .

ألقاب ولاة الأمر بالمغرب الاقصى :

تنوّعت ألقاب ولاة الأمر بالمغرب الأقصى منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين ثم قيام دولة الموحدين ، وكان هذا التنوّع راجعاً إلى نظرة كل منهما إلى الخلافة .

ومنذ اللحظات الأولى فى دعوة المرابطين أطلق ابن ياسين لقب أمير المسلمين على أبى بكر بن عمر الذى تولّى خلفاً ليحيى بن عمر(٢) ، ويشير إلى ذلك النويرى بقوله « فأتوا — أى عبد الله بن ياسين ومن معه — أبا بكر ابن عمر فأجاب وعقدوا له راية وبايعوه بيعة الإسلام وتبعه زمرة من قومه وسماه عبد الله بن ياسين أمير المسلمين »(٣) حتى إذا تولى يوسف بن تاشفين وجدناه يدعّم هذا الاتجاه وهو اختياره لقب أمير المسلمين وذلك حين تحدّث إليه من حوله فى إختيار لقب يتناسب مع إتساع سلطته ودولته يصوّر ذلك ابن الخطيب بقوله « ويوسف بن تاشفين كان يدعى بالأمير فلما ضخمت مملكته واتسعت عمالته اجتمعت إليه أشياخ قبيلته وأعيان دولته وقالت له أنت خليفة الله فى أرضه وحقك أكبر من أن تدعى بالأمير بل ندعوك بأمير المؤمنين فقال لهم حاشا الله أن نتسمى بهذا الاسم إنما يتسمى به خلفاء بنى العباس لكونهم من تلك السلالة الكريمة لأنهم ملوك الحرمين مكة والمدينة وأنا راجلهم والقائم بدعوتهم ، فقالوا له لابد من اسم تمتاز به وبعدما أجاب إلى أمير

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٤٠٩ ، ٤١٠ .

(٢) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٦٨ تونس سنة ١٣٢١هـ

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٧ .

المسلمين وناصر الدين فخطب له بذلك فى المنابر»(١) ومن النص السابق نلمس حرص يوسف بن تاشفين على عدم التلقب بألقاب الخلافة ، معلّلا ذلك بتبعيته للخلافة العباسية ومن ثم اكتفى بلقب أمير المسلمين وناصر الدين ، ثم صدر مرسوم رسمى يشير إلى اللقب الرسمى لرئيس الدولة ، وذلك حين أمر يوسف بن تاشفين كتّابه بكتابة مرسوم بهذا اللقب يقول فيه « إنا كتبناه إليكم من حضرتنا بمراكش حرسها الله فى نصف محرم سنة ست وستين وأربعمائة وأنّه لما منّ الله علينا بالفتح الجسيم وأسبغ علينا من أنعمه الظاهرة والباطنة وهدانا وهداكم إلى شريعة نبينا محمد المصطفى الكريم صلى الله عليه أفضل الصلاة وأتم التسليم رأينا أن نخصّ أنفسنا بهذا الاسم لتمتازوا به على سائر أمراء القبائل وهو أمير المسلمين وناصر الدين فمن خطب الخطبة العلية السامية فليخطبها بهذا الاسم إن شاء الله تعالى والله ولى العدل بمنّه وكرمه والسلام »(٢) ومن المرسوم السابق يتضح أن تاريخ اتخاذ يوسف بن تاشفين لقب أمير المسلمين كان فى عام سنة ٤٦٦هـ / ١٠٧٣م ، وقد أشارت بعض المراجع إلى أن تاريخ هذه التسمية حدث بعد الزلاقة(٣) إلا أن الدلائل تشير إلى غير ذلك ، فلقب أمير المسلمين قد اتخذ فى الدولة المرابطية قبل ظهور يوسف بن تاشفين على مسرح الأحداث وذلك حين أطلق ابن ياسين هذا اللقب على الأمير أبى بكر بن عمر(٤) ، ثم ذلك الحوار الذى ورد صراحة بين أشياخ المرابطين ويوسف بن تاشفين فى اختيار لقب من ألقاب الخلافة ، وامتناعه عن ذلك واختياره للقب أمير المسلمين وإضافته لقب ناصر الدين وقد تم هذا فى أول سنة ٤٦٦ هـ / ١٠٧٣م أى بعد تنازل أبى بكر بن عمر فى سنة ٤٦٥ هـ / ١٠٧٣م له عن رئاسة المرابطين ، فلم يكن هناك ما يمنع من اتخاذ لقب يشعر بعظم مكانة يوسف بن تاشفين ، ثم دعّم هذا اللقب

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٦ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٧ .

(٣) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٦١ ت الفيلالى ، لسان الدين ابن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص٢٥١ ، د. شميرة : المرابطون ص ١٢٢ ، د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٣٧ ، ٣٣٨ ، ٣٣٩ .

(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٧ .

بانتصاراته العظيمة فى الأندلس واتصاله بالخلافة العباسية ورضاها عن أعماله وموافقتها على لقبه(١) .

وأصبح لقب أمير المسلمين اللقب الرسمى ليوسف بن تاشفين ومن تولى من بعده من أبنائه ، فعلى بن يوسف تلقب بلقب أمير المسلمين(٢) وهكذا تحدد اللقب فى الدولة المرابطية نتيجة لموقفهم من الخلافة العباسية ، وعلى العكس من ذلك كان موقف الدولة الموحدية حيث أن ابن تومرت منذ أن رجع إلى المغرب كان يعمل على قيام خلافة إسلامية فى المغرب ، ومن هنا كانت الألقاب التى اتخذها هو ومن جاء بعده تشير إلى هذه الحقيقة وتدعم ذلك الاتجاه ، وقد اتخذ ابن تومرت لقب المهدى المعلوم والإمام المعصوم(٣) وذلك بعد أن هيأ أذهان أصحابه وأتباعه لهذا اللقب .

حتى إذا دخلت الدعوة فى دور الكفاح المسلح ضد المرابطين ، أطلق ابن تومرت لقب أمير المؤمنين على خليفته من بعده عبد المؤمن بن على وذلك حين وجه ابن تومرت جنود الموحدين وعلى رأسهم عبد المؤمن بن على لقتال المرابطين قائلا لهم « اقصدوا هؤلاء المارقين المبدلين الذين تسموا بالمرابطين فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف وإزالة البدع والإقرار بالإمام المهدى المعصوم فان أجابوكم فهم إخوانكم لكم ما لهم وعليهم ماعليكم وإن لم يفعلوا فقاتلوهم ، فقد أباحت لكم السنة قتالهم وأمر على الجيش عبد المؤمن بن على وقال : أنتم المؤمنون وهذا أميركم فاستحق عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين »(٤) وهذا النص وإن كان يشير إلى إمرة المؤمنين من الناحية العسكرية حيث أن ابن تومرت ما زال على قيد الحياة يمارس دوره ، إلا أن فيه إشارة للقب الذى سيتخذه عبد المؤمن بن على وبنوه من بعده ، وقد حدث هذا بعد وفاة المهدى بن تومرت ومبايعة الموحدين لعبد المؤمن البيعة العامة فى سنة

---

(١) Arnold : The Caliphate. P ; 83, Mahmoud Brelvi ; Islam in Africa, p ; 134.

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٧١ ، ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٧٨ ت الفيلالى السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٦١ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٣ ، العمرى : مسالك الأبصار جـ ٣ قسم أول ص ١٣٨ ، ١٣٩ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٣٧

(٤) المراكشى : المعجب ص ١٩٢ .

٥٢٧هـ / ١١٣٢م[1] ويحددها بن أبي زرع بسنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م[2] وصار لقب أمير المؤمنين خاصاً بعبد المؤمن ومن تولى من بعده من أبنائه[3] فهذا يوسف بن عبد المؤمن تسمى بأمير المؤمنين وذلك فى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٧م[4] وقد أمر الصناع أن يكتبوا على سيفه : لأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين[5] وكذلك المنصور الموحدى تلقب بأمير المؤمنين وذلك بعد أن تمت مبايعته[6]

وبجانب لقب أمير المؤمنين فإن خلفاء الموحدين أطلقوا أيضاً على أنفسهم لقب خليفة ، وقد لقّب عبد المؤمن نفسه بهذا اللقب وذلك حين توافد عليه الشعراء يمدحونه فى جبل الفتح سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م وكان ممن مدحه أحد الشعراء الذى بدأ قصيدته بقوله : ما للعدا جنة أوقى من الهرب . . حتى إذا فرغ منها استحسنها عبد المؤمن وعلّق عليها بقوله «بمثل هذا تمدح الخلفاء»[7]

وهكذا شهد المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين إختلافاً فى ألقاب حكام المنطقة فمنهم من تسمى بأمير المسلمين ، كما حدث فى الدولة المرابطية ومنهم من تلقّب بألقاب الخلافة كما حدث فى دولة الموحدين .

نائب حاكم المغرب الأقصى :

وجد هذا المنصب على أرض المغرب الأقصى ، وذلك حين تأسست

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٢٩ د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٨١ .

(٢) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٢١٣ .

(٣) العينى : عقد الجمان جـ ١ قسم ٢ ص ٢٣٥ ، ابن خلكان: وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٠٣ النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٧ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٠ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٠٩ . ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن بالامامة ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ حاشية.
Encyclopeadia Britannica, Vol I, P ; 672,
The Encyclopeadia of Islam. Vol I, P ; 50

(٤) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٨٥ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٣ تطوان .

(٦) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٧٨ تطوان .

(٧) المراكشى : المعجب ص ٢١٥ ، ٢١٦ ، محمد المنونى : العلوم والآداب ص ١٢ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٣٨٤ .

دولتا المرابطين والموحدين وهى وظيفة موقتة يشغلها النائب أثناء تغيب ولى الأمر عن العاصمة لسبب من الأسباب وكان يشغل هذا المنصب فى الدولة المرابطية أقرب المقربين من ولى الأمر أو أحد أفراد الأسرة الحاكمة[١] وذلك كما حدث حين توجه على بن يوسف إلى الأندلس سنة ٥٠٠ هـ بعد توليه الرئاسة وولى أخاه تميما نائباً عنه فى حكم المغرب[٢]، وأيضاً بعد أن تولى تاشفين بن على بن يوسف الرئاسة وتوجهه إلى ميدان القتال لمحاربة عبد المؤمن بن على فانه استخلف على مراكش أخاه اسحق بن على بن يوسف بن تاشفين[٣].

فاذا ما إنتقلنا إلى الدولة الموحدية فاننا نجد هذا المنصب أيضاً وذلك كلما ترك الخليفة مراكش فانه يولى مكانه نائباً عنه[٤] وقد انحصر هذا المنصب فى عهد عبد المؤمن بن على فى أشياخ الموحدين وخاصة الشيخ أبى حفص وذلك كما حدث فى سنة ٥٤٦هـ / ١١٥١م حين توجه عبد المؤمن إلى غزوة بجاية فانه استخلف على مراكش الشيخ أبا حفص بن يحيى[٥] وكذلك فعل عبدالمؤمن حين توجه لفتح المهدية سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م فانه استخلف أيضاً الشيخ أبا حفص[٦] وفى بعض الأحيان كان يستخلف عبد المؤمن بن على صهره الشيخ موسى الضرير وهو من شيوخ أهل تينملل وأعيانهم من ضيعة يقال لها : أنسا ، فكان عبد المؤمن يستخلفه على مراكش إذا خرج عنها[٧] أما خلفاء عبد المؤمن فإنهم كانوا يخصون أبناء أسرتهم بهذا المنصب ، فالخليفة يوسف ابن عبد المؤمن استخلف على مراكش أخاه السيد أبا عمران وذلك حين توجهه إلى الأندلس سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١[٨] وأيضاً حين خرج إلى صنهاجة القبلة

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥١ .

(٢) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٧٨ .

(٣) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٧٠ .

(٤) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٥

J. F. Hopkins: Medieval Muslim P; 11.

(٥) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٤٧ ت الفيلالى .

(٦) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٧ ، البـاجى : الخلاصة النقية ص ٥٥ تونس سنة ١٢٨٢ هـ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٣٦ .

(٧) المراكشى : المعجب ص ٢٣٧ .

(٨) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٤٠ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٥٠ .

لمحاربتهم سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م ، فانه استخلف أخاه أبا حفص والياً على مراكش وأميراً على الناس[1] ، وكذلك فعل المنصور الموحدى فى تعيين أحد أقاربه نائباً عنه وذلك حين توجه إلى قفصة سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م واستخلف على مراكش السيد أبا الحسن شيخ بنى العم وكبيرهم[2] وهكذا شغل منصب نائب الخليفة فى الدولة الموحدية أشياخ الموحدين ثم أفراد الأسرة الحاكمة .

وبطبيعة الحال كان النائب يتولى مقاليد الأمور فى العاصمة ويشرف على أعمال الدولة مستخدماً فى ذلك حقه كممثل لولى الأمر ، ومن ثم كان من حقه تولية ولاة الأقاليم وهذا ما فعله أبو الحسن ابن عم الخليفة المنصور الموحدى نائب الخليفة على مراكش إذ قام بتولية أحد الولاة على تلمسان وذلك فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م[3]، وفى بعض الأحيان يكلف الخليفة نائبه بالإشراف على بعض الأعمال أثناء غيابه وذلك كما فعل المنصور الموحدى مع نائبه أبى الحسن ، يقول ابن عذارى « فلما قضى — أى المنصور الموحدى — فرض الصلاة خرج من مراكش فى الثالث من شوال — أى سنة ٥٨٢ هـ — واستخلف على مراكش السيد أبا الحسن شيخ بنى العم وكبيرهم وجعل له النظر فى تتميم ما بقى من بناء الصالحة ووكلها إلى أعمال خاطره والاستبداد برأيه ودقيق نظره »[4] .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٦ تطوان .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠٢ تطوان .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٢٨ تطوان .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠٢ تطوان .

ب — ولاية العهد

ولاية العهد بالمغرب الأقصى :

ارتبط نظام ولاية العهد بنظام الرئاسة فى المغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، ذلك النظام الذى نشأ فى ظل دولتى المرابطين والموحدين ، نتيجة لرغبة كل من يوسف بن تاشفين وعبد المؤمن بن على فى الاحتفاظ بالملك فى أسرتيهما وقد تجلى ذلك فى الدولة المرابطية حين تولى يوسف بن تاشفين القيادة العسكرية فى المغرب الأقصى حيث نراه يعمل كما سبق أن أوضحت للتمكين لنفسه فى مقعد الحكم ، والانفراد برئاسة الدولة ومن ثم أصبح أمير للمسلمين ، يحكم دولة مترامية الأطراف حيث شملت المغرب والأندلس وإقليم الصحراء حتى نهر السنغال[1] وبجانب هذا الإتساع وما يتطلبه من استقرار نظام الحكم ، فان ميداناً جديداً للجهاد صارت تبعاته ومسئولياته ملقاة على عاتق أمير المسلمين يوسف بن تاشفين منذ أن قضى على ملوك الطوائف وأصبحت الأندلس إقليما تابعاً للمغرب الأقصى ، ومن هنا أدرك يوسف بن تاشفين أهمية استقرار الحكم وعدم التنازع على رئاسة الدولة ولذا إختار ولياً للعهد وهو ابنه على بن يوسف حتى يكفل للدولة وحدتها ويعصمها من الفرقة ويحسم داء الخلاف الذى يهددها بانقسام خطير[2]وقد أشار إلى هذه الحقيقة أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حين ذكر فى كتاب تولية العهد لابنه على بن يوسف مدى حرصه على وحدة الأمة وعدم تفككها وحمايتها من التنازع على منصب الرئاسة[3] يضاف إلى ذلك رغبة يوسف بن تاشفين فى الاحتفاظ بالرئاسة فى أسرته . وكذلك فعل ابنه على بن يوسف الذى واجه خطراً محققاً على كيان الدولة متمثلا فى ثورة الموحدين بقيادة ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن على ، ومن هنا اختار ابنه تاشفين بن على ولياً لعهده وبالرغم من أن تاشفين بن على لم يلبث فى الحكم كثيراً ، إلا أنه اختار ولياً لعهده

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٤ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٤٤ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٧ ، ٥٨ (مثبتة بقسم الملاحق) .

وهو ابنه ابراهيم بن تاشفين ، فاذا انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا الخليفة عبد المؤمن ما إن مكّن لنفسه فى مقعد الحكم حتى عمد إلى الاحتفاظ بهذا المنصب فى أسرته وذلك حين اختار أحد أبنائه ولياً للعهد ، وهو يهدف بذلك إلى الحفاظ على وحدة الدولة التى أنفق عمره فى إنشائها ودعمها ، وحتى تستمر الدولة فى تأدية رسالتها فى جهاد الروم بالأندلس ودفع خطرهم عن المدن الأندلسية ، وقد برز الهدف الأخير واضحاً فى حياة المنصور الموحدى حين اختار ابنه محمد الناصر ولياً للعهد سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠م(١) وذلك قبل أن يواجه حشود الروم سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م فى موقعه الأرك وينتصر عليهم انتصاره الكبير . ومن هنا تشابهت الدولتان المرابطية والموحدية فى الهدف من توريث للرئاسة وذلك للاحتفاظ بها فى أسرتيهما ، مع ضمان وحدة الدولة يضاف إلى ذلك إستمرار عملية الجهاد فى ميدان الأندلس .

طريقة تولية العهد :

اختار يوسف بن تاشفين ابنه علياً لولاية العهد(٢) ولم يكن أكبر أبنائه بل كان هناك أخوه تميم أكبر منه سناً ، غير أن علياً كان يتفوق على أخيه تفوقاً كبيراً فى المواهب والخلال اللازمة لحكم شعب من الشعوب(٣) ، ومن هنا كانت مصلحة الدولة هى الدافع وراء اختيار يوسف بن تاشفين لابنه على ثم يلى ترشيح رئيس الدولة لولى عهده موافقة أمراء لمتونة وأشياخ البلاد وفقهائها لهذا الإختيار وذلك فى مجلس يحضره أشياخ المرابطين وقد صوّر ذلك ابن عذارى فى تولية تاشفين ولاية العهد فى عهد أبيه على بن يوسف ، وذلك بعد وفاة أخيه سير ولى العهد السابق ، يقول ابن عذارى « ولما مات سير بن على ولى عهد أبيه ، طلب أشياخ المرابطين من على بن يوسف أن يولّى ولى عهد فقال لهم : اجتمعوا واختاروا لأنفسكم على من ترضونه وقصد بذلك

---

(١) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣١ .

(٢) ابن الخطيب : رقم الحلل ص ٥٣ تونس سنة ١٣١٧ هـ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ص ١٢ طبع حجر مراكش سنة ١٣٣٥ هـ .
De Gayangos; The History of Mohamedan, Vol II, P; 302

(٣) ابن الخطيب: الحلل الموشية ص ٥٧ ، أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ١ ص١١٧ د . حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٥ .

التوثيق فى أمر تاشفين ، فلما اجتمع الناس فى المسجد الجامع بالسقاية بمراكش حرسها الله تعالى خاصة وعامة وتشاوروا فى من يختارونه ومن عليه يجتمعون ، فقالوا كلهم بصوت واحد : تاشفين ، تاشفين ، تاشفين ، فلم تعط السياسة لأبيه مخالفتهم فيه فعقد له الولاية بعهده » (١) ومن هذا النص يتضح دور أشياخ المرابطين فى اختيار ولى العهد وأن دورهم كان استشارياً إذ أن أمير المسلمين على بن يوسف كان قد استقر رأيه على اختيار ابنه تاشفين ، ودعّم ذلك بموافقة أشياخ المرابطين ، وبعد هذا الإجماع من رئيس الدولة وأشياخ المرابطين يأتى دور ولى العهد الذى يقسم أمام المجلس إلتزامه كل الشروط والواجبات التى يفرضها عليه منصبه والتى يحددها رئيس الدولة(٢) وكان من الشروط التى اشترطها يوسف بن تاشفين على ابنه على أن يمدّ الأندلس بسبعة عشر ألف فارس موزّعة على مدن الأندلس المختلفة لحمايتها والدفاع عنها(٣) وهذا يؤيد ما سبق ذكره أن دافع يوسف بن تاشفين فى اختيار ولى للعهد هو صون الأندلس وحمايتها ولذا يشترط عليه هذا الشرط . ثم تأتى المبايعة ، ويقوم الكتّاب بكتابة وثيقة ولاية العهد وتتضمن الدوافع فى اختيار ولى العهد وإجماع أشياخ المرابطين على مبايعته والشروط التى اشترطها أمير المسلمين على ولى عهده واستجابته لذلك وقد تجلّى ذلك فى وثيقة تولية على بن يوسف ولاية العهـــد (٤) .

فاذا انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا حرص الخليفة عبد المؤمن بن على ، على توريث أبنائه الملك من بعده ، ولكن الوضع يختلف هنا بالنسبة لعبد المؤمن ، فبينما يوسف بن تاشفين ينتمى إلى قبيلة لمتونة القوية وإحدى القبائل المؤسسة لدولة المرابطين ، فان عبد المؤمن لم تكن له هذه العصبية القبلية ،

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩٧ ، ٩٨ ت د. احسان عبـــاس .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٧ ، أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ١١٨ ، ١١٩ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٧ ، ٥٨ .

(٤) ابن الخطيب: الحلل الموشية ص ٥٦، ٥٧ ، ٥٨، القلقشندى: صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٦١ ، أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ١ ص ١١٨ ، محمد عثمان المراكشى :الجامعة اليوسيفية ص ٨٩ ، ٩٠ (مثبتة بقسم المـلاحق) .

ولذا نراه حتى يمكّن لنفسه يستدعي قبيلة كومية وقد سبق الإشارة إلى ذلك .
وبجانب ذلك يستغل عنصراً جديداً في الدولة وهم العرب في سبيل تحقيق غايته من تولية ابنه محمد ولاية العهد، وقد مهّد لتأييدهم باقامة علاقة مودة وحب بينهم وبين ابنه محمد وذلك حين أمره أن يكاتب أمراء العرب الهلالية بأن نساءهم وأبناءهم في الحماية والرعاية ويطلب منهم الحضور إلى العاصمة لاستلامهم[(١)] — وكان عبد المؤمن قد أمسك بهم كأسرى في إحدى حملاته ضد العرب — حتى إذا حضروا إلى العاصمة وجدوا الترحيب والتكريم والأموال الجزيلة مما دفعهم للإقامة في العاصمة ، وقد إمتلأت قلوبهم بالحب والإجلال للخليفة وابنه[(٢)] فلما اطمأن عبد المؤمن إلى ولائهم أوحى إليهم بمطالبته تنصيب ابنه ولياً للعهد وقد فعلوا ذلك[(٣)] إلا أن عبد المؤمن تظاهر في بادىء الأمر بالامتناع وذلك حتى لا يبدو أمام أشياخ الموحدين وزعمائهم بمظهر الذى يريد أن يحوّل الدولة إلى ملكية وراثية أو ملكاً دنيوياً[(٤)] يضاف إلى ذلك احترامه لشخصية أبي حفص عمر بن يحيي الهنتاتي ، ويبدو أنه كان هناك إتفاق بين عبد المؤمن وأبي حفص عمر بأن يتولى خلفاً له ، يدل على ذلك أن أبا حفص عمر حين أحس برغبة الخليفة في تولية ابنه ومطالبة العرب بذلك ، خاف على نفسه وأسرع وأعلن خلع نفسه يقول ابن الاثير «فلما تمكّن عبد المؤمن من الملك وكثر أولاده أحب أن ينقل الملك إليهم فأحضر أمراء العرب من هلال وزغب وعدى وغيرهم إليه ووصلهم وأحسن إليهم ووضع عليهم من يقول لهم ليطلبوا من عبد المؤمن ويقولوا له نريد أن تجعل لنا ولى عهد من ولدك يرجع الناس إليه بعدك ، ففعلوا ذلك ، فلما علم عمر ذلك خاف على نفسه فحضر عند عبدالمؤمن وأجاب إلى خلع نفسه»[(٥)] فلما استوثق عبد المؤمن من عدم وجود أى معارضة

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٤١ .

(٢) نفس المصدرين السابقين ونفس الصفحات .

(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٠ ، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الأول ص ٣٣٨ .

(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٠ .

عقد اجتماعاً فى سنة ٥٤٩هـ / ١١٥٤م[١] وفى رواية أخرى فى سنة ٥٥١هـ / ١١٥٦م[٢] حضره الولاة وأشياخ القبائل من جميع أنحاء المملكة وأعلن فيه تولية محمد أكبر أولاده ولياً لعهده[٣] ، ثم صدرت الرسائل تشير إلى هذا الحدث ومنها الرسالة الموجهة إلى أهل سبتة وطنجة متضمنة حرص الخليفة على مصلحة الأمة ، وحرص الموحدين والعرب على اختيار ولىّ للعهد يصون للدولة وحدتها وقوتها ، وتنازل أبى حفص وإنضمامه للمطالبين بولى للعهد ، ثم نزول الخليفة عند رغبة المجتمعين واختياره لإبنه محمد وما فى ذلك من خير وبركة للأمة[٤].

وكانت أقاليم الدولة المختلفة تقوم بدورها فى إرسال موافقاتها على مثل هذا الحدث فى شكل رسائل تتضمن مبايعة أهل الإقليم والناحية لولى العهد الجديد كما فعل أهل قرطبه حين وصلتهم رسالة من العاصمة تخبرهم باختيار المنصور الموحدى لإبنه محمد الناصر ، فأرسلوا بيعتهم وموافقتهم فى شكل رسالة موجهة إلى العاصمة فى سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م جاء فيها « هذا ما أجمع عليه الملأ بقرطبة وأعمالها حرسها الله من الطلبة والموحدين والعرب والأجناد والوجوه من الأشياخ والأعيان والقواد والخواص والعوام من الرعية من حاضر منهم ومن باد ، أجمعوا بتوفيق الله على المبايعة للأمير الأجل السيد الأوحد . . نجل الخلافة الأطهر . . وذلك عندما ورد عليهم وصح لديهم ما كان من إجماع من بالحضرة الإمامية العلية . . »[٥] .

اعداد ولى العهد لتحمل مسئولية الحكم :

حرص أمراء المسلمين فى الدولة المرابطية وخلفاء الموحدين على إعداد

---

(١) البيذق : اخبار المهدى ص ١١٨ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٠ ، النويرى : نهاية الأرب جـ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ .

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٥٢ .

(٤) مجموع رسائل موحدية : ص ٥٥ الى ص ٦١ ت ليفى برفنسال الرسالة الثالثة عشرة (مثبتة بقسم الملاحق) .

(٥) د. حسين مؤنس : عقد بولاية العهد ص ١٦٠ ، ١٦١ مجلة كلية الآداب م ١٢ جـ ٢ ديسمبر سنة ١٩٥٠ .

ولى العهد ليتحمل مسئولية الحكم، ويقوم بها على خير وجه وقد تمثل ذلك الإعداد كما حدث فى الدولة المرابطية فى جعل ولى العهد يتمرّس بأساليب الحكم وإدارة إقليم من أقاليم الدولة ، وكانت الأندلس هى الميدان الذى يمارس فيه ولاة العهد تجاربهم حيث شارك فى إدارتها على التوالى كل من على وتاشفين وابراهيم[١] خلال الحكم المرابطى، وكذلك حين ولّى عبد المؤمن ابنه وولى عهده يوسف ابن عبد المؤمن إشبيلية وأعمالها[٢]. والأندلس من أهم أقاليم الدولة ، فاذا ما تمرّس ولى العهد بادارتها ونجح فى صد هجمات الروم المتربصين بها ، فانه يزداد خبرة ومعرفة تؤهله لتحمل مسئولية حكم الدولة كلها . وكان الحاكم الأعلى للدولة يسلم السلطة لولى عهده فى حياته ليمارسها تحت إشرافه ، وذلك كما فعل أمير المسلمين على بن يوسف بالنسبة لولى عهده تاشفين يقول ابن عذارى « فعقد له — أى عقد على بن يوسف لابنه تاشفين — الولاية بعهده ونقش اسمه فى الدنانير والدراهم مع اسمه ، وقلّده النظر فى الأمور السلطانية فاستقل بذلك »[٣] وهذا ما فعله أيضاً المنصور الموحدى عند تولية ابنه محمد الناصر ولاية العهد حيث أجلسه فى حياته مجلس الخلافة[٤] وحتى يستكمل ولى العهد مظاهر السلطة فانه فى الدولة المرابطية ينقش اسمه على النقود، ويلقّب بلقب الأمير ، يقول د . حسن أحمد محمود « وكان — أى ولى العهد — ينقش اسمه على السكة ، إلى جانب اسم أبيه فيقال « الأمير على بن الأمير يوسف » ويقال أحياناً أخرى « الأمير يوسف وولى عهده الأمير على » . . كما ظل اسم سير بن على يكتب على السكة حتى استبدل به الأمير تاشفين بن على ، وقد اختار تاشفين ولده ابراهيم ولياً لعهده ونقش اسمه على السكة »[٥] أما أمراء الموحدين فكانوا يلقّبون بلقب السادة ولاينعت بالسيد لعهدهم سواهم[٦]

---

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٠٤ ، د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥١ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٢٣ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩٨ تـ د. احسان عباس

(٤) ابن ابى دينار : المؤنس ص ١١٦ .

(٥) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٦ .

(٦) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٤٢٠ ، الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٢٩ اشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٢٤١ .

The Encyclopeadia of Islam, Vol I P; 317

وكان ولى العهد بدوره يمارس هذه السلطات المخوّلة له ، ناهضاً بأعباء الحكم ، كما فعل سير ولى عهد على بن يوسف يقول ابن عذارى « فاستقرت البيعة للمذكور — أى لسير بن على بن يوسف — والتزم قبولها واستقل بالأمر ونظر فى سائر ما تدعوه الضرورة من أمور الجيش والأحكام والولايات والعزل ورد المظالم وقعد للناس قعوداً فخماً »(١) ، وكان يسبق هذا الإعداد العملى لولى العهد ، إعداد آخر ثقافى حيث حرص أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين على تثقيف أبنائهم ثقافة عالية تؤهلهم للاضطلاع بأعباء الحكم ، فالخليفة المنصور الموحدى اختار كثيراً من الأساتذة لولى عهده محمد الناصر يُشرفوا على تعليمه وتثقيفه ومن هؤلاء الأساتذة عبد الله بن محمد اللخمى ابن علوش أستاذ التجويد والقرآن والعربية والآداب ، ومنهم عبد الله بن سليمان بن حوط الله وكان يلقّنه حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمرّنه على إنشاء الخطب وتحبير الرسائل وعلى قرض الشعر وغير هؤلاء من الأساتذة(٢) كذلك لعبت النصائح التى أسداها رؤساء الدولة لأولياء عهدهم دورها فى تزويدهم بالخبرة اللازمة والمعرفة التامة بأحوال الدولة وذلك كما فعل يوسف ابن تاشفين حين أوصى ولى عهده على بن يوسف بعدة نصائح غالية منها : المحافظة على مودة المصامدة المقيمين فى جبال الأطلس ، وكذلك المحافظة على معاهدة بنى هود بتجديد فصولها وعدم خرق بنودها ، والإحسان إلى أهل قرطبة ، والتجاوز عن أخطائهم وعدم معاقبتهم(٣) .

وهكذا ساهمت العلوم المختلفة التى كان يتثقف بها ولى العهد ومعها الوصايا التى كان يتزوّد بها يضاف إلى ذلك تلك الممارسة العملية للحكم فى إعداد ولى العهد لتحمل أعباء الحكم .

أسقاط ولاية العهد :

قد يحدث فى بعض الأحيان أن يتصرف ولى العهد تصرفات سيئة ويرتكب

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٨ ت د. احسان عباس .

(٢) محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٧٠ .

(٣) محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسفية ص٩٠ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ١٢٦ .
De Geyangos ; The History of Mohamedan, P ; 302.

خطأ جسيما ينتج عنه عزله من ولاية العهد وذلك بالرغم من الإعداد السابق له والدقة فى اختياره . وذلك ما حدث لولى العهد محمد فى عهد أبيه عبد المؤمن ابن على إذ بدت منه بعض تصرفات سيئة كشربه للخمر أمام مرأى ومسمع من أشياخ الموحدين وارتكابه لهذا المنكر لا يؤهله لتحمل أعباء الحكم فى دولة قامت على أساس دعوة دينية وهنا تتضارب الأقوال فى شأن تاريخ عزله فبعضها يذكر أن هذا العزل تمّ بعد وفاة عبد المؤمن وأن محمداً تولى الحكم فعلا وظل به مدة خمسة وأربعين يوماً حتّى عزله يوسف بن عبد المؤمن وأخوه عمر[1] يقول المراكشى « ولما مات عبد المؤمن اضطرب أمر محمد هذا واختلف عليه إختلافاً كثيراً . فكانت ولايته إلى أن خلع خمساً وأربعين يوماً ، واتفقوا على خلعه فى شعبان من هذه السنة ، وكان الذى سعى فى خلعه أخواه يوسف وعمر »[2] واستناداً لهذا الرأى لا يدخل خلع محمد تحت عنوان إسقاط ولاية العهد . حيث أنه تولى الخلافة فعلا وخلع منها ، وهناك روايات أخرى تشير إلى أن عبد المؤمن هو الذى عزل ابنه محمداً عن ولاية العهد حين علم بفساد خلقه وولى مكانه ابنه يوسف[3] وفى مقدمة هذه الروايات رواية ابن صاحب الصلاة وهذا مما يرجّح هذه الروايات على الرواية التى ذكرها ابن خلكان والمراكشى وذلك لوجود ابن صاحب الصلاة فى قلب الأحداث حيث كان من المقربين للخلفاء الموحدين ومسجلا لكثير من الأحداث التى شاهدها بنفسه ، وعلى العكس من ذلك المراكشى الذى سجّل أحداثه بعيداً عن أرض المغرب وبعد حدوثها بسنوات ، يضاف إلى ذلك أن الفترة الزمنية بين الروايتين رواية المراكشى ومن معه ورواية ابن صاحب الصلاة ومن معه

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٣٦ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٦ ص ١٣٣ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٣٦ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢١٦ ، ٢١٧، ٢٢١ ابن ابن زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٦٧ ت الفيلالى ، ابن خلدون : ج ٦ ص ٢٣٨ الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٩ ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثانى ص ٣٠٩ ت ليفى بروفنسال ، النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ ، العمرى : مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٣٣٢ .

لا تتجاوز مدة الشهرين حيث إن قرار العزل من عبد المؤمن تمّ فى أثناء مرضه الأخير الذى أفضى إلى الموت ومن هنا حدث الإختلاف فى توقيت العزل ، وقد أوضح ابن صاحب الصلاة العامل المباشر فى عزل محمد حين قال « وعند الانصراف — أى إنصراف عبد المؤمن من زيارته لقبر المهدى بتينملل سنة ٥٥٨هـ — منها فى الطريق ظهر من جرحة محمد المخلوع بما وجب عليه فى أثر ذلك الخلع ، وذهب فى جانبه الصرع من شرب الخمر المحرمة وظهور السكر عليه ، وذلك أنه تقيأها على ثيابه وأطنابه وسرجه وهو راكب على فرسه فى المحلة على مرأى من عظماء الموحدين وأشياخهم والعالم من المؤمنين الزائرين ، فصح عند أبيه نكره وتخليطه وسكره فأسقط هو بفعله من الأمر نفسه وكسف بالنهار شمسه »[1] ومن هذا النص يتضح إرتكاب ولى العهد محمد لإحدى الكبائرعلى مرأى ومسمع من أشياخ الموحدين وكبار رجال الدولة مما يستحيل معه تقلده لمنصب الرئاسة الذى من أولى مبادئه المحافظة على أركان الدين وأحكامه مع اصطباغ الدولة بالدعوة الموحدية التى دعا إليها ابن تومرت وتشدده فى تنفيذ أحكام دعوته وتبعه فى ذلك خليفته عبد المؤمن ، كل هذا دفع عبد المؤمن إلى عزل ابنه[2]وذلك حين جمع أشياخ الموحدين وأخبرهم بعزل ابنه محمد يقول النويرى « أن عبد المؤمن لما حضرته الوفاة جمع أشياخ الموحدين وقال لهم قد جربت ابنى محمد فلم أجد فيه نجابة تصلح للأمور ولا يستحق الولاية ولا يصلح لها إلا ابنى يوسف وهو أولى بها فقدموه لها ووصّاهم بها فبايعوه وعقدوا له الولاية »[2] ، وهكذا خسر ولى العهد محمد مقعد الحكم نتيجة استهتاره وارتكابه لهذا الخطأ الجسيم .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢١٦ ، ٢١٧ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٢١ ، ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٦٧ . الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٩ الميلى : تاريخ الجزائر ج٢ ص ٢٢٥ ، العمرى : مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٣٣٢ .

جـ — الوزارة

استعان ولاة الأمر بالمغرب الأقصى بالوزراء فى إدارة البلاد ، وبالرجوع إلى التعريفات المختلفة للفظة وزارة نجد أنها تحمل فى طياتها معنى المؤازرة[1] والمعاونة[2] وقد تناول الماوردى وظيفة الوزارة بالشرح والتفصيل وعرّفها بقوله « اسم الوزارة مختلف فى اشتقاقه على ثلاثة أوجه : أحدها أنه مأخوذ من الوزر وهو الثقل لأنه يحمل عن الملك أثقاله ، الثانى أنه مأخوذ من الوزر وهو الملجأ ومنه قوله تعالى «كلا لا وزر » أى لا ملجأ فسمى بذلك ، لأن الملك يلجأ إلى رأيه ومعونته ، والثالث أنه مأخوذ من الأزر وهو الظهر لأن الملك يقوى بوزيره كقوة البدن بالظهر ولأى هذه المعانى كان مشتقاً فليس واحد منها ما يوجب الاستبداد بالأمر »[3] .

وقد لعب الوزراء بالمغرب الأقصى منذ منتصف القرن الخامس وحتى نهاية السادس من الهجرة دوراً بارزاً فى معاونة حكام الدولة على تسيير دفة الحكم ورعاية شئون البلاد .

الوزارة بالمغرب الأقصى :

شهد المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين تنوّعاً فى نظام الوزارة وذلك بحسب السلطة الحاكمة . ويمكننا أن نقسمه إلى مرحلتين متميزتين لكل منهما طبيعته وخصائصه .

المرحلة الأولى : وتشمل هذه المرحلة عهد الدولة المرابطية ، وذلك منذ أن وطّد يوسف بن تاشفين سلطانه وانطلق بجهوده الحربية إلى ميدان الأندلس الذى أصبح إقليما خاضعاً للسلطة المركزية فى مراكش ، ومن هنا اتخذ امراء المرابطين الوزراء .

---

(١) النويرى : نهاية الارب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون : ص ٢٣٦ ، الطرطوشى : سراج الملوك ص ٥٧ ، د. صبحى الصالح . النظم الاسلامية ص ٢٩٤
S.D. Goitien ; Studies In Islamic History, P ; 170

(٣) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٢٤ ط ١ سنة ١٩٦٠ .

وكان الوزير فى أوائل عهد الدولة قائداً عسكرياً(١) وقد تجلّى ذلك حين اتخذ يوسف بن تاشفين صهره سير بن أبى بكر وزيراً له(٢) وكان سير من أعظم زعماء لمتونة وقادتها وقد ظهرت براعته العسكرية فى موقعة الزلاقة سنة ٤٧٩ هـ / ١٠٨٦م(٣) ، وحين عزم يوسف بن تاشفين الاستيلاء على الأندلس أسند مهمة الاستيلاء على مدنها إلى وزيره وقائده سير بن أبى بكر(٤) كذلك استوزر أمير المسلمين على بن يوسف القائد ينتيان بن عمر الذى كان قائداً لفرقة الحشم(٥) وتولى القادة العسكريين منصب الوزارة يرجع إلى إنشغال ولاة الأمر بفكرة الجهاد وكثرة المعارك التى خاضوها فى المغرب والأندلس .

وبجانب هذا الوزير كان هناك نوع آخر من الوزراء وهم الوزراء المدنيون ومعظمهم من الفقهاء الذين نالوا حظاً كبيراً من الثقافة العربية أمثال مالك بن وهيب وزير على بن يوسف الذى نال حظاً كبيراً من العلم والمعرفة فى معاهد قرطبة وأشبيلية وغرناطة وبلنسية وغيرها من العواصم الأندلسية(٦) ومن هنا ساعد أمير المسلمين نوعان من الوزراء :

أولا : وزراء عسكريون من قادة الجيش وهم من قرابة السلطان عادة أو من قبائل لمتونة وصنهاجة التى قامت على أكتافها دولة المرابطين(٧) .

ثانياً : وزراء كتّاب وهم الفقهاء(٨) .

وبجانب هذا التنوّع انقسم الوزراء من حيث إقامتهم إلى وزراء مركزيين يقيمون فى مراكش بوصفها عاصمة البلاد(٩) من أمثال اسحاق بن ينتيان بن

---

(١) J.F.P- Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 7.

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٧٣ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٧٣ .

(٥) د. أحمد مختار العبادي : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٤

(٦) محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسفية ص ١٧٥ .

(٧) د. العبادى :دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٢ .

(٨) نفس المرجع السابق ص ١٥٢ .

(٩) ابراهيم جركات : المغترب عبر التاريخ ص ٢٠٤ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٣٣١ .

عمر[١] ومالك بن وهيب[٢] وزيرى على بن يوسف ، ووزراء إقليميون تابعون للأمراء المحليين[٣] كابن الإمام وزير الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين يقول محمد المرير « ابن الامام توفى سنة ٥٢٠ هـ / ١١٢٦م هو على بن عبد العزيز بن الإمام الأنصارى من أهل سرقسطة ، سكن غرناطة ، وأخذ عن شيوخها ، كان أحد علماء عصره متفقهاً محققاً من أهل البلاغة ، والفصاحة والكرم ، وكان وزيراً جليلا معظماً ، صاحب معارف ومآثر جمة ، استوزره الأمير أبو الطاهر تميم بن يوسف بن تاشفين صاحب غرناطة فحمدت وزارته وشكرت مقاصده وأعماله »[٤] ، واتخاذ الأمير أبى بكر بن ابراهيم بن تاشفين وهو ابن عم أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وزيراً فى ولايته سرقسطه الوزير أبو بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة فى سنة ٥٠٨هـ / ١١١٤م[٥] ، وقد نال الوزراء مكانة ممتازة فى الدولة المرابطية ، إذ كان الوزير هو الشخص المقرّب من السلطان والذى يحضر مجلسه[٦]

المرحلة الثانية : وتشمل عهد عبد المؤمن حتى الناصر الموحدى :

وقد سبق تولّى عبد المؤمن رئاسة الموحدين وقضائه على المرابطين تنظيما إدارياً ابتدعه ابن تومرت داعية الموحدين ، وذلك لتنظيم شئون الدعوة والإشراف على سير المعارك ، وأشرك فى هذا التنظيم أكبر عدد ممكن من زعماء القبائل ، وبذلك يتحقق الدعم والمساندة للدعوة الجديدة وقد قسّمهم

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦١ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠١ ت د. احسان .

(٢) محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسفية ص ١٧٥ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٠٤ .

(٤) محمد المرير : الأبحاث السامية جـ ٢ ص ١٥٤ تطوان سنة ١٩٥٢ .

(٥) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٦٥ ط ١ سنة ١٣٢٦ هـ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٤٧٠ ، أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٢٣٩ ط ٢ سنة ٥٩ .

(٦) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦٢ .

إلى عدة طبقات[١] ويأتى فى مقدمتها طبقة العشرة أو أهل الجماعة ، وهم بمثابة وزراء لابن تومرت[٢] وكان منهم عبد المؤمن بن على خليفة الموحدين فيما بعد ، وتختص طبقة العشرة بالأمور الهامة ويتولى أفرادها الوزارة والقيادة[٣]

فلما تولى عبد المؤمن رئاسة الدولة اتخذ هو وأبناؤه من بعده الوزراء وذلك لمعاونتهم فى إدارة شئون البلاد ، وأصبح للخليفة وزير أو أكثر يتولى أعباء الحكم والإدارة بتوجيه الخليفة وإرشاده ويطالعه بمختلف الشئون الهامة[٤] .

وقد حدث تطور فى نوعية من يحتل منصب الوزارة ، فبعد أن كان الوزراء ينتمون إلى قبائل مختلفة فى عهد ابن تومرت والذى كوّن منهم طبقة العشرة أو أهل الجماعة باعتبار أسبقيتهم فى مبايعة ابن تومرت والالتفاف حوله فانهم فى عهد عبد المؤمن ومن جاء بعده تنوعت شخصياتهم فنهم من كان ينتسب إلى أسرة الخلافة نفسها ومنهم من كان ينتسب إلى أسرة معينة لها مكانتها فى الدولة ، وكان غيرهم ينتسب إلى قبيلة معينة وأخيراً احتل بعضهم هذا المنصب لتمتعه بصفات تؤهله لذلك ، ويمكننا أن نحدّد هذه النوعيات فيما يلى :

أولا : وزراء ينتسبون إلى أسرة الخلافة :

أما أول من احتل منصب الوزارة من أسرة الخلافة فهو عمر بن عبدالمؤمن

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٨ ، المراكشى : المعجب ص ١٨٨ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٩ ، ٨٠ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٨ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ قسم ٤ ص ٧٨١ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٦ .

Julien ; Histoire de L'Afrique du Nord, P ; 98, 100,
J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim ; P. 85,
The Encyclopeadia of Islam, P ; 317

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٧٤ ، د. أحمد مختار : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٥ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٩ ، أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ١ ص ٢٠٠ .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢١ ، ابن القنفذ : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ص ١٠٢ ت محمد الشاذلى وعبد الحميد التركى ، الدار التونسية سنة ١٩٦٨ .

الذى استوزره أبوه فى أخريات أيامه(١) وبذلك اتخذ عبد المؤمن بن على تقليداً فى الدولة وهو اتخاذ الوزراء من أسرة الخلافة ، وقد سار على نهجه أبناؤه من بعده فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن اتخذ أخاه السيد أبا حفص وزيراً فى بدء عهده(٢) ثم اتخذ ابنه أبا يوسف ولى عهده وزيراً له(٣) ، حتى إذا ما تولى المنصور الموحدى الخلافة نراه يسير على نفس السياسة فاتخذ أخاه أبا عبد الله وزيراً له(٤) واتبع نفس السياسة الناصر الموحدى حين استوزر أخاه ابراهيم(٥)

والمتأمل فى سياسة تولية الوزراء من أسرة الخلافة يجد أن الهدف من وراء ذلك هو التمكين لأسرة عبد المؤمن فى السلطة حيث تتجمع السلطة العليا فى البلاد من خلافة ووزارة فى يد أسرة واحدة مما يوطد من نفوذها ، فضلا عن الخبرة المكتسبة من ممارسة الحكم وتوجيه الأمور فى البلاد ، وقد ظهر ذلك واضحاً حين تولى المنصور الموحدى وزارة أبيه ، فانه تمرس بأعباء الحكم ونظمها ، يقول العينى « ولى وزارة أبيه فبحث عن الأحوال بحثاً شافياً وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة حسنة »(٦) ومن ثم أفاده

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١٩٨ ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٢٤ ، ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٧٢ ت الفيلالى . ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٣ ، البيذق : اخبار المهدى ص ١٢١

J F.P Hopkins ; Medieval Muslim; P ; 153

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٤٤ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢٠

J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 153

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٤٤ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٣ تطوان : ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٧٤ ت الفيلالى ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٤ ، العينى : عقد الجمان جـ ١ قسم ٢ ص ٢٣٢ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٠٢ .

Meakin ; The Moorish Empire, P ; 76.

(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢١ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٥ تطوان

Hopkins : Medieval Muslim, p : 154,

(٥) المراكشى : المعجب ص ٣٠٨ ، د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٧٢ .

Hopkins : Medieval Muslim, P : 154.

(٦) العينى : عقد الجمان جـ ١ قسم ٢ ص ٢٣٢ .

هذا المنصب حيث أصبح عالماً بجزئيات الأمور خبيراً بها[١] .

ثانياً : وزراء ينتسبون إلى أسرة معينة :

كأسرة بنى جامع التى تولى أبناؤها منصب الوزارة منذ عهد عبد المؤمن واستمروا فى توليها فترات مختلفة حتى عصر الناصر[٢] وترجع هذه الأسرة فى نسبها إلى ابراهيم بن جامع الذى كان من جملة أصحاب ابن تومرت وأصله من الأندلس ورحل إلى المغرب وتعرّف بابن تومرت وصار من أصحابه[٣] وضمّه ابن ترمرت إلى طبقة الخمسين[٤] وأنجب ابراهيم ابنا هو أبو العلاء إدريس الذى تولى الوزارة فى عهد عبد المؤمن[٥] كما تولاّها فى عهد إبنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[٦] وفى عهد الناصر الموحدى تولّى أبو سعيد عثمان بن عبد الله بن ابراهيم بن جامع الوزارة[٧] وهكذا شغل بعض أفراد أسرة بنى جامع منصب الوزارة منذ عهد عبد المؤمن .

ثالثاً : وزراء ينتمون إلى قبيلة معينة :

وأشهر هذه القبائل قبيلة هنتاته إحدى القبائل المؤسسة للدولة الموحدية والتى لعبت دوراً بارزاً فى قيام الدولة ودعمها وفى ذلك يشير ابن خلدون بقوله « وملوك هنتاته هؤلاء من أعظم قبائلهم وأكثرها جمعاً وأشدها قوة وهم السابقون للقيام بدعوة المهدى والممهدون لأمره وأمر عبد المؤمن من بعد»[٨]

---

(١) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٩ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢١ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٣١٠ ، ابن الآبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢٣٩ حاشية د. حسين مؤنس .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٢ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٤ .

Hopkins : Medieval Muslim, P. 153

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣٨ ، المراكشى: المعجب ص ٣١١ ، ابن الآبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢٤١ ت د. مؤنس

(٧) ابن الآبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢٤٠ حاشية د. مؤنس ، د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٧٣ .

(٨) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٧٥ .

وقد شغل بعض أفرادها منصب الوزارة[١] وتمثّل ذلك فى تولى أبى حفص عمر بن أبى زيد الهنتاتى وزارة المنصور الموحدى[٢] وفى تولّى أبى زيد بن يوجان وهو ابن أخ الشيخ أبى حفص زعيم هنتاتة وزارة الناصر[٣] ، والقبيلة الأخرى التى تولى بعض أفرادها منصب الوزارة هى قبيلة كومية والتى ينتمى إليها الخليفة الأول عبد المؤمن بن على ، وقد تمثّل ذلك فى تولّى عبد السلام بن محمد الكومى منصب الوزارة فى عهد عبد المؤمن بن على وهو من قبيلة كومية[٤] وأيضاً حين تولى أبو بكر بن يوسف الكومى منصب الوزارة فى عهد يوسف بن عبد المؤمن[٥] وهو أيضاً ينتسب إلى قبيلة كومية .

رابعاً : وزراء لهم صفات معينة :

هؤلاء الذين أهلتهم صفاتهم ومواهبهم لاحتلال هذا المنصب ومن هؤلاء أبى جعفر أحمد بن عطية الذى سوّدته براعته[٦] وبسبب حذقه ومهارته فى فن الكتابة أوثر بالكتابة والوزارة[٧] .

وهكذا كان الوزراء منذ عهد عبد المؤمن بن على مختلفين فى نوعياتهم ، وإن كان يجمع معظمهم الصلة الوثيقة بمؤسس الدولة إما بالنسب كأبناء الخلفاء وإما بالإنتماء إلى أسرة معينة اتصل عميدها بداعى الدولة ابن تومرت كأسرة بنى جامع وإما قبائل معينة كقبيلة كومية التى ينتمى إليها الخليفة وقبيلة هنتاته التى شاركت مشاركة فعالة فى قيام الدولة . وكان بعض الوزراء

---

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٤ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٦٢ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢١ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٤٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٩٤ تطوان سنة ٥٦ .

(٤) البيذق : أخبار المهدى ص ١٢٠ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٣ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٣ تطوان .
Hopkins : Medieval Muslim P : 153

(٦) ابن الآبار : اعتاب الكتاب ص ٢٢٦ ت د. صالح الاشترط ١ سنة ١٩٦١ دمشق .

(٧) ابن الآبار : اعتاب الكتاب ص ٢٢٧ ت د. صالح الاشتر ، ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الأول ص ٢٧٢ ت عنان .

يرتقى فى رتبته عن وظيفة الوزارة ، إذ لم تكن الوزارة هى أعلى المناصب فى الدولة[١] وبذلك يصبح هذا الوزير الرجل الثانى فى الدولة بعد الخليفة[٢] وقد تجلّى ذلك فى الوزير أبى حفص عمر أزناج وزير عبد المؤمن بن على الذى أسندت إليه الوزارة فترة ثم أعفى من منصبه لعلو قدره وفى ذلك يقول المراكشى « . . . وزر له فى أول الأمر أبو حفص عمر أزناج إلى أن أستقر الأمر واستقل عبد المؤمن فأجلى أبا حفص عن الوزارة وربا بقدره عنها إذ كان عندهم فوق ذلك»[٣] وهذا يرجع إلى مكانة أبى حفص فى الدولة حيث أنه من أهل الجماعة[٤] الذين سارعوا إلى مبايعة المهدى وموازرته فى نشر الدعوة وتأسيس الدولة كذلك الوزير عمر بن عبد المؤمن أخو الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فقد تولى الوزارة لأخيه ثم ارتقى فى رتبته عنها وفى ذلك يقول المراكشى « وزر له أخوه عمر أياماً يسيره ثم ارتفع قدره عن الوزارة إذ رآها دونه »[٥] .

ومن ناحية أخرى فان الوزراء من أسرة الخلافة كانوا يتخذون وزراء يعملون بين أيديهم وذلك لتميز أنفسهم عن سائر الوزراء[٦] ، وقد تجلى ذلك حين اتخذ الوزير أبوحفص ابن الخليفة عبد المؤمن وزيرا بين يديه هو أبوالعلا إدريس بن جامع فى عهد الخليفة عبد المؤمن[٧] وكذلك الوزير أبو يعقوب ابن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين كان يشغل منصب الوزراء لأبيه فانه اتخذ الوزير أبا بكر بن يوسف الكومى بين يديه[٨] ومن هنا كان هذا الإجراء يهدف إلى الإرتفاع بقدر أفراد أسرة الخلافة عن المساواة بيقية الوزراء

(١) J.F. Hopkins : Medieval Muslim; P: 10

(٢) Julien : Histoire du Maroc, P : 309

(٣) المراكشى : المعجب ص ١٩٨ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ٧٦ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٢٢٤ .

(٦) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٧ .

(٧) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٢٤ ، ابن ابى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٧٢ ت الفيلالى ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٤ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٨ .

(٨) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٣ تطوان ، ابن ابى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٧٤ ت الفيلالى .

وفى نفس الوقت الاحتفـاظ بلقب الوزراء ورتبها فى الأسرة(١) دعما للسلطة وممارسة لتصريف شئون البلاد .

اختصاصات الوزراء وسلطاتهم :

تنوعت اختصاصات الوزراء وسلطاتهم بالمغرب الأقصى وذلك تبعاً للظروف والأحوال التى مرت بها البلاد، ومنذ أن قامت دولة المرابطين وأعقبها بعدذلك دولة الموحدين وموضوع الجهاد والقتال يشغل حيزاً كبيراً من جهد الحكام ، واستتبع ذلك أن يشغل منصب الوزارة من له خبرة ودراية بالفنون العسكرية ليكون عوناً للحاكم فى نشاطه العسكرى ، ولذا رأينا فى عهد المرابطين اتخاذ يوسف بن تاشفين وزيراً من العسكريين وهو صهره سير بن أبى بكر(٢) ذلك الوزير الذى ظهرت براعته ومقدرته العسكرية فى معركة الزلاقة(٣) وكذلك فعل ابنه أمير المسلمين على بن يوسف حين اتخذ وزيره ينتيان بن عمر وكان قائداً لفرقة الحشم(٤) ، واتبعت الدولة الموحدية نفس النظام وهو اتخاذ وزراء يكون من اختصاصهم تنظيم الجيش(٥) وقد تجلى ذلك حين تولى الوزير أبو يحيى بن أبى حفص الهنتاتى وزير المنصور الموحدى قيادة الجنود فى معركة الأرك حيث قام بتنظيم الجند وإعدادهم لخوض المعركة وحقق بهم نصراً مؤزرا(٥) .

وكان الوزير فى بعض الأحيان يقوم بوظيفة الحاجب ، والحجابة هنا معناها رياسة الوزراء(٦) وقد أشار ابن خلدون إلى أن الوزارة معناها الحجابة فى دولة الموحدين حيث يقول فى مقدمته « ولما جاءت دولة الموحدين من بعد ذلك أغفلت الأمر أولا للبداوة ، ثم صارت إلى انتحال الأسماء والألقاب

---

(1) J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim p : 9

(2) J.F.P, Hopkins : Medieval Muslim P : 7

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢ .

(٤) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٤ .

(5) Terrasse : Histoire du Maroc, P : 309

(٦) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٥٠ ، ابن عبود : تاريخ المغرب جـ ٥ ص ١٤٣ .

وكان اسم الوزير فى مدلوله ثم اتبعوا دولة الأمويين وقلدوها فى مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان فى مجلسه ويقف بالوفود والداخلين على السلطان عند الحدود فى تحيتهم وخطابهم والآداب التى تلزم من الكون بين يديه»[١] وقد ظهر هذا الاختصاص حين تولى السيد أبوحفص ابن الخليفة عبد المؤمن وزارة أبيه الحجابة وندبه عبد المؤمن لكى يتولى أمر الوفود ويقودها إلى مجلسه للسلام وتجديد البيعة فأدخلوا بترتيب معين[٢] كذلك فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين تولى أخوه السيد أبو حفص وزارة أخيه وحجابته[٣] ، وهنا يجدر الملاحظة أن الوزير الذى يتولى منصب الحجابة بهذا المعنى كان من أسرة الخلافة فى الدولة الموحدية .

وأحياناً كان الوزير يمارس أعمال الكتابة فى الدولة وقد سبق أن أشرت إلى اتخاذ المرابطين وزراء كتاب من الفقهاء تجلى ذلك حين اتخذ يوسف بن تاشفين وزيراً كاتباً هو الوزير الفقيه أبومحمد عبد الغفور ، ومن أبرز أعماله كتابته نص ولاية العهد باسم أمير المسلمين يوسف بن تاشفين لابنه على بن يوسف[٤] وفى الدولة الموحدية وجدنا اختلاطاً بين منصب الوزارة والكتابة فى عهد عبد المؤمن[٥] وحتى أن بعض الكتاب أطلق اسم الوزير على الكاتب المتصرف يقول أكنسوس « وكذلك أول الدولة الموحدية فانها لم تستمكن فى مقام الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتميز المراتب والخطط الملوكية إلا فى أواسطها لما استفحل أمرها ، فلم يكن عندهم من المراتب إلا الوزير وكانوا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف التصرف العام المشارك للسلطان فى الرأى الخاص كأبى عطية وعبد السلام الكومى »[٦] ، وقد ظهر ذلك حين

---

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢١ ،
Terrasse : Histoire du Maroc, P : 309

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٠ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٣٨٢ .

(٤) نفس المرجع السابق : القسم الثانى ص ٦٢١ .

(٥) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٣ .
J.F,P. Hopkins : Medieval Muslim, P : 7.
J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : 10

(٦) اكنسوس : الجيش العرمرم الخماسى لوحة ٣١٠ ميكروفيلم .

جمع أبو حفص أحمد بن عطية بين منصب الوزارة والكتابة[١] ثم انفرد بعد ذلك بالوزارة فقط[٢].

وكان الوزير فى بعض الأحيان يختص بالإشراف على الشئون المالية[٣] وما يتبع ذلك من الإشراف على العمال والمتصرفين فى أموال الدولة، وكان لخبرة الوزير بالشئون المالية مع عدله وإنصافه أثره فى رخاء الحياة الاقتصادية وسعة أرزاق الناس وقد ظهر ذلك جلياً حين تولى منصب الوزارة فى عهد الناصر أبوعبد الله محمد بن على بن أبى عمران الضرير وفى ذلك يقول المراكشى « رأى الناس فى أيام وزارته الخصب وسعة الأرزاق وكثرة العطاء مثل الذى رأوا فى أيام أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن أو قريباً منه »[٤].

وفى بعض الأحيان كان الوزير يكلف بالإشراف على نواحى البناء والتعمير التى تقوم الدولة بانشائها وقد ظهر ذلك فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين أسند إلى وزيره أبى العلاء إدريس مهمة الإشراف على أعمال البناء والتعمير وذلك حين كان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بأشبيلية سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م وأمر ببناء قصور البحيرة خارج باب جهور من أشبيليه[٥] وحشد فى سبيل ذلك العمال والبنائين من كل مكان وجعل وزيره مشرفاً على أعمال البناء « وأبو العلاء ادريس الوزير وابنه يحيى ملتزمان للخدمة بالجلوس على ذلك من وقت شروق الشمس إلى المساء حتى كمل البناء وانتهى غاية الانتهاء»[٦] وأيضاً حين قلد المنصور الموحدى وزيره أبا زيد بن يوجان أشغال البرين، يقول ابن عذارى « وفى هذه السنة ـ ٥٩٣ هـ ـ قلد ـ أى

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١٩٨ ، د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٩

Hopkins : Medieval Muslim, P: 10

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٩٨ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٣ .

(٣) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٣٩ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٢ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ ٢ ص ٢٩١ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٣١٠ .

(٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٤٦٤ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٤٦٨ .

المنصور الموحدى حينما كان بأشبيليه سنة ٥٩٣هـ — أبو زيد بن يوجان أشغال البرين من الأعمال العلية والأشغال السلطانية والوزارة وما يتعلق بهامن أشغال الموحدين وملازمة الخدمة فاستقل بذلك كله استقلالا ظهر به صلاح الأحوال»(١)

وكان الوزير فى بعض الأحيان تسند إليه وظيفة النظر فى المظالم وبحث ما تشتكى منه الجماهير(٢) وقد ظهر ذلك فى الدولة المرابطية حين تولى الوزير اسحق بن ينتيان بن عمر فى عهد على بن يوسف النظر فى المظالم فى ذلك يقول ابن الخطيب «ثم بعد ذلك فى آخر مدته — أى مدة على بن يوسف بن تاشفين استوزر اسحق بن ينتيان بن عمر بن ينتيان .. وكان يتوقد ذكاء ونبلا وفهماً فأعجب به إعجاباً كثيراً وجعل له النظر فى المظالم والشكايات فانتفع به الناس فى أمورهم وكافة شئونهم»(٣) .

وفى بعض الأحيان كان يسند الخليفة إدارة إقليم من أقاليم الدولة إلى وزيره وذلك لأهمية الإقليم وكثرة الثورات به، وهذا ما حدث فى عهد الناصر الموحدى حين أسند منصب ولاية إفريقية إلى وزيره الشيخ أبى محمد عبدالواحد ابن الشيخ أبى حفص وفى ذلك يقول الزركشى «وعزم الناصر على الرحيل إلى المغرب فنظر فى من يوليه إفريقية فوقع اختياره على وزيره الشيخ أبى محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص فعقد له على ذلك سنة ثلاث وستمائة»(٤).

ومن هذا العرض لاختصاصات الوزير يتضح أن بعضهم تحمل عبء النشاط العسكرى، وبعضهم قام بوظيفة الحاجب، وآخرون قاموا بوظيفة الكتابة، وبجانب ذلك الإشراف على الشئون المالية بالدولة، وأحياناً يشرف على أعمال الإنشاء والتعمير بها، وتولى بعضهم النظر فى المظالم أو إدارة إقليم من أقاليم الدولة .

وقد أطلق لقب وزير على بعض من يقومون بخدمة الخليفة ومداواته

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٧٤ تطوان سنة ٥٦ .

(٢) J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : 7

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦١ .

(٤) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١٣ .

والإشراف على شئونه[١] وقد تجلّى ذلك حين أطلق لقب وزير على ابن زهر الذى خدم عدة سنوات فى منصب طبيب البلاط والوزير لعبد المؤمن مؤسس دولة الموحدين[٢] ، وكذلك الوزير الطبيب أبو بكر بن الطفيل والوزير أبو مروان عبد الملك بن قاسم القرطبي وكلاهما قام بخدمة الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن[٣] .

وبعد هذا التنوّع فى اختصاصات الوزير ، ما مدى سلطة الوزير؟ وبعبارة أخرى : هل كان الوزراء وزراء تنفيذ أم تفويض كما اصطلح على ذلك العلماء[٤] حيث اختص وزير التنفيذ بتنفيذ أوامر الخليفة الذى يشرف على جميع تصرفاته واختص وزير التفويض بتدبير شئون الدولة تبعاً لرأيه[٥] . لقد شهد المغرب الأقصى كلا النظامين ، ففى الدولة المرابطية ومعظم من تولوا الوزارة فى الدولة الموحدية منذ عبد المؤمن إلى الناصر كانوا وزراء تنفيذ حيث أحكم أمراء المسلمين من المرابطين وخلفاء الموحدين قبضتهم على مقاليد الأمور وأشرفوا بأنفسهم على أحوال البلاد ومن هنا كان الوزراء منفذين لأوامر حكام البلاد[٦] ، إلا أنه فى بعض الاحيان ظهر من الوزراء من تولوا الأمور وأنفذوها برأيهم ، وكان هذا مرجعه لسببين :

السبب الأول :

إما أن يكون هؤلاء الوزراء من أسرة الخلافة الموحدية وقد أشار إلى إلى ذلك ابن خلدون فى تولّى السيد أبى حفص وزارة أخيه الخليفة يوسف

---

(١) اشباخ : تاريخ الأندلس جـ٢ ص ٢٤٢ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٧٥٠ .

(٣) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٧٦ ت الفيلالى .

(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٢ الى ص ٢٩ ط ١ . سنة ١٩٦٠ : ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٣٩ ، د. الريس : النظريات السياسية ص ١٨٠ سنة ١٩٥٢ .

(٥) د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٣٢ .

(٦) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٨ ،

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : 11

ابن عبد المؤمن بقوله « واستقل فى رتبة وزارته »[١] وقد أوضح ذلك الاستقلال ابن صاحب الصلاة بقوله « وتوالى استبداد السيد الأعلى أبى حفص على معنى الوزارة والإمارة بانفاذ الأوامر عن أمره على ما كان عليه عند أبيه من الوزارة فى سره وجهره »[٢] ، وكذلك حين تولى المنصور الموحدى وزارة أبيه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وإشرافه على جميع أحوال البلاد مع إشرافه على العمال والولاة والقضاة[٣] وفى ذلك يقول المراكشى « ولى الوزارة – أى المنصور الموحدى – أيام أبيه فبحث عن الأمور بحثاً شافياً ، وطالع أحوال العمال والولاة والقضاة وسائر من ترجع إليه الأمور مطالعة أفادته معرفة جزئيات الأمور فدبّرها بحسب ذلك »[٤] .

والسبب الآخر :

حين يستبد الوزراء بهذا المنصب وقد ظهر ذلك فى عهد الناصر ومن جاء بعده إذ علا سلطان الوزراء فآذن ذلك بتفكك الدولة[٥] وأسباب ذلك ترجع إلى سوء اختيار الناصر لوزرائه[٦] وقد تجلّى ذلك حين اختار الناصر وزيره أبا سعيد بن جامع الذى استبد بالأمور وأقصى شيوخ الموحدين وأعيانهم وذوى الحنكة والرأى عن الاتصال بالخليفة[٧] يضاف إلى ذلك أنه حجب عن الخليفة الكتب الواردة من الأندلس بشرح الأحوال[٨] مما أدى فى النهاية إلى هزيمة العقاب التى آذنت بزوال الدولة الموحدية[٩] ولم يكتف وزير الناصر

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٨ .
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢٣٧ .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ٤ ، العينى : عقد الجمان جـ ١ قسم ٢ ص ٢٣٢ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٩٨ .
(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٦٢ .
(٥) د. أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى جـ ٤ ص ١٨٩ ط ٣ سنة ٦٩ .
(٦) أشباخ : تاريخ الاندلس جـ ٢ ص ١٠٥ .
(٧) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٢١ .
(٨) ابن الخطيب : رقم الحلل ص ٥٩ .
(٩) نفس المرجع السابق ص ٥٩ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٩٣ . السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٢١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٢٣٢ ، ابن عبود : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٥٦ .

Murphy . The History of Mahometan, P: 134

بالاستبداد بالرأى بل وشارك فى تدبير مؤامرة للقضاء على الخليفة نفسه حين وضع له السم فى الشراب ونجاحه فى الفتك به[١] وفى ذلك يقول ابن القاضى « وتوفى — أى الناصر — سنة عشر وستمائة مسموماً فى كأس خمر بأمر وزيره فى يوم الأربعاء الحادى عشر لشعبان منها بقصره من قصبة مراكش»[٢].

نكبة بعض الوزراء :

لقى بعض الوزراء مصرعهم ، كما عزل بعضهم وأبعد عن البلاد نتيجة للشكوك التى أثيرت حول إخلاصهم ، أو نتيجة للتصرفات السيئة التى ارتكبوها والتى عجلت بنهايتهم ، وقد ظهر ذلك واضحاً فى الدولة الموحدية حيث وجدنا أكثر من وزير اعتقل وانتهت حياته إما بالقتل أو بالنفى .

ويأتى فى مقدمة هؤلاء الوزراء أبو جعفر أحمد بن عطية وزير عبد المؤمن ابن على وهو من أهل مراكش وأصله القديم من طرطوشة[٣] وقد اشتغل بالكتابة لأمراء المرابطين وكان ذا منزلة رفيعة لديهم[٤] ، حتى إذا سقطت دولة المرابطين دخل فى طاعة الموحدين واستطاع ببلاغته وبراعته فى الكتابة أن ينال الحظوة عند الخليفة عبد المؤمن فيصبح كاتباً ووزيراً الخليفة الموحدين[٥] وقد أثبت ابن عطية كفاءة ومقدرة حين تولى ذلك المنصب يصور ذلك المقرى بقوله « وأسند إليه وزارته فنهض بأعبائها ، وتحبب إلى الناس بإجمال السعى والإحسان فعمت صنائعه وفشا معروفه ، وكان محمود السيرة ، مبخت المحاولات ، ناجح المساعى ، سعيد المآخذ . . . وكانت وزارته زيناً للوقت وكمالا للدولة »[٦] وكان هذا النجاح سبباً فى حسد الحاسدين القريبين من

---

(١) ابن ابى زرع : الانيس ص ١٧٥ طبع حجر ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٢٤ تطوان ، عباس المراكشى : الأعلام جـ ٣ ص ٨٣ .

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٣٠ .

(٣) ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة المجلد الاول ص ٢٧١ ت عنان ، المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٠ ، السلاوى الاستقصا جـ٢ ص ١٣١ .

(٤) ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الاول ص ٢٧١ ت عنان .

(٥) ابن الآبار : اعتاب الكتاب ص ٢٧٧ ت د. صالح الاشتر ، المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٠ .

(٦) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٠ .

الخليفة فما إن بعثه الخليفة عبد المؤمن فى مهمة إلى الأندلس حتى بدأ هؤلاء الحساد فى ايغار صدر الخليفة عليه(١) وقد ساعدهم على ذلك صلة ابن عطية القديمة بدولة المرابطين أعداء الموحدين ، يضاف إلى ذلك تزوّج ابن عطية من من أميرة لمتونية لقبت ببنت الصحراوية وهى حفيدة عاهل المرابطين يوسف ابن تاشفين(٢)مع ما أشيع عنه من اصطناع الكثير من اللمتونيين(٣) كل هذه الأمور استغلها أعداؤه أحسن استغلال ، حتى إذا تغيّب ابن عطية عن العاصمة مراكش بدأوا خطتهم وذلك باطراح بعض الأبيات التى تثير الشكوك حول موقف ابن عطية فى مجلس الخليفة عبد المؤمن ومنها :

قـــل للإمام أطـــال الله مدته ... قولا تبين لـــذى لب حقائقه

إن الزراجين قوم قد وترتهـــم ... وطالب الثأر لم تؤمن بوائقه

وللـــوزير إلى آرائهم ميـــل ... لذاك ماكثرت فيهم علائقه(٤)

وأحدثت هذه الأبيات أثرها المطلوب فى نفس الخليفة إذ وغر صدره على وزيره أبى جعفر وأضمر له فى نفسه شراً(٥) ومما زاد فى موقف أبى جعفر سوءاً ، أن الخليفة أفضى إليه بسر فأفشاه(٦) وبلغت أنباء المؤامرة الوزير ابن عطية فى الأندلس فأسرع بالمجىء إلى العاصمة حيث اعتقل ، وجمع الخليفة الناس على طبقاتهم لإبداء رأيهم فى الوزير ، فأجاب كل بما اقتضاه هواه(٧) فأمر الخليفة بسجنه وسجن معه أخاه أبا عقيل عطية ، وما إن عاد الخليفة من زيارته لقبر المهدى حتى أمر بقتلهما وذلك فى سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٨م(٨) ، هكذا لعبت الشبهات التى أثيرت حول ابن عطية والتى استغلها الحاسدون ،

---

(١) المقرى : نفح الطيب : جـ ٧ ص ١١٠ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٣١ ، وص ١٣٢ .

(٢) د. العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٦٠ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٣٤٩ .

(٣) عباس المراكشى : الأعلام بمن حل مراكش جـ ١ ص ٢١٧ .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٠ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٣٢ .

(٥) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

(٦) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

(٧) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

(٨) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ١١٠ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٣٢ .

دورها فى القضاء على ابن عطية وأخيه ويبدو أن الخليفة عبد المؤمن توجس شراً من ابن عطية نظراً لعلاقاته القديمة بالدولة المرابطية مما جعله يستجيب للوشاة والحاسدين حرصاً على أمن وسلامة الدولة .

ولقى نفس المصير الوزير عبد السلام بن محمد الكومى وزير عبد المؤمن وإن اختلفت الأسباب الداعية إلى ذلك ، وكان قد تولّى منصب الوزارة عقب مقتل ابن عطية[١] وهو ينتمى إلى قبيلة كومية وتربطه بالخليفة عبد المؤمن صلة قرابة حتى كان يدعى بالمقرّب [٢]، هذه المكانة والمنزلة أغرته بالوقوع فى كثير من الأخطاء ، وقد ذكرها ابن صاحب الصلاة وتنحصر فيما يأتى :

أولا : إساءته إلى أبناء الخليفة عبد المؤمن حين ادّعى عليهم ارتكابهم لبعض الأفعال القبيحة وفى ذلك يقول ابن صاحب الصلاة « وطال السادات وضايقهم ونسب إليهم عند أبيهم قبائح الأفعال من الراحات والبطالات بالنهار وطول الليل ، وقد كان قديماً قبل هذه الحركة المنصورة يقصر بهم ويسيء العشرة معهم ، فرفع إلى أمير المؤمنين رضى الله عنه أنهم يشربون الخمر المحرمة وقرر ذلك وكرر المطالبة لهم هنالك »[٣] فلما تحرى الخليفة الأمر عن طريق شيوخ الموحدين تبين له كذب وزيره[٤].

ثانياً : وأما الخطأ الثانى حين أرسله الخليفة على رأس حملة إلى قابس فما أتم فتحها حتى استأثر الوزير بالغنائم والأسلاب وفى ذلك يقول ابن صاحب الصلاة « واستبد عبد السلام بجمع الغنائم والأموال وتنفيل ما شاء من الأنفال ولم يعلم بما فتح الله من الآمال وأدل بقرابته ووزارته غاية الإدلال فنسب إليه

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٧ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٤ حاشية .

(٢) ابن الابار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢٣٨ ت د. حسين مؤنس ، المراكشى : المعجب ص ١٩٨ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٧٤ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٧٥ .

فى الأموال والاحتجان والإنكار والكتمان »[١] وقد عالج أشياخ الموحدين تصرفات الوزير بمطالبة الخليفة تعين أحد أبنائه وزيراً وأن يكون هو الصلة بين الخليفة وبين أشياخ الموحدين وموافقة عبد المؤمن على ذلك واختياره لابنه أبى حفص وزيراً له[٢] .

ثالثاً : شكوى سكان تلمسان من عمالهم الذين ولاهم الوزير عبد السلام ووصول هذه الشكوى مباشرة إلى الخليفة وذلك حين وصوله إلى تلمسان . «ووصل — أى الخليفة عبد المؤمن — مدينة تلمسان ، تشكى أهل العدوة بعمال عبد السلام من حملهم على الرعية وظلمهم وتعديهم ومن كومية أصحابه ووصفوهم باحتجان الأموال والخيانة للأمر فى جميع الأعمال وأطنبوا فى التشكى والتبكى وأضافوا ذلك كله إلى الرضى من عبد السلام بجورهم[٣] » وهكذا استغل الوزير قرابته فى التعالى على أبناء الخليفة مع الاستئثار بالأموال ، واستغلاله لمنصبه فى تعيين من شاء من أصحابه ورضاه عن ظلمهم ، وقد تجمعت كل هذه الأخطاء لدى الخليفة عبد المؤمن الذى جمع المشتكين وأشياخ الموحدين وطلبة الحضر والقاضى لسماع أقوالهم ، حتى إذا انتهى المشتكون من أقوالهم تغير وجه الخليفة وقال « عجباً من هذا الأمر وسعته وعدم المال عند مأمنه ، كانت لمتونة إنما يملكون إلى تلمسان هذه وكانوا ينصفون أجنادهم ونحن الآن قد ملكنا ذلك وزائداً على ما كان بأيديهم : افريقية كلها ولا عندنا ما نعطى للموحدين هذا من عجب العجب»[٤] وهنا أجابه أحد أشياخ الموحدين بقوله « يا أمير المؤمنين ذلك لتضييع المخازن والدين»[٥] فغضب الخليفة غضباً شديداً وأمر بسجنه[٦] ، وقد تلطف بعض الموحدين فى تخفيف غضب الخليفة بعد ذلك حتى بدا أن الخليفة سيطلق سراحه[٧] إلا أن أعداء الوزير لم يدعوا

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٧٦ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٧٧ .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٧٧ ، ١٧٨ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ١٧٨ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ١٧٩ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ١٧٩ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ١٧٩ .

الفرصة تفلت من أيديهم فأغروا سجانه بوضع السم له فى الطعام فمات من ليلته(١) وهكذا لقى وزيران مصرعيهما : ابن عطية وعبد السلام الكومى فى عهد الخليفة عبد المؤمن بن على .

فاذا ما انتقلنا إلى عهد ابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن نجد أنه عاقب أحد وزرائه وهو أبو العلاء إدريس بن ابراهيم بن جامع ، وإن كان العقاب لم يصل إلى حد القتل كما حدث فى عهد والده ، وكان أبو العلاء ادريس قد تولّى الوزارة فى عهد والده الخليفة عبد المؤمن واستمر فى منصبه حتى سنة ٥٧٣هـ / ١١٧٧م(٢) ومكث فى منصبه خمسة عشر عاماً(٣) ثم نكبه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ولم تشر المراجع إلى أسباب ذلك ، فقبض عليه وعلى ابنيه واستصفى أموالهم ونفاهم إلى مدينة ماردة بالأندلس فظلوا بها حتى وفاة الخليفة وتولى ابنه الخليفة المنصور الموحدى الذى عفا عنهم(٤) .

وقد اتبع الخليفة المنصور الموحدى نفس سياسة النفى بالنسبة للوزراء وذلك حين نفى وزيره أبا زيد عبد الرحمن بن موسى بن وجان بن يحيى الهنتانى وفى ذلك يقول الحميرى « جنجالة : حصن بالأندلس فى شمال مرسية فيها حبس أبو زيد عبد الرحمن بن موسى بن وجان بن يحيى الهنتانى ، الذى كان وزير المنصور من بنى عبد المؤمن »(٥) ولم تذكر المراجع التى اطلعت عليها سبب هذا النفى .

وربما يلجأ الخليفة إلى تحديد إقامة الوزير وذلك كما فعل الناصر مع وزيره وفى ذلك يقول ابن عذارى «وفى هذه السنة — سنة ٦٠٥هـ — قدّم الناصر

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٨٠ ، ابن الابار : الحلة السيراء ج ٢، ص ٢٣٨ ، ت د. حسين مؤنس ، ابن ابى زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٦٣، ت الفيلالى .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٩ تطوان ، ابن الابار : الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٤٠ ت د. حسين مؤنس ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٤٠ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٥٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٩ تطوان .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٩ تطوان ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٩٨ .

(٥) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ٦٧ ت ليفى بروفنسال سنة ١٩٣٧ .

بعض الولاة على أعماله وأخرّ آخرين عن أشغاله ، فأخّر أبا يحيى بن أبى الحسن ابن أبى عمران عن الوزارة وألزمه فى داره وقدّم للوزارة أبا سعيد بن أبى إسحق ابن جامع»[1].

وبتتبع معاقبة الوزراء نلمح أن عقوبة القتل كانت مصيرهم فى عهد عبد المؤمن ثم النفى والاعتقال فقط فى عهد من جاء بعده وهذا يتمشى مع تطور نمو الدولة واستقرارها حيث كانت الدولة فى أول أمرها محتاجة للدعم والتمكين ومن هنا كان القتل مصير كل من تسوّل له نفسه خيانة الدولة أو استغلال نفوذه وهذا ما حدث فى عهد عبد المؤمن فاذا ما استقرت الدولة وتدعم مركز الخلفاء ، كان النفى والاعتقال مصير الوزراء .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٢٣ تطوان .

د — الكتـــابة

عرف العالم الاسلامى نظام الكتابة كوظيفة معاونة ومساعدة للسلطة العليا فى تصريف شئون البلاد ، وقد عرف المشرق هذه الوظيفة ، واتخذ الخلفاء والأمراء الكتّاب لمعاونتهم فى إدارة شئون الدولة[١] ومنذ أن قامت دولتا المرابطين والموحدين على أرض المغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، اتخذ حكامها الكتّاب لمعاونتهم ومساعدتهم فى تسجيل المكاتبات الخاصة بشئون الدولة . وقد استعانت الدولة المرابطية منذ نشأتها بطائفة من الكتّاب وخاصة بعد أن سيطر المرابطون على الأندلس ، واحتاجت الدولة المترامية الأطراف إلى من يحرّر الرسائل المتنوعة عن لسان أمير المسلمين إلى عمال دولته وقوّادها وكبار موظفيها[٢] كذلك كانت خطة الكتابة من الخطط الهامة فى الدولة الموحدية حيث حشد خلفاء الموحدين فى بلاطهم أقطاب الكتّاب المجيدين ليكونوا لساناً للخليفة الموحدى وترجمانا له فى مخاطبة الولاة والقبائل والكافة سواء بالمغرب أو الأندلس[٣] وخير دليل على إرتقاء وظيفة الكتابة فى الدولة الموحدية ذلك العدد الكبير من أئمة البلاغة والأدب والذى خدم فى قصور خلفاء الموحدين ، بالإضافة إلى تلك الرسائل التى جمعها ليفى بروفنسال تحت عنوان « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية » والتى تتناول معظم الأحداث فى الدولة الموحدية وهى بقلم أشهر كتّاب الدولة ، وقد بلغت سبعاً وثلاثين رسالة ، وبقراءة هذه الرسائل يمكننا أن نستخلص مدى إهتمام الخلفاء بتسجيل الأحداث الهامة والأوامر والمكاتبات الصادرة من الخليفة الموحدى مما يدل على أهمية وظيفة الكتابة فى الدولة .

الكتّاب : لعبت الأندلس إحدى الأقاليم التابعة لدولتى المرابطين والموحدين دوراً كبيراً فى تزويد السلطة العليا بالمغرب بطائفة كبيرة من الكتّاب[٤] وقد

---

(١) د. صبحى الصالح : النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ص ٣٠٣ .

(٢) د. حسن إبراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٤٣٦ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٢ .

(٤) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٩ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٤٣٦ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٢ .

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : 12

عبّر المراكشى عن كثرة كتّاب الأندلس فى بلاط أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بقوله « ولم يزل أمير المسلمين من أول إمارته يستدعى أعيان الكتّاب من جزيرة الأندلس ، وصرف عنايته لذلك حتى اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك[(١)] » .

وبجانب إقليم الأندلس ، قام المغرب الأقصى بدوره فى تخريج مجموعة من الكتّاب المغاربة نتيجة لازدهار الحركة الفكرية وخاصة فى عهد الموحدين وبتصفح تراجم هؤلاء الكتّاب بالمغرب الأقصى يمكننا أن نلمح نوعية هؤلاء الكتّاب :

أولا : كتاب شغلوا هذه الوظيفة بالأندلس خلال حكم ملوك الطوائف ومن هؤلاء الكتّاب ابن عبدون وهو من أهل يابرة والذى اشتغل كاتباً ليوسف بن تاشفين وكان قبل ذلك يكتب للمتوكل بن الأفطس[(٢)] وأيضاً الكاتب أبو بكر المعروف بابن القصيرة كاتب أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكان من قبل كاتب ابن عباد فى الأندلس[(٣)] وكان ابن القصيرة من أهل أشبيلية ورأس أهل البلاغة فى وقته[(٤)] وكذلك الكاتب أبو بكر عبدالعزيز ابن سعيد بن عبد العزيز البطليوسى والذى كان كاتباً لعمر المتوكل بن الأفطس ثم بعد ذلك كاتباً فى دولة المرابطين[(٥)] ، ولا شك أن هؤلاء الكتّاب لم يصلوا إلى شغل وظيفة الكتابة فى دولة ملوك الطوائف إلا بعد أن أثبتوا جدارتهم الأدبية فى عصر بلغت فيه الحياة الأدبية الأوج حيث كان التنافس واضحاً بين ملوك الطوائف فى تشجيع الأدباء والكتاب مما أذكى شعلة الأدب حتى

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١٧٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٨٧ ، كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ٧٨ ط ٢ سنة ٦١ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ١٦٤ ، الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ٩١ ، الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١٠٨ ط ١ سنة ١٣٢٠ هـ ابن الآبار : اعتاب الكتاب ص ٨٤ ت د. صالح الأشتر .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٣٩ القاهرة سنة ١٩٥٥ .

(٥) ابن الآبار : الحلة السيراء ج ٢ ص ١٠٣ ، ١٠٤ ت د. حسين مؤنس حاشية .

بلغت الذروة فى ذلك العصر[١] وبالتالى فقد أضفوا على وظيفة الكتابة بالمغرب القوة والازدهار نتيجة لخبراتهم وتجاربهم السابقة .

ثانياً : كتّاب ولدوا ونشأوا بالأندلس ونالوا حظاً كبيراً من العلم والمعرفة ومن هؤلاء أبى عبد الله بن أبى الخصال الغافقى من فرغليط قرية على مقربة من شقورة فى كورة جيان ، وقد كان أكتب أهل زمانه وأدب أهل الأندلس بالإجماع[٢] وحتى أنه كان يلقّب برئيس كتاب الأندلس[٣] وقد اشتغل كاتباً لعلى بن يوسف بن تاشفين[٤] وكذلك القاسم بن الجد وهو من لبلة وقد سكن أشبيلية وكان من أهل التفنن فى المعارف والتقدم فى الآداب والبلاغة والتحق بوظيفة الكتابة لدى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين[٥] .

وعلى نفس السياسة سار خلفاء الموحدين فى الاستعانة بكتّاب الأندلس فى شغل وظيفة الكتابة ومعاونة الخلفاء فى المكاتبات الرسمية فقد استخدم الخليفة عبد المؤمن ميمون الهوارى كاتباً له وهو من سكان قرطبة وكان أديباً فقيهاً[٦] كما استخدم أيضاً أبا الحسن بن عياش وهو من أهل قرطبة[٧] وجرى على نفس السياسة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين استخدم كاتباً من أهل الأندلس وهو أبو الحسن بن عياش الذى اشتغل كاتباً للخليفة عبد المؤمن من قبل[٨] ، كذلك استخدم المنصور الموحدى كتّاباً من الأندلس

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٩ .

(٢) ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ص ١٧١ .

(٣) آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسى ص ١٧٧ ت د. حسين مؤنس ط ١ سنة ٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٧٧ ، المراكشى : المعجب ص ١٧٣ ، د. حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى ص ١٣٧ سنة ١٩٤٩ .

(٥) ابن دحية : المطرب من أشعار أهل المغرب ص ١٧٤ ، كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ٨٢ ط ٢ سنة ٦١ .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٦ حاشية ، ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن ص ٢٢٣ حاشية .

(٧) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٦ حاشية ، ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن ص ١٦٠ .

(٨) المراكشى : المعجب ص ٢٤٤ ، ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٧٥ ت النيلالى .

وقد ظهر ذلك حين اتخذ المنصور أبا عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عباس من أهل برشانة من أعمال المرية من بلاد الأندلس ، وقد ظل فى منصبه كاتباً مدة ولاية المنصور الموحدى وابنه الناصر من بعده[١] وقد لعب هؤلاء الكتّاب دوراً بارزاً فى دعم وظيفة الكتابة بما اكتسبوه من خبرة وثقافة ومعرفة من الأندلس .

ثالثاً : كتّاب من أبناء المغرب وخاصة فى فترة حكم الدولة الموحدية ، وكان هذا طبيعياً حيث أن دولة المرابطين التى نشأت فى مهد البداوة والتقشف لم تكن قد وصلت إلى ما وصل إليه إقليم الأندلس من تقدم وازدهار فى فن الكتابة فى ظل ملوك الطوائف ، ومن هنا استعان المرابطون بعد أن أخضعوا الأندلس بمجموعة كبيرة منهم حتى إذا ازدهرت النواحى الثقافية فى البلاد قدّم المغرب من أبنائه من يضطلع بهذه الوظيفة ، وقد رأينا ذلك حين استخدم ابن تومرت اثنين من أتباعه لشغل وظيفة الكتابة وهما ملول بن ابراهيم بن يحي الصنهاجى وأبو الربيع سليمان بن مخلوف الحضرمى[٢] وكذلك حين استخدم الخليفة عبد المؤمن بن على : أبا القاسم عبد الرحمن القالمى من أهل مدينة بجاية وكان من نبهاء الكتاب[٣] واستخدم أيضاً أبا محمد عبد الله بن جبل من أهل مدينة وهران من أعمال تلمسان[٤] ، واستخدم أيضاً أبا على الأشيرى وهو من أهل تلمسان[٥] وكذلك فعل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى استخدامه لكتاب من المغرب فقد استخدم أبا الفضل جعفر بن أحمد المعروف بابن محشوة من أهل مدينة بجاية[٦] .

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٣٦ ، ابن الابار : اعتاب الكتاب ص ٢٣٠ حاشية ت د. صالح الأشتر .

(٢) البيذق : اخبار المهدى ص ٣٩ ، محمد المنونى : العلوم والفنون والآداب ص ١٨٣ ، ١٨٤ .
J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P :13

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٠٠ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ ٢ ص ٣٢٤ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ، ص ١٧٥ حاشية ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٢٣ .

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٦ حاشية .

(٦) المراكشى : المعجب ص ٢٢٤ ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٧٥ . تت الفيلالى .

ثقافة الكتاب :

تزوّد هؤلاء الكتاب بقسط وافر من الثقافة العربية التى أعانتهم وأهلتهم لشغل هذا المنصب حيث حرص هؤلاء الكتّاب على الاغتراف من ينابيع الثقافة العربية ومن ذلك ما وصف به ابن القصيرة الكاتب بأنه « رأس أهل البلاغة فى وقته وكان من أهل الأدب البارع والتفنن فى أنواع العلم »(١) ويصف المراكشى ابن أبى الخصال الكاتب « أحد من انتهى إليه علم الآداب وله مع ذلك فى علم القرآن والحديث والأثر وما يتعلق بهذه العلوم الباع الأرحب واليد الطولى »(٢) وابن دحية فى وصفه للكاتب أبى القاسم بن الجد « وكان من أهل التفنن فى المعارف والتقدم فى الآداب والبلاغة وله حظ جيد من الفقه والتكلم فى الحديث »(٣) وبجانب الثقافة العربية العريضة فان بعضهم كان على معرفة بلغات غير العربية ، وقد ظهر ذلك حين طلب يوسف بن تاشفين من كاتبه ترجمة كتاب وصله من أهل الأندلس يعلنون فيه طاعتهم وفى ذلك يقول العينى « وكان له — أى ليوسف بن تاشفين — كاتب يعرف اللغتين العربية والمرابطية فعرفه بما فى الكتاب فكتب الجواب بما يشرح صدورهم ويطمئن قلوبهم »(٤) واللغة المرابطية هنا المقصود بها لغة البربر التى كانت تتكلم بها القبائل فى ذلك الوقت .

اختصاصات الكتاب :

تنوعت اختصاصات الكتّاب بالمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين فكانت وظيفتهم الأساسية فى الدولة المرابطية كتابة الرسائل والأوامر الخاصة بأمير المسلمين وإرسالها إلى طوائف الأمة وعمال الدولة وكبار موظفيها وذلك بعد اعتمادها بخاتم الأمير (٥) وقد ظهر ذلك حين أراد يوسف بن تاشفين اتخاذ لقب أمير المسلمين فانه أمر كتابه بكتابة هذا القرار وإرساله إلى الأشياخ

---

(١) ابن بشكوال : الصلة ج ٢ ص ٥٣٩ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ١٧٣ .
(٣) ابن دحية : المطرب من اشعار أهل المغرب ص ١٧٤ .
(٤) العينى : عقد الجمان ج ٢٠ قسم ٣ ص ٦٠٠ .
(٥) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦١ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٤٣٦ .

والأعيان والكافة فى كل مكان [١]وكذلك قام الكتّاب بالرد على المخاطبات الواردة من الخارج وقد تجلى ذلك حين كاتب أهل الأندلس يوسف بن تاشفين يطلبون عونه ونصرته ، فأمر كاتبه بالرد عليهم بما يشرح صدورهم ويطمّئن قلوبهم[٢] .

وبجانب قيام الكاتب بتسجيل المكاتبات والردّ عليها فانه كان يقوم بدور المستشار لأمير المسلمين نظراً لخبرته ومعرفته وقد تجلّى ذلك حين استشار أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كاتبه عبد الرحمن بن أسبط فى العبور إلى الأندلس لنجدة ابن عباد وفى ذلك يقول ابن الخطيب « وبعد ذلك خلا ــ أى يوسف ابن تاشفين ــ بأحد كتابه وهو عبد الرحمن بن أسبط وكان اندلسياً من أهل المرية واستشاره فقال له إن الأمر لله تعالى ولكم فقال له ومع هذا فقل ما عندك »[٣] وهكذا كانت معرفة ابن أسبط بأوضاع الأندلس سبباً فى طلب يوسف بن تاشفين مشورته .

حتى إذا تولى عبد المؤمن بن على الخلافة تولى الكتّاب عبء تسطير أخبار معارك عبد المؤمن ، وأوامره ونصائحه لولاته . وبعض القرارات التى اتخذها من مثل تولية ابنه ولاية العهد وتولية أبنائه الأقاليم المختلفة . وكل ذلك كانت تصدر به رسائل رسمية يكتبها الكتّاب ويبعثون بها إلى عمال الأقاليم وأعيان الموحدين وطبقات الأمة المختلفة ، وقد جمع ليفى بروفنسال مجموعة من هذه الرسائل تحت عنوان « مجموع رسائل موحديه من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية » ضمّت سبعاً وثلاثين رسالة كتب منها فى عهد عبد المؤمن ثلاث وعشرون رسالة .

ثم تحددت اختصاصات الكتّاب منذ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حيث أصبح هناك نوعان من الكتّاب لكل منهما اختصاصه :

فهناك كتّاب ديوان الانشاء وهؤلاء يتولون كتابة المراسيم السلطانية

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٦ ، ١٧ .
(٢) العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ قسم ٣ ص ٦٠٠ .
(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٣٢ .

والرسائل الموجهة إلى الولاة والقضاة[١] ويصف ابن عذارى اختصاصهم بقوله « يشرفون على كتب التوقيعات وكل ما ترتب عليه وقوع العلامة من وجوه الأوامر»[٢] ومن كتبة الانشاء أبو محمد عباس بن عبد الملك بن عباس وأبو القاسم المعروف بالقالمي وبابن محشوة فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[٣] أما فى عهد المنصور الموحدى فقد تولى كتابة الانشاء ابن محشوة وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن عباس[٤] وفى عهد الناصر : أبو الحسن على بن عباس بن عبد الملك بن عباس وأبو عبد الله محمد بن يخلفتن بن أحمد الفازازى[٥] .

وبجانب كتّاب الانشاء هناك كتّاب الجيش الذين يختصون بالشئون العسكرية[٦] وقد أشار ابن عذارى إلى اختصاصهم بقوله « وانفرد أبو عبدالله ابن منيع – وهو الكاتب المختص – بديوان العسكر وما انضاف إليه من التنفيذات السلطانية وتقييد الجزيات العامة فى أنواع النفقات»[٧] ومن كتّاب الجيش فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن : أبو الحسن الهوزنى الأشبيلى وأبو عبد الرحمن الطوسى[٨] وفى عهد المنصور الموحدى : الكباشى وأبو الحسن ابن مغن[٩] وفى عهد الناصر أبو الحجاج يوسف المرانى ثم بعده أبو جعفر أحمد بن منيع[١٠].

وقد قام بعض الكتّاب بدور المحققين مع العمال الذين يبلغ الخليفة عنهم سوء تصرفهم واستبدادهم فى أعمالهم واسرافهم فى أموال الدولة ، وقد حدث ذلك حين وصل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إشبيلية بالأندلس سنة ٥٦٦ هـ —

---

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٣ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٢٤ ، ٢٦٣ تطوان .
(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٤٤ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٦٣ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٣١١ ، ٣١٢ .
(٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٣ .
(٧) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٢٤ تطوان .
(٨) المراكشى : المعجب ص ٢٢٤ .
(٩) نفس المرجع السابق ص ٢٦٤ .
(١٠) المراكشى : المعجب ص ٣١٢ .

١١٧٠م وحاسب أحد عماله وفى ذلك يقول ابن صاحب الصلاة « وعندما احتل بها ـ أى نزل الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن بأشبيلية سنة ٥٦٦هـ — أخّر محمد بن أبى سعيد المعروف بابن المعلم عن أعمال المخزن بأشبيلية والأندلس وعزله عنها وأمره بالمشى إلى قرطبة لمحاسبته والوقوف على عمله . . وعندما وصل إلى قرطبة جعل لمحاسبته أبوالقاسم بن عساكر — أحد الكتّاب المبرّزين فى البلاط الموحدى ممن كان يعين أحياناً لمحاسبة المتصرفين فى أموال المخزن — وأبو عبد الله بن محسن كاتب العسكرية وأمر بالحضور على تسطير عمله الفقية أبو محمد المالقى والكاتب أبو الحكم بن عبد العزيز يشهدان على كل مايسطره دام ذلك إلى خر شهر ذى الحجة من عام ستة وستين وخمس مائة»(١) وكذلك استخدم المنصور الموحدى كتّابه فى محاسبة عامل أشبيلية حين بلغه ظلمه ، يقول ابن عذارى « فأبرز لمحاسبته — أى محاسبة المنصور الموحدى لعامله داود بن أبى داود — أبا محمد عبد الله بن يحي وأبا عبد الله بن الكاتب وقد كان تحت نظرهما من كتّاب الجهات نحو خمسين كاتباً ، وأقاموا فى نسخ وتقييد وتبيض وتسويد واكباب على بحث وتنقيب وتصديق بعض وتكذيب»(٢)

وكانت فصاحة الكاتب وبلاغته تؤهلانه فى بعض الأحيان للوقوف خطيباً أمام الخليفة بجانب اختصاصه بوظيفة الكتابة ، وذلك ما حدث فى عهد عبد المؤمن بن على وكاتبه ابن جبل ، وقد أشار إلى ذلك ابن صاحب الصلاة فى ترجمته لابن جبل بقوله « الفقيه الخطيب أبو محمد عبد الله المعروف بابن جبل ، كان صاحب أبى الحسن الأشبيلى عند الخليفة رضى الله عنه — أى عبد المؤمن بن على — يخطب بعده إذا خطب ويحضر إذا حضر فيورى الخطابة والفصاحة من كتب وتتعجب الوفود من بلاغته غاية العجب »(٣).

وكما اتخذ أمراء المسلمين فى الدولة المرابطية وخلفاء الموحدين الكتّاب لمعاونتهم فى العاصمة مراكش ، كذلك فعل أمراء الأقاليم فى اتخاذهم الكتّاب لمعاونتهم فى تحرير الرسائل وما يتعلق بالأعمال الإدارية(٤) فقد اتخذ سير بن

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٥٣ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٧٣ تطوان .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٣١ .
(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٣ .

أبى بكر الذى ولى أشبيلية الكاتب ابن عبدون وظل يكتب له إلى أن اتصل بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين باستدعاء منه[١] وتولى الكاتب محمد بن أحمد بن جبير بن محمد بن عبد السلام الكنانى من أهل شاطبة وظيفة الكتابة بغرناطة لأبى سعيد بن أبى محمد عبد المؤمن ثم رحل عنه وكتب لأبى سعيد عثمان بن عبد المؤمن والى سبتة [٢] وكذلك الكاتب أبو الحسن بن عباس القرطبى الذى اشتغل كاتباً لأبى حفص وتوجه معه إلى تلمسان وصار فى صحبته وكتابته ثم استدعاه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ليشغل وظيفة الكتابة لديه [٣].

وهكذا قام الكتّاب سواء من كان منهم بعاصمة الدولة ويتبعون فى ذلك السلطة العليا فى البلاد ، أو فى أقاليم الدولة المختلفة ويتبعون أمراء الأقاليم بواجباتهم فى معاونة الحكام فى تسيير شئون البلاد .

وهنا يجدر الإشارة إلى العلامة التى اتخذها الكتّاب فى رسائلهم الرسمية والصادرة عن السلطة الحاكمة ففى الدولة المرابطية كانت علامة الملك « العظمة لله »[٤] حتى إذا جاء الموحدون اتخذوا علامة لدولتهم وهى « الحمد لله وحده »[٥] وفى ذلك يقول ابن خلدون « ثم نظر الموحدون فى موضع العلامات المكتوبات بخط الخليفة فاختاروا الحمد لله وحده لما وقفوا عليها بخط الإمام المهدى فى بعض مخاطباته فكانت علامتهم إلى آخر دولتهم »[٦]

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٨٧ .
(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٧٢ ، ١٧٣ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٣ تطوان .
(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٧ .
(٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٨ ، ابن أبى زرع : الأنيس ص ١٥٧ ، طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٧
(٦) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٩ .

هـ ــ الحجــابة

عاون الوزراء والكتّاب أمراء المسلمين فى الدولة المرابطية وخلفاء الموحدين فى تصريف شئون الدولة وتسيير الأمور بما يحفظ على الدولة تقدمها وازدهارها وبجانب الوزراء والكتّاب كان هناك الحجاب الذين ساعدوا الحكام فى تنظيم الصلة بينهم وبين الرعية وكان الحاجب « واسطة بين الناس وبين الخليفة وهو الذى يدرس حوائجهم ويأذن لهم بالمثول بين يدى الخليفة أو يوصى بقضاء حوائجهم فلا تكون هناك حاجة للمثول بين يديه ، أو يرفض الاذن لهم إذا كانت الأسباب للمقابلة غير قوية أو لم توجد أسباب »(١) ، ومن هنا كانت مهمة الحاجب تنظيم مقابلات الخليفة مع العامة والخاصة ، حفظاً لهيبة الخلافة وتنظيما لعرض المسائل بحسب أهميتها للحاكم الأعلى للبلاد .

وبالنسبة لوظيفة الحجابة فى الدولة المرابطية فاننى لم أعثر فى المراجع التى اطلعت عليها على وجود لهذه الوظيفة سوى إشارة بسيطة أوردها ابن الخطيب فى الاحاطة عند ترجمته لتاشفين بن على بن يوسف بقوله « عكف ــ أى تاشفين بن على — على زيارة قبر أبى وهب الزاهد بقرطبة وصاحب أهل الارادة، وكان وطىء الاكتاف سهل الحجاب، يجالس الأعيان ويذاكرهم »(٢) فسهل الحجاب التى وردت فى النص لا تكفى للتدليل على وجود هذه الوظيفة فى الدولة المرابطية وربما يرجع السبب فى ذلك إلى أن الدولة المرابطية تميزت بالبساطة مع تمكن البداوة منها(٣) مما جعلها لا تتخذ مظاهر الأبهة والملك والتى تستلزم وجود حجاب بين الحاكم والرعية .

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية فان ابن خلدون ينفى وجود هذه الوظيفة فى بدء قيام الدولة وذلك حين قال فى مقدمته « ولما جاءت دولة الموحدين لم تستمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها

---

(١) د. أحمد شلبى : السياسة والاقتصاد ص ١٦٢ .

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة فى أخبار غرناطة المجلد الاول ص ٤٥٧ ت . عنان .

(٣) اكتسوس : الجيش العرمرم الخماسى لوحة ٣١٠ ميكروفيلم ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٣٣٦ .

بالأسماء إلا آخرا ، فلم يكن عندهم من الرتب إلا الوزير »(١)،إلا أن جماعة من المؤرخين أشاروا إلى وجود هذه الوظيفة فى عهد الخليفة عبد المؤمن حيث اتخذ الحجاب(٢) ووجدنا من وزرائه من يقوم بمهمة الحجابة وذلك حين تولى ابنه أبو حفص مهمة الحجابة وفى ذلك يقول النويرى « ثم مات عبدالمؤمن وكان بسلا — فكتموا موته وحمل فى محفة من سلا بصورة أنه مريض إلى أن وصل إلى مراكش ، وكان ابنه أبو حفص حاجباً لأبيه فبقى مع أخيه على مثل حاله مع أبيه يخرج إلى الناس فيقول أمر أمير المؤمنين بكذا وكذا»(٣)وقام عبد السلام الكومى وزير عبد المؤمن بمهمة الحجابة وتنظيم دخول الوفود على الخليفة عبد المؤمن وفى ذلك يقول النويرى « وفتح — أى عبد المؤمن بن على سنة ٥٥٤هـ — مدينة قابس بالسيف وأتاه تميم صاحب قفصة ومعه جماعة من أعيانها ولما قدموا عليه دخل حاجبه عبد السلام الكرامى — وصحتها الكومى — يستأذنه عليهم »(٤) ، فلما تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن تولى حجابته أكثر من شخص . وأول هؤلاء الحجاب أخوه أبو حفص الذى اشتغل من قبل حاجبا لوالده عبد المؤمن ، يقول ابن أبى زرع « حاجبه — أى حاجب يوسف بن عبد المؤمن — الضابط لأمره والقائم بملكه أخوه السيد أبو حفص»(٥) كذلك تولى الوزير إدريس بن جامع فى أكثر من مناسبة مهمة تنظيم دخول الوفود وتبليغ الخليفة بحاجيات الجماهير ومن ذلك حين جلس الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن لتلقى بيعة أتباع ابن مردنيش سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م ، يقول ابن صاحب الصلاة « فحين جلس الخليفة أمير المؤمنين رضى الله عنه — أى أى يوسف بن عبد المؤمن — فى مجلسه العالى الكريم خرج الوزير أبو العلا ادريس بن جامع وأمرهم بالدخول والمثول بين يديه فدخلوا وسلّموا سلام جماعة ثم بايعوا واحداً بعد آخر»(٦) وحين خرج الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٤١ .
(٢) ابن القنفذ : الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ص ١٠٢ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ .
(٥) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٧٤ ت الفيلالى .
(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٧٣ .

لحضور الاحتفالات باستقبال العرب الوافدين من إفريقية سنة ٥٦٦هـ/١١٧٠م وذلك بعد شفائه من مرضه ، كان الوزير أبو العلاء إدريس يقوم بمهمة الحاجب خلال الموكب ، وقد أشار إلى ذلك ابن صاحب الصلاة بقوله « فاستوى أمير المؤمنين على صهوة فرسه الأشقر الأغرّ ، وخرج راكباً عليه وهى أول ركبة خرج فيها للقاء أحد أو تشييعه من حين مرضه المؤرخ ، والوزير أبو العلا راجلا على قدميه بين يديه لصق ركابه على حجابه مهما أراد أحد من الرافعين أو المتشكين أو من أهل الحاجات وذوى اللبانات كلاما أو إشارة خرج إليهم مستفهماً كلامه موصلا أعلامه »[1] ومن الأمثلة السابقة نلمس وجود الحُجاب فى الدولة الموحدية منذ تولّى عبد المؤمن بن على الحكم .

وبجانب هؤلاء الوزراء فان المراكشى أشار إلى وجود حاجب لدى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من مواليه وهو كافور الخصى « وكان يدعى كافور بغرة »[2] أما فى عهد المنصور الموحدى فقد ذكر المراكشى اثنين من موالى المنصـور توليا حجابته وهما عنبر الخصى وريحان الخصى[3] وذكر ابن عذارى حاجباً آخر بدلا من ريحان وهو فضيل[4] ، حتى إذا تولى الناصر الموحدى الخلافة استبد وزيره أبو سعيد بن جامع بمنصب الوزارة والحجابة[5] ولم تكن الأمور المتعلقة بالدولة تصله إلا بعد جهد ومشقة[6] وذلك لاستبداد الحجاب وبجانب تولى الوزير حجابته ، ذكر المراكشى حجاباً له من الموالى يقول المراكشى « ريحان الخصى ويدعى ريحان بينك ، حجبه ريحان هذا إلى أن مات ثم حجبه بعده مبشر الخصى ، يدعى مبشر ولدى فلم يزل مبشر هذا حاجباً له إلى أن توفى أمير المؤمنين رحمه الله »[7].

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣١ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٤٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٦٣ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٧٥ تطوان .

(٥) ابن ابى زرع : الأنيس ص ١٦٨ طبع حجر .

(٦) نفس المرجع السابق ص ١٩٨ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٢٩ ، عباس المراكشى : الاعلام ج ٣ ص ٨١ .

(٧) المراكشى : المعجب ص ٣١١ .

الفصل الثالث

النظام الادارى

١ — أمراء الأقاليم

شهد المغرب الأقصى تقسيما إدارياً لأقاليمه وذلك منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين ومن بعدها دولة الموحدين ، وتولّى إدارة الأقاليم ولاة من قبل السلطة الحاكمة فى العاصمة مراكش .

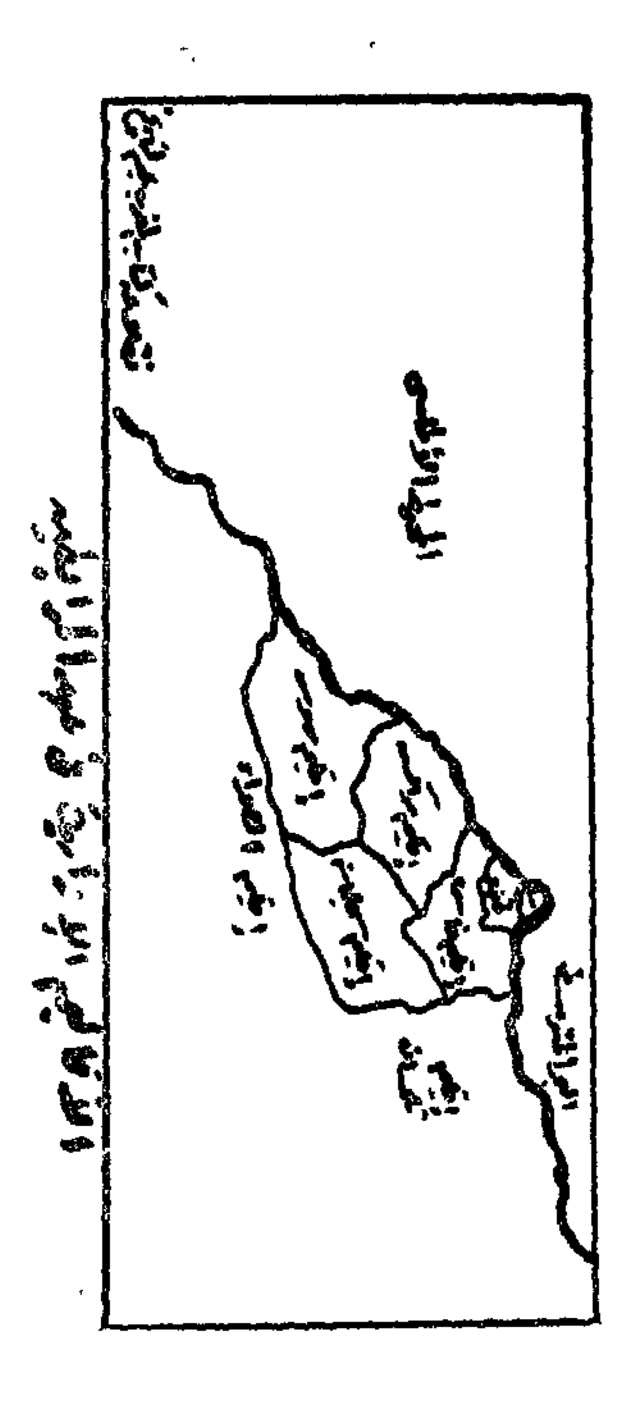
وقد شملت ولايات المغرب الأقصى فى عهد المرابطين ست ولايات عدا العاصمة مراكش وما يتبعها من قرى ، والولايات هى : فاس — وسجلماسة — والسوس وتلمسان — والصحراء — وسبتة وطنجة تكونان إقليما واحداً (١).

واتبع الموحدون فى تقسيماتهم الإدارية تقسيما إدارياً مشابهاً لنظام المرابطين وإن كانوا قد زادوا عليه إقليم الريف(٢) مع إدماجهم لولاية الصحراء فيما جاورها من ولايات كاقليم السوس(٣) .

وقد تمتعت بعض الولايات بأهمية خاصة وذلك إما لتاريخها الدينى كولاية فاس وأهم مدنها مدينة فاس ، التى كانت عاصمة المغرب الأقصى فى عهد دولة الأدارسة وظلت بعد ذلك مركزاً دينياً وثقافياً ، وحتى بعد أن فقدت زعامتها السياسية فى عهد المرابطين والموحدين حيث اتخذ المرابطون والموحدون مراكش عاصمة سياسية لهم ، فانها ظلت محتفظة بما لها من مكانة وكان أمير المسلمين فى دولة المرابطين لا يولّى عليها إلا أقرب الناس وأدناهم منه(٤) وإما لموقعها كولاية سجلماسة التى على حدود الدولة الجنوبية (٥).

---

(١) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١١ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٣٦ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٢٧ .
(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٤ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٣٥٥ .





الأقاليم الإدارية في عهد الموحدين

سياسة اختيار الولاة :

تولى السلطة بأقاليم المغرب الأقصى منذ أن تأسست دولة المرابطين ولاة من قبل السلطة الحاكمة بمراكش، وكانت هناك سياسة مشتركة بين أمراء المسلمين فى الدولة المرابطية وخلفاء الموحدين فى الدولة الموحدية هى اختيارهم هؤلاء الولاة من الأسرة الحاكمة نفسها ومن ذوى قرباهم أو من القبائل المؤسسة للدولة وقد وضح ذلك حين عمد يوسف بن تاشفين إلى توزيع أقاليم المغرب الأقصى على بنيه وذويه ، يقول ابن خلدون « ثم اقتسم — أى يوسف بن تاشفين — المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه »(١) وقد تحققت هذه السياسة حين عمد يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٤م إلى توزيع عماله على أقاليم المغرب الأقصى ، فولى سيرى بن أبى بكر مدائن مكناسة وبلاد مكلاتة وبلاد فازاز ، وولى عمر بن سليمان مدينة فاس وأحوازها ، وولى داوود بن عائشة سجلماسة ودرعة وولى ولده تميما مدينتى أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وبلاد تادلا وتامسنا(٢) ، وقد دعم يوسف بن تاشفين اتجاه تعيين أبناء القبائل المؤسسة للدولة فى الوظائف الهامة ومنها إمارة الأقاليم حين استدعى هذه القبائل من مواطنها إلى المغرب الأقصى وذلك بعد أن وطد نفوذه واتسع سلطانه ، يقول ابن الخطيب «وبعث — أى يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠هـ إلى الصحراء للمتونة ومسوفة وغيرهم يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب وطاعة أهله ويوكد عليهم فى القدوم فوفد إليه منهم جموع كثيرة ولآهم الأعمال وصرف أعيانهم فى مهمات الأشغال فاكتسبوا الأموال وملكوا رقاب الرجال وكثروا بكل مكان »(٣) وبذلك صارت القبائل المؤسسة وهى لمتونة ومسوفة وجدالة يحتل ابناؤها المراكز الهامة فى الدولة(٤) وكان يوسف بن تاشفين يرمى

---

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ١٨٥ .

(٢) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٤٥ ت الفيلالى ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٢٩ ، د. السيد عبد العزيز : المغرب الكبير ص ٧١٤ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٢٠ .

(٤) أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٢٣٤ ، د. شعيرة : المرابطون ص ٣٠ .

من وراء ذلك الاحتفاظ بتآلف هذه القبائل وتماسكها مما يدعم السلطة الحاكمة ويحفظ الدولة من خطر التفرق والانقسام(١) .

وسار على نفس السياسة أمير المسلمين على بن يوسف ، وقد تجلى ذلك بعد إتمام بيعته ، يقول ابن عذارى « وبادر — أى بعد تمام مبايعة على بن يوسف — الأمير أبو الطاهر إلى مكناسة بالجيش ، والأمير يحيى بن أبى بكر بفاس والأمير مزدلى بتلمسان ، وكان الأمير سير بن أبى بكر فى طاعة أشبيلية ولحق الأمير أبو بكر بن ابراهيم بغرناطة فى ربيع الأول من هذه السنة »(٢) وحتى فى التنقلات التى كان يقوم بها أمراء المسلمين من المرابطين بين ولاتهم كانوا يتبعون نفس السياسة ، فقد ولى أمير المسلمين على بن يوسف ابنه عمر على ولاية فاس فى سنة ٥٢٤هـ / ١١٢٩م وحين استبد وظلم عزله أمير المسلمين ، وولى مكانه يحيى بن أبى بكر بن تيفلويت بن أخته وكان والياً على تلمسان وما وراءها فجمع بين الولايتين(٣) .

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية لمسنا نفس السياسة وهى تعيين أبناء الخلفاء الحكم فى أقاليم الدولة المختلفة ، غير أن هذا الإجراء سبقه إعداد وتنظيم من جانب الخليفة عبد المؤمن حتى يستطيع مواجهة طبقات الموحدين ، إذ أن الخليفة عبد المؤمن أحس منذ اللحظة الأولى التى تولى فيها خلافة الموحدين مدى نفوذ طبقات الموحدين تجلى ذلك حين عجز الخليفة عبد المؤمن فى توقيع العقوبة على أحد أفراد أهل الجماعة حين قتل أخاه ابراهيم وذلك لاعتراض أهل الجماعة على ذلك (٤) ومثل آخر ذكره البيذق يشير إلى عجز الخليفة عبد المؤمن أمام نفوذ أحد أعضاء أهل الخمسين وذلك حين توسل اسحق بن على بن يوسف آخر أمراء المرابطين بعبد المؤمن ليعفو عنه حين اقتحامه مراكش

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤٧ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٨ ت د. احسان عباس .
(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٨٣ .
(٤) البيذق : أخبار المهدى ص ٩٣ .

وقد قبل الخليفة هذا التوسل ورفضه أحد أعضاء الخمسين ، يقول البيذق «ولم يبق منهم إلا أبو بكر بن تيرمت واسحق وغلامه طلحة ، وكان اسحق يتضرع للخليفة ويقول يا أمير المؤمنين ماله فى الرأى شيء فيقول له طلحة اصمت عنا هل رأيت ملكاً يتضرع لملك مثله فقال أمير المؤمنين لأبى الحسن — وأ و الحسن هذا هو أبو الحسن يوكوت بن واكاك من أهل الخمسين من تينملل — اترك هؤلاء الصبيان ، ما الذى تعمل بهم فصاح أبو الحسن وقال فى صيحته : ويوا ويوا الموحدين ، ارتد علينا عبد المؤمن يريد أن يربى علينا فراخ السبوعة فقام الخليفة غضباناً واتبعه الموحدون إلا أبا الحسن والشيخ أبا حفص فأخذ اسحق وضرب عنقه »[1] وهكذا عجز الخليفة عبد المؤمن عن حماية من استجار به من المرابطين ، وبالرغم من أن تدخل أبى الحسن لمصلحة الخليفة والدولة الناشئة إلا أن الخليفة عبد المؤمن أحسّ بضرورة الحد من نفوذ طبقات الموحدين واتخذ فى سبيل ذلك عدة إجراءات منها استقدامه لقبيلة كومية واستعانته بالقبائل العربية فى تولية ابنه ولاية العهد ، وتغييره لطبقات الموحدين وجعلها فى ثلاث طبقات .

وقد استعان الخليفة عبد المؤمن فى بداية الأمر بأشياخ الموحدين من أصحاب المهدى والذين ينتمون إلى طبقات الموحدين فى ولاية أقاليم الدولة[2]. وفى نفس الوقت أنشأ مدرسة فى عاصمته مراكش ألحق فيها أبناءه وجمع فيها ثلاثة آلاف طالب من قبائل المصامدة وغيرها من القبائل وزوّدهم بمختلف العلوم مع تعليمهم إدارة شئون البلاد وتدريبهم على فنون الحرب والقتال[3] حتى إذا أتم هؤلاء الطلبة الحفاظ دراساتهم المتنوعة ، بدأ عبد المؤمن الخطوة التالية فى إحلال هؤلاء الطلبة أماكن شيوخ الموحدين فى تولى السلطة على أقاليم الدولة[4] مستنداً فى ذلك إلى كفاءة هؤلاء الطلبة فى حمل مسئولية إدارة

---

(١) البيذق : اخبار المهدى ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٤ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٠ .

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٥١ ، ٥٢ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر جـ ٢ص٢٩٥ .

(٤) الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ ٢ ص ٢٩٥ عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٤٠٣ .

أقاليم الدولة وقائلا لأشياخ الموحدين « العلماء أولى منكم فسلموا لهم »[١] مع بقاء هؤلاء الأشياخ بصفة مستشارين ، وقد قابل أشياخ الموحدين هذا الإجراء بارتياح وذلك لأن أبناءهم كانوا ضمن هؤلاء الطلبة[٢] ثم اتخذ الخطوة النهائية فى سبيل تحقيق هدفه المنشود وهو تولية أبنائه أقاليم الدولة ، وذلك حين دس بين أشياخ الموحدين من يلومهم على استمرار أبنائهم فى رئاسة ولايات الدولة وبقاء أبناء الخليفة بدون توليهم لأقاليم الدولة وما فى ذلك من أثر سىء فى نفس الخليفة[٣] وقد عبّر عن ذلك ابن الأثير بقوله « تولى — أى عبد المؤمن ابن على — أولادهم — أى أولاد أشياخ الموحدين بعد تدريبهم — ثم وضع عليهم بعضهم ممن يعتمد عليه فقال إنى أرى أمرا عظيما قد فعلتموه ، فارقتم فيه الحزم والأدب فقالوا وما هو ؟ فقال أولادكم فى الأعمال وأولاد أمير المؤمنين ليس لهم فيها شىء مع ما فيهم من العلم وحسن السياسة وإنى أخاف أن ينظر فى هذا فتسقط منزلتكم عنده فعلموا صدق القائل »[٤] ومن ثم أسرع الأشياخ وألحّوا على عبد المؤمن فى تعيين أبنائه وهو يتظاهر بالرفض حتى أذعن فى نهاية الأمر لمطلبهم وعين أبناءه مكانهم[٥] .

وما إن تم تعيينهم حتى صدرت رسالة رسمية سنة ٥٥١ هـ من رباط الفتح أشار فيها الخليفة عبد المؤمن إلى أن اختيار أبنائه كان نتيجة إلحاح العرب الهلالية وأشياخ الموحدين وذلك حتى لا يتطرق الخلل إلى إدارة الدولة ، وحرص جموع الموحدين على الالتفاف حول أبناء الخليفة[٦] ومن هذه الرسالة وما سبقها من تصرفات من جانب الخليفة تشير إلى أن الخليفة لم يكن بمقدوره فرض أبنائه على أقاليم الدولة مباشرة خوفاً من اعتراض أشياخ

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ٥١ .

(٣) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥١ .

(٥) نفس المرجع السابق جـ ٩ ص ٥١ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ٩٤ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٤ .

(٦) مجموع رسائل موحدية ص ٦١ الى ص ٦٦ ت ليفى بروفنسال (مثبتة بقسم الملاحق) .

الموحدين وطبقاتهم ، وذلك بالرغم من استدعائه لقبيلة كومية ليدعم بها سلطته ومن ثم لجأ إلى الحيلة بأن جعل أمر تعيينهم نتيجة رغبة وإلحاح العرب الهلالية والموحدية فى اتخاذ هذه الخطوة وأنه رضخ فى النهاية لمطالبهم .

وهكذا استطاع عبد المؤمن بذكائه ودهائه تولية أبنائه أقاليم الدولة المختلفة ملبياً فى ذلك رغبات أشياخ الموحدين فولى ابنه السيد أباحفص تلمسان وأحوازها[١] وولى إبنه السيد أبا سعيد على سبتة وطنجة[٢] وولى ابنه أباالحسن على ولاية تلمسان[٣] وولى السيد أبا الربيع تادلا[٤] .

وبجانب أبناء الخليفة الذين تولوا السلطة فى أقاليم الدولة ، كان هناك الطلبة الحفاظ وهم خريجو المدرسة التى أنشأها عبد المؤمن ، وقد ولى عبدالمؤمن بعضهم أقاليم الدولة ، ظهر ذلك حين اتجه عبد المؤمن إلى افريقية وأنقذ المهدية من أيدى النصارى ، فانه ولى على مدينة سوسة أحد الحفاظ وهو عبد الحق بن علناس الكومى[٥] كما عين الخليفة عبد المؤمن بن على ، على مدينة صفاقس أحد الحفاظ من الموحدين[٦] ، وقد اتبع خلفاء الموحدين سياسة الخليفة عبد المؤمن فى تعيين الأقارب والحفاظ فى أقاليم الدولة فالخليفة يوسف بن عبدالمؤمن ولىّ أخاه أبا على الحسن على سبتة [٧] وكذلك ولىّ أخاه أبا زكريا يحيى على بجاية سنة ٥٦١ه[٨] وولى أيضاً أخاه أبا الحسن على إفريقية سنة ٥٧٦ه ثم وكل إليه عمل تلمسان سنة ٥٨٠ه[٩] .

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٥١ ت الفيلالى ، البيذق : أخبار المهدى ص ١١٦ ، ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٦ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥١ ت الفيلالى ، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٦ .

(٣) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٦ .

(٤) البيذق : أخبار المهدى ص ١١٧ .

(٥) أبو عبد الله محمد بن محمد : الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ص ١١٧ ط ١ تونس سنة ١٢٨٧ هـ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٩٧ .

(٦) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٩٦ .

(٧) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧١ حاشية .

(٨) نفس المرجع السابق ص ١٧١ حاشية .

(٩) نفس المرجع السابق ص ١٧٢ حاشية .

مؤهـلات الولاة :

كان الولاة يتمتعون بوضع اجتماعي معين من حيث انتسابهم إلى الأسرة الحاكمة أو القبائل المؤسسة للدولة ، وبجانب ذلك فقد توفرت فيهم عدة صفات مكنتهم من مزاولة أعمالهم ، وتحملهم لمسئولية الحكم فى ولاياتهم ، وكانت الصفة الأولى لهم فى دولة المرابطين الصفة العسكرية حيث لاحظنا أن كثيراً من هؤلاء الولاة أمثال سيرى بن أبى بكر وداود بن عائشة والأمير مزدلى وغيرهم من القادة العسكريين الذين قاموا بنشاط ملحوظ فى المعارك ، وفى نفس الوقت تولوا السلطة فى أقاليم الدولة ، وهذا يرجع إلى طبيعة الظروف التى واجهتها الدولة منذ تأسيسها فى صحراء المرابطين ، وقيام مؤسسها بنشر أفكارهم ودعوتهم فى أقطار المغرب ، ثم عملية الجهاد المستمرة فى إقليم الأندلس والذى أصبح أحد أقاليم الدولة بعد نصر الزلاقة ، ومن هنا كان ولاة الأندلس أيضا من العسكريين أمثال أبى بكر بن ابراهيم وعبد الله بن فاطمة وسير بن الحاج وعبد الله بن مزدلى وسير بن أبى بكر وغير هؤلاء[1] ولهذا ترك هؤلاء القادة الشئون المدنية بالأندلس للأندلسيين واحتفظوا لأنفسهم بشئون الحرب والدفاع [2] .

وبجانب هذه الصفة العسكرية فقد حرص كثير من الولاة على التزود بمختلف الثقافات العربية حتى يتمكنوا من حمل أعباء المسئولية « فكانوا على شىء كثير من العلم كالمنصور بن الحاج الذى جمع بين الأدب والفقه وتلقى عن علماء أجلاء كأبى على الصدفى وأبى بحر الأسدى ووصفه ابن الآبار بأنه فخر صنهاجة ، وكأبى بكر ابن تيفلويت الذى كان أديباً يجمع بمجلسه كثيراً من الأدباء والشعراء وعمر بن إمام الصنهاجى الفقيه»[3] .

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا الاهتمام الشديد من الخليفة عبد المؤمن بن على باعداد الولاة ، وقد تمثل ذلك الاهتمام فى إنشائه مدرسة

---

(١) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١١ .
(٢) د. حسين مؤنس : الثغر الأعلى الأندلسى ص ٩٧ ديسمبر سنة ١٩٤٩ .
(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٣ .

لإعداد هؤلاء الولاة وجمع فيها زهاء ثلاثة آلاف طالب من أبناء المصامدة والقبائل الأخرى ، وحدد لهم منهجاً دراسياً يتقنه كل طالب، وكان المنهج نظرياً وعملياً ، أما النظرى فهو حفظ القرآن الكريم وحفظ الموطأ ودراسة رسائل المهدى وحفظها عن ظهر قلب ودراسة عدة كتب فى إدارة الولايات(١) هذا عن المنهج النظرى ، أما الدراسة العملية فكانت تتعلق بالفنون الحربية من طعن ورمى بالحراب والسهام والمبارزة وركوب الخيل والركض وفن القتال ، ثم السباحة والمعارك البحرية وذلك فى بحيرة خاصة أنشأها لذلك الغرض على مقربة من قصره، وأعد فيها مجموعة من السفن الكبيرة والصغيرة من كل لون ، ليتمرن الطلاب فيها على القتال فى البحر والتجديف وقيادة السفن والوثب إلى سفن العدو ومزاولة جميع التمارين البدنية التى تقتضيها الخدمة البحرية(٢) وقد بلغ من اهتمام الخليفة عبد المؤمن بهؤلاء الطلاب أن نفقتهم من حيث المأكل والمشرب وما يلزمهم ، وكذلك ما يحتاجون إليه من خيل ومعدات وغير ذلك كانت من مال الخليفة(٣) وبجانب ذلك فقد حرص الخليفة على متابعة دراستهم والإشراف عليها ، ولذا كان يجمعهم يوم الجمعة بعد الصلاة فى قصره ويمتحنهم فيما درسوه ويوجه إليهم الأسئلة بنفسه(٤) وذلك تشجيعاً لهم على الاجتهاد والاستفادة من هذه الدراسة ، حتى إذا أتموا تدريبهم استخدمهم الخليفة فى وظائف الدولة المختلفة وجعل منهم عمالا على الأقاليم ، وهكذا جمع الولاة فى الدولة الموحدية بين الثقافة الإسلامية والتدريب العسكرى

طريقة تعيين الولاة :

كان تعيين الولاة يجرى وفق مراسم معينة ، وقبل أن يقع الاختيار على وال من الولاة ، كان الخليفة يقوم باستشارة من حوله فى ذلك الاختيار وقد

---

(١) أشباخ : تاريخ الاندلس جـ٢ ص ٥١ ، الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٥١ ، الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٣) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٤) أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٥١ .

تجلّى ذلك حين استشار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أخاه فى اختيار وال لبجاية سنة ٥٦١هـ / ١١٦٥ م ، يقول ابن صاحب الصلاة « نظر الأمير — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — أولا بمشاورة أخيه السيد الأعلى أبى حفص فى حديث بجاية وأنظارها إذ كانت دون وال ، وعلى حال إغفال محتاجة للنظر لها بسيد يفتح لهم زهرة الآمال ، فاختاروا لها من الأخوة السيد أبا زكريا يحيى بن أمير المؤمنين الخليفة »[1] وكذلك استشار الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن فى اختيار وال لأشبيلية [2] ، فاذا ماوقع الاختيار على الوالى صحبه من يعاونه فى إدارة الإقليم ، وهذا الإجراء خاص بالدولة الموحدية حيث حرص خلفاء الموحدين على ضم جماعة من أشياخ الموحدين لولاتهم يكونون لهم بمثابة هيئة استشارية ، يقول المراكشى « فولى — أى عبد المؤمن بن على — مدينة أشبيلية وأعمالها ابنه يوسف ، وهو الذى ولى الأمور بعده على ما سيأتى بيانه وترك معه بها من أشياخ الموحدين وذوى الرأى والتحصيل منهم من يرجع إليه فى أموره ويعوّل عليه فيما ينويه»[3] .

وبجانب هذه الهيئة الاستشارية كان هناك الموظفون المساعدون للوالى والمعينون من قبل الخليفة فى مراكش ، وقد تجلى ذلك حين وجه الخليفة عبد المؤمن بن على أبناءه لحكم الولايات المختلفة وأصحبهم من يعاونهم من الموظفين فقد ولّى عبد المؤمن ابنه السيد أبا حفص تلمسان وأحوازها واستوزر له أبا محمد عبد الحق ومن الكتاب الفقيه أبا الحسن عبد الملك بن عياش[4] وولى السيد أبا سعيد سبتة وطنجة واستوزر له أبا محمد عبد الله بن سليمان وأبا عثمان سعيد بن ميمون الصنهاجى واستكتب له أبا بكر بن طفيل القيسى وأبا بكر بن حبيش الباجى[5]، وولى السيد أبا محمد عبد الله بجاية وأعمالها واستوزر له أبا سعيد يخلف بن الحسن [6].

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٩٣ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٩٣ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ .
(٤) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥١ ت الفيلالى ، السلاوى: الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٣ .
(٥) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
(٦) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

أما ولاة المرابطين فكانوا يتخذون من أبناء الأقاليم كتاباً يستعينون بهم في تصريف شئون ولاياتهم كما فعل سير بن أبى بكر واتخاذه عبد المجيد بن عبدون كاتباً له(١) ومحمد بن الحاج أمير بلنسية واتخاذه ابن أبى الخصال كاتباً له(٢) وأبو بكر بن ابراهيم أمير سبتة وفاس وبلنسية واتخاذه لأبى بكر ابن الصائغ كاتباً له(٣) .

وقبل أن يصل الوالى إلى مقر ولايته كانت تسبقه الرسائل الرسمية من العاصمة تعلن فيها إختيار الوالى وتبين لأهل الولاية محاسنه وترغبهم فى طاعته والالتفاف حوله(٤) وهذا ما فعله أمير المسلمين على بن يوسف حين وقع اختياره على الأمير أبى زكريا يحيى بن الأمير أبى بكر ليتولى إقليم سبتة فإن أمر كاتبه أبا القاسم بن الجد بكتابة رسالة لأهل سبتة يخبرهم فيها بهذا الاختيار ويطالبهم بالالتفاف حول واليهم الجديد وطاعته ، وقد جاء فيها « وقد رأينا والله بفضله يقرن جميع آرائنا بالتسديد ولا يخلينا فى كافة أنحائنا من النظر الحميد أن نولى أبا زكريا يحيى بن أبى بكر محل ابننا الناشىء فى حجرنا أعزه الله وسدده فيما قلدناه إياه من مدينتى فاس وسبتة وجميع أعمالها حرسهما الله على الرسم الذى تولاه غيره قبله فأنفذنا ذلك لما توسمناه من مخايل النجابة قبله ووصيناه بما نرجو أن يحتذيه ويتمثله ويجرى عليه قوله . . فاذا وصل إليكم خطابنا فالتزموا له السمع والطاعة والنصح والمشايعة جهد الاستطاعة وعظموا بحسب مكانه منا قدره وامتثلوا فى كل عمل من أعمال الحق نهيه وأمره » (٥) .

وكذلك فعل الخليفة عبد المؤمن بن على حين قام بتولية أبنائه أقاليم الدولة إذ أمر كاتبه أبا جعفر بن عطية بكتابه رسالة مطولة إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بسبتة يخبرهم فيها بهذا الإجراء ودواعيه، ورغبة الموحدين فى

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٣ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢١٣ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢١٣ .
(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٧ ط ١٣٢٠ هـ مصر .
(٥) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٦ ، ١١٧ ط ١ سنة ١٣٢٠ هـ — مصر .

هذا الإجراء ومما جاء فيها خاصاً بسبته « ثم تذاكر الطلبة العاملون على سبتة وأعمالها — وفقهم الله — مع إخوانهم فى معنى البحر ومجازه وإتساع النظر فى راسيه وأحوازه ، وكونه رابطاً بين العدوتين . . . وأنه إذا أبقى معه النظر فى أمر غمارة وسائر القبائل إلى سبتة وطنجة والجزيرتين وما لقه وأعمال جميعها محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط ويجتمع إليه هذا النظر المؤيد البسيط . . . أنه إن كان هنالك من الأخوة المذكورين من يساعد ويساعد ويعاضد فى ذات الله ويعاضد . . . اتصلت المواد وانفصلت القواطع الحواد »[1] ثم يخبرهم فى نهاية رسالته باختياره لأحد أبنائه ومعه جماعة من الموحدين للمشاورة والمعاونة [2].

سلطة الولاة :

تمتع ولاة المغرب الأقصى خلال حكم المرابطين بسلطات واسعة إذ كان من حقهم التصرف فى عزل وتعيين من دونهم من الولاة المحليين والقيام بتحركات عسكرية داخل مناطق نفوذهم[3] وكان هذا راجعاً إلى طبيعة الدولة نفسها إذ أن المرابطين كما يقول د . حسن أحمد محمود « درجوا على نوع من الحكم الإقطاعى ، يولون أميراً من الأمراء على إقليم بعينه ويطلقون يده فيه يتصرف كيف يحلو له على ألا ينازع صاحب السيادة حقه فى الملك »[4] وبهذا المعنى يكون نوع الإمارة ، إمارة استكفاء وقد عرفها الماوردى بقوله : «إمارة الاستكفاء التى تنعقد عن اختياره على عمل محدود ونظر معهود ، والتقليد فيها أن يفوض إليه الخليفة إمارة بلد أو إقليم أو ولاية على جميع أهله ونظراً فى المعهود من سائر أعماله فيصير عام النظر فيما كان محدوداً من عمل ومعهوداً من نظر» [5] وعلى هذا يكون من اختصاصات الوالى تدبير أمر الجيش وتقليد القضاة والحكام وجباية الخراج وحماية الساحة والدفاع عنها

---

(١) مجموع رسائل موحدية ص ٦١ الى ٦٦ نشر ليفى بروفنسال .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٦١ الى ٦٦ .
(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٢ .
(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٨٧ .
(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٣٠ .

وإقامة الحدود والمحافظة على شعائر الدين وغير ذلك (١) .

غير أن أمراء المسلمين من المرابطين لم يتركوا الولاة دون رقابة وإشراف منهم وذلك حتى لا يستبدّ أحد الولاة بولايته وينفصل بها عن الدولة ، ومن هنا كان أمير المسلمين يرسم لولاته السياسة التي يتبعونها في حكم ولاياتهم كما فعل أمير المسلمين على بن يوسف حين وجه كتاباً إلى واليه أبي محمد عبد الله بن فاطمة — الذى تولى عدة أقاليم فى الدولة المرابطية حيث تولى ولاية بلنسية وشرق الاندلس سنة ٤٩٧هـ/١١٠٣م، ثم ولاية غرناطة فى سنة ٥٠٣هـ / ١١٠٩م ثم بعد ذلك والياً على ولاية فاس سنة ٥٠٤هـ / ١١١٠م إلى سنة ٥٠٩هـ / ١١١٥م وعاد بعد ذلك إلى الأندلس والياً على أشبيلية يحكمها حتى توفى فى سنة ٥١١ هـ / ١١١٧م(٢) وكان الكتاب يتضمن السياسة التى يجب إتباعها فى ولايته وتتلخص فيما يأتى :

(١) اتخاذ الحق منهاجاً وقاعدة فى محاسبة القوى والضعيف من رعاياه .

(٢) ألا يجعل حجاباً بينه وبين الرعية وبذلك يسهل عليه معرفة المظلومين منهم .

(٣) أن يستخدم عمالا عادلين ومن ظلم منهم أو استولى على مال بدون وجه حق فعليه أن يعزله ويعاقبه(٣) .

وبجانب هذه السياسة المرسومة للولاة كان أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يتفقّد الولايات المختلفة ليلمّ بأحوالها والاطلاع على تصرفات عماله(٤) وقد فعل ذلك حين خرج فى سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م ليطوف على جميع أعمال المغرب وليتفقّد أحوال الرعية وينظر فى سير ولاتهم وعمالهم فيهم(٥) وخرج أيضاً فى سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م حيث تفقد أحوال الرعية ولينظر فى أمور

---

(١) محمد المرير : الابحاث السامية جـ ٢ ص ٧٤ ، ٧٥ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨ حاشية تت . د. محمود على مكى .

(٣) الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٧ (مثبتة فى قسم الملاحق) .

(٤) Meakins : The Moorish, Empire P : 60

(٥) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٤٤ تت الفيلالى .

المسلمين والسؤال عن سير عماله فى البلاد[1] وبذلك كان الولاة تحت المراقبة المستمرة من جانب السلطة الحاكمة.

وقد اتخذ الموحدون نفس السياسة وهى الإشراف على أعمال ولاتهم وذلك باستدعائهم إلى العاصمة لمحاسبتهم على أعمالهم ، وقد فعل ذلك الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين استدعى ولاة الأندلس فى عام ٥٦٤هـ / ١١٦٨م وذلك للإطلاع على أعمالهم ، يقول ابن صاحب الصلاة « وفى هذه السنة أيضاً – أى سنة ٥٦٤هـ – استدعى سيدنا أمير المؤمنين ابن أمير المؤمنين رضى الله عنه أخويه السيدين أبا ابراهيم اسماعيل الوالى بأشبيلية وأبا اسحق ابراهيم الوالى بقرطبة واستدعى معهما الشيخ الحافظ أبا عبد الله بن الشيخ المرحوم أبى ابراهيم الوالى بأغرناطة مع حفاظهم وعمال البلاد ليصلوا إلى الحضرة مراكش حرسها الله فأسرعوا إلى استدعائه العالى »[2] وكذلك فعل الناصر الموحدى فى سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م حين استدعى العمال والكتاب لمحاسبتهم ، يقول ابن عذارى « ونظر – أى الناصر بعد استقراره فى مراكش أثر رجوعة من إفريقية سنة ٦٠٤هـ – فى وصول العمال إلى الحضرة بأعمالهم وكتابهم المقيدين لأشغالهم فبادر من عين الوصول لما أمربه ووصلوا مستعدين على ما حد به فشرع فى تصفح بعضها[3] » .

وفى بعض الأحيان كان الوالى ينتقل من ولايته متوجهاً للعاصمة ليعرض على الخليفة بعض المشاكل التى تواجهه وذلك ما فعله أبو على الحسين بن الخليفة عبد المؤمن حين توجه من ولايته قرطبة فى عام ٥٧٥هـ / ١١٧٩م قاصداً العاصمة مراكش واجتمع بالخليفة وعرض عليه غدر صاحب طليطلة للعهد ونقضه للصلح مما دفع الخليفة للاستعداد للقيام بحملة عسكرية بالأندلس[4]

وكان الخلفاء يستفسرون عن ولاتهم عن طريق الوفود القادمة إلى العاصمة وذلك ما كان يفعله المنصور الموحدى مع الوفود القادمة عليه ، يقول المراكشى

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٦٦ .
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٩٤ ، ٣٩٥ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢١٧ ، ٢١٨ تطوان .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٣١ تطوان .

« وكان – أى المنصور الموحدى – إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم فاذا أثنوا خيراً قال : اعلموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن امرؤ منكم إلا حقاً ، وربما تلاقى بعض المجالس « ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين »[١].

وفى نفس الوقت كان خلفاء الموحدين يتفقدون أحوال الأقاليم بأنفسهم والإطلاع على سير عمالهم وتصرفاتهم ، فحين توجه المنصور الموحدى إلى فاس ترامت إليه الأنباء عن خيانة مشرفها وعمالها المختلفين واختلاساتهم فأمر بالقبض عليهم جميعاً ومصادرة دورهم وأموالهم لحساب المخزن[٢] ونفس العمل قام به الخليفة المنصور حين استقر بأشبيلية فى سنة ٥٩٣هـ / ١١٩٦م يقول ابن عذارى « وفى سنة ثلاث وتسعين وخمسمائة استقر المنصور بحضرة أشبيلية لتفقد أشغاله وتنكد على خدامه وعماله »[٣] .

وكما رسم أمراء المسلمين فى الدولة المرابطية السياسة التى يجب على الولاة اتخاذها ، كذلك فعل الخليفة عبد المؤمن بن على فى رسالة مطولة وجهها إلى ولاة الأقاليم بالأندلس لتكون دستوراً لهم ولغيرهم من ولاة أقاليم الدولة صادرة من تينملل أثناء زيارته لقبر المهدى فى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨م[٤] وقد تضمنت الأسس الآتية :

١ – وجوب إلتزام الدقة فى تطبيق الأحكام الشرعية .
٢ – وجوب الكف عن اقتضاء أية مغارم أو مكوس لا تبيحها الشريعة ولا تتفق مع قواعد العدل .
٣ – لا يجوز الحكم فى مواد الحدود بالإعدام أو تنفيذه قبل الرجوع إلى الخليفة ليصدر هو قراره فى هذا الشأن .
٤ – وأنه يجب تحريم الخمر ومطاردتها فى سائر أنحاء الدولة .

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٨٥ ، ٢٨٦ .
(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ١١٥ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٧٢ تطوان .
(٤) ابن القطان : نظم الجمان من ص ١٥٠ الى ص ١٦٧ .

٥ — وأنه يجب حماية أموال الدولة وصونها وعدم التصرف فى شىء منها(١)

وحتى يمكن تنفيذ سياسة الخليفة ، واتباع أوامره ، رسم لهم الخليفة طريقة مباشرة الحكم فى رسالته بألا يجعلوا وسطاء بينهم وبين الرعية — والامتناع عن الإكثار من الحجاب الذين يمنعون الرعية من عرض مشاكلهم على ولاتهم يصور ذلك ما جاء على لسان الخليفة فى رسالته إليهم « ولا شك — والله أعلم — فى أن أسباب تلك المنكرات ، ودواعى تغيير تلك الأحوال المتغيرات قوم يتوسطون بينكم وبين الناس ويقولون مالا يفعلون ذهاباً إلى التدليس عليكم والإلباس ويجعلون التغير بالظلم والعدوان بدلا من العدل والقول الجميل والإيناس وذلك لغيب المباشرة ومباينتها ، ويعدكم عن مشاهدة الأمور ومعاينتها والتحجب عن مطالعة الأمور داعية كبرى لفسادها واختلالها . . . فلا تكلوا النظر فيها إلى أحد سواكم ولا تبعدوا بغلظ الحجاب عما قصدكم من الخير ونواكم وباشروا الأحكام هنالك مباشرة المتعهد المتفقد » (٢) .

وهكذا كانت السياسة التى ترسمها الإدارة العليا لولاتها وطريقة تطبيق هذه السياسة مع إشرافهم على أعمال الولاة وتصرفاتهم مما حد من سلطانهم وجعلهم دائماً على صلة مستمرة بالإدارة العليا يستمدون منها التوجيه والنصح فى تصرفاتهم .

سياسة نقل الولاة ومعاقبتهم :

جرى حكام المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين على إجراء سلسلة من التنقلات والتعيينات بين ولاة أقاليم الدولة بحيث لا يستمر الوالى حاكماً لإقليم فترة طويلة من الزمن وكان الدافع وراء ذلك عدة عوامل :

العامل الأول :

إما خوفاً من استبداد أحد العمال باقليم من الأقاليم والانفصال به عن الدولة مما يهدد الدولة بالإنقسام وهذا ما حدث فى الدولة المرابطية حيث

---

(١) نفس المرجع السابق من ص ١٥٠ الى ص ١٦٧ ، عنان : عصر المرابطين القسم الثانى ص ٦١٩ (مثبت بعض فقراتها بقسم الملاحق) .
(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٥٨ .

كان أمير المسلمين يحرص على إجراء تنقلات مستمرة بين ولاة الأقاليم حتى لا يستأثر أمير بالسلطة أو يفكر فى الخروج على ولى الأمر [١] ولذلك وجدنا أحد الولاة وهو محمد بن الحاج ينتقل فى أقل من سنتين بين قرطبة وولاية المغرب عموماً وإقليم بلنسية، كما تنقل أبو بكر بن ابراهيم بين سرقسطة وغرناطة وعبد الله بن فاطمة بين بلنسية وأشبيلية[٢] وكذلك وجدنا الأمير تميم بن يوسف بن تاشفين يعزله أخوه عن بلاد المغرب فى سنة ٥٠١هـ / ١١٠٧م[٣] ثم يوليه غرناطة وبعد ذلك عزله وولاه تلمسان[٤] وهكذا كان عامل الخوف على أمن الدولة دافعاً لأمراء المسلمين فى إجراء التنقلات بين ولاتهم.

وكان العامل الثانى وراء هذه التنقلات هو تغيير القيادة العليا للبلاد وذلك بوفاة خليفة وتولى خليفة آخر ، وهذا ما حدث فى الدولة الموحدية ، فما إن تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مقاليد الأمور حتى أجرى سلسلة من التنقلات إذ عقد الخليفة على بجاية لأخيه السيد أبى زكرياء وعلى أشبيلية للشيخ أبى عبد الله بن ابراهيم ثم بدله بأخيه السيد أبى ابراهيم وعقد على قرطبة لأخيه السيد أبى اسحق[٥] كذلك عقد فى سنة ٥٦٢هـ / ١١١٦م لأخيه السيد أبى الحسن على سبتة وما حولها[٦] ، وحين تولى الناصر الموحدى فى سنة ٥٩٥هـ / ١١٩٨م أجرى بعض التنقلات فقد عقد للسيد أبى زيد الحسن بن السيد أبى حفص على بجاية وجهاتها وسائر أنظارها وأقطارها ، وقدم أخاه السيد أبا محمد بن المنصور على أشبيلية وأخر عنها السيد أبا زيد بن الخليفة[٧] وربما كان هذا الإجراء المقصود منه هو إحلال عناصر جديدة تتميز بالولاء والإخلاص للخليفة الجديد مكان عناصر خدمت فى ظل خليفة سابق .

أما العامل الثالث : فهو تعيين بعض الولاة ممن يساعدون على إنجاح هدف

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٨٤ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢١١ .
(٣) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ٨٢ ت الفيلالى .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٥ ت د. احسان عباس.
(٥) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ج ٦ ص ٢٣٩ .
(٦) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٢٣٩ .
ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩٤ تطوان .

معين كما فعل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين عزم على القيام بحملة عسكرية كبرى فى الأندلس تلك الحملة التى تمت فى سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م وانتهت باصابة الخليفة إصابة قاتلة عند أسوار شنترين ، فقد عمد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى إجراء حركة تعيينات فى مدن الأندلس الهامة فولى أبناءه الأربعة بها يقول ابن عذارى « وفى يوم الجمعة الحادى والعشرين من شعبان المكرم — سنة ٥٧٩هـ — ولّى أمير المؤمنين أبو يعقوب يوسف بنيه الأربعة قواعد بلاد الأندلس ، صرف أبا اسحق إلى أشبيلية والياً عليها كما كان أولا ، وولى أبا يحيى قرطبة برغبة أبى الوليد ابن رشد وولى أبا زيد الحرضانى غرناطة وولى أبا عبدالله مدينة مرسية»(١) وكان الهدف من وراء ذلك الإعداد للمعركة القادمة وذلك بتوفير المؤن والعتاد للجيوش القادمة من المغرب الأقصى والتى ستعبر للأندلس مع توفير الأمن والحماية لجنود الخليفة .

وبجانب سياسة النقل التى اتخذها ولاة الأمر بالمغرب الأقصى ، فانهم لجأوا إلى سياسة العزل وتوقيع العقوبة على من أخطأ من ولاتهم .

وقد تنوّعت الأسباب الداعية إلى ذلك فكان بعضها راجعاً إلى عصيان بعض الولاة وتهديدهم لسلامة الدولة ، وهذا ما حدث فى الدولة المرابطية حين ولى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ابنه سير ولياً للعهد فلم يرض بذلك أبو بكر بن على بن يوسف وكان أكبر من أخيه وصرح بذلك وأعلن ضيقه وتذمره(٢) ولذلك قرر أمير المسلمين على بن يوسف عزله وسجنه صيانة لأمن الدولة يقول ابن القطان « وفيها — أى سنة ٥٢٢هـ — عزل على ولده أبا بكر عن أشبيلية وغرّبه مكبولا إلى الصحراء لأمر نسبه إليه ، لأنه لم يرض بيعة أخيه وولّى مكانه بأشبيلية أجداى(٣)» وكذلك فعل المنصور الموحدى ببعض قرابته والذين كانوا يحتلون منصب الإمارة على بعض أقاليم الدولة وذلك لعدم اقتناعهم بتولّى المنصور وحسدهم له ، يقول ابن عذارى «كان ابتداء سطوة المنصور فى أوبته — أثناء رجوعه من غزو قفصة سنة ٥٨٤هـ ١١٨٨م وأثناء نزوله بتلمسان — قبل وصوله إلى حضرته ببعض قرابته

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٥٥ تطوان .
(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠٥ حاشيه .
(٣) نفس المرجع السابق ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

الحاسدين لبيعته »(١) وبدأ بمعاقبة السيد أبى اسحاق والى تلمسان بأن طرده من مجلسه وأخذت العامة تسبه وتهينه ولم يلبث إلا يسيراً حتى مات(٢) وكذلك عاقب المنصور عمه أبا الربيع والى تادلا وذلك حين خلع طاعة المنصور وأظهر ما يكنّه من حسد وبغض لإبن أخيه الخليفة المنصور ، فأرسل المنصور إليه من يقبض عليه وجئ به مقيداً ونفذ فيه الخليفة حكم الاعدام(٣).

وكان من أسباب العزل تصرف الوالى تصرفات سيئة وظلمه لأهل ولايته مما يدفعهم للعمل على الإتصال بالسلطة الحاكمة ليعرضوا شكواهم ومطالبهم كما فعل أهل مرسية حين ضجوا بالشكوى من ظلم واليهم الرشيد وبلغت هذه الأنباء المنصور الموحدى فاستدعاه معزولا ومحنه سنة ٥٨٤هـ — ١١٨٨م(٤) وكذلك حين نزل الناصر الموحدى مدينة فاس لتفقد أحوالها فى سنة ٦٠٤هـ تجمع على باب الخليفة كثير من الوفود تشتكى من عامل فاس ووفود أخرى تشتكى من عامل مكناسة يقول ابن عذارى « وفى سنة أربع وستمائة ، ففى صدر المحرم منها نزل — أى الناصر — بظاهر مدينة فاس وفيها تجدد النظر فى أشغال العمال ووقع البحث عما إلى نظرهم من الأعمال ، وازدحمت على باب الخليفة قبائل من أقطار المدينة وأخلاط من الناس مشتكين بعامل فاس وكان أبو الحسن بن أبى بكر ، وبعامل مكناسة أبى الربيع بن أبى عمران فنكبا جميعاً واستصفى ما وجد لهما من أحوال وأثاث وبقى كل منهما محبوساً فى بلد عمله » .

وكان الإهمال سبباً من أسباب العزل فقد عزل أحد أبناء عبد المؤمن عن ولاية بجاية لاهماله يقول المقرى « وذكر السرخسى أيضاً فى رحلة السيد أبا الحسن على بن عمر بن أمير المؤمنين عبد المؤمن وقال فى حقه : إنه كان من أهل الأدب والطرب ، ولى بجاية مدة ثم عزل عنها لإهماله وإغفاله وانهماكه فى

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٢٢ تطوان .
(٢) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٢٣ تطوان .
(٣) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٢٥ ، ص ١٢٦ تطوان .
(٤) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٢٣ الى ص ١٢٦ تطوان .
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢١٥ ، ٢١٦ تطوان .

ملاذه »(١) وقد يلمس الخليفة آثار هذا الإهمال بنفسه مما يؤدى إلى عزل الوالى ومعاقبته وهذا ما فعله الناصر الموحدى حين توجهه إلى الأندلس فى سنة٦٠٧هـ ١٢١٠م على رأس جيشه إذ لمس قلة الطعام وارتفاع الأسعار يقول بن عذارى «وسبب سطوته — أى الناصر — فى هذه السنة —٦٠٧ هـ — أن لقى الناس فى هذه الحركة من تنوّع المسغبة وإنتشار المجاعة وتعذر الأوطار وعدم الأقوات ما لم يعهده الناس ولا علموه فى أسفارهم القاضيات»(٢) ومن هنا اشتد غضب الناصر لإهمال عامل فاس فأمر بالقبض عليه وعلى كل من يأتمر بأمره(٣) وكذلك أوقع العقاب بعامل مدينة سبتة لإهماله فى توفير المؤن والطعام(٤) وكان عقاب المهملين الإعدام أمام الجموع من الناس حتى يكونوا عبرة لغيرهم من الولاة « فأخرج المذكورون يوم جمعه بعد الصلاة بحضور الآلاف من الناس فضربت أعناقهما صبراً عبرة للمعتبرين وذكرى للغافلين»(٥) .

وربما كان العزل بسبب عجز الوالى عن تحمّل أعباء حكم ولايته وتقديمه استقالته للخلافة وقبولها ذلك ، يقول ابن عذارى « وفى سنة خمس وستمائة وصلت كتب السيد أبى الحسن والى تلمسان بثقل مرضه وتوالى إعتلاله وخوف ضياع ما لديه من الأشغال واضطراب قبائل زناته وإختلافهم وقطعهم السبل .. فأعفى عن ولاية البلد وأذن له فى الوصول وعومل بالبر الموصول»(٦)

وهكذا تنوعت أسباب عزل الولاة ، فبعضها يرجع إلى عصيان الولاة وتهديدهم لأمن الدولة ، أو ظلم الوالى لرعيته وقيامه ببعض التصرفات السيئة ، أو إهماله فى إدارة ولايته ، وأخيراً عجزه عن إدارة ولايته .

٢ — الدواوين

أنشأ ولاة الأمر بالمغرب الأقصى الدواوين منذ أن تأسست دولة المرابطين وذلك لمعاونتهم فى تصريف شئون الدولة ، حيث أن الديوان كما يقول الماوردى

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٠٦ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٣٣ تطوان .
(٣) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٣٤ تطوان .
(٤) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٣٤ تطوان .
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٤٠ تطوان .
(٦) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٢١٩ ، ٢٢٠ تطوان .

«موضوع لحفظ ما يتعلق بالسلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من من الجيوش والعمال»[١] ومن هنا كان للديوان أهمية كبرى وخاصة ما يتعلق بأموال الدولة وحقوقها ، وحصر جنودها ومرتباتهم ، ولذا جعل ابن خلدون الديوان ووجوده من الأمور اللازمة للملك يقول فى مقدمته « اعلم أن هذه الوظيفة من الوظائف الضرورية للملك وهى القيام على أعمال الجبايات وحفظ حقوق الدولة فى الدخل والخرج وإحصاء العساكر بأسمائهم وتقدير أرزاقهم وصرف أعطياتهم فى أباناتها والرجوع فى ذلك إلى القوانين التى يرتبها قومة تلك الأعمال وقهارمة الدولة وهى كلها مسطورة فى كتاب شاهد بتفاصيل ذلك فى الدخل والخرج مبنى على جزء كبير من الحساب لا يقوم به إلا المهرة من أهل تلك الأعمال »[٢] ، وكلمة ديوان فارسية الأصل كان معناها فى بادئ الأمر السجل الذى يكتب فيه ما يختص بشئون الإدارة ، ثم صار يطلق على المكان الذى يعمل فيه الكتاب[٣] أو أن الديوان بالفارسية اسم لشياطين فسمى الكتّاب باسمهم لحذقهم بالأمور وقوتهم على الجلى والخفى وجمعهم لما شذ وتفرق[٤] .

وحين قامت الدولة المرابطية ، اتّخذ يوسف بن تاشفين الدواوين سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م يقول ابن عذارى «فدوّن يوسف — أى يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٤هـ — الدواوين ورتّب الأجناد وطاعته البلاد »[٥] وكان من هذه الدواوين ديوان الرسائل أو الإنشاء ويرأسه موظف كبير يعرف بالكاتب[٦] وقد سبق أن أشرت فى وظيفة الكتابة إلى حرص أمراء المسلمين من المرابطين على حشد أكبر عدد من الكتاب المجيدين فى بلاطهم وخاصة بعد أن أصبحت الأندلس إقليما تابعاً للدولة المرابطية وذلك حتى يؤدوا دورهم فى كتابة الرسائل

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٩ .
(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٣ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٤٣ ، الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٩ — د. عبد المنعم ماجد : تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٣٤ ، د. صبحى الصالح : النظم الاسلامية نشأتها وتطورها ص ٣١٢ .
(٤) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٩ .
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ ت د. احسان عباس.
(٦) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٣٣١ .

والعهود والتوجيهات التى يأمر بها ولاة الأمر فى الدولة المرابطية والتى تجعل أقاليم الدولة على صلة مستمرة بالسياسة العليا للبلاد ، وبجانب هذا الديوان كانت هناك الدواوين الخاصة بمالية الدولة ، وكانت موزّعة بين أربعة دواوين يقول الجرارى « وكانت إدارة مالية الدولة موزّعة بين أربعة دواوين مماثلة لدواوين العصر الحاضر :

١ — ديوان الغنائم ونفقات الجند . ٢ — ديوان الضرائب .

٣ — ديوان الجباية . ٤ — ديوان مراقبة الدخل والخرج » (١).

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية ، وجدنا اهتمام خلفاء الموحدين بانشاء الدواوين المختلفة والتى تخدم احتياجات البلاد ، وفى مقدمة هذه الدواوين ديوان الإنشاء والذى يختص بالمراسيم السلطانية والرسائل الموجهة إلى الولاة والقضاة(٢) وقد حشد فيه خلفاء الموحدين نخبة ممتازة من أدباء الأندلس والمغرب الذين قاموا بكتابة رسائل الخلفاء ، وقد ظهر ذلك جلياً فى تلك المجموعة التى جمعها ليفى بروفنسال « مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتّاب الدولة المؤمنية » تتناول الأمور الهامة فى الدولة ، وقد قام بكتابتها كتّاب الدولة المعينون فى ديوان الإنشاء، ومن هنا اكتسب ديوان الإنشاء أهميته إذ أنه الجهة التى تتحدث بلسان الخلفاء . وكان مما يلحق بديوان الكتابة كتب التوقيعات والظهائر وكل ما يمهر بالعلامة(٣) .

وبجانب ديوان الإنشاء ، كان هناك ديوان الجيش ، وكان يتفرع إلى ديوانين لكل منها اختصاصه :

أما الديوان الأول فديوان العسكر وهو الذى يختص بالجند النظامى والحرب والعبيد ، ووظيفته إحصاء الجند ، ومعرفة حاجاته المتجددة(٤)

---

(١) الجرارى : تقدم العرب فى العلوم والصناعات ص ١٥٣ ط ١ سنة ٦٣ .

(٢) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٣ .

(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الثانى ص ٦٢٣ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٥٣ حاشية .

ويرأس هذا الديوان رجل من العسكريين حيث يكون ملماً بالشئون العسكرية[١]، ويعمل معه كتّاب وذلك لمعاونته ومساعدته [٢].

وأما الديوان الثانى فهو ديوان التمييز ، وكان التمييز عادة جرى عليها الموحدون منذ عهد ابن تومرت وهو نظام شبيه بنظام الامتحان ويسمى «التمييز» وكل من ميز وثبت توحيده عدّ موحداً وسجّل فى سجل خاص فى العاصمة والنواحى[٣] وكانت عادة التمييز تستخدم خاصة قبل القيام بمعركة من المعارك وبجانب اهتمام ديوان التمييز بتنظيم المشتركين فى المعارك المقبلة ، كان يعمل على إيجاد التوافق بين الكتائب وتنسيقها[٤] وكان له كاتب ، وقد أشار إلى اسم كاتب ديوان التمييز ابن صاحب الصلاة بقوله « حدثنى الكاتب أبو عبد الله ابن محسن كاتب ديوان التمييز . . [٥] » وكان لهذا الديوان السجلات التى تكتب فيها أسماء من يدخلون فى الفرق التى ستحارب والتى يقرّر لها العطاء وقد أورد أحمد بن القاسم فى ترجمته لأبى مدين شعيب أحد المتصوفين بالمغرب والمتوفى سنة ٥٩٤هـ انضمامه للجند وتسجيل اسمه يقول أحمد بن القاسم « ثم قال لى — أى قال أحد الصالحين لأبى مدين — ياهذا أراك تروم أمراً وإن الله تعالى لا يعبد بالجهل ، اذهب إلى الحاضرة لتعلم دينك ، قال : دخلت مدينة سلا ثم مراكش فأدخلنى الأندلسيون الذين كانوا بها فى جملة الأجناد وكتبونى فى ديوانهم فكانوا يأكلون عطائى ولا يعطون إلا القليل »[٦].

وهكذا اختص ديوانان بالإشراف على شئون الجند والتعبئة اللازمة لهذا الجيش ، وهذا الاهتمام بوجود ديوانين يتمشى مع طبيعة الدولة العسكرية حيث كانت الأعمال العسكرية فى المغرب والأندلس تستغرق الجزء الأكبر من اهتمام الخلفاء . وبجانب الدواوين السابقة كان هناك ديوان الأعمال المخزنية

---

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الثانى ص ٦٣٨ .
(٢) عبــد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغــرب ج ١ ص ١٢٦ الدار البيضـــــاء .
(٣) د. حسين مؤنس : عقد بولاية العهد ص ١٥٠ .
(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٤ حاشية .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٤٣٦ .
(٦) أحمد بن القاسم : المعزى فى أخبار أبى يعزى ص ٦٩ مخطوط.

وهو المختص بالشئون المالية فى الدولة من تحصيل للأموال العامة وإنفاقها وفى رقابة العمال والمشرفين ومحاسبتهم (١).

٣ — البريد

عرف ولاة الأمر بالمغرب الأقصى نظام البريد كوسيلة سريعة فى توصيل الأوامر والأخبار إلى ولاتهم وموظفيهم فى أنحاء الدولة ومن ناحية أخرى تلقى رسائل الولاة . والبريد اصطلاحاً هو أن تجعل خيل مضمرات فى عدة أماكن فاذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً وكذلك يفعل فى المكان حتى يصل بسرعه(٢) وكان للرومان الفضل الأكبر فى معرفة البريد وترتيب نظامه بمعناه الشامل ومن هنا فان كلمة بريد أعجمية فى أصلها وليست عربية(٣) ومسافة البريد تقاس بالأميال أو الفراسخ وكانت مسافة البريد بالمغرب أربعة فراسخ والفرسخ ثلاثة أميال(٤) وكان هناك خط بريدى منتظم بين الاسكندرية وسبتة بالمغرب الأقصى إلا أن هذا الخط توقف قبيل قيام دولة المرابطين فى سنة ١٠٤٨م وذلك لتعذر حماية الأربطة والحصون الواقعة على طول الطريق من غارات البدو(٥) كان يطلق على حامل البريد بالمغرب الرقاص وهو لفظ معروف منذ القدم إلى الآن فى المغرب ويطلق على الشخص الذى يقوم بالبريد (٦).

ولم تشر المراجع التى اطلعت عليها إلى وجود ديوان خاص بالبريد فى الدولة المرابطية ، وذلك بالرغم من وجود ديوان للإنشاء لكتابة الرسائل وتبادل الرسائل بين العاصمة مراكش وغيرها من أقاليم الدولة وهذا لا يمنع من وجود موظفين ينقلون الرسائل والأوامر إلى جهات الدولة المختلفة ، وقد

---

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٣ .

(٢) د. نظير حسان سعداوى : نظام البريد فى الدولة الاسلامية ص ١٩ سنة ٥٣ مصر ، د. صبحى الصالح : النظم الاسلامية ص ٣٣١ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢١ .

(٤) د. نظير سعداوى : نظام البريد ص ٢٠ .

(٥) لويس أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية ص ٣٨٦ ترجمة احمد عيسى .

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٢٩ حاشية ، ابن القطان: نظم الجمان ص ١٢٢ حاشية .

استخدم المرابطون رجالا من القبائل المختلفة فى وظائف متعددة ومنها البريد(١) ومن أمثلة استخدام المرابطين لرجال البريد حين بعث يوسف بن تاشفين فى سنة ٤٦٦هـ/١١٧٣م ، عسكرا إلى المغرب وجعـل قائده يطى بن اسماعيل ولما وصل إلى وادى بهت بعث رقاصاً إلى أمير مكناسة الخير بن خزر الزناتى بأنه قد عفا عنه ، وبعث كتابه إليه بذلك(٢) وكذلك استخدم قائد المرابطين مزدلى الرقاص حين توجه إلى فتح تلمسان فى توصيل عفو يوسف بن تاشفين إلى أميرها إن استسلم بدون قتال(٣) ،

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا اهتمام خلفاء الموحدين بنظام البريد ، فقد نظموا البريد بشكل متقن وسريع وفى الليل والنهار وفى البر والبحر(٤) وكانت وظيفة حمل الرسائل تسند لرجال أقوياء مدربين على الركض والعدو وكان فيهم الرقاص العادى ورقاص الشرط وهو ساعى البريد المستعجل بنقله بين المدن على الخيل بمنتهى السرعة ، وكان يجد فى كل محطة حصاناً مسرجاً يمتطيه إلى المحطة التى تليها(٥) وقد أعطانا العمرى وصفاً لطريقة نقل الرسائل فى الدولة الحفصية — وهى إمتداد للدولة الموحدية — تلقى ضوءاً على شخصية حامل البريد وكيفية توصيله للرسائل « وأما اتصال الاخبار بين السلطان ونوابه فانها إذا كتب الكتاب يجهز مع من يقع الاختيار على تجهيزه من نوع النقباء والوصفان وهم عبيد السلطان ويركب ذلك المجهز على بغل أما أن يكون له مالكاً أو يستعيره من أصحابه ويسافر عليه إلى الجهة المجهزة لها فاذا عى بغله فى مكان تركه عند الوالى بذلك المكان وأخذ منه بغلا عوضه يعده الوالى له أو بسخرة من الرعايا لركوبه إلى أن يبلغ جهة قصده ثم يعود »(٦) وقد يستخدم حامل البريد السفن فى نقل رسائله وذلك كما فعل الرقاص فى حمله رسالة من الخليفة عبد المؤمن بن على فى سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م إلى ابنه

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٥٨ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص٢٧ تت د. احسان عباس.
(٣) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٢٩ تت. د. احسان عباس .
(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٦٤ حاشية .
(٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٢٩ حاشية .
(٦) العمرى : وصف افريقية والمغرب والأندلس ص ٢٧ تت حسن حسنى عبد الوهاب .

يوسف بن عبد المؤمن بالأندلس يخبره فيها بانتصاراته الحربية وفتحه لمدينة قفصة » وركب الرقاص بالجواب المذكور — أى خبر الانتصارات — مركباً من مدينة بجاية سابحاً فى البحر فى طريق غير يبس ، ويسر الله له — بسعد الأمر العزيز — أن ساعدته الريح بنفس ، وسار أسرع من كوكب إذا خنس وخرج فى ألمرية مرساة وحمد سبحه فى غدوه وممساه ووصل أشبيلية وغرناطة فى أقرب تاريخ دون تعب فى مسراه » (١).

وكان للرقاص أهمية خاصة إذ كان يقوم بحمل الأوامر والأخبار من العاصمة إلى ولاة أقاليم الدولة وخاصة إذا كان الأمر يتعلق بالإعداد لمعركة من المعارك وذلك ما فعله أبو الحسن عم الخليفة المنصور الموحدى ونائبه على مراكش حين أرسل المخاطبات فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م بالتأكيد على العمال فى ضرب الآلات وما تحتاج إليه الجيوش من العدد والأقوات(٢) وكذلك الرسائل الصادرة إلى أشبيلية وما حولها فى الاستعداد لاستقبال جيوش المنصور الموحدى فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م القادمة لنصرة أهل الأندلس على عدوهم(٣) وحتى حين يعمد الخلفاء إلى تشييد بعض المنشآت كانوا يتبادلون الرأى مع سكان الأقاليم عن طريق الرسائل يقول التازى « كما أنهم لا يقومون بتشييد منشآت فى الدولة إلا بعد أخذ رأى الأعيان فى ذلك وكانت موافقة الشعب على القرارات المتخذة من طرف الدولة تتجلّى فى شكل رسائل تجهزها الطبقة الواعية فى البلاد وتبعث بها إلى السادة»(٤) ومن هنا كان الرقاص أو حامل البريد له أهمية كبيرة فى الدولة حيث يعتبر همزة الوصل بين الحكام وولاتهم وبين الحكام والشعب من جهة أخرى وقد بلغ من اهتمام الشعب بهذه الرسائل نسخهم لهذه الرسائل وحفظهم لها وقد ظهر ذلك حين أرسل الخليفة عبدالمؤمن إلى ابنه بالأندلس رسالة يخبره فيها بانتصاره وفتحه لقفصة سنة ٥٥٥هـ فما إن أذاعه بين الناس حتى « انشرحت صدور الموحدين ، وتحققوا نصر الله وفتحه

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٣٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٢٨ تطوان .

(٣) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ١٣٢ تطوان .

(٤) التازى : محقق كتاب تاريخ المن ص ٥٤ .

القريب بأوفى اليقين ، وقرىء على المنابر وتكررت المسار فى الرعايا والعشائر وانتسخ الناس والطلبة والموحدون والعامة نسخاً من الشعر المبشر المدرج المذكور فحفظوه وصانوه وحفظوه ودونوه . . . »[١]

ويبدو أن هؤلاء الرقاصين قد استغلوا وظيفتهم وأهميتها فى الدولة فى الحصول على الطعام من السكان بدون وجه حق ، وقد أشار إلى ذلك الخليفة عبد المؤمن فى رسالته التى وجهها إلى ولاته بالأندلس فى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م والتى يرسم فيها سياسته العامة فى الدولة ، ومما جاء خاصاً باستغلال هؤلاء الرقاصين « وإن ممن يسعى فى نوع من أنواع الفساد ويستصحب الإضرار بالمسلمين فى الاصدار والإيراد هؤلاء الرقاصين الذين يردون بالكتب ويصدرون ويمشون فيما بيننا وبينكم وينفرون فانه ذكر لنا أنهم يأخذون الناس بالنظر فى كلفهم ويلزمونهم فى زادهم من كل موضع وعلفهم وهذا فعل كل فرقة منهم فى سيرها ، وسوء رأيهم بذلك فى المخازن وغيرها وإن من جملة ما حكى عنهم أنهم يتألفون فى الطرق جماعات ويحلون بأفنية الناس حلولا شنيعاً يكلفونهم مؤناتهم تكليف المجرم ويتحكمون عليهم بحكم المغرم ، حتى أنهم لا يرضون فى ضيافاتهم إلا بأثمن الجزر وناهيكم بهذا الاجتراء العظيم الضرر »[٢] ومن هذا النص نستنتج أنهم يسيرون فى جماعات ، وأنهم يفرضون أنفسهم على الناس ويستحلون لأنفسهم الحصول على الطعام على حساب الرعية وهذا فيه ظلم وإجحاف بحقوق الناس . ومن هنا رسم الخليفة لولاته العلاج بقوله : «فسارعوا وفقكم الله تعالى — إلى حسم هذه العلة من أصلها ، وبادروا إلى قطع تلك العادة الذميمة وفصلها ، وتخيروا لرسائلكم إرسالا ، وانتقوا من أهل المقدرة على ذلك والثقة رجالا ، وادفعوا إليهم زاد ايقوم بهم فى المجىء والإنصراف ويقطع شأنهم عن التكليف والإلحاف ، وارسموا لهم أياماً معروفة العدد معلومة الأمد ، لينتهوا بها إلى مواقف رسائلهم ، ويوزعوها على مسافات مراحلهم وحذروهم من تكليف أحد من الناس ولو مثقال ذرة ، وأوعدوا من

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٣٥ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٢ .

تسبب منهم إلى مسلم بمساءة أو مضرة والله تعالى المستعان»[1] ومن النص يمكننا أن نستخلص آراء عبد المؤمن فى علاج ظاهرة استغلال حاملى البريد للرعية :

أولا : القضاء على العادات السيئة وذلك باختيار أهل الثقة ممن يشغلون هذه الوظيفة .

ثانياً : تزويدهم بما يلزمهم من الطعام حتى لا يتطفلوا على السكان فى طعامهم .

ثالثاً : تعيين فترة زمنية محددة فى توصيل الرسائل حتى لا يجد أحد من الرقاصين فرصة فى الإقامة عند أحد الناس .

رابعاً : تحذير وتخويف كل من يحاول مخالفة أوامره .

٤ — الشرطة

اتخذ ولاة الأمر بالمغرب الأقصى منذ أن تأسست دولة المرابطين الشرطة للمحافظة على أرواح الناس وحماية ممتلكاتهم ، وصيانة حقوقهم ، وقد أطلق على صاحب الشرطة بالمغرب العريف[2] وقد أشار إلى ذلك التادلى فى تعريفه أبى العباس بن العريف أحد متصوفى المغرب بقوله « إن أصل أبى العباس بن العريف من طنجة وإنما سمى والده بالعريف لأنه كان بطنجة صاحب الليل»[3] وكان يطلق عليه أيضاً صاحب الليل[4] وهذه التسمية ربما تكون راجعة للوظيفة التى يؤديها من قيامه بالحراسة ليلا ، وبالنسبة لاختصاصات صاحب الشرطة فهى معاونة الحكام وأصحاب المظالم وإقامة الحدود والتعازير وإشخاص الناس لذلك[5] وقد حدد ابن تيمية وظيفة صاحب الشرطة بالمغرب بأنه منفذ لما يأمر به متولى القضاء[6] ويضاف إلى هذه الاختصاصات مراقبتهم لأبواب

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٢ ، ١٦٣ .

(٢) J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P : 46

(٣) التادلى : التشوف الى رجال التصوف ص ٩٧ .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٣ ، عباس المراكشى : الاعلام بمن حل مراكش جـ ١ ص ٢٧٦ .

(٥) محمد المرير : الابحاث السامية جـ ٢ ص ٥٧ .

(٦) ابن تيمية : الحسبة فى الاسلام ص ٩ سنة ١٩٦٧ .

المدينة ، وتحصيناتها بحيث يحولون دون تسرب المشبوهين والمجهولين إلى المدينة[١] وقد أشار ابن عبدون إلى بعض التنظيمات المتعلقة بصاحب الشرطة ومنها اتخاذه للأعوان كي يساعدونه فى تأدية وظيفته[٢] وقد حددهم ابن عبدون بألا يزيدوا عن عشرة أعوان لأن بكثرتهم تفسد الأعمال والأحوال[٣] كما حبذ بأن توضع لهم علامة حتى يعرفون بها[٤] .

وقد اهتم الموحدون بوظيفة الشرطة فكانت عندهم من المناصب الإدارية الهامة[٥] وفى ذلك يقول ابن خلدون فى مقدمته « وأما فى دولة الموحدين بالمغرب فكان لها — أى وظيفة الشرطة — حظ من التنويه وإن لم يجعلوها عامة وكان لا يليها إلا رجالات الموحدين وكبراؤهم»[٦] وقد ظهر اهتمام الموحدين بالشرطة فى عهد يوسف بن عبد المؤمن الذى زود المدن المغربية بأحسن الرجال الممتازين والساهرين من الشرطة وبذلك اختفى قطاع الطرق من الطرقات[٧].

وكان هناك حراس يطوفون بالليل فى طرقات المدن وذلك لحمايتها من اللصوص ، وهم مسئولون أمام الخليفة عما يحدث من سرقات ، وقد اتضح مدى هذه المسئولية من تلك الحادثة التى وقعت لأحد أصحاب الحوانيت فى مراكش حيث وجد حانوته مسروقاً فاتهم صاحب الليل عند الخليفة الذى بحث الموضوع وأمر بتغريم صاحب الليل ما ضاع من حانوت الرجل وضرب خمسمائة سوط جزاء إهماله[٨].

---

(١) روجية لوتورنو : فاس فى عصر بنى مرين ص ٧٨ ترجمة د. نقولا زيادة سنة ٦٧ .

(٢) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون فى الحسبة ص ١٧ ، الجيلالى: تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٩١ .

(٣) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ١٧ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٥١ .

(٥) محمد المرير : الأبحاث السامية جـ ٢ ص ٦٥ ، الجيلالى: تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٩١ .

(٦) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٢ .

(٧) S.P. Scott : History of Moorish Empire, V.2 P :305

(٨) عثمان المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٢٧٦ .

كذلك خصّص للأسواق رجال من الشرطة لحمايتها من اللصوص والمتسللين وقد أشار إلى ذلك التادلى فى ترجمته لأبى عبد الله محمد بن حسان التاونتى المعروف بابن الميلى وأصله من تاونت من عمل تلمسان وتوفى فى عام تسعين وخمسمائة ، يقول التادلى « إن أبا عبد الله خرج بالليل فقبض عليه حرس السوق ، ظنوا أنه سارق فأوجعوه ضرباً إلى أن قيل : هذا ولى من أولياء الله تعالى فخلّوا عنه»[١] .

(١) التادلى : التشوف ص ٣٧٥ .

الفصل الرابع

التنظيم القضائى

أ ـ القضاء

كان للتنظيم القضائى الذى شهده المغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة دوره فى الحياة الإدارية ، حيث قام القضاة بالفصل بين الناس وإقرار العدل بين طبقات الأمة مما ساعد على إنتشار الهدوء والأمن فى فى ربوع المنطقة .

ولفظ القضاء معناه انقطاع الشىء وتمامه ، فيقال : قضى الحاكم إذا فصل فى الحكم وقضى دينه أى قطع لغريمه قبله بالأداء ، وقضيت الشىء أحكمت عمله ومنه قوله تعالى « إذا قضى أمراً ، أى أحكمه وأنفذه»[1] .

والقضاء من الوظائف الهامة وقد أشار إلى أهميتها النباهى بقوله « وخطة القضاء فى نفسها عند الكافة من أسنى الخطط ، فان الله تعالى قد رفع درجة الحكام وجعل إليهم تصريف أمور الأنام يحكمون فى الدماء والأبضاع والأموال والحلال والحرام ، وتلك خطة الأنبياء ومن بعدهم من الخلفاء ، فلا شرف فى الدنيا بعد الخلافة أشرف من القضاء»[2] وقد اعتبرها ابن خلدون من الوظائف الداخلة تحت الخلافة أى أن الأصل أن يتولى الخليفة القضاء بنفسه ، يقول ابن خلدون « وأما القضاء فهو من الوظائف الداخلة تحت الخلافة لأنه منصب الفصل بين الناس فى الخصومات حسما للتداعى وقطعاً للتنازع إلا أنه بالأحكام الشرعية المتلقاة من الكتاب والسنّة فكان لذلك من وظائف الخلافة ومندرجاً فى عمومها»[3] .

وقد اهتم ولاة الأمر بالمغرب الأقصى سواء أكانوا من المرابطين أم من

---

(١) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ٢ ت بروفنسال ط ١ دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٨ .
(٢) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ٢ ت بروفنسال .
(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٠ .

الموحدين بالنظام القضائى ، فالمرابطون أقاموا نظامهم القضائى مستندين فى ذلك إلى نظام الأندلس القضائى ، ذلك النظام الذى جعله الأمويون محكما وفصلوا بين السلطة الإدارية والقضائية(١) ، وقد أخذ المرابطون كثيراً من النظم القضائية الأموية وطبقوها سواء بالمغرب والأندلس(٢) ، حتى إذا سقطت دولة المرابطين وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، اتخذت نظاماً قضائياً مشابهاً للنظام القضائى فى الدولة المرابطية(٣) وقد أحاط خلفاء الموحدين النظام القضائى بالهيبة والجلال حيث حرص الخلفاء على تعيين كبار القضاة بأنفسهم(٤)

وقد استعان ولاة الأمر بالمغرب الأقصى بكثير من القضاة الذين يختلفون فى مواطنهم ، فى الدولة المرابطية استخدم ولاة الأمر قضاة مغاربة ، كموسى ابن حماد الصنهاجى وهو من أهل العدوة ، وقد تولى القضاء بمراكش فى عهد أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين وتوفى سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م(٥)، وكذلك القاضى ابن الملجوم من أهل مدينة فاس وتولى القضاء بفاس ومات سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م(٦) والقاضى عياض بن موسى بن عياض اليحصبى وهو من أهل سبتة وقد تولى القضاء ببلدة سبتة وتوفى بمراكش سنة ٥٤٤هـ / ١١٤٩م(٧) .

كذلك استعان خلفاء الموحدين بقضاة مغاربة ومنهم أبو عمران موسى وهو من أهل تينملل(٨) وأبو يوسف حجاج بن يوسف الهوارى وهو من أهل بجاية(٩) وغير هؤلاء من القضاة المغاربة .

---

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٥ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢١٥ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٣٧ .
(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٨ .
(٥) الضبى : بغية الملتمس ص ٤٤١ ، ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ ص ٥٧٩ ، ٥٨٠ ، النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ٩٧ .
(٦) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٢ .
(٧) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ ص ٤٠٩ ، ٤١٠ ، الضبى : بغية الملتمس ص ٤٤٥ النباهى :تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠١ .
(٨) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٢٤ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٥ ، ابن أبىزرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٧٢ ت الفيلالى .
Terrasse : Histoire du Maroc, P : 309
(٩) نفس المراجع السابقة ونفس الصفحات .

وربما اشتهرت أسرة بالنزاهة ودقة الاجتهاد مما يدفع ولاة الأمر إلى اختيار أفراد منها لتولى منصب القضاء ، وقد ظهر ذلك فى الدولة الموحدية حين تولى بعض أفراد أسرة عيسى التادلى منصب القضاء[١] ومن أفرادها عبد الله بن محمد بن عيسى التادلى الذى تولى قضاء فاس فى عهد يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م[٢] ، وكذلك أسرة عيسى بن عمران التازى وهو من أهل رباط تازا من أعمال مدينة فاس ، وكان عيسى له أولاد تولّوا القضاء فى مدن المغرب وهم : على الذى تولى قضاء بجاية ثم عزل عنها وولى قضاء مدينة تلمسان[٣] وطلحة ولى قضاء تلمسان [٤] ، ويوسف ولى قضاء فاس[٥] وأبو عمران موسى قاضى الجماعة بمراكش [٦] .

كذلك استعان خلفاء الموحدين بقضاة من خريجى مدرسة الحفاظ تلك المدرسة التى أنشأها الخليفة عبد المؤمن لتخريج طبقة من الموظفين الذين شغلوا مناصب الإدارة فى الدولة ومن هذه المناصب وظيفة القضاء[٧] وقد تمثّل ذلك فى تولى القاضى أحمد بن عبد الرحمن بن محمد منصب القضاء فى عدة جهات فى عهد عبد المؤمن بن على يقول عباس المراكشى « ولما تصيّر الأمر للموحدين ألحقه عبد المؤمن بجمله طلبة العلم وتحفى به وقدمه إلى الأحكام بحضرة مراكش ، فقام بها مرة ثم ولاه قضاء غرناطة ثم نقله إلى أشبيلية قاضياً »[٨] .

ومن الطبيعى أن يكون القضاة من أهل البلاد إلا أن ولاة الأمر اتخذوا أيضاً قضاة من الأندلس [٩] كأبى القاسم أحمد بن محمد بن بقى قاضى الجماعة بمراكش وهو من أهل قرطبة[١٠] والقاضى أبو جعفر أحمد بن مضاء من أهل

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٥ .
(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٣٦ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٤٥ ، ٢٤٦ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٤٦ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٢٤٦ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٤٦ .
(٧) أشباخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٥٢ .
(٨) عباس المراكشى : الاعلام ج ١ ص ٢٢٨ .
(٩) Terrasse : Histoire du Maroc, P : 309
(١٠) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ١١٧ .

مدينة قرطبة وتولى القضاء للخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى فاس ثم نقل إلى قضاء الجماعة بمراكش[1] وغير هؤلاء من قضاة الأندلس .

وبجانب القضاة المغاربة والأندلسيين فقد تولى أحد المصريين منصب القضاء فى عهد المنصور الموحدى وهو هبة الله بن الحسن المصرى ويكنى أبا المكارم وفى ذلك يقول ابن القاضى « كان من أهل العلم عارفاً بالأصول حافظاً للحديث متيقظاً حسن الصورة دخل الأندلس وولى قضاء أشبيلية وبه صرف أبو القاسم الخولانى وحضر غزوة شنترين ، وكان قدوم أبى المكارم خوفاً من صلاح الدين أيوب وولى قضاء مدينة فاس ثم استصحبه المنصور معه فى غزوه لإفريقية الثانية وولاه حينئذ قضاء تونس وتوفى وهو يتولى قضاء تونس سنة ست وثمانين وخمسمائة »[2].

وهكذا شهد المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين العديد من القضاة : أفراداً وأسراً ينتمون إلى المغرب ، وبعضهم ينتمى إلى الأندلس وأخيراً من ينتمى منهم إلى مصر .

أنواع القضـــاة :

وبجانب هذا التنوّع فى موطن القضاة ، كان هناك أيضاً نوعان من القضاة قضاة المدن المغربية ، وقاضى الجماعة فى العاصمة ، وكان كل من قاضى مراكش وقاضى قرطبة يدعى بقاضى الجماعة[3] وهذا اللقب يوازى قاضى القضاة بالمشرق[4] وقد فسّر النباهى لفظة جماعة بقوله « وإضافة لفظ القضاء إلى الجماعة جرى التزامه بالأندلس منذ سنين إلى هذا العهد والظاهر أن المراد بالجماعة جماعة القضاة ، إذ كانت ولايتهم قبل غالباً من قبل القاضى بالحضرة السلطانية كائنا من كان فبقى الرسم كذلك »[5] وكان قاضى الجماعة أعظم

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٤٧ ، ابن عـــذارى : البيان المغـــرب جـ ٤ ص ٧٣ تطـــوان ، ابن الآبار : التكمـــــلة ص ١٠٩ ، ١١٠ ، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٧٥ ت الفيلالى .

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٣٤ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٦ .

(٤) القلقشندى : صـــبح الأعشى ح ٥ ص ١٤٠ ، عبـــد العزيز بنعبد الله : المعجم التاريخى ص ٥٥

J.F,P. Hopkins : Medieval Muslim P :120

(٥) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ٢١ .

رتبة ومنزلة من بقية القضاة إذ كان ولى الأمر يستشيره فى الشئون القضائية[١]، وكان يعين مباشرة من رئيس الدولة كما كان يعتبر من كبار موظفى الدولة[٢] وقد بلغ عدد قضاة الجماعة بالدولة الموحدية اثنا عشر قاضياً تولوا قضاء الجماعة بمراكش[٤] ومنهم أبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن مضاء اللخمى[٣] وكذلك أبو الحسن على بن عبد الرحمن المعروف بابن جنون قاضى الجماعة بمراكش وتوفى سنة ٥٧٧هـ / ١١٨١م[٥] وأبو موسى عمران وتوفى سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م[٦] .

صفات القضـــاة :

حدد الماوردى وغيره عدة صفات لابد من توفرها فى من يشغل منصب القضاء منها أن يكون رجلا عاقلا حراً مسلماً عادلا والسلامة فى السمع والبصر وأن يكون عالماً بالأحكام الشرعية[٧] وقد أوضح النباهى المصادر التى يلجأ إليها القاضى لمعرفة الأحكام الشرعية « العلم بالكتاب والسنة وما وقع عليه إجماع الأمة والاجتهاد والمتكلم به عند الفقهاء »[٨] وقد رسم ابن عبدون السلوك الشخصى للقاضى بقوله « يجب للقاضى أن يكون مصوناً عند الناس وعند الرئيس والجمهور . . ولا يمكن من نفسه ولا ينبسط مع الفقهاء ولا مع الأعوان فان منهم يأتيه الضرر . . . ويتحرز أن لا ينبسط عليه أحد منهم فى قول ولا فعل فيهون وتنقض أوامره[٩] » ويرجع حرص العلماء فى وضع

---

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٨ .

(٢) J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : 124

(٣) J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P : 181 - 182

(٤) ابن دحية : المطرب ص ٩٤ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٤ ، أبى زكرياء : بغية الرواد جـ ١ ص ٢٤ .

(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٥٠ تطوان .

(٧) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٦٥ ، ٦٦ ، د. عطية مشرفة : القضاء فى الاسلام ص ١٥٨ ، ص ١٥٩ ، النباهى : تاريخ القضاة ص ٤ .

(٨) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ٢٠٦ .

(٩) ابن عبدون : رسالة ابن عبدون فى الحسبة ص ٧ ، ٨ .

الشروط والمواصفات الخاصة بالقاضي وذلك لعظم هذه الوظيفة وتأثيرها المباشر في أوضاع الرعية من حيث العدل وإقامته ، ومدى ثقة الناس واطمئنانهم في الحصول على حقوقهم ، وبتصفح تراجم القضاة الذين شغلوا منصب القضاء بالمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين نجد توفر كثير من الشروط السابقة فيهم حيث حرص ولاة الأمر على اختيار أكابر العلماء والفقهاء لشغل هذا المنصب فالقاضي موسى بن حماد الصنهاجي الذى تولى القضاء بحضرة مراكش وتوفى سنة ٥٣٥هـ / ١١٤٠م يصفه ابن بشكوال بقوله « كان فقيهاً حافظاً للرأي ، عالماً بالمسائل والأحكام مقدماً في معرفتها ، وكان من جلة القضاة في وقته ، وشهر بالفضل والعدل في أحكامه »[١] ويشير النباهي إلى سلوكه بقوله « كان شديداً على أهل الأهواء ، مترفقاً بالضعفاء ، متغاضياً عن هنات الفقهاء »[٢] ، والقاضي محمد بن الحسن الحضرمي الذى تولى القضاء بأزكي بصحراء المغرب وتوفى بها سنة ٤٨٩هـ / ١٠٩٥م يصفه ابن بشكوال بقوله « كان رجلا نبيهاً عالماً بالفقه وإماماً في أصول الدين وله في ذلك تواليف حسان مفيدة ، وكان مع ذلك ذا حظ وافر من البلاغة والفصاحة »[٣] والقاضي أحمد بن مضاء قاضي الخلافة الموحدية والذى توفى سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٥م كان فقيها محدثاً وإماماً في النحو[٤] والقاضي عياض بن موسى بن عياض اليحصبي الذى توفى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م كان من أهل التفنن في العلم والذكاء واليقظة والفهم[٥] وكان فقيهاً محدثاً عارفاً أديباً وله تآليف[٦] والقاضي أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داوود تولى القضاء بسبتة وسلا كان فقيها أصولياً نحويا أديباً شاعراً ، ودرس كتاب سيبويه ومستصفى أبي حامد الغزالي وكان يميل إلى الإجتهاد في نظره[٧] ومن هذا النماذج يتضح كيف كان القضاة على درجة كبيرة من العلم والمعرفة وأن ولاة الأمر لم يكونوا يختارون

---

(١) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ ص ٥٧٩ ، ٥٨٠ .
(٢) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ٩٧ .
(٣) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ ص ٥٧٢ .
(٤) الضبي : بغية الملتمس ص ١٩٣ .
(٥) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ ص ٤١٠ .
(٦) الضبي : بغية الملتمس ص ٤٤٥ .
(٧) محمد بوجندار : تعطير البساط بذكر تراجم قضاة الرباط ص٦ المقرى نفح الطيب جـ ٦ ص ٦٦ ، ٦٧ .

إلا من كان مبرّزاً فى العلم كاملا فى أخلاقه(١) .

تعيين القضاة :

اختص ولاة الأمر بالمغرب الأقصى بتعيين قاضى الجماعة بالعاصمة(٢) كذلك قاموا بتعيين القضاة فى المدن الكبرى(٣) أما قضاة المدن الأخرى فقد ترك للأمراء المحليين أمر تعيينهم(٤) وقبل اختيار القاضى كان ولى الأمر يقوم باستشارة من حوله فى اختيار القاضى حتى إذا أجمع أربعة من الفقهاء على اختياره أصدر ولى الأمر أمره بتعيين القاضى(٥) وفى بعض الأحيان كان الخليفة يستدعى أحد القضاة من مكان عمله ليوليه القضاء بجهة أخرى كما فعل المنصور الموحدى فى استدعائه أبى محمد عبد الله بن سليمان من الأندلس « وولى – أى أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حوط الله – قضاء أشبيلية وقرطبة ومرسية وسبتة ، ولما بنى الجامع الأعظم بسلا وتمت أبنية الرباط استدعاه السلطان المنصور الموحدى وولاه على العدوتين معاً واستمر قاضياً عليها نحو الثلاث سنين »(٦).

فاذا تم اختيار القاضى أصدر ولى الأمر مرسوماً بتعيين القاضى الجديد وقد أورد النباهى مرسوماً صادراً من أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين بتعيين القاضى موسى بن حماد فى سنة ٥٢٤هـ/١١٢٩م ونصه « وبعد فانا قد فرغناك برهة من الدهر لشأنك ، وأرسلنا على جهة الترفيه زماماً من عنانك .. خيرناك خطة القضاء ثانية بزمامك ، وأعدناك إلى سيرتك الأولى من لزامك وقلدناك بعد استخارة الله القضاء بين أهل غرناطة وأعمالها – أمنهم الله وحرسها – للثقة المكينة بإيمانك والمعرفة الثاقبة بمكانك ، فتقلد معانا مسدداً ما قلدناك ، وانهض نهوض مستقل بما حملناك ... وليس هذه بأول ولايتك لها فنبتدىء بوصيتك

---

(١) الجيلالى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٤٩ .
(٢) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧٣ .
(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٨ .
(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧٣ .
(٥) J.F.P. Hopkins: Medieval Muslim, P; 131
(٦) بوجندار : تعطير البساط ص ٦ .

. . . بل ساست فيها أيامك وشكر فيها مقامك . . »(١) وهناك صيغة أخرى في تولية القاضي أوردها د . حسين مؤنس نقلا عن نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين وهي « كتاب ترفيع واظهار أمر بعقد الرئيس الأجل أبو فلان الفقيه صاحب الأحكام فلان بن فلان تولا فيه شد أزره وعضد أمره ، والإشادة برفعة مكانه والاطلاق من يده ولسانه . . من التنفيذ بجهات فلانة وفلانة لينفذ الحقوق غير مرتاب ويجاهر فيها غير محاب . . . »(٢) . ثم يستمر المرسوم في بيان الطريقة التي يسير بها وواجب الأهالي في طاعته والامتثال له(٣) .

وفي بعض الأحيان يترك الوالي لسكان إقليمه حرية اختيار القاضي يقول ملين « واختيار المنصور لقضاته . لم يكن مبنياً إلا على ما يعلمه من كفاءتهم واستحقاقهم للقيام بمهامهم أحسن قيام ، فاذا لم يتحقق بأهلية أحد لذلك ، ترك للأمة نفسها تعيين من ترتضيه حامياً لحقوقها فمن ذلك ما فعل والى أشبيلية إذ كتب إلى أهل شريش أن يجتمعوا على رجل منهم يتولى القضاء فاجتمعوا على ابن أحمد بن لبال الورع الزاهد »(٤) .

طريقة التقاضي :

مارس القضاة اختصاصاتهم في المسجد حيث كان مجلس حكمهم(٥) وقد أورد النباهي في ترجمته للقاضي أبي عبد الله محمد بن سليمان قاضي مالقة والمتوفى سنة ٥٠٠هـ كيف كان يقضي في مسجد مدينته يقول « وكان قعود القاضي أبي عبد الله المذكور لتنفيذ الأحكام بالمسجد المذكور من داخل مالقة »(٦).

---

(١) النباهي : تاريخ قضاة الاندلس ص ٩٨ .

(٢) د. حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين والموحدين ص ١٣٧ مجلة المعهد المصري — مدريد عدد ٣ سنة ٥٥ مجلد ١ .

(٣) د. حسين مؤنس : نصوص سياسة عن فترة الانتقال من المرابطين الى الموحدين ص ١٣٧ .

(٤) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ١٠٢ .

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٧ ، د. عبد المنعم ماجد: تاريخ الحضارة الاسلامية ص ٤٨ .

(٦) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٠ .

وكان القاضي له حجاب ينظمون دخول المتخاصمين[١] .

وبجانب هؤلاء الحجاب كان له كتّاب يقومون بكتابة ما يأمر به القاضي فقد اتخذ القاضي أبو موسى عيسى بن يوسف بن ملجوم قاضي فاس كاتباً هو حسن بن ابراهيم بن عبد الله بن أبي سهل[٢] كذلك استكتب ابن الملجوم قاضي مكناسة الكاتب محمد بن عيسى بن القاسم الصدفي الذي توفي سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٤م[٣]

ومع هؤلاء الكتاب كان هناك الموثقون وكانوا مكلّفين بالإشراف على سير الدعاوى وكتابة الشروط[٤] ومن هؤلاء الموثقين علي بن عبد الله بن ابراهيم بن عبيد الله الأنصاري من الجزيرة الخضراء وكان موثقاً له تأليف عظيم في الوثائق وقد استوطن سبتة وكتب للقاضي أبي موسى عمران بن عمران وتوفي سنة ٥٧٠ هـ/ ١١٧٤م[٥] وكذلك الموثق أبو الربيع سليمان بن عبدالرحمن المقري الصنهاجي كان موثقاً بمدينة سلا وتوفي سنة ٥٢٩ هـ / ١١٨٣م[٦].

وكان القضاة في فترة حكم المرابطين لا يصدرون أحكامهم إلا بعد استشارة أربعة من الفقهاء[٧] وفي ذلك يقول المراكشي « فكان — أي علي بن يوسف بن تاشفين — إذا ولّى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه ألا يقطع أمراً ولا يبت في صغير ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء»[٨] وكانت هذه الاستشارة موزعة بين القاضي والمتخاصمين فاثنان من هؤلاء الأربعة يلازمان القاضي ليستشيرهما في إصدار الأحكام ، واثنان يختصان باصدار المشورة للمتنازعين والمستشيرين[٩] .

---

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٧ .
(٢) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ١١٣ ، ١١٤ .
(٣) ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس ج ٣ ص ٥٧٧ .
(٤) روجيه لوتورنو : فاس في عصر بني مرين ص ٨٤ .
(٥) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٣٠٥ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ٣٢١ ، ٣٢٢ .
(٧) المراكشي : المعجب ص ١٧١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٦ ، عثمان المراكشي : الجامعة اليوسيفية ص ٩٩ .
(٨) المراكشي :المعجب ص ١٧١ .
(٩) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٦ .

اختصاصات القاضي :

أشار الماوردي والنباهي إلى الأعمال التي يقوم بها القاضي ، والاختصاصات التي يمارسها ، والتي تبنى على قاعدة عامة وهي المحافظة على حقوق الرعية وإقرار العدل والإنصاف بين طبقات الأمة وحماية الأخلاق العامة فاذا ما حاولنا توضيح هذه القاعدة لوجدنا أن القاضي يقوم بالأعمال الآتية : أولا : الفصل في المنازعات . ثانياً : إرجاع الحقوق إلى أصحابها . ثالثاً : الحجر على السفهاء والمجانين والمفلسين . رابعاً : الإشراف على الأوقاف والأحباس . خامساً : الإشراف على تنفيذ الوصايا . سادساً : تزويج الأيامى بالأكفاء إذا وافقت الشرع . سابعاً : إقامة الحدود . ثامناً : الإشراف على الآداب العامة في الطرقات . تاسعاً : الاشراف على معاونيه الذين يقومون بمعاونته في تأدية وظيفته[١] .

فاذا ما تصفحنا أعمال القضاة واختصاصاتهم منذ قيام دولة المرابطين بالمغرب الأقصى وجدنا اضطلاعهم بالأعمال السابقة ، بل وأضيف إلى بعضهم بعض الاختصاصات التي زادت من أعبائهم ووسعت دائرة اختصاصهم فيوسف بن تاشفين جعل أحكام البلاد بيد القضاة[٢] ومن هنا أشرف القضاة على الأفراد الذين بيدهم إصدار الأحكام ومن هؤلاء الفقيه المشاور الذي يختص بخطة الشورى ويتولى صاحبها إبداء الرأي والفتوى في مسائل الأحكام[٣] وكذلك أشرف القضاة على خطة الأحكام ويتولاها فقيه يجلس للناس وينظر في مظالمهم ويحكم بينهم ويفض المنازعات[٤] كما كان له النظر في القضايا المتعلقة بالشئون الزوجية والطلاق[٥] وهو بذلك يقوم بالتخفيف عن القاضي الرئيسي في بعض مهامه كذلك القضايا المتعلقة بالمواريث فقد كان يعين لها أحد الفقهاء

---

(١) الماوردي : الأحكام السلطانية ص ٧٠ ، ٧١٣ ، النباهي : تاريخ قضاة الاندلس ص ٥ ، ٦ .

(٢) ابن أبي زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣٧ ت الفيلالي ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ٨٩ .

(٣) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦٨ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الثاني ص ٦٢٨ ، ٦٢٩ .

(٤) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٢٩ .

المتخصصين وذلك تحت إشراف القاضى (١) وقد أشار ابن عبدون إلى أن من حق القاضى تعيين قاض خاص بطبقة الصناع (٢) أما القضايا الكبيرة التى تحتاج إلى جرأة وشجاعة فكانت تترك للقاضى نفسه يفصل فيها بين المتخاصمين أيا كانت رتبتهم ومنزلتهم الاجتماعية(٣) .

وبجانب المهمة الأساسية للقضاة وهى إقرار العدل بين طبقات الأمة أضيف لبعضهم بعض المهام المتعلقة بشئون الدولة . فقد أعطى المنصور الموحدى القضاة الحق فى مراقبة جميع العمال والولاة باعتبار القضاة ممثلين للشريعة وأن على العمال والولاة الخضوع والامتثال لأوامرهم(٤) .

وكان بعضهم يجمع بين وظيفة القضاء ووظيفة المظالم والكتابة كالقاضى أحمد بن يزيد بن عبد الرحمن فقد تولى قضاء الجماعة بمراكش مضافاً إلى ذلك خطتى المظالم والكتابة العليا وكان مولده سنة سبع وثلاثين وخمسمائة(٥) .

كذلك كان بعضهم يجمع بين وظيفتى القضاء بالمغرب والأندلس كالقاضى ابن رشد قاضى الأندلس حين استدعاه الخليفة عبد المؤمن ليضيف إليه قضاء المغرب بجانب قضاء الأندلس(٦) .

وفى بعض الأحيان كان قاضى الجماعة فى العاصمة يتولى تعيين غيره من القضاة(٧) وقد ظهر ذلك حين قام قاضى الجماعة أبو يوسف حجاج بن يوسف التجيبى باستدعاء عبد العزيز الباغانى وكان من الصالحين ليوليه قضاء أغمات(٨) كذلك قام أبو منظور قاضى الجماعة بمراكش بتعيين القاضى

---

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٩ .
J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P ; 124

(٢) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٤ .

(٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦٩ .

(٤) محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٥٠ ، ٩٩

(٥) ابن الآبار : التكملة لكتاب الصلة ص ١٤١ ، ١٤٢ ، عباس المراكشى جـ ١ ص ٣٤٩ ، ٣٥٠ .

(٦) عباس المراكشى : الأعلام جـ ٣ ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٧) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٦ ، عباس المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ١٥٣ .

(٨) التادلى : التشوف ص ١٨٦ .

عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن من أهل سبتة والمتوفى سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م قاضياً على مدينة سلا[١].

كذلك قام بعض القضاة بتعيين المحتسبين ومن هؤلاء القاضي أبي يوسف حجاج بن يوسف قاضي مراكش الذى استدعى أحد الصالحين وهو عبد الملك مروان بن عبد الملك اللمتونى من أهل فاس والمتوفى سنة ٥٧١هـ ليوليه خطة الحسبة فى مراكش [٢].

وتولى بعضهم الإشراف على بيت المال[٣] كالقاضي ابن صقر الذى كان مسئولا عن بيت المال فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[٤].

كذلك اتسعت اختصاصات بعض القضاة حتّى شملت الإشراف على بعض أعمال البناء وخاصة ما يتعلق ببناء المساجد فقد أمر يوسف بن تاشفين قاضيه محمد بن عيسى ببناء جامع سبتة سنة ٤٩١هـ / ١٠٩٧م[٥] كذلك حين ضاق الجامع الكبير بمدينة فاس عن استيعاب المصلين قام القاضي ابن معيشة قاضى فاس باستشارة أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين فى توسعة المسجد ، فأعطاه الإذن بذلك ، فقام القاضي بتجهيز المال لذلك وأشرف على أعمال البناء بنفسه[٦] وقد عزل القاضي ابن معيشة قبل استكمال البناء فقام بالإشراف على إتمامه القاضي أبو مروان عبد الملك بن بيضا القيسي الذى تولى القضاء بفاس سنة ٥٣٧هـ / ١١٤٢م[٧] ولم يقتصر إشرافهم على بناء المساجد بل وقام بعضهم بالإشراف على بعض المبانى الأخرى كبناء سور مدينة سبتة ، يقول ابن عذارى « وقبل بناء الجامع بأعوام — تم بناء الجامع سنة ٤٩١هـ —

---

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٦١ .

(٢) التادلى : التشوف ص ٢٢٣ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ص ١٥٠ ، ١٥١ ، ابن القاضي :جذوة الاقتباس ص ٣٠٩ .

(٣) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧٠ .

(٤) J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslims p 57

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٨ ت د. احسان عباس

(٦) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٤١ ، ٤٢ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٢٤ ، التازى : احد عشر قرنا فى جامعة القروين ص ٨ سنة ١٩٦٠ .

(٧) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٤٢ .

أمر يوسف بن تاشفين ببناء سور الميناء السفلى لسبتة على يد القاضى ابراهيم ابن أحمد »[١]. وكذلك حين أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م قاضيه أبا القاسم أحمد بن محمد الحوفى أن يختط له ما يتصل بالقصور والمبانى التى أزمع بناءها بأشبيلية وذلك ليغرس فيها أشجار الزيتون والأعناب والفواكه المختلفة[٢] والسبب فى إسناد هذه المهمة لقاضيه معرفته بالمساحة والتكسير والفلاحة فضلا عن أمانته ودينه[٣] . ومما سبق يمكننا أن نستنتج تنوع اختصاصات القضاة ، فبجانب فصلهم فى المنازعات بين المتخاصمين ، كان بعضهم يشرف على بعض النواحى الإدارية والمالية بالبلاد ، كما أن بعضهم قام بالإشراف على أعمال البناء ، وهذا التنوع يشير إلى أهمية منصب القضاء .

نقل القضاة وعزلهم :

جرى ولاة الأمر بالمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين على نقل القضاة فى أقاليم الدولة المختلفة ، وذلك تبعاً للظروف المتغيرة واحتياجات كل إقليم لشغل هذا المنصب ، وقد ساعد على هذه التنقلات وحدة التشريع الذى يستقى منه هؤلاء القضاة أحكامهم[٤] والمتتبع لحركات النقل بين القضاة يلحظ أن قاضى الجماعة بمراكش كان فى كثير من الأحيان يتولى قضاء بعض المدن قبل توليه لهذا المنصب فى العاصمة ، فالقاضى عبد الرحمن بن محمد بن عبدالرحمن تولى قضاء الجزيرة الخضراء ثم ولى قضاء مدينة سلا ثم نقل إلى مراكش حيث تولى قضاء الجماعة وقد توفى سنة ٥١٠هـ / ١١١٦م[٥] وكذلك القاضى محمد بن على بن مروان بن جبل الهمدانى الذى ولى قضاء تلمسان ثم نقل إلى قضاء الجماعة بمراكش فى سنة أربع وثمانين وخمسمائة[٦] والقاضى

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٥٨ تـد. احسان عباس.
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٦٥ ، ٤٦٦ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٤٦٥ ، ٤٦٦
(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٧ .
(٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .
(٦) عباس المراكشى : الأعلام جـ ٣ ص ٧٠ .

أحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن سعيد الذى تولى قضاء مدينة فاس ثم نقل إلى قضاء مراكش سنة ٥٧٨هـ / ١١٨٢م(١) والقاضى خلوف بن خلف الله الصنهاجى من البربر يكنى أبا سعيد ولى قضاء غرناطة سنة ٥١٠هـ — ١١١٦م ، وولى قضاء فاس ثم ولى قضاء الجماعة بمراكش(٢) وغير هؤلاء من القضاة .

وسياسة نقل القضاة من المدن المغربية والأندلسية إلى العاصمة وتعيينهم فى منصب قاضى الجماعة يرجع إلى أهمية هذا المنصب باعتباره أعلى مناصب القضـــاء ، وله الصـــلة المباشرة بالسلطة العليـــا فى البلاد ، كما أن بعضهم اختص بتعيين غيره من قضاة المدن الأخرى ، فمن هنا كان لابد له من التمرس بأعمال القضاء فى المدن المختلفة ، حتى إذا أثبت جدارته واستحقاقه ، نقل لشغل وظيفة قاضى الجماعة .

وكثيراً ما كان القاضى يتنقل بين المدن المغربية والأندلسية فالقاضى أبو محمد عبد الله بن سليمان بن داوود بن عبد الرحمن بن حوط الله الأنصارى ولى القضاء بمدن أندلسية ومغربية ، فولى بأشبيلية وميورقة ومرسية وقرطبة وسبتة وسلا ثم عاد من سلا والياً قضاء مرسية وتوفى بمدينة غرناطة فى شهر ربيع الأول سنة ٦١٢ هـ / ١٢١٥م(٣) والقاضى مروان بن محمد بن على بن مروان ولى القضاء بتلمسان وسبتة وغرناطة ومرسية(٤) والقاضى محمد بن داوود بن عطية بن سعد الجراوى استقضى بتلمسان ثم بأشبيلية ثم بفاس وتوفى سنة ٥٢٥هـ / ١١٣٠م(٥) والقاضى أبو موسى عيسى بن عمران بن دافال الوردميشى ولى القضاء بأشبيلية ثم بمراكش وتوفى سنة ٥٧٨هـ — ١١٨٢م(٦) وغير هؤلاء من القضاة .

وربما اقتصر نقل القضاة بين مدن المغرب فقط كما حدث للقاضى أبى

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٧١ .
(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١١٥ ، ١١٦ .
(٣) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ١١٢ .
(٤) أبو زكرياء : بغية الرواد جـ ١ ص ٣٢ .
(٥) أبو زكرياء : بغية الرواد جـ ١ ص ٢٥ .
(٦) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٥٧ .

العباس أحمد بن محمد بن أحمد البكرى وهو من أهل شريش وقد استوطن مدينة سلا وتولى القضاء بها ثم انتقل إلى مكناسة لتولى القضاء بها وقد توفى سنة ٦١١هـ / ١٢١٤(١) .

أما بالنسبة لعزل القضاة ، فانه بالرغم من حرص ولاة الأمر بالمغرب الأقصى على اختيار أكفأ العناصر من العلماء والفقهاء لشغل هذا المنصب ، وأن بعض خلفاء الموحدين كان يباشر بنفسه الإشراف على أعمال القاضى كما فعل المنصور الموحدى مع أحد قضاته يقول ملين « كان — أى المنصور الموحدى — يتابع عن كثب سيرة قضاته ، فكان قاضيه أحمد بن محمد بن بقى يقعد فى موضع بينه وبين الخليفة ستر من ألواح ، فكان يسمع ترافع المتداعين وحكم القاضى فيكون بذلك آمناً على حقوق رعيته »(٢) إلا أن بعضهم أساء التصرف فى أعماله وبذلك استحق العزل . فالقاضى عتيق بن على بن حسن ابن حفاظ الصنهاجى ولى قضاء الجزيرة الخضراء ولكن لم تحمد سيرته ،وأكثر أهلها التشكى منه فصرف عن قضائها وقد توفى بمراكش سنة ٥٩٥هـ - ١١٩٨م(٣) ،كذلك حين تولى القاضى ابن رشد قضاء مراكش فى عهد المنصور الموحدى خلفاً لقاضيها الذى ثارت به العامة نظراً لسوء سيرته وطلبوا من الخليفة عزله فصرفه عن القضاء وولى ابن رشد مكانه(٤) .

وربما توجه وفد من أهل البلد إلى الخليفة ليقدموا شكواهم من سوء تصرف قاضيهم وهذا ما فعله أهل المرية حين توجهوا إلى الخليفة عبد المؤمن يشكون قاضيهم أبا محمد عبد الحق بن غالب وينسبونه إلى الزندقة(٥) .

وكان العزل فى بعض الأحيان بسبب إنشغال القاضى بالدرس والتحصيل وهذا ماحدث لابن رشد وفى ذلك يقول ابن القاضى « وفى سنة ثلاث عشرة

---

(١) ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس جـ ١ ص ٣٠٢ ط ١ سنة ١٩٢٩ .

(٢) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٠٠ .

(٣) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٧٨ .

(٤) عباس المراكشى : الأعلام جـ ٣ ص ٤٨ .

(٥) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٦ .

وخمسمائة عزل الإمام ابن رشد عن قضاء قرطبة وإنما عزله علي بن يوسف بن تاشفين عن القضاء لأنه اشتكى له اشتغاله بالبيان والتحصيل فعزله وولى مكانه أبا القاسم بن حمدين »[١] .

وقد يصحب عزل القاضي رسالة من العاصمة إلى أهل إقليمه توضّح أسباب العزل وقد فعل ذلك أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين حين عزل قاضي المرية أبا الحسن بن أضحى الغرناطي وكتب إلى أهل المرية ومما جاء فيها بعد البسملة « كتابنا زكّى الله أعمالكم وكفّر عنكم سيئاتكم وأصلح بالكم من حضرة مراكش حرسها الله بعد أن نمى إلينا وتقرّر لدينا أن الجهول ابن اضحى أجهل بأحكام القضاء من العلجوم ، إذ قد أظهر فيكم أحكاماً يترحم فيها على سدوم ، وقد جعلنا شهب العزلة لشياطينه كالرجوم ، وقلدناه خطة الشوم ، ونبذناه دون أن تدركه نعمة من ربه بالعراء وهو مذموم . . »[٢] وكذلك أرسل أمير المسلمين علي بن يوسف بن تاشفين رسالة يوضّح فيها أسباب عزله لقاضي فاس ابن الملجوم سنة ٥٢٨هـ / ١١٣٣م[٣] .

---

(١) ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٢٩١ .

(٢) احمد بن محمد : اخبار وتراجم اندلسية ص ٧٨ ، ٧٩ ت د. احسان عباس بيروت ط ١ سنة ٦٣ .

(٣) ابن عذاري : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩٢ ت د. احسان عباس .

ب ـ المظـالم

أسهم نظام القضاء فى المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين فى إقرار العدل بين الرعية ، وشارك القضاء فى تحقيق هذه الغاية نظام ولاية المظالم وهو لون من ألوان القضاء تمتزج فيه سطوة السلطان بنصفة القضاء(١) وبعبارة أخرى هو نوع من القضاء العالى ابتكره الإسلام(٢) ويشبه فى وقتنا الحاضر مجلس الدولة أو المحاكم العليا(٣) وكان الهدف من هذا النظام هو تحقيق ما يعجز القضاء عن تحقيقه من أوجه العدل وردّ الحقوق إلى أصحابها ومن ذلك محاكمة أصحاب النفوذ فى المجتمع أو الولاة أنفسهم أو عمال الدولة من الموظفين إذا اعتدوا على الناس(٤) ولذا كان لمن يتولاها سلطات أوسع من سلطة القاضى .

وفى دولة المرابطين كانت ولاية المظالم من اختصاص أمير المسلمين أو نائبه أو قاضى الجماعة الذى كان يتعيّن عليه أن ينصف الناس من ظلم الولاة(٥) وقد باشر الأمير تاشفين بن على بن يوسف ولاية المظالم بنفسه حين تولّى إمارة غرناطة فى سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٨م وفى ذلك يقول ابن الخطيب «وواصل ـ أى تاشفين بن على ـ الجلوس للنظر فى الظلامات وقراءة الرقاع ورد الجواب وكتب التوقيعات»(٦) وكذلك حين تولّى الوزير اسحق بن ينتيان بن عمر بن ينتيان وزير أمير المسلمين على بن يوسف منصب الوزارة ، قام بالنظر فى المظالم والشكايات(٧) .

حتى إذا قامت دولة الموحدين ، اهتم خلفاء الموحدين بولاية المظالم وكانوا

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٧٨ د. عطية مشرفة : القضاء فى الاسلام ص ١٧١ .
(٢) د. الريس : النظريات السايسية ص ٢٠٦ .
(٣) د. صبحى الصالح : النظم الاسلامية ص ٣٢٥ .
(٤) د. الريس : النظريات السايسية ص ٢٠٦ .
(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٨ .
(٦) ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الأول ص ٤٥٨ ت عنان .
(٧) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦١ .
J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim P ; 143

يخصصون لها أياماً معلومة من الإسبوع يجلسون فيها إلى الرعية لبحث ظلاماتهم(١) فالخليفة عبد المؤمن بن على حين توجه إلى جبل طارق سنة ٥٥٥هـ / ١١٩٠م لبحث أمور الأندلس مع الأشياخ والقادة ، وفى خلال إقامته التى استمرت شهرين كان ينظر فى المظالم ويقضى فيها(٢) ولم يكن الخليفة عبد المؤمن فى خلال بحثه ظلامات الناس يتوانى عن توقيع أقسى العقوبات وأشدها على من تثبت إدانته فقد بلغه أن رجلا من التجار ببجاية فقد كمية من بضاعته فاستدعى التاجر ولما وصل باب قصر الخلافة وجد جماعة كبيرة من المصامدة ، وقد التف حولهم الحرس بالرماح المشرعة فلما استفسر الرجل عن ذلك قيل له هم أهل المكان الذى أخذ متاعك منه ، قال التاجر : فدخلت وأنا خائف وجلست بين يدى الخليفة واستدعى مشايخهم وقال لى : كم تكون قيمة بضاعتك؟ فقلت كذا وكذا فأمر لى بالمبلغ وقال لى : قم أنت أخذت حقك وبقى حقى وحق الله عز وجل وأمر باخراج المشايخ وقتل الجميع ، وقال : هذه طريق شوك أزيلها عن المسلمين ، فأقبلوا يبكون ويتضرعون ويقولون : يؤاخذ سيدنا الصلحاء بالمفسدين فقال : تخرج كل طائفة منكم من فيها من المفسدين ، فصار الرجل يخرج ولده وأخاه وابن عمه إلى أن اجتمع نحو خمسمائة فأمر اهلهم أن يتولوا قتلهم ففعلوا ذلك(٣) وهذه الحادثة وإن كان يبدو فيها نوع من المبالغة من حيث حجم من نفذت فيهم العقوبة إلا أنها تشير إلى مدى حرص الخليفة عبد المؤمن ، على إرجاع الحقوق إلى أصحابها .

وكذلك الخليفة المنصور الموحدى مارس مهام الوظيفة بنفسه فقد كان يقعد للعامة ولا يحجب عنه أحداً من صغير ولا كبير(٤) فأقبل الناس على الخليفة يعرضون عليه ظلاماتهم وشكاواهم حتى اندس فى هؤلاء المشتكين من ليس له حق وقد صور ذلك ابن عذارى بقوله « كان — أى المنصور

---

(١) محمد المرير : الأبحاث السامية جـ ٢ ص ٣٥ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٩ ، عبد الله كنون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٦١ ط ١ سنة ١٩٤ .

(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الأول ص ٣٨٥ ، ٣٨٦ .

(٣) محمد المرير : الأبحاث السامية جـ ٢ ص ٣٥ ، ٣٦ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٨٥ .

الموحدى — ابتداء جلوسه غرة رجب سنة ثمانين المذكور — أى سنة ٥٨٠هـ — فى المسجد الجامع المجاور لقصر الحجر أياماً من صلاة الضحى إلى قرب الزوال مع تأنيس الخصوم لاستدعاء ما لديهم من الأموال ، فارتاع الأعيان من حضور ذلك المقام لما فيه من هجوم وخجل وضيق مجال المقام ، وتطرّق إليهم السفّال وأغرموهم جملة الأموال وكل من ادعى شيئاً بشبهة أو دعوى صولح بما يرضيه دفعاً للبلوى ، قال يوسف بن عمر ولقد حضرت لأناس من السوقة والتجار ادعوا على السيد أبى زيد فمنهم من قال : أهديت له فرساً وآخر جارية وشتى دعاوى فكل أرضاه ووفىّ له ما ادعاه »[1] فلما كثرت دعاوى الناس وكانت بعض هذه الدعاوى يسيرة ولا تستحق عرضها على الخليفة ، خصص أياماً معلومة وقضايا معينة لا يفصل فيها غيره « فقد اختصم إليه رجلان فى نصف درهم فقضى بينهما وأمر الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضرباً خفيفاً تأديباً لهما ، وقال لهما : أما كان فى البلد حكام قد نصبوا لمثل هذا ؟ فكان هذا أيضاً مما حمله على القعود فى أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره[2] » حتى إذا كثر تزاحم الناس فى تلك الأيام المخصوصة ، وكان بعضهم يذهب إلى هذه المجالس لرؤية السلطان لا للوصول لحق واجب امتنع الخليفة عن الجلوس للعامة[3] ولم يكن تولى المنصور الموحدى ولاية المظالم فى العاصمة فقط ، بل كان يتلقى الشكاوى فى أسفاره ويبحثها ويصدر حكمه فيها فحين استراح الخليفة بمدينة فاس أثناء توجهه إلى غزو قفصة سنة ٥٨٢ هـ / ١١٨٦ م اشتكى بعض الناس من أن أبا القاسم بن الملجوم بنى غرفة فى داره يشرف منها على بعض جيرانه ، وجعلها متنزهاً له ولإخوانه فأمر الخليفة بعض أعوانه ببحث ذلك فأخبروه أنها لا تشرف إلا على صحن حمام وسطح بعض أقوام ، فأمر المنصور بهدمها وتغيير رسمها[4] وهكذا ساهم خلفاء الموحدين فى إقرار العدل بين الناس حين تولوا خطة المظالم .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٨٠ ، ٨١ تطوان .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٨٥ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٨١ تطوان .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠٣ تطوان .

طريقة التقاضى أمام والى المظالم واختصاصاته :

كانت للقضايا والشكاوى التى تعرض على ولاة الأمر بالمغرب الأقصى أيام محددة يجلس فيها الخليفة أو الوالى لبحث هذه المظالم فالمنصور الموحدى بعد أن كان يجلس معظم الأيام ، خصّص أياماً محددة لبحث هذه الشكاوى[١] إما إذا كان الموظف المسئول عن خطة المظالم مختصاً بهذه الوظيفة فقط فانه يجلس فى جميع الأيام[٢] أما المكان الذى تبحث فيه الشكاوى فكان المسجد الجامع حيث اتخذ المنصور الموحدى مجلسه فى المسجد الجامع المجاور لقصر الحجر[٣] أو المقر الذى ينزل فيه الخليفة حين يكون على سفر[٤] .

أما كيفية توصيل الظلامة إلى الخليفة أو الوالى فذلك عن طريق عرض الشكوى والتظلم أمامه وربما لا يتيسر للمتظلم الوصول إلى مقر الخليفة ، فيكتفى بالقاء مظلمته على مصلى الخليفة وذلك ما فعلته الشلبية حين تظلمت من عمال بلدها . يقول المقرى « ومنهم الشلبية قال ابن الآبار : ولم أقف على اسمها ، وكتبت إلى السلطان يعقوب المنصور تتظلم من ولاة بلدها وصاحب خراجها :

يا قاضى المصر الـذى يرجى به ... إن قدر الرحمـن رفع كراهية
ناد الأميـر إذا وقفت ببـابـه ... يا راعيـا إن الرعيـة فانيـة

فيقال أنها ألقيت يوم جمعة على مصلى المنصور ، فلما قضى الصلاة وتصفحها بحث عن القضية فوقف على حقيقتها وأمر للمرأة بصلة »[٥].

وكانت المحكمة التى تعقد لبحث المظالم تتكون من خمس جماعات :

الأولى : الحماة والأعوان للتغلب على من تحدثه نفسه بالالتجاء إلى القوة

والثانية : الحكام ليردّوا الحقوق إلى أصحابها .

والثالثة : الفقهاء للتشاور معهم .

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٨٥ .
(٢) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٠ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٨٠ تطوان .
(٤) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٠٣ تطوان .
(٥) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ٢٩ ، ٣٠ .

والرابعة : الكتّاب لتدوين ما حدث أثناء الجلسة .

والخامسة : الشهود الذين يشهدون بأن ما أصدره القاضى من الأحكام لا ينافى الحق والعدل [١].

وقريباً من هذا التنظيم الذى أشار إليه الماوردى ، كان تنظيم محكمة المظالم بالمغرب الأقصى فى عهد الموحدين فقد أورد محمد المرير نظام المحكمة بقوله « جرت عادة من له ظلامة أن يرتقب السلطان فى ركوبه فى موكبه يعنى يوم جلوسه للمظالم فاذا اجتاز به السلطان صاح من بعد لا إله إلا الله ، انصرنى نصرك الله ، فتؤخذ قصته ، وتدفع لكاتب السر ، فاذا عاد جلس فى قبة معينة لجلوسه ويجلس معه أكابر أشياخه مقلدين السيوف ويقف من دونهم على بعد مصطفين متكئين على سيوفهم ويقرأ كاتب السر قصص أصحاب المظالم وغيرها فينظر فيها بما يراه »[٢] .

أما بالنسبة لاختصاصات صاحب المظالم فتعددة ومتنوعة ويمكن إجمالها فيما يلى : النظر فى تعدى موظفى الدولة على الرعية وتوقيع العقوبة عليهم ورد الحقوق لأصحابها مع إشرافهم على الأوقاف العامة وإقامة الشعائر والعبادات وأخيراً تنفيذ الأحكام التى يعجز القضاة العاديون عن تنفيذها[٣] .

وبتأمل الاختصاصات السابقة نجد أن معظمها يتعلق بتلك القضايا الناشئة عن ظلم السلطة الحاكمة لبعض أفراد الرعية ، والتى تحتاج للبت فيها إلى نوع من القضاء تتوفر فيه الهيبة والسلطان كأن يكون الخليفة نفسه أو من ينوب عنه وهذا تضطلع به وظيفة المظالم .

جـ — الحسبة

لعبت وظيفة الحسبة دورها بجانب وظيفتى القضاء والمظالم فى إقرار الحق والعدل بين الناس فى المغرب الأقصى ، والحسبة من الوظائف الدينية

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ٨٠ ، د. عطية مشرفة : القضاء فى الاسلام ص ١٧٥ .

(٢) محمد المرير : الأبحاث السامية جـ ٢ ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٣) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٣ ، ٢٤ ، الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٨٠ ، ٨٣ ، د. صبحى الصالح : النظم الاسلامية ص ٣٢٤ ، ٣٢٥ .

من باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر[١] وهى بذلك معاونة للقضاء إذ هى تسهر على تنفيذ القوانين المتعلقة بالمصالح والآداب العامة ، وتعمل على حماية الجمهور من الغش والاستغلال[٢] ولارتباطها بحماية الجماهير فإن لها صلة وثيقة بالشرطة حيث يعد المحتسب الشرطى المسئول عن الأسواق والآداب العامة[٣] وقد حدد العلماء شروطاً لابد من توفرها فيمن يضطلع بالقيام بوظيفة الحسبة ومنها أن يكون فقيهاً عارفاً بأحكام الشريعة حراً عدلا ذا صرامة وخشونة فى الدين ، غنياً نبيلا ، فطنا لا يميل ولا يرتشى[٤] وحتى يؤدى المحتسب واجبه على خير وجه فله أن يتخذ الأعوان والغلمان[٥] وهؤلاء يكونون بمثابة العيون له يوصلون إليه الأخبار وهذا أدعى لبث الرعب والخوف فى قلوب العامة [٦].

وقد أغفلت المراجع — التى تيسر لى الإطلاع عليها — الأخبار عن المحتسبين بالمغرب الأقصى فى عهد المرابطين سوى ما ذكرته عن داعية المرابطين عبد الله بن ياسين وقضائه على وسائل اللهو وحرقه متاجر الخمر فى مدينة سجلماسة[٧] ويبدو أن البساطة الصحراوية لازمت المرابطين حتى بعد أن كونوا دولة قوية فلم يحفلوا بالتأليف واعتمدوا فى تغيير المنكر والأمر بالمعروف فى الأسواق والطرقات والأماكن العامة على كتب الفروع القديمة وعلى الذوق

---

(١) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٢٤٠ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٣٢٥ ، د. أحمد شلبى : السياسة والاقتصاد ص ١٧٠ .

(٢) د. الريس : النظريات السياسية ص ٢٠٩ .

(٣) د. أحمد شلبى : السياسة والاقتصاد ص ١٧٠ .

(٤) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ٦ ت د. الباز العرينى سنة ٤٦ الماوردى : الاحكام السلطانية ص ٤١ ، ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٠ ، د. عطية مشرفة: القضاء فى الاسلام ص ١٧٩ ، محمد المرير : الأبحاث السامية جـ ٢ ص ١١٥ .

(٥) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٠ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ .

(٦) الشيزرى : نهاية الرتبة ص ١٠ .

(٧) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٢٠ .

Nevill Barbour : Morrocco, P 50

وقوة الشعور الديني [١].

وقد مارس ابن تومرت داعية الموحدين خلال رحلة العودة إلى المغرب الأقصى وظيفة المحتسب حيث قام بإهراق الخمر التي وجدها بمدينة ملالة يقول البيذق « فلما كان في بعض الأيام دخل المدينة — أي دخل ابن تومرت مدينة ملالة — حتى وصل البحر فأهرق بها الخمر وقال المؤمن تمّار والكافر حمار . . . وقالوا له من أمرك بالحسبة فقال الله ورسوله ثم رجع إلى المسجد المذكور »[٢] كذلك حين وصل فاس واستقر بها بعض الوقت مارس وظيفة المحتسب حيث هاجم هو وتلاميذه حوانيت اللهو ، وقام بتكسير آلات اللهو والطرب[٣] يقول البيذق « فخرجنا السبعة — أي ابن تومرت وتلاميذه — وأقبلنا بسبعة مقارع من ذكار (التين) فقالوا لنا اخفوا مقارعكم وسرنا معه ولا علمنا أين نتوجه حتى وصلنا زقاق بزقالة قال لنا تفرقوا على الحوانيت وكانت الحوانيت مملوءة دفوفاً وقراقر ومزامير وعيداناً وروطاً وأربيه وكيتارات وجميع آلات اللهو ، فقال لنا المعصوم اكسروا ما وجدتم من اللهو فقام أربابها بالصراخ وساروا شاكين نحو قاضيهم ابن معيشة ، وكان يومئذ قاضيها فقال لهم لولا ما أرى في السنة فما كسرها ومزقها مروا فانكم مخالفون للحق[٤] » حتى إذا قامت دولة الموحدين برزت وظيفة المحتسب في أكثر من خبر ، فالمنصور الموحدي كان يحاسب أمناء الأسواق في كل شهر مرتين يقول المراكشي « وكان — أي المنصور الموحدي — قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين ، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم »[٥] وأمناء الأسواق كانوا من أعوان المحتسب[٦] كذلك أشار التادلي إلى أن قاضي مراكش أبا يوسف حجاج بن يوسف استدعى

---

(١) موسى لقبال : الحسبة المذهبية في بلاد المغرب : نشأتها وتطورها ص ٤٩ ط ١ سنة ٧١ الجزائر .

(٢) البيذق : أخبار المهدي ص ٥٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٦٤ ، ٦٥ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٧٦ .

(٤) البيذق : أخبار المهدي ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٢٨٥ .

(٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٣٩ .

أحد الصالحين من فاس وهو عبد الملك مروان بن عبد الملك اللمتونى والمتوفى سنة ٥٧١ هـ / ١١٧٥ م أو سنة ٥٧٢ هـ / ١١٧٦ م ليتولى وظيفة الحسبة يقول التادلى « حدثنى الثقة أن مروان بعث إليه القاضى أبو يوسف حجاج بن يوسف أن يصل من فاس ليقدمه على خطة الحسبة بمراكش »[١] كذلك أشار التادلى إلى تولى أحد الصالحين وظيفة الحسبة بمدينة داى وكراهيته لذلك يقول التادلى «ومنهم أبو يعقوب يوسف بن على المؤذن من أهل داى وبها مات فى رمضان عام سبعة وخمسين وخمسمائة ، كان عبداً صالحاً ورعا كثير البكاء . . وأكره على ولاية الحسبة ببلد داى ، فدخل على أهله وهو يبكى ويقول : لو أراد الله بى خيراً ما عرفنى أحد فامتنع من أكل اللحم من السوق إلى أن أعفى من تلك الولاية »[٢] وقد ترجم ابن القاضى لأحد الصالحين وهو ميمون بن على من مدينة فاس وكيف أنه تولى حسبة الطعام بمراكش[٣] .

وجدير بالملاحظة أن الفقر فى تأليف كتب عن الحسبة فى عصر المرابطين سرى أيضاً إلى عصر الموحدين بالرغم من وجود وظيفة المحتسب فى دولة الموحدين ، وربما كانت هناك مؤلفات وضاعت ، أو أن الموحدين انصرفوا عن التأليف فى الموضوع لأنه ارتبط فى الأذهان بالمذهب المالكى وبأمهات فروع الفقه وكانت محل مقت وإنكار من الموحدين الذين رفعوا لواء فكرة الرجوع إلى الأصول الحقيقية للتشريع الإسلامى[٤] .

وقد أشارت المراجع إلى اختصاصات المحتسب وتنوّعها وتعدّدها فمنها ما يتصل بالنواحى الدينية كأن يأمر العامة بالصلوات الخمس وإقامة صلاة الجمعة والجماعات[٥] ومنها ما يتعلق بالآداب العامة كمراقبة الحمامات ومراقبة النساء فى الأفراح والمآتم والجبانات وتأديب المجاهرين بالمحرّمات من شرب الخمر والزنى والفواحش وكسر آلات الملاهى[٦] ومنها ما يتعلق بالناحية

---

(١) التادلى : التشوف ص ٢٢٣ .
(٢) التادلى : التشوف ص ١٤٦ ، ١٤٧ .
(٣) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٠٩ ، ٢١٨ .
(٤) موسى لقبال : الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب ص ٤٩ .
(٥) ابن تيمية : الحسبة فى الاسلام ص ٩ ، ١٠ ، ١١ .
(٦) د. احمد شلبى : السياسة والاقتصاد ص ١٧١ ، روجيه لوتورنو : فاس فى عصر بنى مرين ص ٦٥ ، محمد المرير : الأبحاث السامية جـ ٢ ص ١٠٣ .

الاقتصادية والمعاملات من بيع وشراء كمراقبة للموازين والمكاييل ومراقبة الأسواق وما فيها من أنواع المتاجر المختلفة(١) ويضاف إلى هذه الاختصاصات حقه فى الإشراف على التعليم والمعلمين واختيارهم ومنعهم من إيذاء المتعلمين(٢) وحتى يتمكن المحتسب من ممارسة هذه الاختصاصات فقد منح السلطة اللازمة فى توقيع العقوبات على المذنبين فكان من حقه أن يطرح الشيء المغشوش أو يتلفه أو إهانة الجانى وتوبيخه ، وكذلك نفيه من السوق ، أو رفع يد الجانى عن الصنعة ، وكذلك سجنه أو ضربه(٣) وبهذه الاختصاصات والسلطات استطاع المحتسب أن يؤدى دوره فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ ، د. احمد شلبى : السياسة والاقتصاد ص ١٧١ ، محمد المرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ١١٨ .

(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٥ ، محمد المرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ١٠٣ .

د. ماجد : الحضارة الاسلامية ص ٥٦ .

(٣) محمد المرير : الأبحاث السامية ج ٢ ص ١٢٢ .

الباب الثانى
الحياة الاقتصادية

الحياة الاقتصادية :

شهد المغرب الأقصى فترة من الازدهار الاقتصادى منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين وحتى نهاية حكم الناصر الموحدى ، حيث حرص أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين على النهوض بالمنطقة فى شتى المجالات زراعية كانت أم صناعية أو تجارية ، وعم الرخاء السكان وارتفع الدخل المالى للبلاد نتيجة لتلك المساحات الكبيرة التى كانت تجبى منها الأموال للحكومة المركزية فى العاصمة مراكش ومن ثم رخصت الأسعار ، وقد عبر ابن أبى زرع عن الرخاء الذى كانت تتمتع به البلاد فى عهد المرابطين بقوله « وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، تناهى القمح فى أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال ، والثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال والقطانى لا تباع ولا تشترى ، كان ذلك مصطحباً بطول أيامهم . . . وكثرت الخيرات فى دولتهم وعمرت البلاد ووقعت الغبطة ولم يكن فى أيامهم نفاق ولا قطاع ولا من يقوم عليهم »[1] فهذا الأمن والاستقرار الذى عاشته البلاد فى ظل المرابطين أسهم فى دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد اذ جعل السكان ينصرفون إلى العمل والإنتاج .

وكنموذج لازدهار مدن المغرب الأقصى ، أشار ابن غازى إلى أوضاع مدينة مكناسة فى عهد المرابطين حيث قال « وكانت هذه المواضع كلها فى غاية من الخصب — أى أحياء مدينة مكناسة — وكثرة المياه والأشجار وكان أهلها آمنين مطمئنين فى عيش رغد ونعمة منذ ملك أمراء المسلمين بنو تاشفين بلاد المغرب ، وأخمد الله تعالى بسيوفهم نار الفتنة البربرية فانقطعت مطامع رءوس النفاق من بربر المغرب[2] » ونتج عن هذا الأمن والاستقرار كثرة الأموال وتوفر المحصولات وصارت رخيصة الثمن بأسعار زهيدة [3]

وامتد هذا الرخاء إلى عصر الموحدين حيث شهدت البلاد ازدهاراً اقتصادياً ورخاء فى عهد خلفائها حتى حكم الناصر الموحدى سنة ٦١٠ هـ .

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٩٤ ت الفيلالى .
(٢) ابن غازى : الروض الهتون ص ٥ .
(٣) Soctt : History of Moorish Empire V 2 P 239-240

١٢١٣م وقد أشار المراكشي إلى مدى الرخاء والازدهار الذى كانت تنعم به البلاد فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بقوله « ولم تزل أيام أبى يعقوب هذا أعياداً وأعراساً ومواسم كثيرة خصب ، وانتشار أمن ، ودرور أرزاق ، واتساع معايش ، لم ير أهل المغرب أياماً قط مثلها ، واستمر هذا صدراً من إمارة أبى يوسف »[١] واستمرت فترة الرخاء والازدهار بالبلاد فى عهد المنصور الموحدى نتيجة للأمن والاستقرار الذى عاشته المنطقة فى عهده حتى أن الظعنية كانت تخرج من بلاد نول لمطة حتى تصل إلى برقة وحدها لا ترى من يعارضها ولا يمسها بسوء[٢] .

هذا الرخاء الذى شهدته المنطقة منذ قيام المرابطين وحتى حكم الناصر الموحدى كان ناتجاً عن إدارة مالية منظمة فضلا عن إزدهار زراعى وتقدم صناعى ونشاط تجارى .

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٥٦ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس ص ١٥٧ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٤ .

Budgett Meakins; The Moorish Empire, P ; 78

الفصل الأول

النظام المالى

ساهم النظام المالى فى استقرار الأوضاع الإقتصادية بالبلاد وكان النظام المالى وما تضمنه من إدارة مالية مع سياسة مالية خاصة بالمصادر التى تجبى منها الأموال ، وموازنة ذلك بالنفقات التى كانت تشمل أوجه الإنفاق المختلفة وإصدار عملات نقدية تنتظم بها المعاملات بين السكان ، كان لذلك كله أثر كبير فى دفع عجلة الإقتصاد بالبلاد ، إذ أن تنظيم علاقة السكان بولاة الأمر من الناحية المالية ومعرفة كل مواطن ما له وما عليه مما يبث الثقة والطمأنينة فى النفوس وبالتالى يدفعها للعمل والإنتاج فى ظل مبادئ وقوانين يخضع لها الجميع .

أولا : الادارة المالية

حرص ولاة الأمر منذ أن تأسست دولة المرابطين على تنظيم الشئون المالية وفى مقدمة ذلك إعداد الجهاز الذى يتولى النظر فى النواحى المالية .

(١) الدواوين المالية :

ومن الخطوات الأولى التى اتخذها يوسف بن تاشفين بنائه لقصبة صغيرة لخزن الأموال والسلاح[٢] ، حتى إذا استقرت الأوضاع واتسعت أعمال الدولة نرى يوسف بن تاشفين يدوّن الدواوين ، يقول ابن عذارى « فدوّن يوسف — أى يوسف بن تاشفين سنة ٤٦٤ هـ — الدواوين ورتّب الأجناد وطاعته البلاد »[١] ومن هذه الدواوين تلك المتعلقة بالشئون المالية وهى :

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ ت. د. احسان عباس .

« ديوان الغنائم ونفقات الجند ، وديوان الضرائب ، وديوان الجباية وديوان مراقبة الدخل والخرج »[١] .

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية ، وزادت الأقاليم التابعة للمغرب الأقصى مع اتساع فى النشاط العسكرى كانت هناك الإدارة المشرفة على النواحى المالية من جباية وإنفاق ، وظهر فى هذه الفترة ديوان لم يكن موجوداً من قبل وهو ديوان التمييز ، وكان يختص بالمتطوعين للحملات العسكرية حيث تكتب أسماؤهم فى سجلات حتى يتقرر لهم العطاء اللازم .

وكما كانت هناك دواوين للمال بالعاصمة ، كان هناك ديوان مالى بكل إقليم يختص بما ليته كديوان المال بمدينة سبتة حيث أشار أبو عبد الله محمد مؤلف الحلل السندسية إلى وصول المملوك ناصح صاحب ديوان المال بسبته بالهدايا العظيمة إلى الناصر الموحدى سنة ٦٠٢ هـ / ١٢٠٥ م[٢] .

ويبدو أن الموحدين قد أفردوا داراً أطلق عليها دار الإشراف : ويرجح أنها كانت خاصة بالإشراف على النواحى المالية إذ اشتق منها كلمة المشرف وهو من الموظفين المشتغلين بالشئون المالية فى دولة الموحدين ويدعم هذا الترجيح ما ذكره المؤرخون من أخبار عن دار الإشراف واتصالها بشئون المال ومن ذلك تلك الرواية التى وردت عن المتصوف أبى العباسى السبتى والمتوفى بمراكش سنة ٦٠١ هـ فحين نزل قحط بأهل مراكش ، توجه إلى دار الإشراف وكان النظر فيها لأبى يحيى أبى بكر بن يوسف الكومى وطلب منه معونة ورفض أبى يحيى ذلك فدعا عليه فعزل بعد ذلك[٣] وكان لدار الإشراف مسئول كأبى عمران موسى والذى ترجم له ابن سعيد بقوله : « أبو عمران موسى بن عيسى بن المناصف : ولى دار الاشراف بمراكش فى مدة الناصر »[٤] كذلك كانت هناك دار للإشراف بفاس ، فالناصر الموحدى

---

(١) الجرارى : تقدم العرب فى العلوم والصناعات ص ١٥٣ .

(٢) ابو عبد الله محمد : الحلل السندسية فى الاخبار التونسية ص ٢٥٨ .

(٣) عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٢٥٧ .

(٤) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ١٠٧ ت د. شوقى ضيف سنة ١٩٥٣ .

حين واجه إرتفاعاً فى الأسعار وقلة الأقوات فى أثناء توجهه إلى الأندلس سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م وتأكد أن ذلك نتيجة إهمال عماله ، أرسل الشيخ أبومحمد بن أبى على مثنى صاحب الأعمال المخزنية لمحاسبة عامل فاس عن ذلك الإهمال ، فتوجه الشيخ أبو محمد إلى هناك وفاجأ العامل بدار الإشراف وألقى القبض عليه(١) ومن هذه الاشارات المختلفة يرجّح أن دار الإشراف كانت خاصة بما يتعلق بالشئون المالية .

(٢) المشتغلون بالشئون المالية :

وكان المشتغلون بالشئون المالية فى الدولة المرابطية الكتّاب وهم يقومون بتدوين النواحى المالية المختلفة والعمال الذين يقومون بجبايتها ، وقد استخدم أمير المسلمين على بن يوسف الروم فى جباية الأموال يقول ابن الخطيب « وهو —أى على بن يوسف بن تاشفين — أول من استعمل الروم بالمغرب وأركبهم وقدّمهم على جباية المغارم »(٢) وقد ذكر النويرى وابن الأثير أن جباة الأموال فى عهد على بن يوسف كانوا من الفرنج والروم(٣) وربما كان هذا الاجراء راجعاً إلى أن والدة على بن يوسف كانت أم ولد رومية(٤) فتأثر بنشأته الأولى مع كثرة تردد أمير المسلمين على الأندلس فى حملاته العسكرية يضاف إلى ذلك ما أثبته هؤلاء الجباة من دقة فى جمع الأموال .

فاذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا اشتغال الوزراء والكتاب بالأعمال المالية فى عهد عبد المؤمن ويعاونهم الأمناء فى جمع الأموال ، فبعد أن فتح الخليفة عبد المؤمن مدينة مراكش أرسل أمناءه إلى المدينة لحصر أموالها يقول البيذق « وأرسل الأمناء — أى أمناء الموحدين بعد فتح مراكش — إلى المدينة مع الوزير وكان السبي يضمون للمخزن أنماه الله ما كان من الحلى والسلاح وما كان بالمدينة كلها رفع للمخزن وابتيع النساء ، ورجع كل شيء

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٣٣ ، ٢٣٤ تطوان .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦١ ، ٦٢ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٥ ، ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ٢٩٦ .

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٧٨ ت الفيلالى .

إلى المخزن »(١) كذلك حين استولى الخليفة عبد المؤمن على مدينة تونس سنة ٥٥٤هـ / ١١٤٨ م واستلم المدينة أرسل أمناءه لاقتسام أموال أهلها (٢).

ثم تطورت الوظائف المالية واتضحت صورتها ، وصار هناك وزير مسئول عن الشئون المالية فى الدولة يطلق عليه صاحب الأشغال وقد أشار ابن خلدون إلى مهمته « وأما فى دولة الموحدين فكان صاحبها — أى صاحب الأموال والخراج — إنما يكون من الموحدين يستقل بالنظر فى استخراج الأموال وجمعها وضبطها وتعقب نظر الولاة والعمال فيها ثم تنفيذها على قدرها وفى مواقيتها وكان يعرف بصاحب الأشغال(٣) » وكان صاحب الأشغال يتمتع بمكانة ممتازة نظراً للعمل الذى يقوم به ، وقد أشار المقرى إلى أهمية مكانته بالأندلس قائلا « وصاحب الأشغال الخراجية فى الأندلس أعظم من الوزير ، وأكثر أتباعاً وأصحاباً وأجدى منفعة فإليه تميل الأعناق ونحوه تمد الأكف »(٤) وكان يعاون صاحب الأشغال رؤساء الدواوين المالية بالدولة وهم :

١ — صاحب ديوان الأعمال المخزنية : الذى يراقب إيرادات الدولة ويشرف على الدخل والمنصرف ويراقب العمال والمشرفين ويحاسبهم(٥) وكان يعاون صاحب ديوان الاعمال المخزنية المشرفون وقد ذكر ابن الخطيب وجود مشرف بمدينة فاس فى عهد المرابطين وهو غير الوالى ، يقول ابن الخطيب « كان عبد المؤمن يريد أن يدخلها — أى مدينة فاس بعد أن حاصرها حصاراً شديداً — فوقف له أهل فاس على متهدم السور وقاتلوه من خارجها ، ولما طال عليهم الحصار وجه الجيانى مشرفها فى خفية لعبد المؤمن فأمنه وأدخله من باب الفتوح وذلك أن واليها من المرابطين طلبه فى مال وضيق عليه فلم

---

(١) البيذق : أخبار المهدى ص ١٠٥ ، ١٠٦ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٥ ، أبو عبد الله محمد : الحلل السندسية فى الأخبار التونسية ص ٢٥٠ .

(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٤٥ .

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ١ ص ٢٠٢ .

(٥) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٣ ، د. عبد الله على : الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد المؤمن بن على ص ٢٦٤ دار المعارف سنة ٧١ .

يكن فى وسعه من أن يعطيه فحين بدأ عمل الحيلة فى دخول عبد المؤمن وخرج صاحبها عنها »[١] ومن هذا النص يتضح أن المشرف غير الوالى ، وأن الوالى طلب مالا من المشرف فرفض ، ويبدو أن وظيفته كانت الإشراف على العوائد والمكوس[٢] وقد أشار التازى إلى وظيفته بقوله « المشرف بالأسبانية Almojarife كان هو الذى يتوصل بكل الواجبات والحقوق اللازمة عند الإيراد والإصدار للسلع فهو بمثابة المفتش العام للديوانة »[٣] وكانت المدن المغربية الأخرى بها مشرفون كتلمسان ومكناسة وتازا[٤] كما أن ابن عذارى أشار إلى وفاة ابن مثنا المشرف بافريقية سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م[٥].

وكان المشرف بدوره يعاونه مجموعة من العمال أولهم خازن المال ، والآخر خازن الطعام ، وقد أشار إلى ذلك ابن عذارى حين ذكر معاقبة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣م لمشرف فاس وهو عبد الرحمن بن يحيى ومعاونيه من العمال يقول ابن عذارى « ثم قبض — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — على سائر العمال وكان عددهم ثمانية عشر عاملا أولهم مشرف فاس المذكور ، وخازنه على المال الذهبى ، وخازنه أيضاً على الطعام الطرسوقى »[٦] وكان يعاون المشرف أيضاً المتقبل وهو الذى يتعامل مع التجار ويحدد مقدار الضرائب المفروضة على بضائعهم[٧] وقد أشار ابن عبدون إلى أن المتقبّل لابد أن يكون معه زمام ويكون لهذا الزمام نسخة عند القاضى وأخرى عند المشرف .[٨]

وهكذا كان صاحب ديوان الاعمال المخزنية يشرف على مجموعة من الموظفين فهو يرأس المشرفين وهؤلاء يعاونهم خازنو الأموال ، وخازنو الأطعمة والمتقبلون .

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠١ ، ١٠٢ .
(٢) J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 52
(٣) التازى : حاشية كتاب تاريخ المن بالامامة ص ١٨٧ .
(٤) J.F.P. Hopkins ; Medievaluslim,M P ; 52
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٥٤ تطوان .
(٦) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٦٠ تطوان .
(٧) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٣٠ .
(٨) نفس المرجع السابق ص ٣١ ، ٣٢ .

٢ ـ متولى المجابى :

وهو المسئول عن تحصيل الضرائب والجزيات على مختلف أنواعها وله عمال فى مختلف المدن(١) .

٣ ـ متولى المستخلص :

وهو المشرف على أموال الخليفة ، والمحافظة عليها وتحميل ما يتعلق بها من مختلف أبواب الدخل(٢) وقد عيّن الخليفة عبد المؤمن ، ابن ومانون فى سنة ٥٤٩ هـ على نصيبه من إحدى الحملات وكانت ثمانمائة ناقة(٣) كما أن أبا بكر بن ملول بن ابراهيم بن يحيى الصنهاجى كان أميناً على ضياع وأموال المنصور الموحدى(٤) كذلك كان الكاتب يوسف بن عمر – بعد انسلاخه من خدمة السادات بنى السيد أبى حفص بن عبد المؤمن – مستخلصاً بالشرف ومدينة لبلة فى سنة ٥٩٣ هـ / ١١٩٦م(٥) .

وهكذا صارت هناك ثلاث وظائف رئيسية خاصة بشئون المال فى الدولة الموحدية :

الوظيفة الأولى : وتتعلق بمراقبة الإيرادات والمصروفات .

والوظيفة الثانية : تتعلق بتحصيل الموارد المالية للدولة .

أما الثالثة : وتتعلق بالإشراف على أموال الخلفاء .

٣ ـ موعد جمع الأموال :

وبالنسبة لتاريخ جمع الأموال فإنه كان فى كل عام وذلك بالنسبة للزكاة والجزية المفروضة على أهل الذمة وذلك ما أشار إليه ابن خلكان وابن الاثير والنويرى بأن جباة الأموال فى الدولة المرابطية كانوا يصعدون إلى الجبل فى

---

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٣ ، د. عبد الله علام : الدولة الموحدية ص ٢٦٤ .

(٢) عنان: عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٦٢٤ ، د. عبد الله علام : الدولة الموحدية ص ٢٦٤ .

(٣) البيذق : أخبار المهدى ص ١١٨ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٤٠ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٧٤ . تطوان .

كل عام لجباية ما على الرعية من أموال(١) أما بالنسبة لغير ذلك من مصادر المال كالغنيمة والعشور فإنها كانت مرتبطة بظروفها ، أما الخراج الذى فرضه الخليفة عبد المؤمن بالنسبة للمغرب فإن أمواله كانت تجبى سنوياً .

٤ ـ المناطق المـالية :

لم تتسر المراجع التى اطلعت عليها إلى المناطق التى كانت تجبى منها الأموال المستحقة لخزينة الدولة فى الدولة المرابطية أما فى الدولة الموحدية فقد اختلفت من خليفة لآخر ففى عهد الخليفة عبد المؤمن كانت تجبى الأموال من الأقاليم الآتية بالمغرب الأقصى :

تلمسان ، فاس ، تادلا ، سبتة وطنجة ، مراكش والسوس(٢) أما فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فقد أشار المراكشى إلى هذه المناطق بقوله « وكان يرتفع إليه — أى إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — خراج إفريقية وحملته فى كل سنة وقر مائة وخمسين بغلا هذا من إفريقية وحدها ، خلا بجاية وأعمالها ، وتلمسان وأعمالها ، والمغرب وحدّ عمل المغرب عندهم الذين يطلقون عليه هذا الاسم من مدينة تدعى رباط تازا إلى مدينة تدعى مكناسة الزيتون . . ومدينة سلا وأعمالها ، وسبتة وأعمالها وأعمال سبتة هذه فى غاية السعة والضخامة . . مضافاً إلى مراكش وأعمالها ، وأعمال مراكش أيضاً فى نهاية السعة »(٣) وهى تختلف عن القائمة السابقة فى أن المراكشى ضم منطقة فاس وتادلا والسوس وجعلهم منطقة واحدة أطلق عليها لفظة المغرب ثم أفرد مدينة سلا ويبدو أن هذه المناطق الضريبية ظل معمولا بها فى الدولة المرينية والتى قامت على أنقاض دولة الموحدين فأبو الحسن فى كتابه الدوحة المشتبكة أشار إلى هذه المناطق الضريبية فى سنة ٧٣٦ هـ / ١٣٣٥م بقوله « إن الإقطار التى تجب فيها الأعشار من بلادنا خمسة : حضرة فاس وما والاها من البلاد من سلا إلى تاز قطر واحد ، وسبتة وما والاها من البلاد إلى الريف

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٤٢ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٦ .

(٢) J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 36

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

والهبط إلى قصر كتامة قطرثان ، ومراكش وما والاها من البلاد إلى السوس قطر ثالث ، ودرعة وسجلماسة وما والاهما من البلاد قطر رابع ، وتلمسان وما والاها وما وراءها من البلاد إلى الجزائر قطر خامس »(١) وهذه القائمة تزيد على القائمتين السابقتين ، إقليم درعة وسجلماسة .

مراقبة ولاة الأمر للادارة المالية :

وكان المشتغلون بمالية الدولة دائماً تحت المراقبة الشديدة ، فالمرابطون كانوا يراقبونهم مراقبة شديدة ويحاسبونهم حساباً عسيراً ، فإذا اعتزل العامل الخدمة حاسبوه فاذا وجدوا تقصيراً سجنوه وصادروا أمواله (٢) .

وسار الموحدون على نفس السياسة فى محاسبة المشتغلين بالنواحى المالية ، وقد وجد الخليفة عبد المؤمن بعض مظاهر الفساد المالى والمتفشى فى البلاد وذلك عن طريق بعض الجباة والعمال الذين يفرضون على الناس المغارم والمكوس ويدعون أنها للمخزن ، لذا أرسل رسالة فى سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨م إلى الأشياخ والطلبة بالأندلس ، يامرهم فيها بقمع هؤلاء العمال ومعاقبتهم أشد العقاب ومما جاء فى الرسالة « ولقد ذكر لنا فى أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسى وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكا ، وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلكاً ، وأكثرها فى نفس الديانة عبثاً وفتكاً ، فانا لله وإنا إليه راجعون ، هل قام هذا الأمر العالى إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ؟ وتمهيد سبيل الحق وطرقه وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه ؟ »(٣) ثم تعرض الخليفة بعد ذلك لهؤلاء الذين يفرضون ضرائب جائرة على التجار مدعين أنها تخص الدولة « وإن من ذلك الرأى الذميم والسعى المنقوم ماذكر لنا فى أمر المسافرين الذين يريدون الرجوع إلى أوطانهم وعمارتها والطوائف المارة على البلاد لمعنى تجارتها ، يتسبب إليهم قوم من هؤلاء الظلمة الدخلاء الذين يضعون الغش طى ما يوهمون به من النصيحة ويستبطنون المكر فى

---

(١) أبو الحسن : الدوحة المشتبكة ص ١١٩ ، ١٢٠ ت د. حسين مؤنس .

(٢) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤١١ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

تصرفاتهم القبيحة فيقولون للرجل منهم : عندك من حقوق الله كيت وكيت ، وإن للمخزن جميع ما به أتيت ويقرنون بهذا من الوعيد والإغلاظ الشديد ما يرضى له المذكور بالخروج عن جملة ماله ، ويعتقد السلامة من ذلك الظالم الغاصب أعظم مناله وإنها لداهية عاقرة قاصمة للظهر فاقرة »[١] . ولم يقتصر فساد هؤلاء العمال على فرض الإتاوات على التجار المسافرين بل كانت تمتد أيديهم إلى أموال الحكومة نفسها ظلماً وعدواناً « وتمتد أيديهم إلى المخازن هنالك فيعيثون فيها ويتحكمون . ويجرءون فى التعدى عليها ملء شأوهم وأنفسهم يظلمون ، فاتقوا الله تعالى فيها فانها أمواله المخزونة فى أرضه وبادروا إلى كف كل معتد وقبضه »[٢] ، وقدهدّد الخليفة هؤلاء المارقين أشدّ تهديد وحذّر الشيوخ والطلبة من التهاون فى محاسبتهم ومعاقبتهم [٣].

وتابع خلفاء الموحدين سياسة الخليفة عبد المؤمن فى محاسبة المشرفين على سوء تصرفهم فى النواحى المالية فنى سنة ٥٧٣ هـ عاقب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ابن فاخر مشرف سجلماسة وسجنه[٤] ، كذلك عاقب الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣ م مشرف تلمسان يقول ابن عذارى « وفيها — أى سنة ٥٧٩ هـ — كانت السطوة بأبى زكرياء بن حيون شيخ كومية وبابنه على الذى كان مشرف تلمسان وغيره وكان كل يوم يخرج مكبولا للحساب على عمله ثم أخرج ابن حيون المذكور منفياً إلى الحضرة إلى بطليوس وبقى على ابنه فى السجن إلى خروج أمير المؤمنين فى غزوته إلى شنترين »[٥] وفى نفس العام حاسب الخليفة كثيراً من عماله ومنهم بعض المشتغلين بالشئون المالية كعبد الرحمن بن يحيى مشرف فاس وأعوانه خازن المال وخازن الطعام، وكذلك ابن عاصم مشرف مكناسة وابن عمر المشرف برباط تازا[٦] كذلك عاقب المنصور الموحدى فى سنة ٥٨٤ هـ / ١١٨٨ م مشرف مرسية وطلب منه

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٥٧ ، ١٥٨ .
(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٣ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ١٦٤ .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٩ تطوان .
(٥) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٥٣ تطوان .
(٦) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٦٠ تطوان .

احضار المحابى وأزمتها المجتمع فيها بجملتها وضرب بالسوط حتى مات(١) وبذلك كان المشتغلون بالنواحى المالية تحت الرقابة المستمرة من ولاة الأمر ، فمن حاد منهم عن طريق الحق والعدل حوسب وعوقب أشدّ العقاب .

وهكذا انتظمت الإدارة المالية بالبلاد نتيجة اشتمالها على دواوين ومسئولين عن الشئون المالية وبجانب ذلك تحددت مواعيد وأماكن جمع المال فضلا عن مراقبة المشتغلين بشئون المال ومعاقبتهم عند استغلالهم لأموال الشعب .

(١) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٢٤ تطوان .

ثانيا — السياسة المالية ومصادر بيت المال

أ — السياسة المالية :

منذ أن قامت دولة المرابطين على أرض المغرب الأقصى ، وولاة الأمر يؤكدون المعنى الدينى الذى تأسست عليه الدولة ، وأن الهدف الأساسى من قيامها هو القضاء على الضلالات المنتشرة ، والجهل بأحكام الدين ، وقد وضح ذلك منذ اللحظات الأولى فى تأسيس الدعوة حيث قرر عبد الله بن ياسين المبدأ المالى الذى ترتكز عليه الدعوة فى جبايتها للأموال وهو ما قرره الشرع : أى كتاب الله وسنة رسوله وما ورد فيهما من أحكام بشأن الأموال ، ولذا حين افتتح مدينة سجلماسة ألغى كل الرسوم والضرائب والتى لم يرد بها نص من كتاب أو سنة يقول ابن أبى زرع « وأزال المكوس وأسقط المغارم ، وترك ما أوجب الكتاب والسنة تركه وقدم عليها عاملا من لمتونة وانصرف إلى الصحراء »[٢] ومن هنا حرص عبد الله بن ياسين على القضاء على تلك الضرائب الجائرة التى كان يفرضها أمراء زناته ، حتى إذا تولى أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين مقاليد الأمور ، حرص على اتباع أوامر عبد الله بن ياسين ومن هنا كانت مصادره المالية هى الزكاة والأعشار وجزية أهل الذمة وأخماس غنائم المشركين[٣] إلا أن هذه المصادر المالية لم تف بحاجة الأعمال العسكرية التى قام بها يوسف بن تاشفين وخاصة بعد أن صار إقليم الأندلس تابعاً للمغرب الأقصى واحتياجه المستمر للحملات العسكرية لتدافع عنه ضد أطماع الفرنج ومن هنا فرض بعض الإتاوات على أهل المغرب والاندلس[٤] وسوف أتناول أنواع هذه الضرائب حين التحدث عن الجزية والضرائب كمصدر مالى .

فلما تولى أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ، إستمر فى عمليات الجهاد بالأندلس ، ثم ظهرت فى عهده ثورة ابن تومرت ، والنشاط المسلح الذى قامت به الدولة ، بالإضافة إلى أعمال البناء والتعمير التى قام بها ، مما

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٢٠ ت الفيلالى .
(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٣٧ ت الفيلالى .
(٣) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الأول ص ٤٢٠ .

استلزم كثيراً من الأموال ، ومن هنا ظهرت بعض أنواع القبالات والضرائب على السلع لم تكن موجودة من قبل ، تلك المكوس والضرائب التى هاجمها فيما بعد الخليفة عبد المؤمن بعد سقوط دولة المرابطين فى إحدى رسائله سنة ٥٤٣ هـ / ١١٤٨ م مشيراً إلى ألوان الظلم التى كانت موجودة فى دولة المرابطين بقوله « ولقد ذكر لنا فى أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسى وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكاً »[١] ومن هنا فإن الرواية التى ذكرها ابن أبى زرع والتى يقول فيها « لم يجر فى عملهم طول أيامهم — أى أيام المرابطين — رسم مكس ولا معونة ولا خراج فى بادية ولا حاضرة .. ولم يكن فى عمل بلادهم خراج ولا معونة ولا تقسيط ولا وظيف من الوظائف المخزنية حاشا الزكاة والعشر »[٢] مشكوك فى صحتها حيث أن الظروف التى أحاطت بعلى بن يوسف ومن جاء بعده ألجأته إلى أنواع من الضرائب سوف أتناولها بالتفصيل فى مصدر الجزية والضرائب . .

حتى إذا اندلعت ثورة الموحدين بأرض المغرب الأقصى ، التزم الداعية ابن تومرت فى النواحى المالية ، أحكام الكتاب والسنة ، وكانت مصادره الزكاة وخمس الغنائم ، فلما تولى الخليفة عبد المؤمن وقضى على دولة المرابطين التزم بسياسة ابن تومرت فى الاكتفاء بالمصادر التى حددها الشرع ، حتى إذا كانت سنة ٥٥٥ هـ / ١١٦٠ م ، لجأ إلى فرض الخراج على أرض المغرب وبقية المناطق التابعة للدولة ، وهذا الخراج مصدر جديد للمال لم يكن مفروضاً من قبل فى دولة المرابطين .

ب — مصادر الدخل المــالى :

وبذا أصبحت مصادر المال للدولة : الخراج — الزكاة — الجزية والضرائب الغنيمة — المصادرات :

١ — الخــراج :

أشارت المراجع إلى ذلك الإجراء الذى اتخذه الخليفة عبد المؤمن بن على

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٥٦ ت ، د. محمود مكى .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٩٤ ت الفيلالى .

فى سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م وهو المسح الشامل لأراضى المغرب الأقصى وأراضى الشمال الإفريقى حتى برقة طولا وعرضاً بالفراسخ والأميال ، وأسقط ثلث المساحة فى مقابل الجبال والأنهار والطرقات وفرض الخراج على ما تبقى من الاراضى (١) وفى ذلك يقول ابن أبى زرع « وفى هذه السنة أمر عبد المؤمن بتكسير بلاد إفريقية والمغرب وكسّرها من بلاد إفريقية من برقة إلى بلاد نول من السوس الأقصى بالفراسخ والأميال طولا وعرضاً فأسقط من التكسير الثلث فى الجبال والشعراء والأنهار والسباخ والطرقات والحزون، وما بقى قسّط عليه الخراج ، وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع والورق فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب »(٢) .

وأصبح هذا الاجراء قاعدة سار عليها خلفاء الموحدين من بعد ومصدراً من المصادر الثابتة لجباية الأموال فابن خلكان يصف الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بقوله « وكان — أى يوسف بن عبد المؤمن — جمّاعاً منّاعاً ، ضابطاً لخراج مملكته عارفاً بسياسة رعيته »(٣) كذلك اقتفى المنصور الموحدى سياسة أبيه « وسلك فى جباية الأموال ما كان أبوه يأخذه ولم يتعده إلى غيره »(٤) وصارت مصادره المالية الخراج والزكاة والأعشار(٥) .

والخراج هو ما وضع على رقاب الأرض من حقوق تؤدى عليها(٦)

---

(١) ابن أبى دينار : كتاب المؤنس ص ١١٢ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٣٩ عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ١ ص ٧٨ ، ٧٩ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١١٨ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ ٢ ص ٣١٩ ، عبد الله كنون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٤٧ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٧٤ ، الزركلى : الاعلام جـ ٢ ص ٦٠٤ سنة ١٩٢٧ .

J.F,P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 34,
Budgett Meakins ; The Moorish Empire, p ; 27
Julien, Histoire du L'Afrique, P ; 111, 112,
Terrasse ; Histoire du Maroc, P ; 311, 312.

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٦١ ت الفيلالى .
(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٣٠ .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ١٦٥ .
(٥) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٦٧ طبع حجر .
(٦) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٦ .

والمقصود بالأرض هنا هى تلك الأرض التى استولى عليها المسلمون من المشركين عنوة أو صلحاً[١] وبهذا المعنى فإن أراضى المغرب الأقصى وغيرها من الأراضى التى فرض عليها الخليفة عبد المؤمن بن على الخراج لا يجوز أن يوضع عليها خراج إذ أنها أرض عشر أى أرض أسلم أهلها عليها[٢] ولكن يبدو أن الخليفة عبد المؤمن حين اتخذ هذا الاجراء كان له من المبررات ما دفعه إلى تنفيذ هذا العمل ومن هذه المبررات :

أولا : نظرة الموحدين إلى المرابطين على أنهم كفرة ومجسمين ومبدلين لأحكام الله ومن هنا ساوى الخليفة عبد المؤمن بين أرض المرابطين وأرض المشركين وفرض عليها الخراج مستنداً فى ذلك لرأى الامام مالك فى فرض الخراج على أرض المشركين والتى استولى عليها المسلمون [٣].

ثانياً : احتياج الخليفة عبد المؤمن بن على للأموال وذلك لمواصلة أعمال الجهاد وخاصة بعد أن أصبحت الدولة مترامية الأطراف تمتد من برقة شرقاً حتى المحيط الاطلسى يضاف إلى ذلك الأندلس ، وما تحتاجه هذه الأقاليم من حماية ورعاية ، وهذا يتطلب الجيوش المعدة والأساطيل المجهزة والقلاع والحصون مع ميل الخليفة عبد المؤمن للبناء والتعمير ، كل ذلك استلزم أموالا كثيرة لا تفى بها المصادر الشرعية الأخرى ومن هنا أباح لنفسه إتخاذ هذه الخطوة .

ثالثاً : ربما استند إلى فتوى بعض العلماء المحيطين به أن من حقه فرض الخراج على الأرض التى أسلم عليها أصحابها مستندين فى ذلك لرأى الامام أبى حنيفة الذى قرّر أن الامام مخيّر بين أن يجعلها خراجاً أوعشراً فان جعلها خراجاً لم يجز أن تنقل إلى العشر وإن جعلها عشراً جاز أن تنقل إلى الخراج.[٤]

والواقع أن الخليفة عبد المؤمن بن على لم يتخذ هذا الإجراء إلا بعد أن استقرت الأوضاع فى البلاد وصار له من القوة بحيث يفرض ما شاء من أنواع

---

(١) د. صبحى الصالح : النظم الاسلامية ص ٣٥٩ .
(٢) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ د. الريس : الخراج والنظم المالية ص ١٣٠ ط ٢ سنة ١٩٦٢ .
(٣) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ .
(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٧ .

الجبايات ولذا لم يتخذ هذه الخطوة إلا سنة ٥٥٥ ﻫ / ١١٦٠ م بعد سقوط دولة المرابطين بأربعة عشر عاماً ، وتمكن سلطانه فى البلاد وصار لاينازعه أحد ، مع جيوش جرارة تخضع لكلمته وتنفذ أوامره ، ومن ثم فرض الخراج وهو واثق بأنه لن ينازعه أحد فيما يتخذه من قرارات .

٢ — الزكاة :

اتخذ ولاة الأمر من المرابطين والموحدين الزكاة مصدراً من مصادر الدخل المالى للدولة فابن ياسين منذ اللحظة الأولى التى فرض فيها سلطانه على بعض المناطق الجنوبية بالمغرب ألغى الضرائب والمكوس السابقة وفرض الزكاة مستنداً فى ذلك إلى الشرع (١) واتبع سياسته من جاء بعده بالنسبة للزكاة .

فلما قامت دولة الموحدين كانت الزكاة أيضاً من المصادر المالية التى لجأ إليها ولاة الأمر وحرصوا عليها باعتبارها من الأمور الدينية الواجب تنفيذها ولما كانت دولتى المرابطين والموحدين قامتا على أســاس دعوة دينية ، فمن هنا احتلت الزكاة منزلة هامة فى فرضها وتطبيق أحكامها ، ولذا فإن الخليفة عبد المؤمن أكد هذا المعنى فى رسالته التى أرسلها إلى أهل بجاية فى ربيع الثانى سنة ٥٦٦ ﻫ وهى الرسالة المعروفة برسالة الفصول يقول فيها « وخذوا إيتاء الزكاة ، وبالكشف عن ما نعيها وتشخيص ممسكيها أو النزر اليسير منها . فالزكاة حق المال ، والجهاد واجب على من منع منها قدر العقال فمن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة فمن منع فريضة كمن منع الفرائض كلها ومن منع عقالاً فما فوقه كمن منع الشرع كله »(٢) وهكذا جعل عبد المؤمن مانع الزكاة كمن منع كل الفرائض وهو يستحق الحرب والنكال .

أما أصناف المال التى تؤخذ منها الزكاة فقد ذكرها القاضى عياض وهو من علماء مدينة سبتة وتوفى بها سنة ٥٤٤ ﻫ / ١١٤٩ م بقوله « وأما فيم تجب — أى الزكاة — فالأموال المزكاة ثمانية النقود من الذهب والفضة . والحلى المتخذ

---

(١) ابن ابى زرع : الانيس ج ٢ ص ٢١ ت الفيلالى ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٠ .

(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٣ .

منها للتجارة ، وفى معناه النقار والتبر والأنعام وهى الغنم والبقر والإبل ، والحبوب وهو كل مقتاة من الحبوب ، وفى معناها ما له زيت منها والثمار وهى ثلاثة : تمر وزبيب وزيتون ، والعرض المتخذة للتجارة والمعادن من الذهب والفضة والركاز[١] » وهذه الاصناف من المال لا بد أن يحول عليها الحول وذلك ما ذكره الامام مالك « أخبرنا مالك ، أخبرنا نافع عن ابن عمر ، قال لا تجب فى مال زكاة حتى يحول عليه الحول[٢] » . وأما مقادير الزكاة فقد حددها القاضى عياض : نصاب النقود والحلى والمعادن من الذهب والفضة عشرون ديناراً ذهباً أو مائتان درهم فضة خالصين ، ونصاب العروض قيمتها من ذلك ويخرج ربع العشر عن ذلك فما زاد فبحسابه ، إلا الندرة فى المعدن ففيها الخمس ، ونصاب الحبوب والثمار أن يرفع من كل نوع منها خمسة أوسق ، حاشى البر والشعير السلت فانه يجمع بعضه إلى بعض ، وكذلك القطانى ، تجمع كلها على الصحيح من القولين ويخرج منها العشر إن كان بعلا أو يسقى سيحاً ونصف العشر إن كان يسقى بالدلو والساقية . واما الركاز فيخرج الخمس من قليله وكثيره إن كان ذهباً وفضة واختلف فى غيرها وأما الأنعام فتختلف [٣] وقد ذكر أصنافها وزكاة كل صنف .

٣ — الجزية والضرائب :

والمصدر الثالث من مصادر المال كانت الجزية التى جباها ولاة الأمر بالمغرب الأقصى منذ تأسست دولة المرابطين ، وهى ضريبة موضوعة على رؤوس أهل الكتاب[٤] هؤلاء الذين يتمتعون بالأمن والحماية فى ظل الحكومة الإسلامية وهذه الجزية تؤخذ من الرجال الأحرار العقلاء ولا تجب على امرأة ولا صبى ولا مجنون ولا عبد لأنهم أتباع وذرارى[٥] وأما مقدارها فى رأى

---

(١) القاضى عياض : الاعلام بحدود قواعد الاسلام ص ٦٣ تـمحمد ابن تاويت الطنجى سنة ١٩٦٤ الرباط .

(٢) ابو عبد الله مالك بن انس : موطأ الامام مالك ص١١٥ القاهرة سنة ١٩٦٧ .

(٣) القاضى عياض : الاعلام بحدود قواعد الاسلام ص ٦٣ ، ٦٤ تـ . الطنجى .

(٤) الماوردى : الاحكام السلطانية ص ١٤٢ ، د. الريس : الخراج والنظم المالية ص ١٢٢ د. صبحى الصالح : النظم الاسلامية ص ٣٦٣ .

(٥) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٤٤ .

الامام مالك أنها موكولة لولاة الأمر واجتهادهم[١] وفى رأى آخر له ذكره الطرطوشى « وقال مالك يؤخذ من الموسر أربعون درهما ومن الفقير دينار وعشر دراهم »[٢] وكان للمرابطين ومن جاء بعدهم مواقف خاصة من أهل الكتاب ومن هذه المواقف تشددهم فى معاملة أهل الكتاب وقد ظهر ذلك حين فرض يوسف بن تاشفين على اليهود فريضة ثقيلة فى سنة ٤٦٤هـ/١٠٧١م[٣] وقد أشار إلى مقدارها ابن عذارى بقوله « وفيها — أى سنة ٤٦٤هـ — افترض على اليهود فريضة ثقيلة فى جميع طاعته اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار »[٦].

وأما بالنسبة للضرائب فإن المرابطين فى بدء عهدهم التزموا أحكام الشرع ولم يفرضوا الا ما جاء به الكتاب والسنة وألغوا ما عدا ذلك من الضرائب سواء بالمغرب أو الأندلس[٥] فلما اتسع النشاط الحربى للدولة وما يستلزمه من أموال ونفقات جدّدت بعض أنواع القبالة[٦] وقد أشار إلى هذه القبالة وتطبيقها على أسواق مراكش الادريسى بقوله « وكانت أكثر الصنع بمراكش متقبلة عليها مال لازم مثل سوق الدخان والصابون والصفر والمغازل ، وكانت القبالة على كل شىء دقّ أو جلّ كل شىء على قدره »[٧] وفرضت المكوس على أماكن العبور ، وقد اعترض ابن تومرت على من طالبه بالمكس حين

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٤٤ .

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١١٣ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٣ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢٣ تحد. احسان عباس.

(٥) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٠٤ ، ٤٠٨، ٤٠٩ .

J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 41

Lane Pool ; The Moors in Spain P ; 170.

(٦) « القبالة هى فى الأصل الضريبة التى تدفع لبيت المال ، وقد اطلق استعمال هذا اللفظ على الضرائب الزائدة على ما يقضى به الشرع، وكانت هذه الكلمة تستخدم فى المغرب والأندلس للدلالة على الضرائب التى كان يؤديها أهل الحرف أو بائعوا السلع الرئيسية د. محمود مكى : حاشية نظم المجان ص ١٥٦ » .

(٧) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٧٠ .

أراد عبور وادى أم ربيع ، يقول البيذق « ثم جد بنا — أى ابن تومرت وصحبه حين توجهوا إلى مراكش — حتى وصلنا وادى أم ربيع وما كنا نعرف أن الامام يتكلم باللسان الغربى فأردنا الجواز فمنعونا حتى نعطى المكس وهو المكرى وقالوا لنا تعطوا على كل رأس كذا وكذا فلما سمعهم المعصوم قال لهم « و مورن ملولنين أن سوس آواون فالك » وصاح عليهم ثم جزنا وكان فى بعض ما قال لهم إنما السبيل للمسلمين وأنتم تعطونها وهذا غير جائز فى الشرع »(١).

وفى بعض الاحيان كانت الدولة تواجه بعض المواقف العسكرية التى تستلزم فائضاً من المال ، ومن ثم تلجأ إلى فرضها على الرعية فقد لجأ المرابطون إلى فرض ضريبة تسمى التعتيب أو التعطيب على أهل الأندلس يخصص دخلها لإقامة أسوار جديدة وترميم القديم منها(٢) كما فرض أمير المسلمين على بن يوسف سنة ٥٣٠ هـ / ١١٣٥م على أهل فاس أن يرمموا أسوار المدينة على نفقتهم وأن يدفعوا عشرين ألف دينار معونة للجيش(٣) أو تتحمل الرعية تجهيز فريق من أبنائها بسلاحهم ونفقاتهم ليشتركوا فى الجيوش المرابطية ضد أعدائهم فأمير المسلمين على بن يوسف حين علم بعزم ابن رذمير غزو بلاد المسلمين سنة ٥٢٣هـ / ١١٢٨ قسط على الرعية سوداناً يغزون فى العساكر يقول ابن القطان « فقسط — أى على بن يوسف — على الرعية سوداناً يغزون فى العساكر ، وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم بزرقهم وسلاحهم ونفقاتهم ، يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا»(٤).

حتى إذا قامت دولة الموحدين حرص الخليفة عبد المؤمن على إلغاء الرسوم والضرائب التى تخالف الشرع والتى فرضها المرابطون(٥) وصدرت الرسائل الرسمية تعبر عن رفض الخليفة لكل أنواع المكوس والقبالات التى

---

(١) البيذق : أخبار المهدى بن تومرت ص ٦٧ .

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٠٤ ، د. شميرة : المرابطون ص ١٥٢ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٢٦ ت د. مكى .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠٩ .

(٥) J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 43
S.P. Scrtt ' History of Moorish; Empire p ; 302.

فرضها المرابطون لمخالفتها للشرع ، ومن هذه الرسائل ، الرسالة الصادرة من تينملل فى السادس عشر من شهر ربيع الأول سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة وهى موجهة إلى جميع الطلبة بالأندلس ومن صحبهم من المشيخة والأعيان والكافة وقد جاء فيها « ولقد ذكر لنا فى أمر المغارم والمكوس والقبالات وتحجير المراسى وغيرها ما رأينا أنه أعظم الكبائر جرماً وإفكا وأدناها إلى من تولاها دماراً وهلكا . . . هل قام هذا الأمر العالى إلا لقطع أسباب الظلم وعلقه ؟ وتمهيد سبيل الحق وطرقه ؟ وإجراء العدل إلى غاية شأوه وطلقه »(١) وفى موضع آخر من الرسالة يذكر أن الباعث على كتابة هذه الرسالة هو ما لمسه الخليفة بنفسه من أنواع تلك الضرائب الجائرة « وكان مما تعيّن — وفقكم الله — على تنبيهكم وإذ كاركم وإيقاظكم للنظر فى تلك المصالح وإشعاركم ما ألفيناه بحضرة مراكش . حرسها الله — من بعض تلك الأنواع مما أحدثه فيها بعض أهل الابتداع كنوع القبالة وما يجرى مجراها فى وجوب الإزالة والإحالة »(٢) ثم يختم رسالته مطالباً إياهم بالاستمساك بكتاب الله وإزالة كل هذه الضرائب « فانظروا هذا — وفقكم الله تعالى — نظر أولى الألباب ولتسعوا جهدكم فى رفع ذلك المستراب ، ولتذهبوا إلى إظهار أمر الله سبحانه على موجب الكتاب »(٣) وفى رسالة أخرى أصدرها الخليفة عبد المؤمن فى الرابع والعشرين من جمادى الأولى سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢ م وموجهة إلى أهل قسنطينة يوضح فيها موقفه من الضرائب الجائرة يقول فيها « وقد كان بهذه الأصقاع من آثار أهل الاختلاف والابتداع ما علمتموه من القبالات والمكوس والمغارم وسائر تلك الأنواع وكان الأشقياء من ولاتها يرون ايجابها والزامها شرعاً يلتزمونه وواجباً يقدمونه ولا يلتفتون إلى ما أوجب الله من الزكوات والأعشار ، بل كانوا يطرحون ذلك إطراح أمثالهم من الفجار »(٤) ثم أخبرهم الخليفة بأنه لن يؤخذ منهم سوى ما قرره الشرع ، «وقد قطع الله بفضله أصولهم وفروعهم . . وأجرى الشرع بالإمام المهدى على بابه وأراح جميع

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٧ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٦٧ .

(٤) مجموع رسائل موحدية ص ٢١ ، ص ٢٢

أهل البلاد والمعمورة بالتوحيد من جميع ما كانوا يكلفونه من المغارم . ؟ فلا يطلبون إلا بما توجبه السنة وتطلبه ولا يلزمون—ومعاذالله مكسا ولا مغرما ولا قبالة ولا سيما مما تسميه الظلمة بأسمائها وتلقبه ، ولكم فى علم ذلك ومعرفته دليل على ما سواه والله يهدى بهداه من اختار وارتضاه »(١) وهكذا حدد الخليفة عبد المؤمن موقفه من هذه الضرائب بصورة واضحة . وقد اتبع هذه السياسة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين خفّض الضرائب(٢) وأسقط بعضها كإلغاء القبالة على أحد الجسور المقامة بمدينة أشبيلية سنة ٥٦٧هـ/١١٧١م والتى كان يستخدمها السكان فى العبور (٣) .

٤ ـ الغنيمـة :

شكلت الغنيمة مصدراً هاماً من مصادر الدخل للدولة نظراً للمعارك المستمرة التى خاضها ولاة الأمر فى الدولة المرابطية والموحدية ضد الفرنج فى الأندلس ، بجانب المعارك التى خاضها الموحدون فى الشمال الافريقى حتى صار خاضعاً لسلطانهم وما حدث فى خلال ذلك من ثورات وخاصة ثورة بنى غانية فهذا النشاط العسكرى وما تخلله من انتصارات كثيرة نتج عنه مغانم وأموال استولى ولاة الأمر على نصيبهم الشرعى منها وضموه لخزانة الدولة . ومنذ اللحظات الأولى فى كفاح المرابطين فان عبد الله بن ياسين طبق أحكام القرآن والسنة بشأن المغانم ، فحين استولى المرابطون على سجلماسة ودرعة طبّق هذا المبدأ يقول ابن أبى زرع « فأخذ عبد الله بن ياسين أموالهم ودوابهم وأسلحتهم مع الإبل التى أخذها فى درعة فأخرج منه خمس جميعه ففرقه فى فقهاء سجلماسة ودرعة وصلحائهم وقسم الباقى على المرابطين »(٤) وأصبح هذا المبدأ مطبقاً فى حروب المرابطين(٥) ثم فتحت صفحة جديدة من المعارك فى الأندلس ،

---

(١) مجموع رسائل موحدية ص ٢١ ، ٢٢ .

(٢) S.P. Scott :History of Moorish Empire V.2, P ; 305

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٣٤ ، ص ٢٣٥ ، ٤٦٣

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب جـ ٢ ص ١٩ ، ت . الفلالى .

(٥) J.F,P. Hopkins : Medieval Muslim P ; 29

وأحرز المرابطون انتصارات عدة على الفرنج فى معارك متتابعة وعلى رأسها معركة الزلاقة ، وبعد ذلك وجه المرابطون نشاطهم العسكرى للقضاء على ملوك الطوائف ، وحصل المرابطون على أموال ومغانم كثيرة ، وقد أشار الأمير عبد الله فى مذكراته إلى أنواع المال التى استولى عليها يوسف بن تاشفين من مدينة غرناطة وذلك بعد استسلام أهلها[١] يقول الأمير عبد الله « واستقصى ما كان بالقصر ، فظهر على ما يحول الناظر ، ويروّع الخاطر من الأعلاق والذخيرة والحلى ، ونفيس الجوهر وأحجار الياقوت وقصب الزمرد وآنية الذهب والفضة وأطباق البلور المحكم والجرجانيات والعراقيات والثياب الرفيعة والأنماط والكلل والستائر وأوطئة الديباج مما كان فى ادخار باديس واكتسابه وأقبلت دواب الظهر من المنكب بأحمال السبيك والمسبوك »[٢].

حتى إذا قضى الموحدون على المرابطين وسقطت مراكش ، استولى الخليفة عبد المؤمن على أموالها وسكانها وجعلهم غنيمة للموحدين يقول ابن الخطيب « ولما تم لعبد المؤمن فتح مراكش ودخلها رجع منها إلى محلته وجعل الأمناء على أبوابها مدة من شهرين فاجتمع فيئها وأموالها فقسمه على الموحدين وقسم عليهم ديارهم وبيع عيال مراكش وأولادهم بيع العبيد . . واستولى عبد المؤمن على ذخائر على بن يوسف وذخائر لمتونة مما يقصر على وصفه اللسان »[٣] ثم واصل الخليفة عبد المؤمن أعماله العسكرية فى الشمال الافريقى واستولى على مدنه حتى برقة ، وجمع أموالا ضخمة من المغانم التى حصل عليها من هذه الاعمال العسكرية ومن ذلك ما حصل عليه من أموال ضخمة عند فتحه لمدينة تونس يقول الباجى « وأغرم أهل تونس أموالا جمة وضايقهم فى اقتضائها »[٤] ودخل الموحدون فى معارك كثيرة مع الفرنج فى الأندلس حصلوا منها على أموال كثيرة ، وخرجت الرسائل تبشر بمقدار الغنائم التى

---

(١) Lane Pool : The Moors in Spaine P ; 181

(٢) الأمير عبد الله : مذكرات الأمير عبد الله ص ٢٠٩ ، ٢١٠ تت ليفى بروفنسال .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٨ .

(٤) الباجى : الخلاصة النقية ص ٥٥ .

حصل عليها الموحدون ومنها تلك الرسالة الصادرة من عمر وعثمان ابنى الخليفة عبد المؤمن إلى الطلبة والأشياخ بأشبيلية يخبرونهم فيها بما أحرزوه من نصر ومقدار الغنائم التى حصلوا عليها من الفرنج فى معاركهم بالاندلس سنة ٥٦٠ﻫ / ١١٦٤ م « وفى خلال مقام تلك الأيام ، بعثت خيل مباركة من الموحدين والعرب لشن الغارة فى الميمنة والميسرة من تلك الأقطار والجهات فاستاقوا من الغنائم من جهة غلّيرة وقرباقة وبسطة وجبال شقورة عدداً جما وسوائم كثيرة من الدواب والبقر وعشرات الآلاف من الغنم فملأت الوادى واشتملت على كريمّها الأيادى ، وتقلب الموحدون فى نعم لا تحصى عدة تتناسق منها نعم فنعم والشكر لله على ما أولاه »[1] وأيضاً حصل الموحدون على كثير من الغنائم والأموال وذلك بعد أن قضى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على ثورة ابن منغفاد بجبل غمارة سنة ٥٦٢ ﻫ / ١١٦٦م وقد عبّر عن هذه الأموال تلك الرسالة الصادرة من معسكر الموحدين بجبل غمارة باسم الخليفة إلى الموحدين والشيوخ بمدينة غرناطة بالأندلس سنة ٥٦٢ ﻫ / ١١٦٦ م وقد جاء فيها « والذى نفل الله الموحدين أعزهم الله من ضروب المغانم والأنفال ، وذلك من البقراثنا عشر ألفاً ، ومن الغنم سبعة وعشرون ألفاً وثلاث مائة ، ومن السبي ثلاثة آلاف وست مائة وسبعة وأربعون ومن الدواب سمّائة وسبعة عشر وهى الآن متصلة متتابعة[2] » .

وكانت المعارك الكبرى كالزلاقة والأرك مصدراً ضخماً للمغانم فنى الأرك حصل الموحدون على كثير من هذه المغانم يقول المقرى « وحكى أن الذى حصل لبيت المال من دروع الإفرنج ستون ألفاً ، وأما الدواب على اختلاف أنواعها فلم يحصر لها عدد »[3] وفى رواية أخرى أن الموحدين غنموا من معركة الأرك : ١٣ ألف أسير ومن الخيام ١٤٣ ألف ومن الخيل ٤٦ ألف ومن السلاح ٧٠ ألفاً[4] ولا شك أن نصيب خزانة الدولة من هذه

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٧٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٢١ .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ١١٦ .

(٤) محمد الرشيد ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٥٢ .

المغانم كثير .

وهكذا كانت المغانم والأموال التى يحصل عليها الموحدون من هذه المعارك تشكل مصدراً هاماً من مصادر الدخل نظراً لكثرة المعارك التى خاضها المرابطون والموحدون .

٥ ــ المصــادرات :

كان حزم ولاة الأمر بالمغرب الأقصى ومراقبتهم المستمرة لعمالهم ، ومحاسبتهم على ما يجنون من أموال عن طريق غير مشروع سبباً فى الحصول على الكثير من الأموال وإضافتها إلى خزينة الدولة فيما يسمى بالمصادرات ، ولم تشر المراجع التى اطلعت عليها إلى وجود هذه الظاهرة بالدولة المرابطية ، حتى إذا قامت دولة الموحدين تتبع خلفاؤها ولاتهم وعمالهم بالمراقبة والمحاسبة فحين أساء مشرف أشبيلية التصرف سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م أمر الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن بمعاقبته ومصادرة أمواله يقول ابن عذارى « وفى سنة إحدى وسبعين وخمسمائة أمر الخليفة أبو يعقوب بنكبة محمد بن عيسى مشرف أشبيلية فى جمادى الآخرة وتولى تثقيف حاله وماله للمخزن يلول بن جلداسن واستصفى ما كان عنده من المال والعقار بأنواع العذاب وأسوأ العقاب حتى ضرب نفسه بسكين كان فى يده فلم يمت من ذلك ثم عذب وضرب حتى مات»[1] كذلك قام الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م بمحاسبة وزرائه وعمالهومنهم وزيره ادريس بن جامع الذى استصفى أمواله[2] ومشرف أشبيلية الذى أمر بسجنه والإستيلاء على أمواله[3] وفى نفس العام سنة ٥٧٩ هـ / ١١٨٣محاسب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عمال فاس ومكناسة وغيرهم سواء كانوا ولاة أو مشرفين على الأموال وبعد محاسبتهم ومصادرة أموالهم فرض المحققون عليهم أموالا يدفعونها لخزينة الدولة يقول ابن عذارى « فأستأصل أموالهم ورد للمخزن ضياعهم ورباعهم وتركلكل رجل منهم داراً واحدة وكان الذى قاطعوه على أنفسهم أن يعطوه ويدفعوه أربعمائة ألف

---

(١)ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٣ تطوان .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٩ تطوان .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٢٤ حاشية .

دينار وستين ألفاً يقسطونها على أنفسهم وشهد العدول بذلك عليهم فعمل عليهم الرقباء حتى دفعوا المال المذكور »[1].

فلما تولى المنصور الموحدى سار على نفس سياسة أبيه من مصادرة الأموال ففى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩ م أمر بالقبض على ابن سنان حين بلغ الخليفة أنه فر فى احدى المعارك « فأمر المنصور إذ ذاك باستصفاء أحواله وضم أمواله »[2]، كذلك حين استقر الخليفة المنصور بإشبيلية سنة ٥٩٣ هـ - ١١٩٦م وحاسب عماله هناك ومن هؤلاء أبى سليمان داود بن أبى داود الذى غرم مقداراً من المال بلغ خمسين ألفاً واستصفيت أحواله وأمواله[3] كذلك حاسب الخليفة أبا على عمر بن أيوب « على ما كان تحت نظره وفى اختزانه من أموال النفقات والموقف عنده من سائر المرتبات عليه مال جسيم واستفهم عنه فلم يوجد له جواب فضم ديونه وجميع أطرافه وجمع نحو الخمسة عشر ألف دينار فقبضت منه وطلب باستيفاء الباقى فعجز عنه فاعتقل مع أبى سليمان »[4].

وقد يحدث أن تصادر الخلافة أموال أحد العمال ثم تكتشف ظلم هذا الاجراء فترد له أمواله وهذا ما حدث لمحمد بن عبد الملك بن سعيد بن خلف من أهل قلعة يحصب بالاندلس وقد تولى عدة أعمال للموحدين ثم غضب الخليفة المنصور الموحدى عليه ولما صفح عنه رد عليه كل ما أخذ منه يقول عباس المراكشى « فأمر المنصور بالقبض عليه وعلى ابن عمه صاحب أعمال إفريقية أبى الحسن سنة ٥٩٣ هـ ثم رضى عنهما وأمر محمد بن عبد الملك أن يكتب بخطه كل ما أخذ منه فصرفه عليه ولم ينقص منه شيئاً »[5].

وهكذا تكونت مصادر الدخل المالى من خمسة مصادر : الخراج والزكاة والضرائب والغنيمة والمصادرات .

وفرة الدخل المـالى :

ساهمت المصادر المالية المتنوعة والتى كان يحصل منها ولاة الأمر من

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٥٩ ، ٦٠ تطوان .
(٢) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٣٩ تطوان .
(٣) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٧٣ تطوان .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٧٣ ، ص ١٧٤ تطوان
(٥) عباس المراكشى : الاعلام جـ ٣ ص ٤٠ ، ٤١ .

المرابطين والموحدين على الأموال اللازمة والتي مكنتهم من تحقيق ما كانوا يرجونه من تجهيز حملات وإقامة منشآت والإنفاق على أوجه الإصلاح والتعمير في أرجاء الدولة المترامية الأطراف ، وكان الدخل المالي في دولة المرابطين من الكثرة بحيث وفى ما احتاجه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين من أموال لإنفاقه على حملاته العسكرية المتعددة وغير ذلك من شئون الإصلاح في البلاد يضاف إلى ذلك أنه ترك في خزينة الدولة بعد وفاته مقداراً كبيراً من المال[1] وقدرت هذه الثروة بسبعة ملايين ونصف مليون من الفضة وزناً ، ومائة وخمسة وعشرين ألفاً من الذهب وزناً[2] وفي رواية ابن أبي زرع « يقال أنهم وجدوا في بيت المال بعد وفاته أي وفاة يوسف بن تاشفين — ثلاثة عشر ألف ربع من الورق وخمسة آلاف وأربعين ربعاً من دنانير الذهب المطبوعة »[3]

فلما قامت دولة الموحدين وامتد نشاط الموحدين العسكري حتى برقة شرقاً وصارت المنطقة تخضع كلها للسلطة المركزية في مراكش وتجبى إليها الأموال في كل عام ، ازداد الدخل المالي ، وجمعت الأموال الكثيرة[4] وقد أشار إلى كثرة الجبايات ابن خلدون بقوله « وقطر المغرب وإن كان في القديم دون إفريقية فلم يكن بالقليل في ذلك العصر وكانت أحواله في دولة الموحدين متسعة وجباياته موفورة[5] » وهذا يفسر لنا كثرة البناء والتعمير والرخاء الذي شهدته البلاد في عهد الموحدين ، وتوفر الأموال في أيدي الناس يقول المراكشي « وكان — أي يوسف بن عبد المؤمن - شديد الملوكية ، بعيد الهمة ، سخياً جواداً استغنى الناس في أيامه وكثرت في أيديهم الأموال »[6] وقد

---

(١) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ٨٩ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٦٠ ، ابن القاضي : جذوة الاقتباس ص ٣٤٨ ، الميلي : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢١٢ .

S,P. Scott ; History of Moorish Empire, V. 2, P 239 (٢)

(٣) ابن ابي زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣٧ ت الفيلالى .

(٤) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٧٣ ت الفيلالى ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٣٥ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ١٠١ .

Budgett Meakins ; The Moorish Empire, P : 76

(٥) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٣٦٧ .

(٦) المراكشي : المعجب ص ٢٣٨ .

أعطانا المراكشي مقدار ما كان يجبي من إفريقية فى عهد يوسف بن عبدالمؤمن للتدليل على كثرة الأموال بقوله « وكان الذى يسهل عليه — أى على أبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن — بذل ما جبل عليه من ذلك سعة الخراج وكثرة الوجوه التى يتحصّل منها الأموال ، كان يرتفع إليه خراج إفريقية وحملته فى كل سنة وقر مائة وخمسين بغلا ، هذا من إفريقية وحدها ، خلا بجاية وأعمالها ، وتلمسان وأعمالها والمغرب ومدينة سلا وأعمالها وسبته وأعمالها.. وجزيرة الأندلس قاطبة . . مضافاً إلى مراكش وأعمالها . . »[1] واستطاع ولاة الأمر عن طريق هذه الأموال الكثيرة مواجهة أوجه النفقات المختلفة والتى تطلبتها تلك المملكة المترامية الأطراف .

ثالثا — النفقات وتنوعها :

تعددت أوجه الإنفاق بالمغرب الأقصى فى ظل المرابطين والموحدين ويمكننا أن نجملها تحت بنود أساسية : نفقات الجيش — المرتبات — نفقات البناء والتعمير — المنح والهدايا .

١ — نفقـات الجيش :

يحتل الانفاق على الجنود ومعداتهم سواء كانوا فى البر أو البحر النصيب الأوفى من الدخل المالى ، باعتبار أن الجهاد احتل ركناً هامامن نشاط ولاة المرابطين وخلفاء الموحدين نظراً للظروف التى أحاطت بهم من مواجهة لعدو متربص بالأندلس يحاول الاستيلاء عليها ، ومن هنا تعددت الحملات العسكرية براً وبحراً المتجهة إلى الأندلس ، وغير ذلك من الحملات التى اتجهت إلى شرق البلاد ، ومنذ اللحظات الأولى اهتم يوسف بن تاشفين بتكوين جيش كبير مزوّد بكل أنواع السلاح وذلك حتى يدعم مركزه فى الحكم ، وفى نفس الوقت فى مواصلة عملية الجهاد المستمرة فى الأندلس ، ومن هنا اشترى الأنواع المختلفة من السلاح ليدعم بها قواته ففى سنة ٤٧٤ هـ / ١٠٨١ م بعث إلى الأندلس بأموال كثيرة ليشترى ما يلزمه من أنواع السلاح المختلفة[2] وقد

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٢٢ .

تضاربت الأقوال فى تعداد جند يوسف بن تاشفين ، فبعض الروايات تذهب إلى أن تعداد جيشه كان يبلغ مائة ألف مقاتل[١] وبعضها يشير إلى أن عدد جنده كان حوالى أربعين ألف مقاتل[٢] ولا شك أن تعداد الجند يختلف من معركة إلى أخرى بحسب أهمية المعركة وخطورتها ، ففى معركة الزلاقة كان عدد المتطوعة والمرتزقة فى جيش المرابطين عشرين ألفاً[٣] وفى رواية أخرى أنه بلغ تعداد الجيش الإسلامى ما بين ١٣٠ ألفاً إلى ١٥٠ ألفاً[٤] وهو رقم مبالغ فيه ، ولو أخذنا برواية المراكشى والتى تشير إلى أن عدد المتطوعة كان عشرين ألفاً وأضفنا إلى هذا العدد ما يقاربه من قبائل المرابطين لصار العدد أربعين ألف مقاتل فاذا كان مرتب الجندى كما يقول ابن الخطيب خمسة دنانير فى الشهر[٥] لصارت مرتبات الجند مائتى ألف دينار ولا شك أن هذا مبلغ كبير سوى ما تتكلفه الخزانة من عتاد وسلاح ومؤن تزوّد بها جنودها .

فلما تولى على بن يوسف تابع سياسة أبيه من مواصلة الجهاد فى الأندلس وتجهيز الكتائب لمواجهة ثورة ابن تومرت التى اندلعت فى البلاد يقول ابن الخطيب « ولم يزل أمير المسلمين على بن يوسف يوالى الحروب على أصحاب المهدى من كل جانب ويبعث لمحاربتهم الجيوش والكتائب . . وينفق عليهم بيوت الأموال رجاء دفع دائهم العضال فدامت أكثر مدته فى حروب معهم وكروب »[٦].

واحتل الانفاق على الأسطول المرابطى جزءاً من النفقات الحربية حتى يتمكن المرابطون من تأمين سواحل المغرب الأقصى والأندلس ضد هجمات الفرنجة والقراصنة ، وفى نفس الوقت إقامة جسر بين المغرب الأقصى والأندلس لنقل الجنود والمعدات إلى الأندلس ومن هنا صار للأسطول المرابطى شأن كبير مما استلزم معه كثير من النفقات فى تشييد السفن وتجهيزها وقد

---

(١) اشباخ : تاريخ الاندلس جـ ١ ص ٧١ .
S,P. Scott ; History of Moorish Empire, V.2 P ; 196.
(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٣ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ١٣٣ .
(٤) اشباخ : تاريخ الأندلس جـ ١ ص ٨٥ .
(٥) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٩ .
(٦) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨١ ، ٨٢ .

أشار ابن خلدون إلى أهمية أسطول المرابطين بقوله « وكان الجانب الغربي من هذا البحر لهذا العهد — أى عهد المرابطين — موفور الأساطيل ثابت القوة لم يتحيفه عدو ولا كانت لهم به كرة »[١] .

حتى إذا قامت الدولة الموحدية وجدنا الجيش يحظى بإهتمام خلفاء الموحدين من حيث العدد والعدة واستلزم ذلك الكثير من الأموال التى تنفق عليه وذلك ليتناسب مع النشاط العسكرى الكبير الذى قام به الخليفة عبد المؤمن ومن جاء بعده من أبنائه فى ميدان الاندلس وشرق البلاد ، واختلفت أعداد الجند من معركة إلى أخرى فحين عزم الخليفة عبد المؤمن على غزو افريقية اجتمع له من الجند مائة ألف مقاتل ومن الأتباع والسوقة أمثالهم[٢] ونفس هذا العدد اجتمع له حين عزم على الخروج إلى الأندلس سنة ٥٥٧ﻫ / ١١٦٢م[٣] وفى رواية أخرى أنه اجتمع له حين عزم على الخروج إلى الأندلس من الموحدين وقبائل زناته أزيد من ثلثمائة ألف فارس ومن جيوش المطوعة ألف فارس ومائة ألف راجل[٤] ويشير الميلى إلى أن عدد جند الموحدين أثناء الحرب يبلغ أربعمائة ألف فارس عدا المشاة وأن جيش الناصر الذى خرج إلى الأندلس سنة ٦٠٨ ﻫ بلغ المليون جندى[٥] وبالرغم أن هذه الأرقام يبدو عليها طابع المبالغة إلا أنها تعطينا احساساً بمدى ضخامة جيش الموحدين .

كذلك كان عدد جند الموحدين والذين يرتزقون من وراء انتسابهم للجندية بمدينة مراكش وحدها عشرة آلاف جندى تبعاً للإشارة التى ذكرها المراكشى حين قال « ثم من ذكرنا من الموحدين صنفان : فالصنف الأول يدعون الجموع وهم المرتزقة الذين يكونون بمراكش لا يبرحونها والصنف الآخر يدعون العموم وهم الكائنون ببلادهم لا يحضرون إلى مراكش إلا فى النفير الأعظم ، وعدد المرتزقة الذين بمراكش من قبائل الموحدين وسائر من ذكرنا من الأجناد على ما صح عندى تلخيصه عشرة آلاف نفس هؤلاء

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٥ .
(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٣٦ .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢١٨ .
(٤) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٢ .
(٥) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٢٦ .

الذين بمراكش خارجاً عما فى سائر البلاد ومن الموحدين وأصناف الجند»[١] فإذا كان عدد جند العاصمة من المرتزقة والذين لا يبرحونها فضلا عن المدن الاخرى لتبين لنا مدى ضخامة جند الموحدين ، هذه الأعداد الكبيرة كانت لها مرتبات مع ما تأخذه من منح وأموال أثناء القيام بحملة من الحملات ، يضاف إلى ذلك ما يوزع عليها أثناء الاحتفالات العامة ، أما بالنسبة لمرتباتهم فإنها كانت ثلاث مرات سنوياً وذلك بالنسبة لجند الموحدين أما بالنسبة لغيرهم من جنود الغز فإن مرتباتهم كانت شهرية وقد علل المنصور الموحدى ذلك بأن الموحدين لهم الإقطاعات التى تدرّ عليهم الأموال يقول المراكشى «فأحسن نزلهم — أى أحسن المنصور الموحدى نزل المماليك الغز — وبالغ فى تكرمتهم وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين ، وذلك أن الموحدين يأخذون الجامكية ثلاث مرات فى كل سنة ، فى كل أربعة أشهر مرة ، وجامكية الغز مستمرة فى كل شهر لا تختل وقال : الفرق بين هؤلاء وبين الموحدين أن هؤلاء غرباء لا شيء لهم فى البلاد يرجعون إليه سوى هذه الجامكية والموحدون لهم الإقطاع والأموال المتأصلة»[٢] وفى رواية العمرى أن مرتبات الموحدين فى الدولة الحفصية وهى امتداد للدولة الموحدية فى افريقية كانت أربع مرات فى السنة «وهذه البركات تفرّق أربع مرات فى كل سنة ، فى عيد الفطر تفرقة ، وفى رجب تفرقة وفى ربيع الأول تفرقة وفى عيد الأضحى تفرقة »[٣] هذا بالنسبة للمرتبات الثابتة الدورية لجند الموحدين ، وإن كانت المراجع لم تعطنا مقدار مرتب كل جندى ، إلا ان المنح التى كانوا يأخذونها عند الخروج إلى المعارك تعطينا صورة تقريبية لمرتب كل جندى ، وقد اعتاد الموحدون عند الخروج إلى معاركهم تمييز الجند أى استعراضهم وتفريق الاموال عليهم فالخليفة عبد المؤمن حين عزم على التوجه إلى بجاية ميز جيوشه وفرّق فيهم الأموال[٤] وكذلك المنصور الموحدى حين وصل من مراكش إلى الأندلس واستقر

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٣٤١ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٨٩ .

(٣) العمرى : وصف افريقية والمغرب ص ١٨ ت: حسن حسنى عبد الوهاب . تونس .

(٤) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٤٨ ت الفيلالى ، السلاوى: الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٠ .

بأشبيلية مُيّز الجند وأعطى البركات(١) وقد أعطانا ابن صاحب الصلاة تصويراً دقيقاً لعملية التمييز التي قام بها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عند الإستعداد للعبور إلى الأندلس سنة ٥٦٦ / ١١٧٠ م وقد بدأ التمييز بحشد الأعداد الوفيرة من جند الموحدين وغيرهم وبدأ بتزويدهم بالملابس والسلاح يقول ابن صاحب الصلاة « ولما كان غرة جمادى الأخيرة من السنة المؤرخة — سنة ٥٦٦هـ — أمر سيدنا الخليفة بتمييز للموحدين على عدد قبائلهم ومنتهى مناولهم ، وتربية صفاتهم فامتثل ذلك وتمادى بتمييزهم مدى خمسة عشر يوماً ، وقسم عليهم الخيل المسومة والجياد الروقة على أعدادها المذكورة ، وكذلك على العرب الوافدين وأعطى للجميع الرماح والدروع البيض والسيوف وأنعم على الجميع بما استعد به لهذه الغزوة الحافلة من الآلات المذكورة »(٢) حتى إذا فرغ المكلفون بتوزيع السلاح من مهمتهم ، جلس الخليفة ليعاين بنفسه توزيع الأموال والمنح على الجنود ورؤسائهم « وجلس أمير المؤمنين — أى يوسف ابن عبد المؤمن — فى مجلسه العالى وأشياخ الموحدين معه وأشياخ طلبة الحضر وأشياخ العرب وأمر وزيره أبا العلا ادريس المذكور أن يأمر الخزانين باحضار الأموال بين يديه من الدنانير والدراهم فأحضرت أمامه وعلت آكداساً ، وجنسها من الذهب والفضة أجناساً ، وقدم الموحدين فى تنفيذ البركة لهم ، فخرج للفارس الكامل منهم عشرة دنانير ، ولغير الكامل ثمانية دنانير وللراجل خمسة دنانير ، ولغير الكامل ثلاثة دنانير ، وأمر للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً ، ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً والراجل سبعة دنانير وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً ، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائتا دينار ، وكسا جميعهم بالقباطى والقمص والغفاير والعمائم »(٣) ، ومن هذه الأعطيات للجنود ورءوسائهم يتضح ضخامة الأموال التى كان يحصل عليها الجنود كمنح أثناء الخروج للمعارك فضلا عن الملابس وأنواع السلاح المختلفة وقد أعطانا ابن عذارى مقدار المنح المالية فى أثناء غزو الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لقفصة سنة ٥٧٥ هـ / ١١٧٩م « كان — أى

---

(١) الحميرى : صفة جزيرة الاندلس ص ١٣ .
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٤٣٦ ، ٤٣٧ .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٧ .

يوسف بن عبد المؤمن يعطى البركة لعساكره فى غزوته لقفصة ألف دينار تمادى فى ذلك مدة غزوته إلى أن انصرف سوى العلوفات والمواسات والمرافق فى كل منزل » [١].

وفى الاحتفالات العامة والمناسبات الكبيرة التى يحتفل فيها الخلفاء بالعاصمة كان الجند يحظون بالمنح والأموال ومن ذلك الاستقبال الكبير الذى قام به الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦١ / ١١٦٥ م فى استقبال أخيه السيد أبى حفص القادم من الأندلس ، وبعد مراسم الاحتفال وإطعام الطعام وزعت الأموال على الموحدين يقول ابن صاحب الصلاة « وأنعم — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — على جميع الناس الغازين والقاطنين وعلى طلبة الحضر وأدرّت عليهم البركة الحافلة من الذهب والدراهم : لكل فارس عشرون ديناراً ، ولأعيان الموحدين وأشياخهم لكل واحد مائة دينار ولأشياخ العرب لكل واحد مائة دينار ولسائر عسكر العرب عشرون ديناراً لكل فارس فاجتمع لجميع الناس السرور والمال الحاضر الموفور »[٢] .

وبجانب هذه الأموال كانت هناك المواساة وهى غلة تفرق عليهم عند تحصيل الغلال التى فى المخازن[٣] وكان يخرجها خلفاء الموحدين وقد وصف ابن صاحب الصلاة وابن عذارى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بأنه كان صادقاً رأيه للموحدين بالمواساة فى كل شهر وبالبركات مدى الدهر[٤] وقد أشار العمرى إلى أن الموحدين فى الدولة الحفصية كانوا يأخذون المواساة فى كل سنة ومعها الإحسان وهو مبلغ يفرّق عليهم وكلاهما أى المواساة والاحسان من السنة إلى السنة[٥] فالمرتبات والتمييز عند المعارك والمنح مع المواساة والاحسان كلها نفقات كان يحصل عليها الجنود من بيت المال .

وبجانب هذا كان هناك الإنفاق على الأسطول وجنوده ، وقد اهتم

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٣١ ، ٣٢ تطوان .
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٩١ ، ٢٩٢ .
(٣) العمرى : وصف افريقية ص ١٩ ت حسن حسنى عبد الوهاب .
(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٣٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٠ تطوان .
(٥) العمرى : وصف افريقية ص ١٩ ت . حسن حسنى عبد الوهاب .

الموحدون اهتماماً كبيراً بإنشاء الأساطيل المختلفة لتواجه نشاط العدو البحرى ولتحمى تلك الامبراطورية الضخمة ومن هنا اهتم الخليفة عبد المؤمن بإنشاء أسطول ضخم بلغ أربعمائة قطعة[١] وفى رواية أخرى أنه بلغ سبعمائة قطعة[٢] ولا شك أن هذا العدد الكبير والمتنوع من السفن احتاج للقدر الكبير من المال حتى يمكن تجهيزه وإعداده ، وقد أشار ابن خلدون إلى ضخامة أسطول الموحدين بقوله « ولما استفحلت دولة الموحدين فى المائة السادسة وملكوا العدوتين أقاموا خطة هذا الاسطول على أتم ما عرف وأعظم ما عهد »[٣] وهذا العدد الكبير من السفن احتاج عدداً كبيراً من الجند المزودين بمختلف أنواع الاسلحة ، وكان هؤلاء الجند يحصلون على مرتباتهم وأرزاقهم ولا يحرمون المكافآت والمنح إذا أحرزوا نصراً على عدوهم فحين حقق الاسطول الموحدى انتصاراً على أسطول الفرنج فى المهدية فى عهد الخليفة عبد المؤمن وزع عليهم قدراً من المال[٤] يقول أبو عبد الله محمد « واستولى — أى أسطول الموحدين على ثمان قطع منه — أى من أسطول الفرنج — فاجتمع بقية الأسطول وولوا منهزمين ، فسجد عبد المؤمن شكراً لله تعالى وفرق فى غزاة الاسطول اثنى عشر ألف دينار مؤمنية »[٥].

وهكذا كانت نفقات الحرب والجند تشغل حيزاً كبيراً من الدخل المالى نظراً لكثرة الجنود والمعارك واهتمام ولاة الأمر بجنودهم .

٢ — المرتبـات :

شكلت المرتبات والأرزاق المصدر الثانى من أوجه الانفاق من بيت المال ؛

---

(١) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية ج ١ ص ٤٤٧ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٨ ، أحمد بن عبد السلام : الريف بعد الفتح الاسلامى ص ٥١ ، الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٦٦ .

Budgett ; The Moorish Empire P ; 74.

(٢) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٢ .

(٣) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٥ .

(٤) د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ٣٣٥ ، د. السيد عبد العزيز سالم ود. العبادى : البحرية الاسلامية فى المغرب والاندلس ص ٢٥٣ .

(٥) أبو عبد الله محمد : الحلل السندسية : ص ٢٥٢ .

وكان ولاة الأمر فى الدولة المرابطية يجرون المرتبات والأرزاق على الهيئة الادارية بالبلاد ومن هؤلاء القضاة الذين كانوا ينالون مرتبات معتادة وقد أشار النباهى فى ترجمته للقاضى أبى محمد عبد الله الوحيدى الذى ولى القضاء برية سنة ٥٣١هـ / ١١٣٦ م ثم استشعر من نفسه مللا فاعتزل الخدمة وامتنع عن أخذ الجراية المعتادة يقول النباهى « ثم استشعر من نفسه قصور ملالة وفتور شاغلة فآل إلى الزهادة وقبض يده عن أخذ الجراية المتعادة — وصفتها المعتادة — لأمثاله من القضاة »(١).

كذلك كان للفقهاء والعلماء منزلة كبيرة فى دولة المرابطين ، ومن هنا أجريت عليهم الأرزاق ، يقول ابن القاضى « ورد — أى يوسف بن تاشفين أحكام البلد إلى القضاء وأسقط ما دون الاحكام الشرعية وكان محباً فى الفقهاء والصلحاء ومقرباً لهم صادراً عن رأيهم وأجرى عليهم الارزاق من بيت المال »(٢).

حتى إذا قامت الدولة الموحدية لمسنا مدى تعدد أنواع المرتبات فالوزراء ورجال البلاط والحشم والقضاة والفقهاء والطلبة كانوا ينالون مرتباتهم من خزينة الدولة (٣)وقد أعطانا القلقشندى مقدار ما كان يأخذه أشياخ الموحدين من مرتبات فى ظل الدولة الحفصية « لهم — أى أشياخ الموحدين الكبار— مع ذلك راتب يفرّق عليهم فى طول السنة يسمونها البركات بمثابة الجوامك بمصر يفرّق أربع مرات فى السنة . . نصيب كل واحد منهم من ذلك أربعون ديناراً مسماة ، تكون بثلثمائة درهم عتيقة . . فيكون جملة ما لكل واحد منهم فى كل سنة مائة وعشرين ديناراً مسماة عنها ألف ومائتا درهم مغربية »(٤) وهنا خطأ فى الحساب لأن الفرد يحصل على أربعين ديناراً فى أربع مرات يصبح مجموعها مائة وستين ديناراً وليس مائة وعشرين ديناراً ، وهذا ما كان يحدث فى الدولة الحفصية ، وقد كانت ولاية موحدية قبل أن ينفصل بها أحد أشياخ

---

(١) النباهى : تاريخ قضاة الأندلس ص ١٠٤ ت ليفى بروفنسال .
(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٢ ، ٣٤٣ .
(٣) أشباخ :تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٢٤٩ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى : جـ ٥ ص ١٤٠ ، ١٤١ .

الموحدين وهو الشيخ أبو محمد عبد الواحد بن أبي حفص . ومن هنا جاز لنا أن نقول أن احتمال تشابه مرتبات أشياخ الموحدين فى الدولة الحفصية كان مقارباً لما كان يحصل عليه أشياخ الموحدين بالمغرب الأقصى . ويلحق بهذا مرتب القضاة فى الدولة الحفصية حيث كان قاضى الجماعة يحصل على مرتب خمسة عشر ديناراً يقول العمرى « ومبلغ ما لقاضى الجماعة فهو خمسة عشر ديناراً مسمى فى كل شهر وكان له معها عليق لبغلته »[1] . وربما كان نظيره فى الدولة الموحدية يحصل على نفس المرتب الشهرى .

وكان الطلبة ينعمون بالمرتبات والأرزاق ، والطلبة هم أبناء القبائل الذين جمعهم الخليفة عبد المؤمن وأعدّهم اعداداً خاصاً فى مدرسة أنشأها لهم ليكونوا هم الطبقة الإدارية بالبلاد ، وكانت نفقتهم وسائر مئونتهم من خزانة الدولة[2] واهتم خلفاء الموحدين الذين جاءوا بعد الخليفة عبد المؤمن بالطلبة وأجروا عليهم المرتبات والأرزاق[3] وقد بينت الرسالة الصادرة من الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن بمراكش سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧م إلى الموحدين بأغرناطة اهتمام الخليفة بدفع مرتبات الطلبة بهـا وقد جاء فى الرسالة « وقد خاطبنا — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — الطلبة الذين بأشبيلية أن يدفعوا للموحدين الذين بأغرناطة من البركة — أى المرتبات — مثل ما أخذه أهل قرطبة»[4] ، وبرغم ما أجراه الخليفة عبد المؤمن على هؤلاء الطلبة من أرزاق ومرتبات إلا أنه لمس ضيق حال الطلبة الموجودين بعاصمة الخلافة لذا استشار من حوله فى إعطائهم قروضاً من بيت المال يقول ابن القطان « ومنها أنه — أى عبدالمؤمن ابن على — أحس بضعف طلبة أهل مجلسه المكرم من طلبة الحضرة منهم أبو محمد المالقى وغيره فقال لأشياخ الموحدين أعزّهم الله تعالى : هؤلاء طلبة غرباء ضعفاء والإقلال عليهم ظاهر فنرى أن ندفع إليهم مالا نقارضهم فيه ،

---

(١) العمرى : وصف افريقية ص ٢٠ ت حسن حسنى عبد الوهاب

(٢) محمد المنونى : العلوم والآداب ص ٢٤ ، عنان : عصر المرابطين القسم الأول ص ٤٠٣ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٨٦ ، ابن أبى زرع : الأنيس ص ١٥٧ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٩٨ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٥٦ .

ويتجرون به ويردون السلف لنا ، فقالوا : نعم فأسلفهم من مال المخزن ألف دينار لكل واحد فاكتسبوا منها وكانت أصل غناهم ولم يأخذها منهم أبداً»[١].

وتمتعت الطوائف الأخرى من أطباء ومهندسين وغيرهم من كانوا يعملون بخدمة الموحدين بالأرزاق والمرتبات وقد أشار عباس المراكشي إلى أن ابن طفيل طبيب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن كان يأخذ جامكية — أى مرتباً — مع غيره من الموظفين « وبلغني أنه كان يأخذ الجامكية مع عدة أصناف من الخدمة من الاطباء والمهندسين والكتاب والشعراء والرماة والأجناد إلى غير هؤلاء من الطوائف » .[٢]

وهكذا شملت المرتبات أنواع متعددة من الموظفين والمشتغلين فى خدمة الخلفاء .

٣ — نفقات البناء والتعمير :

اهتم ولاة الأمر من المرابطين والموحدين بالبناء والتعمير ، وتنوّعت هذه المبانى وشملت مبان عسكرية كالقلاع والحصون والأسوار ومنشآت عامة كالمساجد والمدارس والمستشفيات والحمامات والفنادق والقناطر والسدود ، وهذه المنشآت استلزمت المبالغ الضخمة حتى يتم انجازها ، وكان مصدر ذلك بيت المال ، ولن أتعرض الآن لهذه المنشآت والمبانى فسوف أفرد لها فصلا بإذن الله ، ولكننى سوف أتخير بعض النماذج منها سواء فى الدولة المرابطية أو الموحدية وتكاليفها حتى يتضح مدى ما كان ينفقه ولاة الأمر من أموال على البناء والتعمير .

فى الدولة المرابطية حين عزم على بن يوسف على بناء الجامع الكبير بالعاصمة مراكش كلفه ذلك سبعين ألف دينار ، يقول ابن المؤقت « وبنى على بن يوسف أيضاً الجامع الأعظم المنسوب إليه اليوم والمنار الذى عليه وأنفق عليه سبعين ألف دينار أخرى »[٣] وقيل أنه أنفق عليه نحو الستين ألف دينار[٤] وحين أراد تسوير مدينة مراكش استجابة لنصيحة ابن رشد خوفاً

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٧ ت. د. محمود مكى .
(٢) عباس المراكشى : الأعلام ج ٣ ص ٣٤ ، ٣٥ .
(٣) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤ .
(٤) عباس المراكشى : الأعلام ج ١ ص ٩٧ .

من هجوم عبد المؤمن بن على فان ذلك كلفه سبعين ألف دينار[١] وفى رواية محمد الشطيبى أن ذلك تكلف ستين ألف دينار يقول محمد الشطيبى « وبويع ابنه على بن يوسف فى مراكش فجاء الإمام أبو الوليد بن رشد من قرطبة لعقد البيعة لعلى ، فقال له لا يحل لك أن تدع هذه المدينة بلا سور . . فشرع فى بناء السور وانفق عليه ستين ألف دينار أخرى »[٢].

ونال البناء والتعمير سواء أكان بالمغرب الأقصى أو الأندلس إهتمام وعناية خلفاء الموحدين فعبد المؤمن بن على بعد أن اتسعت مملكته وتوطد سلطانه أمر ببناء مدينة الفتح على جبل طارق وانفق فى سبيل ذلك الأموال الجمة يقول الحميرى « وكان أحد خلفاء بنى عبد المؤمن — وهو عبد المؤمن ابن على — أمر ببناء مدينة جبل طارق ، فندب إليها البنائين والنجارين وقطاع الحجر للبنيان والجيار من كل بلدة وخطت فيه المدينة ، وقدم إليها من المال ما يعجز كثرة ، واتخذ فيها الجامع وقصراً له ، وقصوراً تجاوره للسادة بنيه وتولى العمل فى ذلك وسميت بمدينة الفتح »[٣].

أما الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فإنه وجه عنايته واهتمامه للبناء والتعمير سواء فى المغرب أو الاندلس ، وقد حظت الأندلس باهتمامه فنى سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م حين توجه إلى أشبيلية أمر بعض العارفين بشئون البناء والغرس ببناء القصور وأن تحاط هذه القصور بمساحات واسعة من الحدائق والتى غرس بها الزيتون والأشجار والأعناب وقد تكلف ذلك اموالا طائلة صرفت من خزينة الدولة[٤] وفى نفس العام أمر ببناء الجامع المكرم بأشبيلية وعدة منشآت أخرى وانفق فى سبيل ذلك أموالا جمة[٥].

حتى إذا تولى المنصور إهتم إهتماماً كبيراً بالبناء فقبل توجهه إلى معركة

---

(١) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ٩٧ .

(٢) محمد الشطيبى : كتاب الجمان فى أخبار الزمان ورقة ٢١٠ مخطوط .

(٣) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ١٤١ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٦٤ ، ٤٦٥ ، ٤٦٦ .

(٥) ابن ابى زرع الأنيس جـ ٢ ص ١٨٦ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٥١ .

الأرك أمر ببناء عدة قصور وجوامع وصوامع بالعاصمة مراكش ، فلما عاد استفسر عن هذه المبانى فوجدها قد تمت على خير ما تكون وأنفق عليها أموالا كثيرة[١] وأثناء وجوده بأشبيلية تمّم أعمال البناء فى جامع أشبيلية وتشييد منارته وصنع له التفافيح الذهبية التى تكلفت كثيراً وقد بلغ قيمة ما موهت به من الذهب مائة ألف دينار ذهباً[٢] وبنى المنصور الموحدى مستشفى كبيراً بمدينة مراكش وكانت نفقاته اليومية ثلاثين ديناراً[٣] وبذلك يتكلف المستشفى وحده من النفقات سنوياً ما يقرب من أحد عشر ألف ديناراً ، وقد أحسّ المنصور الموحدى بالندم حين وفاته وذلك لإنفاقه الأموال الكثيرة فى بناء مدينة رباط الفتح يقول ابن أبى زرع « قال — أى المنصور الموحدى فى مرضه الذى توفى فيه — ما ندمت على شىء فعلته فى خلافتى إلا على ثلاث وددت أنى لم أفعلها . . والثانية بناء رباط الفتح أنفقت فيه من بيت المال وهو صعد لا يعمر »[٤] .

٤ — **نفقات متنوعة :**

لم تكن مصارف بيت المال قاصرة على الجيش والمرتبات والإنشاء والتعمير فحسب ، بل كانت هناك أوجه أخرى للإنفاق لجأ إليها ولاة الأمر بالمغرب الاقصى نظراً لظروف وأوضاع واجهتهم ، ومن ذلك الإنفاق على هؤلاء الأمراء والقادة الذين استولى ولاة الأمر بالمغرب الأقصى على أوطانهم وممتلكاتهم ، وقد واجه المرابطون هذا الموقف حين قضى يوسف بن تاشفين على دول الطوائف بالأندلس واستولى على ممتلكاتهم وفى نفس الوقت أرسل بعض هؤلاء الأمراء إلى المغرب الأقصى ليكونوا تحت رعايته ومراقبته ، وقد استلزم ذلك الإنفاق عليهم يقول الأمير عبد الله فى مذكراته « وأمرنا — أى يوسف بن تاشفين بإنزال الامير عبد الله وابن عباد وغيرهم من أمراء

---

(١) عباس المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ٩٢ ، ٩٣ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٩٥ .

(٢) ابن أبى زرع : الانيس المغرب ص ١٦٦ طبع حجر .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٨٧ .

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب ص ١٦٧ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٠٦ .

الأندلس — أن نستوطن أغمات فأتيناها ولقينا من أمير المسلمين كل جميل ، وأنزلنا بداره الصغرى فى الحريم ، ولم يزل يفتقدنا من إنعامه كيف ما هيأ الله على يديه »[١] وفى موضع آخر يذكر الأمير عبد الله أن يوسف بن تاشفين أرسل له مبلغ ثلاثمائة دينار « ثم أنه وافانى من عند السلطان ثلاثمائة دينار أخرى وأنا بمكناسة وخاطبنى بكتاب يعدنى بكل جميل ويقول لى : لا أنساك ما بقيت فسرنى ذلك . . » [٢].

وتحمّل بيت المال نفقات أكثر فى ظل الموحدين نظراً لاتساع الدولة مع كثرة من دخل فى طاعة الموحدين ، وكان من يسرع فى مبايعة الموحدين من الأمراء والقبائل والأفراد يتمتع بوضع اقتصادى خاص ، فضلا عن الجوائز والأقطاعات التى يحصل عليها ، فأهل شريش بالأندلس حين دخلوا فى طاعة الموحدين ، أطلق عليهم الموحدون : السابقون الأولون ، وحررت أملاكهم وكانوا مقدمين عند الخليفة على سائر الوفود[٣] كذلك وفد أشبيلية حين أقبل على الخليفة عبد المؤمن يعلن بيعته قوبل بالترحيب ومنحوا الجوائز والإقطاعات لجميع الوفد سنة ٥٤٢ هـ /١١٤٧م[٤]وحين استولى الخليفة عبد المؤمن ، على بجاية واستسلم يحي بن العزيز فإنه أرسل ومن معه من خاصته إلى مراكش حيث عاش فى رغد من العيش وأجريت عليه الأرزاق من بيت المال[٥] . وقد وصف المراكشى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بأنه كان جواداً سخياً حيث أعطى هلال بن محمد بن سعد — ابن مردنيش — صاحب شرق الأندلس أثنى عشر ألف دينار فى يوم واحد[٦] وحين التجأ فرنانده رايس

---

(١) الأمير عبد الله : مذكرات الأمير عبد الله ص ١٧١ تحقيق ليفى بروفنســـال .

(٢) الأمير عبـــد الله : مذكرات الأمير عبـــد الله ص ١٦١ ت ليفى بروفنســـال .

(٣) السلاوى :الاستقصا جـ ٢ ص ١١٦ ، ١١٧ .

(٤) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٨١ .

(٥) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ قسم ٢ ص ٣٢٧ ، النويرى: نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٢ ، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٦ ، أبوعبد الله محمد : الحلل السندسية ص ٢٤٩ ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥١ ت الفيلالى .

(٦) المراكشى : المعجب ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ .

النصرانى صاحب ترجالة ليكون فى طاعة الموحدين ، فإنه وصل ومن معه إلى مراكش سنة ٥٦٣ هـ / ١١٦٧م وقوبل بالإحسان والمبرة يقول ابن صاحب الصلاة « وأقام — أى فرنانده — فى الحضرة العلية خمسة أشهر تحت إحسان من الأمر العالى وامتنان وعطاء جزيل واسكان كفيل وألّف قلبه بالأنعام الحفيل حتى كاد أن يسلم »[١] وفى عهد الناصر الموحدى حين دخل يحيى بن غانية فى طاعة الموحدين سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤م فان الناصر وصله « من الصلات النفيسة بما لا قيمة ولا يصل بمثله إلا الخلفاء »[٢]ولا شك أن أموالا كثيرة صرفت فى مواجهة الإنفاق على هؤلاء الامراء والقادة .

وكانت هناك معونات عاجلة تصرف لأهل المدن التى يصيبها العدو بأضرار جسيمة فأهل زويلة وهى مدينة قريبة من المهدية حين استنجدوا بالخليفة عبد المؤمن لما أصابهم على يد الفرنج ، وعدهم بالتأييد والمعونة وصرف لهم معونة عاجلة مقدارها ألفى دينار[٣] يقول النويرى « كان الفرنج قد تغلبوا على مدينة المهدية وملكوها فى سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة . . وفعلوا بمدينة زويلة الأفعال الشنيعة من القتل والنهب والتخريب فسار أهلها إلى عبد المؤمن وهو بمراكش يستنجدونه ويستخبرونه فأكرمهم وأخبروه بما جرى على المسلمين وأنه ليس فى ملوك لإسلام من يقصد غيره فأطرق ثم رفع رأسه وقال أبشروا لا نصرنكم ولو بعد حين وأمر بإنزالهم وأطلق لهم ألفى دينار »[٤] كذلك حين استغاث أهل قونكة بالأندلس بالخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م لما أصابهم على يد الفرنج فإنه أمر باحصاء سكانها وصرف لهم الاعانات العاجلة .

وبجانب أموال الغوث والنجدة ، كانت هناك الأموال التى تفرّق على هيئة منح ومن هذه المنح ما يكون عاماً توزع على الشعب جلباً لمحبته ، وتوددا إليه وخاصة فى مناسبة تولى الحكم ، فيوسف بن تاشفين حين شرع فى التمكين

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٦٨ ، ٣٦٩ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٣١٧ ، ٣١٨ .
(٣) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٧٣ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٣٥ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٤ .

لنفسه أرسل فى سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١ م إلى أمراء الغرب وأشياخ القبائل من زناته والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر لمبايعته فلما تحقق له ذلك وصلهم بالأموال وكساهم جميعاً[١] ويلحق بهذا تلك الأموال والهدايا الضخمة التى أعطاها لأبى بكر بن عمر حين تنازل الأخير عن الإمارة وكان مقدار المال فيها خمسة وعشرين ألف دينار من الذهب[٢] واتبع هذه السياسة وهى سياسة التودد إلى الشعب خلفاء الموحدين ، فالخليفة عبد المؤمن بن على حين زار قبر المهدى بن تومرت بمدينة تينملل فرق فى أهلها أموالا عظيمة[٣] وحين تجددت بيعة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فإنه أمر بتفريق الأموال على أهل مراكش يقول ابن صاحب الصلاة « ولما كان البشر العام واليسر التام بتجديد البيعة الميمونة . . أمر أمير المؤمنين رضى الله عنه ببركة تعمّ الناس بحضرة مراكش إيصالا للعفو الذى تقدم واتصالا بتتميم منه الذى أنعم »[٤] فلما تولى المنصور الموحدى أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال وفرّقها على فقراء البلاد[٥] يقول ابن أبى زرع والسلاوى « ولما تمت له البيعة وأطاعته الأمة كان أول شىء فعله أنه أخرج مائة ألف دينار ذهباً من بيت المال ففرّقها فى الضعفاء من بيوتات بلاد المغرب »[٦].

ومن المنح ما كان خاصاً وهى تلك المنح والعطايا التى كانت تمنح للأفراد فأمراء المرابطين كانوا يكرمون العلماء والصالحين ويمنحونهم الأموال والعطايا ، فأبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبى الضرير وهو من سر قسطة وسكن بمدينة مراكش وتوفى بها سنة ٤٥٢هـ كان عالماً زاهدا . . ووفد وقتاً

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٤٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٦ ت د. احسان عباس

(٣) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥١ ت الفيلالى .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٥٣ .

(٥) ابن عبود : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٣٦ ، اشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٧٧ ، عنان ، عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ١٤٢ .

Budgett Meakins : The Moorish Empire, P : 77, 78.

(٦) ابن أبى زرع : الأنيس ص ١٥٦ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ص ١٥٨ و ١٥٩ .

على السلطان فبعث إليه جملة مال »(١) وكذلك حين زار أمير المسلمين على ابن يوسف مدينة أغمات وريكة فإنه منح أحد الصالحين وهو أبو محمد عبد الله المليجي — توفى قبل سنة ٥٤٠هـ / ١١٤٥ م ألف دينار(٢) .

وجرى على نفس السياسة خلفاء الموحدين نتيجة لاتصافهم بصفة الكرم وتكريمهم للعلماء والأدباء والشعراء فعبد المؤمن حين نزل مدينة بجاية سأل عن أهل بيت فأخبروه بوفاة صاحبه وقد ترك امرأة وأربعة أبناء فأمر لهم بأرض للحرث وأعطى كل واحد منهم ألف رأس من الغنم ومثلها من البقر وأربعة آلاف دينار(٣) ، وكان هذا دأبه فى العاصمة من الإنفاق على الفقراء والمحتاجين يقول ابن القطان « وكان رضى الله تعالى عنه يتفقّد من يرتب ببابه الكريم بأن يغلق الباب على غفلة من الناس ويحص من حضر ، فيعطوا على السوية عشرة دنانير ، يفعل هذا فى العام مراراً كثيرة وربما والى ذلك فى كل شهر»(٤) وبجانب ذلك كان يكرّم العلماء والشعراء فقد منح أحد الشعراء ألف دينار على بيت قاله : ما هز عطفيه بين البيض والأسل مثل الخليفة عبد المؤمن بن على(٥) وحين مدحه أبو القاسم بن مسعدة أمر وزيره بكتابه اسمه وقال له : إنما يكتب اسم هذا فى جملة الحساب وأجزل صلته وأمر له بضيعة(٦) .

واتّبع خلفاء الموحدين سياسة الخليفة عبد المؤمن فى منح الأموال للفقراء وغيرهم فقد منح الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أحد الفقراء بمدينة المهدية مائتى دينار فضلا عن ثلاثمائة مثقال لبناته (٦) كذلك أنعم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على كثير من العلماء والكتاب سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م حين شفى من مرضه ومن هؤلاء الكتاب ابن صاحب الصلاة الذى أرّخ لدولتهم(٨) ومنح

---

(١) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ١٢٢ .
(٢) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ٦٣ ، التادلى : التشوف ص ١٢٤ ، ١٢٥ .
(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٧ .
(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣١ .
(٥) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٥ .
(٦) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٨٦ .
(٧) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٥١ .
(٨) نفس المرجع السابق ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

المنصور الموحدى أموالا ضخمة للفقراء والمساكين يقول المراكشى « وكان كثير الصدقة ، بلغنى أنه تصدّق قبل خروجه إلى هذه الغزوة — أعنى التى كانت فيها الوقعة الكبرى — أى غزوة الأرك — بأربعين ألف دينار خرج منها للعامة نحو نصفها والباقى فى القرابة ، أدركتهم وقد قسموا مدينة مراكش أرباعاً وجعلوا فى كل ربع أمناء منهم أموال يتحرون بها المساتير وأرباب البيوتات »(١) .

ومن هذا العرض للنفقات المتنوعة نرى مقدار ما كانت تتحمله الخزانة فى سبيل الصرف على الجماعات والأفراد .

رابعاً : السكة

تسهم السكة فى إعطائنا صورة عن الأوضاع الإقتصادية بالبلاد ، إذ هى توضح مدى التقدم والإستقرار الذى تنعم به وذلك برسم صورة لطريقة التعامل بين أفراد الشعب ، وعن طريق قيمتها نستطيع أن ندرك مدى رواج التجارة أو تدهورها ، ومن هنا كان من الضرورى إلقاء الأضواء على العملة النقدية للمغرب الأقصى فى فترة البحث حتى تكتمل الصورة بالنسبة للنظام المالى بالبلاد .

والسكة أشار إلى معناها ابن خلدون بقوله « هى النظر فى النقود والمتعامل بها بين الناس وحفظها مما يداخلها من الغش أو النقص إن كان يتعامل بها عدداً أو ما يتعلق بذلك ويوصل إليه من جميع الإعتبارات ثم فى وضع علامة السلطان على تلك النقود بالاستجادة والخلوص برسم تلك العلامة فيها من خاتم حديد اتخذ لذلك ، ونقش فيه نقوش خاصة به فيوضع على الدينار بعد أن يقدر الضرب عليه بالمطرقة حتى ترسم فيه النقوش وتكون علامة على صورته بحسب الغاية التى وقف عندها السبك والتخليص فى متعارف أهل القطر ومذاهب الدولة الحاكمة »(٢)

وما أن تأسست دولة المرابطين ثم أعقبتها دولة الموحدين حتى اتخذتا عملة نقدية من الذهب والفضة يتعامل بها السكان فى انحاء الدولة ، وأنشئت

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٢٦ .

لذلك الدور لسك النقود ، وقد تعددت هذه الدور فى عهد المرابطين فابن عذارى أشار إلى أن يوسف بن تاشفين بنى داراً للسكة بمراكش سنة ٤٦٤هـ/ ١٠٧١م ، ضرب فيها السكة[١] كما أنه عثر على نقود نقش عليها اسم يوسف ابن تاشفين سنة ٤٨٠هـ / ١٠٨٧م بسجلماسة[٢] وأخرى نقش عليها اسم على ابن يوسف بن تاشفين سنة ٥٣٤ هـ / ١١٣٩م وضربت بتلمسان[٣].

ولم تشر المراجع لهذا التعدد فى دولة الموحدين ففضلا عن دارسك النقود بالعاصمة مراكش كانت هناك داران لسك النقود بمدينة فاس وقد قام الناصر الموحدى بضمهما فى دار واحدة يقول أبو الحسن « وكان بمدينة فاس القرويين والأندلسيين دارا سكة فنقلهما الخليفة أبو عبد الله الناصر بن المنصور لدار أعدها بقصبتها حين بناها سنة ستمائة وأعدها مودعاً للأموال المندفعة بها ولطوابع سكتها وأتقن ثقافها على أتم حال »[٤].

أنواع السكة ووزنها :

اتخذ المرابطون النقود وذلك لتأكيد سلطانهم السياسى والاقتصادى على البلاد ، وما إن تأسست مدينة مراكش حتى أنشأ فيها يوسف بن تاشفين داراً للسكة وأصدر عملة نقدية سنة ٤٦٤هـ / ١٠٧١م وقد نقش عليها اسم الأمير أبو بكر بن عمر[٥] باعتباره الأمير الشرعى للبلاد ، حتى إذا تولى يوسف ابن تاشفين مقاليد الأمور ومكن لسلطانه السياسى أصدر عملة نقدية مدورة الشكل وقد كتب عليها اسمه وكان ذلك فى سنة ٤٧٣هـ / ١٠٨٠م[٦] ثم صارت بعد ذلك العملة تحمل اسماء أمراء المسلمين من بنى تاشفين ولقب « الأمير عبد الله العباسى » وهذا يشير إلى الصلة الروحية التى كانت تربط امراء المرابطين بالخلافة العباسية كما نقش عليها « لا إله إلا الله ومن يبتغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين » وهذا يؤكد

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٢ ت د. احسان عباس
(٢) الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ٢١٩ .
(٣) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ٢١٩ .
(٤) أبو الحسن : الدوحة المشتبكة ص ٥١ ت د. حسين مؤنس.
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٢ ت د. احسان عباس
(٦) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٧٦ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٣٢ .

المبدأ الدينى الذى قامت من أجله الدولة مع ذكر تاريخ ضربه ومكانه(١)، وقد أشار إلى شكل العملة ابن المؤقت بقوله « وضرب — أى يوسف بن تاشفين — السكة من يومئذ وجددها ونقش فى ديناره لا اله إلا الله محمد رسول الله وتحت ذلك أمير المسلمين يوسف بن تاشفين وكتب فى الدائرة ومن يبتغ غير الاسلام ديناً فلن يقبل منه وهو فى الآخرة من الخاسرين وكتب فى الصفحة الأخرى الأمير عبد الله العباسى وفى الدائرة تاريخ ضربه »(٢). أما بالنسبة لوزن العملة المرابطية فكان الدينار يزن قريباً من أربع جرامات(٣) أى حوالى ٣,٩٦٠ جراماً(٤) ويبدو أن العملة المرابطية اكتسبت قيمة مرتفعة نظراً لرواج التجارة بين المغرب وغيره من دول البحر المتوسط وسارت متداولة فى بلدان البحر المتوسط حتى وصلت القسطنطينية .(٥)..

حتى إذا قامت الدولة الموحدية اتخذت لها عملة نقدية من الدنانير والدراهم وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون بقوله « ولما جاءت دولة الموحدين كان ممن سنّ لهم المهدى اتخاذ سكة الدرهم مربع الشكل وأن يرسم فى دائرة الدينار شكل مربع فى وسطه ويملأ من أحد الجانبين تهليلا وتحميداً ومن الجانب الآخر كتبا فى السطور باسمه واسم الخلفاء من بعده ففعل ذلك الموحدون »(٦) وقد أشارت بعض المراجع إلى أن ابن تومرت أصدر عملة نقدية تسمى الدرهم المركن أى المربع(٧) يقول أبو الحسن « وذلك أن صاحب الدرهم المركن هو أبو عبد الله المهدى القائم بأمر الموحدين وكانت الدراهم قبل ظهور الدولة

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٣٨ ، ٣٩ ت الفيلالى ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ٤ص ٤٦ ت د. احسان عباس ، ابن أبى دينار: المؤنس ص ١٠٥ عبد الله كنون : النبوغ المغربى ص ٦١ .

Nevill Barbour : Morocco, P : 59-60.

(٢) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ٩٠ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٠ .

(٤) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ١ ص ٧٥

(٥) حركات: المغرب عبر التاريخ ص ٢٣١ .

Nevill Barbour : Morocco P : 59

(٦) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٢ .

(٧) أبو الحسن : الدوحة المشتبكة ص ٥١ ، ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس جـ ٢ ص ١٢ .

الموحدية كلها مدورة فأمر المهدى أن تكون دراهم مركنة[1] » وبتتبع الأحداث السياسية لابن تومرت منذ أن اعلن ثورته بالمغرب الأقصى سنة ٥١٥هـ / ١١٢١م حتى وفاته سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩م لم تشر المراجع إلى إصداره لعملة نقدية فضلا عن أنه لم يفرض سيطرته السياسية على البلاد حتى يتمكن من إصدار عملة تؤكد سلطته إذا أن الدولة المرابطية كانت قائمة تفرض سلطانها السياسى وعملتها النقدية ويرجح أن هذه العملة قام بإصدارها الخليفة عبدالمؤمن ابن على والذى سبت إليه اسم العملة فأطلق عليها العملة المؤمنية[2] وقد عثر أخيراً فى منطقة الريف بالمغرب الأقصى على عملة فضية مربعة الشكل نقش فى أحد وجهيها « الله ربنا ، محمد رسولنا ، المهدى امامنا وفى الوجه الآخر لا إله إلا الله الأمر كله لله ولا قوة إلا بالله » وهى خالية من التاريخ ويرجح أنها ترجع إلى سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م[3] كما كانت هناك العملة اليوسيفية وهى منسوبة إلى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن [4] يقول ابن خلكان « والدنانير اليوسيفية المغربية منسوبة إليه»[5] كما أن الدنانير اليعقوبية كانت منسوبة إلى يعقوب المنصور[6] يقول ابن خلكان « وإلى الأمير يعقوب — أى المنصور الموحدى — تنسب الدنانير اليعقوبية المغربية»[7] وقد ظهرت فى هذه الفترة أيضاً العملة الجشمية تلك العملة التى استخدمها أبو يحى بن الشيخ أبى حفص والى بطليوس من قبل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م فى فداء أسرى المسلمين من الفرنج حيث دفع ثلاثمائة دينار جشمية[8]

---

(١) أبو الحسن : الدوحة المشتبكة ص ٥١ .

(٢) أبو عبد الله محمد : الحلل السندسية ص ٢٥٢

J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P : 99.

(٣) احمد بن عبد السلام : الريف بعد الفتح الاسلامى ص ٥٢ .

(٤) العينى : عقد الجمان جـ ١ قسم واحد ص ١٣ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣ ، الزركلى : الاعلام جـ ٣ ص ١١٨٢

(٥) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٣٠ .

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٨٢ حاشية ، أبو الحسن: الدوحة المشتبكة ص ٥١ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٨٦ ، الزركلى : الاعلام جـ ٣ ص ١١٧١ .

(٧) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٢ .

(٨) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٩٣ .

والدراهم الحشمية تعنى الدراهم الرديئة ويبدو أن بعض خلفاء الموحدين كانوا يصنعون من النحاس ما يعطونه زيفاً اسم الدينار الذهبي [1] .

ولم تكن الدنانير والدراهم هي المستخدمة فقط بل كانت هناك عملات أصغر لسهولة التعامل ، وقد اشتكى يحيى بن العزيز ملك بجاية والمقيم فى مراكش بعد فقده لملكه — اشتكى من تعذر الإنفاق لقلة العملات الصغيرة يقول المراكشي « بلغنى من طرق عدة أن يحيى بن العزيز كان فى مجلس عبد المؤمن يوماً فذكروا تعذر الصرف ، فقال يحيى : أما أنا فعلى من هذا كلفة شديدة ، وعبيدى فى كل يوم يشكون إلىّ ما يلقون من ذلك ويذكرون أن أكثر حوائجهم تتعذر لقلة الصرف وذلك أن عادتهم فى بلاد المغرب أنهم يضربون أنصاف الدراهم وأرباعها وأثمانها والخراريب فيستريح الناس فى هذا وتجرى هذه الصروف فى أيديهم فتتسع بياعاتهم [2] » وقد وعد عبدالمؤمن بتوفير ذلك [3] .

أما وزن العملة الموحدية فكانت ٤٫٧٢٩ جراماً وهو الوزن الشرعى كما كان أيام سيدنا عمر بن الخطاب [4] وقد أشار ابن عذارى إلى أن المنصور الموحدى ضاعف وزن الدينار حتى يتناسب مع ضخامة الدولة وثروتها يقول ابن عذارى « فرأى المنصور الموحدى — أن الدينار القديم يصغر عن مرأى ما ظهر بالمملكة من المنازع العالية وأن جرمه يقل عما عارضه من المناظر الفخمة الجارية فعظم جرمه ورفع قدره بالتضعيف وسومه فجاء من النتائج الملوكية والاختراعات السرية جامعاً بين الفخامة والنماء والطيب وشرف الانتماء » [5] وهذه الزيادة تشير إلى الرخاء الاقتصادى الذى كانت تنعم به البلاد ومن ناحية أخرى إلى وجود الذهب بكثرة حتى يتمكن الخليفة من زيادة وزن العملة .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٩٣ حاشية .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٧٧ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٠٧ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٩٢ حاشية ، عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ١ ص ٧٦ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٢٦ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩٧ تطوان .

خامساً : المكاييل والموازين

ومما يتصل بالحياة الاقتصادية بالبلاد تلك المكاييل والموازين التي كان يستخدمها السكان في تعاملهم اليومي وفي شراء بضائعهم ومستلزماتهم ، وقد استخدم السكان المدّ في تعاملهم أشار إلى ذلك ابن صاحب الصلاة حين تحدث عن رخص الأسعار بوادي تنسيفت قريباً من العاصمة مراكش سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م « أن الشعير خمسة وعشرون مداً بدرهم »[١] وحين غلت الأسعار بالأندلس سنة ٥٦٧هـ / ١١٧١م أثناء حملة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بها - بلغ المد المراكشي من الشعير بدرهمين[٢] أما في سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤ م فقد بلغ الشعير اثنا عشر مدا بدرهم والقمح خمسة عشر مدا بدرهم[٣] ، والمد هنا غير المد النبوي الذي يزن ٤٠٠ جراماً إذا كان من الشعير ، ٥٢٥ جراماً إذا كان من القمح ولكنه فوق هذا الوزن بقليل[٤] وقد جعله البكري يزن ثمانين أوقية يقول البكري « ومدهم — أي مدّ أهل فاس — ثمانين أوقية »[٥] .

واستخدم السكان الوسق في كيلهم وقد أشار ابن أبي زرع إلى الرخاء في دولة المرابطين بقوله « وكانت أيامهم أيام دعة ورفاهية ورخاء متصل وعافية وأمن ، تناهى القمح في أيامهم إلى أن بيع أربعة أوسق بنصف مثقال ، والثمار ثمانية أوسق بنصف مثقال »[٦] والوسق وسق جمل أي حمل جمل وكان مقداره ستون صاعاً[٧] وبجانب المكاييل المختلفة استخدم السكان الموازين ومنها الأوقية حيث يقول البكري « وجميع المأكولات من الزيت والعسل واللبن والزبيب يباع عندهم — أي عند أهل فاس — بالأواق[٨] » وأشار ابن

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٢ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٥٠٩ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٦٣ تطوان .
(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٥٠٩ حاشية .
(٥) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية ص ١١٧ .
(٦) ابن أبي زرع : الأنيس المطرب جـ ٢ ص ٩٤ ت الفيلالي .
(٧) أبو الحسن : الدوحة المشتبكة ص ٨٦ .
(٨) البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية ص ١١٧ .

صاحب الصلاة إلى أن اللحم سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠م بالقرب من مراكش كان ستين أوقية بدرهم[١] للدلالة على رخص الأسعار والست عشرة أوقية تعادل رطلا [٢].

كما استخدموا الرطل فى أوزانهم حيث بلغ رطل الدقيق بدرهم واحد سنة ٥٦٧ هـ / ١١٧١م[٣] وذلك علامة على غلاء الأسعار والرطل يساوى بالوزن الحالى ٥٠٤ جراماً[٤] .

وهكذا تنوعت المكاييل والموازين حتى تفى بحاجات السكان فى البيع والشراء .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٢ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٤٢ حاشية .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٥٠٩ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٤٤٢ حاشية .

الفصل الثانى

الزراعة والصناعة

أ — الزراعة

تقدمت الزراعة بالمنطقة خلال عهد المرابطين وحتى حكم الناصر الموحدى وزاد الإنتاج الزراعى . وشهدت البلاد وفرة فى المحصولات ، وقد تضافرت عدة عوامل على ازدهار الزراعة منها : النواحى الطبيعية التى تمتعت بها المنطقة يضاف إلى ذلك القوى البشرية والتى اتخذت فلاحة الأرض مهنة لها وأخيراً اهتمام ولاة الأمر بقيام زراعة ناجحة بالبلاد ، وفيما يلى هذه العوامل بشىء من الشرح والتفصيل :

أولا : نواح طبيعية : تمتعت بها المنطقة حيث ساهم السطح وما يتضمنه من تربة خصبة وأنهار متعددة بالإضافة إلى مناخ متنوع فى تقدم الزراعة بالبلاد ، وأما بالنسبة للسطح فقد تمتع المغرب الأقصى بتربة خصبة صالحة للزراعة كونتها مجارى الأنهار ، فى ناحية المحيط الأطلسى تنبسط أراضى التيرس السوداء وأراضى الحمرى الكلسية والتى تمتاز بشدة الخصوبة وقابلية الانتاج بفضل ما تضمه بين جوانحها من مياه وسماد[1] وقد أشار المراكشى إلى مدى خصوبة تربة المغرب الأقصى قائلا « وهى — أى أرض المغرب — أخصب رقعة على الأرض فيما علمت وأكثرها أنهاراً مطردة وأشجاراً ملتفة وزروعاً وأعناباً »[2] وبجانب التربة الخصبة ، فقد انقسم السطح إلى عدة مناطق وكان لكل منطقة أثرها فى النشاط الزراعى والمحاصيل بها والمناطق هى

(ا) — الإقليم الساحلى : على شاطىء البحر المتوسط وتفصله عن الداخل جبال الريف وهى تمتد على شكل أقواس مفتوحة نحو جبل طارق[3] ويمتاز

---

(١) عبد العزيز بنعبد الله : جغرافية المغرب ص ٢٢ .
G.A.Jackeon ; Algiers Being Complete, P ; 64.
(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٥٥ .
(٣) انور الرفاعى وآخرون : المغرب العربى جغرافيا ص ٧٣ ، ط ١ سنة ١٩٤٩ .

هذا الإقليم بتربته الخصبة حيث تخترقه عدة أنهار تصب فى البحر المتوسط .
وبجانب هذا الاقليم كان هناك الاقليم الساحلى على المحيط الاطلسى .

(ب) منطقة الوديان : وهى تلى الإقليم الساحلى وتجرى فيها أهم أنهار المغرب التى يصب بعضها فى البحر المتوسط والبعض الآخر فى المحيط الاطلسى وقد كوّنت هذه الأنهار وديانا وسهولا خصبة تعدّمن أغنى السهول المغربية[١] وأهم هذه الأنهار :

١ — نهر ملوية : وهو فيما بين تلمسان ورباط تازا ويصب فى البحر المتوسط[٢] ويتجه من الجنوب إلى الشمال وينبع من ملتقى الأطلس الكبير والأطلس المتوسط فى شرق البلاد من وراء الأطلس المتوسط[٣] .

٢ — نهر سبو : وهو محيط بمدينة فاس من شرقها وغربها[٤] وينبع نهر سبو من الأطلس المتوسط ويجرى فى سهول تكثر فيها الرواسب ويشترك مع وادى فاس فى جعل هذه المنطقة خصبة صالحة للزراعة[٥] ويجاور نهر سبو هذا نهر آخريسمى ورغة وهذان النهران يصبان فى البحر المحيط بعد أن يلتقيا بموضع يسمى المعمورة[٦] .

٣ — نهر أبو رقراق وأم الربيع : وينحدران من الأطلس المتوسط وهما غزيرا المياه ويعتبر نهر أم الربيع من أهم أنهار المغرب الأقصى وذلك لوفرة مائة وانتظام جريانه النسبى[٧] ويصب فى البحر المحيط .

٤ — نهرا تانسيفت ونهر السوس الأقصى : وهما يصبان فى البحر المحيط[٨].

---

(١) عبد العزيز بنعبد الله : جغرافية المغرب ص ١٢ ط ٢ سنة ٥٦ الدار البيضاء .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ٥ ص ١٧٥ .
(٣) محمد الفاسى : التعريف بالمغرب ص ١٥ .
(٤) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ .
(٥) عبد العزيز بنعبد الله : جغرافية المغرب ص ١٩ .
(٦) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .
(٧) عبد العزيز بنعبد الله : جغرافية المغرب ص ١٩ .
(٨) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ ، ٣٦٥ .

وبجانب هذه الأنهار التى ساعدت على قيام زراعة ناجحة فى المنطقة كانت هناك عدة نهيرات تتخلل كثيراً من مدن وقرى المغرب الأقصى والتى أسهمت بدورها فى ازدهار الزراعة بالمنطقة ، كذلك النهر الذى يجرى بمدينة فاس والذى قسمها إلى قسمين وهو ينبع من عيون تسمى عيون صنهاجة[١] وأيضاً النهر الذى يجرى فى شرقى مدينة مكناسة[٢] وكذلك النهر الذى يمر بشرقى مدينة تلمسان[٣] ، ومدينة تاورق حيث كان الماء يأتيها من جوانبها من نهر كبير ينقسم فى أعاليها[٤] ، وأيضاً مدينة مغيلة حيث كانت المياه تخترق كل جانب منها[٥] ومدينة نفيس وما بها من نهيرات[٦]

هذه الكثرة فى عدد الأنهار واختراقها لمعظم أراضى المغرب الأقصى مع جريانها الدائم نتيجة لسقوط الأمطار منحت أرض المغرب الأقصى كميات وفيرة من المياه التى تستخدم فى زراعة مساحات واسعة من الاراضى .

(ج) جبال درن : وتقع جنوب منطقة الوديان وهى تمثل حاجزاً طبيعياً وقد وصفها ابن خلدون بقوله « بقاصية المغرب من أعظم جبال المعمور بما أعرق فى الثرى أصلها وذهبت فى السماء فروعها ، ومدت فى الجو هياكلها ومثلت سياجاً على ريف المغرب سطورها ، تبتدىء من ساحل البحر المحيط عند آسفى وما يليها وتذهب فى المشرق إلى غير نهاية[٧]» وفى سفوح هذه الجبال كانت المناطق الرعوية أو شبه الصحراوية والتى تكسو هضابها المرتفعة الأعشاب حيث ترعاها الماشية والأغنام كما أن به طائفة من الواحات الغنية وهو إقليم فقير فى موارده حيث اعتماد أهله على الرعى[٨] .

---

(١) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٦ ، مجهول : الاستبصار ص ١٨٠ ت. د. سعد زغلول، المراكشى : المعجب ص ٣٥٨ .
(٢) الادريسى : وصف المغرب ص ٧٧ ت. دوزى .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٨٠ .
(٤) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٧ .
(٥) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٧ .
(٦) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٨ ت. د. سعد زغلول .
(٧) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٣ .
(٨) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٣ .

(د) إقليم الصحراء ويقع جنوب جبال درن .

وبجانب هذا السطح المتنوع وأثره فى اختلاف حاصلات المنطقة كان هناك المناخ والذى أثر بدوره فى الزراعة بالمنطقة ، وقد تنوّع المناخ تبعاً لأقاليم المغرب المختلفة من سهول ساحلية وسلسلة جبال درن ثم إقليم الصحراء ، ففى السهول الساحلية التى تهطل عليها الأمطار بغزارة وخاصة على سهول الشاطىء الأطلسى ازدهرت الزراعة وأصبحت هذه الناحية غنية بأنواع الزراعات المختلفة من قمح وشعير وخضر وفواكه وغيرها[١] وفى نفس الوقت تحول سلسلة جبال درن دون وصول الرياح الحارقة إلى هذه السهول ، أما النواحى الصحراوية فإن المطر بها قليل ولذا تعتمد زراعتها على السّقى عن طريق السواقى من الأنهار ، كما أن الزراع يحصلون على الماء اللازم من الآبار مما يساعد فى سقى حقول الزراعة المختلفة[٢] .

ثانياً : قوى بشرية : وهم طبقة الفلاحين الذين نشأوا على أرض المغرب الأقصى واتخذوا الفلاحة مهنة يتوارثونها عن آبائهم وأجدادهم ، وهذه الطبقة أخذت على عاتقها مهمة فلاحة الأرض واستغلال الظروف الطبيعية فى استثمار الحاصيل الزراعية المختلفة فقبائل دكالة امتهنت الزراعة وقامت بزراعة البساتين والحدائق المختلفة[٣] وكذلك كثير من قبائل تامسنا اشتغلت بالزراعة وقد وصفهم الإدريسى بقوله « وقبائل تامسنا شتى متفرقة فمنهم برغواطة ومطماطة وبنو تسلت وبنو يغمران وزقارة وبعض من زناته وبنو تحقش من زناتة وكل هذه القبائل أصحاب حرث ومواش وجمال[٤] » وقد أشار إلى ذلك أيضاً ابن سعيد[٥] وقبائل المصامدة وهى تشكل مجموعة كبيرة من سكان المنطقة اهتموا منذ القديم بالزراعة وغرس الأشجار وبفضلهم ازدهرت الفلاحة فى البلاد[٦] وبجانب الأيدى العاملة من أهل البلاد فإن

---

(١) محمد الفاسى : التعريف بالمغرب ص ١٢ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٧ .
(٣) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ .
(٤) الادريسى : وصف المغرب والاندلس ص ٧٠ ، ٧١ .
(٥) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٤ .
(٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٧ .
Terrasse : Histoire du Maroc, P : 22.

المهجرات المختلفة التى جاءت من افريقية واستوطنت بعض أقاليم المغرب كإقليم سلا ساهمت فى تزويد سكان البلاد بالخبرات الفلاحية مما أسهم فى تنشيط الزراعة[١] كذلك اقتبس المغاربة كثيراً من العادات الفلاحية من أهل الأندلس وخاصة بعد أن أصبح إقليم الاندلس تابعا للدولة منذ عهد يوسف ابن تاشفين ، إذ اشترك الأندلسيون مع إخوانهم المغاربة فى تبادل الخبرات بشأن تنمية الزراعة والعمل على نهضتها[٢] .

ثالثاً : اهتمام ولاة الأمر بالزراعة : ساهم ولاة الأمر بالمغرب الأقصى بجهودهم فى دفع عجلة الإنتاج بالبلاد ، ومن ذلك اهتمامهم بالزراعة وما يتعلق بها إذ أن المرابطين أخذوا على عاتقهم مهمة توفير الأمن والطمأنينة للسكان والقضاء على الفتن والحروب وبذلك استطاع السكان استثمار الأرض[٣]، كما أن أمير المسلمين على بن يوسف بنى قنطرة على نهر تانسيفت لتسهم بدورها فى توزيع المياه اللازمة للزراعة وفى ذلك يقول الادريسى « وعلى ثلاثة أميال من مراكش نهر يسمى تانسيفت وليس بالكبير لكنه دائم الجرى وزمن الشتاء يحمل بسيل كبير لا يبقى ولا يذر ، وبنى على بن يوسف عليه قنطرة عجيبة متقنة الصنع فجلب إلى عملها صناع الأندلس وجملا من أهل المعرفة بالبناء فشيدوها وأتقنوا بنيانها حتى كملت »[٤] وقد وصف المراكشى هذه القنطرة بأنها قنطرة عظيمة[٥] ألا أن هذه القنطرة هدمت فأمر ببنائها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م[٦] .

وكذلك اهتم خلفاء الموحدين بالزراعة وشجعوا المزارعين على استغلال الأرض[٧] وحرصوا على توفير مياه الرى اللازمة للزراعة ، اذ اهتم المنصور

---

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٣ .

(٢) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ١ ص ٤٠، نفس المؤلف : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١١٠ .

(٣) نفس المؤلف : تاريخ المغرب جـ ١ ص ٣٠ ، د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٢٦ .

(٤) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٩ ت دوزى .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ .

(٦) ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص ٢١٥ طبع حجر .

(٧) Julien ; Histoire de L'Afrique P ; 122.

الموحدى اهتماماً كبيراً بتوفير مياه الرى[١] .

وقد شهدت المنطقة الكثير من الحملات العسكرية التى خرجت للغزو والجهاد نتيجة للظروف السياسية والعسكرية التى مرت بها البلاد ، وقد حرص قادة الجيوش خلال هذه الحملات على حماية المزروعات والحفاظ عليها وقد تجلى ذلك حين حذر ابن تومرت أتباعه من التعرض بالاتلاف للمزروعات وفى ذلك يقول ابن القطان « وأوصاهم — أى ابن تومرت — فى سفرهم إذا مروا على طريق متصل بها زرع نكبوا عنه ودارأوا أهل الفساد عنه[٢] » كذلك فعل الخليفة عبد المؤمن بن على حين عزم على التوجه إلى أفريقية سنة ٥٥٤هـ / ١١٤٩م فإنه أمر جنوده بالرغم من كثرة عددهم بعدم المساس بالمزروعات يقول النويرى « فلما كان فى صفر سنة أربع وخمسين وخمسمائة سار — أى عبد المؤمن بن على — يريد إفريقية ومعه من العساكر مائة ألف مقاتل ومن السوقة والأتباع أمثالهم وبالغ فى حفظ العساكر حتى كانوا يسيرون بين الزروع فلا تتأذى لهم سنبلة واحدة»[٣] وإن كان فى هذه الرواية شىء من المبالغة ألا أنها تعطينا إشارة لمدى حرص ولاة الأمر على الحفاظ على المزروعات وحمايتها من التلف ، وأيضاً فى خلال الحملات العسكرية لم ينس ولاة الأمر واجبهم فى الإهتمام بشئون الزراعة فالناصر الموحدى بعد أن قضى على الثورات فى إفريقية سنة ٦٠٣هـ/ ١٢٠٦م وجه اهتمامه للزراعة وشئونها يقول ابن عذارى « وبعد اياب هذا البعث واستقراره ، وقضاء المرغوب من أوطاره ، أضمر الناصر الحركة إلى المغرب فى نفسه — وذلك بعد أن مهد افريقية واسترجع المهدية سنة ٦٠٣ هـ — ولم يخل النظر لها فى الباطن من فكره وحسه وأمر بإشاعة الاستقرار بتونس والنظر فى اتخاذ المحارث والاتساع فى المزارع »[٤] .

ولم يكن هذا الاهتمام قاصراً على خلفاء الموحدين وحدهم بل كان السادة من بنى عبد المؤمن وولاة بجاية وتلمسان وغيرها يعنون بالغراسة[٥] .

---

(١) Brelvi ; Islam in Africa, P ; 137.

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٨ .

(٣) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٤ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢١٣ تطوان .

(٥) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٥٢ .

وبجانب اهتمام ولاة الأمر بالمزروعات وحمايتها فقد لجأ بعضهم إلى منح بعض الأراضى الزراعية إلى الجنود وغيرهم لزراعتها واستثمارها وذلك على شكل إقطاعات وهؤلاء عملوا على استغلالها مما ساعد على ازدهار الزراعة ونموها وقد أشار الماوردى إلى الأقطاع وأحكامه بقوله « وإقطاع السلطان مختص بما جاز فيه تصرفه ونفذت فيه أوامره ولا يصح فيما تعين فيه مالكه وتميز مستحقه وهو ضربان : إقطاع تمليك وإقطاع استغلال . . »[١] وكان نظام الإقطاع من أسباب ازدهار الزراعة بالأندلس وذلك حين كانت الأرض بأيدى الأجناد يستثمرونها ويستغلونها ويرفقون بالفلاحين وبذلك كانت الأراضى عامرة[٢] إلى أن كان الأمر فى آخر أيام بنى عامر فرد عطايا الجند بقبض الأموال وقدم على الأرض جباة يجبونها فأكلوا الرعايا حتى إذا استولى المرابطون على الأندلس ردوا الإقطاعات كما كانت فى الزمان القديم[٣] ويبدو أنهم اتبعوا هذا النظام بالمغرب أيضاً من منح قطع من الأرض لجنودهم لاستثمارها وخاصة جنود لمتونه[٤] .

وجرى على نفس السياسة خلفاء الموحدين حين منحوا كثيراً من الأراضى لمن تقرب إليهم أو دخل فى طاعتهم فالخليفة عبد المؤمن حين مدحه أحد الشعراء وهو أبو القاسم بن مسعدة الأوسى أجزل صلته وأمر له بضيعة يحرث له بها[٥] واتبع نفس السياسة بالأندلس يقول ابن خلدون « وكتبوا بالفتح — أى جنود الموحدين الموجودين بالأندلس — إلى عبد المؤمن وقدم عليه وفودهم بمراكش يقدمهم القاضى أبو بكر فتقبل طاعتهم وانصرفوا بالجوائز والإقطاعات لجميع الوفد سنة ثنتين وأربعين وخمسمائة »[٦] كذلك حين دخل ابن همشك فى طاعة الموحدين وقدم من الأندلس إلى المغرب فى سنة ٥٧١هـ / ١١٧٥م

---

(١) الماوردى : الأحكام السلطانية ص ١٩٠ .

(٢) الطرطوشى : سراج الملوك ص ١٠٠ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٠٠ .

(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٠٥ ، ٤٠٦ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٠ .

(٥) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ٣٨٦ .
J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim P ; 43.

(٦) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣٤ .

فان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أقطعه عدة إقطاعات بمدينة مكناسة ليستثمرها[١]
وكذلك صاحب قفصة حين دخل فى طاعة الموحدين سنة ٥٧٥هـ / ١١٧٩م
فان الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أقطعه ولاية كبيرة[٢] وقد أشار المراكشى
إلى تمتع الموحدين بالمرتبات بجانب امتلاكهم الاقطاعات[٣] ولم يكن الموحدون
وحدهم هم الذين تمتعوا بهذه الإقطاعات بل وغيرهم ممن دخل فى خدمة الدولة
كالغز حيث منح المنصور الموحدى بعض الإقطاعات لهؤلاء الغز إذ أعطى
أعيانهم اقطاعات كإقطاع الموحدين ، يقول المراكشى « أقطع رجلا منهم
فيما اعرف من أهل إربل يعرف بأحمد الحاجب ، مواضع ليس لأحد من
قرابته مثلها واقطع شعبان المذكور بالأندلس قرى كثيرة تغل فى كل سنة
نحو من تسعة آلاف دينار[٤] » .

وهكذا أسهم ولاة الأمر حين منحوا بعض الأراضى لأتباعهم على
تنشيط عملية الزراعة ، إذ حرص هؤلاء المقتطعين على استثمار الأرض حتى تغل
عليهم أرباحاً وفيرة .

المحاصيل الزراعية :

كانت الأراضى الزراعية بالمغرب الأقصى مصدراً خصباً لكثير من
المحاصيل الزراعية ، وشهدت البلاد وفرة فى المزروعات حيث قامت كثير
من المدن المغربية بزراعة النباتات المختلفة وقد أشارت المراجع إلى تمتع كثير
من المدن والقرى المغربية بوفرة فى المزروعات ومن ذلك ما تميزت به مدينة
مكناسة من كثرة المزروعات والحدائق[٥] ومدينة تلمسان وما فيها من الغلات
الكثيرة والمزارع الخصبة[٦] وجبال درن حيث جادت فيها الزراعة وكثرت
المحاصيل الزراعية[٧] ومدينة نفيس وما تتمتع به من كثرة فى الأشجار والثمار[٨]

---

(١) عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الثانى ص ٥٧ .
(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٩ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ٣٨٩ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٣٨٩ ، ٣٩٠ .
(٥) الادريسى : وصف المغرب ص ٧٧ ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٧ .
(٦) الادريسى : وصف المغرب ص ٨٠ .
(٧) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون جـ ٦ ص ٢٣ .
(٨) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٨ .

وأيضاً مدينة مراكش حيث كثر فيها الزرع والضرع [١] ومن المزروعات التى زرعت بالمنطقة وأنتجت محاصيل وفيرة :

(١) القمح : وقد زرع بمناطق متفرقة من أرض المغرب الأقصى فنى المناطق الشمالية من البلاد جادت زراعة القمح حيث كانت أكثر مزروعات أهل طنجة من القمح [٢] ومدينة أزيلى كان حظها من القمح وافرا [٣] كذلك مدينة البصرة ومدينة كرت وما سيته كان أهلها يقومون بزراعة القمح [٤] أما فى المناطق الشرقية من البلاد فقد قام الفلاحون بزراعة القمح فى الطريق المتجه من فاس إلى تلمسان كانت هناك قرى كثيرة ، ومزارع على الصفين زرع بها نبات القمح [٥] فإذا ما اتجهنا إلى جنوب البلاد وجدنا كثيراً من المدن والقرى اهتمت بزراعة القمح فبلاد السوس وهى قرى كثيرة كانت تجود فيها زراعة الحنطة [٦] ومن بلاد السوس هذه مدينة نفيس الجبل وهى مدينة صغيرة وبها الحنطة كثيرة [٧] وكذلك مدينة سجلماسة حيث ازدهرت فيها زراعة القمح [٨] وقد وصف صاحب كتاب الاستبصار القمح فى مدينة سجلماسة بقوله « وقمحهم رقيق الحب يسع مد النبى صلى الله عليه وسلم من قمحهم ٧٥ ألف حبة» [٩] .

ويصور لنا مدى وفرة محصول القمح فى عهد الموحدين ما شاهده ابن صاحب الصلاة ورواه عن الكميات الضخمة من القمح والشعير التى أعدّها عبد المؤمن لجنوده حين عزم على العبور إلى الأندلس ، يقول ابن صاحب الصلاة « وأعد — أى عبد المؤمن — من القمح والشعير للعلوفات والمواساة للعساكر على وادى سبو بالمعمورة المذكورة ما عاينته مكدساً كأمثال الجبال ،

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٠٩ .
(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨٠ بيروت .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٨٠ بيروت .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٨٠ .
(٥) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٨ .
(٦) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١١ .
(٧) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١١ .
(٨) مجهول : الاستبصار ص ٢٠١ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١١ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ١٦٤ .
(٩) مجهول : الاستبصار ص ٢٠١ .

بما لم يتقدم لملك قبله ولا سمعنا به فى جيل من الأجيال ، بقى فى ذلك الموضع معداً من عام سبعة وخمسين إلى عام اثنين وستين وخمسمائة حتى فنى فى أكداسة وعاد تراباً ورماداً باحتراقة بعضه فى بعض وإفساد الزمان له إفساداً »[١].

٢ — الشعير : وقد ازدهرت زراعته بالبلاد فكان فى أكثر من مدينة وقرية فقد كثرت زراعته بمدينة طنجة وأزيلى والبصرة وكرت[٢] وكذلك بلاد السوس فى الجنوب حيث أطلق ابن سعيد عليها بلاد حنطة وشعير[٣] وكذلك زرع الشعير بقلعة مزوار وهى قلعة صغيرة فى الطريق بين فاس وتلمسان[٤] وقد سبق أن أشرت إلى أن الخليفة عبد المؤمن جمع أكداساً من القمح والشعير ليجهز جيشه فى غزو الأندلس[٥] وهذا يبين مدى توفر محصول الشعير بالبلاد .

٣ — الذرة وأنواع أخرى من الحبوب : وقد زرعت الذرة بمنطقة سجلماسة[٦] كذلك زرع السمسم وغيره من البقول بمنطقة أغمات[٧] وأيضاً زرعت الحبوب بمنطقة طنجة[٨] وكذلك الأرز وإن كانت زراعته قليلة يقول القلقشندى « أما الأرز فانه عندهم قليل بعضه يزرع فى بعض الأماكن من بر العدوة »[٨] وقد زرع بمنطقة السوس[٩] .

٤ — القطن : وكان يزرع بالمناطق الوطيئة المنخفضة من سطح المغرب[١٠] وقد اهتم العرب اهتماماً خاصاً بإدخال زراعة القطن إلى المغرب ومن هناك

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢١٤ .
(٢) ابن حوقل : صورة الارض ص ٨٠ ، ٨١ .
(٣) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١١ .
(٤) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٨ .
(٥) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢١٤ ، ٢١٥ .
(٦) ابن رسته : الأعلاق النفيسة ص ٣٥٩ ، المقدسى : احسن التقاسيم ص ٢٣١ ط ٢ سنة ١٩٠٦ م .
(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٠ .
(٨) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨٠ .
(٩) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ١٧٥ .
(١٠) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١١ .

انتقلت زراعته إلى أسبانيا[١] وقد أشار الأدريسي إلى وجود القطن بمدينتي داى وتادله بكثرة بقوله «ويزرع بها — أى بمدينة داى — وبأرضها كثير من القطن ولكنه بمدينة تادلة يزرع أكثر مما يزرع بمدينة داى ومن مدينة تادلة يخرج القطن كثيراً ويسافر به إلى كل الجهات»[٢] كذلك زرع القطن بمدينة البصرة وكان من الكثرة بحيث كانت تصدر منه كميات كبيرة إلى إفريقية[٣] كذلك زرع القطن بمدينة كرت وماسيتة[٤] وأيضاً زرع القطن بقرية أم ربيعة[٥].

٥ — قصب السكر : وقد كثرت زراعته بمدن متفرقة من المغرب الأقصى ، فقد زرع بسبتة ولكثرته كان يحمل إلى ما جاورها من المدن والقرى[٦] ، كذلك اشتهرت مدينة أغمات بزراعتها لقصب السكر[٧] وأيضاً بقرية تارودنت من بلاد السوس حيث وصفها صاحب كتاب الإستبصار بقوله « وهى أكثر بلاد الله قصب سكر وفيها معاصر السكر كثيرة »[٨] وكذلك مدينة أيجلى وهى قاعدة بلاد السوس كثرت بها زراعة قصب السكر وبها معاصر كثيرة وأكثر شرب أهلها إنما هو ماء قصب السكر[٩] وجادت زراعة قصب السكر بمدينة تغيرا قاعدة دكالة وذلك لكثرة الأنهار التى تجرى بها[١٠]

٦ — الزيتون : وهو من المحاصيل الوفيرة بالمغرب ، وقد اهتم الموحدون بغرسه فى أكثر من مدينة حتى سميت مدينة مكناسة بمكناسة الزيتون وقد أشار ابن غازى إلى ذلك بقوله « وإنما عرف هذا البلد بهذه الإضافة ليمتاز عن مكناسة تازا وذلك أن من قبائل زناته قبيلا يقال لها مكناسة منهم فخذ بتازا شرقاً من مدينة فاس بينهما سبعة برد ومنهم فخذان بهذا الموضع المراد غرباً

---

(١) عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط ص ٧٤ .
(٢) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٧٥ .
(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨١ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٨١ .
(٥) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٤ .
(٦) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ٢٧ .
(٧) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٠ .
(٨) مجهول : الاستبصار ص ٢١١ ، ٢١٢ .
(٩) نفس المرجع السابق ص ٢١٢ .
(١٠) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ص ٤٦ .

من مدينة فاس وبينهما ثلاثة برد ونصف وبهذا تميزت إحداهما عن الأخرى بما أضيفت إليه»(١) وقد كثر محصول الزيتون بمدن مكناسة وفاس ورباط تازا وكان هذا راجعاً إلى تشجيع الموحدين على زراعته والاعتناء به(٢) وقد أشار ابن غازى إلى اهتمام أحد ولاة الموحدين بغرس الزيتون ومقدار الأموال التى كانت تجمع من وراء زراعته « وأما الزيتون فهو فيها — أى فى مدينة مكناسة — كثير جداً ولذلك أضيفت إليه واشتهرت به ولما ولى محمد بن عبد الله بن واجاج فى أول أيام الموحدين بلاد المغرب سيفاً وعملا غرس بها وبفاس وبرباط تازا بحيرات أكثر غراساتها الزيتون فكان حب زيتون بحيرة مكناسة يباع عام الخمس — ربما كان المقصود بها سنة ٥٥٥ أى سنة الأخماس — بخمسة وثلاثين ألف دينار ونحوها ، وحب زيتون بحيرة فاس بخمسين ألف دينار ونحوها ، وحب زيتون بحيرة تازة بخمسة وعشرين ألف دينار ونحوها وذلك قبل أن يستولى على المغرب تخريب بنى مرين»(٣) والبحيرة معناها البستان فى لغة المغاربة (٤) كذلك ما رواه عباس المراكشى نقلا عن ابن اليسع عن كميات الزيتون وأثمانها فى سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م « قال ابن اليسع وما خرجت أنا من مراكش فى سنة ثلاث واربعين وخمسمائة إلا وهذا البستان الذى غرسه يبلغ مبيع زيتونة وفواكهه ثلاثين ألف دينار مؤمنية بحسب رخص الفاكهة بمراكش »(٥) وقد أشار المقدسى إلى كثرة الزيتون فى مدينة فاس بقوله « وهو بلد كثير الخيرات والتين والزيتون »(٦) كذلك كثرت زراعته بمدينة درعة(٧).

٧ — الكتان : ولم يكن محصوله بوفرة بقية المحاصيل وقد زرع بقرية

---

(١) ابن غازى : الروض الهتون ص ٢ .

(٢) ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس جـ ١ ص ٢٣ ط ١ سنة ٢٩، ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٧ ، عباس المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٣) ابن غازى : الروض الهتون ص ٣ .

(٤) العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ قسم ٤ ص ٧٨٢ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٨ .

(٥) عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٨٦ ، ٨٧ .

(٦) المقدسى : احسن التقاسيم ص ٢٢٩ .

(٧) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٦ .

أم ربيعة[١] وكذلك زرع بمدينة كُرت وقد أشار صاحب الإستبصار بأنها كانت تعرف ببصرة الكتان « وتعرف أيضا ببصرة الكتان لأن أهلها كانوا يتبايعون بالكتان[٢] » .

٨ — الحناء والكمون والكراوية : وقد كثرت زراعته بمناطق درعة وسجلماسة ، فى منطقة درعة تكثر زراعته ومنها تجلب إلى جميع البلاد لطيبها وله مزية فى البيع على سواها[٣] وقد أشار ابن سعيد إلى شجر الحناء بدرعة بقوله « والحناء يكبر بها حتى يكون فى قوام الشجر يصعدون إليه ومنها يأخذون بذوره ويتجهز به إلى كل الجهات لعدم وجوده بغيرها عندهم »[٤] كما أن شجر الحناء ينبت على جانبى نهر درعة[٥] وبجانب الحناء بدرعة كانت هنالك زراعات الكمون والكراوية والنيلج وهو النيلة[٦] كذلك تكثر زراعة الحناء والكمون والكراوية بمدينة سجلماسة ويصدر إلى جهات المغرب المتفرقة[٧].

ومن العرض السابق يمكننا أن نلحظ مدى انتشار المناطق الخصبة بالمغرب الأقصى ، والتى جادت فيها أنواع كثيرة من المزروعات ، وأنتجت لنا محاصيل وفيرة من القمح والشعير والقطن وقصب السكر والزيتون والكتان والحناء والكمون والذرة وغير ذلك من الحبوب .

الفواكه : شهدت منطقة المغرب الأقصى فترة من الازدهار فى زراعة الفاكهة بأنواعها المختلفة ولم تشر المراجع التى اطلعت عليها إلى اهتمام ولاة الأمر من المرابطين بزراعة الفواكه وعلى العكس من ذلك اهتم خلفاء الموحدين بغرس البساتين وزراعة الفواكه بها حيث اهتم الخليفة عبد المؤمن ومن جاء بعده بغرس البساتين المختلفة التى كانت تنتج مختلف الثمار ، فعبد المؤمن غرس بستاناً كبيراً خارج مدينة مراكش يقول البيذق « وفى عام خمسين زار — أى

(١) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٤ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٠٦ .
(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٨٩ .
(٤) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١١ .
(٥) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ص ٥٨ .
(٦) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١١ .
(٧) ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١١ .

عبد المؤمن بن على – قبر الامام المهدى وهبط إلى سلا وبقى فيها عامين اثنين ثم رجع إلى مراكش وغرس البحيرة التى بشنطولية ثم رجع إلى سلا »[١] وقد صور لنا ابن الخطيب مساحة هذا البستان ومقدار الفواكه التى ينتجها بقوله « وإن الخليفة عبد المؤمن غرس خارج مراكش بستاناً طوله ثلاثة أميال وعرضه قريب منه فيه كل فاكهة تشتهيها الأنفس وجلب إليه الماء من أغمات واستنبط عيونا كثيرة »[٢] وبجانب هذا البستان كان هناك بستان الصالحة الذى أنشأه الخليفة عبد المؤمن وهو بستان كبير من جملة بساتين أجدال بمراكش ولا زال مشهوراً بهذا الاسم إلى الآن[٣] .

فلما تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إهتم بغراسة البساتين كوالده يقول صاحب كتاب الاستبصار « وأحدث الخليفة بعده ابنه أبو يعقوب بحائر مثلها فى الغرس بل أجمل ، وجلب لها المياه وأخذها فى صهاريج أعظم من المتقدمة[٤] » .

حتى إذا تولى المنصورالموحدى غرس بستاناً كبيراً طوله اثناعشرميلا وعلى احدى جانبيه مجموعة كبيرة من أشجار النارنج يبلغ عددها اربعمائة شجرة بين كل اثنين إما ليمونة وإما ريحانه[٥] ولم يكن اهتمام ولاة الأمر بالغراسة قاصراً على العاصمة وما حولها ، وانما تعداه إلى المدن المغربية الأخرى فقد كثرت البساتين فى مدينة فاس[٦] كذلك مدينة مكناسة يقول صاحب كتاب الاستبصار « وأحدث فيها الأمر العالى – أيد الله دوامه – بحائر عظيمة فى نهاية من الاتساع وجلب لها ماء نهرها وأمر بغرسها زيتوناً وكروماً »[٧] وامتلأت بساتين فاس ومكناسة بأنواع كثيرة من الفواكه الصيفية والخريفية[٨]

---

(١) البيذق : اخبار المهدى بن تومرت ص ١٢٠ .
(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٩ ، ١١٠ .
(٣) محمد المنونى : العلوم والآداب ص ٢٤٠ .
(٤) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ .
(٥) محمد المنونى : العلوم والآداب ص ٢٤١ .
(٦) مجهول : الاستبصار ص ١٨١ ، ابن غازى : الروض الهتون ص ٣ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٦ .
(٧) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .
(٨) ابن غازى : الروض الهتون ص ٣ .

هذه البساتين المتعددة أنتجت كميات وفيرة من الفواكه المختلفة من التمر والعنب والتين والرمان والسفرجل والتفاح على أصناف وكذلك الكمثرى والمشمش والبرقوق والخوخ وغالب ذلك على عدة أنواع والتوت على قلة والجوز واللوز والليمون والنارنج والبطيخ واسمه عندهم الدلاع [١] .

فاذا ما حاولنا التعرف على مدن المنطقة وأنواع الفاكهة التى تشتهر بها لوجدنا أن العاصمة مراكش كانت أكثر بلاد المغرب جنات وبساتين وأعناب وفواكه وجميع الثمرات [٢]

كما أن مدينة فاس أنتجت مختلف الفواكه والثمار وكان بها تفاح حلو يعرف بالأطرابلس جليل حسن الطعم والرائحة [٣] كذلك كان بها التين [٤].

أما مدينة مكناسة فقد كثرت فيها زراعة الكروم [٥] وقد أشار ابن غازى إلى تنوّع الفواكه فى مكناسة بقوله « وهى كثيرة الفواكه والمزارع . . فيها أنواع كثيرة من الهلالج المسمى بقرب الأندلس العبقر ويسمونه البرقوق لا يكاد يوجد مثله فى غيرها من البلاد كثرة وطيباً . . وفيها المشمش المسمى بالأندلس البرقوق، وفيها أنواع من التفاح طيبة من جملتها نوع يسمى الطرابلسى حلو عطر . . وفيها أنواع كثيرة من الأجاص — الكمثرى أو البرقوق على اختلاف — وفيها سفرجل كبير حلو وحامض . . وفيها أنواع من الرمان كثيرة طيبة . . ورمانها القديم منه يقال له القابس وهو جليل شديد الحلاوة وفيها الجوز والخوخ وفيها من أنواع العنب الأبيض والأسود كثير يطبخ ولا يزبب وفيها من التين أنواع » [٦]

فاذا ما اتجهنا إلى المناطق الشمالية لوجدنا كثرة الفواكه والثمار . فجبل

---

(١) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٧٥ ، ١٧٦ ، عبد العزيز بنعبد الله : المعجم التاريخى ص ١٠ ، ١١ .

(٢) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ ، عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٦٤ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٨١ .

(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٢٩ .

(٥) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .

(٦) ابن غازى : الروض الهتون ص ٢ ، ٣ .

غمارة كان كثير الأعناب والفواكه[١] أما مدينة سبتة فكانت تصدر الفواكه إلى ما حولها لكثرة ما يغرس بها من أصناف الفواكه المختلفة[٢] أما مدينة نكر وهى تجاور جبل غمارة فإنها كانت كثيرة البساتين طيبة الفواكه لا سيما الكمثرى والرمان[٣] كذلك مدينة تطوان كانت كثيرة الفواكه والثمار[٤].

فاذا ما اتجهنا جنوب العاصمة مراكش لوجدنا مدينة أغمات وما بها من كثرة البساتين والفواكه ومنها الجوز واللوز والبلح[٥] أما جبل درن فقد تنوّعت فيه الفاكهة وقد أشار الادريسى إلى ذلك بقوله « وفى هذا الجبل — أى درن — من الفواكه التين الكثير الكبير الطيب المتناهى فى الطيب البالغ الحلاوة وفيه العنب المستطيل العسلى الذى لا يوجد فى أكثره نوى ومنه يتخذ الزبيب الذى عليه يتنقل ملوك المغرب لرقة قشرته وعذوبة طعمه واعتدال غذائه وفيه الجوز واللوز وأما السفرجل والرمان فيكون به منهما ما يباع الحمل منه بقيراط واحد وبه من الآجاص والكمثرى والمشمش كل غريبة وكذلك الإترج والقصب الحلو حتى أن أهل هذا الجبل لا يبيعونه بينهم ولا يشترونه لكثرته وعندهم شجر الزيتون والخرنوب المشتهى وسائر الفواكه »[٦] وكان العنب بجبل درن كثيراً حتى أن قبائل المصامدة المقيمة أكثر عيشهم إنما هو من العنب والزبيب[٧] وكذلك مدينة سجلماسة امتلأت بمختلف الفواكه من نخل وعنب ورمان[٨] وقد أشار ياقوت إلى أصناف البلح بمدينة سجلماسة فذكر أن فيها ستة عشر صنفاً من التمر ما بين عجوة وغير ذلك[٩] وقد تميزت هذه

(١) مجهول : الاستبصار ص ١٩٠ .

(٢) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ١٦٧ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ٢٧ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٣٦ .

(٤) مجهول : الاستبصار ص ١٣٧ .

(٥) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٠ ، مجهول : الاستبصار ص ٢٠٧ .

(٦) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٧) مجهول : الاستبصار ص ٢١١ .

(٨) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٤٨ ط ٢ ت دى سلان ، ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٠ ، المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٣١ .

(٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٥ .

الأصناف واشتهرت بحلاوتها يقول ابن سعيد « وبها نخل كثير وأنواع من التمر لا يشبه بعضها بعضاً ، وفيها الرطب المسمى بالبرنى أخضر اللون شديد الحلاوة صغير النوا »(١) .

أما منطقة السوس وقاعدتها مدينة أيجلى فكانت كثيرة البساتين والتمر وجميع الفواكه(٢) وقد أشار الادريسى إلى تنوع الفاكهة فى منطقة السوس بقوله « وبلاد السوس قرى كثيرة وعماراتها متصلة بعضها ببعض وبها من الفواكه الجليلة أجناس مختلفة وأنواع كثيرة كالجوز والتين والعنب العذارى والسفرجل والرمان الأمليس والأترج الكبير المقدار الكثير العدد وكذلك المشمش والتفاح المنهد وقصب السكر الذى ليس على قرار الأرض مثله طولا وعرضاً وحلاوة وكثرة ماء »(٣).

ومن هذا العرض لمدن المغرب الأقصى وما تشتهر به من فواكه نلحظ تنوع الفواكه وكثرتها ، تلك الفواكه التى غطت احتياجات السكان وزاد عن حاجتهم وصارت رخيصة الثمن حتى أن حمل التمر فى مدينة ايجلى ببلاد السوس ربما بيع بما دون كراء الدابة من الجنان إلى السوق(٤) .

وبجانب هذه الزراعات المختلفة كانت هناك أنواع مختلفة من الخضر التى قام الفلاحون بزراعتها ومن هذه الخضر الخيار والقثاء واللفت والباذنجان والقرع والجزر واللوبيا والكرنب وغير ذلك من أنواع الخضروات(٥) .

الغـــابات :

يضاف إلى هذه الثروة الزراعية من المحاصيل والفواكه تلك الغابات التى نبتت فى أجزاء متفرقة من البلاد نتيجة لتنوع السطح والمناخ ، وهذه الغابات أمدت البلاد بكميات وفيرة من الأخشاب التى استخدموها فى كثير من

---

(١) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١١ .
(٢) مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .
(٣) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٦١ ، ٦٢ .
(٤) مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .
(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٧٦ .

الصناعات ومنها صناعة السفن ، وقد تناثرت هذه الغابات فى مناطق متفرقة ، فالعاصمة مراكش قبل بنائها كانت قرية صغيرة فى غابة من الشجر [١] وكذلك قرية أم ربيعة وهى تقع فى جنوبى أحد أودية المغرب الأقصى وكان بجوارها غابة كبيرة ملتفة [٢] كذلك جبل درن وما به من أشجار كثيرة [٣] وأيضاً مدينة نفيس وما بها من أشجار كثيرة [٤] ،

هذه الغابات احتوت على أنواع كثيرة من الأشجار اهمها : أشجار الأرز وهو ينبت بالأطلس المتوسط والريف [٥] والعرعر وهو شجر عظيم خشبه جيد وله رائحة طيبة ويستعمل فى الصنائع الخشبية [٦] والزان الاخضر وهو أكثر أنواع شجر الغابات كذلك شجر البلوط والصنوبر والأركان [٧].

الثروة الحيوانية :

وقد صاحب كثرة الغرس والزراعات المختلفة ، أن حظت البلاد بثروة حيوانية كبيرة نتيجة لاختلاف السطح والمناخ مما نتج عنه أقاليم رعوية كثيرة وخاصة فى منطقة الأطلس الأوسط حيث أنه أقل ارتفاعاً من الاطلس الكبير مع وفرة فى الأمطار مما نتج عنه انتشار المراعى [٨] وقد أشار ياقوت الحموى إلى المراعى بمدينة البصرة إحدى مدن الشمال بقوله « والبصرة مدينة كبيرة وهى أوسع تلك البلاد مرعى وأكثرها ضرعاً ولكثرة ألبانها تعرف ببصرة الذبان » [٩] كما أشار صاحب كتاب الاستبصار إلى أهل جبل فازاز واشتغالهم بالرعى بقوله « ومن الجبال المشهورة ببلاد المغرب فازاز ، وهو جبل كبير تسكنه أمم كثيرة من البربر ويطردهم الثلج عنه فينزلون إلى ريف البحر الغربى وهم أهل كسب من الغنم والبقر والخيل » [١٠] كذلك قرية آنفال حيث كثرت

---

(١) ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٧٥ .
(٢) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٤ .
(٣) مجهول : الاستبصار ص ٢١١ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٠٨ .
(٥) محمد الفاسى : التعريف بالمغرب ص ١٨ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ١٩ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ١٩ .
(٨) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢ .
(٩) ياقوت الحموى : معجم البلدان ج ١ ص ٦٥٣ .
(١٠) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .

فيها المواشى والإبل والبقر نتيجة لخصوبة المرعى بها(١) كما أن المرعى غطت مناطق واسعة فى الجنوب ففى منطقة أغمات انتشرت المراعى(٢) ، وأيضاً مواطن المثلمين فى جنوب تلك الصحراء التى تمتد بين بلاد المغرب الأقصى والسودان فإن سكانها من الملثمين لم يكونوا يعرفون حرثاً ولا زرعاً ولا فاكهة وإنما اموالهم الانعام نتيجة لانتشار المرعى(٣) وهذه المراعى التى انتشرت فى انحاء البلاد ضمت بين جنباتها كثيراً من الحيوانات المستأنسة من الخيل والبغال والحمير والابل والبقر والغنم(٤) وقد أشار البيذق إلى بعض هذه الحيوانات فى إحدى حصون المرابطين والتى استولى عليها الموحدون « وحصن تافر ككوت فى كيلك غيفره غزاه البشير مع أصحابه ومات عمر بن يندوك فأخذنا له مائة وخمسين فرساً ومات فيهم خمسمائة رجل وغنمنا فى غنيمتهم خمسمائة حمار دون البقر والغنم »(٥) .

وقد اشتهرت المراعى بتلمسان بجودة خيولها حيث كانت تسمى الخيل الراشدية ولها فضل على سائر الخيول(٦) كما أن جبل فازاز اشتهر بكثرة النتاج فى الخيل(٧) وقد وصف صاحب كتاب الاستبصار هذه الخيول بقوله «وخيل هذا الجبل من أعتق الخيول لصبرها وخدمتها وهى مدورة القدور حسنة الخلق والاخلاق(٨) » ومما يدل على كثرة النتاج فى الخيل أن الخليفة عبد المؤمن استطاع أن يبعث إلى الأندلس فى إحدى الحملات العسكرية اثنى عشر ألف حصان وذلك لنجدة قرطبة التى حوصرت فى سنة ٥٤٥ هـ / ١١٥٠م بواسطة الفونسو ملك طليطلة(٩) .

لذلك زخرت المراعى بالجمال التى استخدمها السكان فى أغراض متنوعة

---

(١) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٤ .
(٢) ابن رسته : الاعلاق النفيسة ص ٣٦٠ .
(٣) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٣ .
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٧٦ .
(٥) البيذق : اخبار المهدى ص ١٢٩ .
(٦) ياقوت : معجم البلدان جـ ١ ص ٨٧١ .
(٧) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ص ٧٥ .
(٨) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .
(٩) Murphy : The History of the Mahometan, P ; 131

كالزراعة والتجارة[١] كما أن المرابطين استخدموا الجمال وبأعداد وفيرة فى معاركهم يقول ابن الخطيب « وأنهم — أى المرابطين — خرجوا من الصحراء فى ثلاثين ألف جمل مسرج ففتحوا سجلماسة سنة ٤٦٠ هـ »[٢]، كما أن الأعداد الوفيرة من الجمال التى استخدمها يوسف بن تاشفين فى معركة الزلاقة كان لها دور مؤثر فى نتيجة المعركة لصالح المرابطين[٣] يقول ابن سعيد « فلما عبرت جيوش يوسف بن تاشفين عبر فى آخرها وأمر بعبور الجمال فعبر منها بما أغص الجزيرة وارتفع رغاؤها إلى عنان السماء ولم يكن أهل الجزيرة رأوا جمالا قط ولا كانت خيلهم رأت صورها ولا سمعت اصواتها فكانت تذعر منها وتقلق »[٤] .

وقد عاش فى جنوب البلاد حيوان اللمط ومن جلده كانت تصنع الدرق اللمطية المستخدمة فى المعارك[٥] وقد وصف البكرى هذا الحيوان بقوله « ومما فى هذه الصحراء من الحيوان اللمط وهو دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة لذكرانها وإناثها وكلما كبر الواحد طال قرنه حتى يكون أكثر من اربعة أشبار وأجود الدرق وأغلاها ثمناً ما صنع من جلود العواتق منها وهى التى طال قرناها لكبر سنها »[٦] .

وبجانب حيوان اللمط الموجود بالصحراء كانت هناك دواب الفنك والكباش الدمانية وقد وصفهما البكرى بقوله « ودواب الفنك أكثر شىء فى هذه الصحراء ومنها يحمل إلى جميع البلاد وعندهم الكباش الدمانية خلفها خلف الضأن إلا أنها أجمل وشعرها شعر الماعز لا أصواف لها وهى أحسن

---

(١) G,A. Jackson : Algiers ; being a complete, P ; 67.

(٢) ابن الخطيب : رقم الحلل ص ٥١ ، ٥٢ .

(٣) د. على محمد حموده : تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى ص ٢٧٥ ، De Gayanos The History of Mohametan Dynasties P; 279

(٤) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٧٠ .

(٥) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٧١ ، ابن سعيد : بسط الأرض ص ٤٦ .

(٦) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٧١ .

الغنم خلقاً وألوانا[١]» .

وهكذا عاشت فى المنطقة أنواع من الحيوانات المستأنسة كالخيل والبغال والحمير والأغنام والجمال واللمط والفنك .

أما بالنسبة للطيور الداجنة فقد ربى السكان أنواعاً كثيرة منها الأوز والحمام والدجاج[٢] ، وقد اهتم سكان المدن وخاصة مدينة فاس بتربية الدجاج وحمايته فى أقفاص كبيرة[٣] .

وبالنسبة للحيوانات غير المستأنسة فكانت تعيش فى الغابات والمناطق الصحراوية والتى كان يقوم السكان باصطيادها واستغلالها ، فمنها الأسود التى سكنت كثيراً من مناطق المغرب الأقصى ففى غابات قرية ايكسيس الكثير من الأسود[٤] يقول الادريسى « والأسود فيها — أى قرية ايكسيس — ظاهرة للناس عادية عليهم بالليل والنهار لا تستتر فى غياضها وبهذه القرية المسماة ايكسيس بيت متخذ لصيد الأسود حتى أنه ربما صيد منها فى الجمعة الثلاثة والأربعة والأكثر من ذلك والأقل[٥] » كذلك كان بجوار وادى أم الربيع غيضة كبيرة ويصف الادريسى ما بها من أسود « وهى غابة كبيرة ملتفة والأسود بها كثيرة وربما أضر بالمار والجائى غير أن أهل تلك النواحى لا يهابونها وقد تمهروا فى مقاتلتها بأنفسهم من غير سلاح»[٦] وكانت المناطق الجبلية بين فاس وتامسنا ممتلئة بالأسود والتى تعود الناس على اصطيادها[٧] .

وبجانب الأسود كانت هناك أسراب النعام التى انتشرت فى أماكن متفرقة ، وقد عاش النعام ومعه الغزلان فى المنطقة الصحراوية التى بنيت عليها مدينة مراكش[٨] وكذلك بقرية أنفال حيث اجتمعت أسراب كبيرة

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٧١ .
(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٧٧ .
(٣) د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى جـ ٤ ص ٦٣٩ .
(٤) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٤ .
(٥) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٧٢ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ٧١ .
(٧) Budgett Meakin ; The Land of the Moors, P : 53
(٨) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٩ ت د. احسان .

من النعام يقول الادريسى « وقبالتها — أى قبالة قرية أنفال — فحص طويل وقد انحشرت إليه طيور النعام فهى فى أكنافه سارحة وعلى مراقبه دارجة وهى آلاف لا تحد ولا تعد وأهل تلك النواحى يصيدونها طردا بالخيل فيقبضون منها جملا كبارا وصغاراً ، وأما بيضها الموجود فى هذا الفحص فلا يحاط به كثرة ولا يحصل ومنه يحمل إلى كل البلاد »[1].

الثروة السمكية .

كان لموقع المغرب الأقصى وامتلاكه لشاطئين احدهما يطل على البحر المتوسط والآخر يطل على المحيط الاطلسى مع كثرة الأنهار التى تخترق وديان المغرب الأقصى ومرتفعاته أثر كبير فى تزويد البلاد بثروة سمكية حيث مارست طائفة من سكان البلاد مهنة الاصطياد من شواطىء البحار وعلى ضفاف الأنهار ففى الأنهار القريبة من مراكش كان الصيادون يصطادون كميات كثيرة من الأسماك ، يقول ابن الموقت « وأما الأنهار القريبة منها — أى من مدينة مراكش فمتعددة منها النهر المعروف بوادى أسيل بباب الربع وعليه قنطرة وماؤه يخرج من عيون كثيرة من رؤوس الجبال القريبة من المدينة ، ويوجد فى هذا النهر من أنواع الحوت شىء كثير وفى كل يوم يحملون منه أحمالا إلى المدينة »[2] كذلك النهر الذى يمر بمدينة فاس والمسمى بنهر الجوهر به أنواع كثيرة من الأسماك ذكرها الجزنائى بقوله « ويخرج منها أنواع الحوت مثل اللبين والبورى والسلباح والبوفة ذلك كله حوت لذيذ الطعم كثير المنفعة[3] » أما وادى سبو فقد تميز بأسماكه ذات الأوزان الكبيرة حتى أن بعض هذه الأسماك تزن الواحدة قنطاراً وأزيد[4] وقد أشار صاحب كتاب الاستبصار إلى الأنواع المختلفة من الأسماك الموجودة بوادى سبو بقوله « ويتصيد فى هذا الوادى الشابل الكثير ويطلع إلى رأس العين أو قريب منه ، ويدخل فى هذا الوادى الحوت الكثير ، ويتصيد فى بعض الأحيان البورى الكبير ، وذكر الثقاة أنه بيع واحد بثلاثة عشر درهماً ورطل كبير منه بدرهم ونصف ويصل إلى المدينة

---

(١) الادريسى : وصف المغرب والاندلس ص ٧١ ، ٧٢ .
(٢) ابن الموقت : السعادة الأبدية جـ ١ ص ٢٢ .
(٣) الجزنائى : زهرة الآس ص ٢٥ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٥ .

الحوت الكبير المسمى عندهم بالقرب يحمله الحمار . . وأخبرنى الثقات أنه كان بمدينة فاس ومكناسة الحوت الذى يسمى بالشوله وهو ألذّ مايوجد من أنواع السمك»(١) أما مدينة سلا وما يجرى بجوارها من نهر المعمورة فإنه يتميز بالحوت الطيب المعروف بالشابل(٢) وقد أشار الادريسى إلى كثرة الأسماك بهذا الوادى وكيف أنها لا تباع ولا تشترى لكثرتها يقول الادريسى « وفى هذا الوادى أنواع من السمك وضروب من الحيتان والحوت بها لا يكاد يباع ولا يشترى لكثرته وجودته»(٣) ، أما مدينة سبتة وهى مدينة ساحلية فقد كثرت بها أنواع الأسماك وقد أعطانا الادريسى وصفاً للطريقة المستخدمة فى اصطياد هذه الأسماك يقول الادريسى «وبمدينة سبتة مصايدللحوت ولايعدلها بلد فى إصابة الحوت وجلبه ويصـــاد بها من السمك نحو مائة نوع ، ويصاد بها السمك المسمى التن الكبير وصيدهم له يكون زرقاً بالرماح وهذه الرماح لها فى أسنّها أجنحة بارزة تنشب فى الحوت ولا تخرج وفى أطراف عصيها شرائط القنب الطوال ولهم فى ذلك دربة وحكمة سبقوا فيها جميع الصيادين لذلك»(٤) كما أنه يصاد بشواطىء سبتة أحجار المرجان الذى يصنع كعقود من الخرز ويصدر إلى الخارج(٥) .

أزمات اقتصادية :

شهد المغرب الأقصى منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين حتى نهاية حكم الناصر الموحدى فترة من الرخاء الاقتصادى والانتعاش المادى نتيجة لما تنتجه الأرض من المزروعات والثمار وما صحب ذلك من وفرة فى الثروة الحيوانية والسمكية ، ألا أن هذا لم يمنع من وجود بعض فترات القحط وارتفاع فى الاسعار وقلة فى أنواع الطعام .

وبتتبع العوامل التى أدت إلى حدوث هذه الأزمات لوجدنا أنها ترجع إلى : كوارث طبيعية كالزلازل والفيضانات ، أو نتيجة لاشتعال المعارك

---

(١) مجهول : الاستبصار ص ١٨٤ ، ١٨٥ .
(٢) نفس المصدر السابق ص ١٤١ ، ابن سعيد : بسط الأرض ص ٧٢ .
(٣) الادريسى : وصف المغرب والاندلس ص ٧٣ .
(٤) الادريسى : وصف المغرب والاندلس ص ١٦٨ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ١٦٨ .

والحروب فى البلاد وما يصحب ذلك من تدمير وهلاك، أو نتيجة للاستعدادات الضخمة للقيام بحملة عسكرية والتى تستلزم تجنيد ثروات البلاد من أجل هذا الهدف مما يؤدى إلى قلة المواد وارتفاع فى الاسعار وأخيراً إهمال بعض الولاة مما يترتب عليه قلة فى المواد الغذائية .

أما بالنسبة للعامل الأول : وهى الكوارث الطبيعية فذلك كالزلزال الذى أصاب المغرب سنة ٤٧٢ بأضرار بالغة يقول ابن أبى زرع « وفى ربيع الآخر منها — أى سنة ٤٧٢هـ — كانت الزلزلة العظيمة التى لم ير الناس بالمغرب مثلها هدت البنيان ومات فيها خلق كثير تحت الردم ، ووقعت الصوامع والمنارات ولم تزل الزلزلة تتعاقب وتتكرر فى كل يوم وليلة من أول يوم ربيع الآخر إلى آخر يوم من جمادى الآخر من السنة المذكورة »[١] أو تصاب منطقة بسيل جارف يكتسح كل ما يلقاه فى طريقه كما حدث بطنجة سنة ٥٣٢ / ١١٣٧م حيث كان السيل العظيم الذى حمل الديار والجلدومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب[٢] كما أن الفيضانات لعبت دورها فى إتلاف كثير من الاراضى الزراعية وما يصحب ذلك من قلة فى المحصول وارتفاع فى الاسعار كما حدث ذلك فى سنة ٥٣٦ هـ / ١١٤١ م يقول ابن عذارى « وفى هذه السنة — أى سنة ٥٣٦هـ - أكل وادى فاس باب السلسلة وفتقت جزيرة مليلة وأكل البحر طنجة إلى الجامع الكبير ، وأكل وادى سبو أخبية لمتونة وكان عبد المؤمن إذ ذاك فى غياثة وبلغ الشعير فى ذلك الوقت ثلاثة دنانير للسطل»[٣] .

كما أن الجراد كان يشكل فى بعض الأحيان خطراً على المزروعات ، وذلك كما حدث بمدينة أغمات وإبادة الجراد لكثير من المحصولات وشكوى أهل أغمات لأحد الصالحين الذى دعا لهم فصرف الله عنهم ذلك الوباء[٤] ، كما أن الأوبئة أحدثت قحطاً بمدينة فاس سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩م[٥] .

---

(١) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٩٦ ت الفيلالى .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩٦ ت د. احسان .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩٩ ت. د. احسان عباس .
(٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ١ ص ٦٦ .
(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٨٣ .

والعامل الثانى : الحروب والثورات وما تحدثه من عدم استقرار بالبلاد وانتهاب للأموال وشيوع للخوف والدمار كل هذا أدّى إلى سوء الأحوال الاقتصادية فنى حصار عبد المؤمن بن على لمدينة مراكش قبيل فتحها سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م عانى أهلها كثيراً من الشدائد يصورها ابن الخطيب بقوله « وطال الحصار عليهم واشتد الجهد بهم ولكثرة خيلهم ورجلهم نفد طعامهم وفنيت مخازنهم حتى أكلوا دوابهم ومات منهم بالجوع ما ينيف على مائة وعشرين ألفاً ، ولما طال عليهم الحصار واشتدت أحوالهم وهلكوا جوعاً حتى أكلوا الجيف وأكل أهل السجن بعضهم بعضاً وعدمت الحيوانات كلها والحنطة بأسرها ، واختبرت المخازن فلم يوجد بها شيء وعجزت عساكر اللمتونيين حينئذ عن الدفاع والامتناع »(١).

كما أن الغزوة الهلالية لإفريقية واتجاههم إلى أراضى المغرب وما صاحب ذلك من غزو وتخريب كانت له آثاره الاقتصادية السيئة على المغربين الأدنى والأوسط وانعكست هذه الآثار على المغرب الأقصى ، وقد أشار ابن خلدون إلى آثار هذه الغزوة على اقتصاديات المغرب بقوله « وافريقية والمغرب لما جاز إليها بنو هلال وبنو سليم منذ أول المائة الخامسة وتمرسوا بها لثلثمائة وخمسين من السنين قد لحق بها وعادت بسائطه خراباً كلها بعد أن كان ما بين السودان والبحر الرومى كله عمراناً تشهد بذلك آثار العمران فيه من المعالم وتماثيل البناء وشواهد القرى والمدن»(٢) .

أما العامل الثالث : فكان الاستعداد العسكرى لبعض الحملات وما يصحب ذلك من اعداد الأقوات والمؤن للجيش المحارب مما يؤدى إلى ارتفاع فى الأسعار وقلة فى الطعام فقد غلت الاسعار بمراكش سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م(٣) وهى نفس السنة التى تجهز فيها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لغزوته الكبرى بالأندلس والتى انتهت بهزيمته عند أسوار شنترين وإصابته إصابة قاتلة سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م .

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٢ ، ١٠٣ .
(٢) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ١٥٠ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٩ تطوان .

كذلك حدثت مجاعة بمراكش سنة ٥٩١هـ / ١١٩٤م[١] وهى نفس السنة التى حدثت فيها معركة الارك وانتصار الموحدين فيها على جنود الروم بالأندلس وقد سبق الغزو حشد للجنود واعداد المؤن والطعام وكل ما يلزم المعركة .

والعامل الرابع تمثل : فى تقصير الولاة واهمالهم مما تسبب عنه قلة الأقوات وارتفاع الأسعار وهذا ما عاناه الناصر الموحدى هو وجنوده سنة ٦٠٧ هـ - ١٢١٠م أثناء توجهه إلى الاندلس للغزو فقد قاسى الجنود والناس قلة فى الطعام والأقوات نتيجة لإهمال الولاة يقول ابن عذارى « وسبب سطوته بعماله فى هذه السنة سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م أن لقى الناس فى هذه الحركة من تنوع المسغبة وانتشار المجاعة وتعذر الأوطار وعدم الأقوات مالم يعهده الناس وعلموه فى أسفارهم القاضيات ولا عارضهم مثلها فيما ترددوا فيه من زمن الفتن المبيرات»[٢] وقد أغضب كل ذلك الخليفة الناصر وعاقب كل من تسبب فى قلة الأقوات[٣] .

وهكذا أحدثت العوامل السابقة بعض الأزمات الاقتصادية والتى تمثلت فى قلة الأقوات وارتفاع فى الاسعار .

ب — الصناعة

لعبت الصناعة دورها فى ازدهار الحياة الاقتصادية بالمغرب الأقصى منذ تأسست على أرضه دولة المرابطين وحتى نهاية حكم الناصر الموحدى ، وازدهرت كثير من الصناعات المختلفة فى ظل حكام المغرب الأقصى ، نتيجة لاستقرار الأوضاع فى البلاد وتوفر المواد الخام التى تقوم عليها الصناعة مع وجود الخبرة الصناعية المتمثلة فى الأيدى العاملة والتى دفعت حركة التصنيع فى البلاد إلى الامام ، وهذه الصناعات وإن كانت بسيطة ومتمشية مع ظروف العصر الذى وجدت فيه إلا أن أول ما كانت تهدف إليه هو سد احتياجات المواطنين من المواد الاستهلاكية وغيرها . وقد ظهرت عدة صناعات منها صناعة السفن وصناعة الزجاج والنسيج وصناعة أدوات النحاس والحديد[٤]

(١) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٣٣ تطوان .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٣٣ تطوان .
(٣) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٢٣٤ تطوان .
(٤) Julien ; Histoire de L'Afrique du Nord, P ; 122.

وقد أشار عبد الرحمن بن أبى بكر إلى كثرة المصانع فى عهد الناصر الموحدى حتى بلغ عدد مصانع الصابون سبعة وأربعين مصنعاً ، ومصانع سبك النحاس مائة واثنى عشر مصنعاً ومصانع الغزل مائة وواحد وأربعين مصنعاً وغير ذلك من المصانع [١] . وقد قامت الصناعة فى المنطقة على دعامتين أساسيتين

الدعامة الأولى : توفر المواد الخام فى البلاد وهذه المواد إما معدنية أو نباتية أو حيوانية :

(ا) أما المواد المعدنية فقد تنوعت مادتها وأماكنها ومن هذه المواد معدن الحديد وكانت أماكنه بين سلا ومراكش فى موضع يدعى إبسنتار [٢] وكذلك قرب مدينة فاس [٣] أما معدن النحاس فقد وجد بمنطقة السوس [٤] وبالقرب من مدينة سجلماسة [٥] وبمدينة داى [٦] وقد أشار الإدريسى إلى قيمة هذا النحاس بقوله « ومدينة داى فى أسفل جبل خارج من جبل درن وهى مدينة بها معدن النحاس الخالص الذى لا يعدله غيره من النحاس بمشارق الأرض ومغاربها وهو نحاس حلو لونه إلى البياض يتحمل التزويج ويدخل فى لحام الفضة وهو إذا طرق جاد ولم يتشرخ كما يتشرخ غيره من أنواع النحاس» [٧] أما معدن الفضة فكانت مناجمه فى مناطق متفرقة منها مدينة زجندر المشهورة بمعدن الفضة وقد اشتغل أهلها باستخراج هذا المعدن من مناجمها [٨] كذلك حصن وركناس وجد به معدن الفضة [٩] وفى تادلا أيضاً وجد معدن الفضة [١٠]

---

(١) عبد الرحمن بن ابى بكر : البستان فى أخبار الزمان مخطوط بورقمه ٢٩ ، ٣٠ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٦٢ .

(٣) عبد العزيز بنعبد الله : المعجم التاريخى ص ٤٢ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٣٦٢ .

(٥) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٥٢ .

(٦) الادريسى : وصف المغرب ص ٧٤ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٦ .

(٧) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٧٤ .

(٨) المراكشى : المعجب ص ٣٦١ .

(٩) نفس المرجع السابق ص ٣٦٢ .

(١٠) ابن سعيد : بسط الارض ص ٧٥ .

كما أنه وجد أيضاً بمدينة تامدلت[١] أما معدن التوتيا والمستخدم فى صنع النحاس الأحمر وتحويله إلى أصفر فقد كان موجوداً بمنطقة السوس[٢].
وبالنسبة لمعدن الذهب فقد أشار المراكشي إلى أنه مستورد من بلاد السودان[٣] غير أنه وجد ببعض مناطق الجنوب وخاصة فى سجلماسة[٤] ويبدو أنه لم يكن بوفرة المعادن الأخرى الموجودة بالبلاد مع سهولة استيراده من أقاليم السودان مما دفع المراكشي إلى القول بعدم وجوده بأرض المغرب الاقصى . وبجانب الذهب كانت هناك بعض أنواع المعادن النفيسة الأخرى والتى قامت عليها صناعة الحلى وغيرها من أدوات الزينة كالصدف الثمين والمستخرج من نهر فاس[٥] والياقوت وقد أشار البكرى إليه بقوله « وهناك جبل يقابل جبل هزرجة فيه أجناس من الياقوت المتناهى فى الجودة وحسن اللون »[٦] وهناك بعض المواد الخام والتى دخلت فى صناعة مواد البناء وغيرها وهى الجص والصلصال والرمال المختلفة الأنواع وكانت قريبة من مدينة فاس[٧] ويبدو أن ولاة الأمر كانوا يشرفون على هذه المناجم واستغلالها فيما يعود بالنفع على المواطنين ، فحين بلغ الخليفة يوسف بن عبد المؤمن أن السكان المقيمين بهرغة قد استولوا على المعدن المكتشف بأرضهم واختصوا به أنفسهم توجه إلى المكان بنفسه وأقام عليه حصناً وحرسا يقول ابن عذارى « وذلك أنه لما صح عند أمير المؤمنين أن المعدن الذى بجبل السوس على مقربة من بلاد هرغة قد أخرج منه شيء لم يعهد فى قديم الزمان ولا سلمه قط أهل هذا المكان وظهر أهل هذا الجبل بما تحصل فى ايديهم منه واغتصبوه لأنفسهم دون حق منه للخليفة فعسكر فى أول صفر من سنة ثمان وسبعين وخمسمائة وخرج من حضرة

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٣ .
(٢) المراكشي : المعجب ص ٣٦٢ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٦٣ .
(٤) المقدسى : أحسن التقاسيم ص ٢٣١ ، البكرى : المغرب ص ١٥١ .
(٥) الجيلانى : رسالة فى ذكر كرمن أسس مدينة فاس ص ٤٥ ، الجزنائى : زهرة الآس ص ٢٥ .
(٦) البكرى : المغرب ص ١٥٣ .
(٧) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ٤٦ ، الجزنائى : زهرة الآس ص ٢٥ .

مراكش لتحصينه فوصل إلى المعدن المذكور فنظر الخليفة فى بناء حصن عليه وأسكنه بالأجناد واستعد لتحصينه غاية الاستعداد فلما كمل غرضه أقلع بمحلاته عنه[1]».

(ب) وأما المواد النباتية والتى قامت عليها بعض الصناعات فيأتى فى مقدمتها تلك الغابات التى غطت أجزاء من أرض المغرب الأقصى ومنها كانت تؤخذ الأخشاب وخاصة خشب الأرز لصناعة السفن[2] وبجانب ذلك فقد أقام السكان أنواعا من الصناعات على بعض المحاصيل الزراعية كاستخراج الزيوت من الزيتون وكصناعة الملابس القطنية من محاصيل القطن ، وصناعة السكر من قصب السكر ، وقد سبق أن أشرت إلى وفرة هذه المحاصيل وأماكن زراعتها .

(ج) أما الصناعات التى اعتمدت على الحيوانات فيأتى فى مقدمتها صناعة دبغ الجلود والتى حصلت على خامة الجلد من الحيوانات المختلفة التى كانت تملأ المراعى المنتشرة فى البلاد واستخدام أوبار الأغنام فى صناعة الملابس الصوفية ، كذلك كانوا يأخذون جلود حيوان اللمط ويصنعون منه الدرق اللمطية وهى خفيفة لينة لا ينفذ فيها النشاب ولا يؤثر فيها السيف وهى من أحسن الترس[3]

أما الدعامة الثانية : فى ازدهار الصناعة فهو توفر الأيدى العاملة المدربة على الصناعات المختلفة والتى انتشرت فى انحاء البلاد ، وقد اكتسب الصناع خبرتهم نتيجة للمهارات والخبرات التى تجمعت لديهم عبر السنين والتى توارثها الأبناء عن الأجداد بالاضافة إلى أهمية موقع المغرب الأقصى كهمزة وصل بين المشرق والاندلس فهو فى طريق القادم من المشرق قاصدا الأندلس وبالعكس ، ومنهم من كان يفضل الإقامة فى البلاد ، كذلك تلك الهجرات المبكرة من افريقية والتى قصدت المغرب الأقصى فى عهد دولة الادارسة واختلاطهم بالسكان مما نتج عنه تنوع الخبرات .

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٢ تطوان .
(٢) ابن سعيد : بسط الأرض ص ٧٣ .
(٣) أبى حامد الأندلسى : تحفة الالبا ص ٤٤ باريس سنة ١٩٢٥ .

حتى إذا قامت دولة المرابطين وصار إقليم الأندلس خاضعاً لسلطانهم استفاد ولاة الأمر من خبرات أهل الاندلس فى الصناعة ، فيوسف بن تاشفين حين عمد إلى التوسع فى البناء والتعمير استقدم كثيراً من صناع الأندلس[1].

وجرى على نفس السياسة خلفاء الموحدين من استقدام الصناع المهرة إلى العاصمة وغيرها من المدن المغربية ، وذلك للاستفادة بخبراتهم ، ومن أمثلة ذلك استقدام الخليفة عبد المؤمن الحاج يعيش المالقى والذى أمره بصناعة مقصورة هندسية ميكانيكية بالمسجد الجامع . وقد وضعت المقصورة على حركات هندسية ترفع بها عند خروج الخليفة وتخفض لدخوله[2] كذلك حين عزم الخليفة عبد المؤمن على كسوة مصحف سيدنا عثمان فانه حشد عدداً كبيراً من الصناع من العاصمة وسائر بلاد المغرب والأندلس فاجتمع لذلك حذاق كل صناعة من المهندسين والصواغين والنظامين والحلائين والنقاشين والمرصعين والنجارين والزواقين والمجلدين وغيرهم[3] ولا شك أن تشجيع ولاة الأمر للصناع الأندلسيين على المجىء إلى البلاد[4] قد أثمر تقدماً صناعياً نتيجة الاحتكاك المباشر بين الصناع من البلاد والخبرة الصناعية الوافدة من الأندلس ، وحتى فى أوقات الحروب وما يصحبها من سفك الدماء فان الخليفة عبد المؤمن كان حريصاً على حياة الصناع حتى لا تصاب الصناعات باضمحلال وقد ظهر ذلك جلياً حين استولى عبد المؤمن بن على ، على العاصمة مراكش وقضائه على المرابطين ، فانه أبقى على أرواح الصناع وفى ذلك يقول ابن الأثير « لما فتح عبد المؤمن مراكش أقام بها واستوطنها واستقر ملكه ولما قتل عبدالمؤمن من أهل مراكش فأكثر فيهم القتل ، اختفى كثير من أهلها فلما كان بعد سبعة أيام أمر فنودى بأمان من بقى من أهلها فخرجوا فأراد أصحابه المصامدة قتلهم فمنعهم وقال هؤلاء صناع وأهل الاسواق من ننتفع به ، فتركوا وأمر

---

(١) الجزنائى : زهرة الآس ص ٣٢ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٧ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٣٩ حاشية .

(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٤١ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٨ .

(٤) Nevill : A. Survey of North West, P ; 135.

باخراج القتلى من البلد فأخرجوهم» [١] .

المراكز الصناعية :

نهضت الحركة الصناعية فى عدة مدن مغربية ، وصارت مراكز صناعية منذ قيام دولة المرابطين .

ويأتى فى مقدمة هذه المدن : مدينة فاس التى شهدت تقدماً صناعياً فى عهد المرابطين ومن جاء بعدهم من الموحدين وقد وصفها ابن سعيد المغربى بقوله« وهى — أى مدينة فاس — من خواص المغرب الملاء بالخيرات والصنائع الغريبة »[٢] وقد أشارت المراجع إلى كثرة المصانع والدور التى تشتغل بالصناعات المختلفة فى مدينة فاس[٣] وفى ذلك يقول الجزنائى « والأطرزة — أى دور الأطرزة — ثلاثة آلاف وأربعة وتسعين ، ودور عمل الصابون سبعة وأربعين ودور الدباغين ستا وثمانين ، ودور الصباغ مائة وستة عشر ودور تسبيك الحديد والنحاس اثنى عشر ، ودور عمل الزجاج إحدى عشرة . . واحجار عمل الكاغيد اربعمائة ، كل ذلك بداخل المدينة ، ودور الفخارة مائة وثمانين بخارج المدينة ، نقل عن المشرف على بنى عمر الأوسى ، قال نقلته من خط الغريغر مشرف المدينة أيام الناصر بن المنصور»[٤] ، وهذه الاحصائية تعطينا أنواع الصناعات المختلفة الموجودة بالمدينة ومنها الصناعات النحاسية التى برع فيها أهل فاس[٥] ومن هذه الصناعات الأثاريق والصوانى والطسوت والأدوات المنزلية وغيرها[٦] كما أن بها دارين لسك النقود احداهما فى عدوة القرويين والأخرى بعدوة الاندلسيين وكانت تسبك بهما النقود الذهبية[٧]

---

(١) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٠١ .

(٢) ابن سعيد : بسط الأرض فى الطول والعرض ص ٧٤ .

(٣) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس مخطوط ص٥٧ ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٨ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ ٢ ص ٣١٧ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٢٦ ، أبراهيم حركات :المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٧ .

(٤) الجزنائى : زهرة الآس ص ٣٣ .

(٥) مجهول : الاستبصار ص ١٨١ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٥٧ .

(٦) احسان حقى : المغرب العربى ص ٢٠٧ .

(٧) المنونى : العلوم والفنون ص ٢٥٧ .

وقد أورد أبو الحسن على وهو من فقهاء القرن السابع الهجرى فى كتابه الدوحة المشتبكة الطرق المختلفة والتى كان يتبعها الصاع فى تنقية الذهب والفضة من الشوائب المختلفة حتى يصبح جاهزا لسكه كعملة نقدية[1] وروايته تعطينا صورة لمدى معرفتهم بالمعادن وطريقة تنقيتها وصوغها ، كذلك برع أهل فاس فى صناعة المنسوجات والملابس وصبغها بالألوان المختلفة[2] أما صناعة الورق فقد ازدهرت وبلغت شأواً عظيما[3] ونظراً لموقع فاس قريباًمن الأراضى المزروعة بالزيتون ، فان أحمال الزيتون كانت تتجه إليها يومياً وذلك حتى يقوم الصناع باستخراج زيت الزيتون وتصديره إلى المناطق المتفرقة من البلاد ، كذلك كان لموقع المدينة قريباً من وادى سبو سبباً فى انشاء دار لصناعة القوارب والسفن الصغيرة[4] وأيضاً دبغ الجلود وصناعتها مما اشتهرت به مدينة فاس[5] .

أما العاصمة مراكش فتأتى فى المركز الثانى من حيث أهميتها الصناعية إذ أنها كانت حديثة البناء حيث بنيت فى سنة ٤٧٩هـ / ١٠٨٦م ، ولم تكن لها قدم مدينة فاس التى بنيت فى سنة ١٩٣ هـ / ٨٠٧م فى عهد إدريس بن ادريس والتى اكتسبت مكانة دينية وثقافية وتجارية عبر السنين ، وقد اشتهرت مراكش بصناعة الصابون والمنسوجات[6] كذلك اشتهرت بصناعة الزرابى[7]

أما المدن الساحلية مثل سبتة وطنجة فقد اشتهرتا بصناعة السفن ، وقد نالت صناعة السفن عناية ولاة الأمر لاحتياجهم لها فى نقل جنودهم إلى

---

(١) أبو الحسن : الدوحة المشتبكة ص ٣٤ ، ٣٥ ت د. حسين مؤنس مدريد سنة ١٩٦٠ .

(٢) ياقوت الحموى : معجم البلدان جـ ٣ ص ٨٤٢ ، عبد العزيز بنعبد الله : جغرافية المغرب ص ٤٥ ط ٢ سنة ٥٦ ، روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٣٢ ، ترجمة د. نقولا زيادة .

(٣) محمد المنونى : العلوم والفنون ص ٢٥٦ .

(٤) الجزنائى : زهرة الآس ص ٢٧ .

(٥) روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ١٣٣ ، ص ١٣٤ ترجمة د. نقولا زيادة .

(٦) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٠٦ ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٨ .

(٧) احسان حقى : المغرب العربى ص ٢٠٨ ، د. زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ٤٣٨ ط ١ سنة ٤٨ .

الأندلس وحماية شواطىء البلاد من غارات الأعداء ، وقد أعطانا المؤرخون صورة لمدى استعداد المصانع بكل من سبتة وطنجة فى بناء السفن ذلك أن الخليفة عبد المؤمن حين أمر بانشاء الأساطيل فى جميع سواحل بلاده فان سبتة وطنجة أنشأتا مائة قطعة من السفن المختلفة الأشكال والأنواع [١] ومن أنواع هذه السفن : المراكب والحراقات والمسطحات والطرائد والشلنديات وغيرها [٢] وبجانب صناعة السفن التى اشتهرت بها سبتة ، فان أهلها كانوا يستخرجون المرجان من البحر ويصنعونه خرزاً وعقوداً ويصدرونه إلى غانة وجميع بلاد السودان [٣] كذلك ازدهرت صناعة الورق بمدينة سبتة [٤] ، كما أن قصر مصمودة وهو يبعد اثنى عشر ميلا غرب مدينة سبتة كانت تصنع به المراكب والحراريق التى يسافر فيها إلى بلاد الأندلس [٥] .

أما منطقة السوس : فقد اشتهرت بصناعة الخز [٦] وصناعة السكر الذى كان يصدّر إلى بقاع كثيرة من الأرض [٧] كذلك كانت تلمسان ومدينة داى وبلاد ركراكه مراكز لصناعة المنسوجات القطنية والصوفية [٨] أما مدينة نول لمطة فقد اشتهرت بصناعة الدرق اللمطية التى تستخدم فى الحرب وكذلك السروج واللجم والأقتاب المعدة لخدمة الابل [٩] .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٢١٤ ، ابن ابى زرع : الانيس المطرب ج ٢ ص ١٦٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٤٣ ، محمد ياسين الحموى : تاريخ الاسطول العربى ص ١٣٣ ، محمد الرشيد ملين : عصر المنصور ص ٨٤ .

(٢) محمد المنونى : العلوم والفنون ص ٢٥٥ ، ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٣) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ١٦٨ ، بوفيل : الممالك الاسلامية فى غرب افريقيا ص ١٠٩ ، ١١٠ ترجمة د. زاهر رياض .

(٤) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٢٦ ، ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٨ .

(٥) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ١٦٨ .

(٦) أبى حامد الأندلسى : تحفة الالبا ص ٢١١ .

(٧) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٦٢ .

(٨) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ص ٥٩ ، أبى زكرياء : بغية الرواد ج ١ ص ٣٢ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٦ .

(٩) الادريسى : وصف المغرب ص ٥٩ ، العمرى : مسالك الابصار ج ١ قسم ٢ ص ٣٤٩ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٠ ، د. شعيرة : المرابطون تاريخهم السياسى ص ١٨ .

أما مدينة أيجلى فقد اشتهرت بسبك النحاس وصناعته وتصديره إلى السودان[(١)] وبالنسبة لصناعة السلاح فقد قامت صناعته فى معظم المدن المغربية وذلك لتفى بحاجات الحملات الحربية المتكررة سواء أكانت هذه الحملات متجهة إلى الشرق أم متجهة إلى الأندلس ، ومن هنا كان ولاة الأمر فى حاجة دائمة لأنواع السلاح المختلفة وبكميات وفيرة كما حدث حين أمر الخليفة عبد المؤمن بالاستعداد فى سنة ٥٥٧هـ / ١٠٦١م لغزو الاندلس فإن مصانع السلاح كانت تنتج له يومياً عشرة قناطير من السهام[(٢)] بخلاف الأسلحة الأخرى من سيوف وقسى ورماح وخوذات، وغيرها من أدوات القتال . وبالنظر إلى الصناعات السابقة بمدن المغرب الأقصى نجد مدى تنوعها وقيامها بحاجات المواطنين نتيجة لكثرتها وما زاد عن حاجتهم كان يصدر إلى الخارج كصناعة النحاس والسكر وبعض المنسوجات .

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٦٢ ، مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٦٥ ت الفيلالى ، عبد الله كنون : مدخل الى تاريخ المغرب ص ٤٧ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٣ .

René Millet ; Les Almohades, P ; 93.

الفصل الثالث

التجارة الداخلية والخارجية

١ — التجارة الداخلية

شاركت التجارة الداخلية والخارجية فى دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد منذ أن تأسست دولة المرابطين وحتى نهاية حكم الناصر الموحدى ، فى هذه الفترة الزمنية شهدت الأسواق التجارية المنبثة فى مختلف المدن المغربية حركة تجارية ونشاطاً فى البيع والشراء ، وذلك نتيجة للاستقرار السياسى الذى أظل البلاد اذ أصبحت السلطة السياسية فى يد أمراء المرابطين ومن جاء بعدهم من خلفاء الموحدين ، وقد حرص ولاة الأمر على استتباب الأمن وإشاعة الهدوء مما سهل الاتصال التجارى بين المدن المختلفة ، كما إن امتداد السلطة السياسية لولاة الأمر حتى حدود طرابلس شرقاً وصحراء المرابطين جنوبا والأندلس شمالا ، هذا الاتساع المكانى أعطى امتداداً للحركة التجارية بين مدن المغرب وغيرها من مدن المغرب الأوسط والأدنى ، وأيضاً مدن الأندلس وشجع التجار الذين كانوا يخضعون فى هذه المناطق لحكومة واحدة ، على التنقل بحرية تامة مما ساعد على تنشيط البيع والشراء وتبادل المنتجات .

وقد سبق أن أشرت فى الفصل السابق إلى مدى التقدم الزراعى الذى شهدته البلاد مع تنوع فى المحاصيل والمزروعات والفواكه ، وكيف أن الأرض كانت تنتج هذه المحاصيل بوفرة ، وأحدث ذلك رخصاً فى الأسعار وأن هذه المحاصيل كانت تباع فى الأسواق . كذلك تناولت من قبل الحركة الصناعية وكيف أن المواد الخام والأيدى العاملة أنتجتا كثيراً من الصناعات المختلفة ، والتى كانت تباع فى الأسواق ، ولا شك أن ازدهار التجارة يقوم على ما تنتجه البلاد من أنواع البضائع المختلفة ، مع ما يرد إلى أسواقها من المنتجات الخارجية .

وقد وجه ولاة الأمر اهتمامهم للتجارة والعمل على تنشيطها وذلك بتشجيع

التجار على المجيء إلى البلاد(١) كما أن بعضهم كان ينتهز فرصة تولّيه الحكم ويقوم بحركة تنشيط للتجارة وذلك عن طريق إسقاط الضرائب السابقة وتوزيع الأموال مما ينشّط حركة البيع والشراء بالبلاد وذلك ما فعله الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى سنة ٥٦٣هـ / ١١٦٣م ، يقول ابن صاحب الصلاة « وأمنهم من المخاوف فيما تقيّد عليهم فى الدواوين — وذلك حين أفرج عن المسجونين بمناسبة تجديد البيعة سنة ٥٦٣هـ — فزاد الانبساط والنشاط عند الناس بفضله وصفحه وعدله ، وزادت المخازن أثر ذلك وفوراً ، ونمت الأرزاق ، وعمرت الأسواق بالبيع والتجارة الرابحة ودرّت على الناس بالخيرات دروراً واغتبط العالم به وببيعته ، وكثر المال فى الأيدى من توالى سمحه وبركته »(٢) .

كما أن ولاة الأمر وفّروا سبل الاقامة للتجار وذلك بانشاء الفنادق فيوسف ابن تاشفين حين دخل مدينة فاس سنة ٤٦٢ هـ / ١٠٦٩م بنى الحمامات والفنادق وغيرها(٣) كما أن الموحدين بنو الفنادق فى مدن مغربية كثيرة ففى مدينة قصر صنهاجة بنى الموحدون فندقين يقول صاحب كتاب الاستبصار « وأحدث الأمر العالى فى موضعه — أى فى مدينة قصر صنهاجة — فى هذه المدة فندقين عجيبين وتمدّن هذا الموضع وشرف وقصده التجار واستوطنوه »(٤) كذلك المنصور الموحدى أنشأ عدة فنادق بمراكش(٥) وهذه الفنادق كانت تقوم بمهمة مزدوجة فوظيفتها الأولى خزن المتاجر والسلع لتوزيعها بعد ذلك بالجملة والثانية إيواء النزلاء من التجار الوافدين وكلما كانت المدينة عامرة بالمتاجر كلما ازداد عدد فنادقها .(٦)

---

(١) Budgett ; The Moorish Empire. P ; 54,
Mahmoud Brelvi ; Islam In Affrica, p ; 187

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ٣٤٧ .

(٣) ابن ابى زرع : الانيس ج ٢ ص ٤٤ ت الفيلالى .
Nevill Barbour ; Morocco, P ; 52

(٤) مجهول : الاستبصار ص ١٨٩ .

(٥) عباس المراكشى : الاعلام ج ١ ص ٦٤ .

(٦) د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية الاسلامية ص ١٦٩ ط ١ سنة ٦٩ دار النهضة .

الطرق التجارية :

ومما ساعد على ازدهار الحركة التجارية تلك الطرق التى كانت تربط معظم المدن المغربية بعضها ببعض وبجانب ذلك تلك المجموعة من الأنهار التى كانت تشق وديان المغرب والتى كانت تزخر بالقوارب والمراكب محملة بالبضائع المختلفة فوادى سبو كانت تسير فيه القوارب والسفن الصغار إلى البحر الأعظم[١] كما أن وادى أم الربيع كانت تسير فيه المراكب أيضاً[٢] وغير ذلك من الأنهار التى كانت تربط المناطق الداخلية بالسواحل المطلة على البحر المتوسط والمطلة على المحيط الأطلسى .

وبجانب هذه الأنهار كانت هناك طرق القوافل والتى حرص ولاة الأمر على حراستها وبناء الأحواض على جانبيها لخزن المياه اللازمة للقوافل العابرة[٣] وكانت هناك طرق للقوافل ممتدة من الشمال حيث المدن الساحلية سبتة وطنجة وتتصل بالمدن الداخلية[٤] كما أنه كانت هناك طرق متوازية تمتد من الشرق إلى الغرب[٥] وقد أعطانا الادريسى وصفاً لإحدى الطرق التى كانت تقطعها القوافل من شرق البلاد حتى جنوبها يقول « وأما من أراد الطريق من تلمسان إلى مدينة سجلماسة بالقوافل تسير من تلمسان إلى فاس ، ومن فاس إلى صفروى إلى تادلة إلى أغمات ، إلى درعة إلى سجلماسة »[٦] كما أن ليفى بروفنسال أعطانا رسما توضيحياً لشبكة الطرق التى كانت تربط بين مدن المغرب الأقصى خلال حكم الموحدين والتى توضح مدى الارتباط الوثيق بين المدن المغربية .

المراكز التجارية :

نشطت الحركة التجارية الداخلية بمدن المغرب الأقصى وذلك نتيجة

---

(١) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ٤٨ مخطوط .

(٢) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٤ .

(٣) أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٧٧ .

S.P. Scott : History of Moorish Empire, V.2 P ; 206.

(٤) احمد بن عبد السلام : الريف بعد الفتح الاسلامى ص ١٥تطوان سنة ١٩٥٤ .

(٥) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢١ .

(٦) الادريسى : وصف المغرب ص ٨١ .

للإزدهار الزراعى والصناعى الذى عاشته المنطقة خلال حكم المرابطين والموحدين حتى حكم الناصر الموحدى ، وصارت الأسواق التجارية تموج بحركة دائبة فى البيع والشراء ، وفى نقل المتاجر من مدينة إلى أخرى فى ظل الأمن والاستقرار الذى ساد المنطقة .

وفى مقدمة المراكز التجارية العاصمة مراكش والتى حظت باهتمام التجار باعتبارها عاصمة امبراطورية مترامية الأطراف وأتتها التجارات من كل مكان[١] وصارت مراكش مركزاً للتجارة الداخلية بين مدن الشمال ومدن الجنوب[٢] ، وقد ساعد على ازدهارها تجارياً اهتمام ولاة الأمر بعمارتها والبناء فيها وخاصة فى عهد الموحدين ، فالمنصور الموحدى بنى فيها عدة أسواق وفنادق[٣] ومن هذه الأسواق سوق كبير قصدها التجار من كل مكان ذلك فى سنة ٥٨٥هـ / ١١٨٩م[٤] وكانت السلعة الرئيسية فى أسواق مراكش هى الزيتون وزيته الذى كان يكفى حاجة أهل المدينة ويصدر إلى غيرها من المدن الأخرى[٥] .

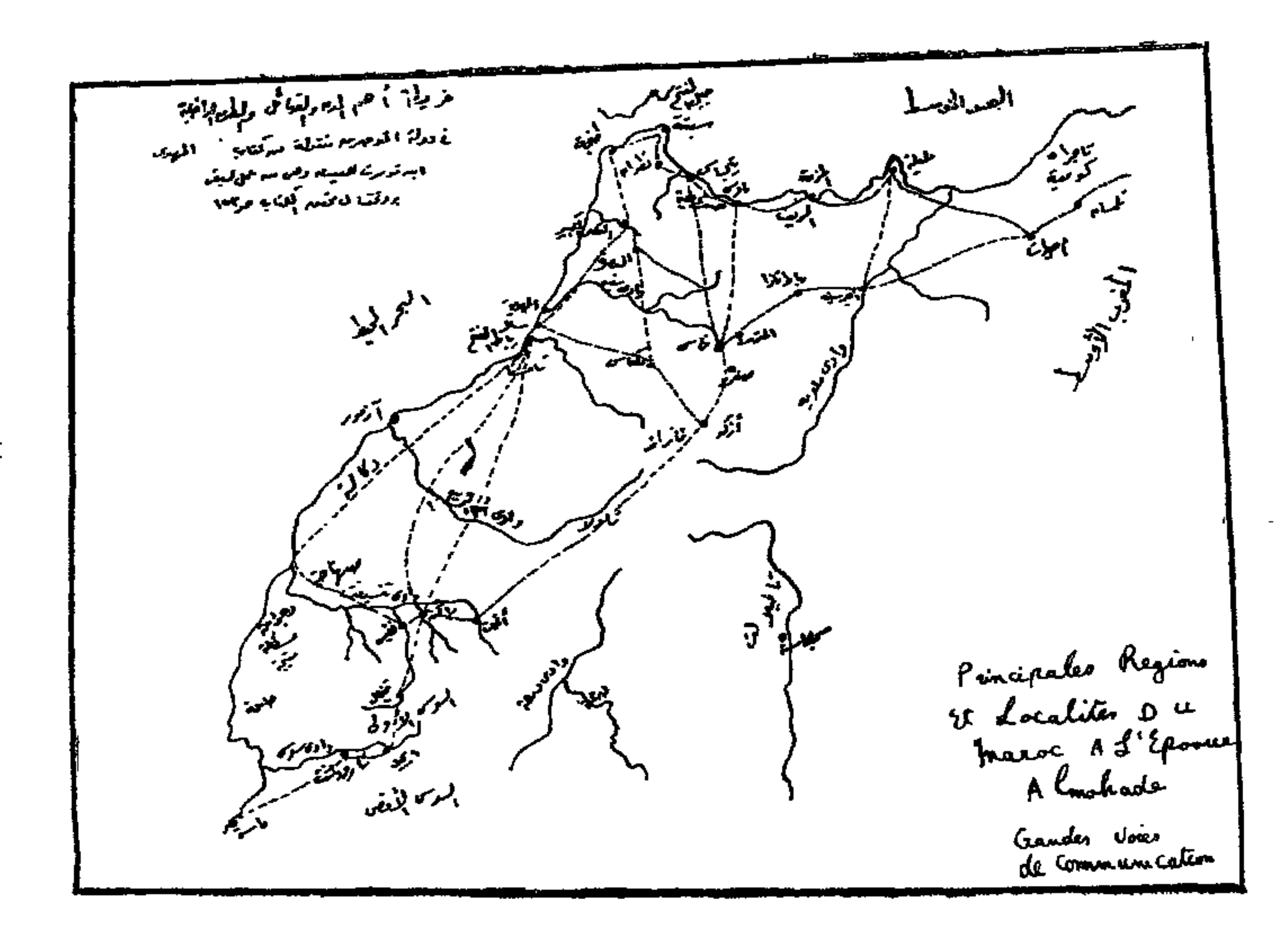
S.P. Scott ; History of Moorish Empire, V.2 P ; 257 (1)

(٢) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٠ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ .

(٤) نفس المصدر السابق ص ٢١٠ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٢١٠ .


البحر المتوسط
البحر المحيط
المغرب الأوسط
Principales Regions
Et Localités Du
Maroc A L'Epoque
Almohade
Grandes Voies
de Communication

أما مدينة فاس فكانت مركزاً تجارياً هاماً أو كما يقول الادريسى «قطب ومدار لمدن المغرب الأقصى»(1) وهذا يرجع إلى موقعها الممتاز فى قلب البلاد مع توفّر المحاصيل الزراعية والصناعات المختلفة بها مما جعل أسواقها حافلة بأنواع البضائع المختلفة التى كانت تسد حاجة سكان المدينة وقد صوّر ذلك المراكشى بقوله «ولا أعلم بالمغرب مدينة لا تحتاج إلى شيء يجلب إليها من غيرها إلا ما كان من العطر الهندى سوى مدينة فاس فانها لا تحتاج إلى مدينة فى شيء مما تدعوا إليه الضرورة بل هى توسع البلاد مرافق وتملؤها خيراً»(2) ومع اكتفاء سكان المدينة من السلع الأساسية المتوفرة بمدينتهم ، فان الأسواق كانت تمتليء بأنواع المتاجر التى كانت تأتيها مع القوافل القادمة من مدن المغرب المختلفة وفى ذلك يقول الإدريسى «ومدينة فاس هى حضرتها الكبرى ومقصدها الأشهر وعليها تشد الركائب وإليها تقصد القوافل ويجلب إلى حضرتها كل غريبة من الثياب والبضائع والأمتعة الحسنة(3)» وصارت المدينة تعج بالتجار من مدن المغرب المختلفة الذين اتخذوا فى أسواقها متاجر يصرفون فيها بضاعتهم وسلعهم وقد عبّر عن ذلك الجيلالى بقوله «وانتقل إليها من جميع البلاد القاصية والدانية فليس من أهل بلد ولا إقليم إلا ولهم بها منزل ومتجر وصناعة ومتصرف واجتمع فيها ما ليس فى مدينة من مدن الدنيا وأتتها التجارات وأهل الصناعات من كل صقع»(4) ومن ناحية أخرى فان القوافل التجارية كانت تخرج من مدينة فاس متجهة إلى المدن المغربية الأخرى كمدينة تازا ومكناسة وسلا ومراكش(5) حيث كان تجار فاس يحملون معهم الأقمشة والأحذية وأغطية الرأس(6) .

---

(1) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٧٩ .

(2) المراكشى : المعجب ص ٣٥٨ ، ٣٥٩ .

(3) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٧٩ .

(4) الجيلالى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ٥١ مخطوط .

(5) روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ١٣٨ ترجمة د. نقولا زيادة .

(6) نفس المرجع السابق ص ١٣٨ .

أما مدينة صفروفانها كانت تصدر اللوز إلى مدينة فاس[1] كذلك حصن مغيلة ألقاط وكان حصناً كبيراً به سوق حافلة ويحمل منه التين إلى مدينة فاس وغيرها[2]

وأيضاً كانت مدينة داى بها سوق حافلة ومحطة لتجار القوافل القادمين من فاس والبصرة وسجلماسة[3] .

أما مدينة مكناسة فقد امتلأت بالأسواق العامرة والتجارات المختلفة[4] وقد تقدمت المدينة تجارياً فى عهد الموحدين حيث أصبحت محطة للمسافرين يبيعون ويشترون بها وقد أشار إلى ذلك ابن غازى بقوله « وعمرت المدينة — أى مدينة مكناسة — والحوائر والبسائط ونفقت الأسواق وقويت التجارات وصار المسافرون ينزلون بالمدينة ويبيعون ويشترون وكانت المدينة بداوة ثم تمدنت واكتسبت حضارة »[5] .

أما مدينة تادلا فقد ازدهرت تجارياً وصارت بها الأسواق نتيجة اهتمام الموحدين بها[6] .

فاذا ما اتجهنا إلى جنوب البلاد لوجدنا عدة مراكز تجارية وفى مقدمتها مدينة أغمات وكانت مركزاً لتجمع التجار المتجهين بتجاراتهم للصحراء وقد أشار إلى ذلك صاحب كتاب الاستبصار بقوله « وأغمات هما مدينتان احداهما تسمى أغمات وريكة والأخرى أغمات هيلانة وبينهما نحو ٨ أميال وبأغمات وريكة يسكن الأعيان وبها ينزل التجار على القدم لأنها كانت دار التجهز للصحراء »[7] وبعبارة أخرى كانت مدينة أغمات مركزا لتسويق منتجات المغرب وتصديره إلى السودان . ومن ناحية أخرى مركزاً لتلقى تجارات

(١) مجهول : الاستبصار ص ١٩٣ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٩٣ .
(٣) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقيا ص ١٥٤ . الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٧٥ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٦
(٤) الادريسى :وصف المغرب ص ٧٧ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٧ .
(٥) ابن غازى : الروض الهتون ص ٢.
(٦) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٠ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ٢٠٧ .

السودان وتصديره إلى المدن المغربية وغيرها . وقد أشار ابن سعيد إلى أنواع السلع التي يحملها تجار أغمات إلى السودان بقوله « وأهل هذه المدينة — أى أغمات وريكة — تجار مياسر يدخلون بلاد السودان بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من أنواع النحاس والأكسية والثياب ، العمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار والعطر وآلات الحديد المصنوع »[١].

وقد لعبت سجلماسة نفس الدور حيث كانت مقصد الوارد والصادر[٢] وكانت تصدر إلى المدن المغربية الأخرى بعض المحاصيل الزراعية كالقطن والكمون والكراويا والحناء[٣] كذلك كانت مدينة درعة مركزاً لتصدير بعض الحاصلات الزراعية كالحناء والكمون والكراويا والنيلج إلى مدن المغرب المختلفة[٤] .

الأسواق :

انتظمت الأسواق بالمدن المغربية بطريقة تبدو متشابهة حيث انفردت كل صناعة بناحية معينة من السوق كسوق النحاسين وسوق الفاكهة وسوق الزياتين وسوق الأسماك وغير ذلك من الأسواق التي تضم عدة متاجر تتاجر في سلعة واحدة[٥] وقد أشار إلى وجود الأسواق بمدينة فاس ابن القطان حين أشار إلى الحريق الذى حدث بها في سنة ٥٣٣هـ / ١١٣٨م بقوله « وفيها — أى سنة ٥٣٣ هـ — وقع الحريق في سوق مدينة فاس واحترق من رأس عقبة الخرازين إلى باب . . (بياض) واحترق سوق الثياب والقراقين — القراقون هم باعة الاقراق جمع قرق وهو ضرب من الانخفاف أو الصنادل — وغير ذلك من الأسواق إلا البقالون »[٦] كما أن هذه الاسواق كانت مسقفة بتقبية

---

(١) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٢ .
(٢) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٠ ، العمرى : مسالك الابصار جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥٠ .
(٣) نفس المصدرين السابقين ونفس الصفحات .
(٤) العمرى : مسالك الابصار جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥١ .
(٥) عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى البحر المتوسط ص ٦٦، عبد العزيز سنعبد الله : جغرافية المغرب ص ٤٥ .
(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٤٦ .

الآجر أو بمعروشات العنب[1] وقد أشار إلى هذه السقف ابن عذارى حين تحدث عن الحريق الذى أصاب أسواق مدينة مراكش فى سنة ٦٠٧ هـ - ١٢١٠م بقوله « وفى هذه السنة — أى سنة ٦٠٧هـ — كان الحريق الشائع الضرر الجارى بقيسارية مراكش — أى سوق مراكش — وما اتصل بها وذلك ليلة الخميس الثالث عشر لجمادى الأولى والناس كما أووا إلى مضاجعهم وسكنوا إلى هدوهم وهجوعهم فتمكنت النار بيابس العيدان وشفوف الثياب وأسرعت كالشهاب فى سقف الأسواق»[2]. ونظام الأسواق بهذا الشكل كانت له نظائر فى أسواق المدن الاسلامية الاخرى كالقاهرة وبغداد والموصل وتونس والجزائر[3].

وكانت الأسواق فى المدن المغربية لها أيام معلومة للسكان يتجهون إليها بسلعهم لبيعها ولشراء ما يلزمهم من الحاجيات ، فبعض الأسواق كان يقام يوم الجمعة من كل أسبوع كالسرق المعقودة على وادى درعة[4] كذلك السوق المعقودة فى قرية نصر بن جرو وهى قريبة من مدينة سبتة كانت تعقد يوم الجمعة[5] وأيضاً مدينة أصيلة كانت سوقها تعقد يوم الجمعة[6] أما قصر أبى موسى وهى قريبة من مدينة مكناسة فكانت سوقها تعقد يوم الخميس[7]، أما سوق بنى مغروات وهو آخر بلد مجكسة بمنطقة غمارة فكانت سوقهم يوم الثلاثاء[8] وأما سوق أغمات وريكة فكان يوم الأحد[9] . وكانت بعض الأسواق ترتفع فيها حركة البيع والشراء كما كان يحدث فى سوق أغمات وريكة حيث كان يبلغ ما يذبح فى يوم السوق أكثر من مائة ثور وألف

---

(١) عثمان الكعاك : الحضارة العربية ص ٦٦ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٣٠ تطوان .
(٣) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٨٩ .
(٤) البكرى : المغـرب فى ذكر بلاد افريقيـا ص ١٥٢ ، مجهول : الاستبصار ص ٢٠٦ .
(٥) البكرى : المغرب ص ١٠٨ .
(٦) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٧٨ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٧ .
(٧) البكرى: المغرب فى ذكر بلاد افريقيا ص ١٠٧ .
(٨) نفس المرجع السابق ص ١٥٣ .
(٩) نفس المرجع السابق ص ١٥٣ .

شاة وينفذ فى ذلك اليوم جميع ذلك .

وكان التعامل بين المواطنين فى الأسواق بالعملة التى كان يصدرها ولاة الأمر وفى بعض الأحيان يكون التعامل بين بعضهم بالأجل وقد أشار ابن أبى زرع إلى أن أحد الصالحين باع شحنة كبيرة من القمح إلى أهل فاس بالأجل « وفيها — أى سنة ٥٩٥ هـ — توفى الشيخ الصالح الفقيه العالم أبو عبدالله محمد بن ابراهيم المهدوى صاحب كتاب الهداية . . . وأصابت أهل فاس مجاعة كان عنده فيها ألف وسق من قمح فباعه كله من أهل الضعف بوثائق وأخرّهم بالثمن »[1] .

كما أن الأسواق كانت تحت مراقبة أمناء الاسواق وهؤلاء بدورهم كانوا تحت إشراف ولاة الأمر ، ومحاسبتهم المستمرة وذلك ما كان يفعله المنصور الموحدى « وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر فى كل شهر مرتين يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم[2]» .

ب — التجارة الخارجية

كان لازدهار التجارة الداخلية فى أسواق المغرب الأقصى ، وامتلاء الأسواق بالبضائع والمنتجات أثر فى تنشيط حركة التجارة الخارجية ، إذ أصبحت الأسواق مقصد التجار والقوافل من كل مكان ، يقدمون إليها محملين بالبضائع المختلفة ويصدرون عنها وقد امتلأت قوافلهم بمنتجات البلاد وقد ساعد على تنشيط حركة التجارة الخارجية تلك المساحات الواسعة التى كانت تخضع سياسياً للمغرب الأقصى مع وجود حكومة مركزية قوية ساهرة على حماية الطرق وتوفير كل ما تحتاجه القوافل ، مما جعل المغرب الأقصى ممراً آمناً للقوافل القادمة من السودان والمتجهة إلى الأندلس وأوربا ، كما أن الأسطول المرابطى الذى تكوّن فى عهد المرابطين ، وزادت قوته فى عهد الموحدين لعب دوره فى تأمين الموانىء المغربية وحماية طرق التجارة البحرية فى البحر المتوسط وبذلك نشطت الحركة التجارية بين المغرب والأندلس

---

(١) ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص ٢١٨ طبع حجر .

(٢) المراكشى : المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ص ٢٨٥ .

وغيرها من الأسواق العالمية[1] ومن ناحية أخرى فان التخريب والدمار الذى أصاب افريقية على يد عرب بنى هلال كانت له آثاره التجارية السيئة على افريقية[2] ، اذ صرف التجار عن المرور فى الطرق المعتادة ، ومن ثم أصبح المغرب الأقصى الطريق المأمون فى نقل المتاجر من السودان إلى البحر المتوسط ومنه إلى الشرق وبالعكس .

الطرق التجارية :

ارتبط المغرب الأقصى بمراكز التجارة الخارجية بعدة طرق برية ، كذلك كانت تأتيه البضائع عن طريق السفن التى ترسو فى موانيه حاملة شتى البضائع المختلفة وكان أهم هذه الطرق البرية والتى كانت تقطعها القوافل محملة بالبضائع ذلك الطريق الذى كان يربط البلاد بمنطقة السنغال والنيجر حيث يمر الطريق بمدن المغرب الأقصى الجنوبية كسجلماسة ودرعة متجهاً إلى أودغشت ثم منحنى النيجر وحتى المناطق الممتدة للغرب[3] والفترة الزمنية التى يقطعها المسافرون بين سجلماسة وغانة تبلغ نحو الخمسين يوماً[4] وكان طريق القوافل محفوفاً بالصعاب والشدائد حيث قلة المياه مع هبوب الرياح الساخنة غير أن التجار وأصحاب القوافل تغلبوا على هذه الصعاب باستخدام الجمال كمستودعات للمياه يقول ابن سعيد « وأول ما تلقاك من هذا الجزء شجر اليسر التى يقطعها المسافرون ما بين سجلماسة وغانة وهى طويلة عريضة يكابدون فيها شدة العطش ووهج الحرور بما هبت فيها ريح جنوبية ، وتنشف المياه التى فى الغرب فهم يعدون لها المياه التى فى بطون الإبل ويجعلون على أفواهها لئلا تأكل شيئاً ، فاذا ينشف الريح مياههم نحروا جملا جملا وشربوا ما فى بطنه»[5] . وفى بعض الأحيان كانت القوافل المارة بهذا الطريق تتعرض

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٠١ .

(٢) لويس ارشيبالد : القوى البحرية ص ٣٨٥ ترجمة أحمد عيسى.

(٣) د. شعيرة : المرابطون : ص ٢٠ .

J.D. Fage ; An Introduction to the History of West Africa P ; 10.

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى جـ ٥ ص ٢٨٤ .

(٥) ابن سعيد المغربى : بسط الارض ص ٤٧ .

لهجمات اللصوص ، غير أن حزم ولاة الأمر ويقظتهم وقمعهم بشدة كل من حاول التعرّض للتجار ، جعل القوافل تزاول نشاطها فى نقل المتاجر ، وقد أشار المقرّى إلى ما فعله السيد أبو الربيع والى سجلماسة فى عهد الموحدين ببعض اللصوص الذين اعترضوا طريق القوافل يقول المقرى« قال — أى السرخسى فى رحلته — لى الفقيه أبو عبد الله محمد القسطلانى : دخلت إلى السيد أبى الربيع بقصر سجلماسة ، وبين يديه أنطاع عليها رؤوس الخوارج الذين قطعوا الطريق على السفار بين سجلماسة وغانة وهو ينكت الأرض بقضيب من الأبنوس ويقول :

ولا غرو أن كانت رؤوس عداته — جواباً إذا كان السيف رسائله

ومات بعد الستمائة[1] » .

أما الطريق الذى كان يربط المغرب الأقصى بالشرق فكان هناك طريقان: أحدهما يسير بحذاء الساحل حتى يصل إلى مصر[2] والطريق الثانى من أودغشت وغانة وسجلماسة ومنها تسير القوافل فى الصحراء حتى الواحات الداخلة فى مصر[3] وقد اتجهت القوافل إلى هذا الطريق وأصبح هو الطريق الرئيسى بين المغرب الأقصى والشرق بعد أن اصاب الطرق الأخرى العواصف الرملية ، وكثرة الفتن وهجمات اللصوص ، وقد أشار إلى ذلك ابن حوقل بقوله « وفيها الطريق من مصر إلى غانة فتواترت الرياح على قوافلهم ومفردتهم فأهلكت غير قافلة وأتت على غير مفردة ، وقصدهم أيضاً العدو فأهلكهم غير دفعة ، فانتقلوا عن ذلك الطريق وتركوه إلى سجلماسة»[4] وأصبحت سجلماسة مركزاً لتجمع تجار المشرق ومنه يتجهون بتجاراتهم إلى منطقة السودان يحملون بضائعهم ، ويعودون بالمال والربح الوفير ، يقول ابن حوقل« وكانت القوافل تجتاز بالمغرب إلى سجلماسة وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٠٤ (أورد المقرى البيت هكذا وصحته :
ولا غرو ان كانت رءوس عداته — جوابا اذا السيوف كانت رسائله)

(٢) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٩٥ .

(٣) آدم متز : الحضارة الاسلامية فى القــرن الرابع جـ ٢ ص ٤١٣ ترجمة د. أبو ريده ط ٣ سنة ٥٧ .

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٦٥ .

والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق ، فهم وأولادهم وتجاراتهم دائرة ومفرداتهم دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة ، قلما يدانيها التجار فى بلاد الاسلام سعة حال » (١).

وقد لعب الطريقان : طريق الجنوب وطريق الشرق وارتباطهما ببعض مراكز التجارة فى المغرب الاقصى كدرعة وسجلماسة دورهما فى تنشيط الحركة التجارية بالبلاد ، اذ أن هذه القوافل القادمة من الخارج كانت تشق طريقها عبر الطرق الداخلية للبلاد مارة بالمراكز التجارية لتبيع منتجاتها ولتحمل صادرات البلاد إلى المناطق الخارجية مما نتج عنه انتعاشاً ورواجاً فى الحركة التجارية .

الموانى التجارية :

كان الموقع الممتاز الذى تمتع به المغرب الأقصى ، فى الطرف الشمالى الغربى من القارة الافريقية ، وامتلاكه لساحلين أحدهما يطل على البحر المتوسط والآخر يطل على المحيط الاطلسى ، واشتمال هذين الساحلين على عدة موانئ يسرت الاتصال بالعالم الخارجى ، وربطت المغرب الأقصى بالأسواق الخارجية حيث قامت هذه الموانىء بشحن البضائع المستوردة إلى داخل البلاد ، ومن ناحية أخرى فى استقبال البضائع القادمة من السودان ومن مدن المغرب الأقصى وتصديرها إلى الأندلس وأوربا وغيرها من البلاد الخارجية .

وقد تمكنت هذه الموانىء من تأدية دورها فى ظل حماية الأسطول المغربى سواء أكان مرابطياً أم موحدياً ، ذلك الأسطول الذى لم يكن نشاطه قاصراً على عمليات الجهاد وانما أضاف إلى ذلك حماية الثغور من هجمات القراصنة (٢) ومن هنا فان الموانىء المغربية أدت دورها فى تنشيط حركة التبادل التجارى ، ومن هذه الموانىء المطلة على البحر المتوسط ميناء سبتة الذى كان يزخر بالحركة التجارية ، وكان يشبه فى ذلك ميناء الاسكندرية يقول ابن سعيد « وهذه

---

(١) نفس المرجعا لسابق ص ٦٥ .

(٢) د. احمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ٣٤٧، نفس المؤلف ، والدكتور السيد عبد العزيز سالم : تاريخ البحرية الاسلامية ص ٢٦٣ بيروت سنة ١٩٦٩ ، عبد العزيز بتعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ٢ ص ٩٣ .

المدينة — أى سبتة — بين بحرين وهى ركاب البرين تشبه الاسكندرية فى كثرة الحط والإقلاع وفيها التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب الكبير بما فيه من بضائع الهند وغيرها فى صفقة واحدة ولا يخرجون صاحبه إلى نقاص»(١) كما أن ميناء طنجة انتعشت به الحركة التجارية فكان يصدر منه الصوف والجلود والفواكه والشمع والعسل وكان يرد إليه الثياب والأسلحة وغير ذلك(٢).

أما المحيط الأطلسى فقد زخر بعدة موانىء كانت تستقبل البضائع الأجنبية وفى نفس الوقت تصدّر البضائع المحلية ، وفى مقدمة هذه الموانىء ميناء سلا الذى كان يستقبل السفن المختلفة ، فى مقدمتها السفن الأندلسية وفى ذلك يقول الإدريسى « ومراكب أهل اشبيلية وسائر المدن الساحلية من الأندلس يقلعون عنها — أى عن مدينة سلا — ويحطون بها بضروب من البضائع وأهل اشبيلية يقصدونها بالزيت الكثير وهو بضاعتهم ويتجهزون منها بالطعام إلى سائر بلاد الأندلس الساحلية »(٣) كذلك كان مرسى فضالة حيث كانت ترد إليه المراكب من بلاد الاندلس فتحمل منه أوساقاً من الشعير والحنطة والفول والحمص وتحمل منه الغنم والمعز والبقر(٤) ومن مرسى فضالة إلى مرسى آنفاً أربعون ميلا وهو مرسى مقصود تأتيه المراكب وتحمل منه الحنطة والشعير(٥) أما مرسى آسفى فان المراكب كانت تحمل منه بضائعها المختلفة(٦) وهذه الكثرة فى عدد الموانىء شجعت العديد من السفن المحملة بالمتاجر على الرسو بها مما نتج عنه نشاط فى الحركة التجارية .

الصادرات والواردات :

تنوّعت صادرات المغرب الأقصى وتعددت وذلك خلال فترة البحث ، إذ صارت البلاد تصدّر بعض حاصلاتها الزراعية وما يصنع منها ، وبعضا

---

(١) ابن سعيد : بسط الأرض فى الطول والعرض ص ٧٣ .
(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٧ .
(٣) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٧٣ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٧٣ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٥ .
(٥) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٥ .
(٦) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٥ .

من ثروتها الحيوانية، وأخيراً بعض المعادن المصنّعة وغير المصنّعة وفى نفس الوقت استوردت البلاد بعض ما كان يلزمها من المواد الخام والمواد المصنعة.

أما ما كانت تصدره البلاد من حاصلاتها الزراعية :

١ — القطن وما يصنع منه من المنسوجات القطنية[١].

٢ — القمح[٢].

٣ — السكر المستخرج من قصب السكر والمشهور باسم الطبرزد[٣].

٤ — الزيتون والزيت المستخرج منه[٤] .

٥ — الحنّاء[٥] .

أما صادرات البلاد من الثروة الحيوانية والسمكية فهى :

١ — دواب الفنك وجلوده[٦]. .

٢ — الحوت المعروف عندهم بالشابل[٧]

٣ — الأصداف المستخرجة من شواطىء سبتة والتى يصنع منها الخرز والمسابح[٨] .

---

(١) ابن حوقل: صورة الأرض ص ٨١ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٦ .

(٢) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ٢١٧ .

(٣) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٦٢ ، مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .

(٤) عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٦٤ ، ٦٥ .

(٥) الادريسى : وصف المغرب ص ٦١ ، ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ص ٥٨ ، العمرى : مسالك الأبصار جـ ١ قسم ٢ ص ٣٥٠، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١١ .

(٦) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٧١ ، مجهول : الاستبصار ص ٢١٤ .

(٧) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ص ٧٢ .

(٨) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ١٦٨ ، د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ص ٦٥ التاليف والترجمة سنة ١٩٧٠ .

أما المعادن المصدّرة :

١ — الملح الذى يصدر إلى غانة [١].

٢ — النحاس المسبوك أى المصنع على شكل أدوات وآلات[٢].

٣ — النحاس الاصفر الخام كان يصدر فى بعض الأحيان[٣].

أما أهم ما كانت تستورده البلاد :

١ — الذهب[٤]   ٢ — الرئبق[٥] .

٣ — بعض أنواع الأقطان الخارجية والمنسوجات القطنية[٦] .

٤ — بعض أنواع النسيج البلنسى[٧]

٥ — العطر الهندى [٨] .

٦ — بعض أدوات المأكل المصنوعة من الخشب[٩] .

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى وجنوب الصحراء :

شكّلت التجارة المتبادلة بين المغرب الأقصى وجنوب الصحراء والذى يشمل منطقة غانة واقليم السودان خلال فترة البحث ركناً هاماً ومصدراً أساسياً فى التجارة الخارجية للبلاد ، ونشطت الحركة التجارية نتيجة لإخضاع المرابطين لأقاليم المغرب الأقصى المختلفة فى ظل حكومة واحدة تحرص على استتباب الأمن والنظام مما ساعد على انتظام القوافل التجارية المتجهة إلى جنوب الصحراء والقادمة منه ، كما أن المغرب الأقصى صار معبراً لتجارة

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٧١ ، ابراهيم طرخان: امبراطورية غانة الاسلامية ص ٦٥ .

(٢) مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ ، البكرى : المغرب فى ذكر بلا افريقية ص ١٦٢ .

(٣) مجهول :الاستبصار ص ١٨١ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٣٦٣ .

(٥) الادريسى : وصف المغرب ص ٨ ، المراكشى : المعجب : ص ٣٦٣ ، د. احمد زكى : تاريخ الدول الاسلامية السودانية ص ٨٤ الالف كتاب سنة ١٩٦١ .

(٦) الادريسى :وصف المغرب ص ٧٥ ، الحميرى : صفة الجزيرة الاندلس ص ٢١ .

(٧) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٠٧ .

(٨) المراكشى : المعجب ص ٣٥٩ .

(٩) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ١٦٥ .

الجنوب والمتجهة إلى الأندلس وأوربا والمشرق ، ومن هنا اكتسبت التجارة بين المغرب الأقصى وغانة وأقاليم السودان فى الجنوب أهمية خاصة . وفى مقدمة السلع التى كان يستوردها المغرب الأقصى من الجنوب الذهب حيث كان الذهب السلعة التى اشتهرت بها امبراطورية غانه ، وكان الذهب يوجد فى المناطق الجنوبية منها فى منطقة ونقارة[1] وفى مقابل ذلك كانت تنقل إليهم أحمال الملح التى كان السكان فى حاجة إليها ، وكان الذهب المستورد من غانة وجنوبها يستخدم فى صناعة العملة حيث يعود تجار المغرب الأقصى بالذهب إلى دور السكة وهناك يضرب دنانيراً ويتصرفون بها فى التجارات والبضائع[2]

ولم تكن صادرات المغرب الاقصى إلى مناطق الجنوب الملح فقط بل كان هناك النحاس الأحمر والملون والأكسية وثياب الصوف والعمائم والمآزر وصنوف النظم من الزجاج والأصداف والأحجار وضروب الأفاوية والعطر وآلات الحديد المصنوع[3] .

كما أن الذهب لم يكن السلعة الوحيدة التى استوردها تجار المغرب الأقصى من الجنوب بل كان هناك الرقيق وقد أطلق عليهم الادريسى والقلقشندى : الخدم[4] يضاف إلى ذلك الجلود والعاج والكولا والصمغ والعسل والقطن والقمح وجوز الهند[5] .

ويبدو أن هذه السلع المتبادلة كانت بكميات وفيرة مما دعا الإدريسى إلى وصف القوافل الخارجة من أغمات والمتجهة إلى غانة وبلاد السودان بأنها

---

(١) د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى ج ٦ ص ١١١ .

(٢) الادريسى : وصف المغرب ص ٨ ، العمرى : مسالك الأبصار ج ١٤ قسم ٢ ص ٢٢٢ القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٦ .

(٣) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٦ .

(٤) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٣ ، القلقشندى : صبح الأعشى ج ٥ ص ٢٨٦ .

(٥) د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ص ٦٥ ،

J.D. Fage ; An Introduction of the History of West Africa P ; 9.

J. Spencer ; A History of Islam in West Africa, P ; 26.

« بأعداد الجمال الحاملة لقناطير الأموال من النحاس .. »[١] كما أن هذا النشاط التجارى عاد بالربح الوفير على تجار أغمات الذين بعثوا بقوافلهم وعبيدهم إلى غانة وإقليم السودان ، يقول الادريسى « وما منهم رجل — أى من أغمات — يسفر عبيده ورجاله إلا وله فى قوافلهم المائة جمــل والسبعون والثمانون جملا كلها موقرة ، ولم يكن فى دولة الملثم أحد أكثر منهم أموالا ولا أوسع منهم أحوالا وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم »[٢] ونفس الرواج حظى به تجار سجلماسة فى تعاملهم مع السودان حتى أن أحدهم كان له صك على آخر مبلغه أربعون ألف دينار[٣] .

وكانت القوافل التجارية تسترشد بالأدلاء وذلك لخطورة الطريق وبعد المسافة وقد أشار إلى ذلك أبو حامد الأندلسى بقوله « فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة آخر بلاد المغرب فيمشون فى رمال كالبحار ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم وبالجبال فى القفار ويحملون معهم الزاد لستة شهور »[٤] وكان الملح يبادلون بوزنه ذهباً وربما باعوه وزناً بوزنين أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم[٥].

وقد أشار بعض الباحثين إلى الطريقة التى كان يتم بها التبادل بين التجار المغاربة وبين تجار الذهب فى حوض السنغال حيث أطلق على طريقة التعامل « بالتجارة الصامتة » وذلك بأن يذهب تجار المغرب الأقصى إلى غانة ويصحبون معهم التجار الغانيين ويتجهون إلى أعالى السنغال وفى أماكن معلومة يضرب التجار بطبولهم إعلاناً عن وصولهم بالبضائع ثم يضعون سلعهم فى أكوام أو مقادير معينة على شاطىء النهر ويختفون ، وحينئذ يخرج الزنوج ويضعون بجوار كل كومة أو مقدار من السلع ما يرونه نظيراً لها من الذهب ثم يختفون ويظهر التجار فان اقتنعوا بالقيمة دقوا الطبول إيذاناً

---

(١) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٦٦ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٦ .
(٣) الأعشى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٦٤ .
(٤) أبو حامد الأندلسى : تحفة الالبا ص ٤٢ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٤٢ ، د. أحمد شلبى : موســوعة التاريخ الاسلامى جـ ٦ ص ١١٣ ط اسنة ٧٢ .

بانصرافهم وإلا اختفوا مرة اخرى فيأتى الزنوج ويزيدون كميات الذهب وهكذا حتى يتم الاتفاق بين الطرفين[١] وكان ولاة الأمر بالمغرب الأقصى يحرصون على استمرار العلاقة الحسنة بمناطق الجنوب حتى تظل التجارة مزدهرة بينهما ، ومن هنا أسرع والى سجلماسة السيد أبو الربيع سليمان بن عبدالله ابن عبد المؤمن إلى الكتابة لملك السودان ينكر عليه تعويق التجار ومما جاء فيها « نحن نتجاوز بالاحسان وان تخالفنا فى الأديان ، ونتفق على السيرة المرضية ونتألف على الرفق بالرعية . . وقد بلغنا احتباس مساكين التجار ومنعهم من التصرف فيما هم بصدده ، وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها ومعين على التمكين من استيطانها ، ولو شئنا لاحتبسنا من فى جهاتنا من أهل تلك الناحية لكنا لا نستصوب فعله ولا ينبغى أن ننهى عن خلق ونأتى مثله والسلام »[٢].

العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى والأندلس :

ارتبط المغرب الأقصى بالأندلس ارتباطاً وثيقاً ، حيث لعب الموقع والظروف الجغرافية للمنطقتين دورهما فى التقريب بينهما إذ أنهما يكونان معاً وحدة جغرافية متماسكة الأطراف ويعتقد الجغرافيون أن جبال البرانس هى الحد الفاصل بين بلاد المغرب وأوربا وبذلك اعتبروا شبه جزيرة ايبريا امتداداً لافريقيا[٣] والمسافة التى تفصل بين القطرين لا تتجاوز خمسة عشر كيلو متراً فى بعض نواحيها وبذلك كان المضيق الذى يفصل بينهما له أهمية كبيرة ، حتى أصبح تاريخ المغرب الأقصى والأندلس يكاد يتمم بعضه بعضاً وأطلق المؤرخون عليهما بحق اسم العدوتين [٤] .

كما أن الأحداث السياسية أكدت هذه الصلة بين الاقليمين فتارة يبسط

---

(١) د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ص ٧٠ ، ٧١ د. حسن ابراهيم : انتشار الاسلام ص ٩٨ ط ٢ سنة ٦٤ .

(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٠٢ ، ١٠٣ .

(٣) د. ابراهيم العدوى : المسلمون والجرمان ص ١١١ ط اولى سنة ١٩٦٠ .

(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٩ .

الأندلس سلطانه على المغرب الأقصى حين تشتد شوكة أهل الأندلس كما حدث فى عهد الدولة الأموية فى أيام الناصر والمستنصر[١] وتارة يخضع الأندلس للسلطة السياسية بالمغرب الأقصى كما حدث فى عهد المرابطين والموحدين إذ أصبح الأندلس اقليما تابعاً للحكومة المركزية بمراكش . ومن هنا توثقت العلاقات التجارية واتسع نشاطها بين الإقليمين ، وكانت السفن تسير فى قوافل منتظمة تحمل البضائع المختلفة بين المغرب والأندلس[٢].

وكان المغرب الأقصى يمد الأندلس بالغلات وأنواع الطعام المختلفة[٣] ومن ناحية أخرى فان الأندلس كان يصدر إلى المغرب الأقصى كثيراً من البضائع المختلفة ومنها الفواكه كالتين والعنب والزيتون[٤] وهذا يخالف ما ذكره المؤرخون من وفرة الفواكه بأرض المغرب الأقصى وقد ذكرت ذلك من قبل ، إلا أنه يبدو أن أنواع التين والعنب والزيتون والتى كانت تزرع بأشبيلية كانت من نوع ممتاز مما دعا التجار إلى استيراد هذه الأصناف الممتازة وبيعها بأسواق المغرب كذلك الزيت المستخرج من زيتون الأندلس كانت تحمله السفن من أشبيلية إلى ميناء سلا[٥] وكان القطن الجيد والمزروع بأرض أشبيلية من الحاصلات التى كانت تصدّر إلى المغرب الأقصى ، يقول الحميرى « وكل ما استودع أرض اشبيلية نمى وزكى وجل ، والقطن يجود بارضها فيعم بلاد الأندلس ويتجهّز به التجار إلى افريقية وسجلماسة وما والاها »[٦] وكان معدن الزئبق مما يصدره الأندلس إلى المغرب يقول المراكشى « وعلى أربع مراحل من مدينة قرطبة موضع يسمى شلون فيه معدن زيبق ، منه يفترق على جميع المغرب »[٧] أما الحصا الملون فان الأمراء والرؤساء بمراكش

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٠ ، د. العدوى : المسلمون والجرمان ص ١١٢ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١١٨ .
(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨٢ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٤ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١١٨ ، ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٧٢ .
(٥) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٤ .
(٦) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ٢١ .
(٧) المراكشى : المعجب ص ٣٦٣ .

كانوا يستوردونه من المرية ليزينوا به بعض أدوات الطعام[1] بالإضافة إلى آلات الحديدمن السكاكين والأمقاص المذهبة وغير ذلكمن آلات العروس[2] كذلك كان حصن قيشاط بالأندلس يصدّر الأدوات الخشبية إلى المغرب الأقصى يقول الحميرى « قيشاط حصن بالأندلس كالمدينة بينه وبين شوذر اثنا عشر ميلا . . وعليها جبل يقطع به من الخشب الذى تخرط منه القصاع والأطباق وغير ذلك مما يعم بلاد الأندلس وأكثر بلاد المغرب[3] » وأما مدينة بلنسية فانها اشتهرت بمنسوجاتها والتى كانت تصدرها إلى المغرب[4] .

وأصبح المغرب الأقصى همزة الوصل بين اقليم السودان فى الجنوب حيث تجارة الذهب والصمغ وغيرها وبين الأندلس وما بها من الصنائع ومنها إلى أسواق أوربا وقد أشار البكرى إلى أن الصمغ كان يحمل من أودغشت إلى الأندلس عبر المغرب الأقصى[5] .

وكانت الظروف السياسية تلعب دورها فى منع التبادل التجارى بين المغرب الأقصى وبين أحد أقاليم الأندلس ، وذلك ما حدث لمدينة مالقة التى امتنعت عن الدخول فى طاعة الموحدين ومن هنا اتخذ الخليفة عبد المؤمن قراره بقطع العلاقات الاقتصادية معها وذلك فى رسالة أرسلها إلى الطلبة — وهم الهيئة الإدارية — بمدينة سبتة يأمرهم فيها بمنع التجار من التعامل مع سكان أهل مالقة وينذرهم بأشدّ ألوان العقاب وقد صوّر ذلك أبو جعفر بن عطية كاتب الخليفة عبد المؤمن فى رسالة رسمية صادرة من مراكش إلى الطلبة بمدينة سبتة يقول فيها «وأما ماذكرتموه — أكرمكم الله — من أولئك التجار الذين يحملون المرافق إلى ما لقه وأمثالها فلتنظروا نظراً أكيداً فى قطعهم وردعهم ولا سبيل لأحد من خلق الله أن يمدّ أحداً من تلك الأصناف بمادة حتى يتضح وجه ما ادعوه وتعرفوا بذلك ليرسم لكم ما تعتمدون عليه ، وكل

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٠٦ .
(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٧١ .
(٣) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ١٦٥ .
(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ٢٠٧ .
(٥) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٥٧ ، ١٥٨ .

من أخذ حاملا إليهم مادة فالسيف جزاؤه ، والقتل من تلك العادة دواؤه »[١] ولم يذكر فى الرسالة تاريخ إصدارها ولكن من المرجح أنها كانت قبل سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م حيث أن مالقة خضعت لجيش الموحدين فى هذا التاريخ[٢]

العلاقة التجارية بين المغرب الأقصى وأوربا :

انتظمت التجارة بين المغرب الأقصى وأوربا منذ أن استقرت الأوضاع السياسية بالمغرب الأقصى بقيام دولة المرابطين وضمها لإقليم الأندلس ثم زادت العلاقات التجارية ازدهاراً وقوة فى عهد الموحدين حيث امتد سلطانها السياسى على الشاطىء الشمالى لإفريقية حتى طرابلس ، وصار لها أسطول قوى فى البحر المتوسط يحمى طرق القوافل البحرية . ويدافع عن الموانئ البحرية التى كانت تستقبل السفن الأجنبية المحملة بالبضائع المختلفة ، وتعود محملة ببضائع المغرب المتنوعة .

وقد قامت هذه العلاقات بين المغرب الأقصى وجنوة وبيزه وصقلية وفلورنسة وانجلترا وفرنسا[٣] وكان فى مقدمة السلع التى صدرها المغرب الغنم والشمع وكان يستورد من أوربا الثياب والمنتجات الشرقية[٤] وكانت هذه التجارة مزدهرة بين سواحل أوربا والمغرب مما دعا حكومة جنوة إلى انشاء مدرسة لتعليم اللغة العربية فأنشئت فى سنة ١٢٠٧م / ٦٠٤هـ[٥] وذلك حتى يتمكن تجار جنوة من التعامل والتخاطب مع تجار المغرب . وانتظمت العلاقة التجارية عن طريق التسهيلات التى أعطاها ولاة الأمر من المرابطين والموحدين للتجار بحرية المرور وإقامة الفنادق لراحتهم مما شجعهم على التعامل التجارى[٦] .

كما أنه عقدت معاهدات تجارية بين ولاة الأمر بالمغرب الأقصى

---

(١) مجموع رسائل موحدية ص ١٠ ، ١١ تحقيق ليفى بروفنسال .
(٢) عنان : عصر المرابطين والموحدين : القسم الأول ص ٣٣٦ .
(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣١٦ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٣٥٨ .
(٥) لويجى رينالدى : المدنية العربية فى المغرب ص ١٧ ترجمة طه فوزى .
(٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣١٦، ٣١٧ .

والموانئ الإيطالية ، فقد وقع آل ماندويل بمرسيليا فيما بين أعوام سنة ١٢١٢ سنة ١٢٤٦ عشرين عقداً يبيعون بمقتضاها لبجاية وسبتة ووهران وتلمسان قطعاً من النقد العربي ضربت في مونبلية[1] كذلك أبرمت معاهدة تجارية بين مدينة جنوة ودولة الموحدين في سنة ٥٤٨هـ / ١١٥٣ م ولم تشر المراجع التي اطلعت عليها إلى نصوص المعاهدة ثم أوفدت جنوة سنة ٥٥٥هـ / ١١٦٠م قنصلها فقابله عمال عبد المؤمن بالاجلال أينما حل حتى قابل الخليفة عبد المؤمن وأمضى معه معاهدة تضمن حرية التجارة لرعايا جنوة براً وبحراً[2] وتحددت الرسوم الجمركية على البضائع الواردة من جنوة وصارت عشرة في المائة بالنسبة لواردات بجاية وثمانية بالنسبة لغيرها [3].

علاقات المغرب الأقصى بالمشرق :

امتد النشاط التجاري للمغرب الأقصى تجاه المشرق إذ استقبلت الموانئ المغربية السفن القادمة من إفريقية ومصر وبلاد الشام محملة بالبضائع حيث قام التجار المغاربة في الموانئ المغربية بشراء ما تحتاجه الأسواق المحلية وتصدير منتجات البلاد وقد أشار ابن سعيد إلى التجار الاغنياء بمدينة سبتة وشرائهم للسفن الكبيرة بما فيها من بضائع هندية يقول ابن سعيد « وفيها — أي مدينة سبتة — التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب بما فيها من بضائع الهند وغيرها في صفقة واحدة »[4].

ومن ناحية أخرى تقوم السفن بشحن المحاصيل والمنتجات التي تحتاجها بلدان المشرق ، حيث كانت السفن تشحن بالحنطة من ميناء ماسة قاصدة ميناء الأبلة ومنها إلى الصين[5] ، وقد شجع عملية التبادل التجاري بين مصر والمغرب أن مصر كانت في طريق قوافل الحجاج المسافرة لتأدية فريضة الحج

---

(1) Julien ; Histoire de L'Afrique du Nord, P; 123-124.

(٢) الميلي : تاريخ الجزائر في القديم والحديث ج ٢ ص ٢٥٠ ، الجيلالي : تاريخ الجزائر العام ج ٢ ص ٣٢٠ .

(٣) الميلي : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٥٠ ، د. راشد البراوي : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٥٠ .

(٤) ابن سعيد المغربي : بسط الأرض ص ٧٣ .

(٥) ابن رسته : الاعلاق النفسية ص ٣٦٠ .

فى كل عام والتى كانت فى كثير من الأحيان تضم بعض أنواع المتاجر التى تحتاجها المدن المشرقية[١] وقد أشار ابن القاضى فى جذوة الاقتباس إلى احدى هذه القوافل والتى خرجت من وادى سبو ومتجهة إلى المشرق قبل سنة ٥٠٣هـ ١١٠٩م[٢].

كما أن المدن المغربية وخاصة ما يقع منها فى جنوب البلاد كسجلماسة وأغمات كانت مراكز تجارية لتجار المشرق ، حيث قصدها التجار من الكوفة وبغداد والبصرة وأقاموا بها وذلك للإشراف على قوافلهم المتجهة إلى غانة وبلاد السودان لتحمل الذهب وغيره من منتجات الجنوب وتعود متجهة إلى المشرق ، يقول ابن حوقل « وكانت القوافل تجتاز بالمغرب إلى سجلماسة وسكنها أهل العراق وتجار البصرة والكوفة والبغداديون الذين كانوا يقطعون ذلك الطريق ، فهم وأولادهم وتجاراتهم دائرة ومفردة دائمة وقوافلهم غير منقطعة إلى أرباح عظيمة وفوائد جسيمة ونعم سابغة ، قلما يدانيها التجار فى بلاد الاسلام سعة حال »[٣].

كما أن وفرة المحاصيل والمنتجات بالمغرب الأقصى ساهم فى تصدير هذه المنتجات إلى افريقية وغيرها من البلدان جهة الشرق فالقطن كان يصدّر من مدينة البصرة بالمغرب الأقصى إلى افريقية[٤] كذلك السكر والمعروف بالطبرزد كان يصدر إلى إفريقية[٥] وكانت مصر تستورد من المغرب الحرير[٦] كما كانت تستورد أيضاً زيت الزيتون[٧] وأيضاً كان المغرب يقوم بتصدير المرجان والذى كان يُكثر صيده بسواحل سبتة وطنجة إلى

---

(١) روجيــــه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٥٠ ترجمــــة د. نقولا زيادة .

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٥١ ، ٣٥٢ .

(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٦٥ .

(٤) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٨١ .

(٥) مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .

(٦) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ١٢٥ ، ٢٦١ .

(٧) نفس المرجع السابق ص ١٨٠ ، ٢٦١ .

مصر[1] كما أن البلّور والحديد أيضاً كانت تستورده مصر من المغرب[2] ، وكان المغرب الأقصى يستورد بعض منتجات المشرق وفى مقدمتها العطر الهندى[3] .

ونتيجة لهذا التعامل التجارى صار للتجار المصريين أصدقاؤهم من التجار المغاربة وصارت بينهم علائق مودة ومراسلات ومن ذلك أن أحد تجار الاسكندرية كتب رسالة إلى صديقه التاجر بالقاهرة يخبره فيها أن صديقه التاجر بمدينة فاس قد أرسل إليه قضيباً من الذهب بهدف بيعه وشراء حرير أندلسى لحسابه[4] .

---

(١) د. راشد البراوى : حالة مصر الاقتصادية ص ٢٥٣ د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٦١٥ ط ٢ سنة ٥٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١٧٢ ، ٢٥٥ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٣٥٩ .

(٤) S.D. Goiten : Studies In Islam History P; 298.

الباب الثالث

الحياة الاجتماعية

الفصل الأول

عناصر تكوين المجتمع

شهد المسرح الجغرافى للمغرب الأقصى فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة عناصر متعددة من السكان ، وجنسيات مختلفة ، وفى مقدمة هذه العناصر قبائل البربر وهم السواد الأعظم من السكان ، وأصحاب البلاد الأصليين وعاش معهم العرب الذين لعبوا دوراً واضحاً فى الأحداث وصار لهم دور مؤثر فى عهد الموحدين وبجانب البربر والعرب كانت هناك أقليات من السودانيين والروم والأتراك .

أ — البربر :

فاذا ما تناولنا عنصر البربر باعتبارهم الغالبية العظمى من السكان ، ومنهم تأسست أكبر دولتين شهدهما المغرب الأقصى فى العصور الوسطى وهما دولتا المرابطين والموحدين لوجدنا اختلاف المؤرخين فى أصل نسبهم فابن حزم الأندلسى يذكر أقوالا مختلفة فى نسبهم « قال قوم أنهم من بقايا ولد حام بن نوح عليه السلام ، وادّعت طوائف منهم إلى اليمن إلى حمير ، وبعضهم إلى بر بن قيس عيلان »[1] وقد أشار العمرى إلى هذا الاختلاف بقوله « وأما البربر فقد اختلف فيهم اختلافاً كثيراً فقيل أنهم من ولد فارق لين بيصر بن حازم ، والبربر يزعمون أنهم من ولد قيس عيلان وصنهاجة من البربر يزعمون أنهم من ولد افريقش بن صيفى الحميرى »[2] وقد رجح ابن زيدان أنهم من ولد كنعان وأنه لما قتل ملكهم جالوت الفلسطينى وتفرقت بنو كنعان قصدت منهم طائفة بلاد المغرب وسكنوا تلك البلاد وهم البربر[3] وقد برّر بعض المؤرخين سبب نزوحهم من الشام بأن بنى حام تنازعوا مع بنى سام فانهزم بنو حام أمامهم إلى المغرب وتناسلوا به واتصلت شعوبهم

(١) ابن حزم الأندلسى : جمهرة انساب العرب ص ٤٦١ ت ليفى بروفنسال ط . دار المعارف بمصر .

(٢) العمرى : مسالك الأبصار ج ١٤ قسم ٢ ص ٢٢٣ .

(٣) ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس ج ١ ص ٦٢ ط ١ سنة ٢٩ .

من أرض مصر إلى آخر المغرب إلى تخوم السودان ، وكان بسواحل المغرب الأفارقة والافرنج . فكانت ذرية حام فى المداشر والخيام والأعاجم الأول فى البلدان[١] وقد تناول ابن خلدون هذا الموضوع بالتفصيل فى كتابه العبر وأشار إلى زعم بعض المؤرخين فى إرجاع نسب البربر إلى العرب قائلا « نسابة البربر يزعمون فى بعض شعوبهم أنهم من العرب مثل لواته يزعمون أنهم من حمير ، ومثل هواره يزعمون أنهم من كندة من السكاسك ، ومثل زناتة تزعم نسابتهم أنهم من العمالقة فروا أمام بنى إسرائيل ، وربما يزعمون فى هؤلاء كلهم نسابتهم أنهم من حمير »[٢] .

ومع تضارب هذه الروايات ، يمكننا أن نستخلص أن جيل البربر كغيره من الأجيال التى عمرت الأرض والتى انساحت فى أرجائه طلباً للرزق وأنها اتخذت لها موطناً فى أرض المغرب عامة حيث تناسلت وتكاثرت وتكونت تلك المجاميع الهائلة من السكان والتى اتخذت شكل قبائل نتيجة لتنوع البيئة بالإضافة إلى الأحداث التى مرت بها المنطقة ، أما ادعاء النسابين أنهم ينتسبون لقيس عيلان فلم يكن له ابن يسمى بر[٣] كذلك لم يكن هناك لحمير طريق إلى بلاد البربر[٤] .

البتر والبرانس : ثم وجدنا النسابين يقسمون البربر إلى شعبين عظيمين هما البتر والبرانس فيقول ابن خلدون وغيره «وأما شعوب هذا الجيل وبطونهم فان علماء النسب متفقون أنهم بجمعهم جذمان عظيمان وهما برنس ومادغيس ويلقب مادغيس بالأبتر فكذلك يقال لشعوبه البتر ويقال لشعوب برنس البرانس وهما معاً ابنابر »[٥] على أن هذا التقسيم حدث أيضاً بعد مجئ العرب إلى المنطقة إذ أن الرومان والبيزنطيين لم يهتموا بهذا النظام القبلى الذى كان سائداً بلاد المغرب . وبعد أن قسم النسابون البربر إلى شعبين عظيمين وجدناهم

---

(١) محمد الشطيبى: كتاب الجمان ورقة ١١٩، السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ٥٣ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٩٧ .

(٣) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ص ٤١٦ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٤١٦ .

(٥) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٨٩ ، مؤلف مجهول : نبذةتاريخية فى أخبار البربر ص ٦٩ تحقيق ليفى بروفنسال . رباط الفتح سنة ١٩٣٤

يختلفون فى أنساب كل منهما والراجح أنهما من أصل واحد وأن الجميع من ولد مازيغ ومازيغ من ولد كنعان بن حام[١] .

وكلا الفريقين : البتر والبرانس عاش على أرض المغرب الأقصى متأثراً بالأحداث التى مرت بها المنطقة ومؤثراً فيها فقد قامت قبائل البرانس ومنها صنهاجة ومصمودة بدور مهم فى توجيه سير الأحداث فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، إذ على أكتاف صنهاجة قامت دولة المرابطين ، وعلى أكتاف المصامدة قامت دولة الموحدين ومن هنا يتبين مدى أهمية إلقاء الأضواء على صفات تلك القبائل التى شاركت فى صنع الأحداث التى مرت بالمنطقة .

قبائل صنهاجة : ويأتى فى مقدمة القبائل قبيلة صنهاجة وما يندرج تحتها من القبائل ، ولم تكن صنهاجة مجرد قبيلة بل كانت شعباً عظيما[٢] حتى أنه لا يكاد يخلو قطر من أقطار المغرب من بطونه وأفراده يقول ابن خلدون « هذا القبيل من أوفى قبائل البربر وهو أكثر أهل الغرب لهذا العهد وما بعده لا يكاد قطر من أقطاره يخلو من بطن من بطونهم فى جبل أو بسيط حتى لقد زعم كثير من الناس أنهم الثلث من أول البربر[٣] » وقد أشار بعض المؤرخين إلى انتساب صنهاجة للعرب[٤] وفى ذلك يقول ابن أبى زرع « وصنهاجة فخذ من ولد عبد شمس بن وائل بن حمير »[٥] وقد رجح ابن خلدون هذه النسبة حين قال ، « لا خلاف بين نسابة العرب أن شعوب البربر الذى قدمنا ذكرهم كلهم من البربر إلا صنهاجة وكتامة فان بين نسابة العرب خلافاً والمشهور أنهم من اليمنية وأن افريقش لما غزا افريقية أنزلهم بها »[٦] .

---

(١) السلاوى : الاستقصا جـ ١ ص ٥٧ .

(٢) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٦ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٥٢ .

(٤) ابن سعيد : بسط الارض ص ٥٨ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧ ؛ ٨ ، ابن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ٢٢٥ ت العبادى ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٦ ص ١٢٨ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٣ .

(٥) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣ ، ٤ ، ٥ ت اقيلالى .

(٦) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٩٧ .

وربما يرجع السبب فى محاولة النسّابين جعل أنساباً عربية لصنهاجة وغيرها من القبائل ، هو التشابه فى حياة العرب والبربر فى كثير من أوجه الحياة مع حرصهم على الانتساب إلى الشعب العربى مهد النبوة وصانع الفتوحات العظيمة التى عمت المشرق والمغرب ، يضاف إلى ذلك رغبتهم فى المساواة بالعرب الذين جاءوا البلاد فاتحين .

وقد احتلّت قبائل صنهاجة مساحات شاسعة من المغرب إذ امتدت من نول لمطة فى جنوب المغرب الأقصى إلى القيروان فى افريقية حيث أقاموا فى المناطق الصحراوية[1] وخاصة صنهاجة المغرب الأقصى والذين أطلق عليهم الملثمون وذلك لاتخاذهم اللثام على وجوههم . وقد علل ابن خلدون سبب هجرتهم للمدن وميلهم إلى سكنى الصحراء بأن ذلك راجع إلى طبعهم . ابتعاداً عن الاختلاط بالناس وفراراً من الغلبة والقهر[2] .

وقد ضمّت صنهاجة مجموعة كبيرة من القبائل بلغت السبعين قبيلة[3] ومن هذه القبائل لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة ومسراته ، وتكلاته ومنداسة وغيرها من القبائل[4] ولا يتسع المجال لتناول كل هذه القبائل بالشرح والتفصيل ولكن يهمنا تلك القبائل التى انتقلت بجموعها من جنوب الصحراء متجهة إلى المغرب الأقصى حيث شاركت فى بناء الدولة المرابطية . وصارت

---

(١) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٦ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٢٨ ، ابن الخطيب : اعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٥ ت العبادى ، ابن ابى دينار : المؤنس ص ١٠١ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٤ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٦٩٠ .

J.spencer ; A History of Islam ig West Africa, P ; 20

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨١ .

(٣) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٦ ، السلاوى : الاستقصا جـ٢ ص ٣ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٠٠ د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٩ .

(٤) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٦ ، مجهول : تواريخ مدينة فاس ص ٢٧ ، ابن الخطيب : اعمال الأعلام : القسم الثالث ص ٢٢٥ ت العبادى ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٥٢ ، ابن حوقل : صورة الارض ص ١٠١ ، الميلى : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث جـ ٢ ص ١٤٧ .

لها مكانة متميزة فى مجتمع المغرب الأقصى بسبب انتماء الطبقة الحاكمة لها وهى أسرة بنى تاشفين الذين أقاموا ملكهم فى المغرب الأقصى والأندلس على أكتاف هذه القبائل ومن هنا حرص بنو تاشفين على استدعائهم من مواطنهم والاعتماد عليهم فى توجيه الأمور وقد أشار إلى هذه الحقيقة ابن الخطيب حين ذكرا استدعاء يوسف بن تاشفين لهذه القبائل وما نالته من مكانة وثروة يقول « وبعث - أى يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠هـ - إلى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب وطاعة أهله ويؤكد عليهم فى القدوم فوفد إليه منهم جموع كثيرة ولاّهم الأعمال وصرف أعيانهم فى مهمات الأشغال فاكتسبوا الأموال وملكوا رقاب الرجال وكثروا بكل مكان وساعدهم الوقت والزمان وكثرت جموعهم وتوفّرت عساكرهم »(١) وقد سبق هذا الاستدعاء تلك الأعداد الكبيرة من نفس هذه القبائل والتى صحبت يوسف بن تاشفين كجند أثناء اخضاعه للمغرب الأقصى والتى اتخذت المغرب الأقصى لها مستقراً ، وهذه القبائل هى لمتونة وكدالة ومسوفة ولمطة .

قبيلة لمتونة : وهى إحدى قبائل صنهاجة(٢) وكانت تتمتع بمكانة مرموقة بين القبائل الأخرى ، اذ كانت لها الزعامة والسيطرة على غيرها من القبائل(٣) حتى إذا جاء عبد الله بن ياسين إلى المنطقة ، ودخلت لمتونة فى طاعته اكتسبت الدعوة الجديدة قوة مكّنتها من مواصلة كفاحها. وقد سبق أن أشرت إلى أن عبد الله بن ياسين نقل زعامة المرابطين من جدالة إلى لمتونة حتى تتمكّن الدعوة الناشئة من تثبيت أقدامها ، وظلت هذه الزعامة موجودة فى لمتونة متمثلة فى أسرة يوسف بن تاشفين حتى انتهت دولة المرابطين .

وأبناء لمتونة ظوا عن رحالة فى الصحراء ما بين السودان وبلاد الاسلام(٤)

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٢٠ .

(٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٦٤ ، الادريسى : وصف المغرب ص ٥٧ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦ ، مجهول : الاستبصار ص ٢١٣ .

(٣) ابن ابى دينار : المؤنس ص ١٠١ .

(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦ ، ٧ .

وقد جدّد أماكنهم الدكتورحسن محمود بقوله « تمتد من منطقة تلى منطقة لمطة وجزولة وتمتد من وادى نون على المحيط الأطلسى حتى رأس بوجادور الحالية وإلى الشرق من وادى نون تقع مدينة أزكى على مسيرة سبعة أيام من وادى نون ، وهى حصن لمتونة ومعقلها ، ويبدو أن هذه القبيلة توغل فى الصحراء شرقاً حتى تدرك الطريق الموصل بين غانة وسجلماسة[1] » وكان أبناء القبيلة يشتغلون بالرعى ورأس مالهم الأغنام ويعيشون على لحوم وألبان الأغنام التى يرعونها[2] يقول صاحب كتاب الاستبصار « ومن هذا الجبل يدخل إلى بلاد لمتونة وهم من صنهاجة وأكثر لمتونة إنما هم رحّالة، ولا يستقر بهم موضع ولا يعرفون الحرث ولا الزرع ولا الخبز وانما لهم الأغنام الكثيرة فيعيشون من لبنها ولحمها »[3] .

فلما انتقلت القبيلة من مواطنها الأولى إلى المغرب الأقصى أقاموا بالمدن واحتلوا أرفع المناصب إذ حرص امراء المسلمين من بنى تاشفين على أن يولوا مناصب الدولة من أبناء القبائل المؤسسة وعلى رأسها قبيلة لمتونة ، وشاركوا فى الحياة الإجتماعية بالبلاد ، وصاروا يزاولون أنواعاً مختلفة من النشاط سواء أكان زراعياً أم صناعياً وتجارياً[4] يضاف إلى ذلك انخراطهم فى الحياة العسكرية وقيامهم بعبء كبير فى النشاط العسكرى الذى قام به المرابطون سواء أكان بالمغرب أو الأندلس .

قبيلة جدالة : وهى إحدى قبائل صنهاجة[5] وقد شاركت قبيلة لمتونة فى أن أبناءها رحل ينتجعون المراعى ويقيمون بالصحراء[6] وكانت مضارب القبيلة تمتد حتى مصب نهر السنغال متخذة مدينة أوليل مركزاً لها حيث يكثر

(١) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٥ .
(٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٦٤ ، ابن أبى دينار: المؤنس ص ١٠١ .
S.P. Scott ; History of Moorish Empire, V,2 P ; 189-190
(٣) مجهول : الاستبصار ص ٢١٣ .
(٤) د. حسن احمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤١٣ .
(٥) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦ ، ابن الخطيب: اعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٢٥ ت العبادى .
(٦) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦ .

الملح الذى تحمله القوافل إلى الشمال والجنوب[1]، وقد تحملت قبيلة جدالة عبء الدعوة المرابطية فى مراحلها الأولى حين قام يحيى بن إبراهيم الجدالى باصطحاب عبد الله بن ياسين إلى قبائل الصحراء لتعليمهم شئون دينهم ثم انتقلت الزعامة منها إلى قبيلة لمتونة بعد ذلك ، وصارت قبيلة جدالة تتمتع بمركز ممتاز بين القبائل المؤسسة لدولة المرابطين وصار أبناؤها يحتلون الوظائف والمراكز الهامة فى الدولة[2] كما أنها تحملت عبئاً كبيراً فى الكفاح المسلح الذى قام به المرابطون[3] .

قبيلة مسوفة : وهى إحدى قبائل صنهاجة[4] وكانت مضاربها بالصحراء تمتد فى منطقة قاحلة مجدبة تقع بين سجلماسة فى الشمال وأودغشت فى الجنوب وكانت بعض بطونها توغل شرقاً حتى تصل إلى تاد مكة وكوكو[5] وكانوا يعملون بالرعى واعتمادهم فى معيشتهم على لحوم الأغنام وألبانها[6] وبجانب ذلك كانت تسيطر على التجارة المارة بين أودغشت فى الجنوب وسجلماسة فى الشمال[7] حتى إذا انضمت إلى دعوة عبد الله بن ياسين ، وشاركت فى عملية الجهاد ، صارت لها مكانة ممتازة فى المجتمع الجديد ، إذ شغل أبناؤها بعض المراكز القيادية فى دولة المرابطين[8] .

قبيلة لمطة : وهى إحدى القبائل الصنهاجية[9] وقد احتلت المنطقة الممتدة من جبال درن حتى وادى نول القريب من المحيط الأطلسى[10] وقد سميت

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٦ .
(٢) أشباخ : تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ ٢ ص ٢٣٤ ، ٢٣٥ .
(٣) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧٧ .
(٤) مجهول : الاستبصار ص ١٧٩ ، ابن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٢٥ ت. العبادى .
(٥) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٦ .
(٦) مجهول : الاستبصار ص ١٧٩ .
(٧) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٦ .
(٨) د. شميرة : المرابطون تاريخهم السياسى ص ٣٠
(٩) ابن حوقل : صورة الأرض ص ١٠١ ، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٦ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٣ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٥٢ .
(١٠) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٤ .

مدينة نول باسم القبيلة « ومن مدينة نول إلى وادى درعة نحو ثلاث مراحل ، وإنما سميت نول لمطة لأن قبيلة لمطة يسكنوها وما وراءها وهى آخر بلاد السوس »(١) وهذه القبائل الأربع كانت عماد قوة المرابطين فى زحفهم من الجنوب فى الصحراء وانطلاقهم إلى الشمال فى المغرب الأقصى حيث استطاع ولاة الأمر ، صهر القبائل الوافدة مع غيرها من القبائل المقيمة بالمغرب الأقصى ومن أهمها قبائل مكناسة ومغراوة وبنو يفرن فى ظل مجتمع المرابطين

المصامدة : حتى إذا انهارت الدولة المرابطية على يد الموحدين ، وجدنا قبائل أخرى تحتل مركز الصدارة بالمغرب الأقصى باعتبارها القبائل المؤسسة للعهد الجديد ، والقسم الكبير من هذه القبائل كان يطلق عليه المصامدة سكان البلاد الأصليين . واعتبر ابن خلدون ديارهم وأماكنهم هى حدود المغرب الأقصى وذلك لكثرتهم وافتراشهم لمنطقة المغرب الأقصى ، يقول ابن خلدون « فأما المغرب الأقصى منه وهو ما بين وادى ملوية من جهة الشرق إلى آسفى حاضرة البحر المحيط وجبال درن من جهة الغرب فهى فى الأغلب ديار المصامدة من أهل درن وبرغواطة »(٢) وأشار إلى مواطنهم المراكشى بقوله « فحد بلادهم — أى المصامدة — النهر الأعظم الذى يصب من جبال صنهاجة وينتهى إلى البحر الأعظم بحر اقيانس ، يدعى هذا النهر أم ربيع . وآخر بلادهم الصحراء التى تسكنها لمتونة ومسوفة . . فهذا حد بلاد المصامدة عرضاً ، وحدها طولا من الجبل المعروف بدرن — جبال أطلس — إلى البحر الأعظم المسمى أقيانس » (٣).

والمصامدة يشكلون أعداداً كبيرة من السكان « وقبائل المصامدة أمم لا يحصيهم إلا خالقهم »(٤) وهم ينتسبون لايلان بن مصمود بن يازيغ(٥) وقد أقاموا بالمنطقة أحقاباً طويلة حيث شاركوا غيرهم فى صنع تاريخ المنطقة يقول ابن خلدون « ولم تزل مواطنهم بالمغرب الأقصى منذ الأحقاب

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢١٣ .
(٢) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٠١ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ٣٤٠ .
(٤) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٣ .
(٥) محمد الشطيبى : كتاب الجمان ورقه ٢٢٠ .

المتطاولة وكان المتقدم فيهم قبيل الإسلام وصدره برغواطة ، ثم صار التقدم بعد ذلك لمصامدة جبال درن إلى هذا العهد ، وكان لبرغواطة فى عصرهم دولة ولأهل درن منهم دولة أخرى »(١).

وقد حرص المرابطون منذ اللحظة الأولى لبدء دعوتهم على كسب ود المصامدة باعتبارهم يشكلون الغالبية الكبيرة لسكان المغرب الأقصى ، فعبد الله بن ياسين داعية المرابطين حين اجتمع لديه المال من الزكاة والأعشار بعث مقداراً كبيراً منه إلى طلبة بلاد المصامدة وقضاتها(٢) اكتساباً لودهم واستمالتهم للدعوة الجديدة ، وقد أثمرت هذه السياسة نتائجها إذ أن هذا التودد مع كراهية المصامدة للزناتيين جعلت المصامدة لا يقاومون جيوش المرابطين القادمة من الجنوب بل أيدوهم وحالفوهم ضد حكام المنطقة من الزناتيين(٣).

وسار على نفس السياسة يوسف بن تاشفين إذ ضم مجموعة كبيرة منهم لجيشه(٤) وبذلك مكّن لهم من الاشتراك الفعلى فى تأسيس صرح الدولة . وعند بناء العاصمة مراكش كان مكان البناء بجوار مواطنهم كسباً لودهم وفى نفس الوقت مراقبة لتحركاتهم خوفاً من انقلابهم على الدولة . وقد أشار ابن خلدون إلى مدى تأثير قوة المصامدة فى المنطقة بقوله « لم يزل أمر هؤلاء المصامدة بجبال درن عظيما وجماعتهم موفورة وبأسهم قوياً وفى أخبار الفتح من حروبهم مع عقبه بن نافع وموسى بن نصير حتى استقاموا على الإسلام ما هو معروف مذكور إلى أن أظلتهم دولة لمتونة فكان أمرهم فيها مستفحلا وشأنهم على أهل السلطان والدولة مهما حتى لما اختطوا مدينة مراكش أنزلهم جوار مواطنهم من درن ليتميزوا عمن سواهم ويذللوا من صعابهم »(٥) وظل هذا الاهتمام من ولاة المرابطين تجاه المصامدة خشية قوتهم وبأسهم ولذا حين أوصى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ولى عهده على ، ذكّره بالايصاء إلى المصامدة ، يقول ابن الخطيب « فلما قربت وفاته — أى وفاة يوسف

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢١٦ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥ ت الفيلالى ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٥٨ .

(٣) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ١٩٥ ، ١٩٦ .

(٤) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٢٠ .

(٥) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٥ .

ابن تاشفين — أوصى ابنه ولى العهد بعده أبا الحسن على بثلاث وصايا أحدها ألا يهيج أهل جبل درر — وصحتها درن — ومن ورائه من المصامدة وأهل القبلة »[١] وهذا كله يؤكد حقيقة القوة والنفوذ الذى كانت تتمتع به قبائل المصامدة .

والمصامدة على عكس قبائل اللثام من حيث أسلوب الحياة فبينما كان أهل اللثام يعتمدون فى حياتهم على الرعى وانتجاع الكلأ وعماد حياتهم الأنعام كان المصامدة على العكس من ذلك ، قد استقروا بالمنطقة واتخذوا المعاقل والحصون وشيدوا المبانى والقصور[٢] وامتهنوا الزراعة وفلاحة الأرض[٣] ولم يحاولوا الهجرة من أرضهم بل ودافعوا عنها ضد محاولات الاستيلاء عليها[٤] وقد سبق أن أشرت فى فصل الزراعة إلى قيام المصامدة بدور واضح فى النشاط الفلاحى بالبلاد .

وأما القبائل التى اندرجت تحت اسم المصامدة فكثيرة منها هرغة وهنتاتة وتينملل وكيدموية وكنفيسة ووريكة وهزميرة ودكالة وحاحة وغيرها من القبائل[٥] وقد عدّ المراكشى قبائل صنهاجة ولمطة من المصامدة[٦] وقد سبق أن أشرت إلى أن صنهاجة ومنها قبيلة لمطة تكوّن شعباً كبيراً من البربر له خصائصه ومميزاته وأن صنهاجة المغرب الأقصى كانت مواطنها بالصحراء فى الجنوب وليست فى مواطن المصامدة ، وأن قبائل صنهاجة انتقلت للشمال نتيجة لتغيّر الأوضاع السياسية بقيام دولة المرابطين بالمغرب الأقصى .

وقد نالت بعض قبائل المصامدة مكانة ممتازة نتيجة انضمامها وتأييدها لدعوة ابن تومرت وأطلق عليهم أهل السابقة وهم الذين انضموا للدعوة قبل الاستيلاء على مراكش ، وصار ابناؤها يكوّنون طبقة ممتازة فى الإدارة

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٠ .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٣ .
(٣) د. حسن حمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٤ .
Terrasse ; Histoire du Maroc I' ; 22,
(٤) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات .
(٥) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٣ ، عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص١٥٣ .
(٦) المراكشى : المعجب ص ٣٤٠ .

ووظائف الدولة ، يقول ابن خلدون « وخص – أى ابن تومرت – بالمزية من دخل فى دعوته قبل تمكنها وجعل علامة تمكنها فتح مراكش فكان إنما اختص بهذا اللقب أهل السابقة قبل ذلك الفتح ، وكان أهل تلك السابقة قبل فتح مراكش ثمانى قبائل سبعة من المصامدة هرغة وهم قبيلة الامام المهدى وهنتاتة وتينملل وهم الذين بايعوه مع هرغة على الحرابة والحماية وكنفيسة وإهرزجة وكدميوه ووريكة وثامنة قبائل الموحدين كومية قبيلة عبد المؤمن كثير صحابته . . فاختص . . هؤلاء القبائل بمزية هذه السابقة واسمها وأقاموا الأمر وحملوا سريره »[١] ومن النص السابق نتبين أن سبع قبائل من المصامدة احتلت مكان الصدارة فى مجتمع المغرب الأقصى نتيجة انضمامها للدعوة الموحدية يضاف إليها قبيلة كومية والتى ينتسب إليها عبد المؤمن بن على ومن هذه القبائل :

هرغة : وهى قبيلة الإمام المهدى[٢] وهى قليلة العدد بالنسبة لغيرها من قبائل الموحدين[٣] إلا أنها احتلت مكانة مرموقة فى مجتمع الموحدين وذلك لانتساب المهدى بن تومرت داعية الموحدين إليها.وقد دخل بعض أفرادها فى مجلس الخمسين ذلك المجلس الذى كونه ابن تومرت لبحث شئون الدولة وهو يلى هيئة العشرة أهمية ، ومن هؤلاء المنضمين لمجلس الخمسين : أبوزكريا يحيى بن يومور ، وأبو مروان عبد الملك بن يحيى وأبو زيد عبد الرحمن بن سيان وغيرهم[٤] .

هنتاتة : وهى قبيلة ضخمة وفى بعضها رياسة وشرف فى الدهر القديم[٥] وقد وصفها ابن خلدون بأنها من أعظم قبائل المصامدة وأكثرها جمعاً وأشدها قوة[٦] وما إن جاء ابن تومرت بدعوته إلى أرض المغرب الأقصى حتى سارعت قبيلة هنتاتة فى الانضمام إليه وقد أعطانا ابن القطان وصفاً لطريقة انضمام هنتاتة للدعوة الموحدية بقوله « ثم أن هنتاتة لما سمعوا بالإمام المهدى

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٦٦ ، ٢٦٧ .
(٢) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٢٦٧ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ٣٣٩ .
(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٠ .
(٥) المراكشى : المعجب ص ٣٤٠ .
(٦) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧٥ .

رضى الله تعالى عنه وبأخباره اجتمعوا على أبى حفص عمر بن يحيى ...
وسائر أشياخ هنتاتة ، فتذاكروا خبر الإمام المهدى وما جاء به وما هو عليه
من الخير والوعظ ، فأرادوا تحقيق ذلك فوجهوا أبا يعقوب إسحاق بن عمر
ليسبر أمره ويخبر رجاله وتواصوا هم وطالب لهم يقال له سكاتوا بوصايا فى
كيفية لقائه له رأوا أنها تنفعهم فتوجه إسحاق بن عمر والموحدون أعزهم الله
تعالى فى ثلاثة آلاف راجل وثلثمائة فارس يقدمهم البشير وتطلع ورأى وعمل
جميع ما أوصوه به ، واجتمع بالأمام المهدى ثم انصرف إلى تيفنوت فاجتمع
بالذين أرسلوه وعرفهم بما هو عليه الإمام المهدى من رفع المظالم والمناكر
والمغارم وقال لهم باللسان الغربى : النور النور فى بلاد هرغة وأنتم فى الظلمة
ياهنتة ، فصنعوا طعاماً واجمعوا عليه وتعاهدوا وتوجهوا بأجمعهم »[١].

ومنذ انضمامهم للدعوة الموحدية صارت لهم مكانة مرموقة ، وأصبح
زعيم هنتاتة الشيخ أبو حفص عمر بن يحيى من العشرة[٢] وهم المقربون للمهدى
والذين يبحثون الأمور الهامة المتعلقة بالدعوة ، وبجانب ذلك كان لهم أعضاء
فى مجلس الخمسين ومنهم أبو يعقوب يوسف بن وانودين وداود بن عاصم
وغيرهم[٣] حتى إذا توفى المهدى لم يستطع الخليفة عبد المؤمن بن على بالرغم
من ترشيح المهدى له ، أن يستقر فى الحكم ويأخذ بيعة الموحدين إلا بموافقة
ومساندة الشيخ أبى حفص زعيم هنتاتة[٤] وصار ابناؤه من بعده يتولون
العظيم من الأمور حتى انتهى بهم المطاف إلى الاستقلال بافريقية وتأسيس
الدولة الحفصية .

أهل تينملل : وهم قبائل شتى يجمعها اسم هذا الموضع[٥] وترجع أهميتها
لانضمامها للدعوة الجديدة وإقامة المهدى بين ظهرانيهم واتخاذه مسكنه ومسجده
فى منطقتهم ، ومن هنا اكتسبوا منزلة بين قبائل المصامدة يقول ابن خلدون

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٧ ، ٨٨ .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٧٥ .
(٣) البيذق : اخبار المهدى ص ٣٤ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٣١ .
(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٧٥ .
(٥) المراكشى : المعجب ص ٣٤٠ .

« وكذا تينملل أخوتهم — أى أخوة قبيلة هرغة — فى التعصب على دعوة المهدى والاشتمال عليه والقيام بأمره حتى تحيز إليهم وبنى داره ومسجده بينهم فكان يعطيهم من الفىء بقدر عظمهم من الابتلاء »(1) وقد انضم بعض أهل تينملل لمجلس الخمسين ومنهم أبو عمران موسى سليمان القاضى وأبو عبد الرحمن وسوجات بن يحيى وأبو بكر بن يزمارن وغيرهم(2) .

جنفيسة : وهى قبيلة عزيزة منيعة(3) وقد اشترك بعض أفرادها فى مجلس الخمسين ومنهم أبو اسماعيل وأبو زيد عبد الرحمن بن رجو وعبد اللهبن الحاج وأبو سعيد يخلف بن الحسين(4) .

كدميوه : وفى رواية أخرى جدميوه(5) وكانت تبعاً لهنتاتة إذ أن مواطنهم كانت قريبة من مواطن هنتاتة(6) وكان لها أعضاء فى مجلس الخمسين ومنهم أبو محمد العيش بن تمارى ، وأبو على كنون بن تمارى وغيرهم(7).

وأما وريكة : فهم مجاورون لهنتاتة وبينهم فتن قديمة وحروب متصلة حتى انتصرت عليهم هنتاتة(8) .

وبجانب هذه القبائل ، كانت هناك قبائل مصمودية أيضاً إلا أنها لم تكن فى جملة القبائل التى سارعت بمبايعة المهدى والتى عاشت على صفحة المغرب الأقصى ، وكانت لها قوة ومنعة ومنها قبيلة هسكورة وقد وصفهم ابن خلدون بقوله « وأما هسكورة وهم لهذا العهد فى عداد المصامدة وينسبون إلى دعوة الموحدين وهم أمم كثيرة وبطون واسعة ومواطنهم بجبالهم متصلة من درن إلى تادلا من جانب الشرق إلى درعة من جانب القبلة(9) » .

---

(1) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣٠ ، البيذق : أخبار المهدى ص ٣٤ .
(2) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٦٧ .
(3) المراكشى : المعجب ص ٣٤٠ .
(4) ابن القطان : نظم الجمان ص ٣١ ، البيذق : أخبار المهدى ص ٣٤ .
(5) المراكشى : المعجب ص ٣٤ .
(6) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧٠ .
(7) البيذق : أخبار المهدى ص ٣٤ .
(8) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧١ .
(9) نفس المرجع السابق ج ٦ ص ٢٠٣ .

يضاف إلى هذه القبائل المصمودية قبيلة كومية والتى لعبت الظروف السياسية دورها فى انتقال كثير من أبنائها من مواطنهم بالمغرب الأوسط والهجرة إلى المغرب الأقصى فى عهد عبد المؤمن بن على[١] وكومية تنسب إلى قبائل البتر وهم يعرفون قديماً بصطفورة بطن من بنى فاتن بن تامصيت بن ضرى بن زجيك بن مادغيس الأبتر وهم أبناء عم زناتة[٢] وأما مواطنهم فكانت بالمغرب الأوسط[٣] بين تلمسان والبحر المتوسط حيث المنطقة الجبلية الغنية بغاباتها[٤].

وكانوا أصحاب فلاحة ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن وسوى ذلك من سقط المتاع[٥] ثم تبدلت أحوالهم حين هاجروا إلى المغرب الأقصى وصاروا فى خدمة خلفاء الموحدين .

وأما سبب استدعائهم من مواطنهم فان الخليفة عبد المؤمن بن على الذى ينتمى إليهم شعر بحرج مركزه بين قبائل المصامدة ، وخاصة بعد محاولة اغتياله من جانب بعض الموحدين ، ومن هنا أحس بضرورة إحضارهم حتى يكونوا له عوناً وسنداً فى مواجهة عصبيات القبائل الأخرى وفى ذلك يقول ابن أبى زرع « وفى خلال ذلك - أى فى خلال استعداد عبد المؤمن لغزو الأندلس سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م — ورد على أمير المؤمنين قبيلة كومية فى جيش عظيم من أربعين ألف فارس ، والسبب فى قدومهم أنه لما همت الطائفة من الموحدين بقتله وقتلوا الشيخ الذى بات بمكانه ، وتحقق ذلك منهم جاء بهم لأخذ ثأره منهم بحيلة لكونه غريباً بين قبائلهم ليس له عشيرة يستند إليها ولا قبيلة يثق بها ويعتمد عليها »[٦] ولذا أرسل إليهم خفية الأموال

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٦٥ ، ١٦٦ ، ١٦٧ ، الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ١٥٤ ، عبد العزيز بنعبد الله : وحدة المغرب العربى ص ٥٤ مجلة تطوان عدد ١ سنة ٥٦ .
J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P ; 91.

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٩٩ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٢٦ .

(٤) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب ص ٢٧٤

(٥) المراكشى : المعجب ص ٣٣٩ .

(٦) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٦٥ ت الفيلالى .

والكساء وأمرهم بالقدوم عليه حتى إذا جاءوا تظاهر الخليفة بعدم معرفته سبب قدومهم وأرسل الشيخ أبا حفص لاستقبالهم ومعرفة سبب قدومهم «فأمر الشيخ أبا حفص أن يخرج إليهم فى جماعة من الموحدين وأشياخهم ليتعرفوا خبرهم فسار حتى تلقاهم بوادى أم الربيع فقال لهم : أسلم أنتم أم حرب ، فقالوا : بل نحن سلم ، نحن قبيل أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على ، نحن كومية الزناتيون ، قصدنا زيارته والتسليم عليه فرجع أبو حفص وأصحابه فعرف أمير المؤمنين بخبرهم فأمر عبد المؤمن جميع الموحدين أن يخرجوا إلى لقائهم . . وكان بمراكش يوم دخولهم عيد من الأعياد »[1].

وقد أحلهم الخليفة منزلة طيبة إذ جعلهم بطانته وحرسه الذى يلتف حوله ويمشون بين يديه إذا خرج[2] وهكذا شكل البربر بقبائلهم المتعددة الغالبية العظمى من سكان المنطقة .

واختلفت أوضاع القبائل تبعاً للسلطة الحاكمة ، فحين صارت مقاليد الأمور بيد المرابطين ، فإن قبائل صنهاجة وعلى رأسها قبيلة لمتونة — التى انتقلت من مضاربها فى الجنوب ، واستقر بها المقام فى المغرب الأقصى — احتلت قبائلها مكانة ممتازة بين سواها من القبائل الأخرى .

فلما سقطت دولة المرابطين ، وقامت دولة الموحدين على أكتاف المصامدة أصبحت هذه القبائل لها الصدارة فى احتلال المناصب والمراكز القيادية بالبلاد .

ب — العــرب

هم العنصر الثانى من سكان المغرب الأقصى والذى شارك البربر فى الاقامة بالمنطقة ، ولم تكن صلة المغرب الأقصى بالعرب كموطن لهم قاصراً على القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، وإنما كانت ذلك منذ اللحظات الأولى التى وطأت فيها أقدام موسى بن نصير أرض المغرب الأقصى غازياً فى أواخر سنة ٨٦ هـ وأخضع المنطقة للسلطة المركزية فى دمشق ، وفى سبيل

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٦٥ ، ١٦٦ .

(٢) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٦٦ ت الفيلالى .

نشر الإسلام فإن موسى بن نصير ترك مجموعة من العرب تعرّف سكان البلاد قواعد الدين الإسلامى وتنشر تعاليمه بينهم[1] ، ومن هنا بدأ مجتمع المغرب الأقصى يتطعم بعناصر جديدة من العرب التى أقامت فى ربوع البلاد تؤدى وظيفتها التى أقبلت من أجلها ، وصار المغرب الأقصى موطناً لمن يفضلون الإقامة فى ربوعه من العرب وملجأ وملاذا لأصحاب الدعوات الخارجية والفارين من وجه الخلافة ، أولئك الذين وجدوا فى أرضه تربة صالحة لنشر أفكارهم ومبادئهم بعيداً عن بطش الخلافة وسلطان ولاتها . حتى إذا قامت دولة الأدارسة سنة ١٧٢ هـ/٧٨٨م شجع أئمتها العرب على الإقامة بالمنطقة واتخذوا منهم الوزراء والكتاب فضلا عن انشاء عاصمتهم فاس لتضم المهاجرين العرب الذين وفدوا على المنطقة ، ومن ثم زاد العنصر العربى فى المنطقة واختلطوا بسكان المنطقة مكوّنين معهم شعب المغرب الأقصى .

حتى إذا أطل القرن الخامس الهجرى على الشمال الافريقى شهد هجرة عربية كبرى تغزو المغرب عامة ، وتظهر آثارها واضحة فى عهد الموحدين وهى الغزوة الهلالية ، وهذه الغزوة أو الموجة تختلف فى دوافعها وأهدافها عن المجموعات العربية الأولى التى واكبت الفتح الإسلامى .

وهؤلاء العرب يطلق عليهم لفظ الهلالية من باب إطلاق اسم الجزء على الكل حيث أن بنى هلال والذين أطلق اسمهم على باقى القبائل العربية إنما يكونون إحدى القبائل العربية التى غزت المغرب وهذه القبائل هى بنو سليم وبنو هلال وأحلافهم من جشم والخلط والمعقل[2] وهذه القبائل تجتمع ما عدا المعقل فى منصور ابن عكرمة بن خصفة بن قيس عيلان بن مضر ، وأما المعقل فينسبون أنفسهم إلى جعفر بن أبى طالب أما نسابة بنى هلال فيعدونهم فى بطونهم[3] وأما مواطنهم فكانت بأرض الحجاز حيث كان بنو سليم مما يلى المدينة المنورة ، وبنو هلال فى جبل غزوان عند الطائف[4] ثم بعد ظروف سياسية مروا بها استقر بنو سليم وبنو هلال بصعيد مصر[5] ، حتى

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١١٠ .
(٢) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ١١٤ .
(٣) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١١٤ .
(٤) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٣ .
(٥) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٦٤ .

إذا انتقل العبيديون إلى مصر بدأت الخطوات الأولى فى تهجير القبائل العربية إلى الشمال الافريقى وذلك إثر خلاف سياسى حدث بين المعز بن باديس وبين العبيدين فى مصر ، وذلك حين خالف المعز الدعوة الفاطمية ودعا للخلافة العباسية ومن هنا لم تر الخلافة الفاطمية من عقاب سوى تسليط القبائل العربية على افريقية والمغرب وذلك للقضاء على دولة بنى زيرى[1] ويبدو أن أعدادهم كانت ضخمة بلغت مائتى ألف نفس[2] وأنها اتخذت شكل موجات متتابعة بدأت بالدفعة الأولى التى شجعها الفاطميون على غزو افريقية ثم تلتها هجرات عربية أخرى حتى يشاركوا فيما ناله من سبقهم من مغانم وأموال[3] وقد أحدثوا آثاراً مدمرة وبعبارة ابن خلدون فإنهم أضرموا افريقية ناراً[4] وامتدت أيدى الأعراب إلى المدن بالتخريب والتدمير . وافسدوا المزارع واقتلعوا أشجار الزيتون وأفسدوا الحقول وأقاموا على هذه الأنقاض إمارات عربية صغرى يقاتل بعضها بعضاً[5] .

العرب الهلالية فى عهد المرابطين : أغفلت المراجع التى تيسّر لى الاطلاع عليها الإشارة إلى أى نشاط للعرب الهلالية فى المغرب الأقصى ، إذ أن جموعهم لم تكن وصلت بعد إلى أراضى المغرب الأقصى ، وربما يرجع هذا لانشغالها بنشاطها الحربى فى افريقية من ناحية ومن ناحية أخرى فإن القوة الفتية المتمثلة فى المرابطين حفظت المغرب الأقصى من تطلع العرب الهلالية لغزو المنطقة بالإضافة إلى ذلك فإنهم وضعوا حامية قوية بتلمسان وقاموا

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ١ ص ٦٢ مخطوط ، ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦٢ ، د. عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ ص ٦٨ جامعة القاهرة سنة ١٥٦ ، د. أحمد شلبى : التاريخ الاسلامى جـ ٤ ص ١٦٤ ط ٣ سنة٦٩ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الدولة الفاطمية ص ٢٥٤ ط ٢ سنة ٥٨ كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ١٨٤ ط ١ سنة ٤٩.

(٢) دونالدويدنر : تاريخ افريقيا جنوب الصحراء ص ٤٤ ترجمة د. راشد البراوى .

(٣) د. عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ ص ٦٨ .

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٤ ص ٦٢ .

(٥) د. حسن محمود : الاسلام والثقافة العربية فى افريقيا جـ ١ ص ١٧٥ ط ٢ سنه ٦٣ .

بتحصين المنطقة[1] كل ذلك قضى على كل تطلعات العرب الهلالية فى مواصلة عملية الغزو بالنسبة للمغرب الأقصى .

إلا أنه وردت إشارة فى نظم الجمان تفيد اشتراك العرب فى عملية الجهاد التى كان يقوم بها المرابطون فى الأندلس ، ففى وقعة إقليش بالأندلس سنة ٥٠١ هـ / ١١٠٧م والتى انتصر فيها المرابطون على الفرنج ، ذكر ابن القطان استشهاد بعض العربان فى المعركة « واستشهد فى هذه الوقيعة الإمام الجزولى وكان رجل صدق وجماعة من الأعيان والعربان رحمهم الله تعالى »[2] وهذه الرواية تفيد اشتراك العرب فى معركة الجهاد ، وربما كان هؤلاء العرب من المقيمين أصلا بالمغرب الأقصى أو المتطوعين من افريقية والذين توجهوا إلى الأندلس للمشاركة فى عملية الجهاد ، ويؤكد عملية تطوع العرب فى جيش المرابطين ما أورده ابن أبى زرع والسلاوى من اشتراك المتطوعة العرب فى جيش المرابطين فى سنة ٥١٣هـ / ١١١٩م « جاز — أى على بن يوسف بن تاشفين سنة ٥١٣هـ حين سمع بأفعال ابن رذمير — إلى الأندلس برسم الجهاد وإصلاح أحوال بلادها وضبط ثغورها وهو جوازه الثانى ، فجاز معه خلق كثير من المرابطين والتطوعين والعرب وزناته والمصامدة وسائر قبائل البربر »[3] .

العرب الهلالية فى عهد الموحدين : اختلف وضع العرب بالمغرب الأقصى فى عهد الموحدين عنه فى عهد المرابطين ، فبينما لم يظهر لهم نشاط بارز فى عهد المرابطين اللهم إلا الاشتراك فى بعض الحملات العسكرية المتجهة إلى الأندلس بهدف الجهاد ، إذ نراهم فى عهد الموحدين يظهرون على مسرح الأحداث إما صراعاً ضد الموحدين أو جنوداً لهم فى معاركهم الحربية ، وما تخلل ذلك من محاولات نقلهم إلى المغرب الأقصى إما بحد السيف وإما بالترغيب والعطايا .

---

(١) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٢٨ ، ٣٢٩ .

(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٩ ، ١٠ .

(٣) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٨٩ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٦٧.

وقد بدأت صلة الموحدين بالعرب منذ عهد عبد المؤمن حين أذاع بين الناس نسبه العربي[1] وقد ذكر نسبه المراكشي « وعبد المؤمن هذا هو عبد المؤمن بن علي بن تملوى الكومى ، أمه حرة كومية أيضاً ، من قوم يقال لهم بنو مجبر ، مولده بضيعة من أعمال تلمسان تعرف بتاجرآ ، وقيل أنه كان يقول إذا ذكر كومية : لست منهم وإنما نحن لقيس عيلان بن مضر ابن نزار بن معد بن عدنان ، ولكومية علينا حق الولادة بينهم والمنشأ فيهم وهم الأخوال »[2] واتخذ عبد المؤمن ومن جاء بعده من هذا النسب وسيلة لاستمالة العرب الموجودين فى افريقية للاشتراك معهم فى عمليات الجهاد بالأندلس ، وكانت سياسة الموحدين تقوم على دعامتين :

الأولى : تهجيرهم من افريقية إلى المغرب الأقصى ، وبذلك يتخلص الموحدون من ثوراتهم .

والثانية : استخدامهم فى عمليات الجهاد بالأندلس يوضح ذلك مانصح به الخليفة عبد المؤمن أبناءه « وينقل من وصاة عبد المؤمن على الرحلة إلى افريقية لبنيه . . وأخل افريقية من العرب وأجلهم إلى بلاد المغرب وادخرهم لحرب ابن مردنيش ان احتجت لذلك »[3].

وقد جاء العرب الهلالية إلى المغرب الأقصى نتيجة لعاملين :

العامـل الأول : فهو انهزامهم فى المعارك التى خاضوها ضد الموحدين وما ترتب على ذلك من ترحيلهم إلى المغرب الأقصى ، وكانت أولى هزائمهم أمام الخليفة عبد المؤمن حين توجه إلى المغرب الأوسط وبعد استيلائه على بجاية سنة ٥٤٧هـ / ١١٥٢م ، دخل فى معركة مع العرب انتهت بهزيمتهم ونقل نسائهم وأبنائهم إلى مراكش[4] وكان الصدام الثانى حين توجه إلى افريقية وبعد استيلائه على المهدية دخل فى معركة مع العرب انتهت بهزيمتهم

---

(١) البيذق : أخبار المهدى ص ٢١ ، ٢٢ ، ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٢٦ ، ١٢٧ ت الفيلالى.

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٩٦ ، ١٩٧ .

(٣) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٧٦ .

(٤) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٤ .

سنة ٥٥٥هـ ومن ثم نقل مجموعة كبيرة من النساء والأولاد إلى العاصمة وعاملهم معاملة حسنة مما دفعت كثيراً من العرب الفارين اللحاق بأسرهم بالعاصمة(١) يقول النويرى « والتقى الجمعان / أى العرب والموحدين — واقتتلوا أشد قتال وأعظمه فانجلت المعركة عن هزيمة العرب وذلك فى يوم الخميس عشر من صفر وتركوا أموالهم وأهاليهم وأولادهم ونعمهم فأخذ الموحدون جميع ذلك وعادوا به إلى عبد المؤمن فقسم الأموال فى عسكره ، وترك النساء والأولاد تحت الاحتياط ووكل بهم الخصيان يخدمونهم وأمر بصيانتهم ونقلهم معه إلى مراكش فأنزلهم المساكن الفسيحة وأجرى عليهم النفقات الواسعة »(٢) ويبدو أن أعداد العرب التى رجع بها الخليفة عبدالمؤمن كانت كبيرة حتى أن ابن صاحب الصلاة عبّر عن ذلك بقوله « وقد استاق — أى الخليفة عبد المؤمن — فى اتباعه من العرب من رياح وبنى جشم وبنى عدى من بنى هلال وقبائلهم ما يضيق بهم الفضاء ، على عدد الذباب وعدد الحصى »(٣) وفى رواية أخرى أنه نقل من كل قبيلة ألفا بحياً لأنهم وأبنائهم(٤)

وفى سنة ٥٧٤هـ / ١١٧٨م تم ترحيل جماعة من عرب رياح إلى مراكش وذلك بعد انهزامهم أمام الموحدين فى قفصة(٥) حتى إذا أقبلت سنة ٥٨٢هـ - ١١٨٦م اندلعت الثورة بافريقية وخاصة فى مدينة قفصة ، وتزعم الثورة بنو غانية ، وانضمت إليهم القبائل من جشم ورياح الاثبج مما اضطر معه الخليفة المنصور إلى تجريد حملة كبيرة وخرج على رأسها وأخضع القبائل

---

(١) البيذق : اخبار المهدى ص ١٢٠ ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٤٤ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٤٢ ، د. السيد عبد العزيز سالم :المغرب الكبير ص ٧٩٤ .

Nevill Barbour.: Morocco P;. 78.

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ مخطوط .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ص ١٤ .

(٤) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٦١ ت الفيلالى ، ابن ابى دينار : المؤنس ص ١١٢ .

(٥) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٢٠ .

الثائرة ، ونقل الكثير من العرب إلى المغرب الأقصى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م[1]

فلما تولى الناصر الموحدى ، صرف جزءاً كبيراً من طاقته وجهده فى فترة زمنية استغرقت ست سنوات منذ سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٩ إلى سنة ٦٠٢هـ - ١٢٠٥م فى سبيل محاولة القضاء على بنى غانية فى افريقية ومن انضم إليهم من قبائل بنى هلال وقد نجح فى ذلك[2] وهكذا شغل الموحدون بالمعارك ضد العرب منذ أن تولى عبد المؤمن الخلافة حتّى الناصر ، وترجع أهمية تلك المعارك فى أن جموعاً غفيرة من العرب انتقلوا من افريقية والمغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى وأقاموا بالمنطقة .

العامل الثانى : فى سبب مجيء القبائل العربية إلى المغرب الأقصى فهو استدعاء خلفاء الموحدين لهم للاشتراك فى عملية الجهاد ، ومن ذلك ما فعله الخليفة عبد المؤمن حين عزم على العبور إلى الأندلس فإنه استنفرهم للمشاركة فى الجهاد ، يقول المراكشى « وقد كان — أى عبد المؤمن — حين أراد العبور إلى جزيرة الأندلس استنفر أهل المغرب عامة فكان فيمن استنفره العرب الذين كانوا ببلاد يحي بن العزيز — أى مملكة بنى حماد بافريقية . . . فكتب إليهم رسالة يستنفرهم إلى الغزو بجزيرة الأندلس وأمر أن تكتب فى آخرها أبيات منها :

بنّى العم من عليا هلال بن عامر   وما جمعت من باسل وابن باسل
تعالوا فقد شدت إلى الغزو نيّة   عواقبها منصورة بالأوائل[3]

ومن النص نرى حرص الخليفة عبد المؤمن على تذكيرهم بصلة القربى التى تربطه بهم مع مدحهم بالشجاعة والبسالة حتّى يستجيبوا لندائه .

وسار على نفس السياسة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى استدعاء

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥٧ ت الفيلالى ، ابن خلدون: العبر جـ ٦ ص ٢١٤،٢٠ ،ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٤ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ، جـ ١ ص ١٢٢ ، الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٤٣ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٩٤ الى ص ٢١٢ تطوان .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٢٤ ، ٢٢٥ .

القبائل العربية وقد تم ذلك فى سنة ٥٦٦هـ حين استدعى قبائلهم للمشاركة فى عملية الجهاد[1] يقول ابن خلدون « وخاطب — أى يوسف بن عبد المؤمن — العرب بافريقية يستدعيهم إلى الغزو ويحرّضهم وكتب إليهم فى ذلك قصيدة ورسالة مشهورة بين الناس وكان من احافلهم ووقورهم عليه ما هو معروف»[2]

وأحياناً كانوا يقبلون من أنفسهم طمعاً فى العطاء والأموال التى يحصلون عليها من الاشتراك فى المعارك ففى سنة ٥٧٦هـ/١١٨٠م وفد على الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن أبو سرحان مسعود بن سلطان الرياحى فى جيش عظيم من وجوه رياح برسم الخدمة[3] كذلك اشترط العرب على أنفسهم فى سنة ٥٧٩هـ ١١٨٣م ، الاشتراك فى الحملة الكبرى التى أعدّها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بمائة وثلاثين ألف فارس بين فارس وراجل[4] وحضر وفد كبير منهم فى سنة ٥٨٨هـ / ١١٩٢م من عرب سليم ورياح ووجوه أنجادهم للانضمام إلى جنود الخليفة المنصور الموحدى[5] .

وهكذا اشترك عامل الهزيمة وعامل الاستدعاء ورغبتهم فى الأموال والعطاء فى إقبال أعداد كبيرة من العرب إلى المغرب الأقصى واقامتهم فى أماكن متفرقة من البلاد حيث قام الخليفة عبد المؤمن بتوزيع العرب على مناطق متفرقة من البلاد يقول البيذق « وأقبل إلى المغرب — أى الخليفة عبد المؤمن — مع سادة العرب بأجمعهم وأولادهم وعيالهم فوصل أمير المؤمنين إلى سلا وقسم العرب على البلاد ومشى إلى مراكش »[6] بل وقام الخليفة بترك جماعات منهم بالأندلس وذلك حين دعاهم إلى الجهاد فعبروا معه إلى الأندلس فى سنة ٥٥٥هـ / ١١٥٩م ، وأقام الخليفة بجبل الفتح يرتب شئون الأندلس ومن ذلك ترك جماعات من العرب بمدن الأندلس[7] .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٦٨ ، ٤١١ ، ٤١٧ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٣٩ .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٣٩ .
(٣) ابن أبى زرع : الأنيس المطرب جـ ٢ ص ١٨٩ ت الفيلالى .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٦٠ تطوان .
(٥) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٥١ ، ١٥٢ تطوان .
(٦) البيذق : اخبار المهدى ص ١٢٠ .
(٧) المراكشى : المعجب ص ٢٢٦ .

وتابع نفس السياسة أبو يعقوب وأبو يوسف فى تهجير جماعات منهم إلى الأندلس « فبالجزيرة اليوم سنة ٦٢١ هـ — من العرب من زغبة ورياح وجشم ابن بكر وغيرهم نحو من خمسة آلاف فارس سوى الرجالة »[١] وهذا يتفق مع سياسة الموحدين فى محاولة نقلهم من مواطنهم فى افريقية والمغرب الأوسط مع شغلهم بالحرب والجهاد حتى لا يتفرغوا لإحداث فتن بالبلاد .

وفى عام سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م قام المنصور الموحدى بتحديد أماكن معينة لإقامة بعض القبائل العربية كقبائل جشم وبنو رياح من بنى هلال حيث أنزلهم بسهول المغرب المحاذية للمحيط الأطلسى : بنو جشم ببلاد تامسنا ما بين سلا ومراكش وهو أوسط بلاد المغرب الأقصى ، وأنزل بنى رياح من بنى هلال بناحية الغرب فيما بين القصر الكبير وساحل المتوسط[٢] وبذلك يكونون تحت رقابته المستمرة يقول ابن خلدون « فنفاهم — أى المنصور الموحدى — إلى المغرب الأقصى وأنزل جشم بلاد تامسنا ورياحاً ببلاد الهبط وأزغار مما يلى سواحل طنجة إلى سلا »[٣] .

وقد أقام هؤلاء العرب بهذه المناطق واستقروا بها ومن ثم كانت عليهم التزامات تجاه الدولة ، ومن هذه الالتزامات دفع الضرائب باعتبارهم كغيرهم من المواطنين مع المساهمة بعدد من أبنائهم فى الحملات العسكرية التى يقوم بها ولاة الأمر[٤] يقول ابن خلدون « وكان — أى بعض القبائل العربية — موطنهم ببسيط تامسنا وكانت للسلطان عليهم عسكرة وجباية »[٥] .

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٢٦ .

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢١ ، ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس جـ ٢ ص ٧١ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٦٨ ، ١٦٩ ، ابن عبود : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٥٢ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٨٣ .

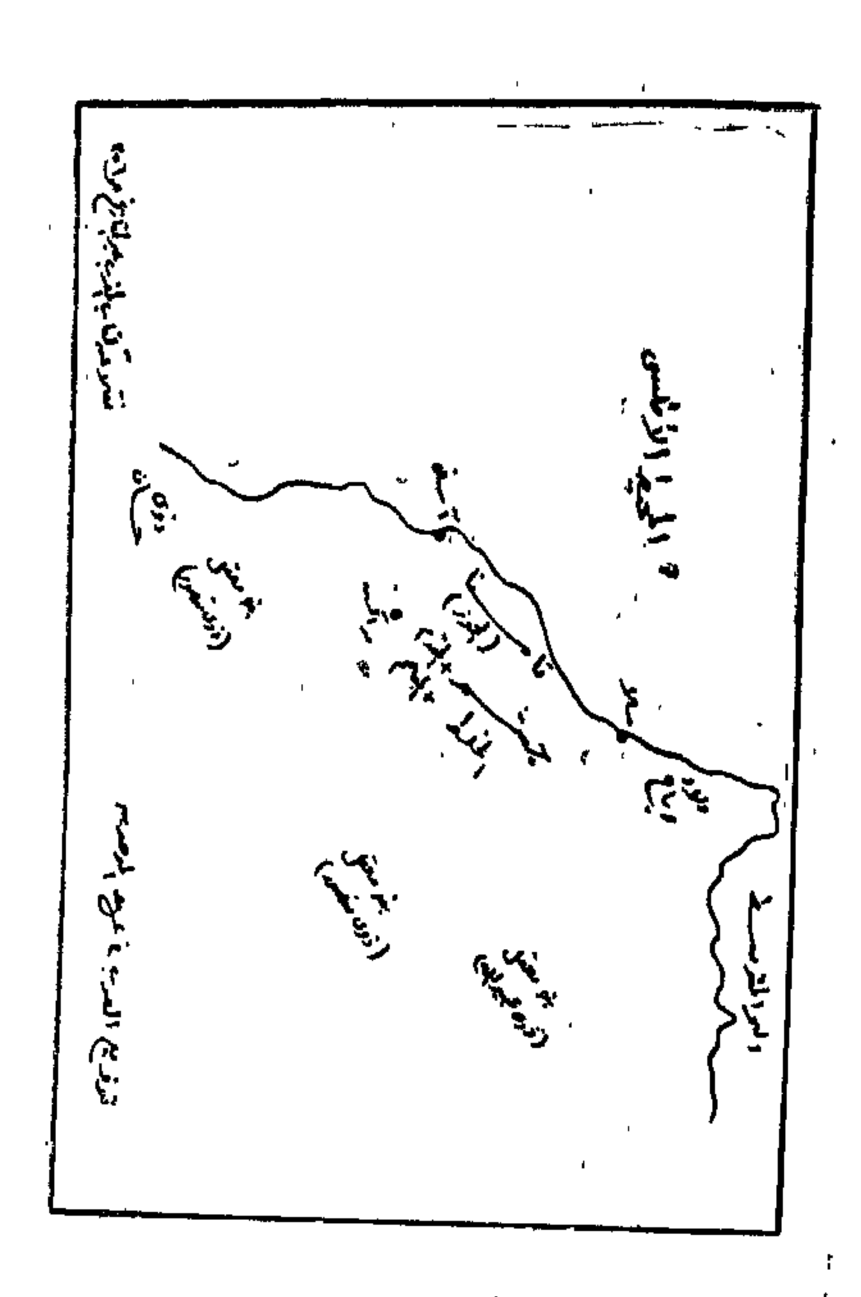
Nevill ; A Survey of North West Africa, P ; 84.

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢١ .

(٤) نفس المرجع السابق جـ ٦ ص ٣١ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٧٠ ,

Julien ; Histoire de L'Afrique du Nord P ; 112.

(٥) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٣١ .


البحر المتوسط
المحيط الأطلسي
سلا
تامسنا
آسفي
مراكش
بنو معقل (ذوو منصور)
بنو معقل (ذوو عبيد الله)
بنو معقل (ذوو حسان)
ذوو حسان
توزيع العرب في عهد الموحدين

ومن ناحية أخرى فإنهم كانوا يتمتعون بما يتمتع به غيرهم من جند الموحدين فقد أقطعهم ولاة الأمر بعض الأراضي [١] وذلك حتى يهيئوا لهم فرصة للاستقرار وعدم التحرك بالفتنة ، كما كان الخلفاء ينفقون عليهم النفقات الواسعة [٢] ، بالإضافة إلى ذلك كانت توزع عليهم الأموال فى الحملات العسكرية المختلفة فحين أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتمييز الجند سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م أمر للعرب ورؤسائهم بالأموال والكساء والعلاج يقول ابن صاحب الصلاة « وأمر — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — للعرب ببركتهم فخرج للفارس الكامل منهم خمسة وعشرون ديناراً ، ولغير الكامل خمسة عشر ديناراً ، والراجل سبعة دنانير ، وخرج لأشياخ العرب لكل شيخ منهم خمسون ديناراً ، ولكل رئيس منهم على قبيلة مائتا دينار وكسا جميعهم بالقباطى والقمص والغفاير والعمائم وأعطاهم السيوف المحلاة والدروع السابغات والبيض والقنا من الرماح الطوال وأمر لهم بثلاثة آلاف فرس قسموها على قبائلهم وأتباعهم ورجالهم » [٣] ويلاحظ من أقوال ابن صاحب الصلاة فى هذه المناسبة أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد فضّل جند العرب على جند الموحدين فى العطاء فبينما أعطى للفارس الكامل من الموحدين عشرة دنانير ، أعطى نظيره من العرب خمسة وعشرين ديناراً ، ولغير الكامل من الموحدين ثمانية دنانير أعطى نظيره من العرب خمسة عشر ديناراً وللراجل من الموحدين خمسة دنانير أعطى نظيره سبعة دنانير [٤] وهذا يشير إلى حرص الموحدين على استمالة العرب وكسب ودهم .

آثار العرب الهلاليين فى المجتمع المغربى :

كان مجىء قبائل العرب الهلالية إلى المغرب الأقصى ، وإقامتهم بالمنطقة واختلاطهم بالسكان ذا آثار متعددة ، إذ قاموا بنشاط ملحوظ فى مجالات المجتمع المختلفة إدارية كانت أم عسكرية أم اقتصادية أم اجتماعية .

---

(١) نفس المرجع السابق جـ ٦ ص ٤١ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٩٤ .

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٥٢ تطوان .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٧ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٤٣٧ .

ففى المجال الإدارى استعان بهم الخليفة عبد المؤمن بن على فى التأثير على غيرهم من الموحدين فى اختيار ابنه محمداً وليا للعهد ، وقد سبق ذلك محاولات الخليفة عقد صلة مودة بين ابنه محمد المرشح لولاية العهد وبين زعماء القبائل العربية ، حين قام محمد بإرسال الخطابات إليهم يخبرهم فيها أن من أسر من أبنائهم ونسائهم تحت الرعاية والصون ، حتى إذا تثبت زعماء العرب من ذلك شعروا بالمودة والتقدير لابن الخليفة[1] ، يقول النويرى « وأمر عبد المؤمن ابنه محمد بمكاتبة العرب ويعلمهم أن نساءهم وأولادهم تحت الاحتياط والحفظ والصيانة وأمرهم أن يحشروا لتسليمهم إليهم فلما وصل كتابه إليهم سارعوا إلى المسير إلى مراكش فأعطاهم عبد المؤمن نساءهم وأولادهم وأحسن إليهم ووصلهم بالأموال الجزيلة فأسر قلوبهم بذلك »[2] ثم أتبع ذلك بأن دس لزعماء العرب من يأمرهم بمطالبة الخليفة بتولية ابنه محمداً ولياً للعهد ، ومحاولة الخليفة الامتناع إكراماً لأبى حفص عمر ولكنه رضخ فى النهاية وخاصة بعد أن خلع أبو حفص نفسه من ولاية العهد[3] حتى إذا تم تولية ابنه محمداً وذلك بفضل مطالبة العرب ومساندتهم ، أرسل الخليفة رسائله إلى أنحاء دولته يعلن فيها الخطوات التى تمت ومبايعة ابنه بولاية العهد وقد جاء فيها « وكانت هذه العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها من حاضرة وبادية من أهل اقليمها وذوى ألبابها وحلومها يشيرون إلى ذلك على اقتراحهم ، ويعلمون بأنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ولم تزل مخاطباتهم فى ذلك تتردد حيناً بعد حين ورغباتهم تتأكد بما كان عندهم فيه من ثلج ويقين ، فلما اتفق بحمد الله وصولهم فى هذه الوفادة . . . صرحوا لأول لقائهم بما أضمروه وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه وأعلموا أن محمداً وفقه الله هو الذى ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه ورغبوا فى تقديمه على بلادهم وانفاذه معهم على قصده فى توليتهم ومرادهم »[4] وقد ترتب على ذلك الإجراء

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٤١ .

(٢) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٥٠ الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٢٤ .

(٤) مجموع رسائل موحدية ص ٥٧ ، ٥٨ .

أن صارت خلافة الموحدين محصورة فى أبناء عبد المؤمن يتوارثونها فيما بينهم وكان ذلك بمساندة العرب وتعضيدهم .

حتى إذا كثرت القبائل العربية بالمغرب الأقصى وأصاب الضعف والتخاذل ولاة الأمر من الموحدين ، تدخل العرب فى شئون الدولة وذلك منذ وفاة المستنصر سنة ٦٢٠ هـ / ١٢٢٢م وقاموا بعزل وتولية بعض ملوك الموحدين وكان بنو جابر والخلط أكثرهم كيداً للملوك[١] .

أما النواحى العسكرية فقد سبق أن أشرت إلى اشتراكهم فى جند المرابطين برغبة الجهاد فى الأندلس ، فلما قامت دولة الموحدين صاروا يشكلون عنصراً هاماً من عناصر الجيش الموحدى ، وذلك نتيجة حرص الخليفة عبد المؤمن ومن جاء بعده على ضمهم إلى الجيش[٢] يقول البيدق « وجاز الخليفة إلى سلا وقال ليوسف بن سليمان ركّب لى العرب ،ركّب لى منهم أربعة عشر ألفاً وأعطيك البشارة ، فركبها حتى تخاطفت العرب على الخليل ودخل عليه يوسف بن سليمان بالبشارة »[٣] وأصبح لكل قبيلة قائدها الخاص وذلك لأن الموحدين تركوا القبائل تحارب كل منها كمجموعة ضمن المجموعة الكبرى للجيش فكانت قيادة القبائل العربية يتولاها رؤساء البيوتات الكبرى فهم كبنى جرمون فى قبيلة سفيان وهلال بن حميدان فى قبيلة الخلط[٤] .

فاذا ما تناولنا النواحى الاقتصادية لوجدنا الآثار المدمرة التى أحدثتها القبائل العربية فى افريقية نتيجة لتخريب المدن وحرق المزارع فى هجمات متلاحقة اتلفت التقدم العمرانى الذى كانت تنعم به افريقية[٥] يقول ابن خلدون « واضطرب أمر افريقية وخرب عمرانها وفسدت سابلتها »[٦] ،حتى

---

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٦ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٢٤ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص٢٠ ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٧٢ ، ص ١٧٣ .

(٣) البيذق : أخبار المهدى ص ١٢١ .

(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٣ .

(٥) الميلى :تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ١٢٠ ، ريمون فيرون : الصحراء الكبرى ص ٧٣ ترجمة د. جمال الدين الديناصورى سنة ٦٣ ، لويس ارشيبالد : القوى البحرية ص ٣٦٤ ترجمة أحمد عيسى .

(٦) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٦ .

إذا انتقلوا إلى المغرب الأقصى مارسوا مهنة الرعى التى نشأوا عليها والتى تتفق مع طبيعتهم البدوية حيث أنهم بداة ظواعن يسكنون بيوتاً يستخفونها يوم ظعنهم ويكسبون الخيل لركوبهم والأنعام لحمل أثقالهم والتغذى بألبانها واتخاذ الملابس والأثاث من أوبارها وأصوافها وأشعارها ينتجعون بها الصحراء شتاء والتل صيفاً[١] فلما نقلهم المنصور الموحدى إلى السهول الأطلسية واستقروا بها ، انصرفوا مع الزمن إلى الفلاحة حتى أن أخصب أراضى البادية على المحيط الأطلسى حتى الآن بأيدى أعقابهم[٢] .

وقد نتج عن إقامتهم بالمنطقة واختلاطهم بسكان البلاد أن تعرّب قسم من سكان البلاد نتيجة للتزاوج وصلات القرابة التى تمت على مر الأيام وامتزاج السلالتين بالدماء العربية[٣] فإذا ما أخذنا بالرواية التى تقدّر عدد العرب الداخلين إلى الشمال الافريقى بما يقرب من ربع مليون عربى[٤] وأن هذا العدد أقام بالبلاد لتبين لنا مدى الأثر الجنسى على السكان الاصليين للبلاد ، وحتى أن سواحل المحيط الأطلسى التى كانت تزدحم بالمصامدة شمالا وصنهاجة جنوباً تعرّبت بعض قبائلها كلية كدكالة[٥] وقد ساعد على هذا الاختلاط والامتزاج التشابه بين حياة العرب الهلالية وبعض قبائل البربر وخاصة التى تمتهن الرعى منها بالإضافة إلى اتفاقهم فى الصفات الخلقية كالشجاعة وعزة النفس وإباء الضيم وحفظ العهد وحسن الجوار وغير ذلك من الصفات[٦] .

يضاف إلى التعريب الجنسى أيضاً التعريب اللغوى نتيجة للاختلاط

---

(١) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٢٣ .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٨٣ .

(٣) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ٣١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٧ ، د. عبد الحميد يونس : الهلالية فى التاريخ ص ٧٤ ، ٧٥ ، المنونى : العلوم والآداب ص ١٦ ، ١٧ .

J. Spencer ; A History of Islam in West Africa P ; 19.

(٤) J.D. Fage ; An Introduction to the History of West Africa, P ; 13.

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠٧ .

(٦) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ١٢٥ .

والمعايشة اليومية ومن ثم تعلّم البربر سكان البلاد الاصليين لغة الوافدين وهى اللغة العربية وانتشرت فى أجزاء كثيرة من البلاد . وبذلك ساعد العرب على نشر الثقافة العربية بالمنطقة بعد أن تعلم كثير من أهل البلاد العربية على يد هؤلاء الأعراب[1] .

وعلى الرغم من محاولات خلفاء الموحدين التقرب والتودد إلى العرب تارة بالعطاء والأموال وتارة بالتهديد والحرب والعقاب إلا أن هؤلاء قد أحدثوا بعض القلاقل وهم فى ذلك يصدرون عن طبيعة تعشق الحرية المؤدية إلى الفوضى وترفض الانقياد والطاعة مع ميل إلى الشغب وسرعة الإثارة ، ولذا حين استسلموا للخليفة عبد المؤمن ووافقوا على النهوض معه للجهاد بالأندلس نكثوا عهودهم ، يقول الزركشى « وأحضر — أى عبد المؤمن ابن على — أمراء العرب وأحلفهم فى مصحف عثمان بن عفان على السمع والطاعة والسير معه إلى الأندلس لقتال العدو فلما ساروا نكثوا أيمانهم » .[2]

كذلك كانوا يميلون إلى الشغب وإثارة الفتن أما فيما بينهم كما حدث فى سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م حين خرجوا فى جيش الخليفة يوسف بن عبد المؤمن للجهاد بالأندلس فانهم اقتتلوا فى الطريق يقول ابن صاحب الصلاة « فنزل — أى يوسف بن عبد المؤمن — فى داره المكرمة أيضاً على قرب من القنطرة المذكورة وأمر لكل من الموحدين بيوم من الأيام ، يجوزون فيه حذراً من الزحام ، فتغرق القنطرة المذكورة فأجازوا عليها وتزاحم العرب فى الإجازة حتى تقاتلوا وقتل واحد منهم الآخر ، فعزموا على الفتنة بينهم فارتفع الخبر إلى أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين فوداه من ماله وسكنت فتنتهم»[3] أو يقتتلون مع غيرهم من الموحدين وذلك ما حدث فى نفس العام سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م حين وفدوا على الخليفة يوسف بن عبد المؤمن للاشتراك فى الجهاد يصوّر ذلك ابن صاحب الصلاة « ولما كان فى أحد الأيام — وهى تلك الأيام

---

(١) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ١ ص ٦٥، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٩ ، رابح بونار : المغرب العربى : تاريخه وثقافته ص ٢٨٣ الجزائر سنة ٦٨ .

(٢) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٩ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٣ .

التى خصصها الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لاطعام العرب الوافدين من افريقية لمساعدته سنة ٥٦٦هـ ـ حدث بين صبيان الموحدين الذين يسكون دوابهم خارج البحيرة وبين أتباع العرب كلام ونزاع ودفاع بهوشة وقعت بين الفريقين أدت إلى اختطاف الثياب واستلاب الجلباب وتحزب الجهال من الأعراب بالاحزاب . . واتصل الخبر لسيدنا أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين أيدهم الله فأقلقه التعدى فى باب سدته ولصق حضرته فأمر برفع الطعام ثلاثة أيام عتباً على العرب بسبب جرأتهم على سوء الأدب »[١]وقد انتهى هذا النزاع باعتذار العرب للخليفة يوسف وقبوله ذلك الاعتذار .

ثم تطوّر الأمر بالعرب إلى أن صار بعضهم يقطع الطريق على المارة يسلبونهم أموالهم وثيابهم وقد ورد فى ترجمة أبو يلبخت المتصوف والمتوفى بجبل هسكوره سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥ م على لسانه « قال لى أبو محمد عبد الحق : أتيت مرة من الفحص إلى أهلى فلقيت العرب فى طريقى وهم يعيثون فى الناس يميناً وشمالا ، وأنا راكب على دابتى فحفظنى الله منهم ولم يتعرضوا لى حتى وصلت أهلى ولم أحدث بذلك أحداً ، ثم إنى زرت أبا يلبخت ، فجلست معه نتحدث إلى أن وصلته جماعة من المريدين من أهل تامسنا فقالوا : أردنا أن نستسقى فخرجنا إلى المسجد الفلانى فجردنا العرب فقال لهم أبو يلبخت : أعرف رجلا من أبناء هسكورة اجتاز بالعرب فلم يتعرضوا له . . »[٢] ومن هذا النص يتضح محاولات الأعراب سلب المارة ونهبهم ،وقد زاد هذا التصرف حين دخلت الدولة فى مرحلة الضعف ، وأصبح ولاة الأمر لا يستطيعون كبح جماحهم حيث كانوا يغيرون على المزارع والقرى الآمنة[٣] وقد أدرك ولاة الأمر طبيعة القبائل العربية وحبها للمغامرة والسلب وما يحدثه وجودها بالبلاد من قلاقل وفتن ، ومن ثم صرّح المنصور الموحدى — وقد دخل فى عهده أعداد كبيرة منهم — بالندم على إدخال العرب إلى بلاده يقول ابن أبى زرع والسلاوى « دخل المنصور إلى قصره — وذلك بعد اتمام بيعة الناصر — فلزمه وبدأبه المرض الذى توفى منه ولما اشتد به المرض قال ما ندمت على شىء

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٣ ، ص ٤٣٤ .
(٢) التادلى : التشوف ص ٣٨٩ .
(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٥ .

فعلته فى خلافتى إلا على ثلاث وددت أنى لم أفعلها : أولها ادخال العرب من افريقية إلى المغرب لأنى أعلم أنهم أهل فساد . . » (١) .

جـ ـ أجناس أخرى

وجدت أقليات صغيرة من السودانيين والروم والصقالية والغز بالمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين بجانب سكان البلاد الأصليين من البربر ، وما انضاف إليهم من جموع العرب ، وكان موقع المغرب الأقصى وتوسطه بين السودان فى الجنوب والأندلس وأوربا فى الشمال أثر فى تسهيل عملية انتقال هذه الاقليات إلى المغرب الأقصى ، إما بقصد الاتجار والاستقرار ، وخاصة بعد أن نعمت البلاد بالاستقرار فى عهد المرابطين والموحدين ، وأما بالشراء حيث كان ولاة الأمر يشترونهم للاستعانة بهم .

السودانيون :

استخدمهم المرابطون فى جيوشهم وتنظيماتهم العسكرية وصاروا يكونون فرقة من فرق الجيش(٢) وقد بدأ هذا الإجراء أمير المسلمين يوسف بن تاشفين حين عزم على توطيد سلطانه ودعم نفوذه فاشترى مجموعة من السودانيين بلغوا ألفين ليكونوا حرسه الخاص(٣) ويبدو أن أعدادهم تزايدت وتكاثرت بالمدن المغربية ، حتى أن أمير المسلمين على بن يوسف حين عزم على تجهيز حملة كبيرة لمواجهة ابن رذمير بالأندلس فرض على المدن المغربية المختلفة أن يجهزوا عدداً من أبناء السودان بسلاحهم للاشتراك فى الحرب يقول ابن القطان « وفى هذه السنة ـ سنة ٥٢٣ هـ ـ وصل إلى على بن يوسف خبر من مدينة بلنسية أن ابن رذمير عازم على الخروج إلى بلاد المسلمين فخشى أن تكون حركته التى كانت فى سنة عشرين ، فقسط على الرعية

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس ص ١٦٧ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٠٥ .

(٢) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢١٢ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر العام جـ ١ ص ٤٠٧ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٢ ، د. حسن محمود قيام دولة المرابطين ص ٣٧٨ .

J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 73.

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٣ .

سوداناً يغزون فى العساكر ، وكان قسط أهل فاس منها ثلاثمائة غلام من سودانهم بزرقهم وسلاحهم ونفقاتهم ، يخرجون ذلك من أموالهم ففعلوا»(١) ومن هذا نستنتج أن عدداً لا بأس به من السودانيين قد تحملته مدينة فاس فضلا عن المدن المغربية الأخرى ، وذلك للمشاركة فى أعمال الجهاد وهذا يؤكد كثرة عددهم وانتشارهم بمدن المغرب الأقصى . كذلك استخدم الموحدون السودانيين فى جيوشهم(٢) .

وبجانب اشتراك السودانيين فى الجيش ، فقد كانت نساؤهم ماهرات فى طبخ الطعام ، ولذا كان سكان المغرب الأقصى يقومون بشرائهن للاستفادة من مهارتهن يقول صاحب كتاب الاستبصار فى وصف مدينة أودغشت « ويجلب منها سودانيات طباخات محسنات تباع الواحدة بمائة دينار كبار وأزيد ، يحسن عمل الأطعمة ولا سيما أصناف الحلاوات مثل الجوزنيقات والوزينجات والقاهريات والكنافات والقطائف والمشهيات وأصناف الحلاوات فلا يوجد أحذق بصنعتها منهن»(٣) يضاف إلى ذلك استخدامهن كجوار وذلك لجمالهن وإعتدال أجسامهن (٤) .

الروم والصقالبة :

عاشت طائفة منهم بأرض المغرب الأقصى ، نتيجة للمعارك التى خاضها المرابطون والموحدون بالأندلس والتى أسفرت عن كثير من الأسرى، استخدمهم ولاة الأمر فى خدمتهم بالمغرب الأقصى وخاصة بالجيش حتى يستفيدوا من خبرتهم العسكرية فى مقاتلة فرنج الأندلس (٥).

وقد بدأت صلة الروم والصقالبة بالمغرب الأقصى كجماعة فى أوائل عهد المرابطين حين عمد يوسف بن تاشفين إلى شراء جماعة منهم بلغت مائتين

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠٩ .

(٢) J.F.P. Hodkins ; Medieval Muslim P ; 73.

(٣) مجهول الاستبصار ص ٢١٦.

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢١٥ .

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٣ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر جـ ١ ص ٤٠٧ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٧٩ ، ٣٨٠ . J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim. P ; 73.

وخمسين فارساً ليكونوا حرساً خاصاً له[1] ثم زادت أعدادهم بعد ذلك نتيجة للمعارك ، ويبدو أن يوسف بن تاشفين اتخذ منهم الجوارى والإماء حتى أن إحداهن صارت أم ولده وولى عهده على بن يوسف بن تاشفين يقول ابن أبى زرع فى التعريف بأمير المسلمين على بن يوسف ابن تاشفين « كنيته : أبو الحسن ، أمه أم ولد رومية ، اسمها قمر وتكنى أم الحسن »[2] .

حتى إذا تولى على بن يوسف بن تاشفين توسع فى استخدام الروم مما دفع ابن عذارى إلى القول بأن على بن يوسف هو أول من استعملهم يقول ابن عذارى « وهو — أى على بن يوسف بن تاشفين — أول من استعمل الروم وأركبهم فى المغرب وجعلهم يحقدون على المسلمين فى معامرتهم ، ويأخذون منهم فى نفقاتهم وأكثر ما يجب عليهم »[3] وقد سبق أن أشرت إلى استخدام يوسف بن تاشفين للروم كحرس خاص له ، وربما كان ابن عذارى يقصد التوسع فى استخدامهم وليس هو البادىء فى ذلك .

ولم يصبح استخدامهم قاصراً على الحراسة والعمل بالجيش وإنما تعدّى ذلك إلى الوظائف المدنية حين استخدمهم أمير المسلمين على بن يوسف فى جباية الأموال يقول ابن الأثير « وكان لأمير المسلمين — أى على بن يوسف ابن تاشفين — عدة كثيرة من المماليك الفرنج والروم ، يغلب على ألوانهم الشقرة وكانوا يصعدون الجبل فى كل عام مرة ويأخذون مالهم فيه من الأموال المقررة من جهة السلطان »[4] .

وقد دخل الصقالبة فى خدمة خلفاء الموحدين وقد أشار ابن القاضى فى ترجمته لأبى محمد يشكر بن موسى الجراوى خطيب مسجد فاس والمتوفى سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م « أن أحد عمال الموحدين كتب لمراكش أن أبا محمد يشكر لا يدعو للخليفة فوصله ذاك . . فبعث من حينه بأن يشخص إليه وكان من الواقفين بين يديه أحد الصقالبة وبيده آلة من الحديد فأخذها من يده

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٣ .
(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٧٨ ت الفيلالى .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠٢ ، ١٠٣ ت د. احسان عباس .
(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٦

وقال لمن حضر بهذا أقتله . . »(١) كما أن المنصور الموحدى قام فى سنة ٥٨٦هـ / ١١٩٠ م بتغريب أهل قصر أبى دانس من غرب الأندلس إلى مراكش وهم ينتمون إلى الروم والصقالبة وغير ذلك من سكان البلاد ، يقول الحميرى « ثم تحرك — أى المنصور الموحدى حين بلغه سقوط شلب سنة ٥٨٥ هـ فى يد الروم فجهز الجيوش وعبر إلى الأندلس سنة ٥٨٦هـ — من أشبيلية إلى قصر أبى دانس من غرب الأندلس فنزلوا على حكمه فاحتملهم إلى مراكش »(٢).

الغز :

وهم جنس من الترك بلادهم فى أقصى المشرق على تخوم الصين(٣) وقد استعان بهم المرابطون فى جيوشهم(٤) حتى إذا قامت دولة الموحدين أقبلت طائفة منهم إلى المغرب الأقصى(٥) يقول المراكشى « وفى أيام أبى يعقوب ورد علينا المغرب أول من وردها من الغزو ذلك فى آخر سنة ٧٤ — أى سنة ٥٧٤هـ وما زالوا يكثرون عندنا إلى آخر أيام أبى يوسف »(٦) .

حتى إذا تولى المنصور الموحدى زادت طائفتهم وخاصة بعد المعارك التى دارت بين الموحدين وبين الثوار بافريقية وانضمام الغز للثوار ووقوعهم فى الأسر نتيجة هزيمتهم ونقلهم إلى العاصمة مراكش(٧) وقد كان هناك ما يميزهم عن سكان البلاد إذ كانوا يضفرون شعورهم كالنساء(٨) .

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٣ .
(٢) الحميرى : صفة جزيرة الاندلس ص ١٠٧ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٢٨ حاشية .
(٤) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٤٠ ت الفيلالى ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٣ ،
J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 73.
(٥) المراكشى : المعجب ص ٢٥٦ ،حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٩ ،
Budgett Meakins ; The Moorish Empire, P ; 76.
(٦) المراكشى : المعجب ص ٢٥٦ .
(٧) ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ١٧١ ، ١٧٢ ، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٦ .
(٨) التادلى : التشوف ص ٣٤٨ ، ٣٤٩ .
(٩) المراكشى : المعجب ص ٢٨٩ .

وقد انضم هؤلاء الغز إلى جيش الموحدين وصارت لهم الأ
والمرتبات الشهرية ، وقد تميزوا عن غيرهم من جنود الموحدين
المراكشى « فأحسن نزلهم — أى أحسن المنصور الموحدى نزل المماليك ال
وبالغ فى تكرمتهم وجعل لهم مزية ظاهرة على الموحدين وذلك أن المو-
يأخذون الجامكية ثلاث مرات فى كل سنة ، فى كل أربعة أشهر م
وجامكية الغز مستمرة فى كل شهر لا تختل »[١] وقد علل المنصور المو
ذلك « بأن هؤلاء غرباء لا شيء لهم فى البلاد يرجعون إليه سوى هذه الج
والموحدون لهم الأقطاع المتأصلة[٢] » ولم يكتف المنصور بإعطائهم المر
بل وأقطع بعضهم بعض الإقطاعات « أقطع رجلا منهم فيما أعرف من
أربل يعرف بأحمد الحاجب ، مواضع ليس لأحد من قرابته مثلها ، و
شعبان المذكور بالأندلس قرى كثيرة تغل فى كل سنة نحو من تسعة آ
دينار[٣] » .

وهكذا تمتع الغز فى عهد المنصور الموحدى بعدة مزايا مالية
انضمامهم للجيش الموحدى ، ولم ينس المنصور الموحدى أن يوصى
وفاته بالاستمرار فى معاملة الغز معاملة طيبة ، يقول ابن عذارى « ثم ق
أى المنصور الموحدى فى مرض وفاته — رضى الله عنه وهؤلاء الأ
أمرنا لهم بهذه البركة يأخذونها فاتركوها على ما رتبنا وربطنا »[٤] .

عدد السكان :

لم تهتم المراجع بذكر عدد السكان بالمغرب الأقصى وإن كانت تش
أن عدد السكان كان كبيراً[٥] وقد أشارت بعض المراجع إلى أن عدد ال
بالعاصمة مراكش فى عهد على بن يوسف كان قريباً من المليون[٦] ،

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٨٩ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨٩ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٨٩ ، ٢٩٠ .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٨٧ تطوان .
(٥) الجزنائى : زهرة الاس ص ٢٩ ، عبد العزيز بنعبد الله : الحضارة المغربية جـ ١ص ١٠٤ ، عبد العزيز بنعبد الله : وحدة الم العربى ص ٥٩ مجلة تطوان عدد ١ سنة ٥٦ .
A. Jackson ; Algiers, P ; 81.
(٦) د. شعيرة : المرابطون ص ٦٨

طابع المبالغة على هذا الرقم ، وهناك رواية أخرى تقول أن عددهم فى نفس العهد بالعاصمة بلغ مائة ألف نسمة [1].

ولا شك أن الاستقرار والازدهار الاقتصادى ساعدا على نمو العدد السكانى بالبلاد وحتى أن العاصمة مراكش فى عهد الخليفة عبد المؤمن احتوت مائة قبيلة[2] وقد استطاع الخليفة عبد المؤمن أن يجمع فى سهول سلا ثلاثمائة ألف من المقاتلين بهدف الجهاد[3] .

إلا أن هذه الضخامة فى عدد السكان واجهت تناقصاً ملحوظاً نتيجة للمعارك والمذابح التى شهدتها البلاد وخاصة فى فترة الانتقال بين دولة المرابطين ودولة الموحدين حيث أسرف الموحدون فى سفك الدماء رغبة فى دعم سلطتهم وهيبتهم فى النفوس . وقد أظهر الخليفة عبد المؤمن بن على قسوة بالغة فى اقتحامه لمدن المغرب الأقصى ، فحين حاصر مدينة فاس ودخلها عنوة أعمل السيف فى رقاب أهلها وقتل منهم عدداً كبيراً[4] ، ونفس المصير واجهته مدينة مراكش عند حصار الموحدين لها ، إذ قاسى أهلها ضراوة الحصار ومات منهم عدد كبير جوعاً[5] . حتى إذا استسلمت المدينة أعمل عبد المؤمن سيفه فيمن بقى من أهلها[6] وبذلك مات كثير من سكان العاصمة نتيجة للمعارك الدموية التى حدثت عند استيلاء عبد المؤمن عليها .

وكما اتخذ ابن تومرت عملية التمييز فى القضاء على كل معارض ومتشكك فى دعوته فإن الخليفة عبد المؤمن عمد إلى طريقة مشابهة ، واستغل غدر أهل مكناسة ببعض الموحدين وكتب صحفاً بأسماء القبائل المختلفة ومن فيها من المنافقين وأمر كل قبيلة أن تتخلص من المنافقين بنفسها يقول البيذق بعد أن ذكر حادثة غدر

---

(١) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ١ ص ١٠٤ .

(٢) S.P. Scott: History of Moorish Empire, A.2 P ; 279

(٣) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ١ ص ١٠٤ .

(٤) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٩ .

(٥) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٣ .

(٦) ابن دحصة : المطرب ص ٣١ ، النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٠ ، عباس المراكشى : الاعلام ، جـ ١ ص ٢٣٠ ، ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الاول ص ١٩٢ تت عنان ،

S.P. Scott ; History of Moorish Empire, V.2. P ; 279.

أهل مكناسة » فخرج الخليفة للموحدين وعمل لهم المجلس ووعظهم وقال لهم الشارب إذا منع اللبن والماء ما جزاؤه فقالوا له يقصص قال أحسنتم فيما قلتم ثم دخل الخليفة وكتب الجرائد لهم بالوعظ والاعتراف وقسمها لأشياخ الموحدين وأمرهم بالسيف ، فبدأ بهم من باب مراكش وأعطى جريدة لأيوب آكدم ، ويحيى بن كروط وضما هزميرة إلى رباطهم وقتلا منهم خمسمائة من أهل التخليط . . »[1] وقد قمت بحصر عدد من قتل من القبائل تنفيذاً لهذه الخطة فوجدت عددهم يقرب من ٢٣,٠٠٠ ثلاث وعشرين ألف نسمة[2] وهذا رقم مبالغ فيه وذلك بالرغم من أن راوى الخبر هو البيذق التلميذ المخلص لابن تومرت وأحد أنصار الدعوة الموحدية المقربين من الخليفة عبد المؤمن ، إذ من الصعب أن تتخلص القبائل من مثل هذه الأعداد الغفيرة وخاصة أن الدولة فى مرحلة التمكين والدعم .

وهكذا أحدثت المعارك بالمغرب الأقصى ، ومعاقبة الخليفة عبد المؤمن لبعض القبائل فضلا عن الجنود الذين اشتركوا فى معارك الأندلس وافريقية وقتلوا ، أثرها فى نقص عدد السكان .

---

(١) البيذق : أخبار المهدى ص ١١٠ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ١١٠ .

الفصل الثانى

طبقات المجتمع وطوائفه

شهد مجتمع المغرب الأقصى منذ منتصف القرن الخامس وحتى نهاية القرن السادس من الهجرة تنوّعاً فى طبقاته وطوائفه نتيجة للظروف السياسية والاتجاهات الدينية والثقافية التى مرت بها المنطقة ، يضاف إلى ذلك تنوّع نشاط السكان مما أسفر عنه تعدداً فى أصحاب المهن والحرف التى قامت بهذا النشاط ، وكانت طبقات المجتمع تتكون من طبقة حاكمة لها السيادة والسيطرة على البلاد ، وطبقة الفقهاء والعلماء والقضاة والتى احتلت مكانة ظاهرة فى المجتمع المغربى ، ثم طائفة التجار والصناع وأصحاب المهن ، وبجانب ذلك كانت هناك المرأة المغربية ونشاطها الملحوظ فى المجتمع وأخيراً أهل الذمة .

١ — الطبقة الحاكمة

تناولت فى الفصول السابقة كيف أن السلطة فى دولة المرابطين انحصرت فى يوسف بن تاشفين وبنيه من بعده وأن السلطة فى دولة الموحدين انحصرت فى عبد المؤمن وأبنائه من بعده ، ومن هنا أصبحت الأسرتان تتمتعان بمكان السيادة والرئاسة فى المجتمع المغربى ، وكان بعض الوزراء وهم أعضاء فى السلطة الحاكمة ينتمون إلى ولاة الأمر ، وذلك ما فعله يوسف بن تاشفين حين اتخذ سير بن أبى بكر وزيراً له[١] يضاف إليهم وزراء من قبيلة لمتونة ، وأصبحت قبيلة لمتونة تتمتع بمكانه مرموقة حيث أن الطبقة الحاكمة فى البلاد تنتمى إليها ، وصارت لها الزعامة على غيرها من القبائل[٢] وقد شارك قبيلة لمتونة هذه المكانة بقية قبائل صنهاجة والتى على أكتافها قامت دولة المرابطين وأهمها جدالة ومسوفة ولمطة ، وقد أشار إلى الامتياز الطبقى الذى تمتعت به القبائل الحاكمة ابن الخطيب بقوله « وبعث — أى يوسف بن تاشفين سنة ٤٧٠هـ — إلى الصحراء للمتونة ومسوفة وجدالة وغيرهم يعلمهم بما فتح الله عليه من ملك المغرب وطاعة أهله ويؤكد عليهم فى القدوم فوفد إليه منهم

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢ .
(٢) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠١ .

جموع كثيرة ولا هم الأعمال . وصرف أعيانهم فى مهمات الأشغال فاكتسبوا الأموال وملكوا رقاب الرجال وكثروا بكل مكان وساعدهم الوقت والزمان وكثرت جموعهم وتوفرت عساكرهم [١] » .

ولم يكن هذا الوضع الطبقى المتميز قاصراً على العاصمة وإنما تعداه إلى بقية مدن المغرب الأقصى وذلك حين عمد ولاة الأمر بالعاصمة إلى تعيين أبنائهم بأقاليم الدولة المختلفة ، وبذلك تمتع أبناء الاسرة بوضع السيادة فى المدن المغربية ، وقد تأكد ذلك حين عمد يوسف بن تاشفين إلى توزيع أقاليم المغرب على بنيه وأمراء قومه ، يقول ابن خلدون « ثم اقتسم — أى يوسف ابن تاشفين — المغرب عمالات على بنيه وأمراء قومه وذويه » [٢] .

واتبع الموحدون نفس السياسة حيث أستأثر بنو عبد المؤمن بالخلافة وشغل بعض أفراد الأسرة منصب الوزارة . فقد اتخذ عبد المؤمن ابنه عمر وزيراً له [٣] وسار على نهجه أبناؤه الخلفاء فى اتخاذ وزراء من أسرة الخلافة وقد سبق أن أشرت إلى ذلك .

كما أن قبيلة كومية — وهى القبيلة التى ينتسب إليها الخليفة عبد المؤمن بعد انتقالها من المغرب الأوسط إلى المغرب الأقصى صارت بطانة للخليفة يعتز بأبنائها ويقومون على حراسته والمشى بين يديه [٤] وأصبحت من أعظم قبائل الموحدين واحتلت مكان الصدارة وذلك لانتماء ولاة الأمر لها [٥] وقد أشار المراكشى إلى ماضى القبيلة ثم حاضرها فى ظل خلافة عبد المؤمن بقوله « ثم قبيلة عبد المؤمن تسمى كومية وهى قبيلة كثيرة العدد جمة الشعوب لم يكن لها فى قديم الدهر ولا فى حديثه ذكر فى رياسة ولا حظ من نباهة ، إنما كانوا أصحاب فلاحة ورعاة غنم وأصحاب أسواق يبيعون فيها اللبن والحطب وسوى ذلك من سقط المتاع فتبارك المعز المذل المعطى المانع ، فأصبح القوم وليس

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٢٠ .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨٥ .
(٣) ابن صاحب الصلاه : تاريخ المن ص ٢٢٤ ، المراكشى : المعجب ص ١٩٨ .
(٤) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٦٦ ت الفيلالى .
(٥) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٢٦ .

فوقهم أحد ببلاد المغرب ولا تطاول أيديهم يدبكونن عبد المؤمن منهم »[١] وقد اتخذ عبد المؤمن منهم وزيراً له هو عبد السلام بن محمد الكومى[٢] وكذلك الخليفة يوسف بن عبد المؤمن اتخذ له وزيراً من كومية هو أبوبكر ابن يوسف الكومى[٣] . وهكذا كانت قبيلة الخلافة لها مكانتها فى مجتمع المغرب الأقصى .

طبقة الطلبة : وهى طبقة مستحدثة فى دولة الموحدين ولم تكن موجودة من قبل فى الدولة المرابطية ، وقد اختلف مدلول كلمة الطلبة فى عهد ابن تومرت فنى بدء الدعوة كان يسمى أصحابه : الطلبة وباقى الداخلين فى دعوته بالموحدين[٤] يقول ابن خلدون « ولما كملت بيعته لقبوه بالمهدى وكان لقبه قبلها الإمام وكان يسمى أصحابه الطلبة وأهل دعوته الموحدين »[٥] ومن هذا النص نستخلص أن لفظ الطلبة قد أطلق على أصحابه الذين سارعوا بمبايعته والالتفاف حوله ومؤازرته ، ومن هنا صاروا يتميزون عن غيرهم ، كما أن لفظ الطلبة يوحى بأنهم فى مرحلة التلقى من أستاذهم ابن تومرت حيث قام بتعليمهم وتلقينهم مبادىء الدعوة الجديدة .

حتى إذا انتشرت الدعوة وكثر أفرادها وبايعوه على أنه المهدى عمد ابن تومرت إلى تقسيم أصحابه وأتباعه إلى طبقات متميزة وصار فى مقدمة الطبقات : العشرة ويعنى بهم أهل الجماعة ، ثم أهل خمسين ثم أهل سبعين ثم الطلبة ثم الحفاظ وهم صغار الطلبة[٦] ثم تأتى بعد ذلك بقية الطبقات وقد سبق الإشارة إليها ومن هذا التقسيم نستخلص أن جماعة العشرة وهم أصحاب ابن تومرت وأقرب الناس إليه كانوا بالأمس يطلق عليهم لفظ طلبة أما فى

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٣٢٩ .

(٢) البيذق : اخبار المهدى ص ١٢٠ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٧٣ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٣ تطوان .

(٤) عباس المراكشى : الاعلام جـ ٢ ص ٣٦٧ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٨٦ .

(٥) ابن خلدون : العبر جـ ٢ ص ٢٢٨ .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٨ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٩ .

التقسيم الطبقى الجديد فصاروا أهل الجماعة ، وصار لفظ الطلبة يطلق على الطبقة الرابعة والخامسة أى بعد المجلسين الاستشاريين وهما مجلساً الخمسين والسبعين.

وقد حدد ابن تومرت اختصاصات كل طبقة وصار الطلبة والحفاظ يكونون هيئة الدعاة بالنسبة للدعوة الموحدية حيث اهتم ابن تومرت بتعليمهم وتربيتهم وإعدادهم لحمل مسئولية نشر الدعوة بين القبائل المختلفة ومن هنا كان دور الطلبة هو تلقى العلم والمبادئ التى ينادى بها ابن تومرت[١] وبث هذه التعاليم بين سكان المغرب الأقصى .

حتى إذا تولى الخليفة عبد المؤمن بن على صار الطلبة يشكلون طبقة متميزة تحظى باهتمام خلفاء الموحدين ورعايتهم وصارت كلمة طلبة تطلق على ثلاث فئات لكل فئة وظيفتها ودورها .

الطلبة الحفاظ : وهم الذين جمعهم الخليفة عبد المؤمن بن على من مختلف القبائل وأنشأ لهم مدرسة خاصة بمراكش لتعليمهم وتثقيفهم بالعلوم الدينية وأسس الدعوة الموحدية مع تدريبهم على فنون القتال ، والشئون الإدارية وكان عددهم ثلاثة آلاف طالب[٢] ، حتى إذا أتم هؤلاء الحفاظ دراساتهم وتدريباتهم وزعهم على الوظائف الإدارية بالدولة ، وكان الهدف من ذلك هو القضاء على نفوذ أشياخ الموحدين الذى استفحل فى عهده،وولى عبدالمؤمن بعضهم أقاليم الدولة فقد ولى أحد الحفاظ وهو عبد الحق بن علناس الكومى مدينة سوسة[٣] كما عين على مدينة صفاقس أحد الحفاظ من الموحدين[٤] وهم بهذه الصفة يتصلون بالطبقة الحاكمة حيث أنهم شغلوا بعض الوظائف الإدارية فى الدولة .

---

(١) ابن الخطيب : رقم الحلل ص ٥٧ ، ابن عبود : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٢٨ حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٢٩ .

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٣ ، ابن الخطيب: الحلل الموشية ص ١١٤ ، الجيلالى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٩٥ .
J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim, P; 107.

(٣) أبو عبد الله محمد بن محمد : الحلل السندسية فى الاخبار التونسية ص ١١٧ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٩٧ .

(٤) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٩٦ .

طلبة الموحدين وهم طلبة المصامدة(١) : والمشتغلون بالدعوة دراسة وفهما وحفظا ثم قيامهم بعد ذلك بالدعوة فى مختلف أقاليم الدولة ويمكننا أن نسميهم رجال الدعوة وقد أوضحت وظيفتهم تلك الرسالة التى أرسلها الخليفة عبد المؤمن إلى طلبة بجاية سنة ٥٦٦ هـ/١١٧٠م وجاء فيها « ولتقدموا طلبة أمناء من قبلكم يعلمون الناس قراءة توحيدهم وحفظه وحفظ أم القرآن وما تيسر معها من السور ويأخذونهم بمداومة ذلك ومعاهدته وحفظة . . . وليكن جميع ما تأتونه وتدرونه وتقدمونه فى هذا المقصد وتؤخرونه جارياً على حكم الإمام المعصوم والمهدى المعلوم رضى الله عنه مستنداً إليه ، ففعله هو الذى نقتدى به ونستمسك بسببه ونمضيه على وجهه ونجريه على رسمه »(٢).

وكانت الرسائل الصادرة من السلطة الحاكمة إلى مدن المغرب والأندلس تضع الطلبة فى مقدمة من تخاطبهم ومن ذلك الرسالة الأولى وهى موجهة إلى طلبة سبتة ومن فيها من الموحدين(٣) . والرسالة الثالثة موجهة إلى الطلبة الذين بصنهاجة تاسغرت والمشيخة والأعيان(٤) والرسالة الخامسة موجهة إلى طلبة سبتة ومن معهم(٥) وهكذا معظم الرسائل التى صدرت عن الخلافة كانت أول ما تخاطب فئة الطلبة وهنا يقصد بهم الطلبة الحفاظ الذين يشغلون وظائف إدارية ومعهم طلبة الموحدين الذين يشرفون على شئون الدعوة ونشرها .

طلبة الحضر : وهم المشتغلون بالعلم والذين يحضرون إلى العاصمة باستدعاء من ولاة الأمر وقد أشار إلى ذلك المراكشى بقوله « وقد جرت عادتهم — أى عادة الموحدين — بالكتب إلى البلاد واستجلاب العلماء إلى حضرتهم من أهل كل فن وخاصة أهل علم النظر وسموهم طلبة الحضر فهم يكثرون فى بعض الأوقات ويقلون »(٦) وهؤلاء الطلبة سواء طلبة الموحدين أو طلبة الحضر

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٠١ .
(٢) مجموع رسائل موحديه ص ١٣٧ ، ١٣٨ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ١ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٥ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ١٠ .
(٦) المراكشى : المعجب ص ٣٤٢ .

كانوا يحضرون المجالس العامة أو الخاصة التي يحضرها الخليفة (١).

وصارت طبقة الطلبة تتمتع بامتيازات مالية إذا كانت تصرف لهم المرتبات والأعطيات من خزانة الدولة(٢) ، وحين أحس الخليفة عبد المؤمن بانخفاض المستوى المادى لفئة الطلبة أمر بإقراضهم الأموال حتى يظلوا فى مستوى مادى لائق بهم يقول ابن القطان « ومنها أنه — أى عبد المؤمن بن على لمحس بضعف طلبة أهل مجلسه المكرم من طلبة الحضر منهم أبو محمد المالقى وغيره ، فقال لأشياخ الموحدين أعزهم الله تعالى : هؤلاء طلبة غرباء ضعفاء والإقلال عليهم ظاهر فنرى أن ندفع إليهم ما لا نقارضهم فيه ، ويتجرون به ويردون السلف لنا ، فقالوا نعم فأسلفهم من مال المخزن ألف دينار لكل واحد منهم ، فاكتسبوا منها وكانت أصل غناهم ولم يأخذها منهم أبداً »(٣) وهكذا أصبح الطلبة ينعمون بمستوى مالى طيب نتيجة اهتمام ورعاية ولاة الأمر بهم .

وهذا المستوى المادى والرعاية التى نالها الطلبة ، قد احفظت كثيراً من الموحدين عليهم ، وجعلتهم ينقمون عليهم هذه المنزلة مما جعل المنصور الموحدى يدافع عنهم ، وموجهاً حديثه إلى الموحدين ، يصور ذلك المراكشى بقوله « ونال عنده أى عند المنصور الموحدى — طلبة العلم ما لم ينالوا فى أيام أبيه وجده وانتهى أمره معهم إلى أن قال يوماً بحضرة كافة الموحدين يسمعهم وقد بلغه حسدهم للطلبة على موضعهم منه وتقريبه إياهم وخلوته بهم دونهم — يا معشر الموحدين ، أنتم قبائل فمن نابه منكم أمر فزع إلى قبيلته وهؤلاء يعنى الطلبة لا قبيل لهم إلا أنا فهما نابهم أمر فأنا ملجؤهم وإلى فزعهم وإلى ينتسبون فعظم منذ ذلك اليوم أمرهم وبالغ الموحدون فى برهم وإكرامهم »(٤) . ولم ينس الخليفة المنصور أن يوصى بهم قبيل وفاته حين قال فى مرض وفاته

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٣٤٢ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٨٦ ، البيذق : اخبار المهدى ص ٤٨ عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٤٠٣ .

(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٧ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٧٩ ، ٢٨٠ .

« وهؤلاء الطلبة يعني السادات إن أمكنكم ألا تصرفوا أحداً منهم فهو الأحق لهم ولكم »[1].

ويتصل بهذه الطبقة منصب شيخ الطلبة الذى احتل مكاناً بارزاً فى عهد خلفاء الموحدين وهو المتحدث فى مجالس الخلفاء ، والمتحدث بلسان الطلبة أمام الخلفاء المدافع عن حقوقهم وقد أشار ابن صاحب الصلاة فى ترجمته لأبى الحسن الأشبيلى شيخ طلبة الحضر إلى هذه المهام حين قال « الفقيه الخطيب أبو الحسن بن الأشبيلى شيخ طلبة الحضر ، هو الخطيب المصقع بين يدى الخليفة . . . عند حضور الوفود . . فصار عند الخليفة فى العلوم والمذاكرة أول داخل وآخر خارج . . . فإذا خرج منه تذاكر مع طلبة الحضر بما وعى من الخليفة من علم المهدى وبيّن لهم ما ناله من العلم النبوى . . . ووصل لجميع غرباء الناس بخيراته ، يوصل عنهم كل خير ، ويدفع عنهم كل ضير يشفع فيهم عند الأمر العالى فيشفع ويتكلم فيصغى لكلامه ويستمع »[2].

وصار شيخ الطلبة فى مستوى الوزراء لعلو شأنه ومكانته ففى مرض الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى سنة ٥٦٥هـ / ١١٦٩م لم يكن يدخل على الخليفة سوى الأطباء ووزيره أبو العلاء أدريس والفقيه أبو محمد عبد الله المالقى شيخ طلبة الحضر وقد علّل ذلك ابن صاحب الصلاة بأنه كان فى مرتبة وزير « وكذلك يدخل معهم أى مع الأطباء والوزير — أبو محمد عبد الله المالقى إذ كان عنده فى مسلاخ — يعنى فى رتبة — وزير وأمين بتشيّخه على طلبة الحضر »[3].

ونتيجة لهذه المنزلة لدى ولاة الأمر فإنه نال دنيا عريضة وأصبح ذاأموال كثيرة[4] فلما حضرته الوفاة أسرع الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى حضور جنازته يقول ابن أبى زرع « وفى سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة توفى الفقيه العالم أبو محمد عبد الله بن المالقى شيخ طلبة الحضر فى وقته وكانت فى ذى

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٨٥ ، ١٨٦ تطوان .
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن بالامامة ٢٢٨ ، ٢٢٩ .
(٣) نفس المصدر السابق ص ٤١٠ .
(٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٥ ، ١٢٦ ، بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص ١٣٤ ط ١ سنة ١٣٥١ مصر .

الحجة منها وشهد جنازته أمير المؤمنين يوسف»[1] وأيضاً أبو جعفر أحمد ابن عتيق المعروف بابن الذهبي صار ذا منزلة ومكانة بعد توليه رئاسة الطلبة[2] .

وهكذا كان الطلبة طبقة متميزة فى مجتمع الموحدين وذلك لصلتها بالطبقة الحاكمة ، إما لاشتغال بعض أفرادها بالوظائف المختلفة فى الدولة ، وأما بقيام بعضهم بنشر الدعوة والإشراف على شئونها والاشتغال بالعلم المتصل أيضاً بالدعوة فى عاصمة الخلافة .

٢ — طبقة الفقهاء والعلماء

احتلت طبقة الفقهاء والعلماء منزلة رفيعة فى مجتمع المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين ، وظهر للفقهاء والعلماء نفوذ فى مجريات الأمور وخاصة فى دولة المرابطين ، ويرجع السبب فى ذلك إلى أن الدولتين المرابطين والموحدية قامتا على أساس دينى ودعوة اصلاحية نادت بها كل من الدولتين.

الفقهاء والعلماء فى الدولة المرابطية :

فالدولة المرابطية قامت على دعوة عبد الله بن ياسين الإصلاحية فى صحراء المرابطين ، والقادة الأوائل للدولة تربوا فى رباط عبد الله بن ياسين حيث درسوا أسس الدين الصحيحة ومبادئه القويمة ، ومن هنا كان المبدأ الدينى هو القاعدة الأساسية التى ترتكز عليها الدولة فى سياستها ، وبالتالى فإن القائمين على شئون الدين والمشتغلين بعلومه احتلوا مكانة مرموقة فى المجتمع المغربى ، وبجانب ذلك فإن التكريم والتقدير من جانب أمراء المسلمين فى دولة المرابطين راد من مكانتهم ونفوذهم فأمير المسلمين يوسف بن تاشفين كان محباً للعلماء معظماً لمكانتهم[3] يقول ابن أبى زرع « وكان — أى يوسف

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس ص ٢١٧ طبع حجر .

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ج ٢ ص ٣٢١ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٩ ، ابن الخطيب : اعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٣٤ ت العبادى ١٩ ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ، ص ٨٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٤٦ ت د احسان ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٣ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤٥ .

ابن تاشفين — محباً للفقهاء والعلماء الصلحاء مقرباً لهم صادراً عن رأيهم متكرّماً لهم »[١].

ولم يكن التكريم والترحيب قاصراً على علماء المغرب الأقصى وفقهائهم بل رحب بكل العلماء وخاصة علماء الأندلس الذين سارعوا إلى عاصمة المرابطين ليكونوا فى ظل ورعاية أمير المسلمين يقول المراكشى « فانقطع إلى أمير المسلمين — يوسف بن تاشفين — من الجزيرة من أهل كل علم فحوله ، حتى أشبهت حضرته حضرة بنى العباس فى صدر دولتهم »[٢].

واتّبع نفس السياسة أمير المسلمين على بن يوسف إذ كان محباً للعلماء والفقهاء مكرماً لهم[٣] يقول المراكشى « واشتد إيثاره لأهل الفقه والدين »[٤] وكان يخرج بنفسه لزيارة العلماء وتكريمهم وذلك حين خرج لزيارة ابن يلارزج أحد علماء المالكية وكان عبداً صالحاً ومات بهسكورة سنة ٥٤٠ هـ ١١٤٥م[٥].

وهذا التكريم والتقدير زاد الفقهاء والعلماء نفوذاً وسيطرة ، وأصبحوا يؤثّرون فى مجريات الأمور بالدولة ، وقد ظهر ذلك فى عدة مجالات .

ففى المجال السياسى لعبوا دوراً هاماً فى استيلاء المرابطين على الأندلس ففقهاء الأندلس هم الذين شرحوا أحوالهم لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين وضرورة الاستيلاء على الأندلس يقول الأمير عبد الله « وجعلوا — أى سكان الأندلس — فى شكاويهم فقهاءهم وسائط يقصدون نحوهم منهم الفقيه ابن القليعى قد صار خباؤه بتلك المحلة مغنطيساً لكل صادر ووارد ، يجد بهم السبيل إلى الطلب للقدر الذى قدره الله »[٦] ولم يشرع يوسف بن تاشفين فى تنفيذ خطة القضاء على ملوك الطوائف إلا بعد استفتائه للفقهاء ، والعلماء فى

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣٨ ت الفيلالى .
(٢) المراكشى : المعجب ص ١٦٣ .
(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٢ ، التادلى : التشوف ص ١٣١
(٤) المراكشى : المعجب ص ١٧١ .
(٥) التادلى : التشوف ص ١٣١ .
(٦) الأمير عبد الله : مذكرات الأمير عبد الله ص ١٠٩ تحقيق ليفى بروفنسـال .

ذلك[١] حتى إذا اطمأن إلى موافقتهم شرع فى القضاء عليهم ، وبعد أن أخضع يوسف بن تاشفين الأندلس عسكرياً، أخبره علماء الأندلس وفقهاؤها أن طاعته غير واجبة حتى يأتيه التقليد من الخليفة العباسى ببغداد[٢] . يقول النويرى « كان الفقهاء بالأندلس قالوا لأمير المسلمين يوسف بن تاشفين أنه لا تجب طاعتك على المسلمين حتى يكون لك عهد من الخليفة»[٣] وهكذا لعب فقهاء المغرب والأندلس دوراً بارزاً فى أهم الأعمال التى قام بها المرابطون وهو استيلاؤهم على الأندلس وما ترتب عليه من نتائج بالنسبة للمغرب والأندلس .

وصار للفقهاء تدخّل فى كل شئون الدولة ، يقول المراكشى « واشتد إيثار — أى على بن يوسف — لأهل الفقه والدين وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء »[٤] وكان القضاة لا يصدرون أحكامهم إلا بمشورة أربعة من الفقهاء[٥] ومن ثم صارت لهم مكانة ونفوذ فى المجتمع ، وحين أحس الفقهاء بالنيل من مكانتهم ومنزلتهم فى كتاب الأحياء للإمام الغزالى أشاروا عليه بحرقه فأمر بحرقه فى جميع أنحاء مملكته .

وهكذا أصبح الفقهاء طبقة مرهوبة الجانب مسموعة الكلمة ، وكانت منزلتهم وما وصلوا إليه من سيطرة على مقاليد الأمور عاملا من العوامل التى دعت ابن تومرت لمهاجمتهم ومحاربة الجمود الفكرى الذى كان يخيم عليهم ومن ثم رماهم بكل النقائص وظل يحاربهم حتى سقطت دولتهم على أيدى الموحدين .

الفقهاء والعلماء فى دولة الموحدين :

لم يبلغ الفقهاء والعلماء فى الدولة الموحدية نفس المستوى من النفوذ الذى كانوا يتمتعون به فى الدولة المرابطية . وذلك لأن الدولة الموحدية قامت على

---

(١) ابن الخطيب : إعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٥٠ ، بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ١٨٥ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ١٤٣ .
(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٢ .
(٤) المراكشى : المعجب ص ١٧١ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ١٧١ .

أساس محاربة تسلط الفقهاء وجمودهم العقلى ، كما أن ابن تومرت عمد منذ المرحلة الأولى فى حياة الدعوة إلى توزيع السلطات والمسئوليات على هيئة الطبقات التى ابتكرها ومن ثم لم يدع فرصة للعلماء وغيرهم من فرض نفوذهم وسيطرتهم على شئون الدعوة .

وهذا لم يمنع العلماء والفقهاء من التمتع بمنزلة كريمة فى ظل الموحدين باعتبار أن الدولة قامت على أكتاف داعية دينى وهو المهدى بن تومرت ، وأن البرامج الدينية والمبادئ الموحدية احتلت ركناً هاماً وبارزاً من حياة الموحدين ، ومن ثم فإن القائمين على شئون الدعوة والمشتغلين بمذهب الدولة كانت لهم مكانتهم ومنزلتهم ، وقد سبق أن أشرت إلى ما كان يتمتع به علماء المصامدة وعلماء الحضر وهم الطلبة من منزلة ومكانة فضلا عن المنح المالية التى كان العلماء يحظون بها مما دفع الموحدين للنقمة عليهم . وكان الخلفاء الموحدون يسبغون رعايتهم على العلماء فالخليفة عبد المؤمن كان يقدر العلماء وينزلهم منازلهم اللائقة بهم[١] وكان يؤثرهم على غيرهم يقول المراكشى « وكان عبد المؤمن مؤثراً لأهل العلم محباً لهم ، محسناً إليهم ، يستدعيهم من البلاد إلى الكون عنده والجوار بحضرته »[٢] .

وسار على نفس السياسة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى تكريم العلماء والعناية بهم فقد كان حريصاً على مجالسة الفقهاء ومحادثتهم[٣] وكان مهتما بجلب العلماء إلى عاصمته والاستفادة من علمهم يقول المراكشى « ويبحث — أى يوسف بن عبد المؤمن — عن العلماء وخاصة أهل علم النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من مالك — ربما يقصد ملوك — المغرب »[٤] ومن مظاهر تقديره واحترامه للعلماء أنه حين قصد إلى الأندلس سنة ٥٨٠ هـ / ١١٨٤م وقصد أشبيلية ، وخرج الناس لاستقباله ورؤيته فما أن أبصر الخليفة : العالم ابن الجد حتى ترجل عن فرسه وأقبل عليه وتعانقا[٥] .

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٣ ، عنان : عصر المرابطين القسم الاول ص ٤٠٢ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٠٠ .
(٣) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٨١ ، ١٨٢ ت الفيلالى .
(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٣٩ .
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٦٠ تطوان .

ونفس المنزلة تمتع بها العلماء والفقهاء فى عهد المنصور الموحدى حيث كان يكرّمهم ويشهد جنائزهم[1] يقول ابن أبى زرع « محباً — أى المنصور — فى العلماء وقضاتهم صادراً عن رأيهم . . . يشهد جنائز الفقهاء والعلماء ويزورهم ويتبرك بهم . . . وأكرم الفقهاء وراعى العلماء والفضلاء »[2] وكان يستدعى العلماء إلى حاضرته فقد استقدم أحد علماء تلمسان وهو محمد ابن أحمد بن محمد اللخمى حيث نال منزلة كريمة لديه وعند أبنائه من بعده[3] وهكذا نال العلماء والفقهاء منزلة مرموقة فى مجتمع الموحدين .

المستوى المادى للفقهاء والعلماء :

احتّل الفقهاء والعلماء منزلة مرموقة فى المغرب الأقصى خلال حكم المرابطين والموحدين ، ومما وطّد هذه المكانة ودعمها تلك الأموال التى حصلوا عليها ، والتى كان يغدقها عليهم ولاة الأمر من المرابطين والموحدين ، فأمير المسلمين يوسف بن تاشفين أغدق عليهم الأموال والأرزاق من بيت المال[4] يضاف إلى ذلك تلك الهبات والأعطيات التى كان يمنحها ولاة الأمر كما فعل أمير المسلمين على بن يوسف حين بعث جملة من المال إلى أحد العلماء وهو أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبى الضرير والمتوفى بمراكش سنة ٥٢٠هـ ١١٢٥م وذلك حين وفد إلى العاصمة مراكش [5].

واتّبع هذه السياسة خلفاء الموحدين فى الإنفاق على العلماء والفقهاء . وقد سبق أن أشرت إلى أن الخليفة عبد المؤمن كان يجرى المرتبات والأرزاق على طلبة الحضر شهريا من بيت المال وبجانب ذلك كان يمنح الأموال والهبات للعلماء ، فالعالم أحمد بن عبد الرحمن المعروف بابن أبى الصقر ، كان إذا وفد على الخليفة عبد المؤمن وصله فى المرة الواحدة خمسمائة دينار[6] ونفس هذا

---

(١) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ١٦٥ ، الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٣٠ ، أشباخ : تاريخ الاندلس جـ ٢ ص ٧٧ .
(٢) ابن أبى زرع : الأنيس ص ١٥٦ ، ١٥٧ طبع حجر .
(٣) أبو زكرياء : بغية الرواد جـ ١ ص ٢٧ .
(٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ٨٩ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٣ ، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٣٨ ت الفيلالى .
(٥) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ١٢٢ .
(٦) عباس المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ٢٣٢ .

العالم عرض عليه أحد سراة لمتونة من قبل أن يصحبه إلى مقر عمله بدكالة وذلك لنبوغه وغزارة علمه وأن يعطيه ألف دينار ذهباً مرابطية فامتنع رغبة فى الاستمرار فى مصاحبة أهل العلم ومتابعة دراساته بمراكش[١] . وقد أشار ابن صاحب الصلاة إلى الهبات والعطايا التى نالها هو وغيره من العلماء حين التقى بالخليفة يوسف بن عبد المؤمن سنة ٥٦٦هـ / سنة ١١٧٠م[٢] وأجرى المنصور الموحدى الأرزاق والأموال من بيت المال على العلماء والفقهاء[٣].

وتحولت حال الكثير منهم من الفقر والضنك إلى اليسر والرخاء نتيجة اتصالهم بالخلفاء والأمراء فالعالم أبو القاسم السهيلى والمتوفى بمراكش سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م نال دنيا عريضة بعد اتصاله بالخلفاء[٤] والعالم أحمد بن عتيق ابن الحسن المتوفى سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م نال بخدمة السلطان دنيا عريضة[٥] وكذلك العالم أبو بكر بن خلف الأنصارى الفقيه والمتوفى بمدينة فاس سنة ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م جمع أموالا جليلة نتيجة اتصاله بولاة الأمر بمراكش[٦] وغير هؤلاء نالوا الجاه والثراء بعملهم واتصالهم بولاة الأمر .

هذا المستوى المادى الذى حققه الفقهاء والعلماء وخاصة من اتخذ علمه وسيلة للتكسب وجمع المال ، كان موضع نقد وهجوم من الشعراء ، وذلك ما فعله الشاعر ابن البنى حين هاجم أحد قضاة قرطبة [٧] يقول المراكشى « وفى ذلك — أى مهاجمة الفقهاء نتيجة لمكاسبهم المادية—يقول أبو جعفر أحمد ابن محمد المعروف بابن البنى من أهل مدينة جيان من جزيرة الأندلس .

أهل الرياء لبستمو ناموسكم   كالذئب أدلج فى الظلام العاتم

---

(١) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ٢٣١ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٢٨ ، ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(٣) ابن أبى زرع : الانيس ص ١٥٧ طبع حجر .

(٤) ابن دحية : المطرب ص ٢٠٨ ، ٢١١ ، ٢١٢ .

(٥) ابن الابار : التكملة لكتاب الصلة ص ١١٧ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٦١ ، ٢٦٢ .

(٧) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٩٤ ، د. يحيى هويدى : تاريخ فلسفة الاسلام فى القارة الافريقية جـ ١ ص ٢٠٢ ، ص ٢٠٣ النهضة سنة ١٩٦٥ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٤١١ ، ٤١٢ .

فملكتمو الدنيــا بمــذهب مالك   وقسمتمو الأمــوال يابن القاسم
وركبتمو شهب الـدواب بأشهب   وبأصبغ صبغت لكم فى العــالم

— وابن القاسم من مشاهير علماء المالكية —

وإنما عرّض أبو جعفر هذا فى هذه الأبيات بالقاضى أبى عبد الله محمد ابن حمدين قاضى قرطبة وقد كان المقصود بهذه الأبيات »(١) وهذه الأبيات تعبّر عن مدى ضيق الشاعر برياء العلماء ونفاقهم .

طبقة القضاة : ويتصل بطبقة الفقهاء والعلماء فئة القضاة إذ كانوا يختارون من العلماء ورجال الدين ، وكانوا يشكّلون طبقة متميزة لاختصاصهم بتنفيذ أحكام الدين على سائر الرعية ، وقد سبق أن أشرت فى فصل القضاء تعدد اختصاصات القضاة ، وأشرت إلى مدى السلطة التى كان يتمتع بها القضاة إذ أن يوسف بن تاشفين ومن جاء بعده جعل أحكام البلاد بيد القضاة(٢) ومن هنا اكتسب القضاة نفوذاً وسيادة فى المجتمع المغربى ، وصارت كلمتهم مسموعة لدى ولاة الأمر فحين أشار القاضى ابن رشد على أمير المسلمين على ابن يوسف بتسوير مدينة مراكش أسرع أمير المسلمين بتنفيذ نصيحته(٣) بل إن قاضى المرية وقف سداً منيعاً ضد رغبة يوسف بن تاشفين فى فرض أموال على مدينة المرية كمعونة ومساعدة ، وبعد مراسلة بينهما خضع أمير المسلمين لرأى القاضى ولم يستطع أخذ المعونة التى طلبها (٤).

وهناك موقف آخر لأحد القضاة وهو موقف القاضى عياض ؛ قاضى سبتة حين أعلن العصيان والتمرّد ، وقاد مدينة سبتة ضد الخضوع للموحدين ومعلناً طاعته للمرابطين ، حتى إذا سقطت المدينة فى يد الموحدين ، عفا

(١) المراكشى : المعجب ص ١٧١ ، ١٧٢ .

(٢) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٣٨ ت الفيلالى ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ٨٩ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٣ ت د. احسان عباس ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٤) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٧٢ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٥٩ محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسفية ص ٨٠ ، ٨١ .

الخليفة عبد المؤمن عن القاضى عياض وأسكنه مدينة مراكش[1] وهذا يشير إلى مدى النفوذ الذى كان يتمتع به القضاة فى نفوس سكان البلاد .

ومما دعّم هذه المكانة تلك الأموال الكثيرة التى كانوا يحصلون عليها من ولاة الأمر مما حفظ مكانتهم وهيبتهم فى المجتمع المغربى فبالإضافة إلى المرتبات التى كانوا يحصلون عليها ، كانت هناك المنح والعطايا مما هيأت لهم حياة كريمة فالقاضى أبو بكر بن خلف الأنصارى قاضى فاس والمتوفى بها سنة ٥٩٩هـ نال دنيا عريضة لاتصاله بالخلافة بمراكش[2] كذلك القاضى محمد بن عبدالله ابن طاهر وهو من ولد الحسن بن على بن أبى طالب ولى قضاء الجماعة بمراكش سنة ٥٨٧هـ / ١١٩١م نال أموالاً ضخمة نتيجة اتصاله بالخلافة الموحدية[3] يقول المراكشى « اتصل — أى محمد بن عبد الله بن طاهر — بأمير المؤمنين أبى يوسف شهور سنة ٥٨٧هـ فحظى عنده وكانت له منه منزلة ، سمعت أبا عبد الله الحسينى هذا يقول وأنا عنده فى بيته : جملة ما وصل إلىّ من أمير المؤمنين أبى يوسف منذ عرفته إلى أن مات تسعة عشر ألف دينار خارجاً عن الخلع والمراكب والاقطاع »[4] وهذا يشير إلى المركز المالى الطيب الذى كان يتمتّع به القضاة .

٣ — أصحاب المهن

١ — التجــار :

قامت طائفة التجار بالمغرب الأقصى خلال فترة البحث بدورها الملحوظ فى دفع الحركة الاقتصادية بالبلاد ، كما أن أفرادها كونوا طبقة اجتماعية ، حيث كانوا همزة الوصل بين الإنتاج والإستهلاك ، فعن طريقهم يتم البيع والشراء، ويجد السكان عندهم حاجياتهم ، وقد زخرت المدن المغربية كمراكش وفاس وطنجة وسبتة وتلمسان وأغمات وسجلماسة وغيرها من المدن المغربية بالمشتغلين بالتجارة .

---

(١) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، أحمد بن عبد السلام : الريف بعد الفتح الاسلامى ص ٤٠ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .

(٢) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٠٣ ، ١٠٤ .

(٣) مجهول : الذخيرة السنية ص ٥٠ عباس المراكشى : الاعلام جـ ٣ ص ٧٨ ، ٧٩ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٣١٢ ، ٣١٣ .

وهؤلاء التجار لم يكونوا بمعزل عن الأحداث التى تمر بها البلاد ، فهم من سكان البلاد يتأثرون كما يتأثر غيرهم من طبقات الشعب بما يمرّ بالبلاد من أحداث ومن هنا وجدناهم يشاركون فى الدفاع عن مدينتهم أغمات سنة ٥٢٤ هـ / ١١٢٩م ضد الموحدين يقول ابن القطان تحت عنوان الهزيمة على أغمات : « وخرج يوم الأربعاء جميع أهل اغمات حتى التجار فتناوب الموحدون أعزهم الله على القتال »(١). وهكذا اشترك التجار فى الدفاع عن مدينتهم ويمكننا أن نقسم التجار إلى فئتين رئيسيتين : تجار الجملة وهم أولئك الذين يقومون بشراء ما تنتجه البلاد من مواد وتصدرها إلى الخارج ، وفى نفس الوقت استيراد ما تحتاجه البلاد من بضائع وبيعها إلى تجار التجزئة .

وقد سبق أن أشرت إلى العلاقات التجارية بين المغرب الأقصى وغيرها من البلدان وفى مقدمتها منطقة جنوب الصحراء ، وكان هناك التجار الذين يستوردون الذهب والجلود والعاج وغيرها من بضائع غانة ، ويصدّرون إليها الملح والنحاس المسبوك والأصداف وآلات الحديد المصنوع(٢) وكانت البضائع بكميات وفيرة مما عاد بالأموال الطائلة على هؤلاء التجار ، وقد وصف الإدريسى مدى ثراء أهل أغمات فى ظل المرابطين بقوله « وما منهم رجل — أى من أغمات — يسفر عبيده ورجاله إلا وله فى قوافلهم المائة جمل والسعون والثمانون جملا كلها موقرة ، ولم يكن فى دولة الملثم أحد أكثر منهم اموالا ولا أوسع منهم أحوالا وبأبواب منازلهم علامات تدل على مقادير أموالهم »(٣) وشاركهم تجار سجلماسة هذا الثراء والغنى حتى أن أحدهم كان له صك على آخر مبلغه أربعون ألف دينار(٤) وقد أطلق على هؤلاء التجار الذين يقومون بالتصدير والاستيراد من مناطق الجنوب بتجار الصحراء يقول ابن القاضى فى ترجمته لمحمد بن الحسن اليصلوتى « من أهل سجلماسة نزل مدينة فاس وكان من أولياء الله تعالى ، كان فى ابتداء أمره من تجار الصحراء . . .

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١١٦ ، ١١٧ ت د. مكى .

(٢) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٦ ، العمرى : مسالك الابصار ج ١٤ مسم ٢ ص ٢٢٢ .

(٣) الادريسى : وصف المغرب والاندلس ص ٦٦ .

(٤) القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٦٤ .

وتوفى سنة ٥٩٥هـ »(١) كذلك اشتهر تجار مدينة سبتة بالغنى والثراء يقول ابن سعيد المغربى « وفيها — أى مدينة سبتة — التجار الأغنياء الذين يبتاعون المركب الكبير بما فيه من بضائع الهند وغيرها فى صفقة واحدة »(٢).

وبجانب تجار الصحراء كان هناك التجار الذين يتعاملون مع الأندلس وأوربا والمشرق فى التصدير والاستيراد ، وقد عقد تجار الجملة صلات مع تجار الجملة الغرباء فى مدن المغرب الأقصى ، وأيضاً مع غيرهم فى البلاد الأخرى ، فتجار المشرق من أهل البصرة والكوفة وبغداد والذين أقاموا بالمراكز التجارية بجنوب البلاد كأغمات وسجلماسة (٣) قامت بينهم وبين تجار البلاد الأصليين صلات حين اشترك الفريقان فى تجارة الصحراء وقد سبق أن أشرت إلى الصلات التى كانت بين أحد تجار فاس وتاجر القاهرة(٤) هذه الصلات المتنوعة مع ازدهار حركة التجارة الخارجية أكسبت تجار الجملة مركزاً مالياً مرموقاً فى مجتمع المغرب الأقصى .

وبجانب تجار الجملة كان هناك تجار التجزئة هؤلاء الذين يبيعون بضائعهم فى متاجرهم أو عن طريق التجول ، وبذلك يسدون حاجة السكان من مطالبهم اليومية وقد سبق أن أشرت إلى نظام الأسواق فى مدن المغرب ، وكيف أن عدة متاجر تتجمع فى مكان واحد للاتجار فى سلعة واحدة كسوق الجزارين وسوق الثياب وسوق الأقراق وسوق العطارين وغير ذلك مما يحتاجه السكان ، وهم بذلك يكونون طوائف صغيرة تندرج تحت تجار التجزئة .

وكان هناك باعة الطعام الذين يبيعون الطعام فى متاجرهم للسكان كبائع السمك وكان يعرف بالحوات فنى ترجمة أبى ابراهيم اسحاق بن محمد الهزرجى أحد المتصوفين بمراكش والمتوفى سنة ٥٨١هـ أنه قال لأحد تلاميذه « اذهب إلى أحمد الحوات وقل له أن يبعث لنا الليلة حوتاً طيباً مثل الحوت الذى كان بعث لنا ، يأكله الليلة أبو حسون »(٥) وكان هناك بائع السمن ويقال له

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٧٠ .
(٢) ابن سعيد المغربى : بسط الأرض ص ٧٣ .
(٣) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٦٥ .
(٤) S.D. Goiten : Studies In Islam Hitsory, P; 298
(٥) التادلى : التشوف ص ٢٣٠ .

السمّان(١) . وكان هناك الجزار والدقاق اللذان يبيعان ما يحتاجه الناس من اللحوم والقمح وغير ذلك وقد ورد فى ترجمة أبى محمد يشكر بن موسى الجراوى والمقيم بفاس وبها مات سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م أنه كان لا يأكل مما يبيعه الجزارون والدقاقون خشية الوقوع فيما حرمه الله ومن هنا عاب عليه أحد أصحابه بقوله « لم يفعل هذا والحلال بفاس ممكن ؟ هذا فلان الجزار لا يشترى الغنم إلا من قوم عرف طيب مكسبهم وفلان الدقاق لا يشترى القمح إلا من قوم عرف طيب مكسبهم »(٢) وكان غيرهم من التجار يبيعون الهريسة والاسفنج (٣).

وكان بعضهم يبيع بضاعته متجولا فى الطرقات كأبى محمد عبد الواحد ابن تومرت المسكورى من أهل مراكش والذى استشهد بغزوة الأرك سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م كان يبيع الباقلاء ويحمله على رأسه متجولا(٤) وغير هؤلاء من طبقة التجار الذين يقومون ببيع ما تحتاجه الأسر والأفراد من ضروريات الحياة ومستلزماتها .

وكان هؤلاء التجار يصابون فى بعض الأحيان بكوارث تقضى على تجاراتهم وتتبدل أحوالهم من الرخاء واليسر إلى الفقر والاحتياج ومن ذلك ما حدث سنة ٥٣٣ / ١١٣٨م بمدينة فاس حيث وقع حريق كبير بسوق المدينة دمرت فيه النيران كثيراً من أقسام السوق كسوق الثياب والقراقين وغير ذلك من الأسواق(٥) ونتج عن ذلك افتقار أصحاب المتاجر التى احترقت يقول ابن القطان « فتلفت فيه أموال جليلة وافتقر فيه خلق كثير »(٦) كذلك الحريق الضخم الذى حدث بسوق مراكش سنة ٦٠٧ هـ / ١٢١٠م وأتت فيه النيران على كثير من المتاجر مما أصاب أصحابها بالفقر والاحتياج يقول

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٣٥ .
(٢) التادلى : التشوف ص ٣٣٨ ، ٣٣٩ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٢٨ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ١ ص ١٢٤ .
(٤) التادلى : التشوف ص ٣٦٢ .
(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٤٦ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٤٦ .

ابن عذارى « وذهب فى هذه الكائنة — أى الحريق — للتجار الواردين والقاطنين والقاصين والدانيين من الأموال الجسيمة مالا يحصى وافتقر فيها أمة من ذوى اليسار وأصبحوا يتكففون الناس حيارى على الأقطار »[1].

٢ — الصنـــاع :

سبق أن أشرت إلى الإزدهار الصناعى الذى شهدته البلاد خلال فترة البحث ، وأن هذا الازدهار قام على أكتاف طبقة الصناع الذين انتشروا فى أرجاء البلاد وكونوا طائفة لها أهميتها ووزنها بين طبقات المجتمع الأخرى.

وقد أحس ولاة الأمر بأهميتهم ومدى احتياج البلاد لهم ، ومن هنا وفى خلال المذابح الدموية التى حلت سكان مراكش عند استيلاء الموحدين عليها ، حرص الخليفة عبد المؤمن على الابقاء على حياة الصناع وذلك لاحتياج الدولة لهم يقول ابن الاثير « ولما قتل عبد المؤمن من أهل مراكش فأكثر فيهم القتل اختفى كثير من أهلها ، فلما كان بعد سبعة أيام ، أمر فنودى بأمان من بقى من أهلها ، فخرجوا فأراد أصحابه المصامدة قتلهم فمنعهم وقال هؤلاء صناع وأهل الأسواق من ننتفع به فتركوا »[2] وقد شملت طبقة الصناع عدة طوائف وفى مقدمتها :

(ا) طائفة الفلاحين أو طبقة الفلاحين وهم الذين عاشوا فى الأراضى الزراعية واشتغلوا بزراعة الأرض واستخراج ما فى بطنها من مختلف المزروعات والثمار ، وقد انتشروا فى كثير من مناطق المغرب فالمصامدة كانوا زراعاً وكذلك قبائل تامسنا وغيرها من القبائل التى امتهنت الزراعة وهؤلاء عماد حياتهم زراعة الأرض وبيع محاصيلهم وفى بعض الأحيان كان الزراع يعانون من ظلم جباة المحاصيل وجامعى الضرائب كما حدث بالنسبة لزراع مكناسة ومن هنا لجأ ولاة الأمر معهم إلى نظام المقاطعة تخفيفاً عليهم [3].

(ب) طائفة صانعى الثياب ، وتضم عدة حرف تقوم على تحويل المواد الخام إلى ملابس قطنية وصوفية وغيرها من أنواع الملابس ، ومن هذه

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٣١ تطوان .
(٢) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٣٠١ .
(٣) ابن غازى : الروض الهتون ص ١ ، ٢ .

الطوائف الحلاجون وهم الذين يقومون على حلج القطن وكان منهم أبو عمران موسى بن يدراس الحلاج وكان يعيش بفاس ويمتهن صنعة الحلاجة[١] ومن الصناع من يشتغل بنسج المادة الخام ومن هؤلاء أبي الربيع سليمان بن عبدالرحمن ابن المعز الصنهاجي المعروف بالتلمساني وكان زاهداً ورعاً سكن سلا يحترف النسج ولا يقبل فيه سوى قيمة الغزل[٢] ثم يأتي بعد ذلك صانعوا الثياب وهم الحاكة ومنهم أبو العباس الحباب الذي كان يعمل خياطاً بمدينة مراكش وتوفى سنة ٥٩٢هـ - ١١٩٦م[٣]

(ﺟ) طائفة البنائين : وقد اشتغل فى البناء جماعة كبيرة من الصناع نتيجة للحركة العمرانية التى شهدتها البلاد من كثرة فى بناء المساجد والمدارس والمنازل والمنازل والقصور مما استلزم معه جماعات متنوعة تقوم بعمليات البناء ومن هؤلاء صانعو الآجر ، ومنهم صانعو الفخار المتعدد الأنواع لاستخدامه فى جلب المياه ، وكذلك الزليج لتبليط العرصات ومنهم الكلاسون لصناعة الكلس وغيرهم ممن يسهم فى عملية البناء[٤] ،

(د) صانعوا الأدوات المنزلية : وهم الذين يقومون بسد احتياجات السكان مما يلزمهم من أدوات ، ومن هؤلاء الصناع صانعوا القدور كأبى زكرياء ويحيى بن ميمون الصنهاجي والمتوفى بمراكش سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م كان يصنع القدر ويبيعه للناس[٥] وصانعوا الأطباق كأبى الحسن على بن زكريا الأسود من تاد لا كان يعمل الأطباق ويبيعها[٦] ، وأيضاً صانعو الارحاء كأبى سعيد عثمان من دكالة كان يصنع الأحجار ومات فى سنة ٥٩٠هـ ١١٩٤م[٧] ويدخل مع هؤلاء النجارون الذين كانوا يقومون بصناعة ماتحتاجه السكان من المصنوعات الخشبية وكان بعضهم يصحب الجيوش المحاربة للقيام

---

(١) التادلى : التشوف ص ٣٣٠ .
(٢) أبى زكرياء : بغية الرواد جـ ١ ص ٣٨ .
(٣) التادلى : التشوف ص ٢٨٩ .
(٤) روجيه لوتورنو : فاس فى عصر بنى مرين ص ١٣١ ، ١٣٢ .
(٥) التادلى : التشوف ص ٤٢٩ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٥٩ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ٣١٦ .

بما تحتاجه من أشغال النجارة فعند حصار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن لأسوار شنترين سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م أمر النجارين بعمل السلالم [١].

(هـ) صانعو الخبز : ويدخل ضمن هؤلاء من يطحن الحب ويقوم على إعداده للخبز ثم يقوم الخبازون فى الأفران المختلفة بخبزه ، وكانت النساء يقمن بخبز الدقيق فى بيوتهن ثم يأتى من يحمله إلى الأفران ليقوم الخبازون بخبزه [٢].

(و) صانعو السلاح ، هؤلاء كانت لهم أهمية خاصة فهم الذين يقومون بإعداد السلاح لولاة الأمر والجيش ، وقد سبق أن أشرت إلى كثرة المعارك التى خاضها ولاة الأمر من المرابطين والموحدين واحتياجهم المستمر للسلاح وبكميات وفيرة حتى أن الخليفة عبد المؤمن حين جهز جيشه سنة ٥٥٧هـ / ١١٦١م لغزو الأندلس فإن مصانع السلاح كانت تنتج له يومياً عشرة قناطير من السهام [٣] بخلاف الأسلحة الأخرى من سيوف وقسى ورماح وخوذات وغيرها وهذا يشير إلى كثرة العمال الذين قاموا بهذا العمل الكبير ويشترك مع هؤلاء صانعو السفن سواء أكانت حربية أم تجارية .

(ز) صانعوا الورق والصابون والجلود وغيرهم من الصناع الذين انتشروا فى أنحاء متفرقة من البلاد ، ولا شك أن هؤلاء الصناع كانوا عصب الحياة ، وكونوا جماعات كبيرة بين سكان البلاد .

٣ ــ أصحاب مهن متنوعة :

هؤلاء يشكلون جماعات صغيرة بمدن المغرب الأقصى ، ويسهمون مع طبقة التجار والصناع فى تيسير متطلبات الحياة اليومية للسكان ولا يتسع مجال البحث لاستقصاء كل أصحاب المهن التى وجدت نتيجة لحاجيات السكان ولكن يمكننا الإشارة إلى بعضهم ومن هؤلاء :

(ا) المنادى : ويقوم بمهمة الإعلان عن الأوامر والأحكام التى يصدرها ولاة الأمر وإذاعتها بين الناس [٤] وحين دخل ابن تومرت مدينة أكرسيف

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٦٣ تطوان .
(٢) التادلى : التشوف ص ١٨١ .
(٣) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٦٥ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٤٣ : Ren - Millet; A Imohades P ; 93
(٤) روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٨٠ ت نقولا زيادة .

عند عودته من رحلته ، لجأ الناس إليه ليشكونه ظلم الوزير ومن هنا ذهب ابن تومرت لأمير المؤمنين وكان يدعى يحيى بن فانو فأرسل المنادى يعلن من كانت عنده مظلمة عند الوزير فليقبل على دار الأمير[١] ، وبجانب ذلك كان المنادى يقوم بالاعلان عن المتوفين من أهل المدينة [٢].

(ب) الحمال : وهو ذلك الشخص الذى يقوم بنقل البضائع من مكان إلى آخر إما فوق أكتافه أو على دابة تحمل المنقولات ، وكانوا يستخدمون الأكياس لحماية ثيابهم ، والحبال لربط المنقولات[٣] وفى نفس الوقت فكانوا تحت رقابة المحتسب ، وقد أشار ابن عبدون إلى الطريقة التى يجب أن يسير بها العمال فى الطرقات « ولا يمشى حمال إلا أمام دابته ويده فى رسنها لينذر الناس ، ويحذر العميان وذوى الغفلة والأعذار ، ويجب أن يكون للحمالين فى كل صنعة موقف معروف لايتعداه »[٤].

(ح) السقاء : وهو الذى يقوم بتوصيل المياه إلى المنازل والدور وكان عليه حمل الماء لسد متطلبات الأسر والأفراد ، وكذلك كان يقدم الماء للمارة فى الأماكن العامة والتجمعات وذلك لإرواء عطشهم . وكانوا يحملون الماء فى قرب مصنوعة من الجلد ، ويصبون الماء فى أكواب يقدمونها للمارة ، أما فى المنازل فكانت هناك (براميل) ضخمة تمتلئ بالماء ويحملونها على ظهور الحمير لتوصيلها إلى المنازل [٥] وقد اشتغل بمهنة السقاية أبو الحسن على بن عبد الرحمن المعروف بابن الدلال والمقيم بمراكش[٦] . وقد أشار ابن عبدون إلى ضرورة نظافة الماء الذى يجلبه السقاء يقول « يجب أن يحد لهم موضع لأنفسهم يصنعون فيه قنطرة من ألواح آخر ما ينحصر إليه النهر ، ولا يترك أحد من المعدين يشاركهم . . . ويحد لهم المحتسب أن لا يستقى من بين أرجل الدواب على الحمأ والماء المكدر . . . يجب أن يمنع النساء أن يغسلن بالقرب

---

(١) البيذق : أخبار المهدى ص ٦٢ .

(٢) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٧٦ ، ٧٧ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص٧٢تطوان .

(٣) روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٨١ ، ٨٢ .

(٤) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٤١ .

(٥) روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٧٣ ، ٧٤ .

(٦) التادلى : التشوف ص ٣٤٢ .

من موضع السقاية . . . يجب أن يمنع هرق الزبول والأقذار على ضفة الوادى لكن خارج الأبواب . . . »[١] .

(د) السدلال : وهو الواسطة بين البائع والمشترى حيث يقوم بعمل المزاد لبعض السلع وعرض أسعارها على المشترين ، وكان عدد الدلالين يتوقف على نوع السلعة المباعة ، فقد كان الدلالون عن الأقمشة والبضاعة الحلدية فى مدينة فاس أكثر من غيرهم فى البضائع الأخرى[٢] وقد أشار التادلى إلى أحد تجار فاس وافلاسه واشتغاله دلالا بسوق مراكش [٣].

(هـ) البوابون : وهم القائمون على أبواب المدن ، حيث كان النظام المتبع فى بناء المدن وجود عدة أبواب لها ، وهذا ما سوف أتناوله بإذن الله فى فصل البناء والتعمير ، وكان لهذه الأبواب قائمون على فتحها صباحاً وغلقها مساء فالمراكشى أشار إلى وجود بوّاب لأحد أبواب مدينة تلمسان وكيف أن ابن تومرت دقّ على بابه ليلا ليفتحه ففتحه رهبة منه[٤] ، كذلك أبواب فاس كان لها بوابون يشرفون على غلقها وفتحها[٥] وكذلك أبواب مراكش[٦] وقد حدد ابن عبدون بعض واجباته بقوله « يجب أن يبكر بفتحها ، ويوقف البواب من يخرج عليه فى ذلك الوقت لئلا يخرج عليه سرقة أو شىء من الأعمال السوء إلى أن ينكشف النهار فيعرفه ، ويجب أن يؤخر بغلقها لمن عسى أن يجىء من مسافر يريد الدخول والمبيت فى المدينة »[٧].

(و) الصيادون : وهؤلاء عاشوا قريباً من شواطىء البحار والأنهار حيث مصادر الأسماك ، وقد سبق أن أشرت إلى وفرة الأسماك بالمغرب الأقصى نتيجة للموقع الذى يطل على البحر المتوسط فى الشمال والمحيط الأطلسى فى الغرب ، بالإضافة إلى الأنهار المتعددة والتى كانت تشق سهول ووديان المغرب

---

(١) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٣٢ .
(٢) روجيه : فاس عصر بنى مرين ص ١٥٦ .
(٣) التادلى : التشوف ص ٤٠٢ ، ٤٠٣ .
(٤) المراكشى : المعجب ص ١٨٣ .
(٥) التادلى : التشوف ص ٣٠٦ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٩٨ ، ٣٠٠ .
(٧) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٣٣ .

الأقصى ، ومن هنا اشتغلت طائفة من السكان بصيد الأسماك وبيعه فى الأسواق وقد اشتغل أبو جعفر محمد بن يوسف الصنهاجى الأسود والساكن بتاغزرت على وادى وانسيفن من تادلا والمتوفى سنة ٦٠٨ هـ بصيد الأسماك [١] .

(ز) الغاسل : وهو الذى يقوم على تجهيز الميت وقد أشار التادلى إلى أن أبا على سالم بن سلامة المتصوف والمتوفى بأغمات سنة ٥٩٠ هـ / ١١٩٤م حين مات أرسل أهله إلى الغاسل لكى يقوم بتجهيزه للدفن [٢] .

(ح) الحـــلاق : وهو الذى يقوم بتجميل السكان وقص شعورهم وقد أشار التادلى بوجود حلاق بمدينة سبتة [٣] هذه الحرف المتعددة شاركت بطوائفها بجانب غيرهم فى دفع عجلة الحياة بالمغرب الأقصى .

٤ ـــ المــــرأة

احتلت المرأة مكانة مرموقة فى المجتمع المغربى منذ قيام دولة المرابطين وصارت لها مشاركة واضحة فى كثير من المجالات ، وذلك بجانب وظيفتها الأولى وهى تربية النشىء والإشراف على إدارة المنزل .

المرأة فى الدولة المرابطية :

وقد ظهر دورها بارزاً فى عهد المرابطين ، حيث كانت المرأة تتمتع بوضع كريم فى القبيلة الصنهاجية إذ كانت تشترك فى مجلس القبيلة وتشارك فى الأمور الهامة [٤] وكانت للمرأة سيطرتها ونفوذها على الرجل ، وقد بلغ من احترامهم لها أن كثيراً من قادة المرابطين وامراء الدولة كانوا يلقبون بأسماء امهاتهن تقديراً لدور المرأة فى مجتمع المرابطين يقول النويرى « واستقامت له الأمور — أى ليوسف بن تاشفين — وتزوج زينب بنت ابراهيم زوجة أبى بكر بن عمر ، وكانت حظية عنده وأميرة عليه ، وكذلك جميع الملثمين ينقادون لأمور نسائهم ولا يسمون الرجل إلا بأمه فيقولون ابن فلانة ولا يقولون ابن فلان » [٥] ومن هنا وجدنا أبا عبد الله محمد بن يوسف بن تاشفين وهو أخ

(١) التادلى : التشوف ص ٤١٥ .
(٢) التادلى : التشوف ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٣) التادلى : التشوف ص ٢٧٢ ، ٢٧٣ .
(٤) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٥٢ .
(٥) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٠ .

لأمير المسلمين على وكان من أعظم قادة المرابطين يعرف بابن عائشة[١] وكذلك عبد الله بن فاطمة من أبرز قادة المرابطين ودخل فى كثير من المعارك بالأندلس وأحرز فيها عدة انتصارات كان معروفاً بابن فاطمة[٢] وأيضاً محمد ويحيى ابنا على بن يوسف المسوفى ، وقد تزوج والدهما على بامرأة تسمى غانية فنسبا إلى أمهما[٣] وعرفا ببنى غانية وقد كانت لهما مكانتهما فى الدولة المرابطية ثم تزعمهما لثورة مسلحة ضد الموحدين استغرقت وقتاً كبيراً وجهداً عظيما من خلفاء الموحدين ، وداعية الموحدين محمد بن تومرت اشتهر بنسبته : ابن تومرت وهو اسم امرأة ، وربما كان هذا اسم احدى جداته أطلق عليه ومن ثم اشتهر به[٤] وهذا كله يشير إلى مكانة المرأة واعتزاز الرجال بانتحال أسماء أمهاتهم .

وكانت المرأة تتمتع بقسط وافر من الحرية حتى أنها كانت تختلط بالرجال فى الأماكن العامة والمناسبات المختلفة ، مما جعل ابن تومرت عند عودته من رحلته يستنكر هذا الوضع فى أكثر من مكان ، فعند نزوله ببجاية فى عيد الفطر وجد اختلاط الرجال بالنساء مما دفعه للتفريق بينهم بعصاه[٥] يقول ابن القطان « ثم حضر — أى ابن تومرت — عيداً فرأى فيه من اختلاط الرجال بالنساء والصبيان المتزينين المتكحلين ما لا يحل فزجرهم وغير ذلك عليهم ، فوقعت لأجل ذلك نفرة استطال فيها الشر وسلبت النساء حليها وقام الهرج فسأل العزيز عن سبب ذلك فعرف بأنه لا سبب له إلا الفقيه السوسى » [٦] وبذلك دافع المجتمعون من الرجال والنساء عن عادة متأصلة بينهم حتى أنهم قاوموا فعل ابن تومرت . كذلك حين نزل ابن تومرت بتلمسان وجد النساء

(١) ابن القطان : نظام الجمان ص ٨ حاشية .
(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨ حاشية .
(٣) ابن الآبار : الحلة السيراء جـ ٢ ص ٢٠٥ حاشية د. حسين مؤنس .
(٤) ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٦٥ ت د. محمود السيد سالم .
(٥) البيذق : أخبار المهدى ص ٥٢ ، مجهول : نخب تاريخية ص ٣٦ ، ٣٧ ت ليفى بروفنسال .
(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤١ ت د. مكى .

يستقين الماء وبالقرب منهن الرجال يتوضؤون فقال « أليس هذا منكر النساء مع الرجال مخلوطين »[١] وحين نزل بناحية قلال وهي إحدى الأماكن التي عبرها في طريقه سمع صراخ الرجال والنساء نتيجة اللهو واللعب فلما نهاهم عن ذلك كان جوابهم « هكذا السيرة عندنا »[٢] ولما وصل إلى مكناسة شهد اجتماع الرجال والنساء تحت شجرة لوز فقام المهدى بتفريقهم[٣] وهذا كله يشير إلى تمتع المرأة في مجتمع المرابطين بحرية الاختلاط ومشاركة الرجال في المناسبات .

ويتصل بهذا موضوع سفور المرأة وحجابها ، ويبدو أن المرأة المرابطية بجانب تمتعها بحريتها كانت أيضاً سافرة إذ اتخذ الرجال اللثام بينما النساء ظللن سافرات[٤] ويبدو أن عادة سفور المرأة المرابطية نشأت معهن في مواطنهن الأولى في الصحراء وما زالت إلى الآن في مجتمع الطوارق[٥] ومن هنا حين عاد ابن تومرت اعترض على سفور أخت أمير المسلمين على بن يوسف حين قابلها في إحدى طرقات مراكش ومعها جواريها ، وكلهن سافرت فزجرهن ووبخهن على هذا الصنيع[٦] يقول النويرى « ولم يزل المهدى يلازم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر إلى أن وصل إلى مراكش وهي دار مملكة على بن يوسف بن تاشفين فرأى فيها من المنكرات أكثر مما عاينه في طريقة إذ رأى أخت أمير المسلمين في موكبها ومعها عدة من الجوارى الحسان ، وهن مسفرات ، وكانت هذه من عادتهن فحين رأى النساء كذلك أنكر عليهن وأمرهن بستر وجوههن وضرب هو وأصحابه دوابهن فسقطت أخت أمير المسلمين عن دابتها فرفع أمره إلى أمير المسلمين على بن يوسف[٧] » وفي رواية العمرى أن التي قابلها ابن تومرت هي زينب ابنة أمير المسلمين على بن يوسف

---

(١) البيذق : أخبار المهدى ص ٦١ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٢ ، ٦٣ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٦٥ .
(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٣ .
(٥) د. يحيى هويدى : تاريخ فلسفة الاسلام في القارة الافريقية جـ ١ ص ٢١٠ ، ٢١١ .
(٦) العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ قسم ٤ ص ٧٧٣ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٧ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٨٢ .
(٧) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٤ .

ابن تاشفين(١) واعتراض ابن تومرت يشير إلى أن موضوع السفور لم يكن عاماً بالنسبة لنساء المجتمع وإلا ما كان هناك وجه للاعتراض عليه . وربما كان هذا خاصاً بالمرأة المرابطية إذ أن هذا شيء مألوف لديها ومن هنا كان نقد ابن تومرت وهجومه على نساء المرابطين دون غيرهن من نساء المجتمع .

المرأة فى عهد الموحدين :

لم تتمتع المرأة بمثل النفوذ والحسرية التى كانت تتمتع بها أختها فى الدولة المرابطية ، وقد سبق أن أشرت إلى تشدد ابن تومرت داعية الموحدين فى منع اختلاط الرجال والنساء والحد من حريتهم ومنع سفورهن فى الطرقات العامة مما يدلّ على اتباع الموحدين لأحكام الدين بشأن صيانة المرأة وحمايتها ، إلا أن هذا الحد من الحرية لم يمنع الموحدين فى مناسبات مختلفة من إظهار تقديرهم واحترامهم للمرأة ففى إحدىٰ معارك الموحدين ضد المرابطين سقط كثير من الأسرى فى يد الموحدين ومنهم عدد كبير من النساء وقد قامت إحداهن وهى تاماكونت ابنة ينتيان بن عمر بالتحدث مع عبد المؤمن بن على وتذكيره بصنيع أبيها مع المهدى حين تشفع فيه عند أمير المسلمين على بن يوسف فأطلق سراحه ، وهنا أمر عبد المؤمن بإطلاق سراحها ، فرفضت حتى يطلق معها كل النساء وكان عددهن أربعمائة ، فامتثل عبد المؤمن لها وأمر باطلاقهن معززات حتى معسكر المرابطين(٢) وكذلك حين استشفع أبو شعيب المتصوف عند الخليفة عبد المؤمن فى اطلاق سراح نساء على بن يوسف ونساء أولاده فاستجاب(٣) وفى بعض الأحيان اتخذ الموحدون من السبايا زوجات لهم يقول البيذق « وقسّم الخليفة الغنائم — بعد انتصار الموحدين على المرابطين فى إحدى المعارك — وأخذنا فيها مائة بكر وكن عندنا مؤمنات فقسمهن الخليفة على الموحدين وتزوجوهن ، وبقيت فاطمة بنت يوسف الزناتية وبنت ماكسن ابن المعز صاحب مليلة فرمى الخليفة القرعة مع أبى ابراهيم على فاطمة فأخذها أبو إبراهيم وأخذ الخليفة بنت ماكسن بن المعز أم الأمير إبراهيم والأمير

---

(١) العمرى : مسالك الابصار جـ ١٥ ص ٣٩ .

(٢) البيذق : أخبار المهدى ص ٨٨ .

(٣) احمد بن القاسم : المعزى فى أخبار أبى يعزى ص ١١ مخلوط .

اسماعيل[١] » كذلك أكرم الناصر الموحدى سبايا ميورقة حين أمر باطلاق سراحهن ومساعدتهن بالأموال على الزواج[٢] ونفس التكريم وجده نساء العرب الهلاليـة حين وقعن فى الأسر من الخليفة عبد المؤمن فقد وكّل بهن الخدم لخدمتهن حتى وصلن إلى مراكش فأنزلهن المساكن الفسيحة وأجرى عليهن النفقات الواسعة[٣].

إلا أن هذا لم يكن دأب الموحدين فى تكريم السبايا فقد يحدث أن يبعن كما تباع السلع والأمتعة وهذا ما حدث لنساء كزولة ولمطة اللاتى وقعن فى أسر الموحدين حيث باعهن الموحدون على أحد أبواب مراكش[٤].

ويبدو أن بعض تجار الرقيق لا يلتزمون بأحكام الشرع ويسرعون فى بيع النساء ، ومن هنا صدرت رسالة من الخليفة عبد المؤمن سنة ٥٤٣هـ / ١١٤٨م تشير إلى هذا الخطأ حين قال « وأنه أعلمنا بأن من يرضى تلك الفواحش بما يرضاه ويستبيحه ولا يبالى أحسن الفعل فعله أم قبيحه يبتاع المرأة ويبيعها دون استبراء ويعبث فى ذلك بكل إقدام على الله تعالى واجتراء ولا يتحفظ من مواقعة الزنا المحض ومخالفة الواجب مع الفرض[٥] » وقد بين الخليفة علاج ذلك بقوله « فلا سبيل لأحد ممن هنالك أن يبتاع شيئاً منهن أو يبيع حتى يستأذن الحاكم لأمره منكم والشيوخ لئلا يذهب الحق فى ذلك ويضيع .. وكذلك فليتوقفوا عن بيع النساء فى جميع ما تغنمونه منهن فى تلك الأرجاء حتى تخاطبون بأصل أمرهن وكيفيته ، وتعلمونا من ذلك بجليته لنرسم لكم فيه ما يكون عليه اعتمادكم ويجرى إليه اقتصادكم »[٦].

وقد اشتهر المنصور الموحدى بإنصافه للمرأة يقول ابن خلكان فى صفات المنصور « ويقف للمرأة والضعيف ويأخذ لهم بالحق »[٧] ومن هذا يتضح

---

(١) البيذق : أخبار المهدى ص ٩٤ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٣١٥ .
(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ٤١ .
(٤) البيذق : أخبار المهدى ص ١١٨ .
(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٦٠ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ١٦٠ .
(٧) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٦ ص ١٠ .

أن المرأة تمتعت بمكانة طيبة ونالت التقدير والاحترام من ولاة الأمر بالمغرب الأقصى .

ثقافة المرأة : لم تشر المراجع التى تيسر لى الاطلاع عليها إلى موقف عامة النساء من الثقافة المحيطة بهن ، والمستوى العلمى الذى وصلن إليه ، وإنما أشارت فقط إلى بعضهن من بيت الحكم والسلطة فى الدولة المرابطية وحصولهن على قسط وافر من الثقافة ، ففى الدولة المرابطية كانت هناك تميمة بنت يوسف بن تاشفين أخت على بن يوسف بن تاشفين وتكنى أم طلحة وكانت راجحة العقل مشهورة بالأدب والكرم[١] وأيضا حواء بنت تاشفين — وكان تاشفين أخا ليوسف بن تاشفين لأمه — كانت أديبة شاعرة جليلة ماهرة ، وكانت تحضر المجالس الأدبية وتجمع الشعراء والكتاب وتحادثهم[٢] .

وبجانب الثقافة والمعرفة فإن بعض الأميرات قد تدربن على الضرب والطعن حتى أن إحداهن وهى فانو بنت عمر بن ينتيان ظلت تقاتل الموحدين على أسوار مراكش حتى قتلت ، وقد أعجب الموحدون بشجاعتها وصمودها يقول البيذق « فاستفتحت ودخلت بالسيف وكان القتال على القصر حتى الظهر ، ولم يدخل حتى ماتت فانو بنت عمر بن ينتيان وكانت ذلك اليوم تقاتل الموحدين فى هيئة رجل ، وكان الموحدون يتعجبون من قتالها ومن شدة ما أعطاها الله من الشجاعة وهى بكر فلما ماتت حينئذ دخل القصر ولم يعرف الموحدون هل هى امرأة أم لا حتى ماتت »[٣] .

فإذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا اشتغال كثير من النساء بالعلوم المختلفة ، وفى فترة نشر الدعوة شاركت المرأة فى الاستماع إلى كلام ابن تومرت ونصائحه فحين أحس ابن تومرت بدنو أجله ، جمع الرجال والنساء للاستماع إلى نصائحه ووعظه يقول ابن القطان « وذلك أنه لما تمادى مرضه — أى مرض ابن تومرت — خرج راكبا على بغلته وجمع الناس ليسمعهم كلامه

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٠٥ ، ١٠٦ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٧ تحقيق د. احسان عباس.
(٣) البيذق : اخبار المهدى ص ١٠٣ .

ووداعه وأمر أن يكون الرجال أمامه والنساء خلفه ليسمع كلهم كلامه . .»[١]

ومن بنات الخلفاء المثقفات التي أشارت إليهن المراجع الأميرة زينب بنت الخليفة يوسف بن عبد المؤمن درست علم الأصول على أبي عبد الله بن إبراهيم وكانت عالمة صائبة الرأي فاضلة[٢] ومن الشهيرات حفصة بنت الحاج الركونية وهي من شاعرات الأندلس وقد مدحت الخليفة عبد المؤمن بن علي[٣] ثم قامت بالتدريس في قصر الخليفة المنصور الموحدي لنساء القصر ، وأم خيرونه الفاسية التي كانت تحضر مجلس عثمان السلالجي إمام أهل فاس في الأصول وقد اقترحت عليه تأليف كتاب في مذهب الأشاعرة فألف العقيدة البرهانية[٤] وكذلك فاطمة بنت عبد الرحمن فقد درست أصنافاً مختلفة من الكتب إذ حفظت القرآن بقراءة نافع وكتاب شهاب الأخبار في الحكم والأمثال والآداب للقاضي محمد بن سلامة وعدة كتب في اللغة وصحيح مسلم في الحديث وفي التاريخ سيرة ابن اسحق وفي الأدب الكامل للمبرد[٥] وغير هؤلاء من النساء اللاتي حرصن على التزود من العلوم الاسلامية والدراسات الأدبية المنتشرة في ذلك العصر .

نفوذ المرأة : أسهمت المرأة المرابطية بذكائها ونصائحها في تأسيس الدولة المرابطية والسيطرة على ولاة الأمر بها . وقد سبق أن أشرت في الفصل الثاني إلى الطريقة التي توصل بها يوسف بن تاشفين إلى الحكم ومنها نصائح زوجته زينب النفزاوية ومشورتها ، وذلك لأنها كانت تتمتع بعدة صفات طيبة إذ كانت امرأة حازمة لبيبة ذات رأي وعقل ومعرفة بالأمور[٦] ولفرط ذكائها

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٦ .

(٢) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ٢ ص ١٠٩ ، المنوني : العلوم والآداب ص ٣٣ ، كنون : النبوغ المغربي جـ ١ ص ١٤٤ .

(٣) ابن سعيد : المغرب في حلى المغرب جـ ٢ ص ١٣٨ ، المقري : نفح الطيب جـ ٥ ص ٣٠٣ .

(٤) عبد العزيز بنعبد الله : مظاهر الحضارة المغربية جـ ٢ ص ١٠٩ ، المنوني : العلوم والآداب ص ٣٥ .

(٥) ملين : عصر المنصور الموحدي ص ١٦٩ .

(٦) ابن ابي زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣٢ ت الفيلالي ، السلاوي : الاستقصا جـ ٢ ص ٢١ .

أطلقوا عليها لقب الساحرة[١] وقد أشارت المراجع إلى النصائح التى أسدتها زينب إلى زوجها يوسف بن تاشفين مع المعونات المادية التى قدمتها له حتى استطاع أن يثبت أقدامه فى مقعد الحكم واستطاعت زينب بهذه الوسيلة أن تتمكن من قلب زوجها وتصير لها الكلمة فى البلاد[٢] وكان يوسف بن تاشفين يعتز بها ويصرح فى مجالسه بمكانتها وفضلها يقول ابن عذارى « وفى هذه السنة — سنة ٤٦٩هـ — ولد للأمير يوسف بن تاشفين ولده الفضل من زوجته زينب النفزاوية وكانت أحب ما لديه ، أمرأة غالبة عليه ، ليس . . .[٣] ولا كان أمر إلا أمرها ، وكان يقول لبنى عمه إذا خلا بهم وورد ذكرها : إنما فتح البلاد برأيها »[٤].

وقد برز مدى سلطة زينب أنها أمرت بعزل أحد القضاة لأنه مدح حواء زوجة سير بن أبى بكر بالجمال وفضلها على سائر النساء ، فجاءها الرجل مستعطفاً وظل على بابها أياماً ، باع كل ما يملك لينفق منه ، إلى أن سمحت له بالمثول بين يديها يقول النويرى « قالت — أى زينب لخادمها — فأتنى به الساعة فأحضره إليها فقالت له تمدح زوجة سير وتفضلها على سائر النساء وخرجت فى وصفك لها عن الحد ، وزعمت أن ليس فى الأرض أجمل منها ، وما هذه منزلة القضاء ، ولا يليق بك أن تترك نفسك فى هذه المنزلة فقال ارتجالا :

أنت بالشمس لاحقه ... وهى بالأرض لاصقة
فمتى ما مدحتها ... فهى من سير طالقة

فقالت له ياقاضى طلقتها منه قال نعم ثلاثة وثلاثة وثلاثة ، فضحكت

---

(١) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، مجهول : تواريخ مدينة فاس ص ٢٤ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٣٣ ، ٣٤ ت الفيلالى ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٢ ت د. احسان عباس ، ابن الخطيب: أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ٢٣٢ ، ٢٣٣ ت العبادى ، ابن خلدون : العبر جـ ٧ ص ٤٦ .

(٣) بيــاض الأصل .

(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٠ ، ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٣٧ .

حتى افتضحت وقالت والله لا شم لها قفا أبداً وكتبت إلى يوسف برده إلى القضاء فرده »[١] وهكذا لعبت الغيرة دورها فى عزل القاضى ثم رده بعد ذلك ؛ حتى إذا تولى أمير المسلمين على بن يوسف ، ازداد نفوذ النساء وصارت لهن السيطرة على الحياة العامة فى البلاد يصور ذلك المراكشى بقوله « واستولى النساء على الأحوال وأسندت إليهن الأمور وصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور ، وأمير المسلمين فى ذلك كله يتزيد تغافله ويقوى ضعفه »[٢] وصارت زوجة أمير المسلمين تتدخل فى عزل الولاة ، وذلك ما فعلته والدة سير فى عزل تاشفين عن تولى إمارة الأندلس يقول ابن عذارى « وذكروا أن والدة سير هى التى غارت بأخيه تاشفين لئلا يكبر على ابنها ويتملك فى بلاد الأندلس فكانت سبب عزلته ووصوله — أى إلى مراكش »[٣] فلما جاء تاشفين إلى مراكش صار فى ركاب أخيه سير يقف على بابه كأحد حجابه[٤] وكان هذا من تأثير قمر والدة سير ، فلما مات ابنها سير وكان ولياً للعهد حاولت نقل ولاية العهد إلى اسحق دون تاشفين ولم يتحقق لها ذلك بسبب صغر سن اسحق[٥] مع اختيار الناس لتاشفين .

وكان هذا التدخل فى شئون الدولة مع ضعف أمير المسلمين على بن يوسف أمام سيطرتهن عاملا من عوامل ضعف الدولة المرابطية مما أدى بها إلى الانهيار والسقوط[٦] وقد أشار المراكشى إلى أن من عوامل إختلال أحوال الأندلس فى أواخر أيامهم سيطرة النساء على مقاليد الأمور « فأما أحوال جزيرة الأندلس فإنه لما كان آخر دولة أمير المسلمين أبى الحسن على ابن يوسف ، اختلت أحوالها اختلالا مفرطاً ، أوجب ذلك تخاذل المرابطين

---

(١) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٠ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ١٧٧ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٩٧ ت د. احسان عباس .
(٤) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٩٧ .
(٥) نفس المرجع السابق ج ٤ ص ٩٧ .
(٦) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٥ ، د. احمد شلبى : التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ١٨٣ ، كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٠٣ .

وتواكلهم ، وميلهم إلى الدعة وإيثارهم الراحة وطاعتهم النساء فهانوا على أهل الجزيرة وقلّوا فى أعينهم ، واجترأ عليهم العدو »[١].

حتى إذا قامت الدولة الموحدية لم يكن للمرأة فى المجتمع الموحدى نفوذ مثيلتها فى الدولة المرابطية ، وتدخلها فى الشئون السياسية بذلك الشكل الواضح وقد وجدنا منها مشاركة فى الشئون السياسية حين حضرت مبايعة القبائل لعبد المؤمن بن على يقول البيذق : « وصاح بالقبائل — أى عبد المؤمن بن على بعد رجوعه من غزو كزولة — وضم الموحدين وجعل المجلس فاستعمل ركائز وحال بين الرجال والنساء ثم وعظ الناس وقال لهم فى آخر كلامه بقى عندكم عهد بيعة المهدى . . . [٢] » ولم توضح الرواية هل قام النساء بالمبايعة أيضاً ؟ وإنما اكتفت الرواية « فد يده وبايعوه — أى أصحابه — ثم تبعه سائر الناس حتى الليل وكانت البيعة ثلاثة أيام متوالية . . »[٣] ويرجح أن النساء اشتركن فى البيعة لحضورهن هذا الاجتماع يضاف إلى ذلك أن كلمة الناس التى وردت فى النص عامة تشمل الرجال والنساء .

واحتلت زوجة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن من نفسه مكانة طيبة ، وهى ابنة عدوه محمد بن سعد أحد المتغلبين على شرق الأندلس وذلك بعد دخوله فى طاعة الموحدين ، فأكرمه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وتزوج من ابنته ، واستطاعت هذه الزوجة أن تتغلب عليه حتى كان الناس يضربون المثل بحب الخليفة بالزرقاء المردنيشية[٤] واستطاعت بهذه المنزلة أن تشير على زوجها بتعيين بعض قرابتها فى بعض المناصب يقول لسان الدين بن الخطيب « واتفق لقومها من البخت بسببها ما لم يتفق لثائر ولا مخالف ملك من إعادته إلى ملكه فأنفذ تقديم الأمير أبى الحجاج يوسف بن سعد بن مردنيش على بلنسية وجهاتها وقدم غانم بن محمد على أساطيل العدوة بسبتة

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٠٨ .
(٢) البيذق : اخبار المهدى ص ٨٥ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٨٥ .
(٤) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثانى ص ٣١١ ، ٣١٢ ت ليفى بروفنسال .

وأمسك هلالا بحضرته أثير الرتبة لديه »[1] غير أن هذا النفوذ للمرأة الموحدية لم يبلغ الدرجة التي وصلت إليها المرأة في العهد المرابطي .

بعض الأعمال التي اشتغلت بها المرأة : قامت المرأة في مجتمع المغرب الأقصى خلال فترة البحث بدورها الأساسي وهو رعاية الأسرة والإشراف على شئون البيت وتربية الأبناء ، إلا أنه بجانب ذلك اشتغل بعضهن ببعض الأعمال رغبة في الكسب ، وفي بعض الأحيان يكون هذا ناتجاً عن عادة متأصلة في بعض القبائل وهي دفع النساء للعمل كنساء أهل السوس وأغمات ، يقول البكري « وأهل السوس وأغمات أكثر الناس تكسباً وأطلبهم للرزق يكلفون نساءهم وصبيانهم التحرف والتكسب »[2].

وقد اشتغل بعضهن بغزل الصوف يقول ياقوت « ونساؤهم أي نساء سجلماسة — يد صناع في غزل الصوف فهن يعملن منه كل حسن بديع من الأزر يفوق القصب الذي بمصر ، يبلغ ثمن الإزار خمسة وثلاثين ديناراً أو أكثر »[3] كذلك نساء فاس كن يشتغلن بالتطريز وحياكة الملابس[4] . كذلك قامت بعض النساء ببيع اللبن فعند مرور ابن تومرت في طريق عودته بإحدى القرى وجد النساء متزينات يبعن اللبن[5]

ونتيجة لحصول بعضهن على ثقافة عالية ، كالعالمة حفصة بنت الحاج الركوني ، وكانت أستاذة وقتها فإنها قامت بالتدريس لنساء المنصور الموحدي في قصره وتوفيت بحضرة مراكش سنة ٥٨٠هـ / ١١٨٤م أو سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥م[6] ، وكذلك اشتغلت بعض النساء بالطب ومنهن أخت الطبيب أبو بكر بن زهر وابنتها إذ كانتا بارعتين في الطب وكانتا تداويان نساء

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثاني ص ٣١٢ ت ليفي بروفنسال .

(٢) البكري : المغرب في ذكر افريقية ص ١٦٣ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان جـ ٣ ص ٤٩ .

(٤) روجيه : فاس في عصر بني مرين ص ١٣٤ ترجمة د . نقولا زيادة .

(٥) البيذق : أخبار المهدي ص ٦١ .

(٦) ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الاول ص ٤٩٩ ، ٥٠١ ت عنان .

المنصور الموحدى[1] يقول ابن أبى أصيبعة « وكانت أخته — أى أخت أبى بكر ابن زهر — وابنتها عالمتين بصناعة الطب والمداواة ولهما خبرة جيدة بما يتعلق بمداواة النساء وكانتا تدخلان إلى نساء المنصور ولا يقبل — تتولى قبالة نساء أهله أى توليد هن — للمنصور وأهله ولدا إلا أخت الحفيد أو بنتها لما توفيت أمها »[2] وهكذا لم يكن نشاط المرأة محصوراً فى أعمال البيت وإنما تعداه إلى الحياة العامة حيث شاركت المرأة فى بعض الأعمال .

٥ — أهــل الذمــة

عاشت جاليات من اليهود والنصارى على أرض المغرب الأقصى متخذة من أرضه وطناً لها ، فقد اعتنق بعض سكان المنطقة الديانة اليهودية وقد علل ابن خلدون ذلك بقوله « وربما كان بعض هؤلاء البربر دانو بدين اليهودية أخذوه عن بنى اسرائيل عند استفحال ملكهم لقرب الشام وسلطانه كما كان جراوة أهل جبل أوراس قبيلة الكاهنة . . . وكما كانت نفوسه من برابر آفريقية وفندلاوة ومديونة وبهلولة وغياثة وبنو فازاز من برابر المغرب الأقصى »[3].

كذلك اعتنق فريق من السكان الديانة المسيحية بعد أن دخلت المسيحية إلى المغرب عن طريق رهبان مصر فى القرن الثانى الميلادى[4] وكانت تتركز جموعهم فى المدن الساحلية والسهل الساحلى حتى إذا دخل الإسلام المنطقة واعتنق أهل البلاد الإسلام ،كفل ولاة المسلمين الحرية الدينية لهذه الطوائف ، ومن ثم عاشوا ينعمون بعدالة الإسلام بين سكان البلاد ، ووجدت منهم جماعات متفرقة فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة فى تلمسان وجدت

---

(١) عبد العزيز بنعبد الله : الطب والاطباء بالمغرب ص ٣٠ الرباط سنة ١٩٦٠ ، د. أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الاسلام ص ١٦ دمشق سنة ١٩٣٩ ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، المنونى: العلوم والآداب ص ١٢٨ .

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الانباء وطبقات الاطباء ص ٥٢٤ بيروت سنة ١٩٦٥ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠٧ .

(٤) د. حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ص ٢٨ مطبعة مصر سنة ١٩٤٧ .

جالية مسيحية يقول البكرى « وفيها — أى تلمسان — للاول آثار قديمة وبها بقية من النصارى إلى وقتنا هذا ولهم بها كنيسة معمورة » [١].

كذلك اليهود عاشوا فى أكثر من مكان ففى مدينة فاس كانت توجد جالية كبيرة من اليهود[٢] كذلك عاش اليهود بأعداد كبيرة بإحدى قلاع جبل فازاز يقول صاحب كتاب الاستبصار « وفى هذا الجبل — أى جبل فازاز — قلعة كبيرة تنسب للمهدى ابن توالى الجيفشى . . . وكان اليهود فى ذلك التاريخ أكثر سكانه لأنهم سوقة فيلجئون للحصن حيطة على سلعهم »[٣] واتخذ اليهود مدينة أغمات ايلان مقراً لهم [٤].

أهل الذمة فى عهد المرابطين :

سبق أن أشرت إلى وجود جاليات من أهل الذمة فى نواحى متفرقة من البلاد فلما قامت دولة المرابطين استظل أهل الذمة كغيرهم من طبقات وطوائف المجتمع بنظام الحكم الجديد . وقد اختلفت أوضاعهم نتيجة للأحداث التى مرت بها المنطقة ويبدو أن طائفة اليهود كانت على قدر كبير من الثراء مما دفع ابن تاشفين إلى فرض أموال كثيرة عليهم ليستعين بها فى دعم مركزه[٥] يقول ابن عذارى « وفيها — أى سنة — ٤٦٤هـ — افترض على اليهود فريضة ثقيلة فى جميع طاعته اجتمع له فيها مائة ألف دينار عشرية ونيف على ثلاثة عشر ألف دينار »[٦] وهو مبلغ كبير يدل على ما كان يتمتع به اليهود من الثراء ، حتى إذا صارت الأندلس إقليما تابعاً للمغرب الأقصى زاد سكان المنطقتين : المغرب الأقصى والأندلس إتصالا ، وخاصة بعد المعارك المتصلة ومجئ كثير من الأسرى من أهل الأندلس مسيحيين أو يهود إلى المغرب الأقصى ، إلا أن بعض الأحداث السياسية دفعت أمير المسلمين على بن يوسف

---

(١) البكرى : المغرب ص ٧٦ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١١٥ .
(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .
(٤) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٣ .
(٥) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٣ .
(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٣ تحقيق د. احسان عباس .

إلى تغريب عدد كبير من النصارى إلى المغرب الأقصى ، وكان السبب فى ذلك أن نصارى مدينة غرناطة تعاونوا سراً مع ابن ردمير عدو المسلمين وزينوا له اقتحام مدينة غرناطة مما نتج عنه كثير من الأضرار التى لحقت بسكان المدينة ومن هنا عبر ابن رشد إلى أمير المسلمين على بن يوسف وأحاطه علماً بما حدث وأفتاه بتغريب هؤلاء النصارى وغيرهم ممن يتمالؤن مع العدو[1]، يقول ابن الخطيب « وفى سنة تسع عشرة وخمسمائة جاز القاضى أبو الوليد بن رشد إلى مراكش فتلقاه أمير المسلمين على بن يوسف بالمبرة والكرامة وبين له القاضى أمر الأندلس وما أصيبت به من النصارى المعاهدين بها وما جروه إليها وجنوه عليها من استدعاء ابن ردمير وتقويته على المسلمين وإمداده وما فى ذلك من نقض العهد والخروج عن الذمة ، فلقى نظره بالقبول وأفتاه بتغريبهم وإجلائهم عن أوطانهم وهو أخف ما يؤخذ به فى عقابهم ، ونفذ عهده إلى جميع بلاد الأندلس بإزعاج المعاهدين إلى ناحية مكناسه وسلا وغيرها من بلاد العدوة »[2] وهكذا كانت خيانتهم ونقضهم للعهد سبباً فى نقلهم من أوطانهم إلى المغرب الأقصى .

وبجانب هذا الإجراء ، كان هناك إجراء وقائى من أمير المسلمين على بن يوسف بالنسبة لليهود ، إذ حرم عليهم المبيت بمدينة مراكش وسمح لهم فقط بالعمل فيها نهاراً والانصراف منها ليلا[3] يقول الادريسى « وأغمات إيلان مدينة صغيرة فى أسفل جبل درن المذكور . . وبهذه المدينة يسكن يهود تلك البلاد وهى مدينة حسنة كثيرة الخصب كاملة النعم ، وكانت اليهود لا تسكن مدينة مراكش عن أمر أميرها على بن يوسف ولا تدخلها إلا نهاراً وتنصرف عنها عشية ، وليس دخولهم فى النهار إليها إلا لأمور له وخدم تختص به ومتى

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٢ تحقيق د. احسان عباس ، النباهى : تاريخ قضاة الاندلس ص ٩٩ ، ابن الخطيب : الاحاطة فى اخبار غرناطة المجلد الاول ص ١١٩ ، ١٢٠ ، عباس المراكشى : الاعلام جـ ٢ ص ٣٥٨ ارنست رينان : ابن رشد والرشدية ص ٣٢ ، ٣٣ ترجمة عادل زعيتر سنة ٥٧ ، اشباخ : تاريخ الاندلس جـ ١ ص ١٥٧ ،

De Gayangos ; History of Mohamedan. V.2 P; 306.

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦٥ ، ٦٦ .

(٣) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٣ .

عثر على واحد منهم بات فيها استبيح ماله ودمه ، فكانوا ينافرون المبيت فيها حياطة على أموالهم وأنفسهم »[١].

وهذا الإجراء مع دفعهم أموالا ضخمة ليوسف بن تاشفين من قبل يضاف إلى ذلك تغريب النصارى من الأندلس ، دفع بعض الكتّاب إلى القول بأن أهل الذمة عاشوا فى اضطهاد فى دولة المرابطين وأنهم لم يتمتعوا بحريتهم الدينية ، يقول فيليب حتى « إزداد الحماس الدينى — أى فى دولة المرابطين — حتى أخذت الاضطهادات فى أوائل القرن الثانى عشر تنصب على المسيحيين واليهود »[٢] ويقول بروكلمان « فلما تم السلطان للمرابطين انتهى اليهود إلى حال من العسر بالغة »[٣] وتبعهم فى هذا الاتجاه بعض الكتاب[٤] وقد أسرف هؤلاء الكتاب فى لوم المرابطين واتهامهم وبمناقشة ما فعله المرابطون يمكننا أن نستخلص ما يلى :

أولا : أن أخذ يوسف بن تاشفين أموالا من اليهود لم يكن إجراء قاصراً على طائفة اليهود بل إن ولاة المرابطين فرضوا بعض المعونات على جميع طبقات المجتمع فى حالة احتياجهم للمال ، وقد سبق أن أشرت إلى أن على ابن يوسف فرض معونات على أهل المدن المغربية لتساعده فى حملاته العسكرية ومن ذلك ما فرضه على أهل فاس سنة ٥٣٠هـ من معونة تقدر بعشرين ألف دينار كمعونة للجيش [٥] .

ثانياً : مسألة تحريم المبيت على اليهود بالعاصمة مراكش ، كان إجراء وقائياً ضد احتمالات التجسس التى يمكن أن يقوم بها اليهود ، أو عمليات التخريب وخاصة أن عهد على بن يوسف شهد معارك متعددة فى أكثر من

---

(١) الادريسى : وصف المغرب والاندلس ص ٦٩ ت دوزى .

(٢) فيليب حتى : تاريخ العرب ص ٧٠٤ ترجمة مبروك نافع ط ٣ سنة ٥٢ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٨٠ ترجمة نبيه فارس ومنير البعلبكى .

(٤) عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٤٢٠ ، د. لطفى عبد البديع : الاسلام فى اسبانيا ص ٣٤ ، ٣٥ ط ٢ سنة ٦٩ ،

S.P. Scott History of Moorish Empire P: 247.

(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٢٦ .

جبهة فى الأندلس ضد النصارى ؛ وفى المغرب الأقصى ضد ثورة ابن تومرت ومن هنا كان لا بد له من الاحتياط فى عاصمته مقر إدارة الدولة وتجمعات الجند وما يتصل بذلك من خطط وتحركات عسكرية .

ثالثاً : أن تغريب النصارى من الأندلس كان إجراء عادلا نتيجة لنقضهم العهد وخيانتهم للمواثيق باتصالهم بالعدو واطلاعهم على عورات المسلمين ومن هنا كان القرار الحاسم ، وهو شل حركتهم وإبعادهم عن مواطن الإتصال بالعدو ونقلهم إلى المغرب ليكونوا تحت سمع وبصر أمير المسلمين .

رابعاً : أن الفترة الزمنية التى وقعت بها هذه الأحداث كانت تشهد حرباً طاحنة فى المشرق أعلنها الصليبيون للاستيلاء على ثروات المشرق مستترين تحت شعار الصليب ، ومن هنا كان من حق أمراء المرابطين اتخاذ كل ما يرونه من احتياطات بشأن معاملة أهل الذمة .

خامساً : أظهر ولاة الأمر تسامحاً حين استخدموا النصارى واليهود فى عدة وظائف بالدولة وفى مقدمة ذلك إشراكهم فى جيش البلاد[١] يقول ابن عذارى « وفى سنة أربع وثلاثين وخمسمائة خرج تاشفين بعسكر كبير من لمتونة والحشم وزناته لقتال الموحدين ومعه جمع من النصارى مع قائدهم الربرتير فبقى يحاربهم نحو شهرين ثم رجع إلى مراكش »[٢] بجانب ذلك كانوا يكوّنون الحرس الخاص لأمير المسلمين على بن يوسف[٣] ، يضاف إلى ذلك اشتراكهم فى جباية الأموال للدولة[٤] ، وقد شارك اليهود النصارى فى وظيفة جباية الأموال[٥] .

---

(١) أشباخ : تاريخ الاندلس جـ ٢ ص ٢٣٩ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٨٠ ، ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٥٣ ، ٢٥٤ ت د. السيد محمود سالم ، الصديق بن العربى : طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب ص ١٥٤ مجلة تطوان عدد ١ سنة ٥٦ ،

J.F.P. Hopkins ; Medieval Muslim, P ; 69.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٩٨ ت د. احسان عباس .

(٣) أشباخ : تاريخ الاندلس جـ ١ ص ١٢٢ .

(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٢٩ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤١١ ، ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٤٧ ت د. السيد محمود سالم .

(٥) أشباخ : تاريخ الاندلس جـ ٢ ص ٢٣٨ .

سادساً : اشتغال كثير من اليهود فى بعض الحرف فى المدن المغربية كاشتغالهم بصناعة القناديل وزخرفة المعادن وصناعة الحلى وغيرها بمدينة فاس [١] كما أن بعضهم اشتغل بحرفة البناء فى مدينة سجلماسة[٢] ولا يتسنى لهم إحتراف هذه الأعمال إلا إذا كانوا يعيشون فى ظل من الأمن والطمأنينة.

سابعاً : تمتع علماء اليهود بالمغرب والأندلس بحرية الكتابة والبحث ، يقول اشباخ « فمنذ القرن الحادى عشر وضع يهوذ شويج الفاسى قاموساً عبرياً ومباحث قيمه عن الإنشاء والترقيم فى اللغة العبرية ولم يطبع منها شىء حتى وقتنا . وفى القرن الثانى عشر ازدهرت المباحث العلمية اليهودية فى أسبانيا بنوع خاص[٣] » ولو كان اليهود يعيشون فى اضطهاد لما تسنى لهم التفكير فضلا عن الكتابة والبحث فى ديانتهم .

ومن هذا كله يمكن أن نستخلص أن أهل الذمة كغيرهم من طبقات المجتمع عاشوا يتمتعون بعدالة ولاة الأمر .

٢ , أهل الذمة فى عهد الموحدين :

واجه أهل الذمة موقفاً صعباً فى عهد الخليفة عبد المؤمن ، إذ تشير بعض الروايات إلى أن الخليفة عبد المؤمن خيّر أهل الذمة بين الإسلام أو ترك البلاد أو القتل ومن ذلك ما رواه النويرى « وكان عبد المؤمن لا يداهن فى دولته ويأخذ الحق من ولده إذا وجب عليه قال ولا مشرك فى بلاده ولا كنية فى نفعه منها ، لأنه كان إذا ملك بلداً إسلامياً لم يترك فيه ذمياً إلا عرض عليه الإسلام فمن أسلم سلم ومن طلب المضى إلى بلاد النصارى أذن له فى ذلك ومن أبى قتل فجميع أهل مملكته مسلمون لا يخالطهم سواهم»[٤] وتطبيقاً لهذه القاعدة فإن كثيراً من اليهود والنصارى غادروا البلاد فراراً بحياتهم[٥] وفى ذلك يقول القفطى « ولما نادى عبد المؤمن بن على الكومى البربرى المستولى

---

(١) روجية : فاس فى عصر بنى مرين ص ١٣٩ .
(٢) البكرى : المغرب ص ١٤٨ ، ١٤٩ .
(٣) اشباخ : تاريخ الاندلس جـ ٢ ص ٢٥٦ .
(٤) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ .
(٥) د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس ص ٨٨ المكتبة الثقافية عدد ٢٣٧ سنة ١٩٧٠ .

على المغرب فى البلاد التى ملكها بإخراج اليهود والنصارى منها وقدر لهم مدة وشرط لمن أسلم منهم بموضعه على أسباب ارتزاقه ما للمسلمين وعليه ما عليهم ومن بقى على رأى أهل ملته فإما أن يخرج قبل الأجل الذى أجله وإما أن يكون بعد الأجل فى حكم السلطان مستهلك النفس والمال ، ولما استقر هذا الأمر خرج المخفون وبقى من ثقل ظهره وشح بأهله وماله وأظهر الإسلام وأسر الكفر »[١] وممن تظاهر بالإسلام ثم فرّ بعد ذلك موسى بن ميمون حيث لجأ إلى مصر واستقر بالفسطاط [٢].

وقد أشارت المراجع إلى اتخاذ الخليفة عبد المؤمن موقفاً صريحاً فى فرض الإسلام على أهل الذمة فى تونس حين تم فتحها[٣] يقول ابن الأثير « وتسلم البلد — أى تونس — وأرسل إليه من يمنع العسكر من الدخول وأرسل أمناءه ليقاسموا الناس على أموالهم وأقام عليها ثلاثة أيام ، وعرض الإسلام على من بها من اليهود والنصارى فمن أسلم سلم ومن امتنع قتل ».[٤]

وقد أحاطت عدة ظروف بالخليفة عبد المؤمن دفعته لمثل هذا الإجراء : فالتشدد الدينى الذى صاحب قيام الدولة ، وإتهام كل من يخالف مذهبه بالكفر ، مع استمرار الصراع المسلح فى الأندلس ومساندة النصارى لأبناء دينهم ، واستمرار الحملات الصليبية وشرورها فى المشرق مع خوف عبدالمؤمن من دسائس وخيانات أهل الذمة وقد عايش ذلك بنفسه طبقاً للرواية التى تشير إلى أن جنود النصارى فى جيش المرابطين هم الذين خانوا سادتهم وفتحوا أحد أبواب مراكش وبذلك مكّنوا الموحدين من احتلال المدينة[٥] وأنه حين فرض الإسلام بحد السيف على أهل الذمة فى تونس ، إنما كان فى طريقه لتخليص المهدية من يد الفرنج ومن يساعدهم من أهل الذمة ، ومن

---

(١) القفطى : أخبار العلماء بأخبار الحكماء ص ٢٠٩ ط ١ سنة ١٣٢٦هـ.
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٠٩ ، د. محمد بحر عبدالمجيد : اليهود فى الأندلس ص ٨٨ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الاول ص ٤٠٤
(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٥ ، الباجى : الخلاصة النقية ص ٥٥ ، ابن سعيد : نزهة الانظار ، جـ ١ ص ١٩٥ ، أبو عبد الله محمد : الحلل السندسية ص ٢٥١ .
(٤) ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ٦٣ .
(٥) أشباخ : تاريخ الأندلس جـ ١ ص ٢١٢ .

ثم أراد أن يؤمن خطوطه الخلفية ، كل هذه الظروف هى التى أدت فى النهاية إلى هذا التصرف من جانب الخليفة عبد المؤمن ومع ذلك فهذا الموقف لايقرّه الإسلام ، إذ أن القرآن يذكر صراحة الآية الكريمة التى تقرر « لا إكراه فى الدين » ومن ثم فإن ولاة الأمر من المسلمين لا يسمح لهم بفرض الإسلام بالقوة .

ويبدو أن تصرفات الخليفة عبد المؤمن دفعت المراكشى إلى أن يصرح بخلو المغرب الأقصى من أهل الذمة فى عهد الموحدين يقول « ولم تنعقد عندنا ذمة ليهودى ولا نصرانى منذ قام أمر المصامدة ، ولا فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام ويصلون فى المساجد ويقرئون أولادهم القرآن جادين على ملتنا وسنتنا والله أعلم بما تكن صدورهم وتحويه بيوتهم »[1] ومن هذا النص نفهم إسلام أهل الكتاب أو تظاهرهم بالإسلام ومن ثم فلم يكن هناك أهل ذمة فى دولة الموحدين ، غير أن الأحداث والنصوص تشير إلى عكس ذلك ومنها :

أولا : أن فرض الإسلام على أهل الذمة بتونس كان مرتبطاً بافتتاح المهدية وما فيها من الفرنج ، ولم تشر المراجع التى اطلعت عليها أن الخليفة عبد المؤمن أرغم أحداً من أهل الذمة فى المدن المغربية الأخرى على إعتناق الإسلام .

ثانياً : استخدام الموحدين للنصارى فى جيوشهم كما فعل المرابطون[2] وقد استتبع ذلك وجود أحياء فى مراكش لإقامتهم[3] .

ثالثاً : ومما يؤكد وجودهم بالعاصمة مراكش أنه حين حدث قحط فى عهد المنصور الموحدى خرجت طوائف المدينة كلها ومنها اليهود والنصارى للاستسقاء والدعاء يقول عباس المراكشى فى ترجمته لأبى العباس السبتى المتوفى سنة ٦٠١هـ « ومن بركاته رضى الله عنه ، أن أهل مراكش قحطوا

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٣٠٥ .

(٢) الصديق بن العربى : طوائف وشخصيات مسيحية بالمغرب ص ١٥٤ مجلة تطوان عدد ١ سنة ٥٦ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٦ .

فى زمان يعقوب المنصور رحمه الله تعالى فأمر الناس بالخروج حتى لم يبق فى المدينة أحد وخرج إليها اليهود والنصارى والبهائم والنساء وأولادهم . . »[١].

رابعاً : لم يكن وجودهم قاصراً على العاصمة ، بل كانوا فى أماكن متفرقة من البلاد فقد كانت هناك جالية يهودية تعيش فى إحدى قلاع جبل فازاز [٢] .

خامساً : وجود طائفة منهم تشتغل بالبناء فى مدينة سجلماسة[٣] وكانوا يشكلون طبقة غنية فى مدينة فاس سنة ٥٨٢هـ / ١١٨٦م يقول صاحب كتاب الاستبصار « وأما الآن — سنة ٥٨٢ هـ — فهم تجار أهل هذه البلاد كلها وأغنياؤها وخاصة بمدينة فاس فإنى عاينت منهم من يقال أن عنده المال الممدود ورجالا كثيرين » [٤].

سادساً : أن المنصور الموحدى أصدر أوامره بتغيير زى اليهود المقيمين فى البلاد[٥] يقول المراكشى « وفى آخر أيام أبى يوسف أمر أن يميز اليهود الذين بالمغرب بلباس يختصون به دون غيرهم وذلك بثياب كحلية ، وأكمام مفرطة السعة تصل إلى قرب من أقدامهم ، وبدلا من العمائم كلوتات على أشنع صورة كأنها البراديع تبلغ إلى تحت آذانهم فشاع هذا الزى فى جميع يهود المغرب ولم يزالوا كذلك بقية أيامه وصدراً من أيام ابنه أبى عبد الله »[٦] وبطبيعة الحال لا يمكن أن ينفذ هذا القانون ويطبق هذا الزى إلا فى إناس يعيشون فى البلاد ويراد تمييزهم عن غيرهم من بقية طوائف الشعب .

وهكذا مما سبق نستخلص أن أهل الذمة من المسيحيين واليهود عاشوا فى البلاد فى ظل الموحدين وأنهم واجهوا فى عهد الخليفة عبد المؤمن تشدداً نتيجة للظروف والأحداث التى كانت تمر بها البلاد .

---

(١) عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٢٧٨ .
(٢) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .
(٣) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٢ .
(٤) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٢ .
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٨٠ ، ١٨١ تطوان .
(٦) المراكشى : المعجب ص ٣٠٤ .

الفصل الثالث

البنـاء والتعمير

شهد المغرب الأقصى حركة كبيرة فى ميدان البناء والتعمير منذ قيام دولة المرابطين حتى عهد الناصر الموحدى ، وقد شملت حركة البناء والتعمير تنوعاً وكثرة فمن بناء مدن — ويأتى فى مقدمتها مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين — إلى منشآت عسكرية من حصون وقلاع وأسوار ، وبجانب ذلك تلك المنشآت العامة التى انتشرت فى أنحاء البلاد كالمساجد والمدارس والمستشفيات والحمامات والفنادق والقناطر وغير ذلك من المنشآت .

وقد حظت بعض المدن المغربية بكثرة المبانى العامة التى أنشئت فيها ومن هذه المدن مدينة فاس التى امتلأت بكثير من المنشآت العامة(١) حيث بلغ عدد المساجد بها سبعمائة وخمسة وثلاثين ، ودور الوضوء اثنين وأربعين والسقايا ثمانين والحمامات ثلاثة وتسعين(٢) كذلك الطريق الموصل بين تلمسان وفاس ومقداره عشرة أيام ، هذه المسافة كانت كلها عمائر متصلة(٣) وهذا يشير إلى الازدهار العمرانى الذى شهدته البلاد ، ويعلل ذلك باهتمام ولاة الأمر من المرابطين والموحدين بحركه البناء والتعمير . مع توفر الأموال والخبرة المعمارية ، كل هذا أسهم فيما حققته المنطقة من تقدم عمرانى .

وكان لولاة الأمر دور هام فى تشجيع البناء والتعمير ، فأمير المسلمين يوسف بن تاشفين بدأ نشاطه فى التعمير والبناء ببناء عاصمته مراكش ، ثم واصل بعد ذلك نشاطه فى تنمية حركة البناء بالبلاد(٤) وواصل أمير المسلمين

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٨ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٠٣ د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٥٨ .

(٢) الجيلالى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ٥٧ ، الجزنائى : زهرة الآس ص ٣٣ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٨٦ .

(٤) مانويل جوميث : الفن الاسلامى فى اسبانيا ص ٣٣٧ ترجمة د. لطفى عبد البديع — الترجمة والنشر ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٠٣ ، اشباخ : تاريخ الأندلس جـ ٢ ص ٢٣٩ ،

على بن يوسف اهتمامه بالبناء كانشائه لمسجد تلمسان والتوسعة فى جامع القرويين [١].

حتى إذا قامت الدولة الموحدية ، شهدت البلاد اهتماماً بالغاً من خلفاء الموحدين فى الإنشاء والتعمير سواء فى المغرب أو الأندلس ، وحظيت مراكش والرباط وغيرها من المدن المغربية بكثير من المنشآت الموحدية[٢] وقد أولى الخليفة عبد المؤمن إهتمامه بالبناء والتعمير ومن ذلك إنشائه لمدينة الفتح وبجانب ذلك إنشائه لكثير من المساجد والقصور فى أنحاء مختلفة من البلاد [٣] .

واقتدى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بوالده فى الاهتمام بالبناء والتعمير وخاصة بالأندلس[٤] فلما تولى المنصور الموحدى كان مولعاً بالبناء والتعمير وشهدت البلاد فى عهده حركة كبيرة فى البناء استمرت طيلة عهده ، وفى ذلك يشير المراكشى بقوله « كان مهتما بالبناء وفى طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها[٥] » ونالت العاصمة مراكش نصيباً كبيراً من الإنشاء والتعمير فى عهد ه بجانب المدن الأخرى[٦] وقد أشار ابن أبى زرع إلى بعض هذه المنشآت بقوله « وكان — أى أبو يعقوب المنصور — لما جاز

Budgett meakins ; The moorish Empire, P ; 53-54

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٩ .

(٢) المنونى : العلوم والفنون ص ٢٤٣ .

(٣) ابن عبود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٣٣ ، عبد العزيز بنعبد الله: المعجم التاريخى ص ٧٤ ، احسان حقى : المغرب العربى ص ٦٢ ، د. السيد عبد العزيز سالم :المغرب الكبير ص ٨٣٥ ،

Budgett Meakins ; The moorish Empire, P ; 73.

(٤) الميلى : تاريخ الجزائر ج ٢ ص ٢٢٩ ، اشباخ : تاريخ الاندلس ج ٢ ص ٢٥٤ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٣٦ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٢٩٢ .

(٦) العمرى : مسالك الابصار ج ٣ ، ق ١ ص ١٣٢ ، ابن المؤقت: السعادة الأبدية ج ١ ص ١٤ .

إلى الأندلس لغزاة الأرك المذكورة أمر ببناء قصبة مراكش وبناء الجامع المكرم الذى بإزاء القصبة وصومعته ، وببناء منار الكتبيين ، وببناء مدينة رباط الفتح من أرض سلا وبينا جامع حسان ومنارته . . . »[1] وهكذا كان اهتمام ولاة الأمر من المرابطين والموحدين دافعاً قوياً فى دفع عجلة البناء والتعمير فى أرجاء البلاد .

طابع البناء : كان لموقع المغرب الأقصى والظروف التى مر بها ، دور واضح فى تأثره بالطرق المختلفة فى التشييد والبناء ، فمنذ أن صار إقليما إسلاميا وتأسست على أرضه دولة الأدارسة ، حتى أصبح مقصداً للأسرات العربية الوافدة من القيروان بالإضافة إلى الوافدين من مدن المشرق ، وقد حمل الوافدون معهم خبراتهم فى طريقة البناء ، ومن ثم ظهرت المؤثرات الشرقية فى عمليات البناء فى هذه الفترة فى بناء المساجد والحمامات وغيرها من المنشآت العامة .

حتى إذا قامت دولة المرابطين وأصبح الأندلس إقليما تابعاً للمغرب الأقصى ، شاهد أمراء المرابطين تلك المهارة الفائقة التى تميز بها عمال البناء بالأندلس ، والتى تجلت فى تلك المنشآت من قصور ومساجد وحمامات وغيرها ، ومدى ما وصلت إليه تلك المبانى من إحكام فى الصنعة ، ودقة فى التشييد ، ومن ثم قرر ولاة الأمر الاستعانة بخبراء البناء فى الأندلس ليسهموا فى حركة التعمير بالمغرب الأقصى[2] .

وقد قام يوسف بن تاشفين بإحضار المهندسين وعمال البناء من الأندلس

---

(١) ابن ابى زرع : الانيس المطرب ص ١٦٦ طبع حجر .

(٢) م. س ديماند : الفنون الاسلامية ص ١١٣ ، ١١٤ ، ترجمة احمد عيسى ، السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٤٧ ، محمد الشابى : اضواء على الآثار الاسلامية ص ٢٠ تونس سنة ١٩٦٦ ، د. زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ١٧ ، ١٨ ، ط ١ سنة ٤٨ ،

Julien ; Histoire de L'Afrique du Nord, P; 88

ليستعين بهم فى حركة البناء التى قام بها بمدينة فاس[١] ، كذلك أمير المسلمين على بن يوسف الذى استعان بخبراء الأندلس فى بناء قنطرة على وادى تنسيفت[٢] .

وجرى خلفاء الموحدين على نفس هذه السياسة وهى الاستعانة بخبرة أهل الأندلس وبرزت بعض الأسماء الأندلسية المشهورة كأحمد بن باسة الذى استعان به الموحدون فى كثير من أعمال البناء [٣] والحاج يعيش المالقى الذى اشترك فى بناء حصن جبل طارق[٤] وكان المنصور الموحدى يستخدم أسرى الأندلس فى أعمال البناء بعاصمته[٥] يقول الحميرى « ثم رجع المنصور بعد انتصاره فى الأرك — إلى أشبيلية ظافراً وأقام مدة ثم غزا بلاد الجوف فحاصر ترجالة ونزل على بلنسية ففتحها عنوة ، وقبض على قائــدها يومئذ مع مائة وخمسين من أعيان كفارها ، ووجههم إلى خدمة بنــاء الجامع الكبير مع أسارى الأرك » [٥].

وأثمرت الخبرة الأندلسية ثمرتها بأرض المغرب الأقصى ، وظهرت فى تلك المنشآت والأبنية كجامع القرويين بفاس وجامع تلمسان[٦] ثم فى جامع

---

(١) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤٠ ، عبد العزيز بنعبد الله: تاريخ المغرب جـ ١ ص ١١١ ، مانويل جوميث : الفن الاسلامى ص ٣٣٧ ترجمة د. لطفى عبد البديع .

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٤٨ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١١١ .

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٣٩ حاشية ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٧١ .

(٤) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٣٥ ،

De Gayangos ; The H.story of mohamedan, V.2 P; 315

(٦) ابن المؤقت : الانبساط بتلخيص الاغتباط ص ٦ ، ٧ مطبعة الحلبى سـنة ١٣٤٧ هـ ،

Budgett meakins ; The moorish Empire, P ; 80

(٥) الحميرى : صفة جزيرة الأندلس ص ١٣ .

(٦) م.س ديماند : الفنون الاسلامية ص ١١٤ ، مانويل جوميث : الفن الاسلامى ص ٣٤٢ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٩ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٥٢ .

الكتبية وجامع القصبة بمراكش وجامع حسان برباط الفتح وقصبتها [١].

وبمرور الزمن لم يعد المغرب الأقصى مقتصراً على استقبال عمال البناء من الأندلس ، بل صار أبناؤه بعد الاحتكاك والممارسة لأعمال البناء يشاركون فى أعمال البناء فى الأندلس فضلا عن أعمال البناء بمدن المغرب نفسها ، أى صار المغرب الأقصى مؤثراً بعد أن كان متأثراً فقط ، وقد ظهر ذلك حين عزم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن على بناء الجامع الكبير بأشبيلية إذ استعان بخبراء البناء فى مراكش وفاس وأهل العدوة بالإضافة إلى الأندلسيين فى بناء هذا الجامع الكبير[٢] يقول ابن صاحب الصلاة « وفى هذه السنة — سنة ٥٦٧هـ — فى شهر رمضان ابتدأ أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن باختطاط موضع هذا الجامع العتيق الأنيق ، فهدمت الديار داخل القصبة ، وحضر على ذلك شيخ العرفاء أحمد بن باسة وأصحابه العرفاء البناؤون من أهل أشبيلية وجميع عرفاء أهل الأندلس ومعهم عرفاء البنائين من أهل حضرة مراكش ومدينة فاس وأهل العدوة ، فاجتمع بأشبيلية منهم ومن أصناف النجارين والنشارين والفعلة لأصناف البناء أعداد من كل صنف صناع مهرة فى كل فن من الأعمال [٣]» .

وقد امتازت مبانى المرابطين بالضخامة والقوة والاتساع مع الإقلال من الزخرفة[٤] وهذا يتمشى مع المبدأ الدينى الذى نشأوا عليه مع ميلهم إلى البساطة وقد حظيت المساجد باهتمامهم ، حيث حرص أمراء المسلمين على بنائها فى أنحاء البلاد ، نشراً للدعوة الإصلاحية التى ينادون بها وقد تميزت هذه المساجد بأنها « فسيحة ضخمة الأبنية ذات رحبات فسيحة مكشوفة تحيط بها أروقة ذات عقود مستديرة بسيطة الإتساع ، كل رواق منها بلاطة واحدة

---

(١) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٣٢ ،

Nevill ; a Surver of North africa, P; 25.

(٢) د. السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ص ٥٨ سلسلة اقرأ ٩٠ سنة ٥٨ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٧٢.

(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٧٤ ، ٤٧٥ .

(٤) د. حسين مؤنس : تطور العمارة الاسلامية فى الأندلس ص ٢١٦ جامعة فؤاد سنة ١٩٥١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٩ .

تقوم على دعامات ضخمة قصيرة الجذوع والقواعد ولاتيجان لها ، وتمتاز كذلك بصحون فسيحة تقوم على عمد من نفس الطراز السالف ، ومآذنها منفصلة عنها تقوم إلى جانبها أشبه ما تكون بالمائر العالية »(١).

ومع عدم ميل المرابطين إلى الزخرفة ، إلا أنهم أباحوا ذلك فى بعض مساجدهم وذلك ما حدث فى جامع القرويين بفاس أثناء توسعته سنة ٥٣٣هـ - ١٣٨١م حيث زين محرابه وقبته بأنواع مختلفة من الزخرفة والنقش(٢) وقد وصف الجزنائى ألوان النقش والزخرفة التى صنعت بالمسجد بقوله « وأخذ فى عمل القبة التى بأعلى المحراب وما يحاذيها من وسط اللاطين المتصل بهما فعل ذلك بالجص المقربس الفاخر الصنعة والنقش فيه على المحراب ، ودائرة القبلة التى عليه ، ورقش ذلك كله بورقة الذهب واللازورد وأصناف الاصبغة وركب فى الشمامات التى بجوانب القبة أشكال متقنة من أنواع الزجاج وألوانه على أحسن ما أريد ثم أخذ فى تغشية بعض أبواب الجامع بصفائح النحاس الأصفر بالعمل المحكم والشكل المتقن (٣)» .

غير أن هذه الزخرفة وجدت إعراضاً من الخليفة عبد المؤمن فى بدء عهده اقتداء بتعاليم ابن تومرت الدينية فى البعد عن النقش والزخرفة ، ومن هنا حين دخل عبد المؤمن مدينة فاس حرص أهلها على تغطية النقوش من الزخرفة التى بجامعها خوفاً من بطش عبد المؤمن (٤) يقول الجزنائى «ويذكر أن النقش والتذهيب الذى كان بأعلى المحراب ودائر القبة التى عليها غطى ذلك بالكاغيد وعمل عليه الجص حين عزم الخليفة عبد المؤمن بن على الدخول لفاس والصلاة فى الجامع المذكور لأن ذلك كان مشغلا للمصلين(٥)» إلا أنه بعد أن استتب الأمر للخليفة عبد المؤمن أخذ بأسباب الزخرفة فى المبانى ،

---

(١) الجزنائى : زهرة الآس ص ٥٨ .
(٢) المنونى : العلوم والفنون ص ٢٦٧ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسى ج ٤ ص ٦٢١ .
Nevill Barbour ; morocco P ; 76.
Julien ; Histoire de L'afrique, P ; 120,
(٣) الجزنائى : زهرة الآس ص ٥٨ .
(٤) المتونى : العلوم والفنون ص ٢٦٧ .
(٥) د. حسين مؤنس : تطور العمارة الاسلامية ص ٢١٧ .

واتبعه ابناؤه من الخلفاء وخاصة بعد اتصالهم بالأندلس واستعانتهم بخبراء الأندلس فى البناء وصارت مبانيهم ناطقة بذوقهم فى الزخرفة التى تجمع بين رقة الأندلس مع الفخامة والقوة[١] وقد تجلى ذلك فى مسجد الكتبية بمراكش بمنارته العالية ذات الطبقات الهرمية والشرفات المتوالية[٢]

المــدن :

تأسست عدة مدن على أرض المغرب الأقصى خلال حكم المرابطين والموحدين وقامت هذه المدن بدورها الحضارى فى تقدم المنطقة ، حيث قام ولاة الأمر بانشاء العديد من المنشآت فى هذه المدن ، وقصدها الكثير من سكان البلاد ، وأقاموا بين جنباتها يمارسون نشاطهم ، مما ساهم فى دفع عجلة التقدم بالبلاد ويأتى فى مقدمة هذه المدن مدينة مراكش عاصمة المرابطين والموحدين والتى ما زالت تحتل مركزاً ممتازاً بين مدن المغرب الأقصى .

مراكش : اتخذ المرابطون ومن جاء بعدهم من الموحدين مدينة مراكش عاصمة لهم تلك المدينة التى أنشئت فى عهد المرابطين ، وقبل إنشائها أتخذ المرابطون مدينة أغمات عاصمة لهم[٣] واختلفت الدوافع فى بناء العاصمة الجديدة :

١ — فبعض المراجع تشير إلى ازدحام مدينة أغمات بقبائل المرابطين القادمين من الجنوب مما جعل أهلها يشتكون لأبى بكر بن عمر الذى أخذ يبحث عن مدينة جديدة تضم الوافدين الجدد[٤] وقد نجحت تلك المساعى فى اختيار المكان الحالى بمدينة مراكش ووضع أساس المدينة[٥] .

٢ — وبعض المراجع يشير إلى أن الهدف من بنائها كان هدفاً استراتيجياً

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٤٢ .

(٢) د. حسين مؤنس : تطور العمارة الاسلامية ص ٢١٧ .

(٣) ابن سعيد : بسط الأرض ص ٥٩ ، العمرى : مسالك الابصار ج ٣ قسم أول ص ١٤١ ، رابح بونار : المغرب العربى ص ٢٣٨ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩ ، اشباخ : تاريخ الأندلس ج ١ ص ٧٠ ، لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٥ ، ٦ ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٩ بيروت .

عسكرياً إذ أن موقعها كان فى مفترق طرق الأطلس والصحراء فهى قريبة من مواطن المصامدة الذين يشكلون غالبية السكان وفى نفس الوقت أكثرهم قوة ومن هنا كان اختيار العاصمة بجوار ديارهم لمراقبة تحركاتهم وقمعها قبل استفحالها ، وبجانب ذلك فهى قريبة من صحراء المرابطين ومواطن لمتونة حيث الامدادات العسكرية تصلها فى سهولة ويسر وفى وقت قصير[١] يشير إلى ذلك المراكشى بقوله « ولم تتخذ لمتونة ، المصامدة — أى المرابطين والموحدين مدينة مراكش وطناً ولا جعلوها دار مملكة لأنها خير من مدينة فاس فى شىء من الأشياء ، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة ، فلهذا السبب كانت مراكش كرسى المملكة »[٢] .

٣ — وبعض المراجع يشير إلى أن الدوافع وراء اختيار العاصمة الجديدة هو ازدياد نفوذ يوسف بن تاشفين وذيوع صيته وكثرة جنده وحاشيته مما استلزم معه اتخاذ عاصمة جديدة تتناسب مع قوة الدولة النامية[٣] .

وهذه الأهداف المختلفة يمكن أن تتجمع وتصب فى وعاء واحد هو حاجة المرابطين لمدينة جديدة ، فازدحام مدينة أغمات بالسكان مع حرصهم على مراقبة قبائل المصامدة يضاف إلى ذلك ازدياد نفوذ يوسف بن تاشفين مما جعلهم يبحثون عن عاصمة جديدة لهم .

وتختلف المراجع فى تحديد السنة التى بدأ المرابطون فيها تأسيس عاصمتهم فلسان الدين بن الخطيب يحدد تاريخ بنائها بسنة ٤٠٢هـ[٤] بينما ابن عذارى يحدد تاريخ البناء بسنة ٤٦١هـ / ١٠٦٩م[٥] أما صاحب كتاب الاستبصار

---

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ ، النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٩ ابن خلدون ، العبر جـ ٦ ص ٢٢٥ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٠٢ ، الجزنائى : زهرة الآس ص ٣٠ ، عباس المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ٦٣ ، Nevill Barbour ; morocco, P ; 51

(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٥٨ .

(٣) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣٩ ت الفيلالى ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ١ ص ١٣ ، ابن سعيد : نزهة الانظار ، جـ ١ ص ١٧٥ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٤ .

(٤) لسان الدين بن الخطيب : الحلل الموشية ص ٦ .

(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٩ بيروت .

فيشير إلى أن تاريخ تأسيسها كان فى سنة ٤٥٩هـ / ١٠٦٧م[١] بينما ابن أبى زرع وابن خلدون وغيرهما من المؤرخين يشيرون إلى أن بناءها تم فى سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م[٢] وبمناقشة التواريخ المختلفة نجد أن سنة ٤٠٢هـ لم تكن قد تأسست بعد قوة المرابطين فى صحراء لمتونة فضلا عن تولى أبى بكر بن عمر إمارة المرابطين فقد تولاها سنة ٤٤٨هـ / ١٠٥٦م ، أما تاريخ سنة ٤٦١هـ - ١٠٦٩م والذى أشار إليه بن عذارى حيث ذكر أن أشياخ وريكة وهيلانة اشتكوا لأبى بكر بن عمر ازدحام المدينة[٣] ففى هذه الفترة كان أبو بكر قد ترك المغرب الأقصى متجهاً إلى الجنوب للإصلاح بين القبائل المتنازعة ، وفى رواية أخرى أنه توجه لجهاد الكفار فى إقليم السودان ، وقد سبق الإشارة إلى ذلك ؛ وتبقى بعد ذلك رواية صاحب كتاب الاستبصار وهى سنة ٤٥٩هـ - ١٠٦٧ م والتى انفرد بها [٤] ومعها رواية مجموعة من المؤرخين وهى سنة ٤٥٤هـ .

وأعتقد أن تاريخ سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م هو الأرجح لاتفاقه مع سير الأحداث ، فأبو بكر بن عمر حين اتجه إلى الصحراء كان ذلك فى سنة٤٥٢هـ - ١٠٦٠م[٥] ، ويبدو أن شكوى أغمات بدأت قبيل هذا التاريخ مما استلزم معه البحث عن مكان ، وما إن شرع فى التخطيط له حتى جاء للأمير أبى بكر شكوى أهل الصحراء ، ومن هنا ترك يوسف بن تاشفين مكانه وطلب منه مواصلة المشروع يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى بقوله « لما توجه الأمير أبو بكر بن عمر إلى الصحراء ولاه مكانه ، وترك معه الثلث من لمتونة اخوانه فاشتغل ببناء مراكش وتحصينها . . . وكان يكاتب الأمير أبا بكر بكل مايصنع

---

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٨ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٣٩ ت الفيلالى ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٨٤ ، ابن الخطيب ، أعمال الاعلام ، القسم الثالث ص ٢٣٤، ٢٣٥ ت العبادى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٩ بيروت .

(٤) د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٠٢ .

(٥) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٣١ ت العبادى .

فيشكر»(١) إذن محاولات البحث والتخطيط كانت سنة ٤٥٢هـ / ١٠٦٠م سنة انتقال أبي بكر إلى الصحراء ، ثم بدأ تنفيذ المشروع سنة ٤٥٤ / ١٠٦٢م ، وهي السنة التي أشار إليها ابن أبي زرع وابن خلدون وغيرهما إلى أن تأسيس المدينة كان سنة ٤٥٤هـ / ١٠٦٢م .

— أما اسم المدينة وهو لفظة مراكش فقد عللها السلاوى وابن عبود بأن معناها في لغة المصامدة : امش مسرعاً حيث أن المكان الذى أنشئت فيه كان مكمناً للصوص فكان المارة يقولون لرفقائهم تلك العبارة فعرف الموضع بها(٢) أما المراكشي فقد أشار إلى أن مراكش هي اسم لعبد أسود كان يقيم في المنطقة ويقطع الطريق على المارة(٣) .

وقد بدأ البناء بالمدينة متواضعاً وشارك في أعمال البناء يوسف بن تاشفين يقول ابن أبي زرع والسلاوى « فسكن — أى يوسف بن تاشفين — الموضع بخيام الشعر وبنى فيه مسجداً للصلاة ، وقصبة صغيرة لاختزان أمواله وسلاحه ولم يبن على ذلك سوراً ، وكان رحمه الله لما شرع في بناء المسجد يحتزم ويعمل في الطين والبناء بيده مع الخدمة تواضعاً منه »(٤) وربما كانت مشاركة يوسف في أعمال البناء تشجيعاً لمن حوله على المساهمة في ذلك وبذلك تتأسس المدينة في وقت قصير ، فلما تولى أمير المسلمين على بن يوسف بنى فيها قصره المعروف بدار الحجر وأدار عليه الأسوار(٥) .

حتى إذا قامت دولة الموحدين ، شهدت العاصمة ازدهاراً وتقدماً في ظل خلفاء الموحدين الذين اهتموا بها اهتماماً كبيراً ، وذلك ببناء الكثير من المنشآت بها ، وقصدها الناس من كل مكان ، وذلك ليعيشوا في العاصمة ينعمون بما

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٢١ ، ٢٢ بيروت .

(٢) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٤ ، ابن عبود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٤ .

(٣) المراكشي : المعجب ص ١٠٠ .

(٤) ابن ابى زرع : الأنيس ج ٢ ص ٤٠ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٥ .

(٥) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٧ ، ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٧٥ ، مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ١٨٤ ، د. احمد شلبى : التاريخ الاسلامى ج ٤ ص ١٨٢ .

تنعم به العاصمة من ازدهار وتقدم حتى اكتظت العاصمة بسكانها مما دفع الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى انشاء مدينة أخرى تكون امتداداً للعاصمة مراكش[١] وفى ذلك يقول ابن عذارى « وفى سنة تسع وسبعين وخمسمائة أمر الخليفة أبو يعقوب رحمه الله بتوسعة مدينة مراكش وهدم سورها الأول وأقاموا سورا آخر ، وذلك لما دانت لأمير المؤمنين المغرب والأندلس وإفريقية انجلى الناس إلى مراكش من كل مكان وتفاخروا فى سكناها بحسب القدرة منهم والإمكان . . فضاقت بالناس فلم يجدوا موضعاً للبناء ولا محلا للسكنى ، وكان الأمير أبو يعقوب أمر القبائل هسكورة وصنهاجة أن يرتحلوا من بلادهم إلى سكناها بأهليهم وبنيهم فامتثلوا ذلك ووصلوا ولم يجدوا حيث ينزلون فشكوا ضيقهم وحيرتهم »[٢] ومن هنا اضطر الخليفة يوسف بن عبدالمؤمن إلى تكليف ابنه المنصور بالإشراف على هذا المشروع[٣] فلما توفى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وتولى خلفا له المنصور الموحدى سنة ٥٨٠هـ/١١٨٤م واصل مشروعه فى البناء وحشد له الخبراء والصناع والآلات وأمرهم ببذل كل جهد وفن فى سبيل اتقان بنائها وسماها الصالحة[٤] وضمت العديد من القصور والأسواق والفنادق[٥] .

وهكذا شهدت عاصمة المرابطين والتى بناها يوسف بن تاشفين تطوراً ضخماً منذ إنشائها حتى عهد الناصر الموحدى ، إذ صارت كعبة للناس من كل مكان تزخر بالمنشآت والمبانى المختلفة حافلة بمختلف أنواع النشاط مما دفع صاحب كتاب الاستبصار إلى وصفها بقوله « ومدينة مراكش اليوم من أعظم مدن الدنيا بهجة وجمالا بما زاد فيها الخليفة الامام وخليفته أمير المؤمنين أبو يعقوب وخليفتهما أبو يوسف رضى الله عنهم »[٦] .

---

(١) Terrasse ; Histore du m.roc, p : 333-334.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٥٠ ، ٥١ تطوان .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٥١ تطوان .

(٤) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٨٢ .

(٥) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ .

(٦) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ .

مدينة تاقررت أو تامسان الحديثة : وقد أنشأها الملثمون ، لتكون مقراً للادارة العسكرية للمنطقة وليشرفوا منها على ما حولها من المناطق(١) وقد وصفها ياقوت بقوله « تلمسان بكسرتين وسكون الميم وسين مهملة وبعضهم يقول تنمسان بالنون عوض اللام وهما مدينتان متجاورتان مسورتان بينهما رمية حجر إحداهما قديمة والأخرى حديثة والحديثة اختطها الملثمون ملوك المغرب واسمها تاقررت فيها يسكن الجند وأصحاب السلطان وأصناف من الناس واسم القديمة أقادير يسكنها الرعية فهما كالفسطاط والقاهرة من أرض مصر » (٢).

مدينة تاودا : وقد أنشأها الملثمون لتكون قاعدة يراقبون منها قبائل غمارة وكان يقيم فيها الحاكم العسكرى للمنطقة ومعه جنوده ، وقد حفلت بالمبانى والقصور(٣) وقد وصفها الادريسي بقوله : « والطريق من مدينة فاس إلى بنى تاودا مرحلتان وهذه المدينة بناها أمير من قبل الملثم ، وكانت مدينة قائمة بذاتها لكثرة زرعها ومفيد غلاتها وغزر ألبانها وسمنها وعسلها وأسواقها عامرة وخيراتها وافرة ، وكانت على مقربة من جبل غمارة ، وكانت بمكانها شبه الثغر سداً مانعاً من طغاة غمارة العابثين بتلك النواحى المغيرين على جوانبها »(٤)

مدينة القصر : وقد بناها أحد أمراء الملثمين لتكون مقراً له وبنى فيها قصراً لسكناه وأسرته ولم تكن مزدهرة كغيرها من المدن(٥) وقد وصفها الادريسى بقوله « وهذه المدينة — أى مدينة القصر — بناها أمير من أمراء الملثمين وجعل لها سوراً حصيناً وبنى بها قصراً حسناً ، ولم تكن بها أسواق كثيرة ولا طائل تجارات وإنما كان ذلك الأمير يسكنها مع جلة بنى عمه . . »(٦)

---

(١) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١٠٤ ،
Terrasse; Histoire du maroc, p; 256
Murphy; The History of the mahometan, p : 125

(٢) ياقوت : معجم البلدان ج ١ ص ٨٧٠ .

(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٩٠ .

(٤) الادريسى : وصف المغرب والاندلس ص ٨١ .

(٥) ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٧ .

(٦) الادريسى : وصف المغرب ص ٧٧ ، ٧٨ .

رباط الفتح : اهتم خلفاء الموحدين بالبناء والتعمير ، وكما نجح المرابطون فى تخليد ذكراهم ببناء العاصمة مراكش التى ما زالت تؤدى دورها الحضارى بالمغرب الأقصى ، فإن الموحدين بنوا مدينة رباط الفتح ، والتى أصبحت الآن عاصمة المغرب الأقصى .

وتقع مدينة رباط الفتح بالقرب من مدينة سلا ، وقد سميت فى بادىء الأمر بالمهدية تيمنا باسم المهدى ابن تومرت ، واتخذها عبد المؤمن فى بادىء الأمر كقاعدة عسكرية لتجهيز جنوده[1] ، ثم شيد بها بعض المنشآت وسكنها الناس سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م[2] .

وهكذا بدأت المدينة كمعسكر لاستقبال جند الخليفة عبد المؤمن ، ثم أمر الخليفة بتطويرها ومدها بالمياه ، وإقامة الأسوار ، ومن ثم بدأت القصبة تستقبل أفواجاً من الناس ، وتصبح نواة لمدينة كبيرة ، حتى إذا تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، اهتم بتوسيعها والزيادة فيها ، حيث بدأ ببناء أسوارها من جهة الشمال والغرب[3] غير أن المنية عاجلته وتولى خلفاً له المنصور الموحدى الذى أقام فيها عدة منشآت ، وشهدت المدينة على يديه تقدماً وازدهاراً[4] يقول المراكشى « وأما المدينة — أى رباط الفتح — فتمت فى حياة أبى يوسف ، وكملت أسوارها وأبوابها وعمر كثير منها ، وهى مدينة كبيرة جداً تجىء فى طولها نحواً من فرسخ وهى قليلة العرض ، ثم خرج بعد أن رتب أشغال هذه المدينة ، وجعل عليها من أمناء المصامدة من ينظر فى أمر نفقاتها وما يصلحها فلم يزل العمل فيها وفى مسجدها المذكور مدة ولايته إلى سنة ٥٩٤هـ »[5].

---

(١) ياقوت : معجم البلدان جـ ٣ ص ١٠٩ .
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٤٤٩ .
(٤) مجهول : الاستبصار ص ١٨٦ ، ١٨٧ ، المراكشى : المعجب ص ٣٥٩ ، ابن المؤقت : الانبساط بتلخيص الاغتباط ص ٦ ، ابن القنفذ: الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ص ١٠٣ ، مجهول : تواريخ مدينة فاس ص ٤٤ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٤٥ .
Terrasse : Histoire du Maroc, P; 333-334,
Budgett ; The Land of the Moors, P; 167.
(٥) المراكشى : المعجب ص ٢٢٦ .

وقد جاء بناء المدينة مشابهاً لمدينة الاسكندرية من حيث اتساع الشوارع وحسن التقسيم ، واتساع البناء وتحسينه وتحصينه وبناها على البحر المحيط[١].

وقد احتلت مدينة رباط الفتح مكانة طيبة من نفس المنصور الموحدى ، حتى أنه عزم على الانتقال إليها وجعلها عاصمة البلاد إلا أن المنية عاجلته [٧] يقول ابن عذارى « ثم تمكنت صحته — أى صحة المنصور الموحدى — واستقامت راحته فتروح إلى رباط الفتح فاغتبط بسكناه وعزم على الانتقال الكلى إليه»[٣] وقد أنفق المنصور الموحدى أموالا طائلة فى توسيع مدينة رباط الفتح وإقامة منشآتها [٤].

نظام المدن :

وجه ولاة الأمر من المرابطين والموحدين عنايتهم واهتمامهم تجاه المدن المغربية حتى تيسر سبل الحياة ومتطلباتها لسكان هذه المدن ، وفى مقدمة ما اهتم به ولاة الأمر ، توفير المياه اللازمة ليشرب منها الناس والدواب واستخدامها فى مصالحهم الأخرى ، وفى مقدمة هذه المدن العاصمة مراكش حيث حفرت فيها الآبار ليشرب منها الناس ، وذلك فى بدء بنائها ؛ يقول ابن أبى زرع « ولم يكن بها ماء فحفر الناس بها آباراً فخرج لهم الماء على قرب فاستوطنها الناس»[٥]. ثم وفد على المدينة عبد الله بن يونس — ولم تشر المراجع إلى جنسيته — والذى استطاع بمهارته أن يوفر الماء لسقى البساتين التى انتشرت بسبب الطريقة التى ابتكرها[٦] وقد أشار الادريسى إلى هذه الطريقة بقوله «وماؤها — أى ماء مدينة مراكش — الذى تسقى به البساتين مستخرج بصنعة

---

(١) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٨٤ . ابن سعيد المغربى: بسط الأرض ص ٧٢ .

(٢) ابن سعيد : بسط الأرض ص ٧٢ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٥٢ تطوان .

(٤) ابن ابى زرع : الأنيس ص ١٦٧ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٠٦ .

(٥) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٤٠ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٥ .

(٦) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٢ .
Nelviell Barbour : Morocco, P: 51.

هندسية حسنة استخرج ذلك عبد الله بن يونس . . وذلك أن هذا الرجل المذكور وهو عبيد الله بن يونس جاء إلى مراكش فى صدر بنائها وليس بها إلا بستان واحد لأبى الفضل مولى أمير المسلمين . . فقصد إلى أعلى الأرض مما يلى البستان فاحتفر فيه بئراً مربعة كبيرة التربيع . ثم احتفر منها ساقية متصلة الحفر على وجه الأرض ومر يحفر بتدريج من أرفع إلى أخفض متدرجاً إلى أسفله بميزان حتى وصل الماء إلى البستان وهو منسكب مع وجه الأرض يصب فيه فهو جار مع الأيام لا يتغير . . »[١] ثم قام السكان وصنعوا مثله فى استخراج المياه حتى كثرت البساتين والجنات[٢] .

وقد بدأ فى عهد أمير المسلمين على بن يوسف جلب الماء إليها من عين خارج المدينة تبعد عنها عدة أميال ولكن المشروع لم يتم إلا فى عهد الموحدين [٣]

حتى إذا تولى الموحدون اهتموا بتوفير الماء بالعاصمة حيث بنى الخليفة عبد المؤمن صهريجين كبيرين لتجميع المياه ومنهما توزع المياه على المدينة[٤] فلما تولى الخليفة المنصور الموحدى أنشأ سقاية كبيرة وذلك فى سنة ٥٨٥هـ - ١١٨٩م[٥] يصفها صاحب كتاب الاستبصار بقوله « ومما شرفنا به سيدنا ومولانا أمير المؤمنين أبو يوسف حضرته المكرمة أن أرسل فى وسط المدينة ساقية ظاهرة ماؤها ، ماء قصره المكرم ، تشق المدينة من القبلة إلى الجوف وعليها السقايات لسقى الخيل والدواب واستقاء الناس » [٦] .

وهكذا شهدت العاصمة اهتماماً كبيراً من حيث توفير المياه ، وذلك مما ساعد على استقرار الحياة بها وازدهارها .

---

(١) الادريسي : وصف المغرب والاندلس ص ٦٧ ، ٦٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٦٨ .

(٣) الادريسي : وصف المغرب ص ٦٨ ، ٦٩ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٣ ، عباس المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ٦٨ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤١ .

(٤) مجهول :الاستبصار ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٥) ابن ابى زرع : الأنيس ص ٢١٨ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٨١ .

(٦) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ .

وتمتعت باقى المدن المغربية بوفرة الماء بها فمدينة فاس كانت تتمتع بموقع ممتاز حيث كان يشقها نهر فاس إلى مدينتين صغيرتين : عدوة القرويين وعدوة الأندلسيين ، وكان الماء بكثرة فى عدوة القرويين مما جعل المياه متوفرة فى منازل عدوة القرويين[١] وقد حظيت فاس باهتمام الناصر الموحدى حيث أمر سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م بعمل سقاية بعدوة الأندلس وجلب إليها الماء من عين خارج المدينة[٢] .

وأما مدينة سلا فقد اهتم الخليفة عبد المؤمن بادخال الماء إليها عن طريق القنوات المتصلة بإحدى العيون المائية وذلك سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م حتى يوفر مياه الشرب للناس والحيوانات وسقى الأرض[٣] إلا أن الاهمال أصاب مشروع المياه وقد ظهر ذلك واضحاً حين زار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن مدينة سلا سنة ٥٦٦هـ / ١١٧٠م إذ رأى الماء فسد جريه ، وأسن ماؤه وانتشر فى البطاح ومن هنا أمر بتجديد المشروع وأضاف إليه صهريجاً يتجمع فيه الماء ومنه يأخذ الناس مياه الشرب لهم ولدوابهم[٤].

أما مدينة مكناسة فان الموحدين قد جلبوا لها الماء من عين خارجها يقول ابن غازى « وجلب إليها — أى إلى مدينة مكناسة — الماء على ستة أميال من عين طيبة الماء عجيبة القدر بموضع يقال لها تاجما وأجرى الماء إلى الباب الجوفى من أبواب الخادم وسمى باب الحماوة »[٥] وهكذا بذل ولاة الأمر جهدهم فى سبيل توفير المياه فى العديد من المدن المغربية .

ومما يتصل بنظام المدن ، تلك الطرق التى كانت تشق أحياءها وقد أقيمت على جوانبها المنازل والحوانيت ، وكانت هذه الطرق ملتوية ومتعرجة

---

(١) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٦ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٢ الادريسى : وصف المغرب ص ٧٥ .
(٢) الجزنائى : زهرة الآس ص ٨٢ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٧٢ ، ابن أبى زرع : الأنيس ص ١٦٩ طبع حجر .
(٣) البيذق : اخبار المهدى ص ١١٣ ، ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٨٨ السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١١٩ .
(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٩ .
(٥) ابن غازى : الروض الهتون ص ٢ .

بفاس(١) ، أما مدينة مراكش فقد حرص ولاة الأمر على جعل طرقها واسعة يقول الإدريسى « وكان بها — أى مدينة مراكش — أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة وأزقتها واسعة ورحابها فسيحة»(٢) وهذا الاتساع فى الطرقات كى يتناسب مع مركز مراكش كعاصمة للبلاد حيث الاستقبالات والمواكب وغير ذلك مما يقتضى معه اتساع الطرقات . كذلك مدينة رباط الفتح والتى حاول المنصور جعل تنظيمها على نمط مدينة الاسكندرية إذ حرص على جعل طرقاتها واسعة مستقيمة (٣).

وكذلك مما يتصل بنظام المدن تلك الأبواب التى أنشئت فى الأسواق المحيطة بالمدن ، إذ تعددت هذه الأبواب ، وقد ذكر القلقشندى أن عدد أبواب فاس القديمة أى فى عهد المرابطين والموحدين ، والجديدة فى عهد بنى مرين بلغت ثلاثة عشر باباً(٤) وقد أنشئت بعض الأبواب فى عهد المرابطين والموحدين ومن ذلك باب الشماعين بمدينة فاس سنة ٥١٨هـ / ١١٢٤م(٥) وأيضاً الباب الذى أنشأه المنصور الموحدى باب اكناور بمدينة مراكش(٦) وكانت هذه الأبواب تغلق ليلا ومن هذه الأبواب أبواب مدينة مراكش(٧) وأبواب تلمسان(٨) وأبواب سجلماسة(٩) وغير ذلك من أبواب المدن .

المنازل والقصور :

شهدت المدن المغربية توسعاً فى بناء المنازل والقصور . وذلك منذ أن تأسست دولة المرابطين ، وكان ذلك نتيجة طبيعية للاستقرار السياسى الذى شهدته البلاد وما صحبه من ازدهار اقتصادى مما دفع الكثير إلى استيطان المدن ،

---

(١) روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٤٧ .
(٢) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٨ .
(٣) Budgett makins ; The moorish, P; 81.
(٤) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٥٦ .
(٥) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ٩٥ .
(٦) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٩٤ .
(٧) التادلى : التشوف ص ٣٠٠ .
(٨) المراكشى : المعجب ص ١٨٣ .
(٩) التادلى : التشوف ص ١٦١ ، ١٦٢ .

وهذا أدى بدوره إلى كثرة المنازل ، يضاف إلى ذلك تشجيع ولاة الأمر من المرابطين والموحدين على بناء القصور التى زخرت بها المدن المغربية . فالعاصمة مراكش زخرت بقصور الأمراء والقادة وكبار رجال الدولة[1] يقول الادريسى « ومدينة مراكش فى هذا الوقت من أكبر مدن المغرب الأقصى لأنها كانت دار إمارة لمتونة ومدار ملكهم وسلك جمعهم . وكان بها أعداد قصور لكثير من الأمراء والقواد وخدام الدولة »[2] ومن هذه القصور ، قصر الحجر الذى بناه أمير المسلمين على بن يوسف[3] .

حتى إذا سقطت دولة المرابطين ، وقامت على أنقاضها دولة الموحدين ، حظيت العاصمة مراكش باهتمام خلفاء الموحدين فى بناء القصور ، فالخليفة عبد المؤمن شيد الكثير من القصور[4] يقول المراكشى « وأقام عبد المؤمن رحمه الله بمراكش مرتباً للأمور المختصة بالمملكة من بناء دور واتخاذ قصور واعداد سلاح . . »[5] .

فلما تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، وازدهرت البلاد اقتصادياً وكثر المال بأيدى الناس ، أقبل الناس على بناء المنازل والقصور يقول ابن صاحب الصلاة « واغتبط العالم به - أى بتجديد مبايعة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — وببيعته ، وكثر المال فى الأيدى من توالى سمحه وبركته وابتنوا بمراكش الديار العتيقة واغترسوا خارجها ، أينع حديقة . . »[6] وقد ابتنى

---

(١) ابن سعيد : نزهة الانظار ج ١ ص ١٣ ، عباس المراكشى : الأعلام ج ١ ص ٩٨ .
S P Scott : History of moorish Empire, V 2. p;195

(٢) الادريسى : وصف المغرب والأندلس ص ٦٨ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٦٧ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١١ .

(٤) العمرى : مسالك الابصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٢٦٩ ، حركات: المغرب عبر التاريخ ص ٣٧١ .
S.p.Scott History of moorish p; 298.

(٥) المراكشى : المعجب ص ٢٠٧ .

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٤٧ .

الخليفة يوسف بن عبد المؤمن القصور على الطريق من مراكش العاصمة حتى مدينة سلا قاعدة الجيوش الموحدية المتجهة إلى الأندلس (١).

ثم تابع الخليفة الموحدى سياسة والده فى الإنشاء والتعمير ، وقد سبق أن أشرت إلى أن الخليفة المنصور بنى ضاحية امتداداً لمدينة مراكش وبها عدة قصور ومنشآت أخرى وذلك لتتناسب مع عظمة الدولة واتساعها مع حبه للبناء ذلك الحب الذى وصفه المراكشى بقوله « فإنه - أى المنصور الموحدى — كان مهتماً بالبناء وفى طول أيامه لم يخل من قصر يستجده أو مدينة يعمرها ، زاد فى مدينة مراكش فى أيامه زيادة كثيرة يطول تفصيلها »(٢).

وشاركت مدينة فاس أختها مراكش فى كثرة بناء المنازل والقصور(٣) يقول الادريسى « وبمدينة فاس ضياع ومعايش ومبان سامية ودور وقصور ولأهلها اهتمام بحوائجهم ومبانيهم وجميع آلاتهم»(٤) .

وقد اختلفت طرق البناء من مدينة إلى أخرى وذلك بحسب الامكانيات والظروف الطبيعية المحيطة بالمدن ، فمدينة مراكش كانت منازلها فى بادئ الأمر مبنية من الطين والطوب المصنوع من التراب(٥) فلما أراد أمير المسلمين على بن يوسف بناء قصره استخدم الحجر المجلوب من جبل ايجليز القريب من مراكش(٦) أما مدينة فاس فقد استخدم أهلها الحجر والآجر والكلس فى أبنيتهم مع أسقف خشبية لمنازلهم(٧) .

وكان الطابع العام فى تنظيم البيت : باب يؤدى إلى دهليز يتناسب مع حجم البيت ومن الدهليز إلى صحن البيت حوله الغرف ، وقد تكون الدار أرضية أو ذات طابقين ؛ وإذا كانت دار كبيرة فقد يكون لها أمام الغرف أروقة

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٤ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٩٢ .
(٣) ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٦ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٢ .
(٤) الادريسى : وصف المغرب والاندلس ص ٧٦ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٦٧ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ٦٧ .
(٧) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٥٥ .

تدفع عنها حر الشمس ومطر الشتاء ، وإذا توفرت المياه بالمدينة وذلك مثل مدينة فاس ، فإن الناس يصنعون فوارة فى صحن الدار[١] .

وقد تكون طريقة البناء مشابهة لمبانى إحدى المدن الشرقية كتشابه أبنية سجلماسة بمساكن الكوفة ، يقول ابن حوقل « وأبنيتها - أى سجلماسة - كأبنية الكوفة إلى أبواب رفيعة على قصورها مشيدة عالية »[٢] وهذا يرجع إلى وجود كثير من التجار الوافدين من الكوفة وغيرها من مدن المشرق وإقامتهم بسجلماسة للاشراف على تجارتهم مع غانة وغيرها ومن هنا نقلوا معهم نظامهم فى البناء .

وكانت بعض المنازل تؤجر لمن لا يملك منزلا خاصاً به ، فأبو عبد الله محمد بن اسماعيل الهوارى من أهل أغمات وريكة وقد توفى سنة ٥٨١هـ - ١١٨٥م بمراكش كان يؤجر منزلا بأغمات [٣].

أما القصور فقد امتازت بالسعة والضخامة واشتمالها على كل ما يحتاجه صاحب القصر يقول المنونى « ويكفى أن كل قصر من قصورها — أى قصور مراكش — مستقل بالديار والبساتين والحمام والاصطبلات والمياه وغير ذلك . حتى يغلق الرئيس منهم بابه على جميع خوله وأقاربه وما يحتاج له أمر إلى خارج داره ولا يشترى شيئاً من السوق لمأكل ولايقرىء أولاده فى مكتب خارج »[٤]

أما القصور التى بناها المنصور الموحدى ، فكانت مزودة بكل ما يلزمها «ذات أسوار عالية وبها مقر الخلافة بالإضافة إلى عدة ديار منها دار البلور ودار الريحان فكل دار محاطة بالبساتين ، وأمام الخلافة والديار رحبة عظيمة تحمل طراد الخيل ، وفى رحبة القصر دار الكرمة والأضياف ، وفى هذه الرحبة المدرسة وهى مكان جليل به خزائن الكتب ، ومنها دار مخصصة للوزارة

---

(١) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٣ ، احسان حقى : المغرب العربى ص ٢٦٣ ، روجيه : فاس فى عصر بنى مرين ص ٩٤ .

(٢) ابن حوقل : صورة الأرض ص ٩٠ .

(٣) التادلى : التشوف ص ٢٦٠ ، ٢٦١ .

(٤) المنونى : العلوم والآداب ص ٢٤٩ .

وفى ناحية من الضاحية المنشأة مقابر أكابر رجال الدولة ، كذلك كانت الرحبة بها أبواب تؤدى إلى عدة قاعات لرجال الدولة من أصحاب المهدى بن تومرت وأهل خمسين والطلبة ، وكذلك قاعات لاجتماعات القبائل على اختلافها »[١].

وهكذا شهدت العاصمة وغيرها من مدن المغرب توسعاً فى بناء الدور والقصور نتيجة للازدهار الاقتصادى وتشجيع ولاة الأمر للبناء .

منشآت عسكرية :

الحصـــون والقـــلاع :

أقام المرابطون والموحدون على أرض المغرب الأقصى سلسلة من القلاع والحصون وذلك لاحكام سيطرتهم على مناطق المغرب الأقصى ، ومراقبة القبائل خشية عصيانها وتمردها ، وانتشرت هذه القلاع والحصون من مراكش فى الجنوب حتى مدينة فاس فى الشمال ومن تلمسان فى الشرق إلى طنجة فى الغرب[٢] .

وقد حرص المرابطون منذ أن سيطروا على المغرب الأقصى على إقامة هذه الحصون فى أماكن متفرقة من البلاد وخاصة فوق جبل درن وذلك لمراقبة المصامدة الكثرة الغالبة من سكانه[٣] ولذا بلغ عدد الحصون والقلاع فوقه ما يزيد على سبعين حصناً[٤] يضاف إلى ذلك مراقبة بقية القبائل التى كانت تعيش على أرض المغرب الأقصى كقبائل زناتة وقبائل برغواطة ، وبجانب ذلك فإن انشغال المرابطين بمعارك الأندلس ، استلزم معه تأمين ظهرهم بسلسلة من الحصون تأخذ على عاتقها مهمة مراقبة السكان فى غياب

---

(١) نفس المرجع السـابق ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ ، حـركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٧١ .

(٢) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٢٢٨ .

(٣) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، عباس المراكشى ، الاعلام جـ ١ ص ١٥٣ .

(٤) ابن سـعيد : نزهة الانظـار جـ ١ ص ١١ ، الادريسى : وصف المغرب ص ٦٤ .

الجيوش المرابطية المحاربة فى ميدان الأندلس[١] .

وقد زادت حاجة المرابطين لهذه الحصون والقلاع حين اندلعت ثورة المهدى بن تومرت وتحركت قوات الموحدين للاستيلاء على مناطق المغرب الأقصى ، ومن هنا زاد أمير المسلمين على بن يوسف هذه الحصون والقلاع وشحنها بالمقاتلين لمراقبة تحركات الموحدين يقول البيذق « أخذ المجسمون — أى المرابطين — الحصون وبنوها فى مواضع دارت بها الجبال من جميع الجهات لكى ينتصروا بها على الموحدين أعزهم الله . . » [٢].

وكانت هذه الحصون تشيد من الحجارة والطوب ذات جدران سميكة وتتخللها أبراج نصف دائرية للمراقبة[٣] وكان يقيم بهذه الحصون قوة عسكرية ومعها المؤن والعتاد ، ومن أشهر هذه الحصون : حصن امرجوا وهو على جبل مرتفع يشرف على وادى ورغة وهو مبنى بالحجارة والجير[٤] وقلعة تاسغيموت التى بناها ميمون بن ياسين وكانت بها قوة تقدر بمائتى فارس وخمسمائة من المشاة وهى على ثلاث كيلو مترات جنوب شرق مراكش[٥] وغير ذلك من القلاع والحصون .

فلما نادى ابن تومرت بدعوته لم يجد مكاناً آمناً سوى إحدى الحصون الطبيعية وهو تينملل الذى وجد فيه ابن تومرت موطناً حصيناً ، وموقعاً ممتازاً لينشر منه دعوته وتنطلق منه قواته دون أن يتمكن المرابطون من الوصول إليه وقد وصف ابن الخطيب مدى حصانته بقوله « ولا يعلم مدينة أحصن من تينمال لا يدخلها الفارس إلا من شرقها أو من غربها ، فأما غربها وهو

---

(١) . حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٩٨ .

(٢) البيذق : أخبار المهدى ص ١٢٨ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤٤ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٥٣ .

(٤) مجهول : الاستبصار ص ١٩٠ ، د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٧٦٤ ، عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١ .

(٥) البيذق : أخبار المهدى ص ١٢٨ ، د. السيد عبد العزيز سالم: المغرب الكبير ص ٧٦٥ .

الطريق إليها من مراكش بطريق أوسع ما فيه أن يمشي عليه الفارس وحده موسعاً ، وأضيقه أن ينزل من على فرسه خوفاً من سقوطه وذلك شرقيها إلا أن الطريق مصنوعة فى نفس الجبل ، تحت راكبها حافات وفوقه حافات وفيها مواضع مصنوعة بالخشب إذا أزيلت منها خشبة لم يمر عليها أحد ومسافتها على هذه الصفة نحو مسيرة يوم »[1] ثم زاد ابن تومرت فى تحصينه[2] .

واتخذ الحصن عاصمة للدولة حتى سقوط مراكش ، وصار مكاناً مقدساً حيث دفن فيه المهدى والخليفة عبد المؤمن وابناؤه وهكذا لعب حصن تينملل دوراً بارزاً فى استمرار دعوة الموحدين وبقائها .

وبنى الموحدون عدة حصون ولكنها لم تكن بالكثرة التى شيدها المرابطون وذلك لانضمام المصامدة وكانوا يشكلون غالبية السكان فى المنطقة إلى الدعوة الموحدية فى بدء عهدها ، ومن الحصون التى شيدها الموحدون ، قصبة المهدى التى بناها عبد المؤمن سنة ٥٤٥هـ / ١١٥٠م عند مصب وادى أبى الرقراق [3].

كذلك الحصن الذى بناه الموحدون قريباً من تلمسان[4] وأيضاً بنى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حصناً بالسوس الأقصى للاشراف على معدن الفضة الذى ظهر بالمنطقة وحمايته من استيلاء السكان عليه[4] وهكذا بنيت عدة حصون وقلاع وذلك تأكيدا لسلطة ولاة الأمر من المرابطين والموحدين . [5]

الأسوار : لعبت الأسوار دورها فى حماية المدن المغربية وخاصة فى فترة الانتقال بين المرابطين والموحدين حيث حرص المرابطون على بناء الأسوار

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨٣ .

(٢) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٤ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص١٢ .

(٣) أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ٣٣٩ ، د. العبادى : البحرية الاسلامية فى المغرب ص ٢٥٦ .

(٤) الادريسى : وصف المغرب ص ٨٠ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٩ .

(٥) ابن أبى زرع : الأنيس جـ٢ ص ١٨٩ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصاء جـ ٢ ص ١٥٣ .

حول المدن الهامة كمدينة مراكش وفاس وغيرها من المدن خوفاً من سقوطها في يد الموحدين ، وقد تميزت أسوار المرابطين ، بأنها كثيرة الزوايا الداخلية والخارجية حيث يتخذ السور شكلا متعرجاً مما يساعد المدافعين على الفتك باعدائهم[١] ومن الأسوار الهامة ذلك السور الذى أنشأه أمير المسلمين على بن يوسف حول مدينة مراكش[٢] وكان بناء السور نتيجة نصيحة الوليد بن رشد لأمير المسلمين على بن يوسف وذلك حين اندلعت ثورة الموحدين بالبلاد يقول ابن الخطيب « وكان الذى أشار عليه بتسوير مراكش القاضى أبو الوليد بن رشد حين ظهور المهدى عليه ببلاد المغرب »[٣] وكان ذلك فى سنة ٥٢٦هـ / ١١٣١م[٤] وقد انفق على بنائه ستين ألف دينار[٥] وفى رواية أخرى أنه أنفق عليه سبعين ألف دينار[٦] .

وحظيت مدينة فاس باهتمام المرابطين ، حيث هدم أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين السور الفاصل بين عدوة القروين والأندلسيين وجعلها مدينة واحدة ، ثم بنى على بن يوسف سور القوارجة[*] بين باب الجيسة وباب أصلتين[٧] . فلما استولى الموحدون عليها هدم أسوارها الخليفة عبد المؤمن

(١) د. السيد عبد العزيز سالم : المساجد والقصور ص ١٣٥

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٠ ، محمد الشطيبى : كتاب الجمان ورقة ٢١٠ ، ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٤٠ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٥ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ١ ص ١٤ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠٧ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧٠ .

Budgett ; The Land of the moors, p; 289.

Julin ; Histoire de L'Afrique, p; 89.

(٤) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٤٠ ت الفيلالى ،السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٥ .

(٥) أحمد الشطيبى : كتاب الجمان ورقة ٢١٠ .

(٦) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠٧ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٧١ ، ابن المؤقت :السعادة الأبدية جـ ٢ صـ ص١٨٥ ، عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٩٧ .

(٧)، الجبلانى : رسالة فى ذكر من اسس مدينة فاس ص ٥٥ مخطوط الجزنائى زهرة الآس ص ٣٢ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٧ (القوارجة عبارة فى الأصل عن ركن فى الجدار يبرز عن الحصن لحماية منطقة فى حالة حصار يوجد فيها بئر يستمد ماءه من وادى مجاور لاغاثة الذين قد يهددهم التطويق ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٩٢ حاشية) .

قائلا « انما اسوارنا أسيافنا »[١] حتى إذا تولى المنصور الموحدى بدأ فى بناء أسوارها وأكملها ابنه الناصر[٢] وفى رواية أخرى أن الناصر هو الذى بنى أسوارها[٣] .

كذلك شيد الموحدون الأسوار على بعض المدن . ومن ذلك ما أمر به الناصر سنة ٦٠١هـ / ١٢٠٤م من تسوير بعض المدن « وفى سنة إحدى وستمائة بنى يعيش عامل أمير المؤمنين الناصر الموحد على بلاد الريف سور مدينة بادس وسور المزمة وسور مليلة خوفاً عليهم من فجأة العدو النصرانى »[٤] ، وهكذا تأسست عدة منشآت من قلاع وحصون وأسوار نتيجة للظروف السياسية والعسكرية التى مرت بها المنطقة فى ظل المرابطين والموحدين .

منشآت عامـــة :

المساجـــد :

قامت دولتا المرابطين والموحدين على أساس دعوتين دينيتين : دعوة ابن ياسين ودعوة ابن تومرت . وكان الطابع الدينى يسود الحياة العامة فى البلاد ومن هنا كان اهتمام ولاة الأمر من المرابطين والموحدين ببناء المساجد وتعميرها باعتبارها مركز الاشعاع الفكرى للدعوة المرابطية والموحدية ، فضلا عن تأدية الفروض وتنفيذ تعاليم الدين .

وقد شهدت العاصمة مراكش اهتماماً بالغاً بانشاء المساجد فيها والعناية بها . وعندما شرع أمير المسلمين يوسف بن تاشفين فى بناء العاصمة بدأ فى بناء مسجدها الكبير[٥] فلما تولى ابنه أمير المسلمين على بن يوسف اهتم

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٧ .

(٢) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مـــدينة فاس ص ٥٥ ، الجزنائى : زهرة الآس ص ٢١٤ .

(٣) ابن ابى زرع : الأنيس ص ١٦٨ طبـــع حجر ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢١٤ .

(٤) مجهول : الذخـــيرة السنية ص ٣٩ نت محمـــد بن ابى شنب سنة ١٩٢٠ .

(٥) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٨ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٣ .

بالزيادة فى البناء فنى مئذنته وقد كلفه ذلك سبعين ألف دينار[1] .

حتى إذا استولى الموحدون على العاصمة مراكش ، استشار الموحدون الفقهاء فى موقفهم من مساجد المرابطين فأفتوهم بهدمها لأنها فى رأيهم منحرفة عن القبلة[2] يقول البيذق « وبقيت مراكش ، وذلك بعد أن فتحها الموحدون لم يدخلها داخل ولم يخرج منها خارج ثلاثة أيام وكانوا يتشاورون على سكناها فامتنع الموحدون أن يسكنوها فقام إليهم الفقهاء فقالوا لهم لأى شىء لا تسكنوها فقال لهم الموحدون ، امتنع المهدى من ذلك ولا سيما تشريق مساجدها عن القبلة المستقيمة التى لا عوج فيها ولا تحريف لأمة محمد صلى الله عليه وسلم والتشريق لغيرها من اليهود وغيرهم ، فقال الفقهاء تطهر وتسكنونها فقالوا لهم وما تطهيرها فقال الفقهاء تهدم جوامعها وتبنى جوامع أخرى ، فهدمت جوامعها لأجل تشريقهـا وتحريفها عن القبلة وامالتها إلى المشرق ، وهـدم فيها جامع على بن يوسف ولم يهدموه كله بل هدموا بعضه »[3] وكانت نصيحة الفقهاء تحقيقاً لرغبة الموحدين فى هدم آثار المرابطين وطمس معالمهم ، وفى رواية أخرى أن مسجد على بن يوسف ظل مغلقاً ومعطلا لا تقام فيه الشعائر واستعيض عنه ببناء جامع آخر بناه الموحدون [4] .

ثم شرع الخليفة عبد المؤمن فى بناء جامع كبير هو جامع الكتبيين وذلك فى سنة ٥٥٣هـ / ١١٥٧م وحشد له مجموعة كبيرة من الصناع وتم بناؤه فى فترة قصيرة[5] وقد وصفه المقرى بقوله « أمروا — أى الموحدون — ببناء المسجد

---

(١) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ١ ص ١٤ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٨ ؛ ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ١٨٤ ؛ مانويل جوميث : الفن الاسـلامى ص ٣٥٣ ؛ د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٠٦ .

S.P. Scott ; History of moorish Empire. V.2, P; 279

(٣) البيذق : اخبار المهدى ص ١٠٥ .

(٤) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٨ ؛ ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٣ .

(٥) القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٦٢ ؛ حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٥ ؛ د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٤٣ ، ٨٤٤ .

الجامع بحضرة مراكش فبدىء ببنائه وتأسيس قبلته فى العشر الأول من شهر ربيع الآخر سنة ثلاث وخمسين وخمسمائة ، وكمل منتصف شعبان المكرم من العام المذكور ، وعلى أكمل الوجوه ، وأغرب الصنائع ، وافسح المساحة ، وأبعد البناء والنجارة ، وفيه من شمسيات الزجاج ودرجات المنبر والمقصورة ما لو عمل فى السنين العديدة لاستغرب تمامه فكيف فى هذا الأمد اليسير الذى لم يتخيل أحد من الصناع أن يتم فيه فضلا عن بنائه ؟ وصليت فيه صلاة الجمعة منتصف شعبان المذكور»(١). وقد سمى بجامع الكتبيين نسبة إلى باعة الكتب الذين كانوا يروجون بضاعتهم بجانب المسجد(٢) ثم أمر المنصور الموحدى فى سنة ٥٩١هـ ببناء مئذنة كبيرة له وجعل طولها مائة ذراع وعشرة أذرع بالصنع الأنيق(٣) وبجانب بناء منارة ضخمة لمسجد الكتبيين فإنه أمر ببناء مسجد كبير بالضاحية الجديدة التى جعلها إمتداداً لمدينة مراكش وكان ذلك سنة ٥٩١هـ / ١١٩٥م(٤) .

أما مدينة فاس فقد شهدت اهتماماً بالغاً من ولاة الأمر ببناء المساجد والزيادة فيها والعناية بها ، وقد بلغ من اهتمام أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ببناء المساجد بها أن أمر سكان كل شارع ببناء مسجد حتى لا يتعرضوا للعقاب وكان ذلك سنة ٤٦٣هـ / ١٠٧١م(٥) وحين ضاق جامع القرويين بالمصلين ، التجأ الفقهاء إلى أمير المسلمين على بن يوسف مطالبين بتوسعة المسجد فأمر بالزيادة فيه(٦) وقد بلغت الزيادة فى مساحته خمسين وثمانمائة

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٢ ص ١٤٥ .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٦ .

(٣) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ١٨٤ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٩٤ .

(٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ١٨٤ ، عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٩٢ .

Terrasse : Histoire du Maroc, P : 333-334

(٥) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٤٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٩ .

(٦) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ٩٨ ، الجزنائى : زهرة الآس ص ٥٧ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٤١ ، ٤٢ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٤٩ .

وألف متر مربع(١) .

وتوالى اهتمام ولاة الأمر بمسجد القرويين فصنع له منبر جديد تكلف ثلاثة آلاف دينار وثمانمائة دينار وسبعة أعشار دينار فضة وكان ذلك فى سنة ٥٣٨هـ / ١١٤٣م(٢) أما جامع الاندلسيين فإنه لقى اهتماماً خاصاً من الناصر الموحدى حيث أمر بادخال عدة تحسينات عليه ومنها بناء باب جديد له كما أمر ببناء سقاية للوضوء وبيت لصلاة النساء وكان ذلك سنة ٦٠٤ هـ/ ١٢٠٧م(٣) .

وامتد اهتمام ولاة الأمر إلى المدن المغربية الأخرى وبناء المساجد فيها وقد ظهر ذلك واضحاً حين أمر الخليفة عبد المؤمن ببناء المساجد فى جميع أرجاء البلاد « ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة فيها أمر أمير المؤمنين عبد المؤمن باصلاح المساجد وبنائها فى جميع بلاده »(٤) ، ومن ثم رأينا مسجداً ضخماً فى مدينة رباط الفتح(٥) يصفه المراكشى بقوله « وبنى — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — فيها مسجداً عظيماً كبير المساحة واسع الفناء جداً لا أعلم فى مساجد المغرب أكبر منه وعمل له مأذنة فى نهاية العلو على هيئة منار الاسكندرية يصعد فيه بغير درج »(٦) كذلك بنى الخليفة عبد المؤمن مسجد مدينة تينملل(٧) أما المسجد الكبير بمدينة سبتة فقد بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين(٨) .

---

(١) عبد الهادى التازى : احد عشر قرنا فى جامعة القرويين ص ٨

(٢) الجزنائى : زهرة الآس ص ٤٢ .

(٣) عبد الرحمن بن ابى بكر : البستان فى اخبار الزمان ورقة ٢٩ ، ابن القاضى جذوة الاقتباس ص ٤٠ ، مجهول : الذخيرة السنية ص ٤٠ ، الجزنائى : زهرة الآس ص ٨٢ ، ابن ابى زرع : الأنيس ص ١٦٩ طبع حجر .

(٤) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٥٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٦ .

Terrasse : Histoire du Maroc. P: 333-334.

(٥) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٦ ، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٩٧ .

(٦) المراكشى : المعجب ص ٢٦٦ .

(٧) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥١ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٢ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٤ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٤٠ .

(٨) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٢ .

وقد أدخلت عدة تجديدات على بعض هذه المساجد ، ومن ذلك اتخاذهم المقصورة المتحركة فى مسجد مراكش ، وقد أشار ابن خلدون الى أن الموحدين لم يتخذوا المقصورة إلا فى عهد المنصور الموحدى[1] إلا أن بعض المراجع أشارت إلى إنشاء عبد المؤمن للمقصورة أثناء بنائه لمسجد الكتبيين ، وكانت مقصورة متحركة لم تعرفها المساجد من قبل[2] وقد وصفها ابن الخطيب بقوله « وصنع – أى عبد المؤمن – مقصورة من الخشب لها ست أضلاع تسع أكثر من ألف رجل وكان المتولى لصنعها رجل من أهل مالقة يقال له الحاج يعيش . . . وكيفية هذه المقصورة أنها وضعت على حركة بعد رفع البسط عن موضع المقصورة فتطلع الأضلاع فى زمان واحد لا يفوت بعضها بعضاً بدقيقة ، وكان باب المنبر مسدوداً ، فإذا قام الخطيب ليطلع عليه انفتح الباب وخرج المنبر فى دفعة واحدة ولا يسمع له حس ولا يرى تدبيرها[3] » .

كذلك تميزت مآذن الموحدين بالشكل المربع ومنه انتقلت إلى باقى مآذن المغرب[4] وكانت بعض المساجد تنار ليلا وخاصة فى ليالى رمضان وذلك كما حدث فى مساجد فاس [5].

وهكذا شهد المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين اهتماماً بالغاً من ولاة الأمر ببناء المساجد والاعتناء بها وإدخال التحسينات عليها.

المدارس :

وجه ولاة الأمر بالمغرب الأقصى اهتمامهم إلى التعليم ونشأ عن ذلك أن بنوا

---

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٦٩ .

(٢) أشباخ : تاريخ الاندلس جـ ٢ ص ٢٥٣ ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٨٤٤ ، عنان : عصر المرابطين القسم الاول ص ٣٤٣ ، ٣٤٤ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠٩ .

(٤) عثمان الكعاك : الحضارة العربية ص ٥٨ ، د. زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ١٤٤ .

Renê millet ; Les A'mohades, P ; 120

(٥) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ١٠١ .

عدة مدارس فى أجزاء متفرقة من البلاد ، وذلك لتخريج المتعلمين .

وكانت أولى المدارس التى انشئت فى عهد يوسف بن تاشفين تسمى مدرسة الصابرين ولم تذكر المراجع مكان بنائها[١] كذلك اهتم الموحدون ببناء المدارس وأول من فعل ذلك الخليفة عبد المؤمن بن على حين بنى مدرسة ملحقة بقصره لتخريج الحفاظ وكمدرسة الأوداية لتخريج ضباط البحرية[٢] أما المنصور الموحدى فإنه بنى عدة مدارس فى أنحاء متفرقة من البلاد[٣] . يقول ابن أبى زرع ، « وبنى — أى المنصور الموحدى — المساجد والمدارس فى بلاد إفريقية والمغرب والأندلس »[٤] ومن هذه المدارس مدرسة المهدية بمدينة المهدية يقول العينى « توفى السلطان يعقوب بن يوسف صاحب بلاد المغرب والأندلس بمدينة سلا وكان قد ابتنى عندها مدرسة مليحة سماها المهدية »[٥] أما الناصر الموحدى فقد بنى عشرين مدرسة [٦].

وبالنسبة لنظام بناء المدارس فكانت من طابقين وفى وسطه صحن مكشوف فيه فسقية أو حوض ماء ، وكانت بعض المدارس متصلة بالمساجد المجاورة لها بينما كان البعض الآخر مستقلا يضاف إلى ذلك أنها كانت تشتمل غالباً على عدة غرف وعلى قاعة كبيرة للدرس [٧].

المستشفيات :

لم تشر المراجع التى اطلعت عليها إلى إنشاء المرابطين لمستشفيات عامة يتوجه إليها المرضى للعلاج .

---

(١) عبد الله كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ٧٥ ، محمد عبد الرحيم غنيمه : تاريخ الجامعات الاسلامية ص ٤٣ .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٦٨ .
S.P. Scott : History of Moorish Empire, V 2. P; 297.

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ ، الزركلى : الأعلام ج٣ ص ١١٧١ .

(٤) ابن أبى زرع : الأنيس ص ١٥٧ طبع حجر .

(٥) العينى : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٥ .

(٦) عبد الرحمن بن أبى بكر : البستان فى أخبار الزمان ورقه ٣٠

(٧) د. زكى محمد حسن : فنون الاسلام ص ١١٣ ، محمد عبد الرحيم غنيمه : تاريخ الجامعات ص ٢٩٩ .

فلما قامت دولة الموحدين ، اهتم المنصور الموحدى بانشاء مستشفى كبير وجهزه بكل أنواع العلاج وحشد له مجموعة من الأطباء وذلك للسهر على راحة المرضى(١) وقد وصفه المراكشى بقوله « وبنى — أى المنصور الموحدى — بمدينة مراكش بيمارستانا ما أظن أن فى الدنيا مثله ، وذلك أنه تخير ساحة فسيحة بأعدل موضع فى البلد ، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه فاتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخاريف المحكمة ما زاد على الاقتراح وأمر أن يغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات وأجرى فيه مياهاً كثيرة تدور على جميع البيوت ، زيادة على أربع برك فى وسطه ، احداها رخام أبيض ، ثم أمر له من الفرش النفيسة من أنواع الصدف والكتان والحرير والأديم وغيره ما يزيد على الوصف ويأتى فوق النعت(٢) » .

الحمامــات :

انتشرت الحمامات فى أجزاء متفرقة من البلاد ، ووجه ولاة الأمر اهتمامهم لبناء الحمامات وقد ظهر ذلك حين دخل يوسف بن تاشفين مدينة فاس فإنه أمر ببناء الحمامات(٣) . وقد بلغت الحمامات فى مدينة فاس نحو عشرين حماماً(٤) .

فلما قامت دولة الموحدين ، اهتم الموحدون ببناء الحمامات وقد أنشىء منها الكثير فى عهد الناصر الموحدى يقول عبد الرحمن بن أبى بكر ، « وبنى

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس ص ١٥٧ طبع حجر ، عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٦٥ ، د. احمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .

S.P. Scott ; History of moorish Empire, V.2,
Budgett meakins ; The moorish Empire, P: 81.

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٨٧ .

(٣) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مــدينة فاس ص ٥٥ ؛ القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٥٣ ، السلاوى : الأستقصاء جـ ٢ ص ٢٩ ، ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ٤٤ ت الفيلالى .

(٤) البكرى : المغرب ص ١١٥ .

أى الناصر الموحدى — من الحمامات ثلاثاً وتسعين وثلثمائة . . [1]» وهو رقم يبدو عليه طابع المبالغة ، أما مدينة مكناسة فكان عدد الحمامات بها فى عهد الموحدين ثلاث حمامات يقول ابن غازى « وكان بهذه المدينة فى أيام الموحدين ثلاث حمامات البالى والجديد والصغير وهى باقية لهذا العهد »[2].

أما النظام المتبع فى بناء الحمامات ، فكان قوام الحمام قاعة رئيسية لخلع الملابس ، وفيها قبة تقوم على أعمدة ، وهناك قاعتان أخريان إحداهما للماء المتوسط الحرارة ، والأخرى للماء الحار أما سقف كل منهما فكان على هيئة قبو نصف إسطوانى وفيها فتحات صغيرة ينفذ منها الضوء[3] .

الفنـــادق :

ارتبط بناء الفنادق بالحركة التجارية بالبلاد ، حيث قامت الفنادق بدور كبير فى الحياة الاقتصادية بالمغرب[4] إذ بجانب وظيفتها الأساسية فى إيواء الغرباء والتجار الوافدين على البلاد كانت مخزناً ومكاناً لبيع السلع والمواد التجارية المختلفة[5] .

وقد اهتم ولاة الأمر بالمغرب الأقصى بإنشاء العديد من الفنادق فى أنحاء متفرقة من البلاد ومن ذلك ما أمر به أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ببناء الفنادق بمدينة فاس سنة ٤٦٢هـ / ١٠٧٠م يقول ابن أبى زرع والسلاوى « وبنى الحمامات والفنادق والأرحاء وأصلح أسواقها وهذب بنائها . . [6]».

كذلك تأسست عدة فنادق بمدينة مراكش وذلك حين أمر الخليفة

---

(١) عبد الرحمن بن ابى بكر : البستان فى أخبار الزمان ورقة ٢٩

(٢) ابن غازى :الروض الهتون ص ٢ .

(٣) د. زكى محمد : فنون الاسلام ص ١٢٠ .

(٤) عثمان الكعاك : الحضارة العربية فى البحر المتوسط ص ٦٤ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٦٤ ، ليوبولدتريس : الأبنية الأسبانية الاسلامية ص ١١٨ ترجمة علية ابراهيم . مجلة المعهد المصرى للدراسات عدد ١ سنة أولى سنة ٥٣ ، د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٦٩ .

(٦) ابن ابى زرع : الأنيس ج ٢ ص ٤٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٢٩ .

المنصور الموحدى بإنشاء العديد من الفنادق والأسواق والتى قصدها التجار من كل ناحية[١] أما مدينة رباط الفتح والتى وضع نواتها الخليفة عبد المؤمن وأكملها ابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فقد أنشئت بها الفنادق[٢] . أما مدينة قصر صنهاجة والتى تعرف بقصر عبد الكريم وموقعها فى شمال البلاد فقد أنشىء فيها فندقان وقصدها التجار ومن ثم ازدهرت فيها الحركة التجارية[٣] .

أما فى عهد الناصر فقد بلغ عدد الفنادق والتى أنشئت للتجار سبعة وستين وأربعمائة[٤] وهذا يشير إلى ارتباط حركة بناء الفنادق بالنشاط التجارى بالبلاد ومدى الازدهار الذى شهدته البلاد .

وكان الفندق يقسم إلى عدة أمكنة ، فهناك مكان للنوم والراحة وآخر لعقد الصلات التجارية من عقود وبيوع وغيرها [٥].

وفى بعض الأحيان كان يطلق على الفندق اسم السلعة التى تباع فيه[٦] ومن ذلك ما ورد فى ترجمة أبى موسى الدكالى أحد المتصوفين فى مدينة سلا أنه كان يقيم بفندق الزيت[٧]وكان بعضهم يتخذ الفندق مكاناً لإقامته الدائمة كأبى العباس السبتى والمتوفى بمراكش سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م فإنه كان يسكن أحد فنادق مراكش[٨] .

القناطر :

أقام ولاة المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين عدة قناطر على أنهار المغرب الأقصى ، وذلك لربط المناطق بعضها ببعض مع استغلال مياه الأنهار

---

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢١٠ ، عباس المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ٦٤ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٨٩ .
(٣) مجهول : الاستبصار ص ١٤٠ .
(٤) عبد الرحمن بن أبى بكر : البستان فى أخبار الزمان ورقة ٢٩.
(٥) عثمان الكعاك : الحضارة العربية ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٦) ليوبولدتوريس : الأبنية الأسبانية ص ١١٨ ترجمة علية ابراهيم
(٧) التادلى : التشوف ص ١٨٦ ، ١٨٧ .
(٨) بابا التنبكتى : نيل الابتهاج ص ٦١ ط ١ سنة ١٣٥١ .

فى رى الأراضى الزراعية وقد أشار ابن أبى زرع إلى أن هدف المنصور الموحدى من بناء القناطر هو جلب الماء فى البرية [١].

وقد بنى المرابطون عدة قناطر بالمغرب ومنها قنطرة تانسيفت نسبة إلى نهر تانسيفت وقد بناها أمير المسلمين على بن يوسف [٢] أما طولها فقد بلغ أربعمائة متر وبنيت بالآجر والجير[٣] .

وقد استعان أمير المسلمين على بن يوسف فى بنائها ببنائين من الأندلس ومن المغرب[٤] . إلا أن هذه القنطرة لم تلبث إلا أعواماً يسيرة حتى هدمت بتأثير السيول[٥] . وكذلك اهتم الموحدون ببناء القناطر ، وشيد الخليفة عبد المؤمن قنطرة بين سلا والمهدية إلا أنها تهدمت بتأثير قوة التيار فى النهر المقامة عليه القنطرة[٦] لذا حين زار الخليفة يوسف بن عبد المؤمن المنطقة أمر بإقامة جسر آخر إلى جانبه[٧] . أما قنطرة تانسيفت والتى هدمت بفعل السيول فقد أمر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن بتجديد بنائها[٨] كذلك وجه المنصور الموحدى اهتمامه لبناء القناطر « وبنى الصوامع والقناطر لجلب الماء فى البرية واتخذ عليها المنازل[٩]» . وهكذا وجه ولاة الأمر اهتمامهم إلى بناء القناطر بجانب اهتمامهم بإقامة المنشآت الأخرى .

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس ص ٢١٥ طبع حجر .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٣٦٤ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار ج ١ ص ١٣ ، عباس المراكشى : الاعلام ج ١ ص ٦٩ ، د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ٤٥٣

Julin ; Histoire de L'Afrique du Nord P ; 89.

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤٤ .

(٤) الادريسى : وصف المغرب والاندلس ص ٦٩ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٦٩

(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

(٧) نفس المرجع السابق ص ٤٤٩ ، ٤٥٠ .

(٨) ابن أبى زرع : الانيس ص ١٥٧ طبع حجر .

(٩) نفس المرجع السابق ص ١٥٧ طبع حجر .

الفصل الرابع

العـــادات والتقاليد

عاش سكان المغرب الأقصى منذ أن تأسست على أرضه دولة المرابطين فى ظل عادات وتقاليد موروثة ، بعضها ورثه عن الأجيال السابقة ، وبعضها استحدثت خلال هذه الفترة نتيجة لظروف سياسية ودينية مرت بها المنطقة ومن ثم فإننا سنتناول فى هذا الفصل ؛ الأسرة وما تتضمنه من زواج وعادات متعلقة بذلك ، والصحة ومدى اهتمام ولاة الأمر بالشئون الصحية بالبلاد ومظاهر ذلك ثم التعرض بعــد ذلك للمجالس وأنواعها ، والاحتفالات وألوانها ، والمواكب وأنظمتهــا ثم وسائل التسلية المتنوعة ، ويلى ذلك المأكولات والمشروبات وأنواعها وأخيراً الملابس وتنوعها .

أولا : الأســرة

كانت الأسرة نواة المجتمع المغربى ، وهى تتكون عادة من الزوج والزوجة وأبنائهما ، وكان للزوج أن يتزوج بأكثر من واحدة طبقاً للشريعة الإسلامية ، على ألا يتجاوز العدد أربع زوجات ، إلا أن بعض رؤساء جدالة ولمتونة كانوا يتزوجون بأكثر من العدد الشرعى وذلك قبل مجىء عبد الله بن ياسين إليهم ، ومن هنا أمر داعية المرابطين الاقتصار على أربعة طبقاً لأحكام الدين ، يقول ابن أبى زرع « وكان يحيى قد أنزله معه - أى أنزل معه ابن ياسين — فوجد عنده تسع نسوة فسأله عنهن ، فقال هن زوجاتى ، فقال له الفقيه ، هذا شىء لا يجوز فى دين الإسلام وإنما يجوز فى ذلك أربع ، ففارق خمساً ، فأجابه بالسمع والطاعة وفارقهن ثم قال إن جميع الرؤساء من كدالة ولمتونة على مثل حالى فأنذرهم وعرفهم حكم الله »[1] ويبدو من النص أن هذا العرف كان متبعاً بين الرؤساء دون العامة ، وقد غير ابن ياسين هذا الوضع

---

(١) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ١١ ت الفيلالى .

وأرشدهم إلى أحكام الدين فى ذلك(١) .

وكان بعض الرجال يتزوجون نساء من جنسيات أخرى تخالف جنس البربر كزواج الوزير ابن جامع من تركية(٢) كما أن المصامدة كانوا يعتبرون الزواج من الحبشيات عاراً فى الحوار الذى دار بين أبى مدين أحد المتصوفين بالمغرب وبين أبى محمد عبد الرازق الجزولى تلميذه ما يفيد استنكار المصامدة للزواج من الحبشيات حيث قال أبو مدين لتلميذه « أو تفعل ذلك — أى الزواج من حبشية - ونكاح الحبشية عند المصامدة عار؟»(٣) ، ولعل هذا يرجع إلى نظرة المصامدة للحبشيات واعتبارهن أقل منهم منزلة .

وكان بعض الرجال لا يتزوجون إلا ممن تيسرت أحوالهن المالية ، ولذا اشتكت امرأة لابى العباس السبتى المتصوف والمتوفى بمراكش سنة ٦١٠هـ / ١٢١٣م بأن لديها أربع بنات لا يتزوجن وقالت له « عندى أربع بنات بالغات قادرات على الزواج وليس لهن أب ولا مال والناس لا يتزوجون إلا من كان له مال وأنا فقيرة »(٤) ولذا أخذ أبو العباس على عاتقه تزويجهن ومشاركة غيره من الصالحين فى جمع المال وإنفاقه على تزوج الفقيرات ، ومن هؤلاء محمد بن أحمد بن محمد اللخمى — أحد الصالحين بتلمسان والمولود بها سنة ٥٥٨هـ / ١١٦٢م والمتوفى سنة ٦١٤هـ / ١٢١٧م وكان ذا حظوة عند خلفاء الموحدين — كان يتصدق بما يحسنون به إليه ويجهز منه ضعيفات البنات (٥).

وكان الرجال يدفعون مهورا لزوجاتهم ومن ذلك ما دفعه أبو عبد الله ابن أبى إبراهيم والى غرناطه من مهر للسيد أبى حفص للزاوج من ابنته أثناء

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٦٩ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار
(٢) عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٢٨٠ ، ٢٨١ .
(٣) احمد بن القاسم : المعزى فى اخبار ابى يعزى ص ٦٣ مخطوط التادلى : التشوف ص ٣٢٦ .
(٤) عباس المراكشى : الأعلام جـ ١ ص ٢٧٦ .
(٥) ابى زكرياء : بغية الرواد جـ ١ ص ٢٧ .

مقامه بمراكش سنة ٥٦٤ هـ / ١١٦٨ م[1] كذلك حين عقد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قرانه على ابنة ابن مردنيش سنة ٥٧٠ هـ /١١٧٤ دفع لها مهرا خمسين دينارا وأرسل لها هدية الف دينار [2].

وكان عقد الزواج يتم عادة فى المسجد[3] ومن ذلك ما ذكره التادلى فى ترجمته لابن النحوى المتصوف والمتوفى سنة ٥١٣ هـ / ١١١٩م بسجلماسة « وكانت عامة أهل البلدان يعقدوا أنكحتهم بالمسجد [4]» .

فإذا تم عقد القران أقيمت الأفراح ابتهاجاً بهذه المناسبة السعيدة فالخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين تزوج ابنة محمد بن سعيد بن مردنيش صنع مهرجاناً عظيما يقصر اللسان عن وصفه[5] وكان المغنون يشتركون فى إحياء حفلات الزواج وقد أشار التادلى إلى كثير من هؤلاء المغنين الذين أقلعوا عن الغناء فى الأفراح وانصرفوا إلى العبادة ، ومن هؤلاء أبو اسحاق إبراهيم ابن عبد الصمد الصنهاجى من أهل فضالة من عدوة وادى آزمور وأقام بمراكش « وكان فى حداثته محباً فىاللهو يغنى فى الأعراس ويضرب الدف»[6] وأبو عبدالله محمد بن موسى الأزكانى وكان مقيما بصفرو ومات بعد سنة ٥٩٠هـ « كان مبدأ أمره أنه كان فى شبيبته يلعب ويغنى فى الأعراس » [7] وأبو وجوط تونانت بن وجرام الهزميرى من أهل بلدة نفيس من عمل مراكش ومات سنة ٦٠٨هـ / ١٢١١م كان فى حداثته يغنى فى الأعراس[8].

ومن هذا نلمس اشتغال الرجال بالغناء فى الأفراح وبجانب الغناء ربما قام بعض المهرة ببعض الألعاب إدخالا للسرور على الحاضرين ومن ذلك ما تعوده أهل قرية تاورا إحدى قرى مدينة مكناسة فى أفراحهم حيث كان

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٩٧ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٢ ، ٢٣ تطوان .
(٣) عثمان الكماك : محاضرات فى مراكز الثقافة ص ٥٣ .
(٤) التادلى : التشوف ص ٧٥ .
(٥) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٨٨ ت الفيلالى .
(٦) التادلى : التشوف ص ٣٠٧ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ٣٦٩ .
(٨) نفس المرجع السابق ص ٤١٢ .

السودانيون يلعبون الثقاف بالحديد ويرقصون ونساؤهم يضربون آلة اللعب ويغنين والزامر يزمر لهم[١] وأحياناً تزف العروس وهى راكبة على سرج ويحيط بها المغنون ووسائل اللهو المختلفة فى موكب كما فى أفراح تلمسان[٢].

ومما يتصل بالأسرة ، عادة استنها الخليفة المنصور الموحدى وهو جمع الأطفال فى العاصمة مراكش كل عام وتختينهم وصرف دينار من الذهب ودرهم من الفضة لكل واحد منهم وذلك لنفقات العلاج وثمرة ليأكلها أثناء عمليـــة التختين لتخفيف آلامه يقول ابن عذارى « وفى سنة خمس وتسعين وخمس مائة أمر المنصور بإعذار الأطفال بمراكش وأن يجعل فى يد كل واحد منهم دينار من الذهب ودرهم من الفضة وحبة من الفاكهة الخضراء ليشغل بها الطفل عن ألمه ويصرف الدينار فى مداواته فكان يذهب فى ذلك كله فوق الألف ألف ما بين ذهب وفضة فكان هذا من مكارمه الذى لم يسبقه أحد إليها من ملوك المتقدمين »[٣] وقد حدد المراكشى نوعية هؤلاء الأطفال بأنهم الأيتام المنقطعون حيث كان يجمعهم فى موضع قريب من قصره وتجرى لهم عملية التختين[٤] ويبدو أن بعض الأسر كانت تحتفل بإعذار أبنائها وذلك بذبح الذبائح ودعوة الأصدقاء من الجيران لحضور هذه الوليمة[٥].

ثانياً : الصحة

لقى سكان المغرب الأقصى رعاية واهتماماً فى النواحى الصحية من ولاة الأمر منذ قيام دولة المرابطين ، وقد تجلى ذلك فى إقامة مستشفى المنصور الموحدى وتشجيع الأطباء على القدوم إلى المغرب والأندلس غيرها من

(١) ابن غازى : الروض الهتون ص ٤ ، البيذق : أخبار المهدى ص ٦٠

(٢) عبد العزيز بنعبد الله : المعجم التاريخى ص ٩ ، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٥٩ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٢٣٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٨٠ تطوان .

(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٨٧ .

(٥) التادلى : التشوف ص ٣٨٩ .

البلدان ، وتبعاً لذلك ازدهرت العلوم الطبية مما عاد على السكان بعظيم الفائدة وقد حفلت كتب الطبقات بكثير من الأطباء الذين خدموا فى بلاط ولاة الأمر من المرابطين والموحدين وعلى رأسهم أسرة بنى زهر .

وقد تعرضت البلاد فى بعض الأحيان للاوبئة والتى شكلت خطراً كبيراً على حياة السكان حيث راح ضحيتها الكثير من الناس ففى سنة ٥٦٤هـ - ١١٦٨م تلوث هواء مراكش بميكروب سبب المرض لكثير من سكان مراكش(١) . كذلك الطاعون الذى أصاب مراكش سنة ٥٧١ / ١١٧٥م أودى بحياة كثير من الناس حتى بلغ الموتى فى كل يوم مائة وتسعين شخصاً واستمر ذلك سنة كاملة(٢) وطبقاً لهذه الرواية يكون ضحايا هذا الطاعون ٦٩,٣٥٠ شخصاً ، أما ابن أبى زرع فقد جعل الضحايا بمراكش ألفاً وسبعمائة رجل(٣) وربما كان العدد الأول هو مجموع الضحايا فى المغرب الأقصى كله ، وقد مات فى هذا الطاعون عدد من أسرة الخلافة(٤) ، « ومات فيه - فى الطاعون - من أولاد الخليفة عبد المؤمن السيد أبو عمران ثم أخوه السيد أبو سعيد ، ثم أخوهما السيد أبو زكريا وصاحب بجاية والشيخ أبو حفص عمر بن يحيى الهنتاتى جد الملوك الحفصيين . . » (٥) يضاف إلى ذلك عدد ممن كانوا يخدمون فى قصور الأمراء بلغ ثلاثين شخصاً يومياً(٦) .

ونتيجة لانتشار الوباء لجأ الناس إلى حمل بطاقات فيها بيانات عنهم حتى إذا فاجأ الموت أحدهم تعرفوا على أسرته « وكان الناس يموتون فيه من غير مرض فكان الرجل لا يخرج من منزله حتى يكتب اسمه ونسبه وموضعه فى براءة يجعلها فى جيبه فإن مات حمل إلى موضعه وأهله »(٧).

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٩٥ .
(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٤ ، ٢٥ تطوان .
(٣) ابن أبى زرع : الانيس ص ٢١٦ طبع حجر .
(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٥ تطوان ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٤٠ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٥١ .
(٥) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢٠ .
(٦) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٢٥ تطوان .
(٧) ابن أبى زرع : الانيس ص ٢١٦ طبع حجر .

وسائل العلاج :

عرف الشعب المغربى كثيراً من ألوان العلاج ومن ذلك أنهم اتخذوا وسيلة العزل كوقاية من العدوى والإصابة بالأمراض الخطيرة كالجذام ، فقد أفردوا مكاناً خاصاً خارج العاصمة يعيش فيه الجذماء لا يختلطون بغيرهم ومن هؤلاء المرضى « أبو عصفور يعلى بن وين يوفن الأجذم تلميذ أبى يعزى وأصله من مكناسة نزل حارة الجذماء خارج حضرة مراكش وبها مات عام ثلاثة وثمانين وخمسمائة»[1] وأبو يعقوب يوسف بن على وكان بحارة الجذماء ومات فى شهر رجب عام ثلاثة وتسعين وخمسمائة[2] .

وهكذا عرف سكان المغرب نظام العزل وتخصيص أماكن بعيدة لإيواء ذوى الأمراض الخطيرة .

كما أن السكان حاولوا الاستفادة من البيئة وما ينمو فيها فى مداواة أمراضهم وعن طريق تجاربهم صارت لهذه الخدمات الطبيعية مفعولها فى علاج كثير من الأمراض ومن ذلك مياه أحد أنهار فاس حيث كانت تفتت الحصى الذى يتكون فى المثانة كما أنه يقضى على حشرات الرأس[3] وكذلك العيون الساخنة كعين خولان وحمة وشتاته كلها عيون ساخنة يستحم فيها الناس للتداوى[4] وقد نبتت بجبل فازاز بعض النباتات التى تستخدم كدواء لعلاج الأمراض[5] وبمدينة أجلى شجرة تشبه شجرة الكمثرى وثمرته تشبه الاجاص ، يجمعونه ويتركونه حتى يذبل ثم يضعونه فى مقلاة فخار على النار فيستخرج دهنه وهو جيد فى علاج الكلى وإدرار البول[6] .

وهكذا استغل السكان البيئة المحيطة بهم فى علاج أمراضهم .

---

(١) التادلى : التشوف ص ٢٥٨ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٠٨ ، ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ١ ص ٢٤ .

(٣) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ٤٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٤٧ مخطوط ، عبد العزيز بنعبد الله المعجم التاريخى ص ٨ .

(٥) مجهول : الاستبصار ص ١٨٧ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢١٢ .

وبجانب العلاج الطبيعى ، كانت هناك المستشفيات وأهمها تلك المستشفى التى بناها المنصور الموحدى وقد سبق الاشارة إليها ، وقد جعل المنصور العلاج بها حتماً لكل مواطن سواء أكان غنياً أم فقيراً[١] وجهزه بكل ما يلزمه من وسائل العلاج وأجرى الإنفاق عليه من بيت المال[٢] وقد أشار المراكشى إلى تجهيزات المستشفى بقوله « وأجرى له ثلاثين ديناراً فى كل يوم برسم الطعام وما ينفق عليه خاصة ، خارجاً عما جلب إليه من الأدوية وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال ، وأعد فيه للمرضى ثياب ليل ونهار للنوم من جهاز الصيف والشتاء »[٣] وممن التحق بالخدمة فى هذه المستشفى أبو اسحق ابراهيم الدانى وأصله من بجاية وكانت له عناية بالغة فى صناعة الطب وقد عينه المنصور أميناً للمستشفى وكذلك ولداه[٤] وكان المنصور يتعهد المستشفى بزيارته الأسبوعية حيث يطمئن على صحة المرضى وسير العمل بالمستشفى[٥] .

ولم يكن الإشراف على المرضى قاصراً على المستشفى بل تعداه إلى معاونتهم فى حياتهم بعد مغادرتهم المستشفى وهو ما يعرف بنظام التأهيل فى عصرنا الحاضر فكان يصرف لكل مريض فقير مقدار من المال يعيش منه ريثما يتمكن من العمل والكسب « فإذا نقه المريض فإن كان فقيراً أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقل وإن كان غنياً دفع إليه ماله وترك سببه »[٦]

وبجانب المؤسسات العلاجية كان هناك الأطباء ، ومنهم من كان يعالج العامة حيث يقصدونه بمرضاهم ويدفعون أجر العلاج ومن هؤلاء الطبيب ابن افلاطون بمدينة فاس ويبدو أنه نال مكانة طيبة وسمعة عريضة

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٨٨ .

(٢) ابن ابى زرع : الانيس ص ١٥٧ طبع حجر ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٩٨ ، ملين : عصر المنصور ص ٢٢٥ .

S.P. Scott ; History of Moorish Empire, V.2, P ; 306.

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٨٧ .

(٤) ابن أبى اصيبعه : عيون الانباء ص ٥٣٤ وأحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات ص ٢٨٢ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٢٨٨ .

(٦) نفس المرجع السابق ص ٢٨٧ .

ومن ثم أصبح أجره مرتفعاً ، فقد مرضت أخت لعلى بن عبد الكريم وهو من سكان مكناسة فجهز مبلغ مائة دينار وتوجه بها إلى ابن افلاطون فى فاس لعلاجها(١) ، كذلك الطبيب ابراهيم بن أبى الفضل بن صواب المجرى من أهل شاطبة ، أقام بطنجة لعلاج المرضى ثم استقر بمدينة فاس وتوفى سنة ٥٠٦هـ / ١١١٢م(٢) .

وبجانب أطباء الشعب ، كان البلاط المرابطى والموحدى يزخر بنخبة من الأطباء وفى مقدمة هؤلاء أسرة بنى زهر التى خدم بعض أفرادها فى البلاط المرابطى ثم الموحدى ومن هؤلاء أبى العلاء زهر بن أبى مروان عبدالملك وكان مشهوراً بالحذق والمهارة وله علاجات مختارة وله عدة مؤلفات طبية وقد خدم فى بلاط المرابطين ونال منزلة رفيعة(٣) واشتغل ابنه أبو مروان عبد الملك فى خدمة الخليفة عبد المؤمن وألف للخليفة الترياق السبعينى مع عدة مؤلفات أخرى ونال مكانة رفيعة لدى الخليفة(٤) فلما توفى الخليفة عبد المؤمن التحق أبو مروان بخدمة الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ثم ابنه المنصور من بعده (٥).

وبجانب أسرة بنى زهر كانت هناك مجموعة من الأطباء المشهورين أمثال أبى بكر بن الصائغ المعروف بابن باجة والذى اشتغل بالطب فى دولة المرابطين (٦)وابن طفيل طبيب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن والمتوفى سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م(٧)وابن رشد وهو أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد بن

---

(١) التادلى : التشوف ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٢) ابن الآبار : التكملة لكتاب الصلة ص ١٧٢ .

(٣) ابن ابى اصيبعه : عيون الانباء ص ٥١٧ بيروت سنة ١٩٦٥ ، آنخل جنثالث: تاريخ الفكر الأندلسى ص ٤٧١، عبد العزيز بنعبد الله : الطب والاطباء فى المغرب ص ٣٠ .

(٤) ابن أبى أصيبعه : عيون الأنباء ص ٥٢٠ ، ٥٢١ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ٥٢١ .

(٦) القفطى : أخبار العلماء ص ٢٦٥ ، عبد العزيز بنعبد الله : الطب والاطباء بالمغرب ص ١٠ .

(٧) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٧٦ ت الفيلالى ، عباس المراكشى الاعلام جـ ٣ ص ٣٤ ، ٣٥ ، احمد امين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٢٤٢ ط ٢ سنة ٥٩

رشد والذى نال حظوة ومكانة لدى الخليفة المنصور الموحدى(١) وغير هؤلاء ممن حفلت المرجع بتراجمهم ويضيق المجال عن ذكرهم ، وهذا يشير إلى ارتقاء شأن الطب والأطباء فى هذه الفترة ، وما صاحبه من كثرة المؤلفات الطبية مما ارتفع بالمستوى الصحى للسكان .

ثالثا : المجالس

شهد المجتمع المغربى كثيرا من المجالس المتنوعة والمتعددة التى كان يعقدها الخلفاء فى قصورهم ، وبجانب ذلك مجالس الوعظ التى انتشرت فى الأماكن العامة يضاف إلى ذلك تلك المجالس العامة التى كان يعقدها علية القوم من الأمراء وغيرهم وقد أثمرت هذه المجالس وما فيها من مناقشات علمية وأدبية ، ازدهاروا فى الحركة الفكرية بالبلاد . وارتقاء للنواحى الثقافية وفى مقدمة هذه المجالس :

مجالس الخلفاء :

حرص أمراء المسلمين من المرابطين وخلفاء الموحدين على عقد الجلسات والتى كانوا يشهدونها بأنفسهم ، ويشاركون فيها بالحوار والمناقشة ، فأمير المسلمين تاشفين بن على بن يوسف كان يجالس الأعيان ويذاكرهم(٢) وكان هذا أثناء ولايته للأندلس ، وممن كان يحضر مجلسه القاضى أبو القاسم اخيل بن ادريس الرندى وكان أديبا(٣) .

أما فى الدولة الموحدية فقد كثرت هذه المجالس التى كان يحضرها الخلفاء وقد أشار ابن صاحب الصلاة ، وكان يعيش فى عصر الخليفة يوسف بن عبد المؤمن إلى عادته فى التوجه إلى مجلس الخليفة فى داره حيث قال « كنت — أى ابن صاحب الصلاة — صبيحة يوم الأحد الذى وصلت فيه هذه البشرى الفاتحة — وهى انتصار الموحدين على ابن مردنيش فى الأندلس — فقد بكرت على العادة إلى منتقيمى دار الخليفة رضى الله عنه

---

(١) ابن أبى اصيبعه : عيون الانباء ص ٥٢٨ ، ٥٢٩ ، أرنست رينان : ابن رشد والرشدية ص ٣٧ ، ٣٨ ، أحمد أمين : ظهر الاسلام جـ ٣ ص ٢٤٦ .

(٢) ابن الخطيب : الاحاطة جـ ١ ص ٤٥٧ ت عنان .

(٣) ابن سعيد المغربى : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٣٣٦ .

جالسا مع طلبة الحضر أشياخ أهل الأندلس نتطلع الأخبار وقد بعد زمانها وتوقف الواصلين بها ...[1]» وهذا الخبر يفيد تعود الخليفة على الجلوس فى داره مع طلبة الحضر ، هم طائفة العلماء وأشياخ الأندلس .

وكانت هذه المجالس تضم العلماء والأدباء ورجالات الدولة ، ومن هؤلاء الذين ضمتهم مجالس الموحدين فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الحافظ أبو بكر بن الجد ، والفقيه القاضى أبو عبد الله بن الصقر ، وغير هؤلاء من العلماء [2] أما فى عصر المنصور الموحدى فكان منهم أبو الحجاج المفسر وعبد الله بن سليمان بن حوط وابن زهر الأديب الطبيب وابن رشد[3] والقاضى الشقندى وكان عالمـا متبحرا فى العلـوم [4] وبجانب هؤلاء كان هناك طلبة المصامدة وهؤلاء كانوا يشهدون كل مجالس الخلفاء ، يقول المراكشى « وصنف آخر ممن عنى بالعلم من المصامدة يسمون طلبة الموحدين ولا بد فى كل مجلس عام أو خاص يجلسه الخليفة منهم من حضور هؤلاء الطلبة الأشياخ منهم [5]» .

وكان لهذه المجالس فى عهد الموحدين نظام خاص تتبعه ، فكان الخليفة يتصدر المجلس ، فخطيب الجماعة ، ثم قاضى الجماعة بمراكش فرئيس الأطباء فأكبر علماء الحضرة فباقى الأعلام الحاضرين على اختلاف مراتبهم[6] ثم تدار المناقشة حول مسألة علمية يلقيها الخليفة بنفسه أو أحد العلماء الحاضرين بعد استئذان الخليفة ، ويناقش الحاضرون المسألة ، ثم تختتم الجلسة بالدعاء للخليفة [7].

ومن الموضوعات العلمية التى كانت تعرض فى المجالس العلمية الموطأ الذى ألفه ابن تومرت حيث عرضه أبو يعقوب يوسف بن وانودين فى أحد

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٧٥ .

(٢) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٨١ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصـا جـ ٢ ص ٢٠٢ .

(٣) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٦٤ .

(٤) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ٢١٣ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٣٤٢ .

(٦) ابن اصيبعه : عيون الانباء ص ٥٢٩ ، المنونى : العلوم والفنـون ص ٣٩ ، ٤٠ .

(٧) المراكشى : المعجب ص ٣٤٢ .

مجالس الخليفة عبد المؤمن فى جمع من أشياخ الموحدين [١].

وبجانب هذه المجالس العلمية التى كان يشهدها الخلفاء ، كانت هناك المجالس التى يتبادلون فيها الحديث عن مشكلة تهم الدولة ، وكانت الأندلس تحتل مكان الصدارة فى المشكلات التى واجهت ولاة الأمر من المرابطين والموحدين حيث أن الخطر كان قائما فى كل لحظة من هجوم الأعداء على أرض الأندلس ومحاولة الاستيلاء عليها ، ومن هنا كانت بعض المجالس تدور فيها المناقشات حول الأندلس ومن ذلك ما كان يتحدث به يوسف بن تاشفين فى مجالسه يقول المراكشى « ويوسف بن تاشفين فى ذلك كله يمدهم — أى يمد أهل الأندلس — فى كل ساعة بالجيوش بعد الجيوش ، والخيل أثر الخيل ، ويقول فى كل مجلس من مجالسه : إنما غرضنا فى ملك هذه الجزيرة أن نستنقذها من أيدى الروم لما رأينا استيلاءهم على أكثرها[٢]» . وكذلك الخليفة عبد المؤمن ومناقشته لأحداث الأندلس فى مجالسه « ومنها أنه — أى عبد المؤمن بن على — تذاكر يوما حال الأندلس مع الروم المفاتنين فجرى ذكر وقعه أقليش التى هزم فيها الطاغية وقتل ولد أذفونش ، فقال لوزيره أبى جعفر بن عطيه اخرج إلى أشياخ الجند وسلهم هل بقى أحد ممن حضر وقعة اقليش ففعل ... فسر بأن بقى من يحدثه بصفة تلك الحروب وأمر بادخالهما إلى مجلسه العالى ، وأمر بأن يحضر معهما أشياخ الجند فكان ذلك ، وسألهما عما شاهداه من تلك الحروب فحكياها من أولها إلى آخرها ، وعند تمام حكايتها أعطى لابن ريدون خمسمائة دينار ولابن تورزجين مثل ذلك ..[٣]» وهكذا احتل موضوع الأندلس وأخبارها مكانا فى المناقشات الدائرة فى مجالس ولاة الأمر .

وفى بعض الأحيان كانت المشاكل اليومية التى يواجهها الناس تثار فى مجلس الخليفة ومن ذلك أن يحيى بن العزيز — وكان ملكا لبجاية قبل استيلاء عبد المؤمن عليها ثم أحضره معه إلى مراكش — كان فى مجلس عبد المؤمن

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٣٠ ت د. احسان عباس .
(٢) المراكشى : المعجب ص ١٦٢ .
(٣) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٩ .

يوما فذكر الحاضرون تعذر الصرف وشاركهم القول فى ذلك يحيى من أنه يعانى من ذلك أيضا لأن خدمه لا يجدون العملات الصغيرة متوفرة ، فلما سمع الخليفة ذلك أمر بتحقيق مطلبهم وتوفير العملات الصغيرة للتداول (١)

مجالس وعظ :

ونوع آخر من المجالس شهده المجتمع المغربى ، وهو مجالس الوعظ التى يتولى الحديث فيها العلماء والصلحاء حيث يعظون الناس ويرشدونهم ، وقد تجلى ذلك فى طريقة ابن تومرت وجمعه للأتباع حيث كان يجلس إلى الناس يعظهم ويعلمهم أمور دينهم (٢) .

وبعضهم كان يتخذ من الأسواق والطرقات مكانا ليعظ فيه كأبى العباس السبتى المراكشى والمتوفى سنة ٦٠١ هـ ، كان يجلس حيث أمكنه الجلوس من الأسواق والطرقات فيحض الناس على الخير (٣).

وبعضهم كان يحدد أياما فى الأسبوع لمجالس وعظه كالعالم محمد بن أحمد بن محمد اللخمى وكان يقيم بمراكش وله مجالس وعظ فى يومى الاثنين والخميس من كل أسبوع (٤)وممن اشتهر بالحديث فى مجالس الوعظ أبو مدين المتصوف والمتوفى سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٧ م حيث كان الناس يقصدونه من كل مكان (٥).

مجالس عامة :

وهى تلك المجالس التى كان يعقدها الأمراء وأكابر رجال الدولة فى قصورهم ومنتدياتهم ويحضرها الأدباء والشعراء ، وكان ذلك نتيجة الاحتكاك المباشر بين المغرب الأقصى والأندلس فى عهد المرابطين ، وإقبال العلماء والشعراء الأندلسيين على المغرب والالتفاف حول الأمراء فى المدن المغربية كمراكش وفاس وتلمسان وسائر المدن الأخرى ، وخاصة أن الولاة كانوا

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٠٧ .
(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٩٤ .
(٣) عباس المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ٢٤٦ .
(٤) نفس المرجع السابق جـ ٣ ص ٨٧ .
(٥) أحمد بن القاسم : المعزى فى أخبار أبى يعزى ص ٧٢ مخطوط .

يتنقلون بين مدن المغرب ومدن الأندلس وما يصحب التنقل من انتقال حاشية الأمير معه (١).

وبجانب هذه المجالس ، كانت هناك المجالس الفقهية التى كان يعقدها العلماء فى المدن المغربية كسبتة وفاس وغيرها للمناظرة والبحث والدراسة(٢) ومن المجالس الأدبية التى كانت تعقد فى العاصمة مراكش ، مجلس حواء بنت تاشفين — وكان تاشفين أخا ليوسف بن تاشفين لأمه — حيث كان يحضره الكتاب والشعراء وكانت تحاضرهم فيه وممن كان يحضر هذه المجالس ابنى المرخى وابن القصيرة وغيرهم من الأدباء والشعراء (٣).

واشترك أمراء الموحدين فى المجالس فى ولاياتهم حيث كانت تعقد تحت إشرافهم ويشاركون فيها بالمناقشة والحوار ، ومن ذلك المجلس الذى كان يعقده أبو يحيى بن أبى زكرياء الموحدى أمير سبتة ويحضره العلماء ومنهم أبو الوليد إسماعيل بن محمد المعروف بالشقندى وأبو يحيى بن المعلم الطنجى (٤)

رابعا : الاحتفالات

شهد سكان المغرب الأقصى العديد من الاحتفالات والتى كانت تقام فى المدن المغربية نتيجة لمناسبات مختلفة ، وقد اشترك أبناء الشعب فى هذه الاحتفالات معبرين عن شعورهم وعاطفتهم ازاء هذه الاحتفالات

ويمكننا أن نقسم هذه الاحتفالات باعتبار بواعثها ودوافعها إلى أنواع ثلاثة فهناك الاحتفالات الدينية وأخرى عسكرية ، وأخيرا الاحتفالات المتنوعة نظرا لأسبابها المتعددة .

الاحتفالات الدينية :

وهذه ارتبطت بالمناسبات الدينية المتكررة كصلاة الجمع والأعياد

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٢٣ .
(٢) رابح بونار : المغرب العربى ص ٣٣٥ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٥٧ بيروت .
(٤) المنونى : العلوم والفنون ص ٤١ ، آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الاندلسى ص ٢٩٩ .

والليالى الدينية ، وقد كان لخلفاء الموحدين احتفال خاص بصلاة الجمعة ، حيث يخرجون فى موكب من كبار رجال الدولة ، قاصدين المسجد الكبير بالعاصمة ، وهناك يجلس الخليفة ثم تبدأ الشعائر الدينية من قراءة للقرآن وآذان المؤذنين ثم خطبة الجمعة وبعد الفراغ من الصلاة يعود الخليفة فى موكبه راجعا إلى قصره[1] ولا شك أن ذلك يصحبه خروج الناس لمشاهدة الموكب ومشاركتهم فى الصلاة مع الخليفة وما يصحب ذلك من مظاهر الفرح والسرور برؤية موكب الخليفة .

وكان لشهر رمضان مكانة خاصة . حيث يحتفل به الشعب فى كل مكان بإقامة الأذكار وقراءة القرآن وتأدية الصلوات بالمساجد ، وكان الخلفاء يحتفلون بذلك الشهر وذلك بالقراءة فى مصحف سيدنا عثمان رضى الله عنه [2] وكان الخليفة عبد المؤمن قد أحضره من الأندلس ونقله إلى قصره بمراكش وجعل له أغطية من الجلد المرصع بالأحجار الكريمة[3].

أما أفراد الشعب فكانوا يحتفلون بهذا الشهر فى المساجد والحلقات الدينية[4] وقد اختص المغاربة ليلة السابع والعشرين بالتعظيم والتكريم[5]. وفى رواية أخرى أنها ليلة التاسع والعشرين[6] حيث كانوا يقيمون الاحتفالات اعتقادا بأنها ليلة القدر وهى ليلة معظمة عند سائر المسلمين ، كذلك ليلة عاشوراء حيث كان بعض الصالحين يعدون الطعام ويدعون الناس لتناوله احتفالا بهذه الليلة [7].

أما الأعياد فكان الخليفة يخرج لتأدية صلاة العيد فى موكب من كبار رجال الدولة ، وبعد انقضاء الصلاة يتقدم كبار رجال الدولة لتحية الخليفة وتهنئته ويدعو لهم ثم يذبح كبش بين يديه فى عيد الأضحى ، وفى اليوم

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٣٤٣ .
(٢) التنسى : الدر والعقيان ورقة ٤٥ مخطوط .
(٣) نفس المرجع السابق ورقة ٤٥ مخطوط .
(٤) أحمد بن القاسم : المعزى فى أخبار أبى يعزى ص ٧ مخطوط .
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٩ .
(٦) العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ قسم ٢ ص ٢٦٨ .
(٧) التادلى : التشوف ص ٢٨٢ .

التالى بجلس الخليفة فى قصره وتأتيه الوفود وفى مقدمتها أشياخ الموحدين وأبناء الجماعة وطلبة الحضر والفقهاء والقضاة والكتاب على ترتيبهم ثم بقية الوفود وذلك للتهنئة بالعيد (١).

وفى بعض الأعياد كان الخليفة يفرق الأغنام على من حوله وذلك ما فعله الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى عيد الأضحى لسنة ٥٦٧ هـ ١١٧١ م حين وزع كباشا على اخوته وأشياخ الموحدين ووجوه دولته (٢) وقد بلغ عدد الأغنام التى فرقها المنصور الموحدى فى عيد سنة ٥٩٤ هـ ١١٩٧ م ثلاثا وسبعين الف شاه من ضأن وماعز وزعها على الأمراء والجند والفقراء (٣).

وكان القادرون من أفراد الشعب يشترون الكباش كى يضحوا بها فى عيد الأضحى (٤) وكمظهر من مظاهر الاحتفال بالعيد ، كان الناس يلبسون الملابس الجديدة مع التجمل والتزين فى أيام العيد (٥).

ومما يلحق بالاحتفالات الدينية تلك الاحتفالات التى يمتزج فيها الحزن بالمشاعر الدينية ، حيث كان الناس يخرجون فى شبه مظاهرة دينية للمشاركة فى جنازة أحد الصالحين من العباد والمتصوفين والذين امتلأت بهم المدن المغربية فى القرنين الخامس والسادس من الهجرة ، فابن العريف المتصوف والمتوفى بمراكش سنة ٥٣٦ هـ/ ١١٤١ م حين مات احتفل الناس بجنازته (٦) وأبو يعقوب يوسف بن عبد الله بن مصباح التادلى المعلم من داى من بلاد تادلة ونزل مراكش وبها مات سنة ٥٧٢ هـ/ ١١٧٦ م ، فحين مات لم يعلم بموته سوى نفر قليل من حوله ، فلما خرجوا بجنازته من باب الدباغين أتى

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٥٧ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٥١١ .
(٣) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٠١ .
(٤) التادلى : التشوف ص ٢٦٦ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٣٧ .
(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤١ ، ليفى بروفنسال : نخب تاريخية ص ٣٦ .
(٦) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ١ ص ١٥٢ .

الناس إليها من كل جهة واحتفلوا بجنازته وحضرها خلق كثير[1] وكذلك أبو إبراهيم إسحق محمد الهزرجي والمتوفى بمراكش سنة ٥٨١ هـ/١١٨٥ م[2]، وأيضا حين مات المتصوف أبو واجاج عفان بن إسماعيل المطماطي بمراكش سنة ٦٠٤ هـ ، احتفل بجنازته ودفن خارج باب أغمات[3] وهكذا كانت وفاة العباد والصالحين فرصة ينتهزها أبناء الشعب للاحتفال بجنائزهم وذلك للتعبير عن تقديرهم واحترامهم للصالحين من أبناء الأمة .

احتفالات عسكرية :

شهدت المدن المغربية منذ قيام دولة المرابطين كثيرا من الاحتفالات العسكرية والتي كان يخرج فيها الناس لمشاهدة عرض عسكري استعدادا لحملة أو خروج ولي الأمر على رأس جنوده إلى معركة من المعارك ، وما يصحب ذلك من مظاهر الفرح والابتهاج التي كانت تعم السكان .

وقد تعود ولاة الأمر استعراض جنودهم قبل الخروج إلى المعارك وذلك باستعراض كتائب الجيش وألويته والسلاح والعتاد أمام مرأى من الناس ، وقد استعرض تاشفين بن علي جنوده في تلمسان سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٣ م[4].

واتبع الموحدون عادة العرض العسكري ، وكانت من الأشياء المحببة إلى نفس الخليفة عبد المؤمن أن يجلس ويستعرض جنوده وكتائبه [5]، وكان الناس يخرجون لمشاهدة مواكب الجند وحشودهم وقد استمر العرض العسكري بمراكش سنة ٥٧٩ هـ/١١٨٣ م شهرا وذلك حين جهز الخليفة يوسف بن عبد المؤمن جنوده للعبور إلى الأندلس والناس يشهدون هذا العرض يقول ابن عذاري « وفيه — أي سنة ٥٧٩ — أمر أمير المؤمنين أبو يعقوب بتمييز الموحدين والعرب والقبائل للغزو .. وذلك التبريز بخارج

---

(١) ابن المؤقت : السعادة الابدية جـ ١ ص ١٢٨ .

(٢) التادلي : التشوف ص ١٥٢ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٤٢٠ ، ٤٢١ .

(٤) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١١٠ .

(٥) المراكشي : المعجب ص ٢٠١ .

مراكش والناس ينظرون فى ذلك كل يوم ، دام هذا الحال شهر جمادى كله »[١].

ولم يكن الاحتفال بالعرض العسكرى قاصرا على العاصمة ، ولكنه كان يشمل كل المدن التى يمر بها الجيش فى طريقه إلى المعركة ، ويأتى فى مقدمة هذه المدن مدينة تينملل العاصمة الأولى للموحدين ، حيث تعوّد خلفاء الموحدين زيارة قبر المهدى ومن دفن فيها من خلفاء الموحدين ثم التوجه بعد ذلك إلى المعركة[٢]وما يصحب هذه الزيارة من دخول مواكب الخليفة مدينة تينملل وخروج الناس لاستقبالهم والترحيب بهم يقول ابن عذارى، «وفى هذه الحركة — أى خروج المنصور الموحدى سنة ٥٨٢ هـ إلى قفصة — اخترع آفراك المعد لنزوله فى غاية الحسن والجمال وقدم الارتقاء إلى تينملل لزيارة قبر المهدى على جرى عوائد سلفه فى تيمنهم بتقديمه وقضاء حقه وتعظيمه »[٣].

ثم تستمر الاحتفالات فى سائر المدن التى يحل بها جيش الخليفة ، ففى مدينة فاس خرج الناس للاحتفال بجيش المنصور الموحدى سنة ٥٨٢ هـ/ ١١٨٦ م ، ونصبوا الموائد لإطعام الجند [٤].

وكانت مواكب الموحدين ونظمها وما يصحبها من دق للطبول ، ونشر للألوية سببا قويا فى احتشاد الناس لرؤية هذه المواكب والاحتفال بها وتوديعها أو استقبالها عند عودتها .

ولم تشر المراجع التى اطلعت عليها إلى النظام الذى اتخذه المرابطون فى مواكبهم ، وربما يرجع هذا إلى ميل المرابطين للبساطة وبعدهم عن كل مظاهر الفخامة ، مع طمس الموحدين لأخبارهم .

أما مواكب الموحدين فقد وضع نظامها وطريقة سيرها داعية الموحدين

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٥٤ ، ٥٥ تطوان .

(٢) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ٤٢ تطوان ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ١٥٩ .

(٣) نفس المرجع السابق جـ ٤ ص ١٠١ ، ١٠٢ تطوان .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠٣ تطوان .

ابن تومرت وقد أشار إليها ابن القطان بقوله « وعلم – أى ابن تومرت – الناس الحركة كيف تكون ، فأمرهم إذا عزموا على الركوب أن ينادى منادى : الاستخارة بالله والتوكل عليه ، وإذا تحركوا أن يقدموا أمامهم لواء أبيض مع عدد من الرجالة يكون بينه وبين الأمير مقدار ربع ميل ، ويكون الأمير متقدما على الناس خلف اللواء المذكور فى جملة من يختص به يحفون به ، ثم تتبعهم الرايات الكبار ، والطبول والعسكر المعروفون بالساقة ، ثم كل قبيل على ترتيب وحسن هيئة معه علاماته »[1].

وقد التزم الموحدون بهذا النظام وأضافوا إليه وضع مصحف سيدنا عثمان رضى الله عنه – وذلك بعد احضاره بواسطة الخليفة عبد المؤمن من الأندلس – مع مؤلفات المهدى محمولة على دابة مزينة بالأقمشة الفاخرة[2] .

وقد أعطانا ابن صاحب الصلاة وصفا تفصيليا لأحد مواكب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن حين عزم على العبور إلى الأندلس سنة ٥٦٦هـ/ ١١٧٠م وذلك بعد إعداد جنده ، خرج الموكب فى صباح يوم السبت الرابع من شهر رجب الموافق الثالث عشر من شهر مارس سنة ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م ، من باب دكاله ، وقد اجتمع الناس واحتشدوا لتوديع الخليفة الذى ملأت جنوده ساحة العرض ، فسارت كوكبة من الجند بأعلامها البيضاء ، ثم الخليفة وورائه الأعلام والطبول ، وأمام الخليفة مصحف سيدنا عثمان محمولا على جمل مرتفع وقد غطى بكلة حمراء تصونه ، وقد وضع فى حفاظ مرصعة بالجوهر النفيس والياقوت الأحمر والأصفر والأخضر والزمرد ، وأمام هذا المصحف مصحف المهدى بن تومرت ، وسار خلف الخليفة كبار رجال الدولة من أمثال الوزير أبى العلاء ادريس بن أبى إسحاق بن جامع والشيخ أبى محمد عبد الواحد بن عمر صاحب المهدى ومن أولاد الجماعة أبى عبد الله محمد بن أبى حفص بن على أزناق وأبى محمد عبد الله المالقى شيخ

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٧ .

(٢) التنسى : الدر والعقيان ورقة ٤٥ مخطوط ، المراكشى : المعجب ص ٣٣٩ ، ٣٤١ ، ٣٤٢ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٥ ، ١١٦ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٥٦ تطوان .

طلبة الحضر وقاضى الجماعة ، ثم بعد ذلك سائر الجند على ترتيب قبائلها ومنزلتها[1] وكانت أغلب هذه المواكب تخرج فى شهر صفر حيث كان الموحدون يفضلون السفر فى هذا الشهر[2] إلا إذا دعت الظروف للخروج فى غير هذا الوقت فإنهم كانوا يخرجون .

ومما زاد فى جمال هذه المواكب ، تلك الرايات والاعلام مع الطبول الضخمة التى كانت تصحب هذه المواكب ، فأما الرايات فلم يختص المرابطون بلون معين حيث استخدموا الرايات البيضاء والحمراء وغيرها من الألوان [3] أما رايات الموحدين فكانت الراية الأساسية بيضاء وقد كتب عليها فى عهد ابن تومرت « الواحد الله محمد رسول الله ، المهدى خليفة الله ، على جانب منها ، والجانب الآخر : وما من إله إلا الله ، وما توفيقى إلا بالله ، وأفوض أمرى إلى الله »[4]، واستمر اللون الأبيض مع بقية الخلفاء ، مع اتخاذهم لأعلام ملونة أخرى حمراء وصفراء وغير ذلك من الألوان[5] ولاشك أن هذه الأعلام بألوانها المختلفة كانت تبهج الناس وتسرهم .

وبجانب ذلك كانت هناك دقات الطبول ذات الأصوات الضخمة وقد استخدمها المرابطون فى جيوشهم [6] واتبعها الموحدون وجعلوا عدد الطبالين سبعة[7] ولهم رئيس ينظم ضرباتهم وكان رئيسهم فى عهد المنصور الموحدى يسمى خمادا[8] وكان من اختصاص الخليفة وحده أن يأمر بدق الطبل وليس

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٨ الى ص ٤٤١ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٦ ص ٨ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ٦٣ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٨٩ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٩١ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٩ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٥) ابن صاحب الصلاة: تاريخ المن ص٤٤٦ ، التنسى : الدر والعقيان ورقة ٤٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٥٦ تطوان ، الجيلالى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٩٢ .

(٦) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٣٨٣ .

(٧) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٢٥٩ .

(٨) العينى : عقد الجمان جـ ١ قسم ٢ ص ٢٣٣ .

لسواه ذلك(١) وهذا يرجع إلى أن دقات الطبل بمثابة الأوامر حيث أن دقاتها تشير إلى بدء حركة الجيش أو توقفه وبدء المعركة وكلها من الأمور الخطيرة . وكانت علامة المسير فى مواكب الموحدين ثلاث دقات تسمع على مسيرة نصف يوم(٢).

ومما يلحق بهذه المواكب العسكرية احتفالات النصر بمعركة من المعارك ، حيث كانت الفرحة تعم البلاد ويخرج الناس الأموال تصدقا على الفقراء وشكرا لله كما حدث فى نصر الزلاقة(٣). وتدق الطبول ابتهاجا بالنصر ، ويجلس الخلفاء فى مجالس التهنئة ، وما يصحب ذلك من توزيع الأموال وإقامة الحفلات حيث يقوم الفرسان بتقديم بعض الألعاب العسكرية ومن ذلك ما حدث بأشبيلية يوم أن دخلها المنصور منتصرا سنة ٥٨٥ هـ/١١٨٩ م « وفى يوم هذا الوصول نزل –أى المنصور الموحدى – على أشبيلية فى غاية الحفل ، وركب السودان على النجب البيض وبأيديهم الدرق وعلى رؤوسهم طراطير الطيلسان الشديدة الحمرة ، وصدور النجب منظومة بجلاجيل على شكل السفرجل والأغزاز بضروب الحلل ، فظهر مرأى تحار فيه الأبصار وتذهل الخواطر والأفكار »(٤). وهكذا كان الاحتفال بالخروج للغزو أو فرحا بالنصر مناسبة يشارك فيها السكان بالفرح والسرور .

احتفالات متنوعة :

وهى الاحتفالات التى كانت تقام فى العاصمة وغيرها من المدن المغربية بسبب حدث هام أو مجىء وفد أو تشييد إحدى المنشآت ، ويأتى فى مقدمة الأحداث الهامة التى كانت تمر بها البلاد ، تولى أحد خلفاء الموحدين منصب رئاسة الدولة فهذا يعنى مجىء كثير من الوفود المبايعة إلى العاصمة والاحتفال

---

(١) نفس المرجع السابق جـ ١ قسم ٢ ص ٢٣٣ .

(٢) اشباخ : تاريخ الاندلس جـ ٢ ص ٥٤ ، الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٢٧ .

(٣) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٦١ ، ٦٢ ت الفيلالى ، السلاوى: الاستقصا جـ ٢ ص ٤٩ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٣٨ تطوان .

بمبايعة الخليفة الجديد ، وبجانب ذلك كانت توزع الأموال ويصدر العفو عن المسجونين وما يصحب ذلك من فرحة وسرور تعم أرجاء البلاد[١] يقول ابن أبي زرع « ولما تمت له — أي للخليفة المنصور الموحدي — البيعة وأطاعته الأمة ، كان أول شيء فعله أنه أخرج مائة الف دينار ذهبا من بيت المال ففرقها في الضعفاء من بيوتات بلاد المغرب ، وكتب إلى جميع ولاته في تسريح السجون ورد المظالم التي فعلها العمال في أيام أبيه »[٢] ولاشك أن الإفراج عن المسجونين وتفريق الأموال يحدث موجة من البشر والفرح في نفوس المواطنين .

ومن الأحداث الهامة التي تقام فيها الاحتفالات ، استقبال الخليفة لوفد من الوفود حيث كانت تقام الاحتفالات ويجلس الخليفة لاستقبال الوفود القادمة ، وما يصحب ذلك من القاء القصائد والخطب في الحشود المجتمعة[٣] وقد أعطانا ابن صاحب الصلاة وصفا شائقا للاحتفالات التي أقيمت في العاصمة مراكش بمناسبة استقبال الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وفود العرب القادمة لمبايعته سنة ٥٦٦ هـ / ١١٧٠ م فما أن وصلت الأنباء باقتراب وفود العرب من العاصمة حتى صدرت الأوامر لجميع الموحدين أن يستعدوا ووزعت عليهم الدروع والبيضات والرماح والدرق والأسلحة والكسوات والرايات ، فلما كان يوم السبت وهو موعد اقتراب العرب من العاصمة ، بكر جميع الناس من الحفاظ والطلبة من الموحدين وجميع القبائل من العسكر وتوجهوا إلى باب قصر الخلافة ، وأحضرت معهم الطبول المربعة الأشكال وكان عددها مائة طبل ، فلما علم الخليفة باستكمال أسباب الاحتفال ، ركب الخليفة على فرسه الأشقر ، والوزير سائر على قدميه لصق ركابه ،

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٣٤٧ ، ٣٥٣ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١ تطوان ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٥٨ ، ١٥٩ ، ابن عبود : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٣٦ ، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٩٦ .

S.p. Scott : History of Moorish Empire. V.2, p; 77.

(٢) ابن أبي زرع : الانيس ص ١٥٦ ، ١٥٧ طبع حجر .

(٣) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٨٥ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١١٩ .

وقريب من الخليفة أبناء الخليفة وسائر كبار رجال الدولة ، وخلف هؤلاء ست عشرة راية من البنود المصنوعة المعدة لهذا الغرض ، وبيد كل رجل من أعيان الموحدين راية ، وعليه درع سابغة تلمع لمعان اللجين الخالص فى شعاع الشمس ومن معه يلبس درعا سابغة ، وكذلك سائر الأجناد من الحشم والروم والعبيد والجميع من الناس .

وخرج هذا الموكب والطبول تدق من باب الشريعة أحد أبواب مراكش إلى ساحة واسعة خارج العاصمة ، وأقيم للخليفة خباء نزل فيه هو وكبار رجال الدولة ثم أمر الخليفة بأن يقام عرض تبرز فيه ألوان المهارة فى الطعن والضرب بين جند الموحدين وجند العرب .

وأقيم العرض ، وقد أعجب الحاضرون من تنوع الألعاب والمهارة فى تأديتها ثم سمح الخليفة للقادمين بالاقتراب والسلام ، فجاءوا على ترتيب ، وقد تولى الوزير ترتيب دخولهم على الخليفة ، ثم أمرهم الخليفة بدخول العاصمة والنزول فى الأماكن المخصصة لهم ، وعاد الخليفة فى موكبه إلى العاصمة (١).

أما فى اليوم الثانى فقد أذن لهم فى الدخول على الخليفة فى قصره لمبايعته وأخذ العهد عليهم(٢)ثم أمر الخليفة بعد ذلك باقامة الموائد لاطعام العرب والناس الوافدين إلى البحيرة(٣)خارج مراكش مدة خمسة عشر يوما ، يدخل البحيرة فى كل يوم أزيد من ثلاثة آلاف رجل(٤).

وهكذا شهد سكان العاصمة موكب الخليفة ، والعرض الذى قدمه فرسان الموحدين والعرب وموائد الطعام التى مدت لاطعام القادمين ، وما تخلل ذلك من مظاهر الفرح والسرور .

---

(١) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٠ الى ص ٤٣٣ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٣٣ .
(٣) (البحيرة : عرفت البحيرة فى مراكش منذ أواخر أيام المرابطين فكانت ملتقى لمعركة بين عبد المؤمن والمرابطين ، لكن الموحدين عنوا بها كامل العناية واتخذوا منها مكانا لتجمعهم ، وهى تعنى نسيجا يحتوى على بركة مائية واسعة تحيط بها الخضرةبالاضافة الى اروقةياوى اليها رجال الحكم.
ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٣ حاشية) .
(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٣ .

كذلك الاحتفال الكبير الذى أقامه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن عند استقبال أخيه السيد أبى حفص فى العاصمة مراكش حيث خرج فى موكب ضخم ، وأقيمت فى الساحة المعدة لاستقباله أنواع الألعاب المختلفة مع دق الطبول واحتشاد الناس لرؤية هذا الاستقبال الكبير (١).

ومن الاحتفالات التى شهدتها العاصمة مراكش مناسبة شفاء الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وجلوسه للناس الذين اقبلوا من كل مكان لرؤية الخليفة والاطمئنان عليه وما صحب ذلك من احتفالات وتفريق الأموال (٢).

يضاف إلى الاحتفالات السابقة تلك الاحتفالات التى كانت تقام ابتهاجا باتمام بعض المنشآت ، ويأتى فى مقدمة تلك الاحتفالات ، الاحتفال الكبير الذى أقيم بجبل الفتح بعد إنشاء مدينة عليه بأمر الخليفة عبد المؤمن ، وكان الاحتفال سنة ٥٥٥ هـ/ ١١٥٩ م حيث جلس الخليفة ، وأتته الوفود من جميع أرجاء البلاد ومعهم الشعراء والأدباء حيث ألقيت الخطب والقصائد ابتهاجا بهذا العمل العظيم والخليفة يوزع الأموال بهذه المناسبة السعيدة (٣) وهكذا شهد الشعب المغربى العديد من الاحتفالات والتى شارك فيها معبرا عن فرحته وسعادته .

خامسا : وسائل التسلية

استمتع أفراد الشعب فى المغرب الأقصى بأوقات فراغهم بوسائل التسلية المختلفة ، وذلك ترويحا عن أنفسهم من عناء العمل وتجديدا للنشاط وبعثا للحيوية والقوة ، ومن هذه الوسائل ارتياد الحدائق والمتنزهات ، وسماع الموسيقى والغناء وغير ذلك من ألوان التسلية وشغل الفراغ .

١ — المتنزهات :

انتشرت فى كثير من المدن المغربية الحدائق والبساتين ، والتى اتخذها ولاة الأمر والناس مكانا للتنزه والترويح ، ويأتى فى مقدمة هذه الحدائق تلك

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٨٩ الى ص ٢٩١ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٤١٩ الى ص ٤٢١ .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ١٤٨ الى ١٥٩ ، ابن الخطيب : الاحاطة : القسم الاول ص ٢٢٣ ، ٢٢٤ ت عنان .

الحديقة الكبيرة التى انشأها الخليفة عبد المؤمن وتعهدها الخلفاء من بعده وغرس فيها أنواعا كثيرة من الثمار[1] وكذلك المتنزهات التى انشأها الموحدون بمدينة سلا[2] وحدائق سبتة والتى وصفها العمرى بقوله « وفى بر العدوة أماكن للفرجة متعددة آخذ هكذا بمجامع القلوب ، وأزمة الأبصار ببلونش متنزهه بظاهر سبتة على البحر فى نهاية من حسن الوضع وانحدار المياه التى لها على الصخور دوى والتفاف الأشجار .. »[3] واشتهر جبل غمارة بكثرة المتنزهات[4].

وكانت هذه المتنزهات مقصدا لخلفاء الموحدين وعامة الناس ، فالمنصور الموحدى كثيرا ما تريض فى البستان الكبير بمراكش[5] وقد ألحقت بهذه المتنزهات البرك المائية الكبيرة التى كان يتعلم فيها الطلبة الحفاظ السباحة ، بجانب أبناء الشعب وقد أشار صاحب كتاب الاستبصار إلى أنه كان يسبح فى هذه البركة « وبنى فيها — أى عبد المؤمن على — وخارجها صهريجين عظيمين كنا فى تلك المدة نعوم فيهما فلا يكاد القوى منا يقطع الصهريج إلا عن مشقة وكنا نتفاخر بذلك » [6].

وهكذا كان أبناء الشعب يجدون وسيلة للتسلية وذلك بالسباحة فى بركة البستان ، يضاف إلى ذلك أن الناس كانوا يستخدمون فيها الزوارق للنزهة والتسلية[7] وفى متنزهات سلا أعدت أماكن خاصة للخليفة وحاشيته ، حيث كانوا يجلسون لمشاهدة الزوارق وهى ممتلئة بركابها وقد أحاطت بهم مختلف الأشجار والثمار وقد وصف ذلك المكان صاحب كتاب الاستبصار بقوله « وناهيك من ساحل طوله نحو الميلين وعرضه نحو الميل مملؤ بالبشر والزوارق ،

---

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ ، ابن المؤقت : السعادة الابدية جـ ٢ ص ١٩٠ .
(٢) مجهول : الاستبصار ص ١٤١ .
(٣) العمرى : مسالك الابصار جـ ٣ قسم اول ص ١١٧ .
(٤) مجهول : الاستبصار ص ١٩٠ .
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٨٨ تطوان ، ابن المؤقت : السعادة الابدية جـ ٢ ص ١٩٠ .
(٦) مجهول : الاستبصار ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .
(٧) اكنسوس : الجيش العرمرم الخماسى لوحة ٢٠٢ ، عبد الله المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ١٠٣ .

فى الوادى بركابها ، والمنارة المطلة ، وعلاقات الثمار وعقد الزيتون ، وجدر الكرمات وقبب الجلوس للسادات أيدهم الله ظاهرة »(١) وهذا النص يشير إلى ذهاب الناس إلى الشواطىء للاستجمام .

كما كان يلجأ بعض الأفراد إلى إنشاء حديقة صغيرة ، فوق سطح منزله وذلك ليقضى فيها وقته مع أصحابه « فرفع إلى المنصور — أثناء وجوده بفاس سنة ٥٨٢ هـ أن أبا القاسم بن الملجوم بنى غرفة فى داره يشرف منها على بعض جيرانه وجعلها متنزها له ولاخوانه .... »(٢).

٢ — الموسيقى والغناء :

حين أقبل المرابطون إلى المغرب الأقصى ، حرص داعية المرابطين على القضاء على وسائل اللهو وحرق متاجر الخمر وذلك ما فعله بمدينة سجلماسة(٣) متبعا فى ذلك التعاليم الدينية التى يدعو إليها ، إلا أن هذه الشدة فى بدء قيام الدولة ، أخذت تخف حدتها بعد ذلك ، وصارت هناك بعض الجوارى اللائى يحسن الغناء مما مكن يوسف بن تاشفين من إهداء المعتمد بن عباد جارية مغنية (٩).

ثم مال المرابطون إلى ألوان الترف وذلك بعد احتكاكهم بالأندلسيين واطلاعهم على أساليب الحياة فى المدن الأندلسية مما جعلهم يتأثرون بحياة الرفاهية والمتعة التى كان يحياها أبناء الأندلس ، وصارت هناك المجالس التى يحضرها المغنون والشعراء(٥)، وأصبحت أدوات اللهو والغناء متوفرة فى المدن المغربية مما جعل ابن تومرت ينقم على المرابطين تهاونهم فى محاربتها ، وأخذ على عاتقه تكسيرها ، فحين دخل مدينة فاس وجد زقاقا به حوانيت امتلأت بالأنواع المختلفة من أدوات الموسيقى والغناء فكسرها هو وأصحابه(٦)

---

(١) مجهول : الاستبصار ص ١٤١ .

Nevill Barbour ; morocco p 50

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠٣ تطوان .

(٣) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٢٠

(٤) المقرى : نفح الطيب جـ ٦ ص ١٢ .

(٥) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٢٢ ، ٤٢٣ .

(٦) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٠٨ ت الفيلالى ، د. السيد عبد العزيز سالم : المغرب الكبير ص ٧٧٦ ، د. يحيى هويدى : أعز ما يطلب ص ٢٧٦ مجلد ٤ عدد ٥ تراث الانسانية سنة ١٩٦٦ .

يقول البيذق « فقال لنا — أى ابن تومرت لأصحابه — خفوا مقارعكم وسرنا معه ولا علمنا أين يتوجه حتى وصلنا زقاق بزقالة ، قال لنا تفرقوا على الحوانيت ، وكانت الحوانيت مملوءة رفوفا وقراقر ومزامير وعيدانا وروطا وأربية وكيتارات وجميع اللهو فقال لنا المعصوم اكسروا ما وجدتم من اللهو ... »(١).

واقتفى الخليفة عبد المؤمن سياسة المهدى فى محاربة وسائل اللهو والغناء ومحاربة المغنين وأخذ أصحابه بأحكام الدين يقول النويرى « ولا لهو ولا هزل تحت أمره — أى أمر عبد المؤمن بن على ، بل تلاوة كتاب الله العزيز ، ومدارسة الأحاديث الصحيحة النبوية ، والاشتغال بالعلوم الشرعية وإقام الصلوات فهذا كان دأب أصحابه »(٢).

إلا أن هذا التشدد من جانب الخليفة وأصحابه لم يجد استجابة كاملة من الشعب ، حيث وجدت أنواع الملاهى المختلفة فى المدن المغربية مما دفع الخليفة عبد المؤمن إلى إصدار منشور عام إلى أهل بجاية وغيرهم من سكان المدن المغربية سنة ٥٥٦ هـ/١١٦٠ م يتضمن عدة أوامر ومنها محاربة أصحاب الملاهى ومصادرة آلاتهم ، ومما جاء فيها « وآمر بالكشف عن التلصص والحرابة ، والتولج فى مكان الريب والغواية ، والاجتماع على السير الجاهلية والملاهى على فنونها وأنواعها وضروبها واختلاف آلاتها ، وما يتبعها من المناكر الناشئة عن أصل الجهالة .. فاكشفوا عن هذه الأصناف وأثيروهم عن مكامنهم .. »(٣).

وقد كرر المنصور الموحدى نفس أسلوب جده فى محاربة المغنين حيث انتشروا فى كل مكان ومن ثم أمر بالقبض عليهم ومصادرة آلاتهم فى سنة ٥٧٠ هـ/١١٨٤ م « ثم أمر — أى المنصور الموحدى — بقطع الملهين والقبض على من شهر من المغنين فثقف من وجد منهم بكل مكان ، فغيروا هيئاتهم

Julien : History de L'Afrique, p; 120, S.p. Scott; History of Moorish Empire P: 293.

(١) البيذق : أخبار المهدى ص ٦٤ ، ٦٥ .
(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ .
(٣) مجموع رسائل موحديه ص ١٣٣ ، ١٣٤ ت ليفى بروفنسال .

وتفرقوا على الأوطان وبارت سوق القيان وزهد كل الزهد فى هذا الشأن »[١] وهكذا لعبت المبادىء الدينية التى قامت عليها الدولة دورها فى محاربة المغنين » .

٣ — وسائل تسلية أخرى :

كانت بركة الماء التى انشأها الخليفة عبد المؤمن فى بستانه ، مكانا يسبح فيه أبناء العاصمة ، وقد سبق أن أشرت إلى ذلك ، وبجانب ذلك كانت هناك رحلات الصيد التى يخرج فيها الناس لصيد الحيوانات المختلفة من الغابات المنتشرة فى أرجاء البلاد ، فابن حماد صاحب بجاية ، حين استقر بمراكش بعد انتزاع ملكه كان يشغل نفسه بالصيد مستخدما فى ذلك شباك الحديد ، وفى بعض الأحيان كان يهدى ما يصطاده للخليفة عبد المؤمن[٢].

وقد يفد على البلاد صاحب ألعاب ، ليعرض فنونه على الناس ، ومن ذلك ما رواه العينى من أنه فى عصر المنصور الموحدى قدم إلى مراكش رجل يرقص الدب ومعه امرأته ليعرض ألعابه [٣].

سادسا : الطعام والشراب

تفنن سكان المغرب الأقصى فى صنع كثير من ألوان الطعام ، وصارت موائدهم حافلة بالأنواع المختلفة من الأطعمة والحلوى والأشربة وذلك خلال فترة البحث وقد ذكر مؤلف كتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس وهو معاصر لدولة الموحدين أكثر من خمسمائة لون من ألوان الطعام ، وقد اختلفت طريقة صنعها ، كما أن بعضها يعطينا صورة لمدى الثراء والرفاهية التى كان يعيش فيها بعض أفراد المجتمع .

وإذا تتبعنا ألوان الطعام بالمغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين لوجدنا أن القبائل القادمة من جنوب الصحراء وهى لمتونة ومسوفة وغيرها من القبائل الصنهاجية ، والتى كانت تمتهن الرعى ، اتخذت من لحوم الأغنام

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٨١ تطوان .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٣ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٥٥ .

(٣) العينى : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٤ .

وألبانها طعاما لها (١)، وقد يأكلون الخبز فى بعض الأحيان وذلك عن طريق القوافل التى تمر بهم وتهديهم الخبز والدقيق (٢).

فلما انتقلت هذه القبائل إلى المغرب الأقصى واختلط أبناؤها بسكان البلاد بدءوا يأكلون مما يأكل منه بقية الناس غير أن أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين ظل متمسكا بعاداته الأولى التى تربى عليها فى الصحراء وذلك أ برغم اتساع ملكه وسلطانه فقد ظل طعامه الشعير ولحوم الإبل وألبانها(٣) « وأكله — أى يوسف بن تاشفين — الشعير ولحوم الإبل وألبانها مقتصرا على ذلك لم ينتقل عنه مدة عمره »(٤).

وقد اشتهرت بعض المدن بألوان معينة من الطعام كطعام حصحصت المعروف بمراكش وهو لحم مخلوط ببعض التوابل(٥)وكاشتهار سكان مراكش وسكان تارودنت بأكل الجراد(٦).

وكان هناك طعام وطنى يأكلونه فى المناسبات الهامة ، هو طعام آسماس ولم تشر المراجع إلى مكوناته سوى ما ذكره البيذق من أن ابن تومرت حين صنع لأصحابه طعام آسماس وضع الملح بيده ، وأنه أكل من ذراع كبش كان فى الطعام مما يفيد أنه يتكون من كبش أضيف إليه الملح . وقد أكله جنود الموحدين بعد إحدى معاركهم مع المرابطين(٧)وحين انضم أحد زعماء

---

(١) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ١٦٤ ، ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٨٧ ، مجهول : تواريخ مدينة فاس ص ٢٧ .

Nevill Barbour ; morocco, p; 50,

S.p. Scott ; History of moorish Empire, V.2, p; 189.

(٢) مجهول الاستبصار ص ٢١٣ ، ٢١٤ ، ابن ابى زرع : الانيس ج ٢ ص ٦ ت الفيلالى .

مجهول الاستبصار ص ٢١٣ .

(٣) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٣٤ ت العبادى، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٤ ، ابن المؤقت : السعادة الابدية ج ٢ ص ٨٩

Budgett ; The moorish empire, p; 53.

(٤) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ٣٦ ت الفيلالى .

(٥) مجهول : كتاب الطبيخ فى المغرب والاندلس ص ٨٧ ، ت ميراندا مدريد سنة ٦٥ .

(٦) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٩ ، ٧٠ ، د. شعيرة : المرابطون ص ١٨ .

(٧) البيذق : اخبار المهدى ص ٧٣ .

المرابطين إلى الدعوة الموحدية وهو يحيى الصحراوى ، فرح الخليفة عبد المؤمن بانضمامه وصنع لهم طعام آسماس[١]وعندما تولى الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن الحكم صنع للناس طعام آسماس وأكلوه[٢]وهكذا كان طعام آسماس هو الطعام المفضل فى مثل هذه المناسبات السعيدة .

وهناك بعض ألوان الطعام المنسوبة إلى بعض الفئات والأشخاص ، ومن ذلك طعام الخاصة والمسمى بالصنهاجى الملوكى وهو مكون من لحوم البقر والغنم والدواجن ويستعمله الخاصة[٣]وطعام الأمخاخ وهو خاص بالملوك والرؤساء ويتكون من أمخاخ ما يذبح من الحيوانات والطيور [٤].

وبعض الأطعمة تطلق عليها اليهودية ومنها الفروج اليهودى[٥]والحجلة اليهودية[٦]وطعام الأحرش ، وكان يصنع للسيد أبى الحسن حفيد الخليفة عبد المؤمن والوالى على إقليم مراكش سنة ٥٨٢[٧]وكان يصنع له أيضا طعام الثومية[٨]أما الوزير سعيد بن جامع فكان يصنع له مجبنة البيض وهى من اختراع موسى بن الحاج يعيش المحتسب بمراكش[٩]وأبو العلاء ادريس أحد إخوة الخليفة يوسف بن المؤمن وكان واليا على سبتة فكان يصنع له بطريقة خاصة عجل مشوى[١٠]وطريقة صنعه تدل على مدى الرفاهية التى كان يتمتع بها الولاة وكبار رجال الدولة أما فى قصر المنصور الموحدى فكان يصنع له سنبوسك خاص بالقصر[١١].

وهناك أطعمة منسوبة فى طريقة صنعها إلى بعض البلدان الأخرى فمنها

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٩٤ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ١٢٠ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ١٢١ .
(٤) مجهول : كتاب الطبيخ ص ٢٤ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٣٥ ، ٣٦ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ٦٨ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ٦٧ ، ٧٠ .
(٨) نفس المرجع السابق ص ٢٢ .
(٩) نفس المرجع السابق ص ٤٦ .
(١٠) نفس المرجع السابق ص ٢٠٠ .
(١١) نفس المرجع السابق ص ٣٢ ، ٣٣ .

أطعمة مصرية كاللون المصرى[١] والمرزونة المصرية[٢] والفروج المصرى[٣].

ومنها ماينسب إلى الدولة العباسية كالدجاجة العباسية[٤] والبرمكية[٥] والبورانية منسوبة إلى بوران بنت الحسن بن سهل[٦].

ومنها ماينسب إلى الأندلس ومنها الحوت المروج [٧] وطعام المجبنة[٨]

ومنها ماينسب إلى أهل افريقية ومنها القرصة التونسية[٩] والمعسل المستخدم فى الولائم[١٠].

وهناك أطعمة تصنع بحسب فصول السنة ، فنى الصيف كان طعام الفروج بالقرع وطعام السكباج[١١] أما فى الخريف فكانت أنواع اللحوم المصنعة فى برمة[١٢]، أما فى الشتاء فاللحم السمين مضافا إليه بعض المواد[١٣].

وهكذا حفلت المائدة المغربية بأصناف الطعام والتى اختلفت بحسب المكان والزمان والطوائف والأشخاص وتنوع الأطعمة يشير إلى الرخاء الاقتصادى مع الرفاهية التى كان يحياها الشعب فى هذه الفترة ، مع الاستقرار الذى أتاح لهم التفنن فى اختراع واقتباس كل هذه الطرق فى صنع الطعام . وكان أكثر من صنف ولون يقدم على موائد كبار رجال الدولة ، فى نظام وترتيب[١٤] وهذا يدل على مدى التمدن الذى وصل إليه أبناء المغرب .

---

(١) مجهول : كتاب الطبيخ ص ٢١٣ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٥ .
(٣) مجهول : كتاب الطبيخ ص ٤١ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٧٢ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٤٥ .
(٦) نفس المرجع السابق ص ٤٨ .
(٧) نفس المرجع السابق ص ١٦٤ .
(٨) نفس المرجع السابق ص ١٧٦ .
(٩) نفس المرجع السابق ص ١٩٩ .
(١٠) نفس المرجع السابق ص ٢٠٦ .
(١١) نفس المرجع السابق ص ٢١٥ .
(١٢) نفس المرجع السابق ص ١١٠ ، ١١٢ .
(١٣) نفس المرجع السابق ص ١١٢ .
(١٤) نفس المرجع السابق ص ١١٢ .

أما الأشربة المشهورة والتى كان يقبل عليها أبناء الشعب فمنها شراب الرب وكان أكثر شراب المصامدة[1]وحين نصب الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الموائد لإطعام العرب سنة ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م صنع لهم نهرا من رب ممزوجا بالماء لشربهم [2]أى صنع لهم كميات ضخمة من شراب الرب تكفى هذه الجموع الكثيرة والرب هو الطبيخ الخاثر من عصير العنب[3]وكانوا يشربونه لأنه يبعث الحرارة فى أجسامهم وبذلك يتحملون شدة برد جبل درن[4].

ويبدو أن الناس أسرفوا فى تخميره حتى صار مفعوله مفعول الخمر مما دفع الخليفة عبد المؤمن إلى إصدار رسالة سنة ٥٥٦ هـ/١١٦٠ م يأمر فيها بالكشف عن شراب الرب وصانعيه ومدى مطابقته للشرع وقد جاء فيها « وآمر بالنظر فى الربوب وتمييزها والهجوم على بائعيها ومدمنى شربها ومستعمليها فيراق مسكرها ، ويقطع منكرها ، وليعمد إلى من عمل المسكر الحرام عامدا ، وشربه مدمنا عليه ومعاهدا ولم تردعه الحدود .. فيمحى أثره ، ويحذف خبره »[5].

إلا أن بعض أفراد الشعب استمر فى اتخاذ الرب كمادة مسكرة وذلك بزيادة تخميره مما دفع المنصور الموحدى سنة ٥٨٠ هـ/١١٨٤ م إلى تحريمه نهائيا وذلك عن طريق رسالة أصدرها من العاصمة تحمل هذا الأمر « فان تجوزوا فى أمر الرب تجوزا أغفلوا فيه الاجتهاد ، ورتعوا حول حماه أوقعهم فيه .. ولم يزل الاشتداد فى هذا الأمر القائم بالحق ... يتناولهم بأبلغ الزجر والقمع والاحتساب ... والحال الذميمة يزداد بهم تماديها ... والذى أطلقه هذا الأمر العزيز منه وأجاز فيه مباح البيع والشراء ما أنهى طبخه غاية

(١) مجهول : الاستبصار ص ٢١١ .
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٣٣ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ١٧٤ حاشية .
(٤) مجهول : الاستبصار ص ٢١٢ .
(٥) مجموع رسائل موحديه ص ١٣٣ .

الأنهاء ، وصير جرمه فى قوام الطلاء كما فعل عمر رضى الله عنه ... ولما تقرر عندنا من الالتباس فى ذلك ما تقرر .. رأينا والله المستعان .. أن قطعه بالكلية أخلق بالاحتياط لدينهم وأجدر ... فإذا وا فاكم كتابنا هذا بحول الله عز وجل فاقطعوه جملة وتفصيلا ولا يوجد أحد إلى بيعه سبيلا واشتدوا فى ذلك اشتدادا ... وعاقبوا من تجدونه عنده أشد عقوبة »[1].

وهكذا حرم مشروب الرب حين تغالى الناس فى طبخه فصار مسكرا كالخمر ومن هنا صار محرما .

وكان المصامدة يشربون أيضا شراب آنزيز وهو حلو وله تأثير شديد كالخمر [2]أما طريقة صنعه فانهم يأخذون عصير العنب الحلو فيطبخونه بالنار إلى أن يذهب منه الثلث ويزال عن النار ويرفع ويخلطونه بما يماثله من الماء ثم يشربونه[3]، أما قبائل صنهاجة فكانوا ينقعون الزبيب فى الماء ويشربون صفوه نقيعا حلوا[4]وهكذا تعددت الأشربة وتنوعت .

سابعا : الملابس

انتشر استخدام الملابس الصوفية بين السكان فى عهد المرابطين وأصبح أكثر الناس يلبسون الأكسية الصوفية والعمائم على رؤوسهم ، وهذا يرجع إلى وفرة الأغنام التى كانت ترعى فى سهول المغرب وهضابه ومن جلودها تؤخذ الأصواف اللازمة لصنع الملابس ، بالإضافة إلى أن كثيرا من القبائل التى انتقلت من الجنوب وأقامت بالمغرب الأقصى كانت ملابسها مصنوعة من الصوف ، فملابس لمتونة ولمطة كانت أكسية الصوف وعلى رؤوسهم عمائم الصوف المسماة بالكرازى[5]وقد ظل أمير المسلمين يوسف ابن تاشفين مستمسكا بملابسه الصوفية ، بالرغم من اتساع سلطانه وعظم

(١) مجموع رسائل موحديه ص ١٦٤ الى ص ١٦٧ .
(٢) الادريسى : وصف المغرب والاندلس ص ٦٢ .
(٣) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٣ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٥٩ ، ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١٠ .
(٥) الادريسى : وصف المغرب ص ٥٨ .

نفوذه(١)، «لباسه — أى يوسف بن تاشفين — الصوف لم يلبس قط غيره»(٢)

وكانت ألوان ملابسهم متنوعة، وقد غلب عليها اللون الأسود وخاصة بعد اتصالهم بالخلافة العباسية مستمدين منها الصفة الشرعية لحكم البلاد، ومن هنا كانت أعلامهم وملابسهم سوداء(٣) وبجانب ذلك كانت الألوان الأخرى من ملابس كحلية اللون (٤) أو الملابس الصفراء والبيضاء (٥).

أما الجندى المرابطى فكان يتزى باللثام والغفارة القرمزية وهى نوع من الكساء والعمامة ذات الذؤابة (٦).

ومما يتصل بملابس المرابطين اتخاذهم اللثام على وجوههم، وصار هذا اللثام علامة مميزة لهم حتى نسبوا إليه وأطلق عليهم الملثمون وقد وصف البكرى طريقتهم فى اتخاذ اللثام «وجميع قبائل الصحراء يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه ولا يفارقون ذلك فى حالة من الأحوال ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا إذا انتقب، وكذلك فى المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعه لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم»(٧).

وقد اختلفت الآراء فى سبب اتخاذهم اللثام :

فهناك رأى يشير إلى أن مرد ذلك إلى ظروف الطقس التى كانوا

---

(١) ابن الخطيب : أعمال الاعلام القسم الثالث ص ٢٣٤ ت العبادى، ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ٨٩، ابن ابى دينار : المؤنس ص١٠٤،

Budgett Meakins ; The Moorish Empire, P ; 53

Nevill : A Survey of North West Africa, P : 24

(٢) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣٦ ت الفيلالى .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٣٦، د. السيد عبد العزيز سالم، المغرب الكبير ص ٧١٧، د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى المغرب ص ١٠٠ .

S.P Scott : History of Moorish Empire, Vol, 2 P: 180

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٨٩

(٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ١٤٥ .

(٦) ابن غازى : الروض الهتون ص ٦ .

(٧) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد أفريقية ص ١٧٠ .

يعيشون فيها من شدة الحر والبرد ومن هنا لجأوا إلى اللثام لحماية وجوههم[1]

وهناك رأى يشير إلى حادثة وقعت لنساء المرابطين أثناء هجوم العدو على مضاربهم فى غيبة رجالهم فتلثموا وقاتلوا ، وقد استحسن الرجال اللثام ليخدعوا به العدو ، ومن ثم أصبح اللثام لهم عادة [2].

ورأى آخر يشير إلى اعتقاد قبائل صنهاجة بأن الفم عورة يستحق الستر ومن هنا اتخذوا اللثام[3].

ويبدو أن الرأى الأول هو أرجح الآراء حيث أن مواطن قبائل المرابطين كانت الصحراء بمناخها المتطرف ، ومن ثم اتخذوا اللثام وقاية لوجوههم من شدة الحر فى الصيف وشده البرد فى الشتاء ، وقد أصبح لهم عادة نشأوا عليها ، وقد خدمتهم هذه العادة فى بعض أعمالهم العسكرية ، ومن هنا أبقوا عليها حتى بعد نزوحهم إلى المغرب الأقصى .

وأصبح اللثام يشير إلى وضع اجتماعى متميز إذ أنه علامة لولاة الأمر وكبار رجال الدولة وأبناء القبائل المرابطية ، وهو بهذا يشير إلى معنى الزعامة والسيادة ، ومن هنا حين عزم أبو إسحاق باران بن يحيى المسوفى وهو من زعماء المرابطين اتخاذ التصوف طريقا له فى الحياة ، أمره الشيوخ بأن ينزع اللثام وأن يذهب إلى السوق ، ويأتى حاملا طبقا على رأسه علامة على الإنكسار والخضوع وقد نفذ ذلك وصار من المتصوفين[4].

وقد اتخذ بعض العامة اللثام زيا لهم تطاولا على الناس وترفعا ومن هنا حتم ابن عبدون بأن اللثام لابد أن يكون خاصا بالصنهاجى أو اللمتونى أو اللمطى

---

(١) العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ قسم ٣ ص ٥٩٨ ، ٥٩٩ ، النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٩ . ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٦ ص ١٢٨ ، د. يحيى هويدى : تاريخ فلسفة الاسلام جـ ١ ص ١٩٥ ، S.P. Scott : History of Moorish Empire, V.2 P ; 170.

(٢) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٧٩ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨ ، ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٦ ص ١٢٩ ، د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٥٠ .

(٣) ابن حوقل : صورة الارض ص ٩٩ .

(٤) التادلى : التشوف ص ٢٤١ ، ٢٤٢ .

بالأندلس[١] وهو يريد بذلك أن يسد الباب على العبيد والحشم وغيرهم ممن يستترون وراء اللثام طلبا للرفعة والمكانة بين الناس [٢].

وقد عاب ابن تومرت اتخاذ المرابطين هذا اللثام وهاجم أمير المسلمين على بن يوسف حين التقى به فى صلاة الجمعة بالمسجد الجامع ورد على من طالبه بتحية أمير المسلمين قائلا ، « وأين الأمير إنما أرى جوارى منقبات فلما سمع ذلك على بن يوسف حط النقاب عن وجهه وقال لهم صدق[٣] » وهى رواية مشكوك فى صحتها وخاصة من حيث الاستجابة السريعة لأمير المسلمين وخلعه للنقاب ، إذ أن هذه عادة متوارثة كما أن الذى أورد هذا الخبر هو البيذق تلميذ ابن تومرت .

وقد أورد ابن تومرت فى كتابه أعز ما يطلب بابا فى وجوب مخالفة المرابطين فى زيهم وتحريم الاقتداء بهم ومن ذلك قوله « أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمخالفة أهل الباطل فى زيهم وأفعالهم ... وكذلك المجسمون — أى المرابطون — الكفار وهم يتشبهون بالنساء فى تغطية الوجه بالتلثم والتنقيب ويتشبه نساؤهم بالرجال فى الكشف عن الوجوه بلا تلثم ولا تنقيب والتشبه بهم حرام »[٤] وهكذا اتخذ ابن تومرت من اللثام مادة لمهاجمة المرابطين والتقليل من شأنهم .

فإذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا المصامدة وهم القبائل المؤسسة للدولة وغالبية سكان المنطقة ملابسهم من الصوف ويحتزمون فى أوساطهم بمآزر صوف ويسمونها أسفاقس مع ترك رؤوسهم عارية[٥] وقد حث ابن تومرت أتباعه على التقشف فى إرتداء الملابس والاقتصار على القصير من الثياب القليل الثمن[٦]، وضرب لهم المثل فى ذلك حين ارتدى عباءة مرقعة

---

(١) ابن عبدون : رسالة فى الحسبة ص ٢٨ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٨ .
(٣) البيذق : أخبار المهدى ص ٦٧ ، ٦٨ .
(٤) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٢٦٣ .
(٥) الادريسى : وصف المغرب ص ٦٢ ، ابن سعيد : نزهة الانظار جـ ١ ص ١١ .
(٦) ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٦ .

زهدا فى الغالى من الثياب (١).

وقد اقتدى به خليفته عبد المؤمن ، فكان يلبس ثياب الصوف المكونة من قميص وسروال وجبة(٢)وذلك برغم اتساع سلطانه والأموال الكثيرة التى تدفقت على خزانة الدولة ، غير أن هذا التقشف والزهد فى ارتداء الملابس الغالية لم يستمر عقب الخليفة عبد المؤمن ، إذ أقبل أفراد الشعب ورجال الدولة على ارتداء الملابس الحريرية المطرزة ، وقد غالوا فى ذلك مما دفع الخليفة المنصور الموحدى إلى إصدار أمر ببيع مافى خزائن الدولة منها ، وطالب الرعية بالتخفيف من إرتداء هذه الملابس مع التقليل من تطريزها ، يقول ابن عذارى « ثم أمر — أى المنصور الموحدى سنة ٥٨٠ هـ — بقطع لباس الغالى من الحرير والاجتزاء منه بالرسم الرقيق الصغير ، ومنع النساء من الطرز الحفيل وأمر بالاكتفاء منه بالسادج القليل ، وأمر باخراج ما كان فى المخازن من ضروب ثياب الحرير والديباج المذهب فبيعت منه ذخائر لا تحصى بأثمان لم تعرف ولم تستقص »(٣)أما هو فقد ارتدى الملابس الصوفية(٤)وكانت له ملابس خاصة فى مواكبه وأثناء جلوسه للناس وهى عبارة عن غفارة زبيبة وهى نوع من الكساء مع برنس مسكى أى رداء متصل بغطاء للرأس فى لون المسك(٥).

أما جنود الموحدين فقد أشار ابن صاحب الصلاة إلى نوع الثياب التى كانت توزع عليهم من قبل الخلافة ففى سنة ٥٥٨ هـ/١١٦٢ م وزع الخليفة عبد المؤمن على جنوده الثياب والكساء والعمائم والبرانس(٦)وفى سنة ٥٦١ هـ وزع عليهم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن كسوة تامة لكل جندى وهى

---

(١) ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٩ ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ٥ .
(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٢ .
(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٨١ تطوان .
(٤) العينى : عقد الجمان ج ١ قسم ٢ ص ٢٣٢ .
(٥) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٠٣ ، ١٠٤ تطوان .
(٦) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢١٥ .

مكونة من غفارة وعمامة وكساء وقبطية وشقة[1] وفى سنة ٥٦٦ هـ/١١٧٠ م وزع على الموحدين نفس الثياب وزاد عليها مقطعين مهدويين [2].

وكان اللون الغالب على ملابسهم اللون الأبيض وهم فى ذلك مقتدين بداعية الموحدين ابن تومرت الذى كان يقتدى بسنة النبى صلى الله عليه وسلم فى أفعاله وأقواله ، ومن ناحية أخرى فان اللون الأبيض مخالف لملابس أعدائهم المرابطين التى كان يغلب عليها اللون الأسود .

وقد حدد المنصور الموحدى لليهود زيا خاصا يتميزون به بين طوائف المجتمع وذلك حتى يمكن التميز بينهم وبين غيرهم من المسلمين وخاصة بعد ادعائهم الإسلام ظاهريا[3] وقد وصف ابن عذارى هذا الزى « فجعل — أى المنصور — لهم صفة كحداد ثكلى المسلمين أردان قمصهم طول ذراع فى عرض ذراع زرق وبرانيس زرق وقلانس زرق وذلك فى خمس وتسعين المؤرخة سنة ٥٩٥ هـ »[4] ويبدو أن اليهود قد عانوا من هذا الزى معاناة شديدة ومن ثم توسلوا للخليفة الناصر فى تغيير هذا الزى حتى سمح لهم بارتداء ثياب صفر وعمائم صفر[5].

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٦١ (الغفارة : كساء يلبس فوق آخر ، والقبطية هى ثوب أبيض رقيق من الكتان ، والشقة وهى ما شق من الثياب على شكل مستطيل حاشية ص ٢٩١ تاريخ المن) .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٤٥٠ (المقطع المهدوى يغلب أن يكون قميصا يلبس تحت الملابس حاشية تاريخ المن ص ٤٥٠) .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٣٠٤ ، الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١١، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٥٦ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٨١ تطوان .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٣٠٤ .

الفصل الخامس

الحياة الفكرية

عاش المغرب الاقصى فى ظل نهضة فكرية أظلته منذ قيام دولة المرابطين وهذا يرجع إلى إزدهار الحياة الدينية بما تضمنته من دعوتين دينيتين : دعوة المرابطين ودعوة الموحدين وما دار حولهما من صراع فكرى واتجاهات دينية ، ونتج عن ذلك تنوع فى الدراسات الدينية .

وبجانب الحياة الدينية الحافلة ، كانت هناك الحياة الأدبية من أدب ولغة والحياة العلمية من فلسفة وطب وعلوم اجتماعية وغيرها ، وصارت المدن المغربية تزخر بطلاب العلم فى العلوم المختلفة ، ونشطت حركة التأليف، وصار للمغرب الأقصى دوره الواضح فى تغذية شريان الثقافة الإسلامية ، بما قدّم من علم وعلماء .

وقد تضافرت عدة عوامل على دفع الحركة الفكرية بالبلاد ، ويمكننا أن نجملها فيما يأتى :

أولا : استقرار الأوضاع بالبلاد : استقرت أوضاع المغرب الأقصى منذ أن استولى عليها المرابطون ، حيث استطاعوا توحيد مناطقه المختلفة فى ظل حكومة مركزية واحدة ، وكذلك فعل الموحدون وأحس السكان بحزم ولاة الأمر وسيطرتهم على انحاء البلاد ، وتمخض هذا عن استقرار وطمأنينة عمت السكان .

وفى مناخ الاستقرار نمت الحركة الفكرية وترعرعت فروعها حتى صارت وارفة الظلال تعطى أطيب الثمار ، وقد صاحب هذا الاستقرار امتداد سلطة أبناء المغرب الأقصى إلى خارج حدودهم ، فصارت فى عهد على بن يوسف من سجلماسة فى الجنوب إلى شمال بلاد الأندلس[1] أما فى دولة الموحدين فقد امتدت حدودهم شرقا إلى افريقية وهى تشتمل على

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٧٨ ، ٧٩ ت الفيلالى .

معظم الشمال الإفريقي بالإضافة للاندلس وقد صاحب ذلك تدفق الأموال على عاصمة الخلافة وازدهار فى الحياة الاقتصادية مما ساعد على استقرار أوضاع البلاد ، وهذا بدوره يهيء المناخ العلمى الذى يدرس فيه الطلبة ويجعلهم يقبلون على البحث والتحصيل يضاف إلى ذلك اضطراب الأوضاع فى افريقية خلال حكم المرابطين نتيجة للغزوة الهلالية المدمرة مما دفع الكثير من علماء افريقية إلى الهجرة إلى المغرب الأقصى والأندلس[١].

ثانيا : تشجيع ولاة الأمر للعلم والعلماء : فالدولتان المرابطية والموحدية قامتا على مبدأ دينى وقد نشأ يوسف بن تاشفين مؤسس دولة المرابطين وعبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين فى مهاد دعوتين دينيتين ، وتتلمذا على عالمين : ابن ياسين وابن تومرت ، ومن جاء بعدهما من ولاة الأمر نهاوا من العلوم الدينية[٢]فكان من الطبيعى أن يشجعوا العلماء ويقربوا إليهم رجال الدين والأدب .

وقد سبق أن تناولت كيف أن ولاة الأمر فى الدولة المرابطية ، كانوا يخضعون لسلطة الفقهاء ، وأوضحت مدى تغلغل نفوذهم فى الدولة المرابطية وخاصة فى عهد على بن يوسف بن تاشفين ، ومنذ الفترة الأولى لدولة المرابطين وجدنا يوسف بن تاشفين محبا للعلماء والفقهاء ، مقربا لهم صادرا عن رأيهم[٣]وكيف أن العلماء فى كل فن توجهوا إلى العاصمة ليحظوا بمنزلة التكريم التى كان يسبغها يوسف بن تاشفين عليهم[٤]وكذلك أمير المسلمين على بن يوسف فى تكريمه للعلماء والفقهاء حتى صارت أحكام البلاد راجعة إليهم صادرة عنهم[٥].

وكذلك الشأن فى الدولة الموحدية حيث كرّم الخليفة عبد المؤمن العلماء

(١) ابن خلدون : مقدمة ابن خلدون ص ٤٣١ ، د. حسن محمود : الاسلام والثقافة فى افريقية جـ ١ ص ١٧٩ ط ٢ سنة ٦٣ ، د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٨ ، ١٩ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٧٢

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ١٠٥ .

(٣) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ٣٨ ت الفيلالى ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٩ ، ابن المؤقت : السعادة الابدية جـ ٢ ص ٨٩ .

(٤) المراكشى : المعجب ص ١٦٣ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ١٧١ .

عارفا بأقدارهم[١] مما دفع الكثير من العلماء إلى التوجه إليه والانضواء تحت لوائه[٢] وكذلك الخليفة يوسف بن عبد المؤمن وابنه المنصور الموحدى الذى قرب العلماء إليه وأحبهم وشاورهم وجعلهم أهل خدمته وخاصته[٣].

ومن هذا نرى أن حب ولاة الأمر للعلماء ، جعلت العلماء ينصرفون إلى البحث والتحصيل وخاصة أن ذلك سيعود عليهم بالمنزلة السامية فى الدولة فضلا عن الغنى والثراء .

وقد سبق أن أشرت إلى مدى ما كان يتمتع به الفقهاء والعلماء من ثراء وغنى فى عهد المرابطين والموحدين ، يضاف إلى ذلك الحماس الذى أبداه ولاة الأمر فى بناء المؤسسات التعليمية من مساجد ومدارس وغير ذلك ، مما كان له أثر بالغ فى دفع الحركة التعليمية بالبلاد ، وقد تميز العهد الموحدى بالحرية الفكرية إذ سمحوا بدراسة بعض العلوم والتى لم يكن مسموحا بها من قبل فى عهد المرابطين كعلم الكلام والفلسفة .

ثالثا : الصلة الوثيقة بين المغرب والأندلس : وقد تحققت هذه الصلة الوثيقة منذ أن أصبح الأندلس إقليما تابعا للمغرب الأقصى فى عهد يوسف بن تاشفين وأطلع أمراء المرابطين وقادتهم على الحركة الفكرية المزدهرة فى مدن الأندلس المختلفة مما دفعهم للاستفادة منها فى المغرب ، وقد رأينا كما سبق أن أوضحت كيف أن ولاة الأمر من المرابطين ومن جاء بعدهم من الموحدين كانوا يرحبون بالعلماء والأدباء الأندلسيين ، ويغدقون عليهم الصلات ، ويتخذون منهم الوزراء والكتاب والقضاة وغير ذلك فى مناصب الدولة المختلفة .

يضاف إلى ذلك هجرة الكثير من العلماء فرارا من المعارك الطاحنة

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٣ ، ١١٤ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٠٠ .
(٣) ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ١٦٥ .

التى شهدتها منطقة الأندلس خلال حكم المرابطين والموحدين ضد الفرنج مما دفعهم إلى الانتقال إلى المدن المغربية لينعموا بالاستقرار والطمأنينة فضلا عن التكريم والترحيب من ولاة الأمر والشعب المغربى ، وإن من أعظم الآثار التى نتجت عن إخضاع الأندلس للمرابطين والموحدين ، ذلك الانفتاح الفكرى الأندلسى على المغرب حيث تدفقت الثقافات الأندلسية المتنوعة على المغرب الأقصى ، وانتقل أبناء المغرب الأقصى من قادة ورعية لينهلوا من علوم الأندلس دون قيد على حركتهم ، وأثمر كل هذا ثورة ثقافية بالمغرب الأقصى أحدثتها تلك الصلة الوثيقة بالأندلس .

رابعا : رغبة الكثير من أبناء المغرب فى طلب العلم : فى ظل الاستقرار الذى ساد البلاد ، مع تشجيع ولاة الأمر للعلم والعلماء وبنائهم للمؤسسات التعليمية المختلفة ، وما صاحب ذلك من مجىء الكثير من علماء الأندلس وإفريقية إلى المغرب الأقصى ، كل هذه العوامل أذكت رغبة التعلم لدى أبناء المغرب الأقصى ودفعتهم إلى الاستزادة منه والحرص عليه ، وخاصة أن مناصب الدولة ووظائفها كانت قاصرة على المتعلمين والمثقفين . وقد سبق أن أشرت كيف أن الخليفة عبد المؤمن أسس مدرسة خاصة لتخريج طائفة من الإداريين جمع فيها ثلاثة آلاف من أبناء القبائل المختلفة ووضع لهم برنامجا تعليميا خاصا ،

هذه الحركة العلمية دفعت الكثير من أبناء المغرب للارتحال لطلب العلم من منابعه المختلفة سواء أكانت فى المشرق أو الأندلس ، ويأتى فى مقدمة هؤلاء ابن ياسين داعية المرابطين حيث أمضى سبع سنوات فى الأندلس ينهل من العلوم المختلفة وجمع منها الكثير (١) كذلك داعية الموحدين ابن تومرت ، وقد سبق أن أشرت إلى رحلته فى المشرق والتى التقى فيها بكثير من العلماء ثم عاد إلى المغرب الأقصى وأحدث ثورته الفكرية والعسكرية ، وأيضا أبو موسى الجزولى عيسى بن عبد العزيز من مراكش وتوفى بها فى سنة ٦١٠ هـ وقد قام برحلة إلى مصر لتلقى العلم ثم عاد ليدرس بمدن المغرب المختلفة (٢)

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٠ بيروت .
(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٩٢ .

وكذلك القاضى عياض إمام وقته فى الحديث وعلوم النحو واللغة وكلام العرب ، رحل إلى الأندلس طلبا للعلم(١).

ومن ناحية أخرى كان المغرب الأقصى مقصدا لطلاب العلم ، حيث أقبل الطلبة من أماكن متفرقة يطلبون العلم على يد علمائه وأساتذته ومن هؤلاء ابن دحية والمولود فى بالأندلس سنة ٥٤٧ هـ/١١٥٢ م حيث رحل إلى مراكش طلبا للعلم ومكث فترة فى مدن المغرب المختلفة لتلقى العلم(٢)وقد حفلت كتب الطبقات بأسماء هؤلاء الذين تلقوا العلم فى الخارج وهؤلاء الذين قصدوا المغرب الأقصى لتلقى العلم .

وهكذا تضافرت العوامل السابقة على دفع الحركة الفكرية فى البلاد ، وساعدت على نموها وازدهارها .

المراكز الفكرية :

نشطت الحركة الفكرية بالبلاد ، وأصبحت المدن المغربية تعج بطلاب العلم والعلماء ، وصارت المساجد والمجالس وغيرها تشهد المناقشات الفقهية واللغوية والأدبية وغير ذلك مما حفلت به الحياة الفكرية فى البلاد ، وصارت المدن المغربية نجوما تتلألأ بما فيها من معارف وعلوم .

ويأتى فى مقدمة هذه المدن عاصمة البلاد مراكش حيث كان العلماء يشدون إليها الرحال من الأندلس وغيرها ، ليعيشوا فى كنف ولاة الأمر الذين شجعوا العلماء على البقاء بجوارهم لتزدان بهم عاصمتهم وليستزيدوا من علومهم ومعارفهم ومن هنا صارت العاصمة مهبطا لرواد الثقافة من أعلام الفكر بالأندلس(٣)وحتى أصبحت مراكش تضاهى بغداد فى ازدهار العلوم وكثرة العلماء ، يقول ابن المؤقت « وبنى يوسف بن تاشفين مدينة مراكش ... ولما ملكها عبد المؤمن صارت مدينة الخلفاء من أهل بيته ، وصارت تضاهى بغداد فى العظم بكثرة الرؤساء والعلماء والأدباء »(٤).

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٣ ص ١٥٢ .
(٢) ابن دحية : المطرب ص هـ مقدمة المحقق .
(٣) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١١٠ .
(٤) ابن المؤقت : السعادة الابدية جـ ١ ص ١٥ .

وشاركتها مدينة فاس ، تلك المدينة التي أسسها ادريس بن عبد الله لتكون عاصمة لدولته والتي صارت لها مكانتها الدينية في تاريخ البلاد ، حتى جاء المرابطون والموحدون فأولوها اهتمامهم وعنايتهم بالبناء والتعمير ، وأصبحت فاس كعبة للعلماء من كل مكان ، حيث ازدهرت فيها العلوم الدينية في مساجدها المتعددة وخاصة في مسجدها الكبير جامع القرويين الذى ظل مركزا اشعاع علمي يقصده الكثير من طلاب العلم[١]وأبو مدين شعيب المتصوف والمتوفى سنة ٥٩٤ هـ/١١٩٧ م حين أراد أن ينهل من العلوم الدينية ويتزود منها نصحه الكثير بالتوجه إلى مدينة فاس ، وهناك وجد أبو مدين بغيته حيث مجالس العلم المتعددة[٢]وصارت مدينة فاس نجما يتألق بما فيها من تيارات ثقافية وبما يموج بداخلها من حركة علمية مما دفع المراكشي إلى وصف مدينة فاس بقوله « ومدينة فاس هذه هي حاضرة المغرب في وقتنا هذا — يقصد حاضرته العلمية — وموضع العلم منه ، اجتمع فيها علم القيروان وعلم قرطبة ، إذ كانت قرطبة حاضرة الأندلس كما كانت القيروان حاضرة المغرب ، فلما اضطرب أمر القيروان بعيث العرب فيها واضطرب أمر قرطبة باختلاف بني أمية بعد موت أبي عامر محمد بن أبي عامر وابنه ، رحل من هذه وهذه من كان فيهما من العلماء والفضلاء من كل طبقة ، فرارا من الفتنة ، فنزل أكثرهم مدينة فاس فهي اليوم على غاية الحضارة »[٣].

وكذلك مدينة سبتة ، حيث أدى موقعها إلى أن تكون ملتقى لكثير من المؤثرات الأندلسية والمغربية[٤]ومن اشتهر بالتدريس فيها القاضي عياض وعمر ابن عبد المجيد الرندى والعالم أبو علي بن عاشر قريعات وغيرهم من كبار العلما[٥].

وبجانب مراكش وفاس وسبتة كانت هناك مدن مغربية أخرى كتلمسان ومكناسة وسجلماسة حفلت بالنشاط العلمي .

---

(١) عبد الهادى التازى : أحد عشر قرنا في جامعة القرويين ص ١٤ ، د. أحمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٦ ص ١٧٤ .
(٢) التادلى : التشوف ص ٣١٦ ، ٣١٧ .
(٣) المراكشى : المعجب ص ٣٥٧ ، ٣٥٨ .
(٤) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٣٢ .
(٥) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٦٦ .

وقد استمدت الحركة الفكرية بالبلاد علومها ومباحثها من مصدرين أساسين : أولا : الحياة الدينية ، وثانيا الحياة الأدبية والعلمية .

أولا : الحياة الدينية

لعبت الدعوتان المرابطية والموحدية دورا هاما فى تغيير وجه الحياة بالمغرب الأقصى خلال فترة البحث ، إذ ترتب على نشر الدعوتين بين سكان المغرب الأقصى ، أن تغيرت الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية للمنطقة ، وقد سبق أن تناولت فى فصول الكتاب استناد الدولة المرابطية إلى دعوة ابن ياسين والدولة الموحدية إلى دعوة ابن تومرت ، لذا وجب التعرض لهاتين الدعوتين وتطورهما خلال فترة البحث ، مع دراسة المذهب المالكى والذى استمدت الدعوة المرابطية أصولها منه ثم الإشارة إلى منهج المرابطين والموحدين فى التطبيق العملى لاحكام الدين مع ذكر جهود المرابطين فى نشر الإسلام ، وبجانب ذلك سوف أتناول دور المتصوفين فى المغرب الأقصى وأثر ذلك فى حياة السكان ، ومن هذه النقطة يكون المنطلق لدراسة مدى تأثر المغاربة بالغيبيات والتبرك فى التفكير المغربى ، وأخيرا التعرض للعلوم الدينية والمؤلفات فيها .

الدعوة المرابطية :

وهى دعوة إصلاحية استمدت تعاليمها وأحكامها من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، نادى بها عبد الله بن ياسين بين قبائل الملثمين حين وفد مع يحيى بن إبراهيم الكدالى إلى قبائل الصحراء جنوب المغرب الأقصى ، وذلك ليخرجهم من ظلمات الجهل إلى نور الإيمان والمعرفة ، وحين وفد إليهم وجد أكثرهم لا يصلون ولا يدفعون الزكاة ولا يعرفون من الإسلام سوى الشهادة مع انتشار الجهل بينهم[1] وما إن شرع فى تبديد ظلام الجهل ونشر مبادىء الدين الصحيحة حتى وجد مقاومة من بعض قبائل المرابطين مما اضطر معه إلى اتخاذ رباط فى جزيرة منعزلة ليعلم فيها أصحابه المبادىء الدينية الصحيحة فصار يعلمهم كتاب الله وسنة النبى صلى الله عليه

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٢ ت الفيلالى .

وسلم والوضوء والصلاة والزكاة وما فرض الله عليهم من ذلك[1] حتى إذا اجتمع الأنصار والاتباع أطلق عليهم لقب المرابطين لملازمتهم الرباط الذى انشأه [2] أو لشدة صبرهم وحسن بلائهم فى قتال المشركين [3].

وانتقل بالدعوة من دور التلقى والتعليم إلى دور نشرها بالسيف عن طريق الجهاد وذلك فى خطاب وجهه إليهم قائلا « يامعشر المرابطين ، إنكم جمع كثير وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم ، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراط مستقيم فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم وتأمروا بالمعروف وتنهوا عن المنكر ، وتجاهدوا فى سبيل الله حق جهاده »[4].

وهكذا أصبحت الدعوة قائمة على كتاب الله وسنة رسوله ، متخذة مبدأ الأمر بالمعروف و النهى عن المنكر غاية والجهاد المسلح وسيلة ، وكان إنطلاقهم إلى المغرب الأقصى تحقيقا لهذه الغاية وهى القضاء على المنكر الذى انتشر فى المدن المغربية فحين استدعى فقهاء سجلماسة ودرعة المرابطين لبوا النداء وذلك ليطهروا بلادهم مما هى فيه من المنكرات وشدة العسف والجور[5]

ثم انطلق المرابطون تجاه المغرب الأقصى واستولوا على مناطقه ، وفى خلال ذلك كانوا يطبقون مبادىء الدعوة وصار دستورهم كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم مستمدين أحكامهم من مذهب الإمام مالك ، وقد سبق أن أشرت إلى مدى نفوذ الفقهاء والعلماء والمطبقين لأحكام الدين من منزلة ونفوذ فى الدولة المرابطية ، وكيف أن أحكام البلاد وأمورها كانت بيد هذه الطبقة مما يشير إلى آثار هذه الدعوة فى حياة السكان .

إحراق كتب الإمام الغزالى : ومما يتصل بالحياة الدينية فى هذه الفترة إحراق المرابطين لمؤلفات الإمام الغزالى . وكان الاحراق من الأحداث الهامة التى شغلت ولاة الأمر والرعية فى هذه الفترة فى سنة ٥٠٣ هـ/١١٠٩ م

---

(١) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٣ ت الفيلالى .

(٢) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٣ ت الفيلالى ، ابن ابى دينـار : المؤنس ص ١٠٢ .

(٣) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠ .

(٤) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٤ ت الفيلالى .

(٥) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ت الفيلالى .

صدرت أوامر أمير المسلمين على بن يوسف بحرق كتاب الاحياء للإمام الغزالى فى كافة مدن المغرب والأندلس(١) وفى رواية المراكشى أن الإحراق كان بالنسبة لكتب الغزالى(٢) أى جميع مؤلفاته ، وتم حرقه فى أفنية المساجد الكبيرة بكل من قرطبة ومراكش وغيرها من مدن المغرب(٣) يقول ابن القطان « فى أول عام ثلاثة وخمسمائة عزم على بن يوسف عن إجماع قاضى قرطبة أبى عبد الله محمد بن على بن حمدين وفقهائها على إحراق كتاب أبى حامد الغزالى رحمه الله تعالى المسمى بالاحياء فأحرق فى رحبة مسجدها على الباب الغربى على هيئته بجلوده بعد إشباعه زيتا وحضر لذلك جماعة من أعيان الناس ، ونفذت كتبه إلى جميع بلاده آمرا بإحراقه وأخذت منه نسخ من أيدى أصحابها »(٤).

واستمرت الدولة فى سياستها بالنسبة لمؤلفات الغزالى ، ومتابعتها بالمصادرة والحرق طيلة عهدها ، وقد أكد هذه السياسة تلك الرسالة الصادرة من تاشفين بن على بن يوسف فى سنة ٥٣٨/١١٤٣ م أثناء مقامه بكرنطة وهو جبل صغير فى سلسلة المرتفعات بين تلمسان وسبتة وموجهة إلى أهل بلنسية بالأندلس ويحدد لهم فيها مناط الفتيا ومصدر الأحكام هو مذهب الإمام مالك ، ومحاربة البدع وكتبها وأصحابها وخاصة كتب الإمام الغزالى ومما جاء فيها « ومتى عثرتم على كتاب بدعة أو صاحب بدعة وخاصة وفقكم الله ، كتب أبى حامد الغزالى فليتتبع أثرها وليقطع بالحرق المتتابع جزها ويبحث عليها ، وتغلظ الايمان على من يتهم بكتمانها »(٥) ومن هذا النص وتاريخه نستنتج مدى حرص الدولة حتى فى أواخر أيامها على محاربة مؤلفات الغزالى واعتبارها من الكتب الضالة .

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٤ ، ١٥ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٧٥ ، ابن ابى دينار : المؤنس ص ١٠٦ ، ١٠٧ ، ابن زيدان : اتحاف أعلام الناس ج ١ ص ٨٨ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ١٧٣ .

(٣) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٧٥ ، الكتانى : الغزالى والمغرب ص ٧٠٧ ، ابن عبود : تاريخ المغرب ج ١ ص ١١٨ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٤ ، ١٥ .

(٥) د.حسين مؤنس : نصوص سياسية من فترة الانتقال بين المرابطين والموحدين ص ١١٣ مجلة المعهد المصرى بمدريد مجلد أول عدد ٣ سنة ٥٥ .

وقد استند الفقهاء فى تبرير ذلك إلى احتوائه على علم الكلام والفلسفة[1] وكراهية المالكية لهذه العلوم ومن ثم طالبوا ولى الأمر بمصادرة كتبه ، وقد استجاب لهم وأمر بحرقها .

غير أنه بجانب هذا السبب الظاهرى للإحراق كانت هناك أسباب خفية تتعلق بهؤلاء العلماء الذين طالبوا بإحراق كتب الغزالى ، ومن ذلك ما وجدوه فى كتاب الاحياء من هجوم على طبقة العلماء والفقهاء الذين يتخذون من العلم والدين مطية لتحقيق أطماع دنيوية من ثراء وجاه وأموال وقد أورد صفاتهم الإمام الغزالى فى كتابه الاحياء حين وصفهم بأنهم علماء السوء يقول الإمام الغزالى « الباب السادس فى آفات العلم وعلامات الآخرة والعلماء السوء ، وقد ورد فى العلماء السوء تشديدات عظيمة دلت على أنهم أشد الخلق عذابا يوم القيامة .. ونعنى بعلماء الدنيا علماء السوء الذين قصدهم من العلم التنعم بالدنيا والتوصل إلى الجاه والمنزلة عند أهلها ... »[2]ثم تعرض للصفات المحمودة فى العلماء وهى عدم الميل إلى الترف والاقتصاد فى المأكل والمشرب ومتطلبات الحياة والتشبه بالسلف الصالح [3]فاذا ما طبقنا هذه الأحكام على بعض علماء وفقهاء المغرب والأندلس وجدنا أن كثيرا منهم كونوا طبقة لها نفوذها وسلطانها وثراءها فى المغرب والأندلس مما دعا أحد الشعراء لمهاجمتهم وقد سبق أن أوضحت ذلك ، ومن هنا كان كتاب الاحياء وما تضمنه من مهاجمة لعلماء السوء ، خطرا على حياتهم ووضعهم الإجتماعى ، يضاف إلى هذا السبب ، أن كتاب الاحياء إنما هو مناصر للتصوف وأهله . وقد صار للمتصوفين مكانة متميزة فى مجتمع المغرب الأقصى ،وكانت هناك عداوة من بعض الفقهاء للمتصوفين فاذا ما انتشر كتاب الاحياء بين الناس كان ذلك سندا وقوة لأهل التصوف بالبلاد وهذا مالا يرغبه الفقهاء ومن ثم استغل بعض الفقهاء نفوذهم وخضوع أمير المسلمين على بن يوسف لرأيهم وأشاروا عليه بإحراق كتب الإمام الغزالى .

---

(١) ابن زيدان : اتحاف اعلام الناس جـ ١ ص ٨٨ ، الكتانى : الغزالى والمغرب ص ٧١٠ ، كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ٦٩ .

(٢) الامام الغزالى : احياء علوم الدين جـ ١ ص ٥٨ ، ٥٩ المطبعة التجارية .

(٣) الامام الغزالى : احياء علوم الدين جـ ١ ص ٦٦ .

إلا أن عملية الإحراق وجدت معارضة من بعض العلماء والمتصوفين ومنهم أبو الفضل يوسف بن محمد بن يوسف المعروف بالنحوى وقد أقام بسجلماسة وفاس ومات سنة ١١١٩/٥١٣ م فقد أعلن رأيه ببطلان فتوى إحراق كتب الغزالى[1] يقول التادلى « ولما وصل إلى فاس كتاب على بن يوسف بالتجريح على كتاب الاحياء وأن يحلف الناس بالأيمان المغلظة أن الاحياء ليس عندهم ، ذهبت إلى أبى الفضل أستفتيه فى تلك الايمان فأفتى بأنها لا تلزم ، وكانت فى محمله أسفار فقال لى ، هذه الأسفار من كتاب الاحياء ، ووددت أنى لم أنظر فى عمرى سواها ، وكان أبو الفضل قد انتسخ الاحياء فى ثلاثين جزءا ، فاذا دخل شهر رمضان قرأ فى كل يوم جزءا »[2] كذلك العالم أبو محمد عبد الله المليجى من أغمات وريكة ومات بها قبل سنة ٥٤٠ هـ/١١٤٥ م فحين سئل عن الذين أفتوا بإحراق كتب الغزالى ، فكل ما سمى له واحد دعا عليه ثم قال : لا يصلح هؤلاء الأشقياء ابدا فما انقضى شهر حتى مات جميع أولئك الفقهاء[3] وهكذا انقسم موقف العلماء من موضوع حرق مؤلفات الإمام الغزالى ما بين مؤيد ومعارض .

الدعوة الموحدية :

خلال حكم أمير المسلمين على بن يوسف ، شهد المغرب الأقصى هزة فكرية جديدة متمثلة فى الدعوة الدينية التى نادى بها ابن تومرت ، وبثها بين أتباعه ومريديه ، ومحاربا بها الدعوة المرابطية ، وهذه الدعوة هى خلاصة دراساته التى قام بها فى المغرب والأندلس ثم فى المشرق حيث التقى بكثير من أئمة الفكر والدين[4] فلما عاد إلى المغرب أخذ ينشر مذهبه ودعوته .

وقد استمدت الدعوة مكوناتها من مذاهب متعددة ، فقد نادى بالإمامة

---

(١) ابن مريم : البستان فى ذكر الاولياء ص ٣٠١ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ .

(٢) التادلى : التشوف ص ٧٣ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ١٢٤ ، ابن المؤقت : السعادة الابدية ج ١ ص ٦٣ .

(٤) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٠٤ ، ١٠٥ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٩٠ ، القلقشندى : صبح الاعشى ج ٥ ص ١٩١ .

وبعصمة الإمام على مذهب الشيعة ، ويقول بالظاهرية ويكره التأويل على رأى داود وابن حزم ، ويتشدد فى العقيدة تشدد الحنابلة ، ويفهم التوحيد فهم المعتزلة ويذهب فى كثير من المسائل على مذهب الأشاعرة[١] وأطلق على دعوته دعوة التوحيد وسمى أتباعه الموحدين، وفى ذلك نفى للتجسيم وتعريض بالمرابطين الذين وصفهم بالمجسمين[٢].

فاذا ما حاولنا التعرف على الملامح البارزة لدعوته وجدنا أنه أعجب بأئمة الأشعرية بالمشرق ، ومن هنا أخذ عنهم واستحسن طريقتهم فى الانتصار للعقائد السلفية والذب عنها بالحجج العقلية[٣] وهو بذلك كان مخالفا لما تعود عليه أهل المغرب من ابتعاد عن التأويل وإقرار المتشابهات والاقتداء بالسلف فى ذلك[٤] إلا أنه لم يأخذ بالمذهب الأشعرى كله بل خالفه فى إثبات الصفات[٥] يقول المراكشى : « وكان — أى ابن تومرت — على مذهب أبى الحسن الأشعرى فى أكثر المسائل إلا فى الصفات »[٦] وفى نفى الصفات عن الله وتنزيهه تنزيها مطلقا عن أى شائبة ومناداته بالعدل والتوحيد إنما كان متأثرا بأفكار المعتزلة[٧] يقول المراكشى « وافق — أى ابن تومرت — المعتزلة فى نفيها أى نفى الصفات وفى مسائل قليلة غيرها»[٨]، وقد أفرد بابا فى كتابه أعز ما يطلب وهو يتضمن آراء ابن تومرت المذهبية — عن التوحيد « باب فى أن التوحيد هو أساس الدين الذى بنى عليه وأن فروعه إنما تثبت بعد العلم

---

(١) د. حسين مؤنس : عقد بولاية العهد ص ١٤٨ ، د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية ص ١٥٩ ، د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١١٠ ، د. حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام جـ ٤ ص ٤٦٧

Terrase : Histoire du Maroc, P : 268-269.

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٦٦ .

(٣) نفس المرجع السابق جـ ٦ ص ٢٢٦ .

(٤) نفس المرجع السابق جـ ٦ ص ٢٢٦ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ١٨٤ . ملين : عصر المنصور ص ٢٤١.

(٦) المراكشى : المعجب ص ١٨٨ .

(٧) د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية ص ١٥٩ ، د. حسن محمود: قيام دولة المرابطين ص ١٨٤ ، د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٠٧ .

(٨) المراكشى : المعجب ص ١٨٨ .

بثبوته .. »[1] وتأثر بالشيعة حين تعرض لموضوع الإمامة والعصمة والمهدية ، وهذا يرجع إلى أنه كان يبطن شيئا من التشيع كما يقول المراكشى [2] وقد بين ابن تومرت ضرورة وجود الإمام وأن وظيفته ركن من أركان الدين يقول فى كتابه « هذا باب فى العلم وهو وجوب اعتقاد الإمامة على الكافة وهى ركن من أركان الدين وعمدة من عمد الشريعة ولا يصح قيام الحق فى الدنيا إلا بوجوب اعتقاد الإمامة فى كل زمان ومكان من الأزمنة إلى أن تقوم الساعة ، ما من زمان إلا وفيه إمام لله قائم بالحق فى أرضه من آدم إلى نوح ومن بعده إلى إبراهيم [3] » واشترط فى الإمام العصمة « ولا يكون الإمام إلا معصوما من الباطل ... وأن يكون معصوما من الضلال .. وأن يكون معصوما من الجور .. وأن يكون معصوما من البدع وأن يكون معصوما من الكذب .. وأن يكون معصوما من العمل بالجهل .. » [4] ثم أخذ يبشر بالمهدى المنتظر ويعدد صفاته وهى متوفرة فيه ومن ثم بايعه أصحابه على أنه المهدى [5] وصار يخطب له على المنابر بالإمام المعصوم والمهدى المعلوم [6] واستند إلى مذهب ابن حزم حين التزم بنص القرآن والسنة وإجماع المسلمين وجعل أسماء الله الحسنى التى أوردها القرآن الكريم هى الأسماء التى يجب على المسلمين إلتزامها [7] .

وهكذا مزج ابن تومرت دعوته بكثير من الآراء والأفكار واستطاع بما أوتى من ذكاء وحيلة أن ينشر أفكاره وآراءه وأن يجمع حوله الكثير من

---

(١) ابن تومرت : اعز ما يطلب ص ٢٧١ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ١٨٨ .
(٣) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٢٤٥ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٤٥ .
(٥) النويرى : نهاية الارب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٨٤ ، ٨٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ٦٨ بيروت .
(فى سؤال وجهته الى الاستاذ عبد الله كنون من فكرة المهدية فى دولة الموحدين اجاب سيادته : ادخل ابن تومرت فكرة المهدية والعصمة متأثرا فى ذلك بالشيعة فى هذه الآراء وذلك ليعضد من مركزه السياسى والدينى) .
(٦) العمرى : مسالك الابصار ج ١٥ ص ٣٧ .
(٧) د. عبد الله علام : الدعوة الموحديه ص ١٥٩ ، آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الاندلسى ص ٢٣٨ .

سكان المغرب الأقصى فى فترة وجيزة لم تتجاوز التسع سنوات ، وهنا يجدر بنا أن نتناول تلك الأساليب المختلفة فى سبيل تثبيت أفكاره فى مجتمع كان لا يستسيغ كل هذه الآراء بل وكان يحاربها تمسكا بمذهب الإمام مالك وابتعادا عن المذاهب الكلامية ، ويمكننا أن نلخص وسائله فى الخطوات التالية :

أولا : استخدامه لسلاح الجدل والمناقشة ببراعة ودهاء ، ساعدته فى ذلك رحلته المشرقية وتزوده بالعلوم الكلامية ، وفى الجهة المقابلة ، ناظر مجموعة من العلماء جمدت معارفهم وعلومهم على الفروع نتيجة إهمالهم لعلم الأصول ، ومن هنا كان من السهل الانتصار عليهم ، وكان ذلك دأبه فى المدن التى مر بها حيث حرص على فضح العلماء وبيان مدى جهلهم وقلة بضاعتهم فى العلوم الدينية ومن ذلك ما حدث بمراكش[1] وقد صور ذلك البيذق بقوله « ثم خرج منها — أى ابن تومرت — لمسجد عرفة فمكث فيها أياما عديدة وذلك أن على بن يوسف بعث إلى العلماء حتى وصلوا من كل جانب ومكان فذاكرهم المعصوم فأفحمهم ... »[2].

ثانيا : انتسابه لبيت النبوة : وقد ذكر كثير من المؤرخين انتسابه إلى بيت النبوة[3] وأشار إلى هذا النسب البيذق بقوله « ينقل من يوثق من قرابته وغيرهم محمد بن عبد الله بن وكليد بن يامصل بن حمزة بن عيسى بن عبد الله ابن ادريس بن عبد الله بن الحسن بن الحسن بن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم ، هذا نسبه الصحيح »[4] غير أن بعض المؤرخين تشكك فى هذه النسبة مما دفع ابن خلدون للدفاع عن نسبته لبيت النبوة فى مقدمته[5] وسواء أكانت هذه النسبة صحيحة أم غير صحيحة فإنه

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٠٩ الى ١١١ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٩١ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٧ ، عباس المراكشى : الاعلام جـ ٢ ص ٣٦٥ .

(٢) البيذق : أخبار المهدى ص ٦٨ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ١٧٨ ، العينى : عقد الجمان جـ ٢٠ قسم ٤ ص ٧٦٩ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٦ .

(٤) البيذق : أخبار المهدى ص ٢١ .

(٥) ابن خلدون : مقدمته ص ٢٦ ، ٢٧ .

استغلها أحسن استغلال فى ادعائه بانه المهدى المنتظر إذ أخذ يذكر لاصحابه صفات المهدى ويشوق إليه ويذكر الأحاديث الدالة عليه[1] حتى إذا استقر ذلك بنفوسهم وقف فيهم خطيبا ومما قاله « الحمد لله الفعال لما يريد القاضى بما يشاء ... وصلى الله على سيدنا محمد المبشر بالمهدى الذى يملأ الأرض قسطا وعدلا .. مكانه المغرب الأقصى ، وزمنه آخر الزمان واسمه اسم النبى عليه الصلاة والسلام ونسبه نسب النبى صلى الله تعالى وملائكته الكرام المقربون عليه السلام ، وقد ظهر جور الأمراء وامتلأت الأرض بالفساد وهذا آخر الزمان والاسم الاسم والنسب النسب والفعل الفعل »[2] ومن ثم أسرع الموحدون بمبايعته على أنه المهدى ، وبذلك استطاع بدهائه استدراجهم لتحقيق ما يريد من ادعاء أنه المهدى المنتظر وأخذ يدعم هذه الفكرة فى أذهان أصحابه بضرورة وجود المهدى وأن طاعته واجبة ومطالبة أصحابه بنشرها بين الناس[3].

ثالثا : استمالته للأحداث وذوى الغرة من قومه وبذلك يسهل التأثير فيهم والسيطرة عليهم يقول ابن خلكان « وكان — أى ابن تومرت — يستميل الأحداث وذوى الغرة ، وكان ذوو الحكم والعقل والحلم من أهاليهم ينهونهم ويحذرونهم من إتباعه ويخوفونهم من سطوة الملك .. »[4].

رابعا : البرنامج الدينى الذى وضعه لأتباعه ، حيث استخدم لغة البربر بجانب اللغة العربية وذلك لاستمالة أكبر عدد ممكن من سكان البلاد[5]. ثم ألف لهم عقيدة تسمى المرشدة وجعل فيها الأعشار والأحزاب والسور ، وأمرهم بحفظها ومن لم يحفظها عد كافرا لا تجوز إمامته ولا تؤكل ذبيحته[6]

(١) المراكشى : المعجب ص ١٨٧ .
(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٧٥ .
(٣) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٢٥٢ .
(٤) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ ٤ ص ١٤٢ .
(٥) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١١٥ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٣ ص ٩٢ .
(٦) نفس المصدرين السابقين ونفس الصفحات، ابن القنفذ: الفارسية فى مبادىء الدولة الحفصية ص ١٠١ ، ابن الاثير : الكامل جـ ٨ ص ٢٩٦ (كتاب المرشدة مثبت بقسم الملاحق) .

وصار هذا الكتاب معظما لديهم ويضاف إلى ذلك تلك التعاليم التى تلزمهم بطاعة الإمام والانقياد له مما نتج عنه تعظيمهم لابن تومرت وقد بلغوا فى ذلك درجة لو أمر أحدهم بقتل أبيه أو أخيه أو أبنه لبادر إلى ذلك من غير إبطاء [١].

خامسا : إدعائه لبعض الكرامات ، واستغلاله لسذاجة من حوله فى إقناعهم ، وقد سبق أن أشرت كيف استغل ابن تومرت خدعة أبى محمد البشير فى قتل الكثير من معارضيه فى عملية التميز والتى راح ضحيتها الكثير من الأنفس البريئة سنة ٥١٩ ه/١١٢٤ م وغير ذلك من الحيل التى زادت من مكانته فى قلوب أتباعه [٢].

معارك كلامية :

فى هذه الفترة التى كان ابن تومرت يبث فيها دعوته ، شهد سكان المغرب الأقصى نوعين من الحروب : الحرب المسلحة والتى تهدف إلى القضاء على سلطة المرابطين فى البلاد ودفاع المرابطين عن بلادهم ، والحرب الدعائية التى أعلنها ابن تومرت ضد المرابطين محاولا هدم دعوتهم ، وبث الوهن والضعف فى نفوس أتباعهم ، ورد المرابطين على هذه الحملات الكلامية التى شنها ابن تومرت ، وقد استغل ابن تومرت بعض صفات المرابطين وأطلق عليهم عدة تسميات ، فهم المجسمون لأنهم عدلوا عن التأويل وقبلوا النصوص على علاتها وأقروا الصفات لله تعالى [٣]، ولقبهم بالزراجنة ، والزرجان طائر أسود البطن أبيض الريش والمرابطون يشبهون طائر الزرجان فى أن قلوبهم سوداء وملابسهم بيضاء [٤] وأخيرا لقبهم بالحشم

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١٩١ .

(٢) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٢٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٩٦ .

(٣) البيذق : اخبار المهدى ص ٧٧ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٥ ، ابن خلدون : العبر ج ٦ ص ٢٢٩ ، د. يحيى هويدى : تاريخ فلسفة الاسلام ج ١ ص ٢٠٨ .

(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٥ ، ابن الابار : الحلة السيراء ج ٢ ص ٢٢٦ ، د. حسين مؤنس حاشية .

لارتدائهم اللثام كما تفعل النساء المتحشمات [١].

وبجانب هذه التسميات ، كانت هناك المحاضرات والمناظرات التى كان ينظمها ويهاجم فيها المرابطين وذلك ما حدث فى بجاية حين أخذ يهاجم التلثم عند المرابطين وأن ذلك من فعل النساء ولا يجوز للرجال التشبه بهم مستندا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فى لعن المتشبهين من الرجال بالنساء[٢] وأنه لا تجوز طاعتهم لانهم كفار ومنافقون ومتبعون الهوى ومعتدون ومفسدون وجاهلون واستشهد بالآيات القرآنية فى محاربة أصحاب الصفات السابقة[٣]وحفل كتابه الذى كان يدرس منه لتلاميذه وأتباعه على هيئة محاضرات بالهجوم والتنديد بصفات المرابطين حيث وصفهم بعدة علامات بلغت عشرين علامة [٤].

وأخذ يعدد هذه العلامات والصفات ، وهو فى كل حربه الدعائية يتلمس أى صفة ويلصقها بهم ثم يدعمها بالآيات والأحاديث ، حتى يستسيغ الناس قبولها والإيمان بها ، وحتى تؤتى هذه الدعاية ثمرتها حفلت دروسه بالتبشير بظهور جماعة الحق التى تطهر الأرض من الفساد وبيان صفاتها ، ويعنى بذلك جماعة الموحدين وكيف أن النصر سيكون دائما فى ركابها[٥].

وقد واجه المرابطون هذه الحرب الدعائية من جانب الموحدين بالرد عليهم وقد استندت دعاية المرابطين إلى أن الموحدين خوارج[٦]منشقين على طاعة الإمام بقصد إحداث فتنة فى البلاد ونسبوا لابن تومرت داعية الموحدين عدة آراء تخرجه من دائرة الإسلام ومنها : أن ابن تومرت يكفر الناس بالذنوب ويمنع من الصلاة على أهل القبلة ، ويقول أنه من تاب

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ٨٥ ، ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٨
(٢) ابن القطان : نظم الجمان ص ٤٦ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩
(٤) ابن تومرت : أعز ما يطلب ص ٢٥٨ ، ٢٥٩ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
(٦) البيذق : أخبار المهدى ص ٧٧ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨١ .

لا يلزمه قضاء الصلاة والصيام وغير ذلك من العبادات ، ويرد المطلقة ثلاثا إلى زوجها ، واطرح مذاهب العلماء وكتبهم وخرج على الاجماع وكفّر المسلمين ، واستحل الحرام المجمع على تحريمه واستحل دماء المسلمين واستحل أموالهم ، واستحل حريمهم ، وجعل أموال الناس غنيمة ، تخمس كما تخمس أموال النصارى ، وقام على الأمراء ونزع يده من طاعتهم(١). وهكذا عاش سكان المغرب الأقصى فى ظل تلك الحرب الكلامية بين مؤيد للموحدين ومعارض لهم .

تطور الدعوة الموحدية :

مرت الدعوة الموحدية بعد وفاة ابن تومرت بعدة مراحل يمكننا أن نحددها فى ثلاث مراحل : —

المرحلة الأولى :

وهى مرحلة التقليد والدعم للدعوة حيث تابع الخليفة عبد المؤمن بن على نهج ابن تومرت فى نشر الدعوة الموحدية وتنفيذ تعاليمها ومبادئها ، اقتداء بالإمام وحفظا للدعوة والتى على أساسها قامت الدولة ، وكان البرنامج التعليمى الذى وضعه الخليفة عبد المؤمن للطلبة الحفاظ هؤلاء الذين تولوا المهام الإدارية بالبلاد مستمدا من تعاليم ابن تومرت ، وبجانب ذلك فقد صدرت أوامره إلى كافة الموحدين بمتابعة نشر تعاليم المهدى بلسان البربر واللغة العربية ، وإلزام كل السكان بحفظ مبادئه ومن لم يمتثل لذلك كان دمه مباحا وقد جاء ذلك فى رسالته المعروفة برسالة الفصول سنة ٥٥٦ هـ ١١٦٠ م والموجهة إلى أهل بجاية وقد جاء فيها « ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربى ويتكلمون به أن يقرءوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول فى المعجزات ، ويحفظوه ويفهموه ويلازموا قراءته ويتعهدوه ويؤمر طلبة الحضر ومن فى معناهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهدها على سبيل التفهم والتبين والتنبه والتبصر ، ويلزم العامة ومن فى الديار بقراءة العقيدة التى أولها : أعلم أرشدنا الله وإياك .. وهى المرشدة التى ألفها ابن تومرت —

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٠ .

وحفظها وتفهمها ، واشمل فى هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد ، وكل من توجه عليه التكليف إذ لا يصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد فمن لم يعرف المرسل لم يصدق بالمرسل والرسالة ، ومن حصل على مثل هذه الحالة فقد تعثر فى أذيال الضلالة ، فان لم يبادر إلى التخلص منها والانفصال بالعلم عنها ، فقد وجب عليه حكم الكتاب ولا عنت فى إراقة دمه لا محالة » [1].

وهكذا حافظ عبد المؤمن بن على ، على تراث المهدى وتابع نشر مبادئه ملوحا بأقسى العقوبة لمن يتغافل عن حفظها ودراستها ، فلما تولى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن تابعت الدعوة مسيرتها ، فى صفوف الموحدين ، وظل ابن تومرت محتفظا بمكانته والدعاء له فى المخاطبات الرسمية وغيرها من أنه الإمام المعصوم والمهدى المعلوم[2] وفى إحدى رسائل أهل غرناطة والتى يعلنون فيها مبايعتهم للخليفة يوسف بن عبد المؤمن فى سنة ٥٦٣ هـ/١١٦٧ م ، مدح لأهل التوحيد وأهله « أما بعد فإنه لما اختص الله تبارك وتعالى طائفة التوحيد ، بما هم عليه من العمل السديد والسبيل الحميد والسعى السعيد الرشيد اجتمعت نفوسهم ... أن يجددوا البيعة المباركة لسيدنا ومولانا الإمام الخليفة أمير المؤمنين ... »[3].

والمرحلة الثانية :

مرحلة الضيق والتبرم بدعوى العصمة والاستنكار الخفى لها وقد تمثل ذلك حين تولى المنصور الموحدى ، الذى أبدى عدم اقتناعه بتلك الآراء وتبرمه بها وإنكاره لها ، وقد تجلى ذلك فى عدة مناسبات ، ومن ذلك حين زار قبر ابن تومرت فى تينملل ومعه جماعة من الغز وذلك على عادة خلفاء الموحدين فى زيارة قبره ، إذ حدثت مظاهرة فرح من التهليل والتكبير وذلك لتحقيق إحدى نبؤات المهدى ، وقابل المنصور ذلك بالاستخفاف ، يقول

---

(١) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٢ (رسالة : الفصول مثبتة بقسم الملاحق) .
(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٧٦ ، ص ٣٠٣ ، ص ٣١٠ ، ص ٣٢٢ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٣٤٣ .

المراكشى « فلما جلس الغز على الصفة المتقدمة تحتها ، كان ذلك اليوم فى تينملل يوما عظيما ، اتصل التكبير من كل جهة ، وجاء النساء يولولن ويضربون بالدفوف ويقلن ما معناه بلسانهن : صدق مولانا المهدى نشهد أنه الإمام حقا — وكان المهدى قد تنبأ بجلوس الغز تحت هذه الشجرة — فأخبرنى من رأى أمير المؤمنين أبا يوسف حين رأى ذلك يبتسم استخفافا لعقولهم ، لانه لا يرى شيئا من هذا كله ، وكان لا يرى رأيهم فى ابن تومرت »[1]ثم إعلانه التبرؤ من دعوى العصمة أمام أحد العلماء ، يقول المراكشى « أخبرنى الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المرى ونحن بحجر الكعبة قال : قال لى أمير المؤمنين أبو يوسف : يا أبا العباس ، اشهد لى بين يدى الله عز وجل أنى لا أقول بالعصمة يعنى عصمة ابن تومرت »[2]وفى مناسبة أخرى حين سأله أبو العباس عن الامام فأجابه مستنكرا : أين الإمام ؟ وأين الإمام ؟ [3].

وهكذا أنكر المنصور بعض دعاوى ابن تومرت ، إلا أن هذا الإنكار لم يكن أمام الرعية ولا جماهير الأمة ، وربما كان السبب فى ذلك خشيته من تصدع بنيان الدولة وتمزقها نتيجة الطعن فى الدعوة التى قامت على أسسها وتعهد جده وأبيه برعايتها وصيانتها .

والمرحلة الثالثة :

مرحلة الهجوم وهدم آراء ابن تومرت فى عهد المأمون الموحدى : وإذا كان المنصور لم يملك الشجاعة الكافية فى التصريح بآرائه فإن المأمون الموحدى الذى تولى الخلافة سنة ٦٢٤/١٢٢٧ م قد أعلنها صريحة من فوق المنابر مطالبا بهدم هذه الدعوى ، وموجها أشنع الصفات لابن تومرت ، فحين دخل العاصمة أوائل سنة ٦٢٧ هـ/١٢٣٠ م وبايعه الموحدون ، دخل المسجد الجامع وصعد المنبر وخطبهم قائلا : « لا تدعو — أى ابن تومرت — بالمهدى المعصوم ، وادعوه بالغوى المذموم ، ألا لا مهدى إلا عيسى وأنه قد نبذنا

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٩١ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٩١
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٩١

أمره النحس ... »[1] وأتبع ذلك بإزالة إسمه من السكة ومن الخطبة ، وأزال كل الشعائر التى كان يقيمها الموحدون تبعا لتعاليم المهدى ومن ذلك زيادتهم فى آذان الصبح ولله الحمد[2] وفى نفس الوقت أعلن الرجوع إلى مذهب الإمام مالك والأخذ بأحكامه[3] وهذا الإجراء من جانب المأمون كان يهدف به القضاء على سلطة كبار رجال الدولة من أشياخ الموحدين حيث أمر بقتل مائة منهم[4] وفى نفس الوقت التودد إلى طبقات الشعب المؤمنين بمذهب مالك والكارهين لسواه ولا يمنعهم المجاهرة برأيهم سوى خوفهم من البطش والقتل من جانب ولاة الأمر .

مذهب الإمام مالك :

كانت منطقة المغرب هدفا لكثير من المذاهب والأفكار ، ومن هذه المذاهب المذهب المالكى الذى اعتنقه المغاربة وآمنوا به وتعصبوا له وصارت المالكية لها دورها المؤثر فى تاريخ المنطقة فى العصور الوسطى ، وقد دخل المذهب المالكى إلى المغرب عن طريق الحجاج وطالبى العلم من الافريقيين الذين توجهوا إلى مراكز العلم فى مصر والحجاز ، ووجدوا بغيتهم فى الحجاز حين تتلمذوا على الإمام مالك المستمسك بالكتاب والسنة والذى لا يميل إلى التخريج والتأويل كفقهاء الحنفية فى العراق ، وكان هؤلاء العلماء قد عانوا من كثرة التأويلات والآراء المذهبية المختلفة التى حملها إليهم الخوارج من صفرية وإباضية ، وما صاحب ذلك من فتن وثورات نشبت على المسرح الجغرافى للمغرب ، ومن هنا صادف مذهب مالك هوى فى نفوسهم لإقامته فى المدينة المنورة مهد النبوة وشدة تمسكه بالكتاب والسنة يضاف إلى ذلك ما اتسم به مذهب مالك من ميل إلى الشدة والصلابة والبعد عن أسباب الترف، وقد وجدت تلك السمات هوى فى نفوس المغاربة الذين يميلون عادة إلى

---

(١) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٣٨ .

(٢) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ٢٣٨ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٢٤ ، ابن الخطيب : الاحاطة — القسم الأول ص ٤١٩ ، ٤٢٠ ت عنان .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٠١ .

(٤) ابن الخطيب : الاحاطة جـ ١ ص ٤١٩ ت عنان .

التشدد والتمسك بما يؤمنون ، بل أمعن المغاربة فى تعصبهم لمذهبهم المحبب فمن كان مالكيا قبلوه وأحبوه ، ومالوا إليه ومن كان غير ذلك حاربوه دون هوادة(١).

حتى إذا قامت دولة الأدارسة بالمغرب الأقصى دعمت ووطدت المذهب المالكى بالبلاد ، وخلال الفترة التى أعقبت سقوط دولة الأدارسة وحتى قيام دولة المرابطين دخل المذهب المالكى فى صراع مع المذاهب الأخرى من شيعة وخوارج وغير ذلك إلا أنه انتصر فى النهاية .

المذهب المالكى فى الدولة المرابطية :

كان قيام دولة المرابطين نصرا للمالكية فى المغرب وتأكيدا لدور علماء المالكية فالدولة أساسا هى دعوة إصلاحية استمدت تعاليمها من مذهب الإمام مالك ، ثم تطورت الحركة الإصلاحية من مجرد دعوة إلى حركة مسلحة خلصت المغرب الأقصى من البدع الضالة كبدعة برغواطة ، ووحدت المغرب الأقصى فى ظل تعاليم الإمام مالك ، وقد سبق أن أشرت إلى مدى النفوذ الذى كان يتمتع به علماء وفقهاء المرابطين فى الدولة ، وذلك بفضل دراستهم للمذهب وتطبيقهم لأحكامه فى شتى مجالات الحياة فى المغرب الأقصى وذلك بفضل ولاة الأمر المالكيين وعلماء الدولة المالكية يقول المراكشى « ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلا من علم علم الفروع أعنى فروع مذهب مالك ؛ فنفقت فى ذلك الزمان كتب المذهب ، وعمل بمقتضاها ونبذ ما سواها وكثر ذلك حتى نسى النظر فى كتاب الله وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتنى بهما كل الاعتناء »(٢).

وصارت الفتيا والأحكام مستمدة من مذهب الإمام مالك حتى نهاية الدولة ولا يلتفت إلى غيرها من الأحكام ، وقد أكد ذلك تلك الرسالة الصادرة من تاشفين بن على بن يوسف سنة ٥٣٨ هـ/١١٤٣ م إلى أهل بلنسية

---

(١) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين ص ٩٩ .
(٢) المراكشى : المعجب ص ١٧٢ .

يحدد لهم فيها أن مناط الأحكام هومذهب الإمام مالك يقول فيها « واعلموا رحمكم الله أن مدار الفتيا ومجرى الأحكام والشورى فى الحضر والبدا ، على ما اتفق عليه السلف الصالح — رحمهم الله من الاقتصار على مذهب إمام دار الهجرة أبي عبد الله مالك بن أنس رضى الله عنه فلا عدول لقاض ولا مفت عن مذهبه ، ولا يأخذ فى تحليل ولا تحريم به ومن حاد عن رأيه بفتواه ومال عن الأئمة إلى سواه فقد ركب رأسه واتبع هواه »[١].

وصارت المدن المغربية مراكز لدراسة المذهب المالكى وتخريج العلماء المالكين ومن هذه المراكز مدينة تلمسان التى كانت دار اللعلماء والمحدثين وحملة الرأى على مذهب الإمام مالك[٢]وأنجبت البلاد الكثير من علماء المالكية الذين حفلت بهم المجالس والندوات ودور العلم ، وفى مقدمتهم القاضى عياض بن موسى اليحصبى السبتى المالكى ،كان إمام المالكية وقدوتهم وجامع مذهب الإمام مالك وشارح أقواله والمدافع عنه[٣]وقد برز دوره واضحا حين رفع لواء الثورة ضد عبد المؤمن بن على والموحدين ومنتصرا للمرابطين وهو فى الواقع مدافع عن المذهب المالكى ضد الدعوة الموحدية ، حتى إذا اندلعت ثورة ابن تومرت ، كان من أسبابها جمود العلماء والفقهاء على علم الفروع وتركهم للاصول مع معارضتهم لعلوم الكلام ، ومن هنا شن ابن تومرت حربا شعواء على العلماء ولكنه لم يستطع مهاجمة المذهب المالكى الذى أصبح عقيدة ومذهبا لعامة الشعب ، وقد تحايل ابن تومرت على تعلق الناس بمذهب الإمام مالك بأن ألف لهم موطأ جمع فيه الأحاديث النبوية التى وردت فى موطأ الإمام مالك بعد حذف معظم الاسناد منها للاختصار[٤] وهى محاولة منه فى صرف الناس عن المؤلفات المالكية .

المذهب المالكى فى الدولة الموحدية :

حين تولى الخليفة عبد المؤمن ، اتخذ خطوة أبعد من ذلك ، وهى أمره

---

(١) د. حسين مؤنس : نصوص سياسية عن فترة الانتقال ص١١٢

(٢) البكرى : المغرب فى ذكر بلاد افريقية ص ٧٧ .

(٣) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ١ ص ٧٧ .

(٤) د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية ص ٣٠٤ ، د. احمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٠٩ .

بحرق كتب الفروع والاقتصار على الأحاديث النبوية [١]يقول ابن أبى زرع « ثم دخلت سنة خمسين وخمسمائة فيها أمر عبد المؤمن ... تغيير المنكر وتحريق كتب الفروع ورد الناس إلى قراءة الحديث وكتب بذلك إلى جميع طلبة المغرب والعدوة »[٢]. إلا أن علماء المالكية استمروا يمارسون نشاطهم فى عهد الخليفة عبد المؤمن [٣]وابنه الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[٤].

حتى إذا تولى المنصور الموحدى ، صنع ما كان جده ووالده يتمنيان فعله وهو محاولة محو مذهب الإمام مالك من البلاد ، يقول المراكشى « وهذا المقصد — أى محو مذهب الإمام مالك — بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه وأظهره يعقوب هذا »[٥]وفى سبيل تحقيق هذا الغرض أمر بحرق كتب الفروع وأن الفتاوى تعتمد على كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يقلدون أحداً من الأئمة المجتهدين[٦]يقول المراكشى « وفى أيامه — أى أيام المنصور الموحدى — انقطع علم الفروع وخافه الفقهاء وأمر باحراق كتب المذهب بعد أن يجرد ما فيها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والقرآن ، ففعل ذلك »[٧]وصارت كتب المذهب المالكى تجمع وتطلق فيها النار ومن هذه الكتب مدونة سحنون وكتاب ابن يونس ، ونوادر أبى زيد ومختصره ، وكتاب التهذيب للبرادعى ، وواضحة ابن حبيب وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها[٨]وقد برر هذا العمل أمام من حوله من العلماء بكراهيته للخلافات التى امتلأت بها كتب الفروع ، وميله إلى

---

(١) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ٢٥٧ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٦ .

(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٥٤ ت الفيلالى .

(٣) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٧

Barbor: Asurvey of North West p,84.

(٤) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٩٢ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٢٧٩ .

(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١١ ، العمرى : مسالك الأبصار جـ ١٦ قسم ٢ ص ٤٢٢ ، المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٠٢

(٧) المراكشى : المعجب ص ٢٧٨ .

(٨) نفس المرجع السابق ص ٢٧٨ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٧٤ .

الرجوع إلى الكتاب والسنة والأخذ بظاهرهما وقد عبر المراكشي عن ذلك بالحوار الذى دار بين المنصور وأحد العلماء حين دخل عليه فوجد بين يديه كتاب ابن يونس فقال المنصور : يا أبا بكر أنا أنظر فى هذه الآراء المتشعبة التى أحدثت فى دين الله ، أرأيت يا أبا بكر المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا ، فأى هذه الأقوال هو الحق ؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد ؟ فلما حاول العالم تفسير ذلك قاطعه بالرد الحاسم : ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف أو هذا وأشار إلى كتاب سنن أبى داود أو هذا وكان يشير إلى السيف(١).

وهكذا استغل المنصور كثرة الخلافات فى كتب المذهب كذريعة لمحاولة القضاء على المذهب . وبالتالى القضاء على نفوذ علماء المالكية الذين يجلهم عامة الشعب .

وحتى لا يترك الناس فى فراغ أمر جماعة من العلماء بجمع الأحاديث من كتب الأحاديث كالبخارى ومسلم وغيرهما فى الصلاة وما يتعلق بها وغير ذلك من أنواع العبادات وجمعها والزم الناس بدراستها وحفظها(٢) وحتى يؤكد أهمية هذا العمل ، كان يملى هذه الأحاديث بنفسه ، بالإضافة إلى رصده المكافآت والأموال لمن أقبل على حفظ هذا المجموع وأتقنه(٣).

وبجانب هذا الاجراء فانه أظهر تعظيما للمذهب الظاهرى كبديل للمذهب المالكى (٤)يقول ابن الأثير « وكان — أى المنصور الموحدى — يتظاهر بمذهب الظاهرية وأعرض عن مذهب مالك ، فعظم أمر الظاهرية فى أيامه وكان بالمغرب منهم خلق كثير يقال لهم الحزمية ، منسبون إلى محمد بن حزم رئيس الظاهرية إلا أنهم مغمورون بالمالكية ففى أيامه ظهروا وانتشروا »(٥)

الا ان إجراءات المنصور ضد المذهب المالكى وميله للمذهب الظاهرى ،

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٧٩ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٧٩ .
(٤) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٥٥ ، عنان : عصر المرابطين والموحدين القسم الثانى ص ٢٤٠ .
(٥) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٢٤٥ .

لم تفت فى عضد علماء المالكية وظل علماء المذهب يكافحون فى سبيل بقاء المذهب الذى ارتبط بالشعب إرتباطاً وثيقاً ، متغلغلا فى نفوسهم ممتزجاً بأرواحهم ، وقد عارض علماء المالكية خطوات المنصور المهدى ومن هؤلاء محمد بن محمد بن سعيد الانصارى الذى تابع تدريس كتب المالكية حتى أمر المنصور بسجنه فى سبتة(١) ، ومحمد بن محمد بن خلف التجيبى المتوفى سنة ٥٩٣ هـ وأبو الحسين بن زرقون(٢) وقد توفى أبو بكر الجيانى المالكى نتيجة التعذيب وذلك لإصراره على التدريس بمذهب الامام مالك(٣) وكان أبو مدين المتصوف ومن حفاظ الحديث والمتوفى سنة ٥٩٤هـ / ١١٩٧م تأتيه الفتاوى فى مذهب مالك فيجيب عنها(٤) وهكذا وقف علماء المالكية لصد هذا التيار ونجحوا فيه واستمرت المالكية راسخة البنيان فى تربة المغرب الأقصى .

التطبيق العملى لأحكام الدين :

فى ظل الدعوتين المرابطية والموحدية ، حرص ولاة الأمر على تطبيق أحكام الدين ، وتنفيذ تعاليمه بين أفراد المجتمع ، والتشدد فى إقامة شعائر الدين من صلاة وزكاة وغير ذلك ، وكان ذلك استجابة طبيعية لقيام الدولتين على أسس دينية ، ومن هنا وجدنا الطريق الذى التزمه الداعيان : ابن ياسين وابن تومرت ومن بعدهما من أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين ، هو متابعة تنفيذ أحكام الدين ومؤاخذة المتخلفين بالعقاب الذى يصل إلى حد القتل ، فابن ياسين اتخذ منهجاً متشدداً فى قبول المنضمين لدعوته من أبناء القبائل المختلفة إذ لا بد من إسلام جديد للعضو المنضم(٥) وحتى يتم هذا الإسلام الجديد لا بد أن يطهر من ذنوبه السابقة ، وذلك بافتراض أنه ارتكبها فيقام عليه حد الزنا وحد الافتراء وحد شارب الخمر ، وإذا اعترف

---

(١) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٥٤ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٥٤ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .
(٤) احمد بن القاسم : المعزى فى اخبار أبى يعزى ص ٧٢
(٥) ابن ابى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٥ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٩ ، ١٠ .

بأنه قتل أحداً فإنه يقتل(1) فإذا ما طهر من ذنوبه أصبح صالحاً للانضمام للدعوة الجديدة ، وعلم قواعد الدين والإسلام الصحيح

ولا شك أن هذا مسلك فيه الكثير من التعنت من جانب ابن ياسين ، إذ فيما اعتقد لم يسبقه أحد من الفقهاء فى اتخاذ هذا المسلك بالنسبة لمن تاب وسلك الطريق الصحيح ، وربما كان يهدف من وراء ذلك إلى سبر مدى صلاحية أتباعه فى تحمل مشقات الدعوة ، فإذا ما تحمل العضو التعذيب كان أقدر على تحمل أعباء الجهاد والكفاح المسلح الذى كان ركناً من أركان دعوة ابن ياسين .

فإذا ما انتقلنا إلى داعية الموحدين لوجدنا هذا التشدد ولكن بالنسبة لمن انضم إلى الدعوة فعلا وبايعه ، إذ اشترط على اتباعه السمع والطاعة ، وتنفيذ أوامره ، ومن يستجب عوقب فإن تمادى يقتل (2) ، وكان القصد من هذا التشدد ضمان استقامة أمر الدعوة ، وجعل اتباعها قدوة لغيرهم فى تنفيذ أوامر الدين .

أما الخليفة الأول عبد المؤمن فكان معظماً للدين وسنداً قوياً فى تنفيذ أحكامه وتعاليمه(3) وكان يلزم أتباعه بترك اللهو والهزل والاهتمام بعلوم الدين وتطبيق أحكامه(4) كذلك الخليفة يوسف بن عبد المؤمن كان يولى الدين اهتمامه ، ويحرص على إقامة الشعائر الدينية(5) وهكذا كان لموقف ولاة الأمر من تنفيذ أحكام الدين أثره البالغ فى إلتزام الرعية بأوامر الدين .

فإذا ما حاولنا أن نفصل مدى اهتمامهم بمختلف الشعائر والعبادات لوجدنا أن إقامة الصلاة وتأديتها تحتل ركناً أساسياً فى اهتمامهم وذلك باعتبارها الركن الأول من أركان العبادة بعد الشهادتين فابن ياسين كان يلزم أتباعه

(1) نفس المرجعين السابقين ونفس الصفحات ، البكرى : المغرب ص ١٦٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٦ بيروت .

(2) ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٩ .

(3) النويرى : نهاية الارب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٧ ، العمرى : مسالك الابصار جـ ١٦ قسم ٢ ص ٣٣٣ .

(4) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٨ .

(5) ابن الاثير : الكامل جـ ٩ ص ٨٢ .

بالمواظبة على الصلاة وتأديتها مع الجماعة ومن تخلف عنها ضرب عشرون سوطاً ، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط[1] وكان جهلهم بأركان الصلاة سبباً فى جمع ابن ياسين أتباعه فى كل صلاة حتى تصح صلاتهم[2] وقد أدى العقاب الصارم الذى فرضه ابن ياسين إلى أن كثيراً منهم كان يدخل الصلاة بغير وضوء ، وذلك إذا حان وقتها خشية العقوبة[3] أما ابن تومرت فإنه ألزم اتباعه بتأدية الصلوات الخمس فى أوقاتها ونهاهم عن تأخيرها[4] .

وقد سلك ابن تومرت أسلوباً فريداً فى تعليم من لا يعرف من أصحابه فاتحة الكتاب حتى يمكنهم من تأدية الصلاة وقد أشار السلاوى إلى هذه الطريقة بقوله « إن طائفة من المصامدة عسر عليهم حفظ الفاتحة لشدة عجز عجمتهم ، فعدد كلمات أم القرآن ، ولقب بكل كلمة منها رجلا ، فصفهم صفاً وقال لأولهم : اسمك الحمد لله ، وللثانى : رب العالمين ، وهكذا حتى تمت كلمات الفاتحة ثم قال لهم : لا يقبل الله منكم صلاة ، حتى تجمعوا هذه الأسماء على نسقها فى كل ركعة فسهل عليهم الأمر وحفظوا أم القرآن »[5] وبهذه الطريقة العملية استطاع فريق من أصحابه حفظ الفاتحة وتأدية الصلاة .

وتابع الخليفة عبد المؤمن سياسة التشدد فى إلزام الرعية بإقامة الصلاة ، بحيث إذا عثر على أحد فى وقت الصلاة غير مصل قتل[7] وكان هذا الحرص من الخليفة فى السلم والحرب ، فأثناء توجه جنوده إلى إفريقية سنة ٥٥٤هـ كانوا يصلون الصلوات الخمس خلف إمام واحد بتكبيره واحدة[7] وذلك بالرغم من كثرة الجنود وصارت تأدية الصلاة وإتمامها من الأمور التى تشغل فكر الخليفة عبد المؤمن ، مما دفعه إلى إرسال منشور إلى أهل بجاية

---

(١) البكرى : المغرب ص ١٦٩ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٦ بيروت .

(٢) القاضى عياض : ترتيب المدارك ج ٢ مجلد ٢ ص ٥٣٤ .

(٣) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٦ بيروت .

(٤) ابن القطان : الجمان ص ١٢٦ ، ١٢٧ .

(٥) السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٩١ .

(٦) النويرى : نهاية الأرب ج ٢٢ مجلد ٢ ص ٩٧ ، العمرى : مسالك الأبصار ج ١٦ قسم ٢ ص ٣٣٣ .

(٧) الباجى : الخلاصة النقية ص ٥٥ .

وسائر المدن المغربية سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م مطالباً دعاة الموحدين ببيان أهمية الصلاة ومتابعة الناس فى تأديتها ومن تكاسل عرقب بالقتل وقد جاء فيها « وآخذوا باقامة الصلاة التى هى الكتاب الموقوت على المؤمنين ، والحكم المثبوت على كل من آمن بهذا الدين ، والناهية عن الفحشاء والمنكر على ماورد فى الكتاب المبين ، ولاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة ، فهو ممحو من ديوان المؤمنين ، ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع من الوظائف والقوانين. فخذوا من قبلكم باقامة الصلاة على ما شرعت واداثها بحسب ما فرضت وخلوا العوام ومن فى الديار لحفظ أم القرآن ، وسورة معها وما تيسر من القرآن لتتم صلاتهم ويكمل عملهم ، ومن أضاع الصلاة وأهملها ولم يبادر إلى أداء ما فرض عليه فأجله للحين متاح ، وقتله بحكم الكتاب والسنة واجب»[١] وهكذا كان حكم القتل نصيب تارك الصلاة ، واستمر هذا الحكم فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن[٢] وقد حكى خادم الشيخ أبى يعزى المتصوف ، ما شاهده ، فى الطريق إلى سلا وكيف أن جند الموحدين قبضوا على جماعة لم يصلوا الصلاة فى وقتها ونفذوا فيهم حكم الاعدام ، وأنهم أوشكوا تنفيذ الحكم فيه لو لا أن أحد الحاضرين شهد بأنه غريب عن هذه الجماعة[٣] .

أما المنصور الموحدى فإنه بجانب تشدده فى إقامة الصلاة ، فإنه كان يتولى إمامة الصلوات الخمس بنفسه ، واستمر على ذلك عدة أشهر[٤] ومما يتصل بالصلاة الزيادة فى آذان الفجر وهى بدعة استنها لهم ابن تومرت ، حيث أمر المؤذنين بأنه إذا طلع الفجر أن ينادوا « أصبح والحمد لله » إشعاراً بأن الفجر قد طلع[٥] وأصبحت سنة متبعة فى دولة الموحدين .

وبجانب الصلاة فقد كانت هناك قراءة القرآن وقد خصص ابن تومرت لاصحابه حزباً يقرءونه فى كل يوم بعد صلاة الصبح ، وبعد الفراغ من

---

(١) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٢ ، ١٣٣ .
(٢) ابن الأثير : الكامل جـ ٩ ص ٨٢ .
(٣) أحمد بن القاسم : المعزى فى اخبار ابى يعزى ص ٥٣ .
(٤) المراكشى : المعجب ص ٢٨٥ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص ١٠ ، العينى : عقد الجمان جـ ١ قسم ٢ ص ٢٣٢ ، ابن سعيد: نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٨٥ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٩٩
(٥) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٧ .

القرآن يقرءون حزباً من كتابه أعز ما يطلب ويحفظون ما فيه من تعاليم[١] أما فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن فإنه أمر بقراءة حزب القرآن بعد صلاة الصبح والمغرب ويسرى ذلك فى كل أنحاء الدولة [٢] .

أما الزكاة : وهى ركن من أركان الدين ، فقد بينها ابن ياسين لأتباعه وحدد مقاديرها وفقاً لأحكام الشرع ، وقضى على كل المغارم والأموال التى كانت تخالف أحكام الدين[٣] . وكذلك فعل ابن تومرت حين فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم[٤] وقد اقتفى خلفاء الموحدين سياسة ابن تومرت فى الاهتمام بركن الزكاة والحض عليها ، وقد سبق أن تناولت فى مصادر الدخل وأوضحت كيف أن الزكاة كانت تشكل مصدراً من مصادر الدخل المالى ، وقد حرص الخليفة عبد المؤمن على جمع الزكاة وتتبع مانعيها بالقتل ، اتضح ذلك فى رسالته الموجهة إلى طلبة بجاية سنة٥٥٦هـ ١١٦٠م وغيرها من المدن المغربية ، ومما جاء فيها بصدد الزكاة « وخذوا ايتاء الزكاة ، وبالكشف عن مانعيها وتشخيص ممسكيها أو النزر اليسير منها ، فالزكاة حق المال ، والجهاد واجب على من منع منها قدر العقال فمن ثبت منعه للزكاة فهو لا حق بمن ثبت تركه للصلاة ، فمن منع فريضة كمن منع الفرائض كلها ، ومن منع عقالا فما فوقه كمن منع الشرع كله [٥]» .

وإذا كان ولاة الأمر بذلوا جهودهم فى دفع الشعب الالتزام بأحكام الدين وتأدية فرائضه ، فإنهم لم يدخروا جهداً فى محاربة أى منكر تظهر بوادره فى المجتمع ، ومن ذلك محاربتهم للخمر ، وإقامة الحد على شاربها ، وكان مما نقمه ابن تومرت على المرابطين أن الخمر تباع جهاراً فى دولتهم[٦] وأعتقد أن هذه الدعوى من ابن تومرت مبالغ فيها ، فدولة المرابطين دولة دينية ، وكان يحكمها فى هذه الفترة أمير المسلمين على بن يوسف وقد اشتهر

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٦ ، ٢٧ .
(٢) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ١٢٣ .
(٣) ابن أبى زرع : الأنيس ج ٢ ص ١٥ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ١٠ .
(٤) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٢٧ .
(٥) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٣ .
(٦) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج ٤ ص ١٤٠

بالورع والتقوى فضلا عن أن شئون الدولة المختلفة كانت خاضعة لسلطة الفقهاء والعلماء ، ومن المستبعد كما أدعى ابن تومرت أن ينتشر بيع الخمر فى البلاد ، وإنما كان دافع ابن تومرت هو طعن ولاة الأمر فى دينهم والحط من شأنهم . وقد حرص ابن تومرت فى دروسه التى ألقاها على تلاميذه أن يخصص أجزاء فى تحريم شرب الخمر وصفات الخمر المحرم وغير ذلك مما يتعلق بالخمر[١] وفى رسالة عبد المؤمن سنة ٥٥٦هـ / ١١٦٠م تصريح بمهاجمة أماكن الخمر وتدميرها وقتل شاربها وبائعها[٢] وقد سبق الإشارة إلى ذلك. كذلك المنصور الموحدى ، فإنه فى بعض الأحيان كان ينفذ حكم الإعدام فى شارب الخمر[٣] وهكذا عاش الشعب المغربى محافظاً على تأدية الفروض الدينية وملتزماً بأحكام االشرع ، ومن تهاون أو تكاسل فى تأديتها فإن فى حزم ولاة الأمر ما يردعه ويعود به إلى الطريق السليم .

المرابطون ونشر الإسلام :

تمثل جهاد المرابطين فى سبيل نشر الإسلام ودعمه ، والقضاء على البدع والضلالات فى حركتين : إحداهما فى الشمال بأرض المغرب الأقصى حيث استطاع المرابطون القضاء على إمارة برغواطة ، والأخرى فى الجنوب حيث انطلق فريق من المرابطين لنشر الإسلام فى إقليم السودان .

أما الحركة الأولى فقد نجح المرابطون فى القضاء على الضلالات المنتشرة فى إمارة برغواطة تلك الإمارة التى أسسها صالح بن طريف والتى اتسمت تعاليم من أنشأها بالكفر والخروج على الإسلام وقد حدد ابن خلدون مواطنهم « وكانت مواطنهم خصوصاً بين المصامدة فى بسائط تامسنا وريف البحرالمحيط وسلا وآزمور وآنى وآسفى »[٤] وقد اختلف المؤرخون فى أصل إمامهم فقد ذكر بعضهم أنه صالح بن طريف من وادى برباط من الأندلس فقيل لكل

---

(١) ابن تومرت : اعز ما يطلب ص ٣٦٣ ، ٣٦٦ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ .

(٢) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٣ .

(٣) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٦ ص١١ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٢٠٠ ، ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٨٢ ، ١٨٣ .

(٤) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٠٧ .

من دخل فى ديانته برباطى فأحالته البربر بألسنتها فقالت برغواطى[1] ويشير ابن خلدون أنه من قادة ميسرة[2] أحد الثائرين بالمغرب الأقصى فى القرن الثانى الهجرى ضد سلطة الخلافة الأموية ، أما الأسباب التى دفعت طريف لإقامة إمارة برغواطة فهو الضعف السياسى الذى كانت تعانى منه منطقة المغرب الأقصى عقب ثورة ميسرة سنة ١٢٢هـ / ٧٤٠م ، ومن ثم استغل طريف ومن بعده ابنه صالح — الذى اشتغل بالسحر وجمع فنوناً[3] — جهل السكان وعدم معرفتهم بشرائع الإسلام وأعلن دينه الجديد فى خلافة هشام ابن عبد الملك فى سنة ١٢٧هـ / ٧٤٥م[4] تحت ستار من الصلاح والزهد مع طلاقه لسان وقوة بيان ، وبذلك استطاع أن يستحوذ على عقول البربر وقلوبهم فادعى النبوة وشرع لهم تعاليم جديدة[5] بل وألف لهم قرآناً يصوره ابن خلدون بقوله « وادعى أنه نزل عليه قرآن كان يتلو عليهم سوراً منه ، يسمى منها سورة الديك وسورة الحمر وسورة الفيل وسورة آدم . . . وسورة آدم . . . وسورة غرائب الدنيا وفيها العلم العظيم بزعمهم حرم فيها وحلل وشرع »[6] وحتى أنه سمى نفسه بصالح المؤمنين ويعلل البكرى هذه التسمية بقوله « وهو صالح المؤمنين الذى ذكره الله عز وجل فى قرآن محمد عليه السلام فى صورة التحريم »[7].

وهكذا صحب الضعف السياسى للمغرب الأقصى قيام مناطق تسودها الانحرافات الدينية والضلالات ، وقد أخذ الأدارسة على عاتقهم محاربة إمارة برغواطة ، وذلك فى شكل حملات عسكرية متتابعة ، ولكنها لم تنجح تماماً فى القضاء على هذه البدعة حتى انطلق المرابطون من الصحراء صوب تامسنا وإمارة برغواطة ودارت معارك طاحنة استشهد فى إحداها داعية المرابطين عبد الله بن ياسين وانتهت بالقضاء على البرغواطيين[8] يقول ابن

---

(١) مجهول : نبذ تاريخية فى اخبار البربر ص ٤٧ .
(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٠٧ .
(٣) نفس المرجع السابق جـ ٦ ص ٢٠٩
(٤) نفس المرجع السابق جـ ٦ ص ٢٠٧ .
(٥) السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٤ .
(٦) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٠٧ .
(٧) البكرى : المغرب ص ١٣٥ .
(٨) ابن أبى دينار : كتاب المؤنس ص ١٠٣ .
Terrasse; Histoire du Maroc, p. 256 — 257.

خلدون : « ثم بدأ — أى للمرابطين — لهم جهاد برغواطة بتامسنا وما إليها من الريف الغربى ، فزحف إليهم أبو بكر بن عمر أمير لمتونة فى المرابطين من قومه وكانت له فيهم وقائع واستشهد فى بعضها صاحب الدعوة عبد الله بن ياسين الجزولى سنة خمسين وأربعمائة ، واستمر أبو بكروقومه من بعده على على جهادهم حتى استأصلوا شأفتهم ومحوا من الأرض آثارهم . . وعليه كان انقراض أمرهم وقطع دابرهم على يد هؤلاء المرابطين »[١] وهكذا حقق المرابطون نجاحاً بالنسبة للقضاء على الضلالات بالمغرب الأقصى ، وإقرار الإسلام ومبادئه الصحية فى المنطقة .

أما حركة الجهاد الأخرى والتى كانت وجهتها إلى الجنوب ، فقد تزعمها الأمير أبو بكر بن عمر حين اتجه بمجموعة من جند المرابطين إلى الجنوب سنة ٤٥٢ هـ / ١٠٦٠م للقضاء على فتنة نشبت بين قبائل الصحراء[٢] وفى رواية أخرى لجهاد كفار السودان[٣] وواصل كفاحه فى هذه المنطقة وخاصة بعد أن يئس من استرداد السلطة من ابن عمه يوسف بن تاشفين الذى قبض على زمام الأمور بالمغرب الأقصى ، ومن هنا وجه نشاطه العسكرى إلى نشر الإسلام فى إقليم غانة والقضاء على طقوس الوثنية التى كان يمارسها سكان المنطقة ، وكانت هناك قبل ذلك محاولات لنشر الإسلام فى إقليم غانة وذلك عن طريق التجار الذين كانوا يتنقلون بين مناطق الشمال والجنوب إلا أنه لم تكن فى شكل حركة عامة حتى استولى المرابطون على الاقليم وفتحوا عاصمتة[٤]ومنذ ذلك التاريخ أى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى أضحت

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٠٩
(٢) لسان الدين بن الخطيب : أعمال الأعلام القسم الثالث ص ٢٣١ ت العبادى .
(٣) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١٠٣ .
(٤) د. احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى جـ ٦ ص ٢٢١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٨٤ ، د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ص ٤٧ ، د. عبد الرحمن زكى : تاريخ الدول الاسلامية السودانية ص ٣٣ .

J. Spencer : Ahistory of islam in west Africa, p. 18

J. D. Fog : An Introduction to the History of west Africa p. 21

Siddipi : DevelopemPnt of Islamic, p. 16.

حكومة غانة حكومة إسلامية ويقال أن الملك تنكامنين السوننكى قبل الدخول فى الإسلام والخضوع لسلطة المرابطين ، وبإسلامه دخل عدد كبير من السكان فى الإسلام[1] وهكذا وضع المرابطون نواة دولة اسلامية فى غرب افريقيا نتيجة لكفاحهم فى سبيل نشر الإسلام .

المتصوفون بالمغرب :

عاش فى مجتمع المغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس من الهجرة الكثير من الصالحين ، هؤلاء الذين اتخذوا التصوف منهجاً لحياتهم ، وتجمع حولهم الأتباع والمريدون ينهلون من علمهم ومعرفتهم ، وكانت الملامح البارزة لهذا التصوف : الزهد ومجاهدة النفس والإكثار من العبادة والأذكار ولم يكن تصوفاً فلسفياً[2] يغترف من علوم الفلسفة والكلام كما حدث بالمشرق ، وامتازت هذه الفترة بوجود بعض أقطاب التصوف فى المغرب كأبى يعزى وابن العريف وعلى بن حرزهم وأبى مد ين وغيرهم من المتصوفين ، والذين أصبحوا أعلاماً يقتدى بهم الأتباع ، والمريدون ويتخذون من تعاليمهم المبادئ ، وعلى هذه المبادىء تأسست تلك الطرق الصوفية التى صارت لها فيما بعد تأثيرفى الحياة السياسية بالمغرب فضلا عن الحياة الروحية[3] .

وشهد المغرب الأقصى مدنه وسهوله الكثير من هؤلاء الصوفية ، وقد حفل كتاب التشوف للتادلى بأخبارهم ، ومع أنهم لم يكونوا طرقاً وجماعات متميزة كما حدث فيما بعد ، إلا أن أصابعهم تركت بصماتها على صفحة الحياة المغربية حيث التف الكثير من أبناء المجتمع حولهم يعظمونهم وينزلونهم منزلة التقديس والتكريم . وأصبحوا هم الملجأ والملاذ حين تنزل بالناس أزمة أو شدة ، فحين أجدبت الأرض بفاس ، وامتنع سقوط المطر ، لجأ الناس بالشكوى إلى الشيخ أبى يعزى المتصوف الذى تضرع بالدعاء إلى الله فاستجاب الله له وأمطرت السماء[4] وحين أساء أحد العمال إلى الناس بالظلم

---

(١) د. ابراهيم طرخان : امبراطورية غانة الاسلامية ص ٤٧ .

(٢) رابح بونار : المغرب العربى ص ٣٣٥ .

(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ١٩٨ .

(٤) أحمد بن القاسم : المعزى فى أخبار أبى يعزى ص ٦٠ مخطوط

والطغيان لجأوا إلى الشيخ أبي يعزى يشتكون له ، فما كان منه إلا أن كتب له رسالة يهدده فيها بعذاب الله ويأمره بالإقلاع عن الظلم[1] وهكذا صار المتصوفون رمزاً للعدالة ، يلوذ بهم الناس من ظلم حكامهم .

ولشدة تعلق الناس بهم ، رسخت فى نفوسهم قدرة المتصوفين على شفاء المرضى ومن ثم كانوا يقصدونهم لمداواة مرضاهم ومن ذلك ما رواه عبدالله ابن عيسى والمتوفى سنة ٦١٠ هـ / ١٢١٣م من أنه كان مصاباً بالصرع فى صغره وحار الاطباء فى علاجهم ، حتى صحبته والدته إلى أبى لقمان يرزجان ابن يعقوب الأسود وهو أحد المتصوفين الذى مسح بيده على رأسه فما أصابه الصرع بعد ذلك[2] ولا شك أن الناحية النفسية لها تأثير كبير فى شفائه ، وكذلك حين مرضت إحدى الجوارى بعينيها ، فلم يشفها سوى لمس أبى يعزى لعينيها[3] وغير ذلك من الروايات والأخبار التى وردت عنهم والتى جعلت منهم أولياء يزدحم الناس على أبوابهم ويقبلون أيديهم تبركاً بهم[4]

وبجانب مكانتهم فى نفوس طبقات الشعب المختلفة ، فانهم حظوا بالمنزلة الرفيعة لدى ولاة الأمر حيث تقربوا إليهم كسباً لودهم وفى نفس الوقت تقرب للشعب الملتف حولهم ، فالأمير مزدلى بن تلكان المرابطى والى تلمسان توجه إلى دار أبى محمد عبد السلام المتصوف ليتبرك به وتناول الطعام معه[5] كما أن الخليفة عبد المؤمن طلب من أبى يعزى الدعاء له[6] وأما المنصور الموحدى فإنه أمر أن يجمع له الصالحون والمتصوفون من جميع البلاد حتى يصحبوه فى حملته الكبرى فى الأندلس سنة ٥٩٢هـ / ١١٩٦م متبركاً بهم ناسباً إليهم النصر فى معاركه[7] وقد بلغ من تكريمه لأحد المتصوفين وهو أبو العباس أحمد بن جعفر الخزرجى المعروف بالسبتى ، أن توجه إليه بنفسه

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٦٥ .
(٢) التادلى : التشوف ص ٢١٦ .
(٣) أحمد بن القاسم : المعزى فى أخبار أبى يعزى ص ٦٥
(٤) التادلى : التشوف ص ٢٢٣ .
(٥) التادلى : التشوف ص ٨٨ .
(٦) أحمد بن القاسم : المعزى فى أخبار أبى يعزى ص ٥٨ .
(٧) المراكشى : المعجب ص ٢٨٦ ، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٤٩ .

وصعد إليه فى الجبل مع جمع من الفقهاء والصالحين للتبرك به وما زال به حتى نزل معه وحبس عليه مدرسة للعلم والتدريس وزاوية للفقراء وداراً لسكناه بأحواز جامع الكتبيين(١) وحين مرض المنصور استدعى أبا العباس السبتى المتصوف لعلاجه(٢) وهكذا حظى المتصوفون بالتكريم والرعاية من ولاة الأمر وخاصة فى عهد المنصور مما دعا المراكشى إلى وصف حالهم بقوله « وانتشر فى أيامه — أى المنصور — للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت ، وقامت لهم سوق ، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس ، ولم يزل يستدعى الصالحين من البلاد ، ويكتب إليهم يسألهم الدعاء ، ويصل من يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة »(٣).

ألا أن هذه المكانة التى تمتع بها المتصوفون والتفاف الناس حولهم ، وتكريمهم لهم . أثارت حفيظة بعض الفقهاء ، ومن ثم حاولوا النيل منهم والإيقاع بهم عند ولاة الأمر ، فقد سعى قاضى المرية ابن الأسود بابن العريف المتصوف عند أمير المسلمين على بن يوسف حسداً له وغيظاً منه ، فأحضر إلى العاصمة مراكش للقاء أمير المسلمين الذى علم ببراءته فأطلق سراحه ، فما كان من القاضى إلا أن وضع له سما فى الطعام أفضى به إلى الموت وكان ذلك فى سنة ٥٣٦هـ / ١١٤١م(٤) أما أبو عبد الله محمد بن عمر الأصم وهو من متصوفى سجلماسة وتوفى سنة ٥٤٢هـ / ١١٤٧م فقد ألصقت به عدة تهم ، فأمر أمير المسلمين تاشفين بن على بسجنه فى فاس ثم ظهر لأمير المسلمين براءته فأفرج عنه(٥) كذلك سعى بعض الناقمين بالمتصوف أبى يعزى فاستدعاه الخليفة عبد المؤمن وحبسه فترة ثم أخلى سبيله حين تأكد من براءته(٦) كذلك

---

(١) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ٧ .

(٢) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ٧ ، ٨ احمد بن القاسم : المعزى فى أخبار أبى يعزى ص ٩٠ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٧٨ .

(٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ١ ص ١١٠ ، التنبكتى : نيل الابتهاج ص ٥٨ ، ص ٥٩ ، د. السيد عبد العزيز سالم : تاريخ مدينة المرية ص ١٨٤ ، عبد العزيز بنعبد الله : معطيات الحضارة المغربية جـ ١ ص ١٤٥ .

(٥) التادلى : التشوف ص ١٣٤ .

(٦) احمد بن القاسم : المعزى ص ٦ .

حين سعى بعض العلماء الحاسدين بأبي مدين شعيب المتوفى سنة ٥٩٤هـ - ١١٩٧م المنصور الموحدى فأمر بإحضاره إلى العاصمة إلا أن المنية عاجلته(١).

وقد اتخذ هؤلاء الناقمون حججاً قوية ومن ذلك تخويفهم لولاة الأمر بنفوذ هؤلاء المتصوفين والتفاف الناس حولهم وتعلقهم بهم مما يخشى منه على أمن الدولة ومن ذلك ما قاله العلماء للمنصور بشأن أبي مدين للإيقاع به « إنه يخاف منه على دولتكم فإن له شبهاً بالإمام المهدى وأتباعه كثيرون فى كل بلد ، فوقع فى قلبه وأهمه شأنه »(٢).

كذلك اعترض الفقهاء على اشتغال بعض المتصوفين بمداواة المرضى من النساء وعدوا ذلك خروجاً على أحكام الدين ، وأنكروا ما يصنعه أبو يعزى بالنسبة لمرضى النساء « قيل للشيخ أبي يعزى إن فقهاء فاس أنكروا عليه لمس صدور النساء والنظر إليهن ، فقال : أليس يجوز عندهم أن يلمس الطبيب تلك المواضع ويراها للضرورة فهلا عدونى واحداً من أطبائهم وقال إنما ألمس ذوات العاهات للتداوى بذلك »(٣) .

وهكذا أصبح كبار المتصوفين هدفاً لحملات بعض الفقهاء والعلماء محاولين التشكيك فى إخلاصهم وإدعاء أنهم يشكلون خطراً على البلاد ، إلا أن قافلة المتصوفين ظلت تلعب دورها فى حياة الشعب المغربى بفضل حب وتكريم الناس لهم .

الغيبات والتبرك فى التفكير المغربى :

وهذه النقطة إمتداد لمدى تأثير الصوفية فى حياة سكان المغرب وما يصحب ذلك من إيمان بالكرامات واعتقاد فى المعجزات ، حيث ساد التفكير المغربى وخاصة عند قيام دولة الموحدين الكثير من القصص التى تنسب خوارق ومعجزات لأصحابها والتى آمن بها الكثير من الناس ، مما كان

---

(١) ابن مريم : البستان فى ذكر الاولياء والعلماء ص ١١٣ ، التنبكتى: نيل الابتهاج ص ١٢٩ ، عباس المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ٢٩٥ ، ٢٩٦

(٢) ابن مريم : البستان ص ١١٣ ، التنبكتى : نيل الابتهاج ص ١٢٩ .

(٣) أحمد بن القاسم : المعزى ص ٥٤ ، التادلى : التشوف ص ١٩٦ .

له أثر كبير فى حياة السكان وهذا يرجع إلى البساطة والسذاجة التى كان يتصف بها عامة السكان[١] مع جهل بروح الإسلام وأحكام القرآن التى تقرر صراحة أنه لا يعلم الغيب إلا الله .

وظاهرة الإيمان بالخوارق والمعجزات لم تكن فى الدولة المرابطية بالكثرة التى صاحبت قيام دولة الموحدين ، وهذا يرجع إلى بساطة الدعوة التى نادى بها ابن ياسين مع التزامه بأحكام الكتاب والسنة ، تضاف إلى ذلك كراهة يوسف بن تاشفين للتنجيم ومحاولة معرفة الغيب عن طريق النجوم [٢] . إلا أنه بالرغم من ذلك فقد ذكرت المراجع بعض الكرامات لعبد الله بن ياسين ومنها عثور أصحابه على الماء فى سفرهم الشاق بعد انقطاع الأمل فى ذلك[٣] يصور ذلك البكرى بقوله « ومما يذكرونه ولا يشكون فيه من براهين صلاح عبد الله ، أنه ذهب فى بعض أسفاره فعطشوا فشكوا ذلك إليه فقال عسى الله أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً ثم سار بهم ساعة وقال لهم احفروا بين يدى فوجدوا الماء بأدنى حفر فشربوا وسقوا واستقوا أعذب ماء وأطيبه »[٤] وكذلك حين سكتت الضفادع لاقتراب عبد الله بن ياسين من بركة الماء التى تعيش فيها وكانت لا تسكت أبداً فلما انصرف عادت إلى نقيقها[٥] وهذه الكرامات التى نسبوها إلى عبد الله بن ياسين ترجع إلى تلك المنزلة السامية التى بلغها ابن ياسين فى نفوس أصحابه حتى صار بالنسبة لهم فى مرتبة الأولياء الذين يأتون بالكرامات والمعجزات .

فإذا ما عاد ابن تومرت إلى أرض المغرب استغل ما يعرفه عن سكان المنطقة من تهيئو للإيمان بالخوارق والمعجزات ، وساعده فى ذلك ذكاؤه

---

(١) استانلى لين بول : طبقات سلاطين الاسلام ص ٣٨ ، ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب ص ٢٥٦ .

(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١٠ .

(٣) ابن ابى زرع : الانيس ج ٢ ص ٣٠ ، ٣١ ، ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص١٦ بيروت ، لسان الدين بن الخطيب : أعمال الاعلام : القسم الثالث ص ٢٣١ ت العبادى .

(٤) البكرى : كتاب المغرب ص ١٦٨ ، ١٦٩ .

(٥) نفس المرجع السابق ص ١٦٩ ، ابن ابى زرع : الانيس ج ٢ ص ٣١ ت الفيلالى .

وسعة حيلته مما جعله يصل فى النهاية إلى تحقيق أهدافه . وقد بدأ ذلك بإشاعة أنه مأمور بنوع من الوحى والإلهام ، وله القدرة على معرفة أخبار المستقبل وبث ذلك فى نفوس تلاميذه وأعوانه[١] وحتى يؤكد هذه الصفة أخبر أصحابه بأنه أطلع على كتاب الجفر وهو كتاب منسوب إلى جعفر الصادق ومن علوم أهل البيت وفيه إشارات بصفة ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن بن على وانهما أصحاب دولة بالمغرب الأقصى وقد حان وقتها[٢] وقد تسلم الخليفة عبد المؤمن كتاب الجفر من ابن تومرت قبيل وفاته[٣] وبعد أن نجح فى نسج هالة من القدسية حول شخصه ، بدأ بنسج الأساطير حول لقائه بعبد المؤمن ، فقبيل تعرفه على عبد المؤمن كان يجلس تحت شجرة قرب ملالة يحرك شفتيه بالذكر ، وقبيل اللقاء بيوم واحد صاح فيمن حوله قائلا : الحمد لله الذى أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره وأقبل نحو المسجد وركع ركعتين ثم قال الحمد لله على كل حال قد بلغ وقت النصر وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم يصلكم غداً طالب طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره فلما سمع الناس غداً يصلكم طالب حاروا فى أمره [٤] وهكذا هيأ الأذهان والنفوس للتعرف على خليفته . فلما كان الغد التقى ابن تومرت بعبد المؤمن بن على فى مسجد ملالة وتبعاً لرواية البيذق فإن ابن تومرت أظهر مقدرته ومعرفته باسم عبد المؤمن ونسبه وموطنه والهدف الذى جاء من أجله[٥] أما المراكشى فإنه يذكر أن ابن تومرت خلا بعبد المؤمن وعرف أخباره ثم طلب منه البقاء معه[٦] ورواية المراكشى أقرب إلى التصديق من رواية البيذق وخاصة إذا وضعنا فى اعتبارنا أن البيذق تلميذ ابن تومرت وصاحب الخليفة عبد المؤمن فليس من المستبعد أن ينسج حولهما كثيراً من القصص والخرافات .

---

(١) ابن الخطيب : رقم الحلل ص ٥٧ ، عباس المراكشى : الاعلام ج ٢ ص ٣٧٦ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان ج ٤ ص ٣٩ ، السلاوى : الاستقصا ج ٢ ص ٨١ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٦١ .
(٣) ابن أبى زرع : الانيس ج ٢ ص ١٢١ ت الفيلالى .
(٤) البيذق : أخبار المهدى ص ٥٣
(٥) نفس المرجع السابق ص ٥٥ ، ٥٦
(٦) المراكشى : المعجب ص ١٨١ .

ثم أعقب ذلك حملة ذكية من القصص والإشاعات التى تشير إلى قيام الدولة على أكتاف عبد المؤمن بن على وذلك بإذاعة أن العرافين تنبؤابتأسيس عبد المؤمن للدولة[١] مع إذاعة بعض الأحلام وتفسيرها بما يدعم هذه الفكرة يصاحب ذلك بعض الأحداث التى وقعت لعبد المؤمن فى صغره والتى فسرت بما يناسب نفس الفكرة وهى تأسيسه للدولة[٢] وفى خلال ذلك يسرع الناس بالانضمام إلى ابن تومرت ودعوته ، مؤمنين به ومصدقين لما يقول ، وابن تومرت يعمق هذا التفكير فى أذهانهم ، وحتى يحقق ذلك بسهولة فإنه يتجه بدعوته وأقواله إلى الجهال من الناس ، فيستميلهم ويستحوذ على عقولهم كما سبق أن أشرت .

وقد بلغ من تقديس أصحابه له أن حاول بعضهم نفى صفة البشرية عنه وأنه لا يأكل ولا يشرب مما دعا ابن تومرت إلى نفس ذلك يصور ذلك البيذق « وقال — أى ابن تومرت لأصحابه — هنا عهد الله وعهد الرسول بيننا وبينكم على الكتاب والسنة ، فلما صنع الطعام قال الناس الإمام لا يأكل ولا يشرب فتفرس فيهم فأومأ بيده نحو ذراع كبش وقرص منه وألقاه فى فمه ثم قال لهم إنما أنا آكل كما يأكل الناس وأشرب كما يشرب الناس وأنا من بنى آدم يلزمنى ما يلزمهم ثم قال كلوا كما يأكل النبيون »[٣] وهكذا ارتفع الناس به عن مرتبة البشرية ونفى ابن تومرت لذلك : إلا أنه أشار فى حديثه إلى أنهم يأكلون كما يأكل الأنبياء وفى هذا تلميح بمكانته الدينية ، وهذه القصص التى نسجها حول شخصه ساعدته فى إدعاء أنه المهدى المنتظر والتى سبق أن تناولتها فإذا ما وجد معارضة من أصحابه فإنه يدعى بعض الكرامات لأصحابه كمعجزة أبى محمد البشير وتحوله من الجهل المطلق إلى العلم بالقرآن والأحاديث ، ثم استغلها فى قتل كل معارض ومتشكك فى دعوته .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٠٢ ، القلقشندى : صبح الأعشى جـ ٥ ص ١٣٦ .

(٢) البيذق : أخبار المهدى ص ٥٣ ، ٥٤ ، المراكشى : المعجب ص ١٨٢ ، ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ ٢ ص ٤٠٢ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ٩٩ .

(٣) البيذق : أخبار المهدى ص ٧٣ .

وهكذا استطاع ابن تومرت بذكائه ودهائه ، أن يحتل مرتبة الأولياء والقديسين فى نفوس الكثير من السكان حتى كانت تفد إليه فى حياته أفواج الناس للتبرك به وطلب الدعاء منه[1] فلما مات صار قبره مزاراً يتوجه إليه الناس والخلفاء بقصد التبرك [2].

والخليفة عبد المؤمن بن على استغل هذه القصص فى تثبيت أقدامه عند مبايعة الناس ، وهو فى ذلك يقتفى خطوات أستاذه ومعلمه ابن تومرت وذلك حين عمد إلى تربية شبل وطائر ، حتى إذا اجتمع الناس لمبايعته ، أطلق أحد أصحابه الشبل والذى صار أسداً فمشى إلى عبد المؤمن وجلس بجواره ، وانطلق الطائر صائحاً بالدعاء للخليفة عبد المؤمن مما جعل الناس المجتمعين تدهش لهذه الخوارق وتؤمن بالخليفة الجديد وتسرع بمبايعته . وهكذا كان لمعرفة ابن تومرت بسذاجة الكثير من الناس وسرعة تقبلهم لما يقال الأثر الكبير فى ظهور مثل هذه الأعمال التى جرت على يد ابن تومرت وخليفته عبد المؤمن ، والتى ألهبت العاطفة الدينية لدى جماهير الشعب من إيمان بالاولياء والتبرك بهم ، والتحدث بالعديد من القصص حول معجزاتهم وكراماتهم .

العلوم الدينية والمؤلفات فيها :

كان للروح الدينية التى سادت بين سكان المغرب الأقصى منذ قيام دولة المرابطين ، مع اهتمام ولاة الأمر بالدين ورجاله أثر كبير فى ازدهار العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه وعلم الكلام إذ وفد على العاصمة وغيرها من مدن المغرب الأقصى الكثير من علماء الدين الأندلسيين ، حيث أسهموا فى دفع حركة التأليف بالبلاد وشاركهم فى ذلك أبناء المغرب الذين أقبلوا على الدراسة والبحث مما نتج عنه الكثير من المؤلفات الدينية .

فى مجال التفسير : زاد الاقبال على دراسة القرآن الكريم باعتباره مصدر التشريع الأول فى الدولة المرابطية والموحدية ، ومن هنا أقبل عليه العلماء

---

(١) البيذق : أخبار المهدى ص ٤٠ .

(٢) ابن القنفذ : الفارسية ص ١٠٠ ، ١٠١ ت محمد الشاذلى ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٤٤ بيروت .

بالدراسة والبحث ومن العلماء أبو الحسن على بن محمد الغرناطى المفسر نزيل مراكش وكان عالماً زاهداً ، يجمع إليه الناس فيفسر لهم القرآن من أوله إلى آخره[١] وأبو بكر محمد بن على المعافرى السبتى عرف بابن الجوزى[٢] وعبد الجليل بن موسى الأنصارى الأوسى ت ٦٠٨ وله تفسير فى القرآن[٣] ومن المؤلفات فى التفسير تفسير لأبى بكر بن الجوزى السبتى[٤] ومن التفاسير التى اعتنى بها المغاربة كتاب الوجيز لعبد الحق بن غالب بن عطية المحاربى المتوفى سنة ٥٤١هـ / ١١٤٦م وفى كتابه لخص التفاسير كلها وتحرى ما هو أقرب إلى الصحة [٥].

ومما يتصل بعلوم القرآن علم القراءات الذى لاقى رعاية وعناية من ولاة الأمر وقد سبق أن ذكرت كيف أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن كان يلزم أفراد الشعب بقراءة القرآن عقب صلاة الصبح وصلاة المغرب وممن اشتهر فى علم القراءات وألف فيه أبو بكر يحيى بن محمد بن خلف الهوزنى الأشبيلى والمقيم بسبته توفى سنة ٦٠٢هـ / ١٢٠٥م[٦] والعالم على بن محمد بن يوسف اليابرى الضرير والمتوفى سنة ٦١٧هـ / ١٢٢٠م كان أستاذاً لأبناء الخلفاء فى القراءة والتجويد [٧].

علم الحديث : نال علم الحديث عناية فائقة من ولاة الأمر ، وهو المصدر الثانى الذى اعتمد عليه المرابطون والموحدون فى أحكامهم ، وكان موطأ الإمام مالك فى الدولة المرابطية مدار الدراسات المتصلة بعلم الحديث ، فلما قامت دولة الموحدين صار لعلم الحديث شأن كبير حيث اهتم الخلفاء به اهتماماً كبيراً ، فالخليفة عبد المؤمن أمر بحرق كتب الفروع ورد الناس إلى

---

(١) التادلى : التشوف ص ٢٢٦ .
(٢) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ٧٧ .
(٣) المنونى : العلوم والآداب ص ٤٤٠ .
(٤) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ٩٥ .
(٥) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٤٧ .
(٦) المنونى : العلوم والآداب ص ٤٦ ، ملين : عصر المنصور ص ٢٤٥ .
(٧) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٤٦ .

قراءة الحديث وكان ذلك فى سنة ٥٥٠هـ / ١١٥٥م[1] أما الخليفة يوسف ابن عبد المؤمن فإنه أمر بأن تجمع أحاديث الجهاد وجعلها مجموعة واحدة وأخذ يمليها بنفسه على كبار رجال الدولة [2].

وفى عهد المنصور الموحدى صار لعلماء الحديث منزلة وصيت كبير فى الدولة [3] وقد أمر بجمع أحاديث النبى صلى الله عليه وسلم المتعلقة بالصلاة فى مؤلف يوزع على الناس وكان يملى ذلك المجموع بنفسه[4] وممن اشتهر فى علم الحديث أبو الخطاب بن دحية السبتى[5] وعبد الرحمن بن محمد بن حبيش المتوفى سنة ٥٨٤هـ / ١١٨٨م[6] والقاضى عياض السبتى وكان إمام وقته فى الحديث وعلوم الدين[7] ومن مؤلفات الحديث إكمال المعلم شرح صحيح مسلم للقاضى عياض وله أيضاً مشارق الأنوار فى غريب الحديث والآثار[8] والمدارك فى وصل مقطوع حديث مالك لابن عبد الجليل القصرى وشرح مقدمة صحيح مسلم وشرح الموطأ لابن القطان[9] وغير ذلك من المؤلفات .

علم الفقه : نشطت الحركة الفقهية فى الدولة المرابطية ، وكانت تدور حول المذهب المالكى حيث أن داعية المرابطين كان مالكى المذهب ، ومن جاء بعده من ولاة الأمر كانوا يتخذون من مذهب الإمام مالك وأحكامه مصدراً لتشريعاتهم ، ومن هنا كان الفقه المالكى هو مناط الدراسة والبحث.

فلما جاءت الدولة الموحدية ، ألف ابن تومرت كتابه الموطأ على غرار موطأ الإمام مالك بعد حذف أسانيده[10] وقد سبق أن أشرت إلى موقف خلفاء الموحدين من مذهب مالك وكيف أن الخليفة عبد المؤمن أمر بحرق كتب

---

(١) ابن أبى زرع : الانيس جـ ٢ ص ١٥٤ ت الفيلالى ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٢٦ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٥٤ ، ٢٥٥ .

(٣) نفس المرجع السابق ص ٢٧٨ .

(٤) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٥٦ .

(٥) المنونى : العلوم والفنون ص ٤٧ ، ٤٨ .

(٦) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ٢٥٠ .

(٧) محمد بن تاويت : الادب المغربى ص ١٣٠ .

(٨) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ٩٥ .

(٩) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٥٩ .

(١٠) د. عبد الله علام : الدعوة الموحدية ص ٣١٤ .

الفروع سنة ٥٥٥هـ وقد تناولت ذلك من قبل ، وأن هذا الموقف تكرر فى عهد المنصور الموحدى حيث أمر بحرق كتب الفروع أى كتب الفقه المالكى والاكتفاء بالقرآن والحديث واستعاض عن كتب الفقه بجمع الأحاديث من كتب الأحاديث وجعلها فى مجموعة يتدارسها الناس ويحفظونها ، وقد سبق أن أوضحت موقف بعض العلماء من هذه الحملة ضد المذهب المالكى ، ومن أعلام الفقه فى هذا العصر عبد الملك المصمودى قاضى الجماعة بمراكش وابراهيم بن جعفر اللواتى الفقيه المعروف بالفاسى وعبد الله بن أحمد خلوف الأزدى السبتى[(١)] ومن المؤلفات فى هذا العصر الأعلام بحدود قواعد الإسلام للقاضى عياض والتنبيهات المستنبطة على الكتب المدونة له[(٢)] وحاشية على المدونة لأبى محمد يشكر المتوفى سنة ٥٩٨هـ / ١٢٠١م[(٣)] وغير ذلك من المؤلفات .

علم الكلام : لم ينل علم الكلام عناية أو رعاية خلال الحكم المرابطى باعتبار أن المرابطين ، كانوا يتخذون طريق السلف منهجاً ومسلكاً وبالتالى فإنهم لم يميلوا إلى الخوض فى علوم الكلام فضلا عن تشجيع دراستها وكانوا يتهمون كل من يخوض فى علم الكلام بالكفر ، وقرر الفقهاء عند ولاة الأمر من المرابطين تقبيح علم الكلام وأنه بدعة فى الدين ، وربما أدى أكثره إلى إختلال فى العقائد ، ومن ثم أمروا الناس فى كل مكان نبذ الخوض فيه وتوعد من وجد عنده شىء من كتبه[(٤)] إلا أنه بالرغم من ذلك ، وجد من درس هذا العلم وهو أبو بكر محمد بن الحسن الحضرمى المعروف بالمرادى وهو أول من أدخل علوم الاعتقادات بالمغرب الأقصى ومات سنة ٤٨٩هـ - ١٠٩٦م[(٥)] وقد درس على يديه أبو الحجاج يوسف بن موسى الكلبى الضرير أصله من سرقسطة وسكن مراكش وبها توفى سنة ٥٢٠ هـ/١١٢٥م[(٦)]

حتى إذا عاد ابن تومرت إلى المغرب الأقصى أعلن حربه على جمود

---

(١) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ٧٦ .
(٢) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ٩٤ ، ٩٥ .
(٣) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٥٩ .
(٤) المراكشى : المعجب ص ١٧٢ .
(٥) ابن المؤقت : السعادة الابدية جـ ٢ ص ١٢١ .
(٦) نفس المرجع السابق جـ ٢ ص ١٢١ .

علماء المرابطين ودعا إلى دراسة علم الكلام وسمى أتباعه الموحدين ودعاهم إلى تأويل المتشابه من الآيات ، ثم ألف لأتباعه كتاباً فى التوحيد وكتاباً فى العقيدة[١] وقد ألزم ابن تومرت أصحابه بتقسيم كتاب التوحيد إلى أحزاب وأن يقرأ الموحدون حزباً منه كل يوم بعد قراءة حزب القرآن[٢] وكان يشتمل على معرفة الله تعالى والعلم بحقيقة القضاء والقدر ، والايمان بما يجب لله تعالى ويستحيل عليه وغير ذلك من الموضوعات[٣] وأصبح لعلم الكلام منزلة فى الدولة نتيجة لاهتمام ولاة الأمر بذلك ، وممن اشتهر فى هذا العصر فى هذا العلم أبو عمرو عثمان بن عبد الله السلالجى أمام أهل المغرب فى علم الاعتقاد استوطن مدينة فاس ومات فى سنة ٥٦٤هـ / ١١٦٨م[٤] وقد ألف العقيدة البرهانية فى المذهب الأشعرى[٥] ومنهم أيضاً محمد بن عبد الكريم الفندلاوى الفاسى المعروف بابن الكتانى ، كان إماماً فى علم الكلام وأصول الفقه ، وقد عكف على تدريسها طول حياته وتوفى بفاس سنة ٥٩٦هـ / ١١٩٦م[٦]

وهكذا ازدهرت العلوم الدينية فى المغرب الأقصى نتيجة لطبيعة الدولتين المرابطية والموحدية وقيامهما على أساس دينى .

ثانياً : الحياة الأدبية والعلمية .

كانت الحياة الأدبية والعلمية الدعامة الثانية التى أمدت الحركة الفكرية بالكثير من المعارف والعلوم ، وقد لعبت اللغة العربية دورها فى سبيل نشر المعارف المتنوعة .

انتشار اللغة العربية : صاحب نمو الحركة الفكرية بالبلاد ، انتشار اللغة العربية إذ أنها لغة المكاتبات واللغة الرسمية للبلاد فى معاملاتها وشئونها ، وزاد

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢ مجلد ٢ ص ٨٥ .
(٢) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨٠ .
(٣) نفس المرجع السابق ص ٨٠ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ٢٧ .
(٤) التادلى : التشوف : ص ١٧٨ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٨٩ .
(٥) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٩٠ ، كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ١٢١ .
(٦) د. عبد الله علام : الدولة الموحدية ص ٣٠٥ ، ٣٠٦ .

من انتشارها ، أفواج العلماء القادمين من خارج البلاد ، والذين أثروا الحياة الفكرية بدروسهم ومؤلفاتهم ، وكانت ثقافة ولاة الأمر تقوم على الثقافة الإسلامية ووسيلتهم فى ذلك اللغة العربية ، كما أن المناهج الدراسية التى وضعها ولاة الأمر فى المؤسسات التعليمية والتى كانت تتخذ من كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم قاعدة ومنهاجاً كانت تدرس باللغة العربية ، مما وسع من انتشار اللغة العربية لغة القرآن والدين ، يضاف إلى ذلك عامل هام شهدته البلاد فى عهد الموحدين وهو مجىء العرب الهلالية إلى المغرب الأقصى واستيطانهم بعض المناطق من البلاد ، تحقيقاً لرغبة خلفاء الموحدين واحتفاظ هؤلاء البدو باللسان العربى وما فيه من مفردات وتراكيب وبلاغة فى الأساليب[1] وإذا أضفنا إلى ذلك التشابه فى حياة هؤلاء الأعراب وسكان البلاد من البربر ، لأدركنا مدى الاختلاط والتقارب الذى حدث بين هؤلاء الاعراب وسكان البلاد مما نتج عنه انتشار للغة العربية كلغة للتخاطب والتعامل فيما بينهم[2] وقد أشار ابن سعيد إلى وجود مجموعة من قبائل البربر التى تتحدث العربية حول مدينة فاس وهم بنو يوسف وقبالا وبهلول وزواوة وفحاصة وصناية[3] .

وهنا يجدر الإشارة إلى ظاهرة استخدام لغة البربر فى بعض نواحى الحياة خلال الفترة الأولى لحكم الموحدين وكان لذلك عدة مظاهر وأسباب

أما المظاهر فهى معرفة ابن تومرت لهذه اللغة واستخدامها فى حديثه الشخصى ، فأثناء عبوره وادى أم الربيع مع مجموعة من أصحابه ، طلب منه بعض المشرفين ضريبة العبور فأعلن استنكاره لذلك بلهجة البربر قائلا «أومورن ملولنين أن سوس أواون ناك» ومعناها إنما السبيل للمسلمين ، وأنتم تقطعونها وهذا غير جائز فى الشرع[4] كما أنه كان يلقن أصحابه دعوته باللغة العربية

---

(١) الميلى : تاريخ الجزائر جـ ٢ ص ١٢٤ .
(٢) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ٢ ص ٨٤ ، نفس المؤلف : وحدة المغرب العربى ص ٥٩ مجلة تطوان عدد أول سنة ٥٦ ، نفس المؤلف : مظاهر الحضارة المغربية جـ ١ ص ٦٥ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٤٩ .
(٣) ابن سعيد : نزهة الأنظار جـ ١ ص ١٨ .
(٤) البيذق : اخبار المهدى ص ٦٧ .

ولغة البربر وألف لهم فى ذلك بعض المؤلفات بلسان البربر [1] يقول ابن خلدون « ثم ارتحل المهدى عنهم إلى ايكيلين من بلاد هرغة فنزل على قومه وذلك سنة خمس عشرة وخمسمائة وبنى رابطة للعبادة ، اجتمعت إليه الطلبة والقبائل ، يعلمهم المرشدة فى التوحيد باللسان البربرى وشاع أمره فى مجتمعه » [2].

وقد حرص الخليفة عبد المؤمن على إلزام من يعرف لغة البربر بحفظ عقيدة التوحيد لابن تومرت وفهمها ومداومة قراءتها[3] كذلك كان يشترط خلفاء الموحدين فى خطباء المساجد معرفتهم بلغة البربر ، ولذا حين دخل الموحدون مدينة فاس عزلوا خطيب جامع القرويين لعدم معرفته بلغة البربر وعينوا مكانه من يجيد اللغتين : اللغة العربية ولغة البربر[4] يقول الجزنائى « والخطباء الذين خطبوا فيه — أى بجامع القرويين بفاس .. أولهم الخطيب أبو محمد المهدى بن عيسى وكان من أحسن الناس خلقاً وخلقاً . . فأقام يخطب مدة خمسة أشهر ثم دخل الموحدون المدينة فصرفوه عن الخطبة وقدموا مكانه الفقيه الصالح أبا الحسن بن عطية ، لأجل حفظه اللسان البربرى لأنهم كانوا لا يقدمون للخطبة والإمامة إلا من كان يحفظ التوحيد باللسان البربرى فخطب به إلى أن توفى فى ثامن من ذى القعدة سنة ٥٥٨هـ »[5].

هذه بعض مظاهر اهتمام داعية الموحدين ابن تومرت ومن جاء بعده فى استخدام لغة البربر ويمكن تعليلها بما يأتى :

١ — ان استخدام ابن تومرت للغة المحلية وهى لغة البربر حتى يستطيع أن يؤثر فى قطاع كبير من أبناء القبائل فإذا علمنا أن الدولة قامت على أكتاف قبائل البربر لأدركنا مدى أهمية استمالتهم وضمهم للدعوة الجديدة .

٢ — سبق أن أشرت إلى حرص ابن تومرت على نشر دعوته بين

---

(١) ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٨٠ ، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٣ ليفى بروفنسال : الاسلام فى المغرب والاندلس ص ٢٥٨

(٢) ابن خلدون : العبر جـ ٦ ص ٢٢٧ ، ٢٢٨ .

(٣) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٢ .

(٤) الجيلانى : رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس ص ٧٨ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٣ .

(٥) الجزنائى : زهرة الآس ص ٤٢ .

الجهال من أبناء القبائل ، حيث يمكن التأثير فيهم ، ولا يمكن التأثير فيهم بلغة الثقافة وهى اللغة العربية التى يجهلونها ، ومن ثم رأى ضرورة مخاطبتهم باللهجة التى يعرفونها .

٣ — أن ابن تومرت حين نادى بدعوته هاجم علماء المرابطين ، وهم حملة الثقافة العربية والمتحدثين باللغة العربية ، وبالتالى فقد وقف هؤلاء العلماء منه موقفاً عدائياً وخاصة بعد إذاعته أنه الامام المعلوم والمهدى المعصوم فلم يكن أمام ابن تومرت إلا التوجه بدعوته إلى عامة الناس وكثير منهم يجهل العربية .

٤ — فى استمرار استخدام لغة البربر وخاصة فى مجال المبادىء التى التى سنها ابن تومرت ترسيخ للمبادىء فى نفوس الشعب ، بحيث لا تقوم حجة لمن يتغافل عن دراستها أو حفظها ومن ثم توقع عليه العقوبة عند إهماله وبالرغم من هذا الاهتمام الذى أولاه ابن تومرت وعبد المؤمن للغة البربر إلا أنها لم تكن ذا خطر على تيار الثقافة العربية ولغتها ، إذ كانت محصورة فى مجال الدعوة الموحدية وما يتعلق بها حتى إذا جاء المأمون الموحدى أنكر على ابن تومرت أشياء كثيرة ومنها استخدامه للهجة البربر فى دعوته(١)

الحركة الأدبية : ازدهر الأدب فى هذه الفترة بنوعيه الشعر والنثر باعتباره مظهراً من مظاهر الحركة الفكرية بالبلاد ، تلك الحركة التى نمت وترعرعت خلال عهد المرابطين والموحدين ، وحظى الأدباء بالرعاية والعناية من ولاة الأمر كما سبق أن أوضحت ، وخاصة فى عهد الموحدين حيث بلغ الشعر والنثر درجة كبيرة من الرقى ففى العهد المرابطى لم يحقق الأدب نمواً كبيراً ، بل سار فى تقدمه بطيئاً وذلك لأن ولاة الأمر القادمين من الصحراء لم يكونوا يشجعون الحركة الأدبية التشجيع الكافى حتى تنهض وتتقدم سريعاً ، باعتبار النشأة الأولى مع توجيه اهتمامهم ناحية الدين وسيطرة الفقهاء على الأمور فى البلاد ، إلا أن هذا لم يمنع وجود كبار الكتاب والأدباء الأندلسيين فى البلاد المرابطى أمثال أبى القاسم بن الجد وابن القبطرنة وأبى

(١) المنونى : العلوم والآداب ص ١٥٧ .

عبد الله محمد بن أبى الخصال وابن عبدون وغيرهم واشتغل بعضهم فى ديوان الكتابة بالدولة المرابطية كابن عبدون وابن أبى الخصال[١] .

ولا شك أن وجودهم على أرض المغرب الأقصى قد مهد التربة لظهور حركة أدبية نشطة فى عهد الموحدين حيث ازدهر فى عهدهم الأدب، وصارت المحافل المغربية تمتلىء بالشعراء والكتاب ، وكان هذا ثمرة للنهضة التعليمية التى بدأت فى عهد المرابطين ونمت وتقدمت فى عهد الموحدين مع تشجيع خلفاء الموحدين للأدب حتى أن بعضهم كان يقرض الشعر ويناقش الشعراء كالخليفة عبد المؤمن والمنصور الموحدى ، يضاف إلى ذلك رغبة المغاربة فى الوقوف على قدم المساواة مع أدباء الأندلس الذين كانوا يفتخرون عليهم بمنزلتهم الأدبية .[٢] مع رغبة الكثير من أبناء الأمة فى الوصول إلى المناصب العليا فى الدولة وهذه لم يكن يشغلها إلا من كان على قدر من العلم والأدب حتى يكون أهلا لتولى هذا المنصب أو ذاك[٣] وصاحب كل هذا تدفق أدباء الأندلس وغيرهم على البلاط الموحدى حيث العطايا الجزيلة والمنح التى كان يغدقها الخلفاء والأمراء على الأدباء ، وقد أثمر هذا كله ازدهاراً ورقياً فى الشعر والنثر .

أما الطابع العام والمميز لهذا الأدب فى هذه الفترة ، فلا شك أن المذهب المالكى وعلماؤه وفقهاؤه فى الدولة المرابطية ، ودعوة ابن تومرت ودعاة الموحدين كان لذلك أثر فى توجيه الأدب وجهة جادة ، فأبعدته عن بعض الأغراض التى تناولها أدباء المشرق كالخمريات والغزل بالمذكر وغير ذلك مما يتنافى مع الجو الدينى الذى ساد البلاد فى هذه الفترة[٤] وكان يتميز بشكل عام بالبساطة والوضوح والبعد عن الزخرف والصنعة اللفظية التى برع فيها أدباء المشرق [٥].

---

(١) آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الاندلسى ص ١٢٣ ت د. حسين مؤنس .

(٢) كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٦٤ .

(٣) نفس المرجع السابق ج ١ ص ١٦٥ .

(٤) حركات المغرب عبر التاريخ ص ٣٩٤ ، محمد بن تاويت : الادب المغربى ص ١٥٥ .

(٥) كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٦٦ ، المنونى : العلوم والفنون ص ١٣٩ .

الشعر :

حظى الشعر باهتمام ولاة الأمر وخاصة خلفاء الموحدين حيث أجزلوا العطاء للشعراء وقربوهم إليهم وهذا يرجع إلى تذوقهم للشعر ومعانيه الجيدة ومن ثم من أجاد منهم نال الحظوة والمكانة فضلا عن المنح والعطايا فالشاعر الذى بدأ قصيدته فى مدح الخليفة عبد المؤمن بقوله :

ما هز عطفيه بين البيض والأسل ... مثل الخليفة عبد المؤمن بن على

أمره الخليفة بالتوقف قائلا له حسبك ووصله بألف دينار[1] ، وحين بدأ أحد الشعراء قصيدته فى مدح عبد المؤمن بمناسبة بنائه لمدينة فوق جبل طارق قائلا : ما للعدا جنة أوقى من الهرب . . ، فقال الخليفة عبد المؤمن رافعاً صوته : إلى أين ؟ فقال الشاعر : أين المفر وخيل الله فى الطلب .

وأين يذهب من فى رأس شاهقه ... وقد رمته سماء الله بالشهب

فلما أتم القصيدة قال عبد المؤمن : بمثل هذا تمدح الخلفاء[2] فهذا الحوار الذى دار بين الخليفة والشاعر يدل على ملكة شعرية دفعته إلى سؤال الشاعر عن بقية البيت ، وإذا كان الخليفة يكتفى هنا بالسؤال ، فإنه فى موضع آخر يدخل فى حوار شعرى مع وزيره أبى جعفر بن عطية وذلك أثناء تجولهما فى شوارع العاصمة إذ أبصر الخليفة وجه جارية جميلة من خلف نافذة وحرك المنظر مشاعره ومن ثم ارتجل :

قدت فؤادى من الشباك إذ نظرت

فقال أبو جعفر : حوراء ترنو إلى العشاق بالمقل .

فقال عبد المؤمن : كأنما لحظها فى قلب عاشقها .

فقال أبو جعفر : سيف المؤيد عبد المؤمن بن على

فطرب الخليفة وأجزل لوزيره العطاء[3] .

وبجانب هذه الملكة فى قول الشعر كانت هناك ملكة النقد التى تنفر من الشعر الردىء فالشاعر الذى أنشده فى احتفال جبل الفتح :

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٢ مجلد ٢ ص ٩٥ .

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢١٥ ، ٢١٦ .

(٣) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٧٠ ، ١٧١ ت الفيلالى .
المقرى : نفح الطيب جـ ٧ ص ١١٣ ، كنون : أمراؤنا الشعراء ص ٢٠ .

غمض عن الشمس واستقصر مدى زحل
وانظر إلى الجبل الراسى على الجبل
إنى استقر به ، أنى استقل به
أنى رأى شخصه العالى فلم يزل

فقال له الخليفة عبد المؤمن : لقد ثقلتنا يارجل فأمر به فأجلس[١] فهذا التذوق للشعر مع ترحيبه بالشعراء القادمين يعطينا صورة واضحة عن مدى ازدهار الشعر فى عهد عبد المؤمن وقد بلغ من كثرة الشعراء الذين وفدوا لتهنئة المنصور الموحدى بنصر الأرك ، أن اكتفى كل شاعر بإنشاد البيتين أو الثلاثة ثم ترك قصيدته مكتوبة أمام الخليفة ، فأحدثت القصائد جداراً وحائلا بين الخليفة والناس من حوله لكثرتها[٢] .

ومن هذا نلمس كيف أن دولة الشعر فى عهد الموحدين ارتفعت أعلامها وسمت مكانتها نتيجة لتشجيع ولاة الأمر .

أما أهم الأغراض التى تناولها الشعراء فالوصف والغزل والشكوى تأثراً بحياة الزهد وخاصة فى عهد المرابطين[٣] والمدح الذى كان وسيلة للتكسب مع الابتعاد عن الهجاء[٤] وقد بدأ فى عصر الموحدين ظهور قصائد فى المدح النبوى والتى انتشرت بعد ذلك فى الشعر المغربى[٥] .

أما بالنسبة للشعراء فقد عاش خلال فترة البحث الكثير من الشعراء والذين خلفوا لنا ثروة شعرية ، ويمكننا أن نشير إلى من أقرض الشعر من ولاة الأمر باعتبار أنه مظهر من مظاهر انتعاش الشعر فى هذه الفترة ، ففى الدولة المرابطية ، كان هناك الأمير أبو بكر بن ابراهيم المسوفى ، المعروف بابن تافلويت صهر أمير المسلمين على بن يوسف وكان أديباً رقيقاً مقربا للأدباء ومكرما لهم وله عدة أبيات[٦] .

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢١٧ .
(٢) المقرى : نفح الطيب جـ ٥ ص ٣٠٤ .
(٣) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٥١ .
(٤) نفس المرجع السابق ص ٣٩٦ .
(٥) نفس المرجع السابق ص ٣٩٦ .
(٦) كنون : أمراؤنا الشعراء ص ١٧ ، كنون : النبوغ المغربى جـ ٣ ص ٩٩ .

أما فى الدولة الموحدية ، فقد سبق الإشارة إلى تمتع الخليفة عبد المؤمن بموهبة شعرية فى الحوار والنقد ، وقد رويت عنه بعض الأبيات وذلك حين استنفر قبائل العرب الهلالية لمشاركته فى الجهاد بالأندلس ومنها :

أقيموا إلى العلياء هوج الرواحل وقودوا إلى الهيجاء جرد الصواهل(١)

والأمير أبو عمران بن عبد المؤمن ، كانت له مجموعة من الأبيات (٢) والأمير أبو الربيع سليمان بن عبد الله بن عبد المؤمن الموحدى وله ديوان شعر يضم العديد من القصائد (٣)وغيرهم من أسرة الخلافة ممن أنشد الشعر .

وبجانب هؤلاء فقد حفل بلاط ولاة الأمر بالكثير منهم وخاصة فى المناسبات الهامة من نصر على العدو أو ارتقاء مقعد الحكم أو تشييد وبناء وممن اشتهر فى العصر المرابطى ، أبو الفتوح بن عبد الله بن خفاجه الهوارى والشاعر أحمد بن عبد الله القيسى أبى العباس الملقب بالأعمى التطيلى وغيرهم(٤).

أما فى العهد الموحدى فهناك أحمد بن عبد السلام الجراوى ويكنى أبو العباس وأصله من تادلا(٥)والشاعر أبو عبد الله محمد بن جبوس من أهل مدينة فاس الذى أنشد الشعر لأمراء المرابطين وخلفاء الموحدين(٦)والشاعر أبو بكر بن مجبر من شقورة وكان شاعر دولة بنى عبد المؤمن(٧)وغيرهم الكثير من الشعراء مما يضيق المقام بحصرهم .

وبجانب هؤلاء الشعراء كانت هناك الشاعرات ، وممن اشتهر بالمشاركة فى الأدب وتذوق الشعر وإنشاده من بيت ولاة الأمر فى الدولة المرابطية

---

(١) كنون : أمراؤنا الشعراء ص ١٨ ، المنونى : العلوم والفنون ص١٥٩ ، ١٦٠ كنون : النبوغ المغربى جـ ٣ ص ١٣ .

(٢) ابن ابى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٦٩ ت الفيلالى ، كنون : أمراؤنا الشعراء ص ٢٣ .

(٣) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ١٦١ ، كنون : أمراؤنا الشعراء ص ٢٧ ، ٣١ .

(٤) د. حسن محمود : قيام دولة المرابطين ص ٤٣٥ ، ٤٣٦ .

(٥) ابن الآبار : التكملة ص ١٥٧ .

(٦) المراكشى : المعجب ص ٢١٣ ، ٢١٤ .

(٧) الحميرى : صفة جزيرة الاندلس ص ١٠٥ ، ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١١٣ بيروت .

الأميرة تميمة بنت يوسف بن تاشفين ، وزينب بنت إبراهيم بن تافلويت وأختها حواء[1] أما فى العصر الموحدى فقد اشتهرت الشاعرة حفصة بنت الحاج الركونية وهى من أهل غرناطة ، وكانت فريدة زمانها فى الحسن والظرف والأدب ولها مجموعة من الأبيات[2] وهكذا ازدهرت الحركة الشعرية فى البلاد .

النثر :

واكب النثر الشعر فى دفع الحركة الأدبية ، حيث استعان ولاة الأمر من المرابطين والموحدين بمختلف الكتاب ، لكتابة الرسائل الرسمية ، وقد استطاع ليفى بروفنسال أن يجمع مجموعة من هذه الرسائل ، ومن خلالها يمكننا أن نلمس الخصائص العامة لاسلوبها حيث تبدو فيها الصنعة واضحة مع التلاعب بالألفاظ لإظهار المقدرة والتمكن من اللغة ، أما الخطابة فقد استخدمها ابن ياسين داعية المرابطين ، وابن تومرت داعية الموحدين فى تثبيت دعوته . يضاف إلى ذلك أن المعارك التى خاضها المرابطون والموحدون ضد الفرنج استلزمت وجود الكثير من الخطباء الذين يبثون الحمية والحماس فى نفوس المقاتلين .

وبجانب ذلك كان هناك الخطباء الذين يحتلون صدور المحافل والمجالس فى عهد الموحدين ، فالمنصور الموحدى كان يجلب إليه الخطباء ، وكان هؤلاء يتنافسون بمحضر الخليفة فى إظهار براعتهم وتفوقهم وقدرتهم على ارتجال الكلام وإقناع السامعين[3] ومن هؤلاء الخطباء محمد بن عبد العزيز بن عياش ، وسهل بن مالك وغيرهما[4].

أما التوقيعات فقد برع فيها بعض ولاة الأمر حيث تركوا لنا عدة توقيعات ، تعبر عن الحاسة الأدبية التى كانوا يتمتعون بها فحين أرسل

---

(١) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ٧٤ .

(٢) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ١٣٨ ت د. شوقى ضيف ، المقرى نفح الطيب جـ ٥ ص ٣٠٣ ، ابن الخطيب : الاحاطة المجلد الاول ص ٤٩٩ ، ٥٠١ ، ٥٠٢ ت عبد الله عنان .

(٣) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٨٥ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ١٨٥ .

أذفونش رسالة إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين يهدده فيها ويغلظ له القول ، كان رد أمير المسلمين على ظهر الخطاب « الجواب ما ترى لا ما تسمع »[1] ومن توقيعات الخليفة عبد المؤمن على القصيدة التى أرسلها وزيره أبو جعفر بن عطيه يستعطفه : الآن قد عصيت من قبل وكنت من المفسدين[2] ، ومن توقيعات المنصور الموحدى حين طلب مؤدبين لأبنائه فأحضرا له وأخبر أن أحدهما بحر فى علمه والآخر بر فى دينه وبعد اختبارهما وجدهما لا يصلحان فوقع بقوله : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم : ظهر الفساد فى البر والبحر [3].

وبجانب ذلك فقد شجع الخليفة عبد المؤمن على قراءة قصص البطولة والفروسية المنتشرة فى ذلك العصر ومنها قصة جازية والشريف وتتناول قصة دخول العرب الهلالية إفريقية[4] ومن أهم المؤلفات الأدبية خلال هذه الفتر : ديوان خطب لمروان بن سمجون وغنية الكاتب وبغية الطالب فى الصدور والترسل للقاضى عياض وله أيضا سر السراة فى أدب القضاة[5] ومن المؤلفات الأدبية أيضا مختصر الأغانى للأمير سليمان الموحدى ، وديوان الأدب وديوان العرب وهى الحماسة المغربية لأبى العباس الجراوى ، وديوان عتيق الفصيح المتوفى سنة ٥٩٥ هـ/١١٩٨ م والمطرب من أشعار أهل المغرب لأبى الخطاب ابن دحية وغير ذلك من الدواوين والكتب الأدبية[6] .

ثقافة الأمراء وأبناء الشعب :

إذا تتبعنا الدراسات المتنوعة التى حصل عليها ولاة الأمر من أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين ووزرائهم ثم أبناء الشعب يمكننا أن نلمس صورة

---

(١) كنون : النبوغ المغربى ج ٢ ص ٨٩ .
(٢) نفس المرجع السابق ج ٢ ص ٩٩ ، المنونى : العلوم والفنون ص ٢٠٣ .
(٣) كنون : النبوغ المغربى ج ٢ ص ١٠٣ ، المنونى : العلوم والفنون ص ٢٠٣ ، ص ٢٠٤ .
(٤) د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ٣٤٣، ٣٤٤ - د. احمد مختار العبادى : البحرية الاسلامية فى المغرب ص ٢٦٠.
(٥) كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ٩٥ .
(٦) كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٦١ .

صادقة للطابع العام للحركة الفكرية التي سادت البلاد ، ومن ناحية أخرى يتضح لنا سبب إهتمامهم وتشجيعهم للعلم والعلماء فى دولتهم فأمير المسلمين يوسف بن تاشفين الذى رحب بالعلماء فى عاصمته كانت ثقافته دينية مستمدة من المذهب المالكى ، حيث درسه فى رباط عبد الله بن ياسين داعية المرابطين ، ولأنه قضى شطرا كبيرا من حياته فى الجهاد بالمغرب والأندلس مع ميل للزهد والتقشف وابتعاد عن مظاهر الترف التى كانت سائدة فى الأندلس ، كل هذا جعله بمنأى عن التيارات الثقافية المختلفة بالأندلس ، اكتفاء بالدراسات الدينية التى تعلمها فى الصحراء ولا شك أنه تأثر ثقافيا بتلك المجموعة من الأدباء والكتاب من علماء الأندلس ، والذين اتخذ منهم وزراء وكتابا .

وعلى العكس من ذلك ابنه أمير المسلمين على بن يوسف الذى ولد بمدينة سبتة من أم نصرانيه ، وعاش فترة كبيرة من حياته بالأندلس [١] واليا عليها من قبل أبيه ، ومن ثم استهوته الثقافة الأندلسية فنهل منها ، يضاف إلى ذلك تكريمه للعلماء وترحيبه بهم فى عاصمته ، مما أسهم فى تكوين شخصيته العلمية ، والتى استمدت أصولها من كتاب الله وسنة رسوله مع دراسة الأحكام الدينية وتفريعاتها على مذهب الدولة الرسمى وهو المذهب المالكى ، يضاف إلى ذلك علوم العربية المختلفة من نحو ولغة وأدب وغير ذلك.

فإذا ما انتقلنا إلى الدولة الموحدية وجدنا حرص خلفاء الموحدين على تزويد أنفسهم بمختلف الثقافات فالخليفة عبد المؤمن كان حريصا على تلقى العلم منذ نعومة أظفاره ، وفى رواية أن ابن تومرت هو الذى أثناه عن التوجه إلى المشرق لطلب العلم ، وأن ما ينشده سيجده عند ابن تومرت ، وصار عبد المؤمن من أحب التلاميذ لابن تومرت والخليفة من بعده ، ومن هنا تنوعت ثقافته فقد كان فقيها عالما بالجدل والأصول حافظا لحديث النبى صلى الله عليه وسلم مشاركا فى علوم كثيرة دينية ودنيوية ، إماما فى النحو واللغة والأدب والتاريخ وعلم القراءات ذاكرا للتاريخ وأيام الناس [٢] أما

(١) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٠٨ .
(٢) ابن أبى زرع : الأنيس جـ ٢ ص ١٧٠ ، ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٢ ، ١١٣.

الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، فإن حياته بالأندلس واليا عليها من قبل أبيه قد أثرت فى حياته العلمية وجعلته متنوع الثقافة حيث حظى بقسط وافر من العلوم المختلفة ، ففى مجال العلوم الدينية كان عالما بالقرآن والحديث والعلوم الشرعية [١] أو كما يقول ابن صاحب الصلاة « مستظهر للقرآن كتاب الله تعالى بشرحه فى ناسخه ومنسوخه ، قارئا لنصه ، حافظا على وقفه وإبتدائه عالما بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحيحه ومختلفه وحسنه وغريبه وبإسناده متقنا فى العلوم الشرعية والأصولية متقدما فى علم الإمام المهدى رضى الله عنه محكما لأفانين علمه الذى أملاه وأخذ منه » [٢] أما العلوم العربية من نحو ولغة وأدب فقد التقى بالأندلس بأئمة العلماء ومنهم الأستاذ اللغوى المتقن أبو إسحاق إبراهيم بن عبد الملك المعروف عندهم بابن ملكون [٣] وكان عالما بأيام العرب ومآثرهم ، وبجميع أخبارهم فى الجاهلية والإسلام [٤] وأضاف إلى هذه الثقافات المتنوعة علم الفلسفة الذى مال إليه ورغب فى دراسته وساعده فى ذلك وجود أقطاب الفلسفة فى عهده : ابن طفيل وابن رشد [٥] وقد عبر عن ذلك المراكشى بقوله « ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيرا من أجزائها وبدأ من ذلك بعلم الطب ، فاستظهر من الكتاب المعروف بالملكى أكثره مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة ، وأمر بجمع كتبها فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى » [٦] .

أما المنصور الموحدى فكان عالما بالحديث والفقه واللغة مشاركا فى كثير من العلوم [٧] وقد بلغ درجة كبيرة من العلم حتى أن الفقهاء كانوا يرجعون

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ٧٠ تطوان .

(٢) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٣٣ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٣٧ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٣٧ ، السلاوى : الاستقصا جـ ٢ ص ١٥٦ .

(٥) عبد العزيز بنعبد الله : تاريخ المغرب جـ ١ ص ١٢٠ ، السلاوى: الاستقصا جـ ٢ ص ١٥٦ ، ١٥٧ .

(٦) المراكشى : المعجب ص ٢٣٨ .

(٧) ابن أبى دينار : المؤنس ص ١١٤ ، ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٣٤٨ ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٦٢ .

إليه فى الفتاوى والاسترشاد برأيه ، يقول المقرى « كان — أى المنصور الموحدى — يجيد حفظ القرآن ، ويحفظ فنون الأحاديث ، ويتقنها ويتكلم فى الفقه كلاما بليغا ، وكان فقهاء الوقت يرجعون إليه فى الفتاوى ، وله فتاوى مجموعة حسبما أدى إليه اجتهاده[١]» ومما ساعد فى تكوين الرغبة العلمية عندهم ، أنهم كانوا ينشئون تنشئة علمية ، حيث حرص خلفاء الموحدين على استدعاء العلماء المشهورين لتأديب أبنائهم وتثقيفهم ومن هؤلاء العلماء ، أحمد بن حسن بن سيد الجراوى المالقى من كبار النحاة والأدباء بالأندلس وكان شاعرا كاتبا بليغا استدعاه الخليفة عبد المؤمن ليؤدب أبناءه[٢] والعالم أحمد بن عبد الجليل بن عبد الله والمعروف بالتدميرى ، كان عالما بالعربية واللغة والأدب وقد استأدبه عبد المؤمن لبنيه[٣]أما المنصور الموحدى فكان يختبر بنفسه أساتذة أبنائه ليتأكد من علمهم وسعة ثقافتهم ، فإذا ثبت عكس ذلك أبعدهم ومن ذلك أنه بحث لبعض عماله طالبا مؤدبا لأبنائه ، فأرسل إليه العامل عالمين ورسالة يخبره فيها بأنه قد بعث إليه رجلين أحدهما بحر فى علمه والآخر بر فى دينه ، فلما امتحنهما لم يرضياه فوقع على ظهر كتاب العامل : ظهر الفساد فى البر والبحر[٤]، وممن اشتغل بالتدريس لأبناء المنصور عبد الله بن أحمد بن محمد اللخمى بن علوش أستاذ التجويد والقراءات والعربية والآداب[٥] وعبد الله بن سليمان بن حوط وكان يلقنهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ويمرنهم على إنشاء الخطب وتحبير الرسائل وقرض الشعر [٦].

وبجانب هذه الدراسات الخاصة فى قصر الخلافة كانوا يحضرون فى المدرسة التى أنشأها الخليفة عبد المؤمن والتى وضع لها برنامجا دينيا وإداريا

---

(١) المقرى : نفح الطيب جـ ٤ ص ١٠ .
(٢) عباس المراكشى : الاعلام جـ ١ ص ٢٢٦ .
(٣) ابن الآبار : التكملة لكتاب الصلة ص ٨٠ ، ٨١ ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٦٩ ، عباس المراكشى الأعلام جـ ١ ص ٢٢٣ .
(٤) الزركشى : تاريخ الدولتين ص ١٠ ، ابن أبى دينار : كتاب المؤنس ص ١١٧ ، ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٧١ .
(٥) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٧٠ .
(٦) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٧٠ .

وعسكريا وكان الخليفة عبد المؤمن يأمر أبناءه بملازمة أشياخ البلاد من الفقهاء والطلبة والكتاب والشعراء ومذاكرتهم وقراءة القرآن وعقائد الإمام المهدى وحفظها وحفظ التوحيد العربى والغربى (١).

أما الوزراء فقد كان معظمهم من أبناء الأندلس المشهورين بالعلم والأدب كابن عبدون وابن عطيه وابن أبى الخصان وهم من كبار الأدباء(٢) ومنهم أيضا الوزير مالك بن وهيب وزير أمير المسلمين على بن يوسف ، وكان على علم ودراية بفنون القول والعلوم المختلفة وله عدة مؤلفات(٣) وقد وصفه ابن بشكوال بقوله « أحد رجال الكمال والارتسام بمعرفة العلوم على تفاريعها وعلومها .. وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية وتوفى بمراكش سنة ٥٢٥ هـ »(٤) وهكذا كانت الطبقة الحاكمة فى البلاد طبقة مثقفة بالعلوم الإسلامية .

فاذا ما انتقلنا إلى الدراسات والعلوم التى كان يتعلمها أبناء الشعب لوجدنا تنوعا فى المناهج الدراسية وذلك تبعا للمعهد العلمى الذى تدرس فيه وإن كانت جميعها تتخذ العلوم الدينية من تفسير وحديث أساسا ومنهاجا فيما يدرسه الفرد فى المكتب كان الطالب يحفظ القرآن مع الإلمام بالقراءة والكتابة(٥) .

أما الدراسة فى الرباط فكانت تفسير القرآن والحديث والفقه وشعر المواعظ والأناشيد الدينية وذلك كله بطريقة مبسطة(٦).

أما فى المساجد فكان المذهب المالكى وكتبه هو محور الدراسة فى المساجد

---

(١) ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٢ ، ١٣٣ .

(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٠٥ .

(٣) محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسفية ص ١٧٤ ، ١٧٥ ، د. أحمد مختار العبادى : دراسات فى تاريخ المغرب ص ١٥٤

J. F. p. Hopkins: Medieval Muslim, p.7

(٤) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ ص ٥٨٧ .

(٥) المنونى : العلوم والآداب ص ٢٢ .

(٦) الكماك : محاضرات فى مراكز الثقافة ص ٤٤ ، محمد بن تاويت و د. محمد الصادق : الأدب المغربى ص ٩٥ .

فى العهد المرابطى بجانب العلوم الدينية الأخرى(١). فى التفسير كان تفسير الطبرى لاشتهاره بين المغاربة ، وفى الحديث موطأ الإمام مالك بن أنس وصحيح مسلم وشرح أبى الفضل عياض اليحصبى صاحب الشفاء والمدارس فى تراجم أصحاب مالك ، أما فى الفقه والأصول فكتب المذهب المالكى وكتب أبى الوليد الباجى أما فى النحو واللغة فالمعول به على كتاب سيبويه والإيضاح للفارسى ، وفى اللغة فالمعتمد فيها المخصص والمحكم لابن سيدة وغير ذلك من الكتب (٢)فلما جاء الموحدون ، اهتم دعاتهم بنشر أفكار المهدى وكتبه وبجانب ذلك دراسة كتب الأحاديث ومنها الموطأ والترمذى بجانب سائر العلوم الأخرى (٣).

أما المدارس التى أنشأها خلفاء الموحدين فكان البرنامج الدراسى فى مدرسة العاصمة وهى التى أسسها الخليفة عبد المؤمن بن على تشتمل على دراسة نظرية تقوم على حفظ القرآن وتفسيره من الكتب الدينية ، ودراسة وحفظ تعاليم المهدى وذلك بدراسة موطأ الإمام ابن تومرت وحفظه ، وحفظ صحيح مسلم وبجانب ذلك كانت هناك دراسة عملية وهى تدريبهم على ركوب الخيل والرمى بالسهم والقوس والعوم فى بحيرة صنعها لهم(٤).

ويرجح أن هذا المنهج كان متبعا فى بقية المدارس وخاصة ما يتصل بالمنهج النظرى من حفظ وفهم لمبادىء ابن تومرت ومؤلفاته وقد أكد ذلك تلك الرسالة الصادرة من الخليفة عبد المؤمن فى سنة ٥٥٦ هـ/ ١١٦٠ م إلى أهل بجاية وفيها يكلف الدعاة بأخذ الدارسين بفهم وحفظ كتب ابن تومرت وقد جاء فيها « ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربى — أى لغة البربر — ويتكلمون به أن يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول فى المعجزات ،

---

(١) عبد الهادى التازى : أحد عشر قرنا فى جامعة القرويين ص ١٤ ، ١٥ .

(٢) الكعاك : محاضرات فى مراكز الثقافة ص ٤٨ ، ٤٩ .

(٣) عبد الهادى التازى : أحد عشر قرنا ص ١٥ .

(٤) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٢٢٨ ، ٢٢٩ ، ابن القطان : نظم الجمان ص ١٣٩ ، ١٤٠ ، ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ١١٤ ، المنونى : العلوم والآداب ص ٢٣ .

ويحفظوه ويفهموه ويلازموا قراءته ويتعهدوه ، ويؤمر طلبة الحضر ومن فى معناهم بقراءة العقائد وحفظها وتعاهدها على سبيل التفهم والتبين والتنبه والتبصر ويلزم العامة ومن فى الديار بقراءة العقيدة التى أولها : اعلم أرشدنا الله وإياك .. وحفظها وتفهمها واشمل فى هذا الإلزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد وكل من توجه عليه التكليف إذ لا يصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد »[١].

المواد الثقافية :

لعبت العلوم الدينية والتى سبق أن تناولتها دورها فى تزويد أفراد الشعب بالثقافة الدينية ، وبجانب هذه العلوم ، كانت هناك علوم أخرى شاركت فى عملية التثقيف ، وأسهمت فى تكوين التفكير المغربى بما أمدته من معارف ومن هذه العلوم اللغة والنحو والتاريخ والسير ، وعلم الجغرافية والفلك وعلم الرياضيات وأخيرا علم الفلسفة .

اللغة والنحو :

نال علم اللغة عناية خاصة من الدارسين بالمغرب باعتباره العلم الموصل لمعرفة أسرار اللغة العربية ومعانيها ، وقد دفعهم إلى ذلك أن اللسان الغالب عبر القرون السابقة هو لسان البربر واللهجات المحلية ، ومن ثم أقبلت الرعية منذ وقت مبكر على دراسة علم اللغة . وازدهرت هذه الحركة وآتت ثمارها فى عهد المرابطين والموحدين[٢]وظهر فى هذا العصر اللغويون المعنيون بحفظ متن اللغة والباحثون فى مسائلها[٣]ونشطت المباحث اللغوية ،وكثرت المؤلفات فيها ، وممن اشتهر من علماء اللغة فى هذه الفترة ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن هشام اللخمى السبتى المتوفى سنة ٥٥٧ هـ / ١١٦١ م وله عدة مؤلفات لغوية منها : رسالة فى تقويم لحن العامة وشرح الفصيح لثعلب والفصول والجمل فى شرح أبيات الجمل وغير ذلك من المؤلفات[٤] وأبو القاسم

---

(١) مجموع رسائل موحدية ص ١٣٢ ، ١٣٣ .
(٢) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٩١ .
(٣) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ١٢٧ .
(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٩٢ ، كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ١٢٨ .

السهيلى المالقى الذى نزل بمراكش وأقام بها وله عدة تحقيقات لغوية[1] وغير هؤلاء من العلماء .

أما النحو فقد نال عناية ورعاية باعتباره أداة تقويم اللسان ، وقد اهتم ولاة الأمر بإحضار المؤدبين لأبنائهم وتربيتهم على النطق الصحيح وفهم قواعد اللغة وظهر فى هذه الفترة عدد من النحاة الذين كان لهم مقام كبير وألفوا مجموعة من الكتب التى تنبىء عن علو قدرهم ومهارتهم[2]وصاحب ذلك وجود عدة مدارس نحوية بالمغرب الأقصى على نمط ما حدث بالمشرق ، وكانت كل مدرسة لها بعض الآراء الخاصة التى انفردت بها فكانت هناك مدرسة فاس ومدرسة تلمسان ومدرسة سبتة وغيرها من المدارس النحوية التى انتشرت فى طول البلاد وعرضها[3]وممن اشتهر فى علم النحو أبو موسى الجزولى عيسى بن عبد العزيز من مراكش والتى توفى بها سنة ٦١٠ هـ - ١٢١٣م وله عدة مؤلفات[4]وابن معط[5]وأبو بكر بن محمد بن عبد الله وكان متبحرا فى النحو وله عدة مؤلفات وقد عظمت منزلته عند الخليفة المنصور الموحدى [6].

أما أشهر المؤلفات النحوية : المقدمة لأبى موسى الجزولى ، وله أيضا شرح أصول ابن السراج ومختصر الفسر لابن جنى والألفية لابن معط وغير ذلك من المؤلفات[7].

التاريخ والسير :

حفلت هذه الفترة بالكثير من المؤرخين الذين أرخوا للدولة المرابطية والموحدية إلا أن كثيرا من هذه المؤلفات فقدت ، وقد تعرضت بعض هذه

---

(١) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ١٢٨ .
(٢) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٢٦ .
(٣) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٢٦ .
(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٩٢ ، كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ١٢٦ .
(٥) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ١٢٦ .
(٦) ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب جـ ١ ص ١١١ ، ١١٢ .
(٧) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ١٦١ .

المؤلفات لتاريخ البلدان كأخبار البصرة وأخبار سجلماسة وأخبار نكور لمحمد بن يوسف الوراق[١] وتناول بعضها التاريخ العام للدولة كتاريخ الدولة اللمتونية لابن الصيرفى وهو مفقود وكتاب المدارك فى التعريف بأعلام مذهب مالك للقاضى عياض[٢].

أما فى العصر الموحدى فكانت هناك مجموعة من المؤلفات التاريخية الهامة والتى سأتناولها بإذن الله بالشرح والتحليل فى قسم الملاحق ويأتى فى مقدمتها المعجب فى أخبار المغرب لعبد الواحد بن على التميمى المراكشى ، ونظم الجمان لابن القطان ، وتاريخ المن بالإمامة لابن صاحب الصلاة الذى ألف كتابه فى تاريخ المغرب بعامة ودولة الموحدين بخاصة اعترافا منه بفضل الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، يقول ابن صاحب الصلاة بعد دخوله هو ومجموعة من العلماء إلى مجلس الخليفة يوسف بن عبد المؤمن « وأمر — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — لكل واحد منا بما أمله من إنعام وخصنى منهم بظهير — بمعنى المرسوم الملكى — كريم ومواساة معها أعانتنى على الزمان اللئيم ، وأغنتنى عن اللئام .. فحق على العبد تدوين سعد أيامه وتعيين الزمان بنصر أعلامه وإمامته »[٣] وهكذا كان تكريم الخليفة يوسف بن عبد المؤمن دافعا لابن صاحب الصلاة للتأريخ لدولتهم وكتاب أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين لابى بكر بن على الصنهاجى الملقب بالبيذق وغير ذلك من المؤلفات والتى تناول فيها المؤرخون الكثير مما يتعلق بأخبار هذه الفترة .

علم الجغرافية والفلك :

لمع فى هذه الفترة بعض الجغرافيين المغاربة الذى مزجوا بين علم الجغرافية والتاريخ ويأتى فى مقدمة هؤلاء أبو عبد الله محمد الادريسى والمولود بسبتة سنة ٤٩٥ هـ / ١١٠٢ م وقد ألف كتابه المشهور بنزهة المشتاق[٤] وكان الإدريسى يجمع بين عدة ثقافات أهمها الجغرافية والأدب

---

(١) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٣١ .
(٢) نفس المرجع السابق جـ ١ ص ١٣١ .
(٣) ابن صاحب الصلاة : تاريخ المن ص ٤٢٩ ، ٤٣٠ .
(٤) حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٢٤٧ .

وقد قام برحلة جاب فيها الأندلس ومصر وإفريقية ومناطق المغرب المختلفة ، بالإضافة إلى بعض البلاد الأوربية والآسيوية ثم وضع كتابه نزهة المشتاق بعد بحث وسفر دام خمسة عشر عاما[١]. ويعد له فى الأهمية كتاب الاستبصار فى عجائب الأمصار لمؤلف مجهول وكان معاصرا للدولة الموحدين وقد تحدث عن المنطقة كشاهد عيان لها وسوف أتناوله بإذن الله بالتفصيل فى قسم الملاحق ، يضاف إلى ذلك كتاب المعجب للمراكشى والذى تضمن معلومات تاريخية هامة وأدبية وبجانب ذلك تضمن أيضا بعض المعلومات الجغرافية عن المغرب الأقصى والأندلس .

ومما يتصل بذلك اشتغال بعض المغاربة بعلم الفلك والنجوم وممن برع فى ذلك الوزير مالك بن وهيب وقد أذاع ابن تومرت بين أصحابه إطلاعه على كتاب الجفر مع معرفته بعلم النجوم وما يتصل بها ، وقد بنى المنصور الموحدى سنة ٥٩٢ هـ فى المسجد الجامع بأشبيلية برجا عاليا ليكون مرصدا[٢]

علم الرياضيات :

دعت حاجة البناء والتعمير التى شهدتها المنطقة إلى تخصص بعض العلماء فى دراسة علوم الهندسة والجبر والحساب حتى يسدوا النقص الموجود بالبلاد وقد استعان بهم ولاة الأمر فى عمليات البناء الكثيرة التى تمت بجانب استعانتهم بالمهندسين والفنيين من الأندلس[٣] ومما يدل على البراعة الهندسية التى وصل إليها العلماء فى ذلك العهد تلك المقصورة الميكانيكية التى صممها العلماء فى عهد الخليفة عبد المؤمن بالمسجد الجامع لتضم الخليفة وحاشيته أثناء الصلاة ثم ترتفع بحركة هندسية بعد الانتهاء منها ، بالإضافة إلى أنواع المبانى الأخرى كالمستشفيات والجسور وغيرها .

وممن اشتهر فى علم الرياضيات أحمد بن الحسن بن أحمد بن حسان القضاعى أصله من بلنسية واستقر بفاس وتوفى بها سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٣ م ،

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٤٨ ، كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٤٣ .

(٢) اشباخ : تاريخ الأندلس ج ٢ ص ٢٥٩ ، ٢٦٠ .

(٣) Julien : Histoire du l' Afrique du Nord, p.88

وكان عالما بالهندسة وسائر التعاليم من الحساب[1] والعالم أبو محمد عبد الله بن محمد بن حجاج المعروف بابن الياسمين وهو من أهل مدينة فاس كان عالما فى الحساب وقد خدم المنصور الموحدى وابنه الناصر وله أرجوزة فى الجبر وتوفى سنة ٦٠١ هـ / ١٢٠٤ م[2] وكذلك العالم عبد المنعم بن أحمد من أهل مراكش وكان عالما بالحساب وأخذ عنه[3] وغير هؤلاء ممن خدموا فى بلاط الدولة ، أو قاموا بالتدريس للرعية ومن المؤلفات الرياضية فى هذه الفترة . جامع المبادىء والغايات فى علم الميقات للحسن المراكشى ، وله أيضا كتاب فى القطوع المخروطية ، كذلك أرجوزة الجبر لابن الياسمين[4] وغير ذلك من المؤلفات .

علم الفلسفة :

لم تزدهر الفلسفة فى دولة المرابطين باعتبار أن مجتمع المرابطين كان مجتمع الفقهاء والعلماء الذين يلتزمون بأحكام الدين ويتشددون فى تنفيذ مبادئه وتعاليمه ، ومن هنا اتجهت الدراسات فى معظمها وجهة دينية سواء من أمراء المرابطين أو الفقهاء والعلماء ، وقد سبق أن أشرت إلى قيام الفقهاء بالتأثير على أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين حتى أمر بإحراق كتاب الإمام الغزالى وذلك لاشتماله على علم الكلام المخالف لمبدأ الدولة ، ومن هنا لم تحظ الفلسفة ولا الفلاسفة بالرعاية والعناية ، وإن كان قد وجد فى هذا العصر من درس الفلسفة إلا أنه لم يظهرها كالوزير مالك بن وهيب وزير أمير المسلمين على بن يوسف حيث وصفه ابن بشكوال بقوله « أحد رجال الكمال والإرتسام بمعرفة العلوم على تفاريعها وأنواعها إلا أنه كان أضن الناس بها »[5] وأعتقد أن من العلوم التى ضن بها ولم يظهرها علم الفلسفة حيث موقف العلماء المتشدد يدعم ذلك ما ذكره المراكشى من أنه قد شارك فى جميع العلوم إلا أنه كان

---

(١) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٧١ .
(٢) نفس المرجع السابق ص ٢٣٧ ، مجهول : الذخيرة السنية ص ٣٩ .
(٣) ابن القاضى : جذوة الاقتباس ص ٢٧٨ ، ٢٧٩ .
(٤) كنون : النبوغ المغربى جـ ١ ص ١٦١ .
(٥) ابن بشكوال : الصلة جـ ٢ ص ٥٨٧ .

لا يظهر إلا ما يتفق فى ذلك الزمان[1] وقد خدم أيضا فى البلاط المرابطى الفيلسوف أبو بكر بن باجة وهو أندلسى الأصل ، وقد نشأ فى البيئة الأندلسية التى تسمح له ولغيره دراسة شتى العلوم والمعارف .

حتى إذا جاء ابن تومرت بدعوته التى تدعو إلى التحرر الفكرى ومحاربة الجمود العقلى ، انطلقت الفلسفة من عقالها ، وازدان البلاط الموحدى بكبار الفلاسفة وخاصة فى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، وقد ارتبط ازدهار الفلسفة فى البلاد وانزواؤها بموقف خلفاء الموحدين منها ، ففى عهد الخليفة يوسف بن عبد المؤمن ازدهرت الفلسفة بفضل تشجيع الخليفة يوسف بن عبد المؤمن الذى سمت نفسه إلى دراسة الفلسفة وعلومها[2] يقول المراكشى « ثم طمح به شرف نفسه وعلو همته إلى تعلم الفلسفة فجمع كثيرا من أجزائها ، وبدأ من ذلك بعلم الطب فاستظهر من الكتاب المعروف بالمالكى أكثره ، مما يتعلق بالعلم خاصة دون العمل ، ثم تخطى ذلك إلى ما هو أشرف منه من أنواع الفلسفة وأمر بجمع كتبها ، فاجتمع له منها قريب مما اجتمع للحكم المستنصر بالله الأموى »[3] وقرّب إليه الفلاسفة ، وكان يجرى عليهم المرتبات من خزانة الدولة ، فالفيلسوف أبو بكر محمد بن طفيل أحد فلاسفة المسلمين كان من المقربين للخليفة يوسف بن عبد المؤمن ، وكان ابن طفيل يأخذ مرتبا مع غيره من موظفى الدولة[4] وكان الخليفة يحتجزه فى قصره أياما ليلا ونهارا وذلك لحبه له ورغبته فى مناقشته[5] وفى الحوار الذى دار بين الخليفة يوسف بن عبد المؤمن والفيلسوف ابن رشد بمحضر من ابن طفيل ما يدل على سعة اطلاع الخليفة فى العلوم الفلسفية حتى أن ابن رشد علّق على ذلك بقوله « فالتفت — أى الخليفة يوسف بن عبد المؤمن — إلى ابن طفيل وجعل يتكلم على المسألة التى سألنى عنها ويذكر ما قاله أرسطو طاليس

---

(١) المراكشى : المعجب ص ١٨٥ .

(٢) العينى : عقد الجمان جـ ١ قسم واحد ص ١٣ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٢٣٨ .

(٤) نفس المرجع السابق ص ٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ابن سعيد : المغرب جـ ٢ ص٨٥ .

(٥) المراكشى : المعجب ص ٢٤٠ .

وأفلاطون وجميع الفلاسفة ، ويورد مع ذلك احتجاج أهل الإسلام عليهم ، فرأيت منه غزارة حفظ لم أظنها فى أحد من المشتغلين بهذا الشأن المتفرغين له فلم يزل يبسطنى حتى تكلمت فعرف ما عندى من ذلك ، فلما انصرفت أمر لى بمال وخلعة سنية ومركب »[١] وهكذا أظهر الخليفة من علمه ما أدهش الفيلسوف ابن رشد ، ولم ينس الخليفة فى نهاية اللقاء أن يمنح ابن رشد العطايا تكريما للفلسفة فى شخصه .

حتى إذا تولى المنصور الموحدى الخلافة ظلت الفلسفة تحتل مكانها اللائق بين العلوم ، غير أن هذه المكانة أصابها الاضطراب وذلك بعد النكبة التى حلت بالفيلسوف ابن رشد ، وغيره ممن يشتغلون بعلوم الفلسفة ، وقد اختلفت الآراء فى الأسباب الداعية لذلك فالمراكشى يرجع ذلك إلى أن ابن رشد فى إحدى مؤلفاته لم يلتزم جانب الأدب فى الحديث عن الخليفة الموحدى حين تحدث عن الزرافة وكيف تتولد وبأى أرض تنشأ فقال : رأيتها عند ملك البربر ... [٢] ورأى آخر يشير إلى أن ابن رشد فى مؤلفاته ، ذكر أن الزهرة أحد الآلهة وعرفوا المنصور بذلك (٣).

والواقع أن المكانة التى احتلها ابن رشد وغيره من الفلاسفة أحنقت كثيرا من الفقهاء وغيرهم مما دفعهم إلى الدس والوقيعة عند المنصور الموحدى ، يؤيد ذلك ما ذكره ابن عذارى أن محاولات الدس كانت قبل غزوة الأرك وأن هؤلاء الحاسدين انتقلوا إلى العاصمة ليدسوا عند الخليفة ضد ابن رشد ، غير أن إنهماك الخليفة فى التجهز لحملته العسكرية المتجهة للأندلس ، منعته من الإنصات إلى قولهم فلما استقر المنصور بقرطبة ، بعد تحقيق نصر مؤزر فى معركة الأرك ، أعاد الحاسدون الكرة مرة أخرى ناسبين إليه بعض الأقوال[٤] ومن هنا رضخ المنصور لهؤلاء العلماء واستجاب لمطالبهم ، حتى لا يظهر بمظهر من لا يدافع عن الدين والشريعة ، ومن ثم أمر بابعاده هو

---

(١) المراكشى : المعجب ص ٢٤٢ ، ٢٤٣ .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٠٥ ، ابن سعيد : المغرب فى حلى المغرب ص ١٠٥ .

(٣) المراكشى : المعجب ص ٣٠٦ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ج ٤ ص ١٧٥ ، ١٧٦ تطوان .

ومجموعة العلماء على حال سيئة ونفى إلى إليسانة على مقربة من قرطبة[١].

ويبدو من سير الأحداث أن الخليفة لم يكن مقتنعا بهذا التصرف وأنه كان يعلم ببراءة ابن رشد إلا أنه استجاب لضغط الجماهير المنتصرة بعد الأرك ودليلنا على ذلك أولا ما رواه ابن أبي أصيبعة عن حقيقة تصرف المنصور بقوله « ونقم — أى المنصور الموحدى — أيضا على جماعة أخرى من الفضلاء الأعيان وأمر أن يكونوا فى موضع آخر وأظهر أنه فعل ذلك بسبب ما يدعى فيهم أنهم مشتغلون بالحكمة وعلوم الأوائل .. »[٢]فذكره لكلمة أظهر توحى بأن فعل المنصور لم يكن عن اقتناع ثانيا : أنه أسند أمر تتبع الفلاسفة إلى أبى بكر بن زهر ولم يتتبع هذا الأمر بنفسه وكان يرمى من وراء ذلك أن يستتر على ابن زهر إن كان عنده كتب فلسفية وألا يناله العقاب « ولما شرع فى ذلك — أى فى تتبع الفلاسفة — جعل أمره مفوضا إلى الحفيد أبى بكر بن زهر وأنه الذى ينظر إليه ، وأراد الخليفة أنه كان عند ابن زهر شيء من كتب المنطق والحكمة لم يظهر ولا يقال عنه أنه يشتغل بها ولا يناله مكروة بسببها »[٣]ثالثا : إن هذه الحملة لم تستغرق سوى سنتين فما أن عاد الخليفة إلى العاصمة حتى أصدر أمره بالعفو عن ابن رشد وغيره من العلماء ، وأمر باحضار ابن رشد إليه فى العاصمة ليكرمه ويعوضه عما لحق به إلا أن ابن رشد توفى قبيل وصوله سنة ٥٩٥ هـ / ١١٩٨ م[٤] فهذا العفو السريع يدل على أن المحنة التى حلت بابن رشد إنما كانت استجابة وقتية للعلماء والحاسدين ، حتى إذا تبين الخليفة الموقف على حقيقته أمر بأن يعود كل شيء على ما كان عليه من قبل .

وهكذا ارتبط ازدهار الفلسفة فى البلاد وانزوائها بمدى تقدير الخلفاء لها أو محاربتها ، إلا أن ذلك كله لا يقلل من المرتبة الكبيرة التى وصلت إليها

---

(١) آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٥٥ ، ارنست رينان: ابن رشد والرشدية ص ٤١ .

(٢) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ص ٥٣٢ .

(٣) ابن أبى أصيبعة : عيون الأنباء ص ٥٢٣ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب جـ ٤ ص ١٧٦ تطوان ، آنخل جنثالث : تاريخ الفكر الأندلسى ص ٣٥٥ ، ٣٥٦ .

الفلسفة فى ظل الموحدين ، وظهور فلاسفة كبار أمثال ابن رشد وابن طفيل وغيرهم فى سماء المغرب الأقصى خلال هذه الفترة .

المكتبات :

تدل كثرة المكتبات وما تزدحم به من مؤلفات على مدى ازدهار الحركة الفكرية بالبلاد ، وقد حظى المغرب الأقصى خلال فترة البحث وخصوصا فى عهد الموحدين بالكثير من المكتبات العامة والخاصة والتى تشير إلى ازدهار الحياة الفكرية بالمنطقة ، وقد ساعد على وجود هذه المكتبات امتلاء المدن المغربية بالكثير من العلماء والدارسين مع تشجيع ولاة الأمر لحركة التأليف وشراء الكتب ، فابن رشد حين طلب الاعفاء من منصبه حتى يتفرغ لإتمام مؤلفاته أذن له أمير المسلمين على بن يوسف بذلك[١] والخليفة يوسف بن عبد المؤمن كان يجمع الكتب من كل مكان ويضمها إلى المكتبة الملكية أو الخزانة العلمية كما كانت تسمى بذلك [٢].

ولم تكن الرغبة فى جمع الكتب قاصرة على ولاة الأمر ، بل إن من أبناء الشعب من دفع المال الكثير فى سبيل شراء مرجع من المراجع فالقاضى عيسى بن أبى حجاج بن الملجوم ابتاع من أبى على الغسانى نسخة من سنن أبى داود ودفع فيها خمسة آلاف دينار[٣] بالإضافة إلى ذلك فإن أمين مكتبة الخزانة العلية لابد أن يكون من أكابر العلماء ، حيث أن هذه الوظيفة من الوظائف الهامة التى لا يشغلها ألا من كان أهلا لها [٤] يقول ابن المؤقت فى ترجمته لأحمد بن عبد الرحمن بن محمد بن الصقر الأنصارى الخزرجى « ولما صار الأمر إلى أبى يعقوب بن عبد المؤمن ألزمه خدمة الخزانة العالية ،وكانت عندهم من الخطط الجليلة التى لا يعين لها إلا علية أهل العلم وأكابرهم »[٥].

---

(١) محمد عثمان المراكشى : الجامعة اليوسيفية ص ١١٢ ٥

(٢) المراكشى : المعجب ص ٢٣٩ ، حركات : المغرب عبر التاريخ ص ٣٧٤ ، المنونى : العلوم والآداب ص ٢٨٢ .

(٣) كنون : النبوغ المغربى ج ١ ص ١٦٢ .

(٤) عباس المراكشى : الاعلام ج ١ ص ٢٢٩ ، ابن الخطيب : الاحاطة : القسم الاول ص ١٩٠ ت عنان .

(٥) ابن المؤقت : السعادة الأبدية ج ٢ ص ١٢٤ .

وقد تحددت أماكن لبيع الكتب ، فى مراكش كان هناك ما يقرب من مائتى متجر لبيع الكتب المخطوطة بجوار جامع الكتبيين[1]وقد سبق أن أشرت أن الجامع الكبير بالعاصمة مراكش سمى بجامع الكتبيين نسبة إلى بائعى الكتب حوله . أما فى مدينة تلمسان فكانت هناك سوق لبيع الكتب حيث أشار التنسى أن مصحف الخليفة عثمان بن عفان بيع فى سوق الكتب بتلمسان ، وقد اشتراه أمير المسلمين يغمراسن وحفظه [2]

وبجانب الكتب التى كان الناس يجمعونها فى المساجد والزوايا والمدارس وغيرها للاطلاع عليها والدراسة فيها ، كانت هناك المكتبات العامة والخاصة ، وفى مقدمة المكتبات الخزانة العلية التى أنشأها خلفاء الموحدين وجعلوا لها أمينا وزودوها بمختلف الكتب والمراجع . وهناك المكتبة الشارية بسبتة وهى منسوبة لمؤسسها أبى الحسن على بن محمد الغافقى المعروف بالشارى وكان شغوفا بجمع الكتب فكون مكتبة عظيمة وقد جعلها وقفا على علماء المغرب[3]

ومن المكتبات الخاصة مكتبة ابن الصقرت سنة ٥٦٩ هـ / ١١٧٣ م والتى نهبت عند دخول الموحدين مراكش[4]ومكتبة عبد الرحمن بن الملجوم من أعيان فاس يقول عنه صاحب كتاب الذخيرة السنية « نظر فى فى كثير من العلوم واعتنى بها وجمع من الكتب ما لم يجمعه أحد من أهل المغرب وخزانة كتبه كانت المشهورة فى المغرب بيعت حزمها بعد وفاته بستة آلاف دينار ، وتوفى سنة ٦٠٥ هـ »[5]ومكتبة عبد الرحمن بن موسى الازدى الفاسى المتوفى سنة ٦٠٥ هـ / ١٢٠٨ م وقد باعتها ابنته بأربعة آلاف دينار[6] .

وهكذا ساهمت المكتبات وما احتوته من كتب فى دفع تيار الثقافة فى البلاد وتزويد الحياة الفكرية بما تحتاجه من مدد فى مختلف فروع المعرفة .

---

(١) المنونى : العلوم والفنون ص ٢٧٥ .
(٢) التنسى : الدر والعقيان ورقة ٤٥ .
(٣) المنونى : العلوم والفنون ص ٢٨١ .
(٤) ابن المؤقت : السعادة الأبدية جـ ٢ ص ١٢٥ .
(٥) مجهول : الذخيرة السنية ص ٤٧ ت محمد بن أبى شنب .
(٦) ملين : عصر المنصور الموحدى ص ١٧٠ .

الخاتمـــة

يتضح من دراسة الحياة الإدارية والاقتصادية والاجتماعية بالمغرب الأقصى خلال القرنين الخامس والسادس من الهجرة مدى التقدم والازدهار الذى وصل إليه المجتمع المغربى فى هذه الفترة .

والواقع أن المغرب الأقصى صار خلال هذه الفترة متميز الشخصية ، يفرض سلطانه السياسى والعسكرى على مساحات كبيرة من الشمال الإفريقى بلغت إفريقية فى عهد الموحدين ، بالإضافة إلى الأندلس . وإن هذا التفوق العسكرى كان يستند إلى عدة دعائم قوية مكنته من الاستمرار لفترة طويلة من الزمن ، وأما الدعائم فهى حياة إدارية منظمة ، وحياة اقتصادية مزدهرة ، فضلا عن شعب آخذ بالكثير من أسباب التقدم والحضارة .

وقد سبق قيام دولة المرابطين فى منتصف القرن الخامس الهجرى ، فترة من الضعف ، نتيجة انقسام المنطقة إلى عدة إمارات متناحرة فيما بينها ، وانعكس الصراع على نواحى الحياة المختلفة بالبلاد . حتى إذا أقبل المرابطون ووحدوا المنطقة فى ظل حكومة مركزية ، انطلقوا إلى إقليم الأندلس حماية له من الأخطار التى تهدده ومن ثم صار الأندلس إقليما تابعا للمغرب الأقصى .

غير أن حكم المرابطين لم يستمر طويلا ، نتيجة لدعوة ابن تومرت وثورته ، تلك الثورة التى انتهت بالقضاء على المرابطين وقيام دولة الموحدين بقيادة عبد المؤمن بن على .

وبلغ المغرب الأقصى درجة كبيرة من التقدم والازدهار خلال العصرين المرابطى والموحدى ، وشهدت المنطقة حياة إدارية مستقرة ، صاحبها حياة اقتصادية مزدهرة ، مع كثرة فى البناء والتعمير ، فضلا عن حياة فكرية زاخرة بالعلوم والثقافات المختلفة .

ومن خلال دراستنا للحياة الإدارية تبين لنا اعتراف المرابطين بالخلافة العباسية باعتبارها الخلافة الشرعية ، والتى استمدوا منها التأييد الروحى ، وعلى العكس من ذلك كان موقف الموحدين الذين اعتبروا أنفسهم خلفاء ، وهم أول من أنشئوا خلافة إسلامية بالمغرب الأقصى .

وقد انحصرت رئاسة الدولة فى أسرة يوسف بن تاشفين فى الدولة المرابطية وأسرة عبد المؤمن بن على فى الدولة الموحدية .

وكانت مبايعة ولى الأمر تتم عن طريق البيعة الخاصة من أفراد الأسرة الحاكمة والقبائل المؤسسة للدولة ، وقد تعددت وتنوعت اختصاصات ولى الأمر ، أما الألقاب فقد اتخذ ولاة الأمر فى الدولة المرابطية لقب أمير المسلمين ، أما فى الدولة الموحدية فقد اتخذوا لقب خلفاء . كذلك كان نائب ولى الأمر يختار من الأسرة الحاكمة .

اتبع ولاة الأمر نظام ولاية العهد إذ كان الحكم وراثيا . وكان ولى العهد يختار من أكفأ الأبناء مع موافقة الأسرة ورؤساء القبائل على اختياره ويعقب ذلك إعلان رسمى فى أنحاء الدولة .

كان ولى العهد يمر بمرحلة من التدريب والتثقيف حتى يكون أهلا لتحمل أعباء الحكم ، فإذا ما أساء التصرف كان مصيره العزل .

استعان ولاة الأمر فى إدارة الدولة بمجموعة من الوزراء سواء من المغرب أو الأندلس . وقد أنشىء منصب أعلى من ذلك فى الدولة الموحدية اعتبر بمثابة الرجل الثانى فى الدولة .

تعددت وتنوعت إختصاصات الوزراء إلا أن أغلبهم كانوا وزراء منفذين لأوامر ولاة الأمر ولم ينفرد أحدهم بالسلطة إلا فى ظروف خاصة . وقد عوقب بعضهم نتيجة لارتكابه بعض الأخطاء التى تمس سلامة الدولة .

استعان ولاة الأمر بالكتّاب فى تيسير مهمة التخاطب والتراسل مع موظفى الدولة ، وكان كثير من الكتّاب ينتمى إلى الأندلس ، وبعضهم ينتمى إلى المغرب ، وقد تنوعت ثقافتهم واختصاصاتهم .

ظهر نوع من الكتّاب فى الدولة الموحدية وهم كتاب الجيش المختصون بالشئون العسكرية ، وكانت العلامة الرسمية للدولة المرابطية العظمة لله وحده ، أما فى الدولة الموحدية فكانت الحمد لله وحده

لم يتخذ المرابطون حجابا وعلى العكس من ذلك ، اتخذ الموحدون حجابا

من أفراد الأسرة ومن الموظفين ، أما بالنسبة للنظام الإدارى ، فقد انقسم المغرب الأقصى إلى عدة أقاليم إدارية ، تولى إداراتها أفراد من أسرة ولى الأمر أو من أبناء القبائل ، كما حدث فى عهد الموحدين .

وقد تنوّعت خبرة وثقافة ولاة الأمر ، وكان الموحدون يحرصون على اختيار هيئة إستشارية وإدارية لمعاونة الوالى فى إدارة اقليمه ، ويسبق ذلك مكاتبات رسمية تعلن اسم الوالى وواجب الرعية فى السمع والطاعة ، كان الولاة يمارسون أعمالهم فى ظل سياسة مرسومة من ولاة الأمر . وقد حرص ولاة الأمر على إجراء تنقلات بين الولاة وعزلهم ومعاقبتهم إذ أساء أحدهم التصرف .

تنوعت الدواوين فى الدولة ، وقد استحدث الموحدون ديوان الجيش . كذلك لعب البريد دوره فى دعم اتصال ولاة الأمر بأنحاء البلاد ، كما حدّد الموحدون اختصاصات صاحب البريد . وأخيرا قام الشرطة بدورهم فى حماية وصيانة أرواح الناس وممتلكاتهم .

أما بالنسبة للنظام القضائى ، فقد قام القضاة بدورهم فى إقرار العدل بين الناس ، وكان القضاة ينتسبون إلى الأندلس والمغرب .

كان هناك نوعان من القضاة : قاضى الجماعة ومقره العاصمة ، وهو أرفع شأنا ، وكان يعين من قبل ولى الأمر مباشرة ، وقضاة المدن ويعينون من قبل قاضى الجماعة أو من ولاة الأقاليم . فإذا ما اختار ولى الأمر القاضى صدر مرسوم بتعيينه ، وقد اتخذ القضاة المسجد مكانا للتقاضى وعاونهم فى مهمتهم مجموعة من الموظفين .

تعددت اختصاصات القضاة ، وقد عمد ولاة الأمر إلى نقل القضاة من مكان إلى آخر وأحيانا عزلهم ، وكان قاضى الجماعة يتنقل فى عدة أماكن قبل أن يشغل منصب قاضى الجماعة بالعاصمة .

وبجانب القضاة ، كان هناك نظام المظالم الذى ظهر واضحا فى عهد الموحدين ، إذ قام الخليفة المنصور الموحدى بالفصل بين المتنازعين .

كذلك كانت هناك وظيفة الحسبة والتى لم تتضح صورتها فى عهد المرابطين

وعلى العكس من ذلك فى الدولة الموحدية ، إذ حرص خلفاء الموحدين على محاسبة أمناء الأسواق ، وقد تنوعت وتحددت اختصاصات المحتسب .

شهدت البلاد فترة من الازدهار الاقتصادى والرخاء المادى ، وقد ساهم النظام المالى الذى وضعه ولاة الأمر ، بجانب التقدم الزراعى والصناعى ، فضلا عن الرواج التجارى ، فى دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد .

وكان للنظام المالى وما تضمنه من سياسة مالية ، بجانب مصادر الدخل المتنوعة وأوجه الانفاق المتعددة أثر كبير فى استقرار الحياة الاقتصادية .

تعددت الدواوين المالية واستحدث بعضها فى عهد الموحدين كديوان التمييز ، مع تعدد الوظائف المالية ، وتحديد أماكن جباية الأموال ، وتحديد أوقاتها وبجانب ذلك حرص ولاة الأمر على مراقبة المشتغلين بالشئون المالية ومحاسبتهم .

تنوعت المصادر المالية للدولة من زكاة وضرائب وجزية وغنيمة ، وقد زاد الموحدون على هذه المصادر الخراج الذى فرضه عبد المؤمن بن على ، على أقاليم الدولة .

ومن ناحية أخرى تنوّعت النفقات ومنها نفقات الجيش والمرتبات ونفقات البناء والتعليم وغير ذلك من أنواع الإنفاق . وحتى تنظيم المعاملات المالية ، أصدر ولاة الأمر عملات نقدية متنوعة .

لعبت الزراعة دورا هاما فى اقتصاد البلاد ، وساعدت عدة عوامل على تقدم الزراعة وازدهارها ، وقد تنوعت المحاصيل وكان منها القمح والقطن وقصب السكر والزيتون وغير ذلك من المزروعات .

أمدت الحدائق والبساتين المنتشرة فى جهات متفرقة المواطنين بكميات كبيرة من الفواكة ومنها العنب والتين والرمان والبلح وغير ذلك . كذلك كانت الغابات والمراعى المنتشرة بحيواناتها المتنوعة والتى زادت من الثروة الحيوانية بالبلاد .

كذلك أسهمت طبيعة المنطقة وكثرة الأنهار بها فى تزويد البلاد بكميات كبيرة من الأسماك وعلى الرغم من الرخاء الذى تمتعت به المنطقة حدثت

بعض الأزمات الاقتصادية نتيجة لعوامل متعددة .

ساهمت الصناعة بجانب الزراعة فى رخاء المنطقة ، وكان لتوفر المواد الخام مع وجود الأيدى العاملة أثرها فى دفع عجلة الصناعة .

تعددت المراكز الصناعية فى البلاد كفاس ومراكش وسبتة وغيرها ، وتنوعت المصنوعات بالبلاد كصناعة الورق والمنسوجات وسبك النحاس والصابون وصناعة السفن وغير ذلك .

ازدهرت الحركة التجارية بالبلاد ، سواء أكانت تجارة داخلية أو خارجية ، وقد ساعدت الطرق التجارية على ربط أجزاء البلاد .

تعددت المراكز التجارية كمدينة فاس ومراكش وغيرها ، وكان للسوق نظام وميعاد يقام فيه وطريقة للتعامل بين قصاده .

أما التجارة الخارجية ، فقد نشطت نتيجة لاستقرار الأوضاع السياسية والاقتصادية بالبلاد وقد تنوعت الصادرات والواردات .

قامت علاقات تجارية نشيطة بين المنطقة وعدة بلاد ويأتى فى مقدمتها إقليم الصحراء فى الجنوب والأندلس فى الشمال ثم أوربا وأخيرا المشرق .

شهد مجتمع المغرب الأقصى حياة زاخرة بالنشاط والحركة فى مجالات الحياة المتعددة ، وقام بهذا النشاط سكان البلاد . وهم يتكونون من البربر السواد الأعظم من السكان .

تمتعت بعض قبائل البربر بوضع اجتماعى متميز نتيجة مشاركتها فى تأسيس الدولة ، ففى الدولة المرابطية احتلت قبائل لمتونة ومسوفة وجدالة ولمطة مكانة ممتازة باعتبار أن مؤسس الدولة منهم ، فضلا عن قيامها بالعبء الأكبر فى تأسيس الدولة ومشاركتها فى أعمال الجهاد .

حتى إذا قامت دولة الموحدين ، أصبح المصامدة ومن انضم إلى الدعوة الموحدية فى مرتبة إجتماعية متميزة .

شارك العرب الهلالية وخاصة فى عهد الموحدين فى أحداث البلاد ، وقد ظهرت آثارهم فى النواحى الإدارية حين ساعدوا الخليفة عبد المؤمن بن على فى اختيار ابنه وليا للعهد ، وشاركوا فى عمليات الجهاد بالأندلس ، كما أنهم

أقاموا بأماكن متفرقة بالبلاد ، وظهرت لهم آثار جنسية ولغوية بين سكان المنطقة .

وبجانب البربر والعرب عاشت أقليات أخرى كالسودانيين الروم والغز ..

شاركت طبقات المجتمع وطوائفه فى صنع الحياة بالمغرب الأقصى ، وكانت الطبقة الحاكمة تتمتع بوضع اجتماعى متميز ، وقد استحدث الموحدون طائفة الطلبة هؤلاء الذين تعددت اختصاصاتهم فمنهم من اشتغل بالوظائف الإدارية بالدولة ومنهم الدعاة الذين قاموا بنشر الدعوة .

كذلك كان للفقهاء والعلماء وضع متميز وخاصة فى عهد المرابطين حيث صارت مقاليد البلاد بأيديهم ، ونتيجة لذلك جمع بعضهم أموالا طائلة مما أثار حفيظة بعض الشعراء ونقمتهم .

كذلك ساهم أصحاب المهن من تجار وصناع وأصحاب حرف متنوعة فى دفع عجلة الاقتصاد بالبلاد .

تمتعت المرأة بمكانة طيبة فى المجتمع المغربى ، وأصبح لها نفوذ فى الدولة المرابطية ، وقد حرص ولاة الأمر على رعايتها ، كما أن بعضهن تزود من مختلف الثقافات .

عاش أهل الذمة جنبا إلى جنب مع بقية طوائف الشعب ، وقد ادعى بعض المؤرخين أنهم اضطهدوا فى عهد المرابطين نتيجة نقلهم من مواطنهم بالأندلس إلى المغرب وفرض بعض الأموال عليهم ، وكان هذا إجراء عادلا تطلبته مصلحة الدولة وأمنها ، كما أن فرض المال لم يكن مقصورا عليهم بل شمل طوائف الشعب الأخرى .

كذلك إدعى بعض المؤرخين أنه لم يوجد أهل ذمة بالبلاد فى عهد الموحدين وأنهم أسلموا وقد أثبت عكس ذلك .

اهتم ولاة الأمر بالبناء والتعمير ، وشهدت المنطقة حركة فى البناء لم تشهدها من قبل ، وكان طابع البناء يمتزج فيه الفن المشرقى بالفن الأندلسى ، وكان فى مقدمة المنشآت ، إنشاء عدة مدن كمراكش ورباط الفتح وغير ذلك من المدن ، وبجانب ذلك أنشئت عدة قلاع فى أماكن متفرقة .

كذلك اهتم ولاة الأمر بإنشاء العديد من القصور ، وقد لعبت المبادىء الدينية دورها فى الإكثار من بناء المساجد ، وصاحب ذلك بناء المدارس والفنادق والقناطر وأخيراً مستشفى المنصور الموحدى .

كان للأسر نظامها وعاداتها المتعلقة بالزواج والاحتفال به ، وقد استن الخليفة المنصور الموحدى عادة تختين الفقراء والأيتام من أبناء العاصمة على نفقته الخاصة .

أثرت الأمراض والأوبئة فى موت كثير من أبناء الشعب ، وقد اتبع السكان نظام العزل الصحى ، كما أن مستشفى المنصور الموحدى ساهمت فى علاج المرضى ، ومساعدة الفقراء منهم بعد الشفاء ، وبجانب ذلك لعب الأطباء دورهم فى معالجة أبناء الشعب وولاة الأمر .

تنوعت المجالس وتعددت ، فكانت هناك مجالس الخلفاء ، وما يدور فيها من مباحث علمية ومشكلات .

وكانت هناك مجالس الوعظ حيث قام الصالحون والعلماء بالدعوة إلى الله والرجوع إليه ، وأخيرا كانت هناك المجالس العامة التى يحضرها الولاة وكبار القوم .

تعددت الاحتفالات وتنوعت ، وكانت هناك الاحتفالات الدينية وما يصحبها من شعور دينى فياض خصوصا فى شهر رمضان ، وقد احتلت الاحتفالات العسكرية وما يتخللها من مواكب مكانها فى نفوس المواطنين ،حيث شهدت المدن المغربية العديد من الاحتفالات فى نظام معين وما يصحب ذلك من دق للطبول ونشر للألوية مما يكسبها بهجة وجمالا . وأخيرا شهد المجتمع احتفالات متنوعة كالاحتفال بتولى أحد ولاة الأمر أو مجىء وفد هام إلى العاصمة وغير ذلك .

وجد أبناء المجتمع فى المتنزهات والحدائق مكانا للترويح والتسلية ، وقد وقف ولاة الأمر استنادا للمبادىء الدينية موقفا متشددا من الغناء واللهو وحاربوهما بشتى الطرق .

حفلت المائدة المغربية بالعديد من الأطعمة مما يدل على الثراء والرفاهية التى تمتع بها السكان ، وقد تنوعت الأطعمة ، فمنها ما كان يصنع للأثرياء ،

ومنها ما ينتسب فى صناعته إلى بعض البلدان كالأندلس وإفريقية ومصر ، ومنها أطعمة خاصة بفصل الصيف وأخرى خاصة بفصل الشتاء ، كذلك تنوعت الأشربة ومنها شراب الربّ وآنزيز .

اكتسى المغاربة الملابس الصوفية ، وقد اتخذ المرابطون اللثام غطاء لوجوههم ، وصار عادة يتميزون بها ويرجح أن ذلك راجع إلى طبيعة البيئة الصحراوية التى عاشوا فيها .

تنوعت ملابس الموحدين ، كذلك تميزت ملابس جنودهم بالتنوع والتعدد . وقد فرض الناصر الموحدى زيا خاصا لأهل الذمة إلا أنهم استغاثوا به فى إلغاء هذا الزى وقد استجاب لهم .

نشطت الحركة الفكرية بالبلاد ، وقد تضافرت عدة عوامل على تنشيطها ، كذلك تعددت المراكز الفكرية وقد لعبت الحياة الدينية دورها فى تنشيط الحركة الفكرية وشهد السكان دعوتين دينيتين :

دعوة المرابطين ومؤسسها عبد الله بن ياسين ، ودعوة الموحدين ومؤسسها ابن تومرت .

شهد السكان فى عهد المرابطين حدثا دينيا ، هو إحراق كتب الإمام الغزالى بأمر أمير المسلمين على بن يوسف وكان مرد ذلك حقد جماعة من العلماء على الغزالى لمهاجمته فى كتبه طبقة علماء السوء .

استند ابن تومرت فى تأسيس دعوته على عدة أفكار ومبادىء تأثر بها فى دراسته بالمشرق .

وقد تطورت الدعوة الموحدية فى ثلاث مراحل : مرحلة التأييد ، ثم مرحلة التشكك وعدم الاقتناع فى عهد المنصور الموحدى . وأخيرا مرحلة هدمها والقضاء عليها فى عهد المأمون الموحدى .

نتج عن قيام ابن تومرت بنشر دعوته ، أن ثارت حرب كلامية ودعائية بين أنصار الدعوتين : المرابطية والموحدية .

احتل المذهب المالكى منزلة طيبة فى عهد المرابطين ، إذ كان ولاة الأمر مالكية فضلا عن تمسك الشعب بالمذهب المالكى . وقد حاول الموحدون الحدّ

من ذيوع المذهب المالكى وانتشاره غير أن محاولتهم باءت بالفشل .

وقيام الدولتين على أساس دعوتين دينيتين أثرت فى ولاة الأمر ، و موقفهم المتشدد فى تنفيذ أركان الدين وأحكامه .

وقد قام المرابطون بعبء القضاء على الضلالات المنتشرة فى المغرب الأقصى فضلا عن محاولات نشر الإسلام فى جنوب الصحراء .

احتل المتصوفون مكانة مرموقة فى المجتمع المغربى ، حيث التف حولهم السكان بمظاهر الإعزاز والتقدير مما أحنق بعض العلماء وحاولوا الدس عند ولاة الأمر ، غير أن محاولتهم لم تنجح فى التقليل من شأن المتصوفين ، وقد صاحب ذلك إيمان العامة بالخوارق والمعجزات ، وكان ذلك سلاحا استغله ابن تومرت وعبد المؤمن بن على أحسن استغلال .

نشطت بعض العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه ، أما علم الكلام فلم يزدهر إلا فى عهد الموحدين .

ازدهرت الحياة الأدبية ، وساعد انتشار اللغة العربية بين أفراد الشعب على القراءة والإطلاع . وقد حاول ابن تومرت وعبد المؤمن بن على استخدام لغة البربر وكان ذلك لأهداف سياسية .

حظى الشعر بمنزلة طيبة وخصوصا فى عهد الموحدين ، إذ شجع ولاة الأمر الشعراء على التوجه إليهم والحصول على المنح والأموال ، كذلك لقى النثر تشجيعا من ولاة الأمر .

تنوعت ثقافة ولاة الأمر وأبناء الشعب تبعا للمعهد العلمى الذى يدرسون فيه ، وكانت الدراسات الدينية المتنوعة هى المنهج الأساسى الذى درسه أبناء الأمة .

وقد تنوعت المواد الدراسية من لغة ونحو وتاريخ وسير وجغرافية وفلك ، أما الفلسفة فلم تحظ باهتمام ولاة الأمر من المرابطين وعلى العكس من ذلك ، اهتم ولاة الأمر من الموحدين بالفلسفة والفلاسفة ، وخصوصا الخليفة يوسف بن عبد المؤمن .

وقد ساهمت المكتبات وما اشتملت عليه من كتب ، مع تشجيع ولاة الأمر على اقتناء الكتب فى ازدهار الحركة الفكرية بالبلاد .

قسم الملاحق

١ — جدولان بأسماء أمراء المرابطين وخلفاء الموحدين .

٢ — رسالة بشأن بيعة المنصور الموحدى بالخلافة .

٣ — صيغة ولاية العهد لعلى بن يوسف بن تاشفين .

٤ — رسالة بشأن تولية محمد بن عبد المؤمن ولاية العهد .

٥ — رسالة بشأن تولية الخليفة عبد المؤمن أبناءه أقاليم المغرب .

٦ — كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين إلى واليه ابن فاطمة يبين فيها أسس حكمه .

٧ — رسالة الفصول وفيها بعض أسس حكم الخليفة عبد المؤمن بن على .

٨ — المرشدة لابن تومرت وهى خلاصة عقيدة التوحيد عند الموحدين .

٩ — التعريف ببعض المراجع .

١٠ — قائمة بأسماء المراجع .

* * *

أسماء أمراء المسلمين من المرابطين

١ — أبو بكر بن عمر اللمتونى	٤٤٨ هـ — ١٠٥٦ م
٢ — يوسف بن تاشفين	٤٦٥ هـ — ١٠٧٣ م
٣ — على بن يوسف	٥٠٠ هـ — ١١٠٦ م
٤ — تاشفين بن على	٥٣٧ هـ — ١١٤٢ م
٥ — إبراهيم بن تاشفين بن على	٥٤٠ هـ — ١١٤٥ م
٦ — إسحق بن على بن يوسف	٥٤٠ هـ — ١١٤٥ م

أسماء خلفاء الموحدين

١ — عبد المؤمن بن على	٥٢٤ هـ — ١١٣٠ م
٢ — أبو يعقوب يوسف بن عبدالمؤمن	٥٥٨ هـ — ١١٦٣ م
٣ — أبو يوسف يعقوب المنصور	٥٨٠ هـ — ١١٨٤ م
٤ — محمد الناصر	٥٩٥ هـ — ١١٩٩ م
٥ — أبو يعقوب يوسف المستنصر	٦١١ هـ — ١٢١٤ م
٦ — عبد الواحد المخلوع	٦٢٠ هـ — ١٢٢٣ م
٧ — أبو محمد عبد الله العادل	٦٢١ هـ — ١٢٢٤ م
٨ — يحي المعتصم	٦٢٤ هـ — ١٢٢٧ م
٩ — أبو العلاء إدريس المنصور	٦٢٦ هـ — ١٢٢٩ م
١٠ — عبد الواحد الرشيد	٦٣٠ هـ — ١٢٣٢ م
١١ — أبو الحسن على السعيد	٦٤٠ هـ — ١٢٤٢ م
١٢ — أبو جعفر المرتضى	٦٤٦ هـ — ١٢٤٨ م
١٣ — أبو العلا الواثق	٦٦٥ هـ — ٦٦٧ — ١٢٦٦ م — ١٢٦٩م

الرسالة السابعة والعشرون

(بشأن بيعة المنصور الموحدى بالخلافة ودعوة الآخرين إلى البيعة)

وهى أيضا من إنشاء الكاتب أبى الفضل بن طاهر بن محشرة المذكور :

« من الأمير يعقوب بن سيدنا أمير المؤمنين بن سيدنا أمير المؤمنين — أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعرفته — إلى الطلبة والموحدين والأشياخ والأعيان والكافة بإغرناطة — آدام الله كرامتهم بتقواه ، وعرفهم عوارف نعماه ورحماه — سلام عليكم ورحمة الله وبركاته :

أما بعد فإنا نحمد الله الذى لا إله إلا هو ، ونشكره على آلائه ، ونصلى على محمد نبيه المصطفى ورسوله ، والحمد لله الذى حفظ بهذا الأمر العظيم رباط الإسلام ونظامه ، وأحيى باحيائه رفاته ورمامه ، ونصب للمستضيئين بأضوائه ، والمستبصرين فى إتباع سننه اللاحب واقتنائه ، أضواءه الهادية وأعلامه ، واستحفظ أمره العزيز فى الذابين عن حرماته ، والناهضين بأعبائه وأماناته ، منتيا إليهم مقاليده وزمامه ، ومظهرا بهم مناهجه القويمة وأحكامه ، وجعل إمامتهم الحميدة واياتهم المباركة السعيدة ، ملاذ الدين وقوامه ، وظهور الحق وانتظامه ، وجب بتعاضدهم وتوازرهم ، وترافدهم على تمشية أمر الله تعالى وتظاهرهم غارب الهرج وسنامه ، وعمر ببركة مساعيهم ، وسعادة مآخذهم المرفقة ومناحيهم ربوع الإيمان وخيامه ، وضم نثره ونظم التثامه ، والصلاة على محمد نبيه المصطفى ورسوله الأكرم المجتبى ، الذى أطفأ الله به احتدام الكفر واضطرامه وأزاح بأنواره الباهرة غيهب الشرك وظلامه ، وأعلى بحنيفية الحق منار الحق وعمامه ، وجعل بدأرته المنجية ، وبشارته المزلفة إلى الرضوان المدنية ، انقضاء إرساله تعالى واختتامه وكمال وحيه سبحانه إلى عباده وتمامه ، ضاعف الله له ولعترته الطيبين ، وصحابته الأكرمين ، صلواته الجمة وسلامه والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، علم الهدى وإمامه الذى اختاره الله تعالى للهداية واعتامه ، وارتضاه لتجديد شريعة جده — عليه السلام — بعد الدثور وأقامه ، وشفى بعلومه الجلية ، وبراهينه الراضحة القطعية ، أدواء الجهل وأسقامه ، وجلا

بأضوائه الساطعة ، وتعلياته الرافعة الشكوك القاطعة ، دياجيره الحالكة وإظلامه ، وعن صاحبه وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين القائم من الانتهاض بأمر الله مقامه ، والمعمل فى إعلاء كلمته وتمكين أمره الحق ودعوته شأنه وحسامه ، المجرد فى الوفاء بعهوده وانتجاز بشارته الصادقة ووعوده عزمه الكفيل بها واعتزامه ، والدعاء لسيدنا ومولانا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين بنصر يسكب السعد غمامه ، ويجزل الجد أقسامه ، ويقتضى الفوز المسعد ، والفضل المعاون المنجد ، استمراره إلى قيام الساعة ودوامه . وهذا كتابنا إليكم — أسمعكم الله من بشائر هذا الأمر العزيز ما يملأ قلوبكم ارتياحا ويعمر صدوركم انشراحا ، وأوسع ارجاءكم وأكنافكم انبساطا فى ظل الأمنة وانفساحا من حضرة أشبيلة — حرسها الله — ونحن نستوهب الله عونا على ما قلدنا من أمانته ، وانهاضا بما حملنا من نصر دينه وحمايته ، وانجادا على ما ننويه ونحاوله وندأب فيه من حفظ أمره ورعايته،والذى نوصيكم به تقوى الله العظيم،والعمل بطاعته، والتوكل عليه وان توقنوا بأن هذا الأمر السعيد محفوظ المقام ، منصور الأعلام،مسدد النقض والابرام،مقرون بمقاصده اليمن والنجح على تعاقب الأدوار وتناوب الأيام . وأنه المصيب المنصور المصوح له الذى لا يضره من عانده ولا من خذله مع تقادم الأعصار وتطاول الأعوام ، بشرى صادعة الدلائل ويسرى صادقة المخايل ، وأمر محروس لا يقدح فيه كيد كائد ولا خذل خاذل ، ولا يحل عقوده المبرمة ، وروابطه المستحكمة على تقوى الله المنتظمة ، وحدوث حادث ونزول نازل ، حتى ينجز الله له وعده الكريم فى الاستيلاء على الأقرب والأبعد ، والانتهاء من ذروة الكمال والتمام فى مسماها الأعلى الأصعد ، وإيداع أمانته العظيمة ، وعهوده الكريمة ، فى الأقعد فى الاختصاص فالأقعد ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين والحمد لله رب العالمين .

وأنه — وفقكم الله وسددكم ، وأعانكم على اتباع أوامره وانجدكم — لم تزل رغبات الموحدين — أعزهم الله — واخوانهم العرب — وفقهم الله — تترادف على سيدنا أمير المؤمنين — أيدهم الله بنصره وأمدهم بمعونته — فى إرقائنا لهذا الرقى وتقليدناهذه الأمانة العظمى ، والافضاء إلينا بأمره الأعز

الأسمى ، فيقابلهم أعلى الله أمره ، وأعز نصره — من وعده الكريم بكمال مطلبهم وتمامه ، واتساقه على مقتضى آمالهم وانتظامه ، ويعرفهم بأن هذا له وقت يرتقب لعقده فيه وإبرامه ، ولما اذن الله تعالى فى دنو الميقات المنتظر واقترابه ، وأراد سبحانه انجاز وعده الكريم لسائليه وطلابه ، أمره العظيم فى معدنه الحافظ له ونصابه ، ورجع الموحدون — أعزهم الله — من غزوتهم المبرورة التى أعز الله بها المسلمين وأدالهم ، وقمع المشركين وأذالهم ، وكرم باحراز أجرها ، واستخزان ذخرها حالهم ومآلهم ، وبلغهم من نكاية أعدائهم وتدويخ أكنافهم وأرجائهم ، ما تجاوز أمانيهم وآمالهم تعين الوقت الموعود ، وحضر الزمن الموسوم له المحدود ، وكان بحكم الاحتفال للغزوة المباركة ، وحرص الكافة على اغتنام أجور المساهمة فيها والمشاركة أجمع من الموحدين — أعانهم الله — ومن انضاف إليهم من الاجناد ، ومن كافة المغرب وأعيان أهل البلاد ، جمع كثير ، وحفل كبير ، يدخل فيما ارتبطوه عليه سائرهم وتنظيم فيما عقدوه جماعتهم الذين وراءهم وعشائرهم ، فعرف كافتهم بما تقدم فيه سؤال الموحدين والعرب — وفقهم الله — ورغباتهم ، وتكررت فى استجازة طلباتهم ، وقرعت باب استفتاحه بداتهم ، وانتهت إلى إيثاره ، واختياره نهايتهم ، ووقفت عنده قصورهم الميمنة وغاياتهم ، فكان منهم من المبادرة إلى ذلك والاسراع ، والأعناق إلى إجابة داعية والاهطاع ، والتلقى لرايته المرفوعة بيمن الانقياد والانطباع ما قضى باستحكام الاصفاق عليه من الكافة والاجماع ، ورغبوا فى اكمال ذلك لفورهم . وألحوا فى طلب المبايعة لحينهم ، واتفقت عليه آراء كافتهم وجميعهم . ولما تحقق فيهم خلوص الضمائر ، واستواء البواطن والظواهر ، واستحكام النيات فيه والبصائر أسعفوا بمطلوبهم ، ومكنوا من مرادهم ومحبوبهم ، وأحضروا لأخذ البيعة عليهم أفواجا ، وسلكوا من الطاعة الصادقة سبلا فجاجا ، واقتفوا فى ذلك من آثار هذا الأمر العظيم جواد قاصدة ومنهاجا . وبادر الأعيان من الموحدين وغيرهم — وفق الله جميعهم — إلى البيعة وسارعوا ، وترادف الناس بعدهم وتتابعوا ، وأعطى الجميع صفقة أيديهم باخلاص من سرائرهم وبايعوا ، والتزموا فروض البيعة وبشروطها وقيودها ، ووقفوا عند رسومها المعلومة وحدودها ، وأمضوا على أنفسهم أحكام حقوق الطاعة الصحيحة

وعهودها ، وارتضوها بنيات ، صادقة وعزائم إلى اغتنام الأجور مسابقة ، وضمائر لكل شوب وريب مباينة مفارقة ، وبايعونا على ما بويع عليه الإمام المعصوم المعلوم ، وخليفته سيدنا الإمام أمير المؤمنين — رضى الله عنهما — وسيدنا الإمام أمير المؤمنين ابن سيدنا الخليفة أمير المؤمنين — أيده الله بنصره ، وأمده بمعونته — من الإيمان والأمانة والعدل والعبادة ، والسمع فى المنشط والمكره والطاعة . وظهر على الكافة من دلائل البشرى ومخايل المسرة بهذه النعمة الكبرى ، وشكر الله تعالى ما يسرهم له من اليسرى ، ما حقق عند كل مؤمن ، وأوضح لدى كل مسلم موفق ، أن هذا الأمر السعيد ممكن له فى الأرض ، مخدوم الإرادة فى البسط والقبض ، منصور اللواء ، مؤيد على مر الأوقات والآناء إلى يوم الدين والعرض ، واتصلت المبايعة المذكورة إتصالا استوعب كافة الموحدين ومن معهم من الأجناد واخوانهم العرب وأعيان أهل البلاد — وفق الله جميعهم .

ورأينا — وبالله التوفيق — أن نعرفوكم بهذا الأمر الأعظم الأخطر ، لتأخذوا منه بالحظ ، وتنالوا ناجز خيرة الأنفس ومذخور أجره الأكبر ، وتدخلوا بالانتظام فى سلكه مداخل طائفته المفلحة وحزبه المظفر ، فتلقوا وافده الأكرم بالقبول سمعا وطاعة ، وانشروا نبأه الأفخم ، فى جهاتكم وجنباتكم إشادة وإشاعة وخذوا عهده المؤكد الإلزام ، على كافة أهل حواضركم وبواديكم وجماعة جماعة واستمسكوا بعروته الوثقى وغرزه ، واعتصموا بكهفه الأوفى وحرزه ، واغتنموا الدعة والهدون فى كنف أمنه الشامل وعزه ، إن شاء الله وهو ولى توفيقكم وإرشادكم وإعانتكم على طاعته وانجادكم بمنه .

أدام الله كرامتكم بتقواه — استدعت هذه الحالة التى عرفتم بها أن يزاد فى الخطبة الزيادة التى اشتمل عليها المدرج فى طى هذا الكتاب فضعوها فى موضعها منه واكتبوا بنسخها إلى جميع جهاتكم إن شاء الله والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

كتب فى السابع من جمادى الأولى عام ثمانين وخمسمائة .

(مجموع رسائل موحدية : ص ١٥٨ — ١٦٣)

صيغة ولاية العهد لعلى بن يوسف بن تاشفين

ولما كان فى سنة خمس وتسعين وأربعمائة ولى عهده الأمير أبى الحسن وكتب عنه ولاية العهد لابنه المذكور ، الوزير الفقيه أبو محمد بن عبد الغفور وكان رحمه الله علم بلاغة به يهدى وإمام شرف قدمه العلم والندى .. ونص العهد :

الحمد لله الذى رحم عباده بالاستخلاف وجعل الأمانة سبب الائتلاف وصلى الله على سيدنا محمد نبيه الكريم الذى آلف القلوب المتنافرة وأذل لتواضعه الملوك الجبابرة (أما بعد) فإن أمير المسلمين وناصر الدين أبايعقوب يوسف بن تاشفين لما استرعاه الله على كثير من عباده المؤمنين خاف أن يسأله الله غدا عما استرعاه كيف تركه هملا لم يستنيب فيه سواه وقد أمر الله بالوصية فيا دون هذه العظيمة من آكد الأشياء الكريمة ، كيف فى هذه الأمور العائدة بمصلحة الخاصة والجمهور ، وأن أمير المسلمين بما لزمه من هذه الوظيفة وخصه الله بها فى النظر فى هذه الأمور الدينية الشريفة قد أعز الله رماحه وأحد سلاحه فوجد أبنه الامير الأجل أبا الحسن أكثرها ارتياحا إلى المعالى واهتزازا وأكرمها سجية وأنفسها اعتزازا فاستنابه فيا استرعى ودعاه لما كان إليه دعى بعد استشارة أهل الرأى على القرب والنأى فرضوه لما رضيه واصطفوه لما اصطفاه ورأوه أهلا أن يسترعى فى ما استرعاه فأحضره مشترطا عليه الشروط الجامعة بينها وبين المشروط فقبل ورضى وأجاب حين دعى بعد استخارة الله الذى بيده الخيرة والاستعانة بحول الله الذى من آمن به شكره وبعد ذلك مواعظ ووصية بلغت من النصيحة مرامى قصية يقول فى خاتمة شروطها وتوثيق ربوطها كتب شهادته على النائب والمستنيب من رضى إمامتهما على البعيد والقريب وعلم علما يقينا بما رضاه فى هذا الترتيب وذلك فى عام خمسة وتسعين وأربعمائة وكان من الشروط فى تقديمه للعهد التى اشترطها عليه أبوه تركب سبعة عشر ألف فارس بالأندلس موزعة على أنظار معلومة يكون منها بأشبيلية سبعة آلاف فارس وبقرطبة ألف فارس وبغرناطة ألف فارس وفى المشرق أربعة آلاف فارس وباقى العدد على ثغور المسلمين والمرابطين فى الحصون المصاينة للعدو .

(ابن الخطيب : الحلل الموشية ص ٥٦ ، ٥٧ ، ٥٨)

الرسالة الثالثة عشرة

(بشأن تولية محمد بن عبد المؤمن وليا للعهد)

« من أمير المؤمنين — أيده الله بنصره وأمده بمعونته — إلى الطلبة الذين بسبتة وطنجة — حرسها الله . وجميع من بهما من الموحدين والأشياخ والأعيان والخاصة والعامة ... وهذا كتابنا إليكم — كتبكم الله من اتخذ عند الرحمن عهدا ... من رباط الفتح — عمره الله ... ولما كنتم — أكرمكم الله — ممن اعتصم فى هذا الأمر العظيم بحبله وعروته ... رأينا أن نعلمكم بما عقده إخوانكم الموحدون على تقوى من الله ورضوان ، والتزموه بأتم ارتضاء واستحسان ... وذلكم أن كثيرا من أولياء هذه الدعوة العلية واخوانها . من أشياخ الأنظار وأعيانها تقدمت رغبتهم فى أمر أخرته الخبرة لميقاتها ... وكانت هذه العشائر العربية الهلالية والقبائل الشرقية والصنهاجية ومن معها من حاضرة وبادية من أهل إقليمها وذوى ألبابها وحلومها ، يشيرون إلى ذلك اقتراحهم ، ويعلمون بأنه غاية اقتراحهم ومادة نفوسهم وأرواحهم ، ولم تزل مخاطباتهم فى ذلك تتردد حينا بعد حين ، ورغباتهم تتأكد بما كان عندهم فيه من ثلج ويقين فلما اتفق بحمد الله وصولهم فى هذه الوفادة للأخذ بأطناب السعادة المنفية بهم على مقتضى الآمال والإرادة ، صرحوا لأول لقائهم بما أضمروه ، وأبدوا سرهم المكنون وأظهروه ، وأعلموا أن محمدا — وفقه الله — هو الذى ارتضوه لحمل عبئهم وتخيروه ، ورغبوا فى تقديمه على بلادهم وإنفاذه معهم على قصد هى توليته ومرادهم . وكان استدعاؤنا لهم فى هذه الوجهة المذكورة والحركة المبرورة لأمور قصدت فيها مذاكرتهم . ونويت بها مباشرتهم ، لم تكن مما ذكروه فى رد ولا صد ، ولا كان ما سيره القدر جاريا معها فى نظر .. ولما احتللنا جميعا هذا الرباط الميمون ، واستنلنا بفضل الله خيره المعهود .. وكان الوفد المذكور بمدرجة الاياب ومرقب الالتفات والارتقاب ، تأكد اقتضاؤهم للجواب ، وتمكن حديثهم فى معنى التقدم المذكور والاستصحاب ، فرأينا بعد استخارة الله تعالى أن نجمع فى هذا الموضع المبارك من وصله من شيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم ونتذاكر معهم فى ذلك الأمر المؤول ونعارضهم فيه على الجملة والتفصيل ، ونلقى إليهم حديث القوم المذكورين بأتم وجوه الإلقاء والتوصيل فكان ذلك على

ما قصد ، وذكروا فى الأمر ما توخى فيه واعتمد ، وعرفوا بأن ذلك ليس مما بنى عليه ولا مما اعتقد ، فثارت منهم السواكن ، وغلبت على الظواهر والبواطن ، وعوين من أحوالهم لذكر فراق المذكور أغرب ما يعاين ، وتقدمهم الشيخ الأجل أخونا أبو حفص عمر بن يحيى — أعزه الله بتقواه — فقال هذا أمر نحن بتقديمه ، وأعلم بوجوبه ولزومه ، وأولى بتأميره علينا وتحكيمه ، ونحن السابقون إلى مبايعته على حدود الشرع ورسومه ، فهو مختارنا للدين والدنيا ومسؤولنا المأمول للحياطة والرعيا ، وأتبع ذلك من القول فى معناه ما قصد أن يمكنه وأراد أن يوضح به عزمه عليه ويبينه . وقال أكثر الحاضرين من الأشياخ والطلبة والعمال ومن أعلم به من الطلبة والفقهاء . ومن جرت مذاكرته فى مثل هذه الآراء هذا أمر فى ضمائر أكثرنا معقود ، وفى نفوس جمهورنا موجود ، وهو الذى ليس عليه من آمالنا مزيد ، واتفقت الكلمة من جميعهم أن فى ذلك تجديد أمر الإمام المهدى رضى الله عنه — وتقويته وبسط شأنه المعظم وتسويته ، مالا يجوز تأخيره عن ذلك المقام ، ولا يحل الخلو عن التقليد والالتزام ، وأن فيه من إبقاء الأمر فى نصابه وإتيان الحق من أبوابه ، واتباع الدين من أخلائه وأحبابه ، وقطع كل منافق مرتاب عن أسباب نفاقه وارتيابه ، والنظر فيما يجمع كلمة الموحدين ، ويضم شمل المؤمنين بأوائل هذا القصد الصالح وأعقابه ، ما ابتنى عليه اتفاقهم واصفاقهم واسترسل فيه تعيينهم وإطلاقهم ، فاعملوا وفقكم الله بأن ذلك ليس فى نفوسنا عقد سابق ولا نظر لاحق ... وإنما كان هذا القصد إلى ذكر السؤال المتقدم الذكر والكلام فيه على مقتضيات هذا الأمر ، وانقضى مجلس اليوم ، ومجالس بعده فى ذلك الروم ، لا عن إجابة فى ذلك المطلوب ، ولا عزم على وجه من وجوه التأنى والتسبيب ، واجتمع الشيخ الأجل أبو حفص المذكور ، ومن تقدم ذكره من الطلبة والعمال بجميع من هنا من أشياخ الموحدين وأعيانهم ، وقدموا أهل القطر فى أمرهم وذلك شأنهم ، وعرفوهم بما كان من قولهم فيه وبيانهم ، فاجتمع الملأ من آخره ... وأصفق الموحدون وجميع من معهم على تحمل العهد فيه وتقلده وأعربوا عما اعتقدوا به من تقوى الأمر وتأييده ، ورد إلى أصله ومستنده ، وصار الجميع منهم

فى حد من موالاة الاقتضاء ، على أتم وجوه الاختيار والارتضاء لم يتقدم فيه عهد ، ولا كان من مضاء آمالهم فيه بد ، ولما رأينا إتفاق كلمتهم على ربط هذا الأمر وعقده ، وإجماع جمهورهم على ما فيه من نصر الدين وعضده ، استخرنا الله تعالى فى الاتفاق معهم على انفاذه وسألنا لهم السعادة الدائمة فى بيعتهم هذه ، ورجى لهم من الله تعالى إجراء ذلك على ما عودهم من الإصابة فى المقاصد ، والنجح فى طلب المصالح والمراشد وانعقدت البيعة المذكورة باتفاق جميعنا على الشمل والعموم ، وقامت بأمر الله ورسوله فى التفويض والتسليم ، وأتى الأمر فيها على أوفى شروط التكميل والتتميم ، وابتدأها الشيخ الأجل أبو حفص المذكور بيمناه ، قصدا إلى اعتقادها على أكرم وجه وأسناه ، وتتابع الأشياخ والطلبة بعده على درجاتهم ، وسرى النعيم فى أبشارهم ومنحاتهم وباشرها من حضرها من القبائل الموحدية وسائر إخوانهم المؤمنين قبيلا بعد قبيل ، على أتم وجه وأنهج سبيل ، وظهر من تأليف على ذلك وتعاضدها واجتماع النفوس وتواردها .. ما ملك جوانح الكافة غبطة وأوسع أمر الموحدين بفضل الله عليهم مدا وبسطه ، وتم ذلك بعون الله على أوثق مبانيه وأطلق معانيه ، والله يعرفكم أجمعين وسائر إخوانكم من المؤمنين ، بركة هذا الإجتماع والإجماع ، ويوجد لكم ثمرة النعيم به والإمتاع وينهضكم فى فروض الدين بواجب الاقتداء والاتباع بمنه والسلام .

(مجموع رسائل موحدية من ص ٥٥ إلى ص ٦١ ت ليفى بروفنسال)

الرسالة الرابعة عشرة

(بشأن تولية عبد المؤمن أبنائه أقاليم المغرب)

وهى أيضا من إنشاء الكاتب أبى جعفر بن عطية المذكور :

من أمير المؤمنين — أيده الله بنصره وأمده بمعونته — إلى الطلبة والأشياخ والأعيان والكافة بسبته ، وفقهم الله وأدام كرامتهم بتقواه سلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

أما بعد فالحمد لله على تمكين أسباب الاجتماع والانتظام ، وتقريب مدارك الانتفاع بأعطياته ، والصلاة على محمد نبيه المبتعث رحمة للأنام ، وعصمة لأولى التمسك والاعتصام ، وعلى آله وصحبه الكرام ، الجارين فى انتهاز خيراته وإحراز بركاته إلى أبعــد غايات الاغتنام وأقصى نهايات الالتزام ، والرضا عن الإمام المعصوم ، المهدى المعلوم ، قبلة الاهتداء ، وخاتمة الختم النبوى فى الكمال والتمام ، وموضع البشرى على آجر الزمان وعقبى الأيام وهذا كتابنا إليكم — كتب الله لكم من تجدد الأنعام ، وتوفر الحظوظ المسعده والأقسام ، ما ينور بصائركم فى الاعتناء والاهتمام ، ويصحب أوائلكم وأواخركم من الافتتاح وسعادة الأختتام — من رباط الفتح — عمره الله — وفى سبيل الله ما يربط بروابط هذاالأمر العزيز ويعقد ، وعلى طاعته وتقواه ما ينظم لرضاه ويسرد ، ولا مستعان سواه فهو الذى يعين بفضلة ويؤيد .

وقد تقدم إليكم — وصل الله إكرامكم وإلى تعريفكم بالمسار وإعلامكم ما كان من إجماع الموحدين وأصفيائهم على عقد هذه البيعة المجددة والتزام شروطها المذكورة ، وأن ذلك لم يكن له عندنا قصد متقدم ، ولا عهد متوهم ، لكنه أمر أراده الله فأتمه ، واختاره لعباده فشمله بآمالهم وعمه ، ونرجو أن الخيرةالتامة فى انعقاده ، والسعادة العامة فى التزامه واعتقاده ، ولما استوى بفضل الله بنيانة المرصوص ، وثبت على الصدق والثلج حديثه المنصوص وتعين فى سوابقه ولواحقه الصفاء والخلوص ، وكان من هذه العشائر الهلالية والوفود المشرفية إيابها الميمون ، وتأهل لها بتوفيق الله

وتسديده حيزه الموعود ونصره المضمون ، ورأت أن الذى أملته فى معنى الاختصاص بمحمد — وفقه الله — قد تأتى فى درج العموم ، وصار بمجمع الآمال فى قراره البيوت واللزوم ، رغبت رغبة مستأنفة فى استصحاب أحد إخوته — وفقهم الله — على التعيين ، وبينت ما فى ذلك من جمع الكلمة وضم أشتات المصالح المقدمه بأتم وجوه التبيين ،

وأصفقت على أن ذلك يقطع أسباب الاختلاف ويفتح أبواب الائتلاف ، ويعمر جوانب تلك الأرجاء والأكناف ، بأحوال الدعة والسكون واتصل ذلك بشيوخ الموحدين وطلبتهم وعمالهم — وفق الله جميعهم — فتبينوا فيه من وجوه المنافع ومقاصد المصالح والجوامع ما اعتقدوا وجوب سؤاله ، ورأوا قبل الخير فى مبادى استقباله واتفقوا على أن يصحبهم المرغوب فى استصحابه لدفع دواعى الشغوب واجراء الأمر فى تفاصيله وحمله هنالك على هذا القانون المبارك والأسلوب وانبعثت خواطر أهل البلاد كلها إلى التماس مثل هذا المسؤول المرغوب ، وأملوا ترتيب آمالهم للدين والدنيا على هذا الترتيب ، فسأل طلبة تلمسان وأعمالها ومن حضرها وبواديها أن يكون لهم من هذا الأمر المتجرد والشأن المسعد ، حظ يفوزون بنعماه ، ويحوزون منه أزكى قسمة وأنماه ، بأن يستصحبوا من الأخوة المذكورين من يكون إليه استنادهم ويدور عليه اجتماعهم واعتمادهم ، ويتمكن به واستعانتهم واعتضادهم ، ويتم بالاتفاق معه أملهم من رفع الخلاف ومرادهم ، فتلقى ذلك من قبول الموحدين وتبينه ، وتقرره فى نفوس جميعهم وتمكنه ، ما اراهم طلبه فرضا ، وكونه كالبنيان المرصوص يشد بعضا ، وكانت المذاكرة فيه فتبين وجه المصلحه فى تلقيه ، وسبيل السداد فى تيسره وتأتيه ، واشتغل بالنظر فيما يصلح بذلك والاستعداد بما هنا وهنالك ، وكانت بعض أيام مذاكرة من الشيوخ والطلبة والعمال ومن حضر ذلك المغرب الأوسط فى ترتيبه وتهذيبه ، وضمه إلى قوانين النظر السديد وأساليبه ، فرأوا الذى يعقد أمره بمعاقد السداد ، ويبنى بنيانه على قواعد الاتصال والإطراد ، ويقضى له من الاغتباط وما تقدم ذكره بأوفر حظوظ التوفيق والأسعار ، أن يكون فى وسط من الإخوة المذكورين من تسكن إليه قلوبهم ، ويتأتى به مسؤولهم من الإنفاق ومطلوبهم ، ويستريخون بالإجتماع عليه ما كان يغربهم ، من

التنازع والتهالك ، ويغويهم ، وأن يكون أمر غمارة ومااتصل بهم من عمل سبتة وجهايها راجعا إلى العمل المذكور ، مرتبطا به فى سائر الشئون والأمور ، وكان فى ذلك من إعادة القول وتكريره ، وتفصيل المذكر وتفسيره ، ما أظهر سبيله على مظاهر البيان وأبرزمكنون الاستقامة به العيان .

ثم تذكر الطلبة العاملون على سبتة وأعمالها — وفقهم الله — مع اخوانهم فى معنى البحر ومجازه واتساع النظرفى مراسيه وأحوازه ، وكونه رابطا بين العدوتين جامعا إلى إصلاح الجهتين ، عائدا راجعا . وأنه إذا أبقى معه النظار فى أمر غمارة وسائر القبائل إلى سبته وطنجه والجزيرتين ومالقة وأعمال جميعها محتاج إلى من يدور عليه ذلك المحيط ، وتجتمع إليه هذا النظر المؤيد البسيط ويتراح به عن اشغاله المهمة التقصير والتفريط ، وأنه الآن فيما يرام لهذه الغزوة الكبرى ، من إنشاء الأسطول — عمره الله — فى جميع البلاد الصالحة للانشاء ، وغزو أعداء الله براً وبحراً فى كافة الأنحاء أحق والأرجاء أحق بالعناية والاهتبال ، وأسبق إلى التماس الارتباط والاتصال ، وأنه إن كان هنالك من الإخوة المذكورين من يساعد ، ويعاضد فى ذات الله ويعاضد ، ويستدعى ما يجب استدعاؤه فلايكابر فى ذلك ولايجاحد ، اتصلت المواد وانفصلت القواطع الحواد ، وتمكن التصافى من خدمتة المتواد ، وارتبط البحر بالبر ، فكانت المعاملة فيه بين العاملين عليها بما يجب من المساعدة والبر .

وأتت هذه الأمور — وفقكم الله — أمراً بعد أمر ، على غير قصدمنا ولا ذكر ، بل على وجوه يعلم بالضرورة أنها نشأت لأحيانها ، وظهرت دون مقدمة لأعيانها ولما رأينا إتفاق الشيوخ والطلبة والعمال — وفق الله جميعهم — على ترتيب هذه الأمور وإصفاقهم على ما فيه من صلاح الجمهور ، وظهور أنوار المهدى ، — رضى الله عنه — فى مشارق الوضوح والظهور استخرنا الله تعالى فى إنفاذ ما رأوه ورجونا بمشيئة الله التوفيق لهم فى تيسير ما أملوه ونووه ، وتذاكرنا معهم فى أن الذى تكمل به هذه الإرادة ، وترجى بالتعاون عليه البركة ، والسعادة ، أن يكون مع كل واحد من المذكورين ، من ينتهى إليه الاستحسان ويقوم على خيره وفضله الجلاء والبيان ؛فعين لهم من كبار الطلبة والحفاظ وأعيان الفقهاء والقضاه ونخبة الأمناء والثقاة وخيار الأنجاد من الغزاة ؛من يعينهم فى جمع العسكر وتمييز القبائل وتأليف

الكتائب والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى كافة المقاصد والمذاهب وأخذ الناس بالنفقة فى دينهم وتعلم ما يتعين تعلمه باللازم الواجب؛ والعدل بين الأحكام ؛والقضاء بكتاب الله وسنة رسوله ؛وإجماع الأمة وإستخراج ما لله من وجوهه السائغة الطيبه على غاية مستطاعهم من الترتيب والاحكام ؛ ومباشرة الجمهور فى سائر الأمور بما يجرى على مقتضيات الإيمان والإسلام ؛وانتخبت لكل جهة من الجهات المذكورة من قدماء الموحدين وأوليائهم بقدر ما احتيج اليه فاشتركت فى هذا الخير قبائلهم وتقدمت إلى أوائله أوائلهم،واستقبل منه الموحدون كافة ما يواليهم بفضل واستقامت هذه الأحوال بحمد الله على ما أمل من استقامتها؛واعتمد من إظهارها على قواعد الحق وإقامتها .

وأعلمناكم —وفقكم الله — بها على الإجمال لتكونوا لسماع أبنائها والوقوف على جلائها كالمشاهدين لإيعازها وإمضائها ؛والمشاركين فى إستحسانها وإرتضائها؛وليس لنا فى ذلك كله إلا بما يجرى بطاعة الله ورسوله فى تيسير آمال الموحدين وموافقتهم ورغبتهم فيما يشيرون إليه بفضلهم وسابقتهم؛والله يجعلنا وإياكم من شكر آلاءه إسرارا وإعلانا،واستدام بفضله ورعايته يمنا وأمانا واستصحب فى إلتزام طاعته واغتنام مرضاته أعوانا وإخوانا بمنه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وكتب فى الثانى عشر من ربيع الأول سنة إحدى وخمسين وخمسمائة

(مجموع رسائل موحدية من ص ٦١ إلى ص ٦٦ ت ليفى بروفنسال)

كتاب أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين

إلى واليه أبى محمد عبد الله بن فاطمةيين فيها أسس حكمه

وكتب عنه — أى الكاتب أبو القاسم بن الجد — أيده الله ونصره إلى أبى محمد عبد الله بن فاطمة رحمه الله .كتابنا أطال الله فى طاعته عمرك وأعز بتقواه قدرك وشد فى ماتولاه أزرك وعضد بالتوفيق والتسديد أمرك من حضرة مراكش حرسها الله وقد رأينا والله ولى التوفيق والهادى إلى سواء الطريق أن نحدد عهدنا إلى عمالنا عصمهم الله بالتزام أحكام الحق إيثار أسباب الرفق لما نرجوه فى ذلك من الصلاح الشامل والخير العاجل والآجل والله تعالى ييسرنا لما يرضيه من قول وعمل بمنه وأنت أعزك الله ممن يستغنى بإشارة التذكرة ويكتفى بلمحة التبصرة لما تأوى اليه من السياسة والتجربة فاتخذ الحق إمامك ، وملك يده زمامك وأجر عليه فى القوى والضعف أحكامك ، وارفع لدعوة المظلوم حجابك ، ولاتسد فى وجه المضطهد المهضوم بابك ، ووطئ للرعية حاطها الله اكنافك ، وابذل لها إنصافك واستعمل عليها من يرفق بها ويعدل فيها ، واطرح كل من يحيف عليها ويؤذيها ومن سبب عليها من عمالك زيادة أو حزق فى أمرها عادة أو غير رسمها أو بدل حكما أو أخذ لنفسه منها درهما ظلما فاعزله عن عمله وعاقبه فى بدنه والزمه رد ما أخذ متعديا إلى أهله واجعله نكالا لغيره حتى لا يقدم أحد على مثل فعله إن شاء الله وهو تعالى ولى تسديدك والملئ بعصمتك وتأييدك لا إله غيره ولا خير إلا خيره .

(الفتح بن خاقان : قلائد العقيان ص ١١٧)

رسالة الفصول وفيها بعض نصائح الخليفة عبد المؤمن بن على لأهل بجاية .

من الرسالة المعروفة برسالة الفصول : أنشأها الكاتب أبو جعفر بن عطية عن إذن الخليفة عبد المؤمن إلى أهل بجاية يوصيهم بإقامة الحدود وحفظ الشرائع وإظهار الحق بلزوم الواجبات :

وابتدئ بأول مبانى الإسلام ، فآخذ الناس بعلم التوحيد الذى هو أساس الدين ومبناه ، وروحه ومعناه ، والقاعدة التى لا يثبت عمل دون تأصيلها والرابطة التى لا يقبل دين دون تحصيلها ، فلا سبب لمن لم يتمسك بسببه ، وقد بنى وجوب العلم بالفرائض على وجوب العلم به ، وهو إثبات الواحد ونفى ما سواه بتقييدات فى الشريعة لا يكتفى معها إطلاق اللفظ دون تحقيق معناه ، وذلك أن يعلم على وجهة وحده ليكون عن علم لا عن ضده ، وعن يقين لا عن شــك ، وعن إخلاص لا عن شرك وأن يقوله مع العمــل لاينكل . ويؤمر الذين يفهمون اللسان الغربى ويتكلمون به ان يقرؤوا التوحيد بذلك اللسان من أوله إلى آخر القول فى المعجزات ، ويحفظوه ويفهموه ، ويلازموا قراءته ويتعهدوه ،ويؤمر طلبة الحضر ومن فى معناهم بقراءة العقــائد وحفظها وتعاهدها على سبيــل التفهم والتبين والتنبه والتبصر ويلزم العامة ومن فى الديار بقراءة القصيدة التى أولها :اعلم ارشدنا الله واياك وحفظها وتفهمها؛واشمل فى الالزام الرجال والنساء والأحرار والعبيد وكل من توجه عليه التكليف إذ لايصح لهم عمل ولا يقبل منهم قول دون معرفة التوحيد ؛فمن لم يعرف المرسل لم يصدق بالمرسل والرسالة ؛ومن حصل على مثل هذه الحالة؛فقد تعثر فى أذيال الضلاله ؛فإن لم يبادر إلى التخلص منها؛والإنفصال عنها ، وجب عليه حكم الكتاب ولاعنت فى إراقة دمه لامحالة وآخذوا بإقامة الصلاة التى هى الكتاب الموقوف على المؤمنين والحكم المثبوت على كل من آمن بهذا الدين،والناهية عن الفحشاء والمنكر على ماورد فى الكتاب المبين ؛ولاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة ؛ فهو ممحو من ديوان المؤمنين ومن ضيعها فهو لما سواها أضيع من الوظائف والقوانين وتاركها ميت فى عداد الاحياء لخشاشه تقضى عند إنقضاء أمد مهال والإملاء ؛ فخذوا من قبلكم باقامة الصلاة على ماشرعت ؛وأدائها

بسحب مافرضت ؛ وخذوا العوام ومن فى الديار بحفظ أم القرآن وسوره معها ؛ وما تيسر من القرآن لتتم صلاتهم ؛ ويكمل عملهم ؛ ومن أضاع الصلاة وأهملها ولم يبادر إلى أداء مافرض عليه منها فأجله لاحين متاح ؛وقتله بحكم الكتاب والسنة واجب .

وخذوا إيتاء الزكاة ؛ وبالكشف عن ما نعيها وتشخيص ممسكيها أو النزر اليسير منها ؛ فالزكاة حق المال ؛ والجهاد واجب على من منع منها قدر العقال ؛فمن ثبت منعه للزكاة فهو لاحق بمن ثبت تركه للصلاة ؛فمن منع كمن منع الشرع كله .

وآمر بالنظر فى الربوب وتمييزها ؛ والهجوم على بائعها ومدمنى شربها ومستعمليها فيراق مسكرها ؛ويقطع منكرها وليعمد إلى من عمل المسكر الحرام عامداً وشربه مدمناً عليه ومعاهداً ؛ولم ترعه الحدود ؛ولم تقيده القيود ؛ولم يعظه الإعتبار؛ ولم ينفعه الاذكار فيمحى أثره؛ويحذف خبره فالخمر أم الكبائر وجماع الإثم ؛وكاشفة شمس العقل والبلاغة على كل قبيح من الفعل ؛والفاتحة لكل مرتج من أبواب العصيان ؛وهى رجس من اعمال الشيطان .

آمر بالكشف عن التلصص والحرابة ؛ والتولج فى مكان من الريب والغواية والإجتماع على السير الجاهلية من الملاهى على فنونها وانواعها واختلاف آلاتها ومايتبعها من المناكر الناشئة عن أصل الجهالة ؛ والأفعال المنافية للشريعة الصادرة على أهل الذراعة والضلالة من الرجال المفسدين والغواة المضلين ؛ومن النساء المفسدات المتفننات فى طرق الغوايات فاكشفوا عن هذه الأصناف ؛ وأثيروهم عن مكامنهم ونقبوا عليهم فى مظانهم ؛ فمن شهد عليه منهم بشهادة صحيحة سالمة من الهوى والظنة باستصحاب حاله ؛ تماديه على الإحضار فى محل باطلة ومحاله ؛ فبحكم كتاب الله — جل اسمه وتطاع سنة نبيه — صلى الله عليه وسلم — فيه .

وليكشف عن الذين يغرمون الناس ما ليس قبلهم ويأكلون بالباطل أموالهم وعن أهل العناد والتقاعص والإخلاد . والتثبط الذين إذا دعوا إلى

الجهاد ونودوا إلى الصلاح والرشاد ؛صموا عن النداء وتلوموا فى إجابة الدعاء ؛وألقوا المعاذير المعربة عن العناد ؛والناطقة عن الضمائر الممتلئة بسوء الاعتقاد ، وعن القبائل القوية على سير الجاهلية من الهرج فيما بينهم والقتل والفساد والخبل والانقياد إلى سلطان الجهل والخروج عن قانون الحق وضبط الأمر ، وعن أهل النفاق والتدليس الناطقين بما لايعلمون ، القائلين مالايفعلون فإذا تعينوا على التحقيق ،فليمض عليهم حكم الله تعالى الذى أمر به فيهم ،

(مجموع رسائل موحديه ١٣١ — ١٣٤ ، البيذق : أخبار المهدى ص ١٣٩ — ١٤٢)

المرشدة لابن تومرت

وهي خلاصة عقيدة التوحيد عنـــد الموحدين

بسم الله الرحمن الرحيم . اعلم — أرشدنا الله وإياك — أن الله عز وجل وحد في ملكه ، خالق العالم بأسره العلوى والسفلى والعرش والكرسى ، والسموات والأرض وما فيها وما بينهما ، جميع الخلائق مقهورون بقدرته ، لا تتحرك ذرة الإبإذنه ، ليس معه مدبر فى الخلق ، ولا شريك ، حى قيوم لا تأخذه سنة ولا نوم ، عالم الغيب والشهادة ، لا يخفى عليه شئ فى الأرض ، ولا فى السماء ، يعلم ما فى البر والبحر ، وما تسقط من ورقة الإ يعلمها . ولا حبة فى ظلمات الأرض ، ولا يابس إلا فى كتاب مبين . أحاط بكل شئ علما ، وأحصى كل شئ عدد ا ، فعال لما يريد ، قادر على ما يشاء له الملك والغنى ، وله العزة والبقاء ، وله الحمد والثناء ، وله الأسماء الحسنى لا دافع لما قضى ، ولا مانع لما أعطى ، يفعل فى ملكه ما يريد ، ويحكم فى خلقه ما يشاء ، لا يرجو ثواباً ولا يخاف عقاباً ، ليس عليه حق ولا عليه حكم ، فكل نعمة منه فضل ، وكل نقمة منه عدل ، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون . موجود قبل الخلق ، ليس له قبل ولا بعد ولا بعد ولا فوق ولا تحت ولا يمين ولا شمال ولا أمام ولا خلف ولا كل ولا بعض ، ولا يقال متى كان ولا أين كان ولا كيف كان ، كون الأكوان ، ودبر الزمان ، لا يتقيد بالزمان ولا يختص بالمكان ولا يلحقه وهم ، ولا يكفيه عقل ولا ينحصر فى الذهن ولا يتمثل فى النفس ، ولا يتصور فى الوهم ، ولا يتكيف فى العقل لا تلحقه الأوهام والافكار جل عن الشبيه والنظير ، ليس كمثله شئ وهو السميع البصير »

«ابن القنفذ فى مبادئ الدولة الحفصية ص ٢١١ ، ٢١٢

تحقيق محمد الشاذلى النيفر ، عبد المجيد التركى »

المراجـع

أولا : المخطوطات

١) أكنسوس : أبوعبد الله محمد (ت سنة ١٢٩٤ ﻫ)
الجيش العرمرم الخماسى فى دولة أولاد مولانا سيدى على السجلماسى — ميكروفيلم رقم ١٥٨٣ دار الكتب .

٢) التـادلى : أحمد بن أبى القـاسم بن محمد بن سالـم بن عبد العزأيز الشعبى الهروى :
كتاب المعزى فى أخبار مناقب الشيخ سيدى أبى يعزى رقم ١٢٤٩ دار الكتب .

٣) التنسى : عبد الجليل :
الدر والعقيان فى شرف بنى زيان رقم ٨٦٦١ ح دار الكتب

٤) الجيلانى : عبد السلام الغرابلى :
رسالة فى ذكر من أسس مدينة فاس رقم٩٧٣٢ ح دار الكتب

٥) السيوطى : عبد الرحمن بن أبى بكر :
البستان فى أخبار الزمان رقم ٢٠٢٤ تاريخ دار الكتب

٦) الشطيبى : محمد الشطيبى المغربى :
كتاب الجمان فى أخبار الزمان رقم ١٤١٦تاريخ دار الكتب

٧) العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيى بن فضل الله بن مجلى ابن دعجان (ت سنة ٧٤٩ ﻫ)
مسالك الأبصار فى ملوك الأمصار رقم ٥٥٩ دار الكتب

٨) عيـاض : القاضى عياض اليحصبى (٥٤٤ هـ)
ترتيب المدارك وتقريب المسالك رقم ٩٦٧٣ ح
دار الكتب

٩) العينى : بدر الدين أبو محمد محمود بن احمد بن موسى
ابن أحمد بن حسن (ت ٨٥٥ هـ)
عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمن رقم ١٥٨٤
دار الكتب

١٠) النويرى . شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب بن محمد
نهاية الأرب فى فنون الأدب رقم ٥٤٩ دار الكتب

ثانيا : المراجع العربية المطبوعة :

١١) ابن الآبار : أبوعبد الله محمد بن عبد الله بن أبى بكر
القضاعى : (ت ٦٥٨ هـ)
إعتاب الكتاب تحقيق د. صالح الأشتر دمشق
سنة ١٩٦١

١٢) نفس المؤلف : التكملة لكتاب الصلة : تعليق ونشر الفريد
بل وابن أبى شنب — الجزائر سنة ١٩١٩ م

١٣) نفس المؤلف : الحلة السيراء جزءان — تحقيق د. حسين مؤنس
ط ١ سنة ١٩٦٣ لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٤) ابن الأثير : أبو الحسن على (٦٣٠ هـ)
الكامل فى التاريخ — ٩ أجزاء مطبعة الإستقامة

١٥) أحمد أمين : ظهر الإسلام — الجزء الثالث ط ٢ سنة ١٩٥٩
لجنة التأليف والترجمة .

١٦) د . أحمد زكى : تاريخ الدول الإسلامية السودانية بإفريقيا
الغربية سنة ١٩٦١ المؤسسة العربية .

١٧) د. أحمد عيسى : تاريخ البيمارستانات فى الإسلام سنة ١٩٣٩
دمشق

١٨) الإدريسى : محمد بن عبد العزيز الشريف الفاورى الإدريسى (٥٦٤٩هـ) وصف المغرب والاندلس من كتاب نزهة المشتاق فى اختراق الآفاق تحقيق دوزى ودى غوية ليدن سنة١٨٦٦م

١٩) أرسلان : شكيب — الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الاندلسية ط ١ سنة ١٩٣٦فاس .

٢٠) أرشيبالد لويس : القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط — ترجمة د. أحمد عيسى ، النهضة المصرية .

٢١) أشباخ : يوسف — تاريخ الأندلس فى عهد المرابطين والموحدين جـ١ سنة ١٩٤٠، جـ٢سنة ١٩٤١ القاهرة .

٢٢) ابن أصيبعة : موفق الدين أبو العباس أحمد بن القـــاسم (تـسنة ٦٧٧هـ)عيون الأنباء فى طبقات الأطباء تـد.نزار رضا بيروت سنة ١٩٦٥.

٢٣) بابا التنبكتى : أبو العباس سيد أحمد بن أحمد :(١٠٣٦هـ: ١٦٢٧م) نيل الابتهاج بتطريز الديباج ط١سنة ١٣٥١هـمصر .

٢٤) الباجى : محمد الباجى المسعودى : الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية سنة ١٢٨٣هـ تونس.

٢٥) بالنثيا : آنخل جنثالث :تاريخ الفكر الأندلسى — ترجمة د. حسين مؤنس ط١ سنة ١٩٥٥.

٢٦) البراوى : د. راشد : حالة مصر الإقتصادية فى عهد الفاطميين سنة ١٩٤٨م النهضة المصرية .

٢٧) بروفنسال : ليفى : الإسلام فى المغرب والأندلس — ترجمة د. السيد محمود عبد العزيز سالم والأستاذ محمد صلاح سنة ١٩٦٥النهضة .

٢٨) نفس المؤلف : مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية سنة ١٩٤١ رباط الفتح .

٢٩) بروكلمان : كارل : تاريخ الشعوب الإسلامية جـ ٢ ترجمة د. نبية فارس ومنير البعلبكي ط١ سنة ١٩٤٩م.

٣٠) ابن بشكوال : أبو القاسم خلف بن عبد الملك (٥٧٨) : — الصلة فى تاريخ أئمة الأندلس جزءان نشر وتصحيح السيد عزت الحسينى سنة ١٩٥٥م.

٣١) البكرى : أبوعبيد الله بن عبد العزيز :(٤٨٧) المغرب فى ذكر بلاد أفريقية والمغرب تحقيق دى سلان ط٢ باريس سنة ١٩١١ .

٣٢) بنعبد الله : عبد العزيز : الطب والأطباء بالمغرب — الرباط سنة ١٩٦٠ م .

٣٣) نفس المؤلف : تاريخ المغرب جزءان — الدار البيضاء .

٣٤) نفس المؤلف : جغرافية المغرب ط٢ سنة ١٩٥٦ الدار البيضاء

٣٥) نفس المؤلف : المعجم التاريخى — الدار البيضاء .

٣٦) بنعبد الله : عبد العزيز : مظاهر الحضارة المغربية جزءان جـ ١ سنة ٥٧ ؛ جـ ٢ سنة ١٩٦٢ الدار البيضاء .

٣٧) نفس المؤلف : معطيات الحضاره المغربية الجزء الأول سنة ١٩٦٣ ؛ الرباط .

٣٨) نفس المؤلف : وحدة المغرب العربى عدد أول سنة ١٩٥٦ مجلة تطوان المغرب .

٣٩) بوجندار : محمد : تعطير البساط بذكر تراجم قضاة الرباط

٤٠) البوعياشى : أحمد بن عبد السلام : الريف بعد الفتح الإسلامى تطوان سنة ١٩٥٤.

٤١) بوفيل : الممالك الإسلامية فى غرب أفريقيا — ترجمة الدكتور زاهر رياض سنة ١٩٦٨ الإنجلو .

٤٢) بونار : رابح : المغرب العربى : تاريخه وثقافته سنة ١٩٦٨ ؛ الجزائر .

٤٣) البيذق : أبو بكر الصنهاجى (القرن السادس الهجرى) أخبار المهدى بن تومرت وابتداء دولة الموحدين نشر ليفى بروفنسال سنة ١٩٢٨ باريس

٤٤) التادلى : أبو يعقوب يوسف بن يحيى بن عيسى بن عبد الرحمن : التشوف إلى رجال التصوف ؛ نشره وصححه أدولف فور سنة ١٩٥٨ الرباط .

٤٥) التازى : عبد الهادى : احد عشر قرنا فى جامعة القرويين سنة ١٩٦٠ المغرب .

٤٦) تاويت : محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفى : الأدب المغربى ط٢ سنة ١٩٦٩ بيروت .

٤٧) إبن تومرت : المهدى محمد بن عبد الله : (٥٢٤هـ) أعزما يطلب سنة ١٩٠٣ الجزائر .

٤٨) ابن تيمية : الحسبة فى الإسلام سنة ١٩٦٧ دمشق .

٤٩) الجرارى : عبد الله بن العباس : تقدم العرب فى العلوم والصناعات وأستاذ يتهم لأوربا ط ١ سنة ١٩٦١م دار الفكر العربى .

٥٠) الجزنائى : أبوالحسن على : زهرة الآس فى بناء مدينة فاس سنة ١٩٢٢م الجزائر .

٥١) جوليان : شارل اندرية : تاريخ أفريقية : ترجمة عوضى أباظة سنة ١٩٦٨ القاهرة .

٥٢) الجيلانى : عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العام — جزءان ط٢ سنة ١٩٦٥ بيروت .

٥٣) حتى : فيليب خورى : تاريخ العرب المجلد الثانى ط٣سنة ١٩٥٢دار العالم العربى .

٥٤) حركات : إبراهيم : المغرب عبر التاريخ ط١سنة ١٩٦٥ الدار البيضاء .

٥٥) ابن حزم الأندلسى : أبو محمد على : (٤٥٦هـ)جمهرة أنساب العرب تحقيق ليفى بروفنسال — دار المعارف .

٥٦) د.حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ط٢سنة ١٨٥٨النهضة المصرية .

٥٧) د . حسن إبراهيم حسن : تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى والإجتماعى : ج ٤ ط١ سنة ١٩٦٧ .

٥٨) نفس المؤلف : إنتشار الإسلام فى القارة الإفريقية ط٢سنة ٦٤ النهضة .

٥٩) د. حسن أحمد محمود : قيام دولة المرابطين سنة ١٩٥٧النهضة

٦٠) نفس المؤلف : الإسلام والثقافة العربية فى إفريقيا ط٢سنة ٦٣ النهضة

٦١) د. حسن على : دولة الإدراسة بالمغرب — رسالة ماجستير تحت الطبع

٦٢) حقى : إحسان : المغرب العربى — بيروت .

٦٣) حموده : د . على محمد: تاريخ الأندلس السياسى والعمرانى والإجتماعى ط١سنة ١٩٥٧القاهرة

٦٤) ابن حوقل : أبو القاسم : (اواخر القرن الرابع) صورة الارض .

٦٥) الحموى : محمد ياسين : تاريخ الاسطول العربى سنة ١٩٤٥ دمشق .

٦٦) الحميرى : أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (٨٦٦هـ) صفة جزيرة الأندلس — تحقيق ليفى بروفنسال سنة ١٩٣٧ لجنة التأليف والترجمة

٦٧) ابن خاقان : أبو نصر الفتح محمد بن عبد الله القيسى (٥٣٥هـ قلائد العقيان ط١سنة ١٣٢٠هـ مصر .

٦٨) ابن الخطيب : الوزير محمد لسان الدين : (٧٧٦هـ) كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الإحتلام من ملوك الإسلام — القسم الثانى تحقيق ليفى بروفنساسنة ١٩٣٤ رياط الفتح

٦٩) ابن الخطيب : الوزير محمد لسان الدين :(٧٧٦هـ)تاريخ المغرب العربى الوسيط القسم الثالث من كتاب أعمال الأعلام تحقيق د . أحمد مختار العبادى والأستاذ محمد إبراهيم الكتانى — الدار البيضاء سنة ١٩٦٤ .

٧٠) نفس المؤلف : الإحاطة فى أخبار غرناطة : ت محمد عبد الله عنان ،المجلد الأول سنة ١٩٥٥دار المعارف .

٧١) نفس المؤلف : الحلل الموشية فى ذكر الأخبار المراكشية — تصحيح السيد البشير الفورتى ط١تونس سنة ١٣٢٩هـ .

٧٢) نفس المؤلف : رقم الحلل نظم الدول — تونس سنة ١٣١٧هـ.

٧٣) ابن خلدون : أبو زكريا يحيى بن أبى بكر محمد بن محمد (٧٨٠هـ)بغية الرواد فى ذكر الملوك من بنى عبد الواد — الجزء الأول الجزائر سنة١٩٠٣م.

٧٤) بن خلدون : عبد الرحمن بن محمد (٨٠٨هـ) العبر وديوان المبتدأ والخبر ج ٤ ،ج ٦ ،ج ٧ سنة ١٢٨٤هـ القاهرة

٧٥) نفس المؤلف : مقدمة ابن خلدون — بيروت — مطبعة الكشاف

٧٦) إبن خلكان : أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر (تسنة ٦٨١هـ) : وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان — ٦ أجزاء ط١ سنة ١٩٤٨ النهضة المصرية .

٧٧) ابن دحية : أبوالخطاب عمر بن الشيخ الإمام أبى على (٦٢٣هـ) المطرب فى أشعار أهل المغرب ط١ الخرطوم سنة ١٩٥٤.

٧٨) ديماند : م. س. : الفنون الإسلامية — ترجمة أحمد عيسى دار المعارف سنة ١٩٥٤.

٧٩) ابن أبى دينار : محمد بن القاسم الرعينى القيروانى : كتاب المؤنس فى أخبار أفريقيا وتونس ط١ تونس سنة ١٢٨٦هـ

٨٠) ابن رستة : أبو على أحمد بن عمر : الأعلاق النفيسة ليدن سنة ١٨٩١م

٨١) الرفاعى : أنور الرفاعى وآخرون : المغرب العربى جغرافيا ط١ دمشق سنة ١٩٤٩م .

٨٢) روجية لوتورنو : فاس فى عصر بنى مرين — ترجمة د. نقولا زيادة بيروت . سنة ١٩٦٧.

٨٣) الريس : د . محمد ضياء الدين : الخراج والنظم المالية للدولة الإسلامية ط٢ سنة ١٩٦١ الإنجلو المصرية

٨٤) نفس المؤلف : النظريات السياسية الإسلامية ط١ سنة ١٩٥٢ الإنجلو .

٨٥) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الإسلامى ترجمة د . زكى محمد حسن ، د . حسن أحمد محمود .

٨٦) ابن أبى وزرع : أبو الحسن على بن عبد الله (٧٢٦هـ) الأنيس المطرب بروض القرطاس فى أخبار ملوك المغرب

وتاريخ مدينة فاس جزان تحقيق محمد الهاشمى الفيلالى الرباط سنة ١٩٣٦م ونسخة أخرى طبع حجر رقم ١٩٦٨دار الكتب

٨٧) الزركشى : أبو عبدالله محمد بن إبراهيم اللؤلؤى :تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ط١تونس سنة ١٢٨٩هـ

٨٨) الزركلى : خير الدين : الأعلام مصر سنة ١٩٢٧.

٨٩) زكى محمد حسن :فنون الإسلام — ط١سنة ١٩٤٨مالنهضة المصرية

٩٠) ابن زيدان : عبد الرحمن :إتحاف اعلام الناس بجمال حاضرة مكناس —خمسة اجزاء —ط١سنة١٩٢٩ الرباط

٩١) سعد محمد حسن : المهدية فى الإسلام ط١مصر سنة ١٩٥٣م.

٩٢) سعداوى : د. نظير حسان : نظام البريد فى الدولة الإسلامية مصر سنة ١٩٥٣م.

٩٣) ابن سعيد : الأندلسى :المغرب فى حلى المغرب جـ١سنة٥٣، جـ٢ سنة ١٩٥٥ دار المعارف .

٩٤) نفس المؤلف : بسط الأرض فى الطول والعرض ،تحقيق د. خوان قرنيط خينيس سنة ١٩٥٨تطوان.

٩٥) السلاوى : الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد الناصرى: (١٣١٥هـ)الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ،تحقيق جعفر الناصرى ومحمد الناصرى جزءان سنة ٥٤ الدار البيضاء،

٩٦) السلفى : أحمد بن محمد بن أحمد (ت٥٧٦هـ)أخبار وتراجم أندلسية — تحقيق د. إحسان عباس بيروت ط١ سنة ١٩٦٣.

٩٧) د . السيد عبد العزيز سالم :المغرب الكبير :العصر الإسلامى القومية سنة ١٩٦٦.

٩٨) نفس المؤلف : تاريخ مدينة المرية الإسلامية ط١سية١٩٦٩
النبهضة المصرية . ٥

٩٩) نفس المؤلف : ود. أحمد مختار العبادى :تاريخ البحرية
الإسلامية فى المغرب والاندلس — بيروت
سنة ١٩٦٩.

١٠٠) شعيره : د. محمد عبد الهادى :المرابطون تاريخهم
السياسى ط١سنة ١٩٦٩القاهرة .

١٠١) شلبى : د. أحمد : التاريخ الإسلامى والحضارة
الإسلاميةج ٤ط٣ سنة ١٩٦٩النهضة المصرية

١٠٢) نفس المؤلف : السياسة والإقتصاد فى التفكير الإسلامى
سنة ١٩٦٤النهضة .

١٠٣) نفس المؤلف : موسوعة التاريخ الإسلامى والحضا ةالإسلامية
الجزء السادس ط١سنة١٩٧٢النهضة المصرية

١٠٤) الشيزرى : عبد الرحمن بن نصرة: نهاية الرتبة فى طلب
الحسبة نشره الباز العرينى —لجنة التأليف
سنة ١٩٤٦م.

١٠٥) ابن صاحب الصلاة : عبد الملك (نهاية القرن السادس الهجرى
تاريخ المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم
الله أئمة وجعلهم الوارثين —السفر الثانى —
تحقيق عبد الهادى التازى —بيروت ط١سنة ٦٤م

١٠٦) د. صبحى صالح :النظم الإسلامية وتطورها ط٢سنة ١٩٦٨—بيروت

١٠٧) الصفاقسى : محمود بن سعيد مقديش: نزهة الأنظار فى
عجائب التواريخ والأخبار تونس سنة ١٣٢١هـ.

١٠٨) الضبى : أحمد بن يحيى بن أحمد بن عميرة (تـسنة ٥٩٩)
بغية الملتمس — مدريد سنة ١٨٨٤م.

١٠٩) طرخان : د. إبراهيم :امبراطورية غانة الإسلامية سنة ٧٠—
الهيئة العامة للتأليف والنشر .

١١٠) الطرطوشى : أبو بكر محمد بن محمد الوليد (ت سنة ٥٢٠ هـ) سراج الملوك ط ١ سنة ١٣٠٦ هـ.

١١١) العبادى : د . أحمد مختار : دراسات فى تاريخ المغرب والأندلس ط ١ سنة ١٩٦٨ الاسكندرية .

١١٢) عبد الله بن بلقين : ابن باديس بن حبوس بن زيرى : (كان حيا فى القرن الخامس الهجرى)مذكرات الأمير عبد الله آخر ملوك بنى زيرى بغرناطة — نشر وتحقيق ليفى بروفنسال دار المعارف

١١٣) ابن عبدون : محمد بن أحمد التجيبى (من رجال القرن الخامس) : ثلاث رسائل اندلسية فى آداب الحسبة المحتسب ،تحقيق ليفى بروفنسال القاهرة سنة ١٩٥٥.

١١٤) : محمد بن عبد السلام .تاريخ المغرب — الجزء الأول ،ط ٢ سنة ١٩٥٧ تطوان .

١١٥) العدوى : د. إبراهيم :المسلمون والجرمان ط ١ سنة ١٩٦٠

١١٦) بن عذارى : ابن عذارى المراكشى : (كان حيا ٧١٢ هـ(البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ج ٤ تحقيق د. إحسان عباس ،بيروت ط — سنة ١٩٦٧ ونسخة أخرى ج ٤ تحقيق أمبرزيو أويثى ميراندا تطوان سنة ١٩٥٦.

١١٧) علام : د. عبد الله :الدعوة الموحدية بالمغرب بالمغرب ط ١ سنة ١٩٦٤.

١١٨) نفس المؤلف : الدولة الموحدية بالمغرب فى عهد عبد المؤمن دار المعارف سنة ١٩٦٨.

١١٩) على بن يوسف : أبوالحسن على بن يوسف الحكيم :(كان حيا سنة ٧٠٩ هـ) الدوحة المشتبكة فى ضوابط

دار السكة ، تحقيق د. حسين مؤنس — مدريد سنة ١٩٦٠م.

١٢٠) العمرى : شهاب الدين أحمد بن يحيي بن فضل الله [(ت٧٤٩هـ)وصف أفريقية والمغرب والأندلس أواسط القرن الثامن للهجرة نشر حسن حسنى عبد الوهاب . تونس .

١٢١) عنان : محمد عبد الله :عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والأندلس ،القسم الأول والثانى ط١سنة ١٩٦٤القاهرة .

١٢٢) عياض : أبوالفضل عياض بن موسى بن عياض اليحصبى السبتى (تسنة ٥٤٤هـ) الأعلام بحدود قواعد الإسلام —تحقيق محمد بن تاويت الطنجى — الرباط سنة ١٩٦٤م.

١٢٣) ابن غازى : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن على (٩١٩) .الروض الهتون فى أخبار مكناسة الزيتون — طبع حجر مغربى

١٢٤) الغرناطى : محمد بن عبد الرحيم المعروف بابى حامد (٥٦٠) تحفة الألبا ونخبة الإعجاب —تجبرائيل فيراند باريس سنة ١٩٢٥ .

١٢٥) الغزالى : أبو حامد محمد بن محمد (٥٠٥ هـ) احياء علوم الدين ٥ أجزاء المطبعة التجارية .

١٢٦) غنيمة : محمد عبد الرحيم : تاريخ الجامعات الإسلامية الكبرى تطوان سنة ١٩٥٣ .

١٢٧) الفاسى : محمد : التعرف بالمغرب سنة ١٩٦١ لجنة البيان .

١٢٨) فيرون : ريمون : الصحراء الكبرى — ترجمة . جمال الدين الدينا صورى و د . نصرى شكرى القاهرة سنة ١٩٦٣ .

١٢٩) ابن القاضى : احمد بن محمد بن محمد : جذوة الإقتباس فيمن حل من الأعلام مدينة فاس — طبع حجر فاس سنة ١٢٠٩ هـ .

١٣٠) ابن القطان : ابو على الحسين (القرن السابع الهجرى) : نظم الجمان — تحقيق د. محمود على مكى — تطوان ١٩٦٥ .

١٣١) القفطى : جمال الدين ابو الحسن على بن القاضى الأشرف يوسف :أخبار العلماء بأخبار الحكماء ط ١ سنة ١٣٢٦ هـ مصر

١٣٢) القلقشندى : أبو العباس أحمد بن على (٨٢١ هـ) صبح الأعشى جـ ٥ — وزرة الثقافة سنة ١٩٦٣ م .

١٣٣) ابن القنفذ : ابو العباس احمد بن حسين (ت ٨١٠ هـ) الفارسية فى مبادئ الدولة الحفصية ، تحقيق محمد الشاذلى النيفر وعبد المجيد التركى تونس سنة ١٩٦٨ م .

١٣٤) الكتانى : محمد المنتصر : الغزالى والمغرب : بحث ضمن مقالات وأبحاث ألقيت فى مهرجان دمشق سنة ١٩٦١ — المجلس الأعلى .

١٣٥) الكعاك : عثمان : الحضارة العربية فى حوض البحر المتوسط لجنة البيان سنة ١٩٦٥ .

١٣٦) نفس المؤلف : محاضرات فى مراكز الثقافه فى المغرب — معهد الدراسات العربية سنة ١٩٥٨ .

١٣٧) كنــون : عبد الله : مدخل إلى تاريخ المغرب ط ١ سنة ١٩٤٤ تطوان .

١٣٨) كنــون : عبد الله : النبوغ المغربى — ثلاثة أجزاء ط ٢ سنة ١٩٦١ بيروت .

١٣٩) نفس المؤلف : أمراؤنا الشعراء — تطوان .

١٤٠) د . لطفى عبد البديع : الإسلام فى اسبانيا — ط ٢ النهضة المصرية سنة ١٩٦٩ .

١٤١) لقبـــال : موسى : الحسبه المذهبية فى بلاد المغرب — نشأتها وتطورها ط١ سنة ١٩٧١ الجزائر .

١٤٢) لويجى رينالدى : المدنيه العربية فى الغرب — ترجمة طه فوزى

١٤٣) لين بول : طبقات سلاطين الإسلام — ترجمة مكى الطاهر الكعبى سنة ١٩٦٨ م منشورات البصرى .

١٤٤) ليوبولد توريس : الأبنية الأسبانية الإسلامية — ترجمة علية إبراهيم عدد اول سنة ١٩٥٣ مجلة المعهد المصرى — مدريد

١٤٥) مـــاجـــد : د . عبد المنعم — تاريخ الحضارة الإسلامية فى العصور الوسطى — القاهرة سنة ١٩٦٣ .

١٤٦) مـــالك : ابو عبد الله مالك بن انس : موطأ الامام مالك — تحقيق عبد الوهاب عبد اللطيف — القاهرة سنة ١٩٦٧.

١٤٧) الماوردى : أبو الحسن على بن محمد حبيب (ت ٤٥٠هـ) . الأحكام السلطانية ط١ سنة ١٩٦٠ م الحلبى

١٤٨) مانويل جوميث مورينو : الفن الإسلامى فى أسبانيا — ترجمة د. لطفى عبد البديع ود. محمود عبد العزيز سالم — التأليف والترجمة .

١٤٩) مجهول : (كاتب مراكشى من كتاب القرن السادس الهجرى) — الإستبصار فى عجائب الأمصار نشر وتعليق د . سعد زغلول عبد الحميد — الاسكندرية سنة ١٩٥٨ .

١٥٠) مجهول : نخب تاريخية جامعة لأخبار المغرب الأقصى جمعها ونشرها ليفى بروفنسال باريس سنة ١٩٢٣ م .

١٥١) مجهول : تواريخ مدينة فاس — نشر سلفاتور كوسا — بالروم سنة ١٨٧٨ م

١٥٢) مجهول : كتاب الطبيخ فى المغرب والأندلس فى عصر الموحدين تحقيق امبرزيو أويثى ميراندا — مدريد سنة ١٩٦٥.

١٥٣) مجهول : الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية — نشر محمد بن أبى شنب — الجزائر سنة ١٩٢٠ م .

١٥٤) د. محمد بحر عبد المجيد : اليهود فى الأندلس سنة ١٩٧٠— الهيئة المصرية العامة للتاليف والنشر .

١٥٥) المراكشى : عباس بن إبراهيم: الأعلام بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام — ٨ أجزاء —فاس ط١ سنة ١٩٣٦ م .

١٥٦) المراكشى : عبد الواحد : (النصف الأول من القرن السابع الهجرى) المعجب فى تلخيص أخبار المغرب — تحقيق محمد سعيد العريان ومحمد العربى العلمى — القاهرة سنة ١٩٤٩ م

١٥٧) المراكشى : محمد عثمان : الجامعة اليوسفية — الرباط سنة ١٩٣٧ م

١٥٨) المرير : محمد : الأبحاث السامية فى المحاكم الإسلامية — الجزء الثانى — تطوان سنة ١٩٥٢.

١٥٩) ابن مريم : أبو عبد الله محمد بن محمد بن أحمد : البستان فى ذكر الأولياء والعلماء بتلمسان — مراجعة محمد ابن أبى شنب — الجزائر سنة ١٩٠٨ م .

١٦٠) مشرفة : د. عطية : القضاء فى الإسلام — ط٢ سنة ١٩٦٦ شركة الشرق الأوسط .

١٦١) المقدسى : المقدسى المعروف بالبشارى (٣٧٨هـ): أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم ط٢ ليدن سنة ١٩٠٦م.

١٦٢) المقرى : أحمد بن محمد (١٠٤١هـ) : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب — تحقيق محمد محى الدين عبد الحميد عشرة أجزاء مصر سنة ١٩٤٩

١٦٣) ملين : محمد الرشيد : عصر المنصور الموحدى — مطبعة الشمال الإفريقى .

١٦٤) المنونى : محمد : العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين تطوان سنة ١٩٥٠ م.

١٦٥) ابن المؤقت : محمد بن محمد بن عبد الله : السعادة الأبدية فى التعريف بمشاهير الحضرة المراكشية ، جزآن — طبع حجر — مراكش سنة ١٣٣٥هـ.

١٦٦) نفس المؤلف : الإنبساط بتلخيص الإغتباط — مصر سنة ١٣٤٧ هـ .

١٦٧) مؤنس : د. حسين : عقد بيعة بولاية العهد لأبى عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدى ، مجلة كلية الآداب ، مجلد ١٢ ج ٢ سنة ١٩٥٠.

١٦٨) مؤنس : د. حسين : تطور العمارة الإسلامية فى الأندلس جامعة فؤاد الأول سنة ١٩٥١.

١٦٩) نفس المؤلف : فتح العرب للمغرب مصر سنة ١٩٤٧.

١٧٠) نفس المؤلف : نصوص سياسية عن فترة الإنتقال من المرابطين والموحدين عدد ٣ سنة ١٩٥٥ مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية مدريد .

١٧١) الميلى : مبارك محمد : تاريخ الجزائر فى القديم والحديث الجزء الثانى — المطبعة الجزائرية سنة ١٣٥٠ هـ.

١٧٢) النباهى : أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن (٧٧٦هـ) تاريخ قضاة الأندلس – نشر ليفى بروفنسال ط١ دار الكاتب المصرى سنة ١٩٤٨ م .

١٧٣) هويدى : د. يحيى : تاريخ فلسفة الإسلام فى القارة الإفريقية الجزء الأول الشمال الإفريقى سنة سنة ١٩٦٥ النهضة المصرية .

١٧٤) نفس المؤلف : أعز ما يطلب مقالة ،العدد الخامس من المجلد الرابع من تراث الإنسانية سنة ١٩٦٦ التأليف والترجمة .

١٧٥) الوزير : أبو عبد الله محمد بن محمد الأندلسى :الحلل السندسية فى الأخبار التونسية –ط١ تونس سنة ١٢٨٧ هـ

١٧٦) ياقوت الحموى : أبو عبد الله (٦٢٦هـ) . معجم البلدان خمسة أجزاء طهران سنة ١٩٦٥ .

١٧٧) يونس : د. عبد الحميد :الهلالية فى التاريخ والأدب الشعبى :سنة ١٩٦٥ مطبعة القاهرة .

ثالثا — المراجع الاوربية

178 - Budgett Meakin : The Moorish Fmpire London 1899.

179 - Budgett Meakin : The Land of the Moors London 1901.

180 - Ch-André Julien : Histoire de L'Afrique du nord, de la Conquéte Arab^, Paris, 1969.

181 - G A. Jackson : Algiers ; Teing a Complete Pictur of the Barbary States, London 1817.

182 Henri Terrasse : Histoire du Maroc. Faris 1949

183 - James Cavanah Murphy : The History of the Mohometan Empire in Spain, London 1816.

184 - J.D. Fage : An Introduction to the History of West Africa, Cambridge, 1965

185 - J.F.P. Hopkins : Medieval Muslim Covernment of Barbary until the Six Century of the Hijra, London 1958.

186 - J. Spencer Trimingham : A History of Islam in West Africa, London 1963.

187 - Mahmud Delvi : Islam in Afiica, Lahor 1964.

188 - M. Mazherddin Siddiqi : Devlopment of Islamic State and Society West Pakistan, 1965.

189 - Nevill Barbour : A Survey of North West Africa (The Maghrib) London 1952

190 - Nevill Barbour : Morocco, London, 1965.

191 - Pascul de Gayanos : The History of the Mohamedan Dynasties in Spain, Voll.2.

192 - Rafael Altamira : A History of Spain : From the beginnings to the present day U.S.A. 1949.

193 - Réne Millet ; Almohades, Paris 1923.

194 - S.D. Goitein : Studies In Islamic History and Institution, Leieen 1968,

195 - S.P. Scott : History of Moorish Empire in Europe V. 2 Loudou 1904.

196 - Stanley Lane Pool ; The Moors in Spain, London 1912.

197 - Sir Thomas, w. Arnold : The Caliphate, England, 1924.

198 - The Encyclopeadia of Islam, Vol, 1, 1913 Vol. 2, 1927, Holland.

199 - Ercyclopeadia Britannica U.S.A., 1960.

APPROACH TO THE RESEARCH

The topic is about an important Middle ges era of Morocco. It treats the official life, the economic life and the social life during the 5 th and the 6 th Hegira Centuries. I have divided my research into an approach and three parts.

Ths approach .eals with the period extends from the 4 th Hegir entury to the middle of the 5 th heg. Cent. and which proceeded the existence of Almoravides' state in the Near East. The period which is known with its weakness anp disunity. That region wos dividee into several within themselves struggling and competative emirates, which resulted in a general unsettlement, prevailing all the region. That unsettlement which reflected on all sorts of life.

The lst Part hasbeen divided into four chapters: The lst pars treats the political life in the Near Morocco, since the set up of Almorvides' state till the end of the region of Almorvid's "Elnasir Elmohad". I referred to the part played by "Abdollah Ibn Yassin" during the accumulation of the Molathem's tribes in one groups, which rushed to the "Near Morocco" under the leadership of "Youssof Ibn Tashfin" who united the region under one authority. He, also, connected the Andalus to the new state. His son "Ali Ibn Youssof" followed him and complcted the efforts of his father concerning the Andalus. I also refer to the appearance of "Ib,n Toumert on the stage of incidents and his revolution against the son which ended Almorvides' state and the set up of Elmohades' state by leadership of "Abdelmomin", and his collegian "Ibn Toumert". I refer also to the military efforts of "Abdelmomin" and the extesion of the state in his time, to East Africa and North Andalus, and then to the political and militaiy energitics of Almohades' successive rulers till Elnasir Elmohad, who was completely conqueaed in the "Elikabt's battle in Andalus. That

battle was as a start of 'Almohades' state demolition and weakness.

The 2nd chapter is addressed with "The great Authority in the Country" I treat in that chapter, the relation between both Almoravides and Almohades, with Abbasian Caliphate and the reigns of both the families of Youssof Ibn Tashfin and the family of Abdelmomin of the country; then the way of the succession of men to the authority and their reigning titles. I refer to the system of appointing the prospective rulers and the system of choosing the future ruler and the way of preparing him and the system of depriving him and the system of depriving the mischievous of those rulers. I also handle the ministry system and the various ministers and their specializations and then the way of punishing them. After that I shift to the writers and their differences and specializations. Lastly I treat the financial system in Elmohades state.

In the 3rd chapter I treat the official system and the provincial division in the Near Morocco and way of choosing the provincial rulers and the way of preparing them Then I treat the way of choosing and appointing thos rulers and their authorities as provinceial rulers and the way of transferring them and depriving them of their authorities. I also handle the police system

But for the th 4th chapter I call it the "Juttice System". In that chapter I treat the importance of justice in the Near Morocco and the employing of many judges by the rulers. I refer, also, to the judge of the group and the main characteristics, those judges ought to possess and lastly the system of transferring those judges and dismisinig them. Beside the system of Justice, there was the "Complaint Judge". Lastly I handle the

system of taxes in Almohades' state.

The 2nd Part: It's address is the economical life which I have divided it into three chapter :

I treat in the 1st chapter the financial system and which contains of the financiality which contains all sorts of various financial "Dawawins" offices, and what were invinted in Almohades state, of those systems. (After that I treat the financial policy of the rulers and the provincial rulers. I discuss the matter of "Kharag" (a sort of Islamic taxes) appointed by Abdelmomin for the Near Morocco and the other regions of the state. Then come to the manifestation of the financial resources of the state, containing the reference to the monetary system, measuring system and weighing one.

But for the 2 nd chapter, which addressed under "Agriculture and Industry", I rever in it to the flourishing of agriculture. I handle after that the assorted plants and vehetation and thier places of cultivation, such as wheat, cotton, sugar-cane, olive andother sorts of plants, add to that the various kinds of fruits and forests which was scattered in different placesof the country. I also refer to the grasslands and their importance and thefishing economy; which the stats was enjoying. Lastly I come to the economic catastrophes. Then I transmit to "Induıtry" and its progress and the causes of that progress. Then after that I refer to the industrial centres and the most important industries.

The 3rd chapter : which is called the "National and International Trades". In that chapter I refer to the environments of the trade flourishing through out the country; and then come to the local roads and their effects on trade's flourishing. Then I mentioned the most important trading centres and the kinds of goods sold in every centre and the markets' system and the way of dealing in those markets. I hand e after that

the international trade and the means of a communication with the outer world. Then after that I refer to the main resources of the country and the important imported goods. Lastly I handle the different trade relations between the Near Morocco and the near and far countries from her.

The Third Part : its address is the social life. That part is divided into five chapters :

The 1 st chapter is about the elements of society. Those elements were the Barbars who resembled the vast majority of the population. Then after that I write in details about the Sinhaja tribes and their characteristics and the most important tribes that constituted the Almoravides stats. Then I describe Almoravides state on which the Almohades state was built. I refer to the most important tribes that constituted Almohades state. Then I treat the third element who were the Araab; specially Elhilalia tribes. I clear their taken part in Almoravides epoc then the manifestation of their part in the era of Elmohades. In that period several traits of them printed the social life. Lastly, I com to the othsr races that lived besides the Arab and the Barbars. Those races were the Sudanese, the Romans the Khaz. Then I ended the 3rd chapter by referring to the cause of population's decrsasing.

The 2nd chapter, which is addressed under " The Society and its Circles". In that chapter the degree of the reigning circls. I refer to the students' circle and its system and traits. Then after that I transmit to the circle of fokahas olamas, judges and their standard of living. Then I treat the workers and their works and the industrials and their varios works. Then I deal with the woman position in the society, her culture and her authority. Then I ended that chapter with Ahl-El-Zemma and their position during Almoravides and Almohades times.

But for the 3rd chapter; which is titled by the buildings, establishment and palaces. In that chapter I refer to the vast movement of buildings and thç causçs. Then I handle the establishment of some cities, towns and their system and then the building of the houses. Then I refer to the military establishments such as castles fortifications and fences. Lastly I write about the pubic buildings such mosques schoso and others.

But in the 4th chapter, which is addressed under the customs and habits, I write about the family and its relations. Then I transmit to th health and the public health system. Then I handle the assemblies and their varieties. Then I treat the system of celebrations, such as the religous and military celebarations and other ways pf celebrations such as the marching of them and their systems. Then I shift to point at the other ways of entertainments and after that the different kinds of common foods and drinks in the Near Morocco. Lastly, I write about the clothes and their differnces and the habit of "litham" and the garments of the non-Islamic sects which are called the people of Zemma.

But in the 5th and last chapter, I write about the thinking centres. After that I handle the religons life in some details, where I treat the subject of Almoravides' call for belief and the burning of Elghazall and the call for belief to Almohades' thoughts and its development. Then I write about the belief of Elemam Malik in the Moravides state or the Almohades' one, and the practical application of the religion rules. Then I come to Almoravides and their efforts in calling for the Islamic and the mysticists and what had relattions with them as the custom of bless and the cause of that. Then I handle the religious written books and then the life of literature and science and the extension of the Arabic Language

and her spread. Then I treat the Life of literature and its environments and flourishing. Then I come to the culture of the reigning circle and the common. Then I handle af ter that the various cultural materials and their written - about - books. Lastly, I write about the libraires and their spread.

